تنفيذ رقمي: https://twitter.com/alsha2014hid

برنار - هنري ليفي

الحرْبُ دون أن نُحِبَّها

يوميّات كاتب في قلب الربيع الليبيّ

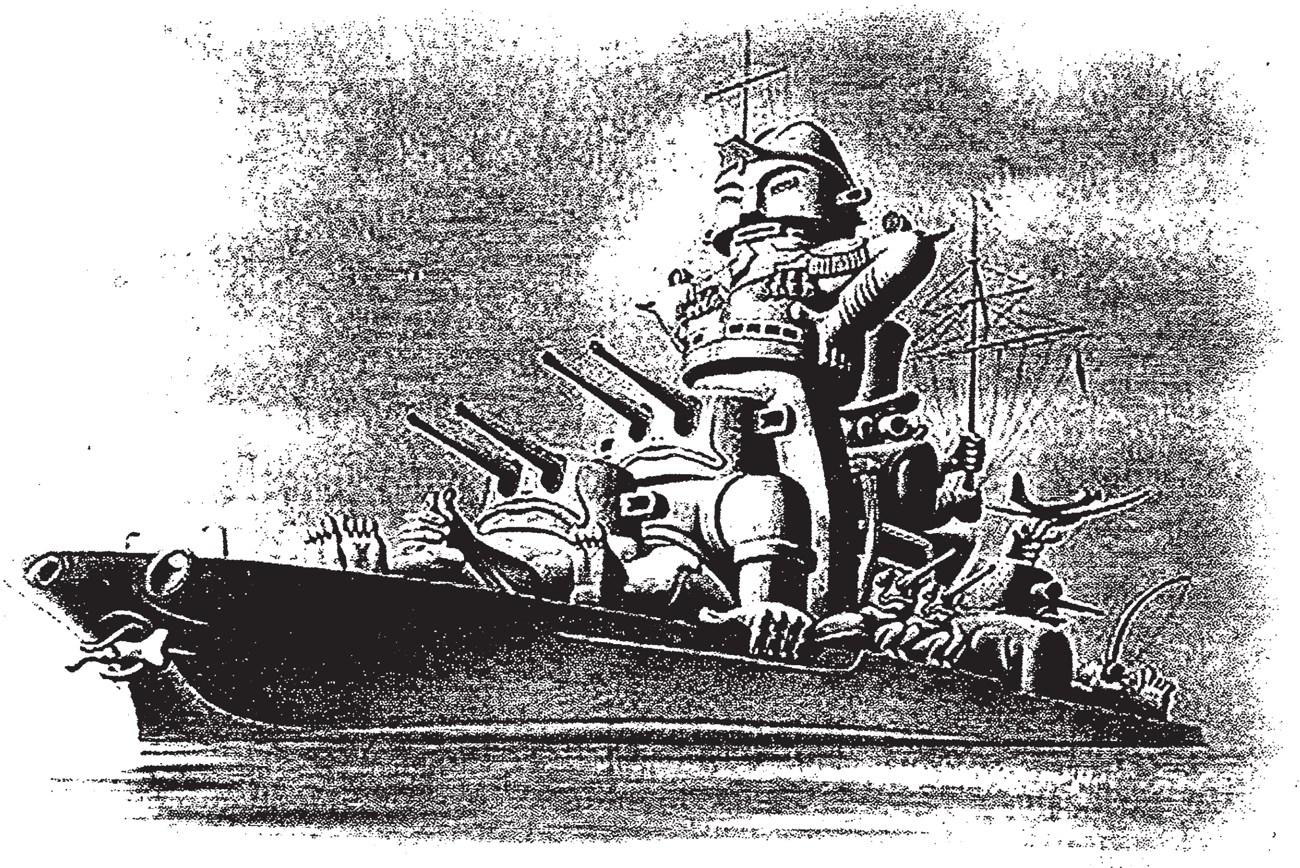

ترجمته عن الفرنسية: د. سمر محمّد سعد

بدايات

هوامش

1- أي كلِمة آندريه مالرو في رواية **أشجار الجوز في آلتنبرغ** التي صدّر بها الكتاب، وهي: «آه! ليكنِ النصرُ حليفَ أولئك الذين ربّما خاضوا الحرب دون أن يُحِبُّوها» (المُترجِمة).

2- Julles Hertzoq ناشر وكاتب وصحفي فرنسي، وهو مدير تحرير مجلّة La Règle du Jeu التي سيرِد ذكرها في النصّ مِراراً (م).

تنفيذ رقمي: https://twitter.com/alsha2014hid

تنفيذ رقمي: https://twitter.com/alsha2014hid

البابُ الأوَّل

الحَرْب

الأربعاء في 23 شباط/فبراير 2011 (مشهد صيد في طرابلس)

من مصلحتنا دائماً أن نُحدِّد بداية الأشياء. كان هذا قبل أمس. كنت مع جيل هرتزوق، في القاهرة، عائدين من إعداد تقرير لِصحيفتي **الليبيراسيون ونيويورك تايمز سانديكات**. كنت قد قضيتُ توّاً خمسة أيام بين الحيرة والأمل، وسط هذا الحدث الهائل، غير المسبوق، الذي هو الثورة المصرية. وعلى شاشة تلفزيون في المطار، رأيتُ فجأةً طيّاراتٍ حربيّة في ليبيا تنقضُّ على فلول المُتظاهرين العُزَّل، وترشّهم بالرصاص. من جانب، كانت الطيّارات تبدو على حدود الغيم، تغوص كما لو أنّها ستتحطّم، وتبصق نيرانها. ومن جانب آخر، وفي الاتّجاه المُعاكِس، كانت الفلول البشرية المذهولة، الراكضة في كلّ اتّجاه، المُتجمِّدة، المُبعثرة، تتجمّع، وتتفرّق من جديد، متابِعة الركض. سقط رجُل ولم ينهض. واختفت مجموعة، لائذةً بإفريز، في سحابةٍ من الرماد والدُّخان. وتطرح امرأةٌ نفسَها أرضاً وهي تلتفّ حول نفسها، شاعرةً بالخجل العارم إذ انحسر ثوبُها، وتتردَّد في النهوض، ثمَّ تنهض مطويّة الجسَد. وتتوقَّف اِمرأة أُخرى ملفوفة بملاءة كبيرة، عن الركض، تُخرِج رأسها من الملاءة، وتنظر نحو الأعلى - تُشاهد الطيّارة؟ كان أحدُهم على الشرفة يُناديها؟ - لكنّها تسقط هي أيضاً ولا تنهض. شُرفة أخرى تحترِق، بدا لي أنّ الناس يقفزون منها. وثمّة سيّارة تنبثق من الأرض وقد تحوّلت إلى دائرةٍ من لهَب. بشر آخرون أيضاً. بشر بائسون، صغارٌ جداً، كأنهم يعرجون. هذه صورة. صورة بالتحديد. لكنّها تُشبه اللحظة التي أعلَمني فيها حميد كرزاي، في مكتبه بكابول، قبل تسع سنوات، بخبر إعلان «دانييل بيرل»، وقرّرتُ، من دون أن أعلم السبب، أن أكشف سرّ هذا الموت، والتعلُّق بقدَمَي هذا الرّجُل. وتُشبه أيضاً لحظة سابقة عندما سمعت، قبل ثلاثين عاماً، في باريس، آندريه مالرو يُطلِق نداءه المؤثِّر لتأسيس كتيبة من المتطوّعين، لإنقاذ بنغلادش من المجزرة - بوجهه الجميل المُختلِج ارتعاشاً، وبيده المرتجِفة المُتشنّجة على حنكه كما لو أنها تريد أن تسنده وتمنعه من الضياع في الديكورات، والشاب الذي كنْتُه، يأتي طالباً على الفور موعداً، وماضياً، وحدَه، بعد عدّة أيام، إلى المغامرة على الحدود بين شِقَّي البنغال. كذلك الأمر، في ذلك اليوم، قبل أمس: حينما رأيتُ صُوَر هذا الجَمْع المذعور، يذهب يميناً وشمالاً بين قصف طيّارات السوخوي، يستولي عليهم الرُّعب والعجز أمام هذا السّرب المتوحّش وغير المسبوق في تاريخ الاضطهاد، مُتصوِّراً في النهاية، لأنّ الصوت كان قد انقطع، عويلَ الناس الذين حرصوا على تغطية فرقعة الرشّاشات، وعلى طرده بصراخهم، قرّرت أن أذهب إلى ليبيا لأرى. إنّه القرار الفاصل.

الخميس في 24 شباط/فبراير (حين تنام الديمقراطيات)

ساركوزي يُدين. وأوروبا تُبدي أسفَها. ويحتجُّ أوباما. وهذه المقالات التي تشرح لنا أن القذّافي بعد كلّ شيء... هل هو سيء إلى هذه الدرجة، القذّافي؟ ألم يُغيِّر التطرُّف، ويتخلّى هذه؟ ألم يكن يُحاول أن يكون تلميذاً مُطيعاً إلى حدٍّ مّا للمُعسكر المعادي للإرهاب؟ أليس هو من الآن وصاعداً عُنصر استقرار المنطقة المُقدَّس، هاجس الدبلوماسيّين؟ ثمّ إنَّ هذا الحديث، أمس مساءً، مع مصرفي إنكليزي يشرح لي أنّه يعرف سيف الإسلام، الابن البِكر للقذّافي، الأكثر وعياً في العائلة، الأكثر عصريّة، وأنّهما تزلّجا معاً على الثلج، ورقصا في علَب الليل في زيرمات، وسيكون على صداقة حميمة مع الروتشيلدات الإنكليز. فهل ستُعلنون الحرب على هذا الرجل؟ كفى! علينا أن نُحطِّم هذه الذبذبات في جعل ليبيا سويسرا أو نمسا الشرق الأوسط؟ تريدون إضعافه؟ هل هو حقاً شخصية يُمكِن أن نعتبرها كصدّام حُسين؟ غريب هذا الإزعاج. كان ينبغي أن أقول هذا الفقدان للذاكرة. وهذه الإرادة في إنقاذ إنسان ما يزال يعتقد حتى الأمس، قبل ثلاث سنوات، حين صرّح في قمّة الاتحاد الأوروبي. وإفريقيا في لشبونة، أنّه يجد «من الطبيعي» أن يلجأ «الضُّعفاء» إلى «الإرهاب».

ما تزال الصورة في عيني. كان هذا يوم السبت السابق لزيارة الدولة التي قام بها إلى باريس، وفُرِش له السجّاد الأحمر، ونصب خيمتَه البدوية في حدائق ماريني، وصُراخ راما ياد، وصمت برنار كوشنر المُزعِج. أرى القذّافي جالساً في قاعة المحاضرات، وجهه مُنتفِخ وجامد، وعلى رأسه عمامة نسائية شكلها غريب، يداه مضمومتان، ليس من أجل الصلاة، بل تعبيراً عن المسافة والازدراء؛ وأرى ساركوزي من جديد، خلفَه، منحنياً من غير أن يلتفت نحوه الآخرُ الأميرُ ويهمِس في أُذنه، لكن بصوتٍ عالٍ يكفي لتلتقط الميكروفونات ما يقول له، شيئاً من مثل: «يُسعدني أن أستقبلكم». هذا كلّه مؤسِف. هذا كلّه مُعيب. إنّه الربيع في ليبيا، وفيما وراء ليبيا، في العالم العربي. ونحن، أعني الأوروبيين، وخصوصاً الفرنسيين، محكوم علينا ألا نفعل شيئاً. أفكر بحديثي الأخير مع ساركوزي، في شهر كانون الثاني/ يناير من عام 2007، تماماً قبل الانتخابات: «أريد تغييرِ كلّ شيء، أُريد أن أثوِّر كلّ شيء؛ تعالَ الحق بي، سنصنع الثورة معاً». كم أحسنتُ بعدَم الإصغاء إليه! لأنّ الثورة هنا. إنها الحدَث الثاني الأعظم، بعد سقوط جدار برلين، في حياة أبناء جيلنا. فهو لا يتحرَّك، ولا يتصرَّف، بل يُجانب الثورة، يا للعار!

الجمعة في 25 شباط/فبراير (فيما يخصُّ الربيع العربي)

ثمة موقفان مُمكِنان من هذه القضية الهائلة المُتمثِّلة بالثورات العربية.

هناك القلِقون، بل لِنقُل المُتشائمون الذين يعرفون أنّ الثورات تفشل، ولا يرون سبباً لاستثناء هذه الثورة: ميدان التحرير، لا خِلاف، المُنتفضون الشباب على صفحات التواصُل الاجتماعي (الفيسبوك)، أكيد، وماذا بعدُ؟ هل تكفي زهرة انترنت واحدة لتصنع ربيعاً ديمقراطياً؟ أليست هذه الصور الأخوية لجنود على دباباتهم مع مُتمرّدين مدنيين شباب تبلُغ من السذاجة ما يجعلُها غيرَ نزيهة؟ أوَ لسنا، نحن الفرنسيين، أفضل وضعاً من أيّ أحد، لنعرف أنّ بعد فوضى اختطاف سُجناء الباستيل حلّ النظام محلَّ الإرهاب الكريه؟

وهناك المتفائلون، أي الثوّار الذين يرون أنّ ليس من حقنا أن نُغلق الباب في وجه شعبٍ حين يبدو أنه يريد التحرُّر، والمُضي صوب نصيب أكبر من الديمقراطية، والانتصار على قدَره، ونطلب منه أن يعود يوم يُقدِّم كلّ ضمانات الفضيلة، وعدَم الانزلاق، والحكمة: طبعاً هناك مخاطر، مخاطر مجهولة بالتأكيد، لكن هل يُمكِن بهذه الذريعة أن نحكم على شعبٍ بأن يرزح تحت نير الاستبداد؟ هل يُمكننا، بسبب أنّه قد يمرّ بخانة الإرهاب، أن نُجمِّده في نظامه القديم؟ ألا تقلِب الثورة الفرنسية هذا البرهان تماماً بحُكم أن ما بعد الإرهاب جاءت الثورة على روبسبيير (الترميدور)، وبعد ثلاثين، أربعين، مائة سنة جاء الباقي كلُّه؟ أو لَم نكن نحن، ديمقراطيي كلّ بلد، ضدّ هذا الشكل المُنحرف من النسبية الذي يحتكر الديمقراطية لبعض الناس (الغربيين)، ويمنعها عن آخرين (شعوب الجنوب)، ليعني أنّ استثناء عربياً سيحكم على هذه المنطقة من العالَم بالاستبداد.

أترجّح بين الاثنين.

ذات يوم، استبدّ بي قلق شديد؛ إذ لاحقتني صورة رئيس حزب الوفد المصري، الليبرالي الكامل من حيث المبدأ، والحديث، والمواطن العالمي، الخ، وهو يشرح لي في نهاية رحلتي إلى مصر، خلال حفل عشاء عند سفير فرنسا «فيليكس باغانون»، أنّ إسرائيل جُرحٌ في خاصرة كلّ مصريّ. فقلتُ له «وليبيا، والمعاناة الليبية التي نرى الآن، ونحن نتعشّى على هذه الطاولة، أوّل أصدائها الرهيبة. أليست ليبيا جُرحاً مفتوحاً؟». فردّ قائلاً: «لا، أبداً» بينما لم يتوقف هاتفه المحمول الموضوع على الطاولة، بجانب صحنِه، عن الاهتزاز، فقطع حديثه لكي يُجيب، مُتذمِّراً، ويُرتِّب أشياءه الصغيرة. ولمّا بدا أنّ المكالمة تُضايقه، ضرب بإصبعه على زرّ

التوقُّف كما نضرب حيواناً أليفاً لتأديبه! لا، أبداً! ليس أمر ليبيا مُتشابهاً أبداً. ليست ليبيا جُرحاً مصرياً لأنّها قضية الليبيين وحدَهم؛ ولا تخصُّكم أنتم الغربيين، لأنّ هذا ملفّ عربي عربي، على العرب أنّ يحلّوه بصرامة فيما بينهم. ولن تذهب طبعاً إلى حدّ المقارنة بين مجزرة يرتكبها عربي ضدّ عرب آخرين بمجزرة يرتكبها مجرم بامتياز، المجرم الأمثل، مادّةً وجوهراً، الذي هو إسرائيل؟

في الغد، بل في اليوم نفسه، في لحظة أخرى من النهار، وقد تذكّرتُ أن المتظاهرين في ميدان التحرير أحرقوا علَماً إسرائيلياً، وحقَّروا رمزاً أمريكياً، فجأةً قلتُ في نفسي، وأنا أكثر اطمئناناً، وخجِلاً من ردّة فعلي السابقة، من خوفي غير المُشرِّف: لعلَّ بعض هؤلاء الشباب يشفى، في النهاية، من الوساوس المشؤومة التي تسكن الأجيال السابقة. من المُمكن أن يتعايش فيها السيئ والحسَن، أو الأقلّ سوءاً، ومن دون العودة إلى لحظات الثورة الفرنسية، لا داعي لأن يتِمّ ربيع الشعوب بالسوء نفسه الذي تمّ به منذ عشرين عاماً لشعوب أوروبا الوسطى والشرقية ـ الصَّعْب، والمُضطرب، الذي كنَستْه رياح سيّئة، لكنّها ولّدتْ في النهاية مجتمعات ليست مُرفّهة بالتأكيد، لكنّها طبيعية، وعلى الرغم من أنه كان لها، مثلنا، حسابها مع الفاشية القميئة، ومع معاداة الساميّة، لم تعتقد أنها مُجبَرة على تتويجها.

ها أنا. حائرٌ ولكنني أتدرَّب على الاحتفاظ ببرودة أعصابي. قلِق، ولكنني واثِق. أُفكر في النتائج، فأزِنها وأُعيد وزنَها، مُحاولاً ألاّ أستسلِم أبداً لهذا المُنحدَر من التشاؤم الموجود في داخلي، الذي يجعل الحُكمَ قاتماً. أشكّ وأحتفِظ بإيماني. أبقى واضحاً من غير أن أشتُمَ المستقبل. لا أنخدِع بشيء، وخصوصاً أنَّ ليس لديّ أوهام خيالية ـ لكنّني لا أحتجِب أبداً في وضعية أمكر الماكرين، الذي يرى قبل الناس جميعاً، قُدوم الغد الحتميّ الذي سيجعله يُقلِع عن غروره. يُقال في لُغة الفلسفة: الاشتغال على الروح، ليس جديّاً، ولكنه مُتعاقِب.

السبت في 26 شباط/فبراير (كيف دخل القذّافي في حياتي)

حدث هذا في الحال. بصورة طبيعية. حصل بطريقة غير واضحة، ثُمّ بطريقة أوضح، ثمّ بطريقة صارمة جداً. في البداية قيلت جُملة فضفاضة، مُلتبِسة، اتخذت بالتدريج شكلاً، كلِمة كلِمة، وتقريباً تماماً تماماً، كحبْر خفيٍّ في شُعلة ذاكرة مُبهَمة: «لم ننتظِر برنار ـ هنري ليفي لنختلِق **عهدَ الله**». ثُم هو ذا وجه مُتيقّظ، ورائع، خصلة شَعرٍ صهباء، وقُبّعة ذهبية من فترة ما قبل المرض، قُبّعة صديقي

«بول جيلبير» الذي كلّفه «فيليب تيسون» برئاسة تحرير جريدة أسبوعية منسيّة اليوم، وما عُدتُ أنا نفسي أُفكر فيها، منذ عدة سنوات، اسمها **الأخبار الأدبية**. ثمّة إذاً تاريخ هو عام 1979: لم أرَها في ذلك التاريخ، فاختزلتها، أجل اختزلتُها، في حال نصف نائمة، دائماً في حال الأحلام اليقِظة حيث يبدو لي أنها كانت تستوقفني طويلاً، وسأعيد تكوينها لأنّ هذه السنة، سنة 1979، شهدت صدور كتابي **عهد الله**. ثُمّ إنّ الأغرب، الشبيه بنوع من الرّعد في الضباب الذي يُغلّفني - أنا دوماً نصف نائم لكنّ هذا الدالّ ينهال عليَّ بحرفيّته: اسم علَم آخر، هو اسم مؤلِّف الجملة، أراه بأمّ عيني هذه المرّة بحروفٍ عريضة، ينبثق في أعلى واحدةٍ من هذه الصفحات التي كانت سمَة **الأخبار الأدبية**. صَعُب عليَّ تصديق ذلك، غير أني أراه، أقول لنفسي: هذا مستحيل، إنّها مزحة، شيطان طَبْعُه خبيث يُرسل لي هذا الحلُم ذي القرنين، وأقول لنفسي أيضاً هذا نمط الذكرى الزائفة، أو نمَط الذكرى الشاشة الذي يتكوّن مع الزمن أو ينبثق لسبب لا يعلمه إلا الله، وإن لم يكن الله، فعلى الأقلّ اللاوعي، غير أنّ هذا يؤدّي إلى النتيجة نفسها، ولا أعتقد بها أكثر، ولكنّ الأمر هو هذا مع ذلك؛ فالوضوح حاضر هنا، ليس وضوح اسمه فقط، بل وجهه أيضاً، وبالتالي فمؤلِّف هذه الجملة غير المُحتمَل، والذي انزلق اسمه من أبواب ذاكرتي المفتوحة، وملامحه التي فرضت نفسها عليَّ وأنا في يقظتي نصف واعٍ، إنّه... القذّافي، العقيد القذّافي، الذي سيعرف، في طرابلس، خلال مُقابلة في خيمته، لماذا اعتقد أنَّ من المُستحسَن أن يقول، من خلال أوّل أسبوعية ثقافية فرنسية في تلك الفترة، إنّه لم ينتظر برنار - هنري ليفي كي... الخ. لكنْ كيف؟ وفي أيِّ سياقٍ حصل هذا؟

لاحقتني هذه الذكرى طيلة اليوم. إذ لم تتوقّف الجملة عن التجوال في رأسي. حتى ذهبتُ إلى المكتبة الوطنية ساعياً، بهدف إراحة بالي، إلى العثور على مجموعة هذه الجريدة الرائعة المختفيَة. وهنا كانت المُعجزة! فها أنا أعثر على الجملة! أنا لا أحلم بذلك، بل أعثر عليها! كانت فعلاً في جريدة **الأخبار الأدبية**. لم يكن مُديرها «بول جيلبير» كما كنتُ أعتقد، بل «جان - فرانسوا كان». أعثر على الجملة في عدد 29 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1979، داخل ملفٍّ بعنوان «انتفاضة الإسلام الكبرى» كناية عن الثورة الإسلامية في طهران. يبدأ هذا الملفّ بافتتاحية «كان» الحذِرة، التي تتجنَّب أن تُدين العملية الجارية في إيران، تتبعها مقالة لـ «مكسيم رودانسون»، وأُخرى لـ«بول بلطة» عنوانها «الخُميني والأخلاق»؛ ثُمّ «ملحمة إسلامية» يحكيها واحد اسمه «روجيه غارودي» حيث كان ما يزال يُعاشَر؛ ثمّ نصّ لـ«هنري كوربان» يتلوه تكريم المثقّف الإيراني الكبير «درويش شيغان» لكوربان؛ ثمّ تقرير صحفي من

إعداد «جيل آنكوتيل» عنوانه «يا إيران اكتشفتُ شعباً تؤلمه ذاكرتُه». وهنا، وأنا محصور بين هذه النصوص، في جوار مجموع نصوص عن «ميشليه»، مع بحثٍ لـ«جان ـ لوي ايزين» و«جيروم غارسان» حول «هل الجوائز الأدبية مُزيّفة؟» مع مقالة لأرسان نفسه عن جائزة ميديشي لعام 1979 الممنوحة لكلود دوران، أقع على الشيء الذي أبحث عنه: ثمة على الصفحة اليُمنى، في أعلاها، بتوقيع شخص اسمه «جان مارابيني»، ورقة بعنوان «في ليبيا القذّافي، رحلةٌ في جماهيرية شعبية إسلامية» ومُخصَّصة لمن كان آنذاك القائد الشاب للثورة الليبية. ليس هذا حواراً معه، بل هو تقريرٌ عنه. وثمّة، في أثناء التقرير، شواهد بين هلالين منها شاهدٌ ـ وهنا تحديداً، وتقريباً بالكلمة، أتذكّر منه: «لم ننتظر برنار ـ هنري ليفي لنبتدِع الديانة التوحيدية»...

ما الذي أمكن أن يحدث في ذلك اليوم؟ ما المُصادفات والتأثيرات التي تلاقت ومكّنت اسمي من أن يدخل في دماغ هذا الرَّجُل، وينبثِق منه بهذه الطريقة؟ عَلِمتُ من بحثٍ بسيط أنّ مارابيني مؤلِّف سلسلة من كتُب **التاريخ** التي نفدَت جميعها، باستثناء كتابَي **يوميّات في روسيا في عهد ثورة أكتوبر**، **ويوميات في برلين في عهد هتلر**. لا أجد في أي مكان سيرته الذاتية، غير أني، وقد تأكّدتُ من أنّ **اليوميات في روسيا** صدرت سنة 1965، قلت لنفسي رُبّما مات، وإلا فقد اختفى نهائياً. وفرانسوا كان، الذي أُكالِمه، لم يترك من ذكرى («أرى بغموض...بغموضٍ شديد...شديد جداً...كنت أستخدِم كتّاباً مأجورين على الصفحة...حتى لقد كان لدينا يساري مُتطرِّف نستعين به عند الحاجة...احزِر من هو؟ دونيس كيسلر...الباترون دونيس كيسلر، مُعاون البارون سيليير حين كان هذا يُدير **هيئة أرباب العمل** في فرنسا...» وانطلق من قهقهاتٍ مُفاجئة، صمّاء قليلاً، لأنه وهو يعطي دوماً الشعور بأنه لا يتوجّه إلا إليه، يُضيف قبل أن يُغلِق الخط، وبصورة مُفاجئة أيضاً، ومن دون أن يقول إلى اللقاء، مثلما فعل دوماً: «إذا عرفتُ شيئاً جديداً عن هذا المارابيني، سأخبِرك»)

نتحدّث عن سنة 1979 حيث لم يكن هناك انترنت ولا فاكس. ولا سبب منطقياً أن يقع كتابي عن الإنجيل، أو اليهودية، أو الديانة التوحيدية بين يدَيّ القائد البدَوي، ولا أن يخطر في بالِه. ومع ذلك، هذا ما حصل. قبل اثنين وثلاثين عاماً من أن يُصبح مجنوناً خطيراً يُرسل الطيارات الحربية ضدّ شعبِه الأعزل، قبل اثنين وثلاثين عاماً من أن يصير العدو رقم 1 لكلّ ما تعدُّه البشرية من ديمقراطيين، اثنين وثلاثين عاماً قبل أن يظهر لي، عرَضيّاً، أنّه تجسيد لما

قضيتُ حياتي في إدانته ومُحاربته، العقيد القذّافي هو هذا القارئ الذي لا يراه وعيُ الشخص الذي هو أنا، إذ لن يتركني أقول إنّني علّمتُه معنى الديانة التوحيدية.

الحقّ أنّ هذه الفكرة، بعد أن انقضى الذهول الأوّل، أشعرتني بالامتعاض على نحوٍ غريب. فقد كان يملك موهبة أن يُثير غضبي، بدَل أن أتسلّى، بدل أن أبدو واحداً من ملامح المزاج التي يُشكّل اللاوعي أفضل مؤلِّفٍ لها، بعيداً عن أجعل نفسي أنبهر بالدُّرَر التي تُحرِّرها الذاكرات البعيدة، حين نُلِحُّ عليها قليلاً. كأنني أكتشف بيني وبين هذا الرَّجُل نزاعاً غامضاً وقديماً. أو أنني، وهذا هو الأدهى، كنت أتنبّه لتواطؤ لا يُشرَح، غير إرادي، استغنيتُ عنه تماماً. قرّرتُ في النهاية أن أرى في هذا الانبثاق تحذيراً بعيداً يكفُّ عن الاستيلاء عليّ.

الاثنين 28 شباط/فبراير (غداً في بنغازي)

أنا مُسافر غداً إلى ليبيا. أتى القرار فورياً، هذا الصباح. رُبّما ترك فيَّ تقريري عن مصر ذكرى من عدَم الإنجاز. كلّ هذه المقالات، في كل مكانٍ تقريباً، التي تُركِّز على «امتعاض» المُثقّفين الفرنسيين من الربيع العربي، والتي تُزعجني. هذا الصديق القديم، المرتبط بالأجهزة الأمنية، يقول لي إن دخول ليبيا سيكون بالِغ الصعوبة لإنسانٍ مثلي، فليبيا غابة لم يعُد أحدٌ يُسيطر فيها على شيء، وهذا يُثيرني. في الغد، في اطّراد إصراري مع مرور الأيام، وكنّا نشهد حدثاً تكوينياً، موجتُه طويلة وبعيدة المدى، وهذا الشيطان الذي أعرفه جيداً، ليس شيطان المُطلَق، بل شيطان النسبيّ، أي شيطان الحدَث، الذي جعلني كأنني أجري وراء كأس مُقدّسة علمانية. أو صورة الفلول المرميّة بالرصاص من الجوّ، التي لا تُفارقني، وأنا أؤكّد أول إحصاءات القتلى وبعض تقارير المُراسلين النادرة، كتقارير القناة الثانية في التلفزيون الفرنسي، التي استطاعت دخول ليبيا: 640 قتيلاً بحسب الفيدرالية الدولية لجمعيات حقوق الإنسان، و2000 في بنغازي وحدَها، بحسب إحصاءات أُخرى، حيث يقول طبيب فرنسي عاد من هناك أمسِ مساءً: إنّها مذبحة؛ وصولاً إلى سيف الإسلام، ابن القذّافي الذي يُقلِّل من فداحة المذبحة، مع أنّه يتحدّث عن «مئات» الجُثَث. تحدّثت بالهاتف مع «ألكسي ديكلو»، أخي الصغير المُصوِّر، الذي ضمن لي التقارير دائماً (آخر أخبار الطفولة...الأنتيب...ذكريات نساء جميلات، أُمهّاتنا، على شواطئ مُشْمِسة...أجسادهنّ المُلتهِبة...ضحكاتهنّ المُنعِشة...)، لكنّه محجوز على الحدود الليبية، وللأسف، ليس من الجانب الآمن، بل من الجانب التونسي الذي لا يُعبَر. ثُم «مارك روسيل»، الذي لا أعرفه جيداً، لكنّي أُحِبّ

عمله، وذهبتُ معه إلى أفغانستان، بعد موت اللواء مسعود، في المهمّة التي كلّفني بها شيراك وجوسبان. كان روسيل حُرّاً. ثُمّ جيل طبعاً، إذ كيف سأقوم برحلةٍ كهذه من دون جيل؟ أمّا «فرانك فافري» فهو الذي سوف يضمن حمايتنا. بينما سيضع صديقي فابريس آلكو، خطة رحلة جويّة إلى مرسى مطروح، بين الإسكندرية والحدود. وهكذا سنوفّر الوقت. أخذتُ جريدة **نيويورك تايمز سانديكات**، وجريدة **الأحد**. وصُحُفي المعتادة (**المُراسلة** الإيطالية، و**البائيس** في مدريد، و**الاكسبرس** و**الأفتن بوستن** الاسكندينافية). أُقرِّر السفر غداً. لا أعرف شيئاً عن هذا البلَد. أجهلُ كلّ ما سوف أجِدُ فيه. حتى إنني لا أملك الوقت لأجمع عنه ملفّاً. لكنّ قراري قد حُسِم.

الثلاثاء 1 آذار/مارس (سيارة أجرة إلى لا مكان)

مرسى مطروح. ثُمّ سالوم. كان الليل قد هبط. هذا المكان الذي لابُدّ أنّه كان قديماً نقطةً حدودية عادية، مُنظَّمة، وقليلة الارتياد، غدا أرضاً واسعة خالية حيث يتكدّس اللاجئون الهاربون من ليبيا، مُحاولين العبور إلى مصر. اقتُحِمَت الأبنية الإدارية وحُوِّلت إلى مهاجِع. وصارت قاعة المرور حيث تُفحَص الأمتعة إلى مستشفى مؤقّت. لم تعُد الطريق موجودة إذ تحوّلت إلى معسكر برّي تحرس مدخلَه دبّابتان مصريّتان ضخمتان، وقد صُوِّبت فُوهات مدفعَيهما باتجاه اللاجئين. كما اختفت الجوانب حيث تستلقي على مدّ النظر مخلوقاتٌ كالأشباح، تفترِش حتى الحجارة أو الأغطية النتِنة. ثمّة جرحى، ومرضى، وبشر يعانون من الزُّحار. ولا بُدَّ أن تكون النقطة الحدودية الليبية، من الجانب الآخر، قد دُمِّرت لأننا لا نرى، من هنا حيث نوجد، وحيث يُقلقلنا الجمع، ويُضايقنا التّعثُّر بالأجساد المستلقية، ونُحاصَر، إلا هياكل بناية يبدو أنّها قُصِفت، وحول البناية، وفي ما وراءها، على مدّ النظر، بمئات الأمتار، كتلة داكنة، بل سبخة من الأجساد، شبيهة بتلك الموجودة على هذا الجانب، تستلقي بدورها بعيداً في الصحراء المحيطة.

يقِف هناك جانباً مُرتزقة القذّافي، ومعظمهم من السود الذين هربوا من المعارك الأولى، ويُراقبهم الجنود المصريون عن قُرب. ثمة عمّال سُودٌ أيضاً مرعوبون من اعتبارهم من المرتزقة. ثمّة نساء. وأطفال. وأناس يائسون، وآخرون يعتقدون بأنهم سيعبرون. بينما آخرون لم يعودوا قادرين على العبور لأنهم مُرهَقون، أو نصف مجانين كذاك الرجل الذي يُغطي وجهه بيديه ويدور حول نفسه صارخاً بأنّه هنا منذ ثمانية أيام، وأنّ المصريين

يُوقفون كلّ شيء، ولا يُريدون أجانب في بلادهم، هذا أمرٌ رهيب. أو كالرجل الآخر الذي يلبس سترة منامته فوق سروال جنز، على صدره نيشان، ويصرخ باللغة العربية: «لجأت إلى الاحتيال، وما استفدتُ شيئاً. فهم لا يأخذون أحداً أبداً!». وكان هناك آخرون لم يستسلموا نهائياً، بل يتشبّثون جميعاً بهدفٍ واحد: العبور، العبور بأيّ ثمَن، الخروج من ليبيا، والدخول إلى مصر، الأرض الموعودة الجديدة ـ كتلك المجموعة المُحيطة بنا، وتكاد توقِف سَيرنا، مع «ناطقٍ باسمها» يتحدّث بإنكليزية صحيحة، لاحظت تحت دَرَنِ يديه اللتين يُحرّكهما أمام وجهه، شيئاً هادئاً لطيفاً ينِمّ عن أنه مُثقّف، وقد يكون مُعلِّماً: «نَحن هنا منذ ثمانية أيّام، ثمانية أيام ونحن نُحاول أن نتخطّى الحواجز بالقوّة، وهاهي مجموعة أخرى، أتت من مدينتنا نفسها، وعبَرت قبلنا، فهل تعتقدون أنهم سيحصلون على وثيقة إعفاء؟».

ثمّة هذه المرأة، خارت قُواها، تعلّقت بطرف سروالي، وانخلع حذائي حين لم تُفلِح في الإمساك به. وهاهي امرأة أخرى مُستلقيَة عيناها مُغمضتان، وقد تشكلت حولها دائرة من النساء على الرغم من الجمهرة، وفي الجمهرة، ويبدو أنهنّ يحرسْنَها، إذ منعْن روسيل من تصويرها، وطلبن منّا دواءً ـ كان أنفها مقروضاً، وقد لا يكون هذا إلا وحلاً جافّاً علِق به، أو رُبّما هي مريضة، وفي حال من الاحتضار، ويستحيل التأكّد من ذلك لأنّ الحشد دفعَنا من جديد، والتقطنا، وابتلعنا، وألقى بنا بعيداً. كان ثمّة من يُريدون التحدّث إلينا، وَمن ينظرون إلينا ونحن نمرّ. ومَن يطلبون منّا مالاً، ومَن يسألوننا من أين أتينا، وإلى أين نذهب، وكيف يُمكِن أن يرغب بشرٌ في دخول هذا البلد الذي يهربون هم منه ـ وثمّة أولئك الذين فضّلوا التزام الصّمت واجدين فينا موظّفين رسميين، أو مرتزقة من نمَط آخر، أو جواسيس. إنها جمهرة. لكنْ من دون ضجيج. من دون ضوضاء. كأنّ مُديراً غير مرئي لهذه الجموع خفّض الصوت، وكأنّ الإنهاك، والسأم، جعل الناس يُخفِّضون درجات أصواتهم حقاً. وعلي التصريح بأنّ لحظة جمال حلَّت هناك حقّاً: حين يأتي وقت الصلاة، أغلب هؤلاء الناس المرضى، كما الأصِحّاء، المُقمّلون ولا يزالون يقظين، يغتسِلون، ويُحرِّكون سجاجيدهم وأغطيتهم البائسة قليلاً، ويتوجّهون صوب مكّة ويشرعون في الصلاة.

استغرقنا ساعةً لِنعرِف أين نحن، في جوارِ بئر مرحاض قذِر مُكوّن من خندق طويل مُقسّم إلى كوى تفصلها صفائح مُرتفعة، وفي مدخلها كتب على لوحة باللغة العربيّة «تقدِمة

الصليب الأخضر»، المكتب في الهواء الطلق حيث المُسافرون القادمون من مصر جاهزون لإعطاء جوازات سفرهم لضابط الجمارك الذي يبدو مُخدَّراً. وقضينا ساعة أخرى ليأتي عسكري، صاحٍ قليلاً، يُوافق على أن يدلُّنا على كوّة جديدة أبعد مائة متراً حيث افترضنا أن نجِد جوازاتنا مختومة. لكنّ هذه الكوّة كانت مُقفلة بستار حديدي صغير، ينفتح من حين إلى آخر لتظهر منه يدٌ مجهولة تأخذ حُزمة أوراق السفر التي يُناولها إياه رئيس المجموعة، وتُعيد حُزمةً أُخرى تُلقيها باتجاه جمهور الليبيين، ثُمّ تُقفَل الكوّة من جديد، فيلتقط الليبيون الأوراق المُلقاة على الأرض، التي وُضِعت في داخلها، في كلّ مرّة تقريباً، استمارة كتِب عليها باللغة العربية «وثيقة غير صالحة»، وتُقفَل الحلقة من جديد، ويبدأ التزاحُم ثانيةً، بانتظار انفتاح الكوّة القادِم.

هنا، انتظرنا ساعةً أُخرى، وحين أُعيد فتح الكوّة دُفعنا، واعتُصِرنا، وأُبعِدنا بعنف، والرجال، في الوقت الباقي، اعتادوا على حضورنا، ولم يخافوا من أن يطرحوا علينا أسئلة. تُفتَح الكوّة ثلاث مرّات، وتظهر اليد ثلاث مرّات. وثلاث مرّات لا تأتي جوازاتنا مع الوثائق. فهل من المؤكد أن تكون هناك حقّاً؟ أليست الكوّة مُخصّصة للقادمين من ليبيا إلى مصر، وليس لأمثالنا الذاهبين إلى ليبيا؟ حين فهِمنا أنّها ليست الكوّة المُناسِبة، وأن ليس هناك غيرها، نظراً لأننا وحدَنا المسافرون الذين خطرت لهم، في تلك اللحظة، الفكرة المجنونة في دخول جهنّم التي يُحاول الآخرون الخروج منها، وجَب أن يقوم الأقوى بيننا، وهو فرانك، بشقّ طريقٍ بين الحشد ليذهب ويبحث، بعيداً وراء الكوّة، عن باب المكتب الذي تُشبهه الكوّة، الباب المخفي وراء حاوية هائلة خُزّنت فيها طرود «غذاء»، بسكويت في الواقع، يوزّع على الناس بطريقة إلقاء الغذاء على الكلاب. هناك، يُحاول جُمركي مُسلّط أن يمرّ بالتدافع. يعلو قليلاً، ويصرخ لِجمركي آخر شبه نائم: «مُهمّة رسميّة». ويجِد جوازاتنا الأربعة مُلقاة على طاولة، وغارقة في رُكام من أوراق الليبيين، يحملها إلى الجمركي شبه النائم ويرجوه، مع تقدِمة عدّة دولارات، ليختمها.

بعد أن صدّقنا جوازاتنا، وحملنا حقائبنا، استغرقنا ساعةً أُخرى لنعبر بحر البشر الذي يفصلنا، مسافة 500 متراً، عن الطريق الطبيعي: إنها المسافة الأطول لأننا، من حيث المبدأ، من الجانب الليبي، وليس ثمّة ظلّ أيّ موظّف رسمي يفرض نظاماً ظاهرياً. كان هناك بالضبط خروج آخر الواصلين، الرجال القُساة المُصمّمين الذين لم يروا بعدُ الدبّابتين المصريّتَين، ولم

يفهموا أن الموقف أمامهم يائس يأس العالَم القادمين منه؛ وكان هناك أربعة أجانب يعتبرون بحذر أنّ ليس من خشية كامنة لهم.

إنّها الثانية صباحاً. نحن في ليبيا، في نوعٍ آخر من الخلاء ـ هنا حيث كلّ نورٍ مُطفأ، في ظلمة تامّة، أو تبدو كذلك، على كلّ حال، بالمقارنة مع الأضواء المُرتعشة التي تنتهي بعض المصابيح المُبعثرة بنشرها حول الأغطية في الجانب المصري، هنا تركن ثلاث سيّارات: سيارة فورد، نصف مُخلّعة، أنزلت للتوّ بعض العائلات، وتبدو مُكسّرة إلى درجة جعلتنا نتساءل كيف استطاعت الوصول إلى هذا المكان، وسيّارة لادا مُهمَلة، وشاحنة صغيرة، ليست أحسن حالاً أشار روسيل إلى أنّ دولابها الأمامي مُفرّغ تماماً من الهواء ـ غير أنها كبيرة، وطويلة، وفيها ثلاثة صفوف من المقاعد، في مقعدها الأماميّ شابّان شبه نائمَين. قالا لنا «طبرق؟ هل أنتم ذاهبون إلى طبرق؟ سألناهما: كم تُريدان لنقلنا إليها؟» الشابان لا يتكلّمان الإنكليزية. لكننا انتهينا بالتفاهُم، والاتّفاق: نعم، طبرق، ورقتان من فئة 100 دولار، أي ما يُعادل راتب شهرين في عهد القذّافي؛ وهكذا حُشِرنا على المقعد نفسه؛ لأنّ المقاعد الأخرى مُحمّلة برُزَم من الخُضار.

الشاحنة تسير قدْر استطاعتها، تلهث كحيوان عجوز، تُرجرج بأسطواناتها الأربع، ودولابُها الأمامي الأيمن يئن في الارتجاجات، وقليل من الهواء البارد يدخل من زُجاج النوافذ المُحطّم. الطريق مليئة بالحُفَر التي كان السائق، في كلّ مرّة، يتجنّبها بمهارة. ولم يعُد من شيء على اليمين ولا على اليسار المُضاءين بالقمر الساطع، إلا الصحراء، باستثناء خرائب بُرج تظهر بين حينٍ وآخر، أو ظلّ جسم غير مرئي، وكذلك سيّارات مُحمّلة بالحقائب، والأكياس، وأحياناً حيوانات تتّجه صوب الحدود. ذلك كلّه، المُضاف إلى فعل التبايُن مع مُراوحتنا اللانهائية السابقة على الحدود، كان يُعطينا انطباع السرعة والمغامرة. وعند الأربعة أيضاً شعور بالأمان وحتى بالراحة، ولو أنّه غير مُعلَن. ولم نفهم أننا مع بائع خُضار عليه أن يتوقّف كلّ 10 أو 20 كم، لكي يُنزِل حمولتَه، إلا بعد نصف ساعة، حين جنحت الشاحنة في عرض الطريق، وكادت تغوص في خندق لم تستطع هذه المرّة تفاديه، لتقِف أمام خربة معزولة حيث يقف رجُلٌ مُعمّم حيّاه السائق بقوله: السلام عليكم. قدّم لنا أقراص طماطم التهمناها بشهيّة ونحن نقِف في ساحة المزرعة. أعطاه الرجل المُعمَّم ورقة نقدية مُجعّدة حاملاً إلينا بلُطف عُلب صودا. كان قلقنا الوحيد أن نعرف إن كانت الشاحنة ستدور أم لا. ثمّ مُشكلة البنزين: هل لدينا ما يكفي؟ وهل فكّر الشابّان في السفر حتى طبرق؟ وكيف سنتصرّف في

مناطق لا توجد فيها محطّات وقود؟ وبطاريّة السيّارة؟ فالسائق يُطفئ الأنوار دائماً، فهل يفعل ذلك ليحتفظ بشحن البطاريّة؟

أعددت في حياتي كثيراً من التقارير الصحفية. لكني في العادة أتزوّد «بمُثبِّت». موجة ONG، موصولة من باريس. ووكالة **الصحافة الفرنسية** التي عرفتُ رئيس مكتبها، سابقاً، في مكان آخر، وأعدت الاتصال به قبل السفر. أبحث عن نقطة استناد. عن مكان وصول. لا شيء هنا. فقط هذه الشاحنة المشؤومة ـ ولا فكرة عن العالَم الذي أدخله، ولا عن العالَم الذي ينتظرني.

الأربعاء 2 آذار/مارس (على الطريق)

فندق البطنان في طبرق. توصّل موزّع الخُضار الشاب إلى أن يرمينا، في الخامسة صباحاً، في فندق المدينة الوحيد الذي يُديره واحد من أنصار القذّافي، والظاهر أننا كنّا وحدَنا زبائنه. ولم نهتم عن إشعاره بذلك، فبعد أن أخذْنا حمّاماً سريعاً، وفطوراً متكوّناً من خُبز بائت، وخيار، وبيض مسلوق، وجبن «البقرة الضاحكة»، خرجنا لنبحث عن سيارة أُجرة قادرة على إيصالنا مسافة أبعد 500 كم حيث مدينة بنغازي. مرّت أمام الفندق كالإعصار سيارة بيك ـ آب محمّلة بشباب مُسلّحين. أطلق أحدُهم رشّة رصاص من بندقية كلاشنكوف، فوق رؤوسنا، على الواجهة المُغطاة بثقوب الرصاص، فخرج صاحب الفندق، وفي يده بندقية صيد، لكن من دون أن يكون أكثر انفعالاً من هذا بالحادث. وبارتخاء، ومن دون تصويب، وبموقف من تعوّد أن يفعل ذلك كل صباح، ورُبّما صار هذا لُعبة بين الشباب وبينه، أطلق عياراً من بندقيته باتجاه البك ـ آب التي كانت قد ابتعدت.

زُرنا المدينة زيارة سريعة. سلّمنا على الثوّار ـ رُبّما هم المسلّحون الذين أطلقوا رشّة الرصاص ـ الذين يسيطرون، تحت الخيام، على الساحة الكبرى للمدينة، ويحدّثوننا عن مقبرة جماعية اكتُشِفت على مسافة 10 كم من هنا. زرنا برفقتهم المدرسة التي تحوّلت إلى قاعة عرض الرسوم كاريكاتورية للقذّافي رسمها صبيان المدينة. مركز الشرطة، مقابل المدرسة، محروق. وثمة ثُكنة عسكرية سوّدها السّخام. والقصّة المجيدة لتمرُّدٍ لا يدوم إلا ساعات، ليرى الشباب المُوالية للقذّافي إمّا مُتفرّقة وإمّا مُنضمّة إلى الثوّار. الأشياء، كما تُرى من هنا، بسيطة، ورُبّما كانت كذلك فعلاً. فالديمقراطية لا تُقهَر. وريح الحرية التي كنسَت هذه الرمال الغنية بالحضارة ريحٌ لا تُقاوَم. أمّا الذين كانوا هشّين، بل في مُنتهى الهشاشة والتردُّد، فهم العساكر

الذين يُفترَض أنهم صاروا ديمقراطيين من ديكتاتورية هي نفسها ميؤوس منها، وتبدو هنا قد تبخّرت بصورة رائعة. فالقذّافي سيسقط كما سقط حسني مبارك وزين العابدين بن علي. إنّه قيْد السقوط. والسؤال الحقيقي الذي أطرحه على نفسي، بينما كنا نأخذ الطريق باتجاه بنغازي، في سيارة أجرة حقيقية هذه المرّة، هو إن كنا سنصِل في الوقت المُحدّد لنشهد سقوط الديكتاتور.

في ما يتصل «بالرمال الغنية بالذاكرة»... المقبرة الفرنسية، في الجنوب، مفترق طرق صوب جربوب، حيث أصرّ «جيل» أن نذهب ونترحّم على موتانا. بحثنا عبثاً عن قبر عضو وحدة الطيران الخاصّة الفيلسوف «آندريه زيرنهيلد» (الذي قُتِل في قلب الصحراء عام، 1942 وقد حكى لي أبي عنه، ففُتِنتُ به)، قبل أن نعرف، من رجل عجوز يرطن قليلاً بالفرنسية، كان مُقرفصاً على الحدود بين القبور، أمام ثلاث أثافي سوداء، يغلي الماء لزوّار افتراضيين، أنّ جسمان زيرنهيلد في مقبرة باتينيول (لفظَها بانيول)، إن كان هذا ما يهمّكم، فلا داعي للقيام بهذه السفرة الطويلة.! ثُمّ طبرق نفسها، مدينة طبرق وحصن طبرق الذي كانت تسيطر عليه طيلة 240 يوماً، فرقة بطولية استرالية، والذي كان مسرحاً لهزيمة جيش إفريقيا الألماني. هذا أقوى مني. هذا أقوى منّا. لم يبق ظرف لم نكن، أنا وجيل، نبحث فيه عن المظاهر نفسها. عن هذه المواعيد السِريّة مع الذاكرة. عن تصادُم الأمكنة والأزمنة. عن هذا المخزن من نماذج الأدوار وفهرسها، الذي يتخطّانا. عن التاريخ، العظيم، الذي يعود دوماً إلى تاريخ الحرب العالمية الثانية، ويبقى، على مرّ السنين، سيّد حياتنا ومشاهدها الكبرى. فهل نصنع التاريخ، أم نُريد صُنعَه؟ وهل نصنعه بإعادة صُنعِه؟

أوَ لسنا، كثوّار 1789 الذين جهِدوا لتكرار حركة التاريخ القديم، غير عارفين أن نصير أنفسَنا إلا حين نكون ظِلَّ آبائنا؟ أحداث 1968... حماستي المُناهضة لفاشية **الإيديولوجية الفرنسية**... البوسنة التي لم نكن نستطيع عيشَها والدفاع عنها أمام دهشة أصدقائنا البوسنيين، أشباح الحرب الإسبانية... والآن، لحظة شروعنا في التحرّك، هذا البحث الصبياني بعض الشيء عن آثار المعارك ضد النازية... وهكذا دواليك.

أمّا رسوم الكاريكاتير عن القذّافي فهي أولاً مُلفتة للنظر. لم أرَ مثلها أبداً، أجل! لم أر أقوى منها، وأكثر موهبةً، وبلاغة، فهي من مستوى رسوم شارلي هيبدو، ويجب أن أحكي لشارل وبيلو، عن رسوم القذّافي الكاريكاتيرية المؤنّثة، المُحوّلة إلى شكل حيوانات، إلى جزّار، إلى

راعي قطيع مُضحِك، إلى جَمَل مُجنّح، إلى جرذ، إلى الدكتور فولامور، إلى دراكولا، وإلى لائحة الأدوار السيئة كلّها، صوره عن نفسه المثيرة للشفقة، كان يُريد نفسَه قائداً فصار مُهرِّجاً. لكنّ هذا على الأخصّ درسُ الأشياء، درسُ الأعمال التطبيقية بعظَمتها الواقعية، لأنها تقول الكثير عن تفكّك نظام يسقط لأنّه لم يعُد مُخيفاً، لم يعد مخيفاً لأنّه يغوص في الغرابة، وماذا لو كانت الحماقة هي التي قتلت القذّافي؟ نظّاراته السوداء؟ شذوذه؟ وجهه الذي شوّهه البوتوكس وغزاه الشحوب المُصْفَّر؟ وضعيّاتُه؟ تماثيله الجداريّة؟ وماذا لو أنّه مات من الضحِك الذي أوحى به إلى رعاياه حين اكتشف هؤلاء أن هذا الديكتاتور، هذا الرجل الذي وجب أن يحفظوه عن ظهر قلب، منذ الطفولة، أن يُعلِنوا غباواته، وأنّه كان مُهرِّجاً، مهبولاً، مهبول/ ديكتاتور، كالملِك أوبو؟ الأبله يقتل. الأبله يهزم الخوف. لم نعُد نخاف من إنسان مُضحِك إلى هذا الحدّ. المُضحِك هو الذي انتصر على الخوف، وأفضى بهذا النظام إلى السقوط. إنّه درس طبرق. حقيقة أطفالها. عظَمة تعليم الفلسفة السياسية، وملاحظة إضافية على خطاب العبودية الطوعية، المشهور. وبرهانٌ على أن الديكتاتورية يُمكِن أن تهلَك في الهائل، في الضحِك، وفي الموهبة. ثُمّ نتوجَّه إلى بنغازي، معقل الثوّار، التي يجب أن نصلها قبل هبوط الليل.

توقّفنا في البيضاء، مدينة الملوك القدماء حيث أتى بنا «قائد» من دون رُتَب، ومن دون أوسمة، إلى القصر الصيفي للقذّافي بغُرفه الأربعين المُهدّمة المنهوبة، بالمسبح الداخلي الذي يُستخدَم لرمي النفايات، وحماماته البخارية، وأحواضه المُهشّمة، ـ ثمّ تأتي خاصةً العلامة المُنتظَرة دوماً، في أسوأ الأحوال، أي الممرّات تحت الأرض المُمتدة عدّة كيلومترات وفيها محطّات تنقية المياه، ومولّدات كهربائية نُزعت أسلاكها، وكسِّرت مضخّاتُها بالجملة، وملاجئ واقية من السلاح النووي هنا حيث كأننا ننزل في عُمق هرَم وحيث يتجوّل سكّان المدينة مع بقية من خجَل.

ثُمّ تأتي درنة، المدينة الساحلية التي ينبغي أن تكون، إذا صدَّقنا مؤيّدي النظام القديم، معقِل القذّافي في ليبيا، وقاعدة الإسلاميين، أعني «إمارة» أسّسها منذ عدّة أيام عبد الحكيم الحصادي، السجين القديم في غوانتانامو، فارضاً وضع البُرقع، وقاد سابقاً كثيراً من عمليات القتل المُبرمجة لمسلمين مُنفتحين على الحداثة: هل أُحدّد بالقول إننا جُلنا في المدينة طولاً وعرضاً ولم نرَ شيئاً يُشبه إمارةً ولا أي دليل على البرقع؟

ثم ذهبنا بالقرب من البيضاء، إلى «البْرق»، وهي منظر متوسّطي تتخلّله مزارع ضخمة بواجهاتٍ واسعة تغسلها الريح: هنا، قادنا طفلٌ إلى مطار عسكري قُصِف حديثاً، فصار مقبرة طيّارات حيث أعادت مجموعة من المزارعين، تحسبهم خرجوا من رواية **الأمل**[1]، تمثيل المعركة التي لا بُدّ أنها خاضتْها ضد كتيبة من المرتزقة القادمين من النيجر ومن تشاد في طيّارات شحن ضخمة. المكان الذي أنزلتْ فيه الطيّاراتُ حمولتها. الأمكنة الأربعة، في الزوايا الأربع لِقَطْر المطار حيث كمن مُزارعون، في النقاط التي بدؤوا منها الهجوم. وتشهد آلاف الخراطيش على عنف تبادُل إطلاق النار. ثمة أغطية مُلقاة في خنادق عليها بُقَع من الدم، لأنّ المعارك دامت نهاراً وليلتين، وكان أنصار القذّافي يتغطّون بها اتّقاء للبرد. وعلى جُدران بعض البيوت المجاورة لطخات بُنيّة ما تزال طريّة تشهد على أساليب النظام العاجلة. عدد المزارعين الآن حوالى المائة عرفوا بحضورنا، فتجمّعوا وحضروا معاً، وكان بعضهم مُسلّحاً، حتى الخط الرئيس للمطار. أما أحمد، الذي يبدو أنّه يتمتع بسلطة كبيرة، والذي يُمكِن القول، بالمناسبة، إنّه لا يُمكن أن يرسب في موضوع ملحمة الحلفاء، والفرنسيون الأحرار خاصة، في هذه المنطقة من درنة، وطبرق، وبئر حكيم، فيرى أن هذه اللطخات البُنيَّة تهمّنا، ويقول إن بإمكانه أن يُرينا منها لطخات كثيرة أُخرى، من اللون نفسه، وُجِدت حول المدينة بشكل دائم. ألم تكن هذه تقنية القذّافي؟ إخفاء الناس، وحجزهم، وإعدامهم في الصباح الباكر من دون محاكمة، وتسليم الجُثث، ولا يبقى إلا هذه اللطخات، على واجهة داكنة، لا تُمحى. رفضنا رؤيةَ غيرها ـ فهناك من ينتظرنا في بنغازي.

الأربعاء 2 آذار/مارس (جدّي شالوم بن يعقوب)

سافرنا في السيارة ستّ ساعات. توقّفنا خلالها مرّة لشراء شيءٍ نشربه من مقصف صغير حيث قدّم لنا عامل ميكانيكي ليبي كان منفياً إلى شيكاغو منذ ثلاثين عاماً، ويعود الآن للقتال، نسخة من تقرير التحالُف الدولي ضدّ مجرمي الحرب الذي كان في 22 شباط/ فبراير قد كتبَه في لائحة تضمّ أسماء 519 قتيلاً، و1500 مفقود. وتوقّفنا مرّة أُخرى، في وسط الجبل: تمتم السائق قائلاً إنّها قصة تبريد المُحرّك ـ وكانت في الحقيقة قصّة عطل في السيارة، وبذلك قضى وقتاً طويلاً في الحرارة الحارقة يبحث عنه تحت غطاء المُحرِّك. ساد الصمت خلال هذه الفترة. وسطع نور باهر. الحصى على يسارنا، وصخور مُنبثقة من الرمل. وعلى يسارنا مُنحدر

من الحوّار المُسنّن. تبزغ هذه الصخور الهائلة، المُنخفضة، عمودياً من البحر. ليس في هذا المكان إنسان واحد. ولا حيوان. ولا أثر لمسكن. أُحِب الصحراء، وأحسب حسابها. ليست هنا الصحراء الحقيقية طبعاً. الصحراء الحقيقية تبدأ في مكان أبعد. لكنْ في جغرافيّتي المُتخيَّلة، هذا ما أدعوه صحراء. أُحِب هذا الجفاف، جفاف الأرض، وجفاف الهواء، الذي أعطاني دائماً شعوراً غامراً بالخفّة. أُحِب أن يكون هذا عكس التراب بصلصاله الثقيل، وأوحاله، وجذوره.

بعض الناس تُشعرهم الصحراء بالملل. ويجِد بعضهم الآخر أنّ كلّ شيء مُتشابه فيها، إذ لا تحتوي أيّة تضاريس. ولن أتكلَّم عن أولئك الذين تُرعبهم الصحراء: حرب الصحراء، رومل، ذكريات المُحاربين القدماء، وقبلهم، «كاتون»، في كتابه **الفارسال**، وهو حوار داخلي عن الوحوش، والزواحف، ومُعاناة العطش، والأجساد المحروقة والمتفسّخة، ومملكة ميدوزا الأخرى ـ نوع من جحيمٍ رمليّ، من **جحيم** دانتي قبل دانتي، وجه الرُّعب ذاته. أمّا أنا فعلى العكس. الصحراء تفتح شهيّتي. الصحراء تُلهِب مشاعري. أستطيع أن أقضي ساعاتٍ في تأمُّل مناظرها البرونزية المشوية. ولا أستطيع أبداً أن أتحمَّل، في أي مكان، الوقوف مكتوف الأيدي، وهنا أستطيع أن أبقى يوماً كاملاً أتأمَّل المَزارِع المهجورة أو المُهدّمة، وأعُدّ الأشجار المُتحجّرة، وألاحظ، عبر زجاج السيارة، انعكاسات الهواء على الأرض المُحمّاة.

جدّي شالوم كان مثلي. فهذا هو نوع المناظر التي لابُدّ أنه قاد قُطعان الخراف إليها طيلة حياته، حياته القصيرة. كانت بني ـ ساف، المدينة التي وُلِدتُ فيها، قِبلتَه. كان يسكنها أربعة أشهر في العام، يبقى مع عائلته في الصيف من دون شك: مع جدّتي، وأُمي التي ولدتني، وايفيت، الأخت الكبرى لأمّي، وأولاده الآخرين. لكن باقي العام، كان يُسافر إلى وجدة، على الحدود المغربية، مشياً على الأقدام مع خرافه البنيسفيانية الجميلة. ومن هناك يذهب إلى جرادا، وكلميمة، وتنغير، الأبعد باتجاه الغرب، وأخيراً إلى زكورة التي كانت باب الصحراء، وحيث يمضي ليلتقي من جديد مع الرُّعاة العرب في جبل مكون من ولاية سدرا، الذين كان يلبس مثلهم، ويأكل التمر نفسه الذي يأكلونه، والخبز المُغمّس بالزيت نفسه أيضاً. لا أعرف شيئاً كثيراً عنه. ولا أعرف إن كان يقطع هذه المسافة البالغة على الأقلّ 1500 كم، على الأقدام أم كان يقطع جزءاً منها في شاحنة. كما أنني أجهل إن كان يقود قطعانَه بحسب المواسم، من مرعى إلى مرعى، أم كان عنده زبون غنيّ، في الصحراء المغربية، يُقدّم له كل سنة حسابه من

الخِراف المُسمّنة، التي يشتريها في طريقه. كلّ ما أعرف أنّه كان أُمياً تقريباً. أعرف، إذ عثرت في خزانة أُمي، على وثيقة مرَض، لا يكاد يعرف كيف يُوقّع اسمه عليها، وهذا نادر بالنسبة ليهودي، حتى لو كان فقيراً جداً. غير أني أعلم أنه كان يعرف لغة الصحراء. أعلم أنه كان يحفظ عن ظهر قلب صوت هذه الأم الأخرى، أم الرمال، التي كان يُحبّها بلا شكّ بقدر ما يُحبّ صوت الأم الأخرى في بني - ساف. أعلم أنه كان قويَّ البنية، يمشي منذ طلوع الفجر حتى غياب الشمس، وأنه حين يشتدّ الحرّ، يفعل العكس، فيمشي الليل، من واحة إلى واحة، ويستريح في النهار حاسباً حساب أن يسقي قِطعانه في أقرب واحة. وأعرف أنّه كان قويّ البنية ومريضاً، لأنّه إذ كان يعتني بخِرافه أكثر من عنايته بالسُّكري الذي يلتهم جسده، وحيث إنّه كان يجب أن يصِل إلى الشاري بصحة جيدة، انتهى بالموت في وضح النهار، في منطقة تقع بين زكورة وتكنيت، موتاً جافّاً هو الموت في الصحراء.

هناك روايتان عن موته. الرواية الرسمية: عاد في الوقت المناسب، ومات في مدينته، وقُبِر حسب الطقوس. والرواية الثانية التي أخذتُها من فمِ جدّتي تقول ذات يومٍ سرّاً، ربّما كان سرّها الوحيد، ومفاده أن جدّي مرِض في صحراء تُوز، وما كان عنده وقت إلا ليجرجر نفسه حتى أطراف أغاديس، وقد ذهب أعمامي مخلوف، وهيامين، وموسى، ومسعود، في سيّارة، للبحث عنه، بعد أن أخبرهم بأمره أحدُ المسافرين. أودّ تصديق الرواية الثانية. أن أُصدّق هذا الموت في قلب الصحراء، الرهيب قطعاً، لكنّه مع ذلك حظُّ تحوُّلِ جسد جدِّي إلى معدن، ورحمةُ التحاق عظامه فوراً باللانهائي، وعدَمُ فسادِ جسده أبداً، إنّه موت القديسين. أُحِبّ فكرة هذا الموت ألف مرّة أكثر من موت الآخرين الذي هو اختلاط الحياة بالموت، وانتقال المادة العفِنة، والتحوُّل الخبيث من يرقاتٍ إلى شراغيف، وديدان، وهذا التكاثر كلّه لِلَّحم الذي صار عجيناً حيث تنهض مخلوقاتٌ جهنّمية، تنعَم بالنتَن، وباللحم البشري. فكيف يُراد لي أن أتأثر بموت الشاعر شارل بيغي، ورأسه في الشوندر، والسماء السامّة فوق رأسه؟ كيف أستطيع أن أمشي على أنغامهم، أنغام موريس بارايس وصحبه، على الأرض والموتى؟ أو على العكس: أليس هنا، في هذه الصورة القاتمة، في فكرة هذا **الفضيل** الذي، إذ حالُه كحال آخيل حين أسرّ إلى عوليس بالقول: «بدل أن يحكم شعباً مُطفأ»، فضّل، بدايةً، أن يشرع في خدمة «مربّي مواشٍ فقير»، ويصير «راعِيَه»، وحارس «قِطعانه»، مُختاراً حياة البداوة مُقابِل الأوديسة، أليس هنا، أجل هنا، في نهاية المطاف، منبع هذه الحُزمة من القرَف والتمرُّد التي

كانت قديماً الإيديولوجية الفرنسية؟ لا تدوم إلا الحجارة. الصحراء وحدها جديرة بالموت، وجديرة، بطريقة ما، بحياة البشر. إنّه درس شالوم بن يعقوب، والد أُمي الذي يهجَع في حرف اسمي. وصلتُ إلى بنغازي عصراً، وأنا مُتعَب لكنني سعيد.

الأربعاء 2 آذار/مارس آخر النهار (مساء في بنغازي)

إنّه الجوّ النموذجي للمُدن البحرية الكبرى. رائحة البحر. ضباب كثيف يبدو أنه، عند حلول المساء، يتصاعد من الشواطئ. الكورنيش. وبناية ضخمة حسبتها إمارة قديمة، لكنّها في الواقع «المحكمة العليا» لنظام القذّافي التي صارت الآن مقرّاً للمجلس الانتقالي الذي يُدير المدينة. وهذا المكان هو تقريباً ميدان التحرير في بنغازي. مركز الاحتجاجات. عدّة آلاف منهم يُرابطون فيه، شيباً وشُبّانا. رجال من العهد القديم، وشباب بكوفيّات يرفعون لافتات طبعوا عليها صُوَر ضحايا الاضطهاد. وجاء سائقو سيارات، بعد أن تركوا سياراتهم في مدخل الكورنيش، مشياً، وثوّار مسلّحون يهتفون «ليبيا حُرّة» ويُروننا، على هواتفهم المحمولة، صُوَر المشنوقين في بنغازي، بعد أن أُرسِلت إلى التلفزيون؛ لأنّ هذه كانت طريقة الطاغية (التي لم تعُد تقنية انقلاب، بل طريقة إعدام دائم حيث كان القذّافي والسنوسي، الخبيران في عمليات الشنق اللذان كانا يُنوّعان أشكال التعذيب كما نُنوّع الملذّات ـ الشنق خنقاً، الشنق سقوطاً، شنق بطيء، شنق بعد خَصِي، وكان خيالهم لا حدود له، وفي السابع من نيسان/ أبريل من كل عام، يُقدّمان للشعب المضطّهد عرضاً لجثث المشنوقين). كان هناك بعض الأئمة. ومسلّحون مُتّحدون، يُعرفون بلباسهم العسكري الموحّد الذي احتفظوا به. إنه شعب بنغازي، الشعب المُتجمِّع. مجموعة متلاحمة بأخوّة. كان بعضهم هنا منذ عدّة أيام وليالٍ، لم يتوقفوا، ولم يُهملوا شيئاً، يبدأ هذا، كما في القاهرة، بالاحتلال الرمزي للكورنيش. بينما كان بعضهم يمرّون من هناك غير عابئين، يقومون بجولة ويمضون، لذا فالجو خليط من التمرّد والتسكّع، من حميّة وطراوة ـ وهذا جميلٌ إلى حدّ ما.

نذير شؤم: لم يكن الأئمة بالتأكيد، وحتى ليس تكبيرات الله أكبر، التي تُحيِّي رجُلاً واقفاً على الشرفة يشرب الشيشة، ويبدو أنه زعيم ديني، بل، في الواقع، وجود مُربّع تحت الشرفة خاص بالنساء (اللواتي لم يلتزمن به جميعهنّ، وكنَّ يُحِطْنَ بنا، بعضهنّ محجّبات، وبعضهنّ سافرات، في نوع من الثرثرة المسليّة نتيجة وجود أجانب، ولسنَ مُستعِدّات، لأي سبب كان، للذهاب وحبس أنفسهنّ في هذا المربّع!).

بشير خير: ساعة الصلاة، كلّ الذين كانوا يقفون جانباً، في الساحة، المُجاورة لشاطئ البحر لتدخين سيجارة، أو للاستفادة من الفاصل والتقاط الصُّوَر (قال لي قادر، المُعلّم القديم: «إسلامنا إسلام وسيط - بين ماذا وماذا؟ بين الكفر والتزمُّت، بين اللا أخلاق الخاصة بالمجتمعات التي لا تؤمن بالله وجنون أولئك الذين يضعونه في مركز كلّ شيء؛ إسلامنا إسلام طبيعي يضعنا في مأمن من جنون العالَم» **إن شاء الله**).

ثُمّ إن شيئاً يصدِمني عند الليبيين جميعاً: غرابة الأجساد. لا أقول الألبسة (أطقُم الخمسينيات التي تحسبَها خارجةً من النفتالين، ولباس موحّد يُشبه لباس رسوم الأطفال؛ وألبسة تقليدية لم تعُد موجودة إلا في مدُن أُخرى من العالَم العربي). أقول الأجساد حقاً. القامات التي تحمل الألبسة فتبدو، هي الأخرى، كأنها تحمل حركات عصرٍ آخر. خشونة خفيفة في الخطو. طريقة لبقة بغرابة في السلام بهزّ الرأس. غياب الازدحام على الرغم من جوّ الثورة والعيد. شيء ما لا أعرفه من التحفُّظ، من البطء، يفقد فجأة أية علاقة مع الأساليب المُوحّدة، العالميّة في إحياء العيد بنفس الطريقة بين أقصى أطراف المعمورة، ممّا يُشعرني فجأة بأنني أرى فيلماً بالأبيض والأسود أو الصُّوَر البنيّة في مُجمع صُوَر بني - ساف التي كانت أمي تحتفظ بها والتي فقدتُها بعد موتها (في هذا الجانب رجال ونساء، وأجساد خارجة من البرد القارص، رأيتها أيضاً بعد سقوط جدار برلين عند الناجين من الجمود الشيوعي، الذين قال لي لانزمان عنهم ذات يوم إن هذا، بالتحديد، ما أذهله خلال إقامته في كوريا الشمالية منذ أكثر من خمسين عاماً).

ألا ألِمسُ هنا لمس اليد ما مثّل، في نهاية النهايات، جريمة القذّافي في الحبس، والعزل، والحجر، وفي العمق، محاولة الإعدام الروحي لأحفاد مملكة سيرين؟ ويا ليتَ لديّ بداية إجابة على سؤالِيَ ذلك اليوم في باريس (عن التفاؤل والتشاؤم، وعما إذا كان يجب معالجة هذه الثورات العربية بالخشية أم بالرجاء، الخ)؟ هذا هو السؤال الذي أُسِيء طرْحُه. لأنّ الحقيقة - لكن كان ينبغي أن نكون هنا، على الكورنيش، في قلب فوَرانه المزدحم، للبدء بلمسها لمس اليد - هي أنّ ليبيا ماتت وهي قيد الانبعاث. لم تكن فقط مظلومة، ومسحوقة، ومنهوبة، ودامية. لم تكن خاضعة لديكتاتور مُتعطِّش للسلطة، وللابتزاز، والدم. بل كانت ميتة مِيتةً دماغية. فقد نجح هذا الديكتاتور، ككل ديكتاتور في العالَم، في إنهاك عناصر الحياة في ليبيا. وهذا ما يشرح تعاطُف الغرب مع ما كان يبدو أنه حتمية الموت العربي، وصمت النُخَب

العربية التي كانت تُفكّر أنّ ليس أمامها إلا الصمت الجامد للموت. باستثناء أن معجزةً تحدث، والموت ينتفض، ويتحرّك، ويمشي.

كان السرياليون يسألون: هل سبق أن صفعتَ ميتاً؟ وسوف يسأل مؤرِّخو القرن الحادي والعشرين: هل سبق أن رأيتَ ميتاً يُبعَث حيّاً؟ وسوف يُجيبون: نعم، رأيناه مرّة، فقد كانت مرّة شعوب ميتة، ليست نائمة، وميتة موتاً روحياً بقدر ما هو سريريّ وسياسيّ ـ وأن مُعجزةً حدثت، حيث قال ملاك التاريخ لهذه الشعوب: انهضي، وسيري، وسارت؟ حينئذٍ إلى أين سوف يذهبون؟ في أيِّ اتّجاه سيكون المسير؟ هل سيسيرون بسهولة أم نصف نائمين؟ في ضوء الفانوس أم في النور الوضّاء؟ وإذا كانوا عائدين إلى الموت بعد أن خرجوا منه توّاً؟ يكفي أصلاً المسير. يكفي ألا تكون هذه الشعوب بعدُ أولئك الأموات.

الخميس 3 آذار/مارس (حين يعود شيطان الفعل)

تعرّفنا على إنسان رائع. إنّه صديقنا، صديقنا الوحيد في بنغازي. اسمه محمد عبد الملك. لكن بسبب هيئته المتقلّبة، المندهشة على الدوام، قررنا أن نُسمّيه دوّار الشمس. عمره ستون عاماً، لكن يبدو في السبعين. نحيف. وجهه شديد النحول. جلده مليء بالتجاعيد لكنه ناعم، شفّاف يُشبه ورق الحرير المُجعَّد. يرتدي معطفاً رمادياً قصيراً جداً، وضيّقاً يُعطيه مظهر المشنوق والمُكبّل. ربطة عنقه الأنيقة تبقى في مكانها مطويّةً بشكل مُزيَّف حتى عندما يمشي بسرعة، أو عندما نركض كما فعلنا قبل قليل. نظرته خامدة، تنبعث منها لمعانات الخبث والمكر. ففي حياة دليلنا السابقة، في واحد من مَعابِره إلى الجنون، وقبل أن يُمنَع من التعليم، كان أستاذ لغة فرنسية، فاحتفظ من تلك الفترة بفضول كل ما هو فرنسي، بإتقان جيد للفرنسية، وبمعنى تغيُّر نبرة الصوت، وبنبرة فرنسية كاملة تقريباً، مع معرفة تامة بأدبنا تتوقّف عند سارتر، وكامو، وايتيامبل.

يقضي أيامه في فندق تيبستي الذي يُشكلّ مع فندق أوزو مقرّ الصحفيين. يُجرجِر فيه هيكلَه المُفكّك، وحزنَه، وفي فمه سيجارة نصف مُطفأة ومُوفَّرة بهذه الطريقة. كدتُ أجرح شعوره بأن أقترح عليه مالاً مُقابل المساعدة التي يُمكِن أن يقدمها لنا. قال لي: لست مستقرّاً. أنا أستاذ لغة فرنسية. أستاذ متنقِّل حقاً. أنا خوري من دون كنيسةِ اللُّغةِ التي أحببتها أكثر من أي شيء آخر. لكني خوري على أية حال. وإذا رأيتموني هنا، في هذا الفندق، فذلك بِدافع

أملي في أن أسمع الحديث بهذه اللغة الفاتنة التي لم يكن عندي من مصدر للحلُم إلا من خلالها، كالصُّمِّ والعميان.

لم يتركنا دوار الشمس طيلة اليوم. قادنا إلى ثكنة فُضَيل بن عمر العسكرية، الواقعة على مخرج المدينة حيث كان الجيش يُطلِق الرصاص على المتظاهرين العُزّل. وأرانا، قرب مدخل الثكنة، بقايا السيارة المُتفحّمة المشهورة التي كانت مليئة بأسطوانات الغاز التي فجّر بها مهدي زيو، أب العائلة ذو 49 عاماً أبواب الثكنة في 20 شباط/ فبراير. وقادنا أيضاً إلى قصر القذّافي، الأقلّ فخامة من قصر البيضاء، ومع ذلك قال لنا وهو يضحك «ألا ترون هذا غريباً. عندكم في أوروبا يصدمكم بالخيمة، والناقة، وهنا، في ليبيا، يعيش، كغيره من الطُّغاة، الرفاهيّة، والمال، وقلّة الذوق!». ولما قال له جيل: لسنا هنا كي «نملأ الأمكنة بالذاكرة»، قادنا إلى المحكمة العليا، لأن الكورنيش، في الداخل هذه المرّة، وصل بنا إلى دخول قاعات المحاكمة التي صارت مكاتب للّجان المشكّلة منذ عدّة أيام لضمان المعاملات الإدارية في المدينة.

هنا ينشغلون بالطرقات.وهنا بتجهيز المدارس.وهناك بغذاء المدينة، وثمة أيضاً امرأة أنيقة، جميلة، اسمها سلوى بقيقيص، تتكلّم الإنكليزية بإتقان، وتشرح لنا أنها ترأست لجنة، وهذا لا يُتخيَّل في عهد القذّافي، وأنها تهتم بالنساء وحقوقهنّ. وأختها إيمان التي كانت مثلها من أوائل المُتظاهرات ضدّ النظام، طبيبة أسنان ويبد أنها متحدّثة باسم هذه المنطقة الليبية. كذلك هناك اللجنة المكلّفة بإدارة المعلومات التي تصل، مفرّقة، من كلّ مكان، عن الأموات والمفقودين، والعساكر المحروقين أحياء لأنهم رفضوا إطلاق النار على المتظاهرين، والمقابر الجماعية التي بدؤوا باكتشافها في ضواحي المدُن المُحرّرة.

أتذكّر هذه القضية المشهورة للإدارة الذاتية التي أظهرت اهتمامي بها سنة 1972 لحظة لقائي بفرانسوا ميتران لأنّه كان يتعيّن عليّ أن أتصنّع بأنني متخصّص لكي أدخل في حلقة هذه الإدارة. لم أكن أصدّق ذلك تماماً. كنت أكثر ماركسية من أن أؤمن بهذه المؤسسات الذاتية في المجتمع. لِسَ هذا في نقاشي الأوّل مع شوفينهان الذي كان مبدئياً في قلب مجموعة الخبراء، المُكّلف رسمياً بالملفّ الذي حطّمتُه باحتقاري الألتوسري لهذا المصطلح البائس «غير موجود في النظرية الماركسية». لكنْ هنا فجأة، أمام هذا الغليان الديمقراطي الأهلي، أمام لجان المُستخدمين هذه التي تتولّى بنفسها شؤونها الخاصّة، وتحِلّ محلّ دولة إجرامية

وضعيفة، أُفاجئ نفسي بأنّي اعتقدتُ بهذا قليلاً. فهل تكون ليبيا المضادة للقذّافي، في تلعثمها الأوّل، أرضاً للديمقراطية؟ الثورة العربية عموماً، وهذه الثورة العربية تحديداً، مسرح واحد من مظاهر هذا الغلَيان الذي تكوّن مبادرته وابتداعه شرف الشعوب الثائرة؟ التشاؤم القابع في ذاتي، وتأثير توكفيل، ولاكان، ذاك الذي يعرف، كما كان يقول ماوتسي تونغ، أنّ بعد الفوضى على الأرض يأتي النظام وأنّ الثوريين، مع جهلهم لكونهم هستيريين بامتياز، يبحثون دوماً عن مُعلِّم بإمكانهم أن يُسيطروا عليه، هذا التشاؤم يتبرَّم من فرط الاعتقاد بذلك. لكنْ ما أمر المتأخّر عن التقدّمية؟ والألم الذي شُفِيَ من الأوهام اليسارية؟ ومرض الأمل العُضال؟

ومن جانب آخر، أُسائل نفسي عمّا يُفكِّر فيه هؤلاء الناس وهم يروننا هكذا مُقيمين في مكاتبهم، نخرج وندخل من دون استئذان، نُقاطعهم، وننصحهم، ونُبدي رأينا في كلّ شيء، ونذكر البوسنة، ودارفور، واسم بيغوفيتش السابق، والشيخ مجيب الرحمن، أول رئيس لبنغلادش الذي ينفصل عن باكستان الغربية، مثلما قد تنفصل، إذا كان هذا هو الحلّ الأخير، برقة عن ولاية طرابلس. قد لا يقبلون هذا من صحفيين في ما يبدو لي. ولا من أعضاء الجمعيات الإنسانية. ولا من الموظفين الدوليّين. وبالمقابل، لم نكن نلتقي في هذا الجزء من المبنى حيث توجد مكاتب هذه الإدارة المؤقتة، بأيٍّ من هؤلاء. وهل سيكون في هذا أدنى شك كنتُ أنا نفسي سأزيله بالقول في لحظة معينة: لسنا أيّاً من هؤلاء جميعاً، وتأكّدوا، على الأخصّ، أننا لسنا صحفيين سنكتب هذا المساء أو غداً أو حتى بعد غدٍ من هم الشهود (وبهذه المناسبة - ورأيت بصيص قلَق يلوح في النظرة الجميلة لطبيبة الأسنان - إنها قصة شبكة اتصالات من العاجِل أن تُفصَل عن شبكة طرابلس التي تُراقب كلّ شيء).

ماذا إذاً؟ ماذا يُمكن أن يظنّوا بنا، وبما نفعل هنا؟ أنا، شخصياً، لا أعرف. أشعر فقط أنني، منذ هذا الصباح، فريسة فعل يتأكّلني، لكنّه غامض، غير مُشكَّل، وليس له موضوع حقيقي. أشعر من خلال هذه الأحاديث الأولى أنّ الموقف بعيد عن أن يكون «مِطواعاً» بقدر ما كنت أتصوّر حين كنتُ في طبرق؛ فالقذّافي يمكِن أن يقوم بهجوم مُضاد ويسبِّب حماماً من الدم، وأنا أترصّد، إذاً، زاويةً، أو فكرةً، أو مُبادرة، أو شخصاً قد يُساعدني لأساعد، لكن، بصراحة، لم أعُد أعرف شيئاً، ولم تعُد عندي فكرة مُحدّدة. وخصوصاً هم! فاسمي لا يعني لهم شيئاً. الكتّاب لم يفهموا شيئاً في الحقيقة. والفلاسفة، هذا أعقد أيضاً، ولا يظهر أنهم فهِموا.

فهل هذه القصة الأزليّة لشخصٍ موجود هنا لأنّه موجود هنا؟ الشيء المُتعلّق بالأوهام الكبيرة الذي نكتشفه، ذات يوم، وهو أنهم نجحوا في أن ينحشروا، من دون أن يطلب منهم أحد ماذا وكيف، في الصورة مع البابا، ورونالد ريغن، وملكة انجلترا، ومجموعة الثمانية؟

يقول دوّار الشمس الذي يسمع حديثنا منذ وقتٍ دون أن يقول شيئاً «لا، أنتم لستم فيها». يقول ضاحكاً: «ثمة شرح آخر لِتركِكم تدخلون كلّ مكان... هو لباسكم... لباسكم بالتحديد... فلا أحد هنا يرتدي مثل هذا اللباس، حتى الصحفيون لا يلبسونه...». وشدّد على كلِمة sapé[2]، مُنفصِلة كأنه يقصد القول إنّه يعرف أنها كلِمة خاصّة، دارجة قليلاً، لا عاديّة. تذوّق الكلمة، وتمتّع بها، استمتاعَه قبل قليل بلفظ كلِمة fric (مال)، وبلفظ كلمة أرتيشو (أرضي شوكي)، وتعبير bayer aux corneilles (ظلَّ فاغراً فمَه) ـ إنّه التلذّذ باللغة الفرنسية... رُبّما كان على حقّ في النهاية. ورُبّما كان السبب الذي ذكره صحيحاً. السبب الذي قد يستحقّ أن أُثبِّت، على عجَل، نقطة من عقيدة: رفضي أن أُغيِّر طريقتي في الوجود، وفي الانتباه لنفسي، وبالتالي، وعلى الأخصّ في لباسي بحجّة أنني في مُهمّة إعداد تقرير.

كم مرّة قرأت أو سمعت القول: «لا، لكن ما هذه الطريقة في لباس الأطقم في بلاد تخوض حرباً؟ وقمصان ناصعة؟ إضافةً إلى أنَّ لونُها أبيض؟ أجل! الاحترام الأساسي. وتقدير الآخر، أو أكثر دقّة، تقدير عالمَه الذي أمتنع عن عدِّه عالمَاً آخر، وأقلّ من ذلك، عن عدِّه مسرحاً يجب ارتداء طقم رسمي لدخوله. لا سترة بلا أكمام مُتعدّدة الجيوب. ولا سروال عمَل. ولا سترة مشدودة على طريقة مُحارِب قديم. فوجودي هنا، في بنغازي، كوجودي في باريس. أعرف أن هذا يُمكِن أن يستحضر جان كوكتو 1914 (لباس موحّد ماركة بواريه للذهاب إلى خنادق الجبهة). أو يستحضِر مالابارت على الجبهة الشرقية (أحذية عسكريّة ممتازة، مُلمّعة بشكل ممتاز، في أسوأ الأمكنة خلاءً). أعرف أنّهم قد يقصدون هذا، إذا ما تجرّأتُ على قوله أمام الناس، كاعتراف هذا المُتأنّق الذي لامني على هذا منذ ثلاثين عاماً (ادغار موران، منذ عام 1977، في **النوفيل اوبسرفاتور**: «برنار هنري ليفي الذي يشتري لباسه من محلاّت **اليأس...**»). لكن ماذا في وُسعي أن أفعل حين يقصدونني بقول **الآخر**؟ وإذا فُهِم كوكتو أو مؤلِّف الميئوس منه Kaputt حين أُفكر بالفيلسوف ليفيناس؟

قد يكون قول دوّار الشمس صحيحاً. رُبّما كان هذا فعلاً الذي يُثير فضولهم، ويُعطينا امتياز أن نُقبَل من دون أن نطلب ذلك، في قُدس الأقداس هذا. أوَليس هذا من جهة أُخرى

ما انتهى كمال إلى قوله لنا في سراييفو حين وافق، بعد إقامة مُتكرّرة، أن يشرح لنا آننا، ذلك الصباح المشهور حيث دخلنا بالمُصادفة، فقط لنهرب من التفجيرات، كنّا في بناية الرئاسة، وبعد أن عرفنا أين نحن، وقدّرنا حظّنا، طلبنا مُقابلة الرئيس، وهذه في الحقيقة هيئة جيل، فسترتُه القديمة لكنْ الأنيقة، وربطة عنقه، أقنعَتاه، ذلك اليوم، بفعل ما لم يكن ليفعله، من أجل أي أحد آخر: قيادتنا حتى الدير الذي كان يختبئ فيه الرئيس بيغوفيتش حيث أسرّ لنا بالرسالة العاجلة المشهورة الموجّهة إلى فرانسوا ميتران والتي كانت، برغبة ميتران، السبب المباشر في سفره المفاجئ إلى العاصمة البوسنية المُحاصَرة؟ لكن حسناً. الواقع أنني هنا. بلباسي هذا أم من دونه، الواقع هو أنني، كما في البوسنة، وفي دارفور، وكما في كلّ مكان، أستغِل الموقف لأطلب مُقابلة «المسؤولين عن الثورة».

لا أعرف شيئاً عنهم. ولا أكاد أعرف أسماءهم. فقد عدّدتْها لي سارا دانييل بنت جان، في فندق تيبستي، خلال الحديث، وتظاهرتُ بأنني أعرف هذا كلّه مع أنني لم أكن أعرف أيّ شيء. فقد بلغ مني التعب وازدحام الأسماء الجديدة في ذهني حدّ عدم الوصول إلى حفظها، الحاجة إلى كتابتها في باطن يدي، كي أتمكن من النظر إليها كلّ مرّة بسرعة قبل أن أقول اسم المسؤول الذي نطلب رؤيته: «نحن هنا للقاء السيد مصطفى عبد الجليل...» أو: «هل تعرفون أين يُمكن أن أجِد السيد عبد الحميد غوقة، الناطق الرسمي باسم السلطة الانتقالية، والذي يتحدّث إلى الصحفيين...؟». هذا يعني أن الأمر يسير على ما يُرام. فأشعر مع مرور الساعات أنّ الفضول يتحوّل، عند بعض من أُخاطبهم، إلى فائدة غائمة، والفائدة الغائمة إلى مشروع حساب ـ لا أعرف أي مشروع لكن أعرف أن هناك حساباً، ولأن هؤلاء الناس ينتهون بالقول: «لا نعرف أبداً...هؤلاء الرجال غريبو الأطوار...لكنهم بسبب غرابتهم يُمكِن أن يكونوا مُفيدين...ولِمَ لا، وفي هذه الحال، نقودهم إلى فُلان أو علاّن، ومن خلالهم نُمرّر هذه الرسالة أو تلك»، أُحِسّ بذلك، وأنا مُقتنِع به، والحقّ أنني أصل إلى نهاية اليوم، إلى لقاء غوقة (وهو مُحامٍ، وهيكل مُنطلِق، عيناه سوداوان شديدتا اللمعان، أنف دقيق، وجه ناتئ العظام، وكتلة من شعرٍ أسود تبدو أثقل من أن يحملها رأسه، لكنّها تمنحه المهابة) وأنهم يعدونني، غداً ورُبما بعد غد، بلقاء عبد الجليل (الشخصية الأكثر أهمية كما يبدو؛ فهو القائد السرّي للثورة، قائد جوقتها المُتخفّي؛ لا تقولوا لي إنه ليس في بنغازي، بل في البيضاء، مدينة ملوك ليبيا، هناك حيث يُدير الثورة عن بُعد؟ قيل لي إنني سوف أراه، وأكّدوا لي رسمياً أنني لن أبرح المحكمة العُليا قبل أن أراه...).

الوقت متأخر. والطقس حارّ. ينتظرني مُحامٍ، عند جماعة الفندق، ليُحدّثني عن عمليات القتل التي ارتُكبَت سنة 1996، في سجن أبو سليم في طرابلس (1200 موقوف، أُعدِموا بالرصاص خلال عدة ساعات ـ ولم تُسلّم جُثثهم أبداً إلى عائلا-تهم). ثمّ يأتي ناشط في حقوق الإنسان أرسله غوقة ليُسلّمني ملفّ مقتل ضيف الغزال قائلاً («هو صحفي مثلك، قُتِل قبل ستّ سنوات، في أقبية المحكمة العليا ـ سوف تعودون إليها، أليس كذلك؟ قطعوا أصابعه قائلين له إنّ هذا سوف يُعلّمه الكتابة، ثم قتلوه، قبل أن يُقطّعوا جُثّته، ولماذا هذا كلّه؟ لأنّه كان قد نشر مقالاً ضدّ فساد رِجال القذّافي»). صعدتُ إلى غرفتي في الفندق محاولاً النوم قليلاً. لكنّ صرخات كثيرة كانت تتخبّط في رأسي. صورٌ كثيرة جداً. كثير من الأجساد الموعودة بالموت، عُصِبت منها الأعين بالأسود، والأرض التي تنسحب تحت القدمين، أو كما في سجن أبو سليم، تحت القذيفة. وكثير من الأسئلة أيضاً. بدءاً بسؤال يقلِب، من الآن وصاعداً، كلّ الأسئلة الخادعة التي يُثيرها الجنس الصحفي: «من هم هؤلاء الناس؟ ماذا يفعلون هنا؟». هذا السؤال هو: ما العمل أمام هذه الجرائم وأمام مَن تُرتكب بحقّهم؟ هل أستطيع الاكتفاء بالتقرير التقليدي، مع الأشياء المرئية، وصنع المسافة، وإجراء المُقابلات، وبعض التدوين؟ أليست هي لحظة محاولة استخدام القوّة بأسلوب اللواء مسعود في باريس، أو أسلوب بيغوفيتش الذي هُرِّب من سراييفو؟ لا أعرف. لم أعُد أعرف. انتهيت بالنوم، وأنا أرى بأمّ عيني يدَي دوّار الشمس ترتعشان وهو يُشعل سيجارته واسمَي عبد الجليل وغوقة مُركبانِ في صُوَرٍ مُعقّدة.

الجمعة 4 آذار/مارس (على الجبهة)

قال لنا دوّار الشمس إن الرجل مُرابط في البيضاء. وكي لا نخسر الوقت، قرّرنا الذهاب باتّجاه الجبهة.

الانطلاق في السابعة صباحاً. استأجرنا سيارتَين. ركبت وجيل في الأولى، وروسل وفرانك في الثانية. أين الاتّجاه بالضبط؟ كان، في الفندق أمس، ساعة العشاء، بين جماعة الصحفيين، روايات مختلفة بقدر الجالسين على الطاولة. في نظر بعضهم، وصل الثوّار إلى بن جواد، بعيداً وراء نهاية خط نقل نفط راس لانوف، على مسافة 100 كم من سرت. وفي رأي بعضهم الآخر، لابُدّ أنهم في ما بعد «بن جواد»، يتقدّمون باتجاه طرابلس. وفي رأي آخرين أيضاً، القوّات الموالية للقذّافي هي صاحبة الحظوة ـ وقد تكون قد أعادت احتلال بن جواد،

وربّما راس لانوف، وهم في طريقهم إلى بنغازي. والحقّ أنّ لا أحد يعرف شيئاً عن هذا. ويُمكِن أن يكون الموقف نفسه غير قابل للإدراك، لأنّه يتغيَّر من ساعةٍ إلى ساعة. يبدو أنّ الحلّ الوحيد هو أن نذهب ونرى بأنفسنا.

اجدابيا أولاً، المدينة الممتدّة في قلب الصحراء، على مسافة ساعتين من بنغازي حيث نجد عشرات من المتطوّعين ـ الذين لم يكونوا، قبل الأيام الأخيرة، قد أمسكوا سلاحاً بأيديهم، والذين يُراقبون المناطق السكنية. نقطة عبور على الباب الشرقي. وأخرى على الباب الغربي. وحوالى عشر سيّارات بك ـ آب، على الساحة المركزية، بعضها مُزوّد بمنصّات صواريخ مُضادّة للطيّارات، تبدو مُتحرِّكة باتجاه الغرب. شرح لنا المحافظ أنّ مؤيّدي القذّافي أفرغوا المدينة بسهولة. تركوا وراءهم بعض الدبّابات. وتركوا أيضاً، على مستوى الباب الغربي، في سقيفة، مخازن أسلحة مصنوعة في روسيا، وإيران، وللأسف في فرنسا تلذّذ بإظهار كم تؤكّد في نظره طبيعة النظام الإجرامية. سألْنا الرائد الشاب الذي أبقاه المحافظ كي يسمح لنا بدخول المستودع: «لمن، في رأيكم، أُرسِلتْ هذه الأسلحة؟». فكرَّر قائلاً «لمن» باصِقاً على صندوق مستطيل نصف مفتوح علية وسمة «كارتريج» حيث ميّزتُ صواريخ من عيار ثقيل. «ألا يعني تخزينها هنا أن الطاغيَة أعلن الحرب على شعبه منذ تاريخ بعيد؟ أليست هذه بديهة؟» وإثبات لذلك.

بقي أمامنا ساعتان من السفر. وصلنا إلى البريقة، شبه مدينة لكنّها نهاية خط نقل نفط حقيقي أهميته الإستراتيجية كما أظنّ كبيرة، وهناك لابُد أنّ المعركة، إذا رأينا عدد الطلقات على الواجهة، والفوهتَين اللتين حفرتها القنابل في مدخل المدينة، كانت أكثر جديّة. لكن ليس هناك ولا هنا توتّر حقيقي. فقط غارة جويّة مع بداية الصباح، لم توقِع ضحايا. وثمّة حركة سيارات البك ـ آب التي رأى بعضُهم أنها واصلة من الجبهة، بينما هي في رأي الأغلبية، كما في اجدابيا، ذاهبة إلى الجبهة. إنّها غاصّة بالرجال، بعضهم مُتعلّق بالأبواب، أو واقف على غطاء المحرِّك، أو على سطح السيارة وجوانبها. كلهم مدنيّون تقريباً، ومع كلّ منهم قطعة من لباس موحّد وكأنهم يُريدون إثبات انتمائهم إلى جيش التحرير وهم في دورة التدريب، وأحياناً كان معهم فقط عَمرة، وسِترة. أمام جامعة البترول سألنا صبيَّين يلبس كلّ منهما سترة مُموّهة، شعرهما مُلمَّع، يضعان قلنسوة مطوية من الخلف، وكانا يصنعان بأصابعهما إشارة النصر، ويمشيان بخطوات غريبة، مُتثاقلة قليلاً، القدمان أُفقيان، والجسد في الخلف: «أين

الجبهة؟. إلى أين وصل ثوّاركم؟ هل ما تزال الجبهة بعيدة؟» ـ يُجيب الأكبر سنّاً بينهما، الأشقر، بلحيته الصهباء اسمه عبد الرحمن، ويعرف بعض الكلمات الإنكليزية ـ «تماماً! يا للمُصادفة الحسَنة! نحن ذاهبان إلى الجبهة!» وهاهما يثبان إلى سيارتنا: جلس أحدهما في المقعد الأمامي، والآخر على المقعد الخلفي العريض، ووضعا بندقيتي الكلاشنكوف بين ساقيهما، وحاولا أن يشرحا لنا الموقف بإنكليزيةٍ فوضوية.

«fuck Kadhafi»[3] قال الأول الذي كان قبل الحرب طالباً في كلية الطبّ، لكنّه بسترته وكوفيّته الملفوفة حول عنقه بمربعاتها السوداء والبيضاء، وخنجره المُعلّق بحزام على فخِذه، وخدّه الأحمر، كان يلفظُ المسبّة المُقذِعة كمُحارِب. فردّد الآخر fuck Kadhafi مهزّئاً قذافي مخنّث ولوطي، وشارحاً لي، بجدية أكثر مع حركات عنيفة، أنهما أخذا حذاءيهما من جُثّتي جنديين من جنوده، وهما ضيّقان جداً يجعلان المشي شاقاً عليهما، وأنهما سعيدان جداً بلقائنا! «... كل رجال القذّافي! يا لَلجنود الأشرار! المرتزقة». وينطلق من هنا في حكايةٍ طويلة ومُبهَمة فهمتُ منها أن جيش النظام احتجز جماعة من الشباب، لحظة التقائنا بهم أمام جامعة البترول، واستخدمهم دروعاً بشرية، وأجبرهم عند انتفاض القوى الثورية، على أن يكونوا في الخطّ الأوّل ـ لكنّ نداء الحرية كان الأقوى، وعندما وصل الشباب إلى نقطة الاحتكاك بالثوار، هرعوا للقائهم، وألقوا أسلحتهم، وتآخوا معهم. وفي النهاية، حين حاولت سؤالهما عن التجربة العسكرية التي يمتلكانها، وعمّا إذا كانا خاضا المعارك، وإذا خافا ممّا واجهاه، أجاباني مع هذا التبجُّح الصّبياني بأنّهما يحلُمان أن يخوضا المعارك، لكنّ الفرصة لم تسنح لهما بعد: «نحن نخاف؟ أبداً! هم الذين يخافون! هم الذين يفعلونها في جُبّتهم!» طالب الطب هو الذي يتكلّم، ينهض قليلاً من مكانه ويهز سرواله. «نحن، عندما يتصبّب عرقنا...» وخفض يده هذه المرة إلى صدره وهو يدور في اتّجاهي حتى صار في مستوى وجهي كأنّه يُريد أن يعصره. «نحن نعرَق عرَق البشر، وهم عرقهُم من دم ـ ولسنا في حاجة إلى رؤيتهم لكي نعرف هذا».

على مشارف راس لانوف، وبعد ساعة ونصف من السفر المُمتِع بصحبة صديقَينا الجديدَين، بدأنا نشعر باضطراب جديد في الهيئة والنظرات ـ وهذه خاصة لا أعرف ماهيّتها، سمّاها جان هتسفيلد بخصوص البوسنة «هيئة الحرب» التي تُشير دون تأخير إلى خطوط الجبهة. للثوار في سيارات البك ـ آب، هيئة مُغتبِطة. في مكانٍ خُسفِت في الطريق حيث يُجبِر

الجميع على تخفيف السرعة، يصرخون بفتى، تقريباً طفل، يستغل الزحام ليتسلّق على غطاء المحرّك، ويتعلّق بحامل الأمتعة. كذلك يتوقّفون لتبادل بعض الكلمات مع صديق يمشي في الطريق، ومُعانقته، والاستعلام منه عن خبر، وإعلامه بخبر، أو الضحِك على فلاح ينقل بهدوء سلال فواكه على جرّار بدواليب عالية جداً يبدو، حتى هنا، كأنه خارج من القرون الوسطى. غير أني تسلّيتُ حينئذٍ بملاحظة الشفاه التي شقّقها الهواء، والفهم الصامت للنظرات كما الهيئة الحازمة الجريئة التي لم تكن موجودة لا في اجدابيا، ولا في البريقة. نقاط العبور أكثر هنا. تُرى على جانب الطريق دبّابة مُدمّرة. وعلى مسافة 20 كم من المدينة، ورُبّما 15 كم، نصطدم بنقطة عبور أخيرة يقوم عليها، للمرّة الأولى، رجال بنصف لباس موحّد، أي بسترة وقبّعة مُموَّهتَين، وبأسلحة أثقل قليلاً حيث أجبرونا على الوقوف فترة طويلة.

قال لي رجل يتكلّم الإنكليزية ذو سلطة عالية: «لم يعد أحد يمرّ». له هيئة جندي نظامي، وقد يكون ضابطاً. ليس لأنّ هيئته كذلك فقط، بل لأنّه، فيما عدا قبّعة لاعب السلّة، يرتدي لباساً موحّداً كاملاً. يُضاف إلى ذلك أنّ نيشانَين مُعلّقَين على صدره، يجعلان منه ضابطاً في أعلى الرُتَب. كرّر قائلاً لنا، ومُحدّداً أن نبتعِد عدّة أمتار، في الرمل، وأمامه غاز يُسخّن عليه الشاي: «توقّفوا هناك»، «عبر طاقم من المراسلين الصحفيين قبل قليل، وسيكون الأخير. لأنّ العدو يقوم بهجومٍ مُضاد». بقينا نصف ساعة نشرب الشاي الأسود، مُحلّى جداً، صبّوه لنا في كؤوس بلاستيكية، ونراقب سيارات البك ـ آب المتوقّفة مثلنا، ومعنا. كان هناك بعض المدنيين. وكان هناك المُقاتلون على الأخصّ. من الشباب دائماً. لا يرتدون لباساً عسكرياً. ومعهم قليل من الأسلحة. في أحسن الأحوال آك ـ 47، وقاذفات قنابل. سكاكين بسيطة، أو سواطير للأقلّ حظّاً. أحياناً حاملة خراطيش، أو حاملات مُسدّسات فارغة. وثمّة بعض صواريخ 14.5 المُضادّة للطيّارات، نصف مطمورة في رُدَم التراب على جانب الطريق، لا تُلمَح فوراً، ويتجمّع حولها الرجال كأنهم يريدون أن يرتاحوا. ثمة أيضاً إطلاق رصاص في الهواء، غير أنّه لم يعُد تعبيراً عن الفرَح. ولم تعُد صيحات «الله أكبر» المُرافقة لها، تُشبه الطريقة التي طمأنتنا، خلال الليل، ونحن نسمعها صافيةً بصوت المؤذّن. تصِل شاحنة من البريقة، تعُجّ بالرجال، ولا تتوقّف. وتصل شاحنةٌ أخرى من الاتّجاه المُعاكس تقُلُّ رجالاً يبدو عليهم الإنهاك. كما تصل سيارة إسعاف بصفيرها المُدوِّي، وتُفرِغ ـ وليس عندي كلِمة أُخرى ـ جسد رجُلٍ هامد ثيابه مُبلّلة بالدم. تصِل شاحنة صغيرة وتأخذه، بينما تذهب سيارة الإسعاف في الاتّجاه الآخر.

فوقنا انفجار بعيد. ثمّ انفجار آخر، أكثر قُرباً. إلى حدّ أن الشجرة الوحيدة إلى جانبنا بدت تُطقطِق. يصرخ أحد الشابّين الذي لا يتكلّم الإنجليزية «صاروخ!» ويستأنف آخر بإنكليزية نبرتها أمريكية مُشدّدة «صاروخ!». لكنّ في صوتَيهما خوفاً بقدر ما فيه جُرأة. وفي طريقتهما في تحرّي الأفق وكأنّهما سوف يعرفان مصدر الإطلاق، اضطراب بريء يحسم أمره مع العنتريّات التي أبدياها قبل قليل. كلّ شيء يتجمّد حولنا. يغدو صامتاً خلال بضعة ثوانٍ. ثمّ يشرع الجميع في الصُّراخ: «صواريخ» أيضاً أو «غراد»، أو يلفظون كلماتٍ بالعربية لا أحد يُترجمها لنا. ثمّ نتحرّك فوراً، من دون أن يطرأ أي عنصر جديد، ومن دون أن يقول ضابط نقطة العبور شيئاً، لكننا نتحرّك بفوضى: بعض سيارات البك ـ آب تعبر الحاجز مُزمِّرةً وهي تنطلق باتجاه الجبهة، ومؤخّراتها مزدحمة بالمُحاربين، بينما أبوابها مفتوحة كي تسمح لأكبر عدد من الشباب الواقفين أن يُمسكوا بها، ويتحايل آخرون للعودة، وحين لا يتوصّلون إلى ذلك يتركون الطريق ويقطعونها من الجوانب؛ فتتكوّن جوقة من المزامير والتعرُّج بين الصواريخ المضادة للطيّارات، والقنابل غير المُتفجّرة، وتتوقّف سيارة فجأة لأنّها تغور في الرمل، فتعكف مجموعة من الشباب على جرِّها، ومع تبادُل المساعدة في ما بينهم، يتعلّقون بالأبواب ليهربوا في الصحراء، وتسير مجموعة مُقاتلين على الأقدام تاركة الطريق، للتوجّه صوب الكثبان التي يبدو أن إطلاق النار يأتي منها. أما نحن فحاولنا السير في أوّل دفق من سيّارات البك ـ آب، ذاك الذي يتقدّم باتجاه راس لانوف. لكنّ الضابط أوقفَنا، وتجادل مع السائق، ثمّ مع الشابّين اللذين لم يقولا شيئاً، بل نزلا من السيارة وركضا باتجاه سيارة أخرى كانت تعبر. حدث ذلك كلّه بسرعة فائقة. صرخ بنا الضابط: «أمن»، كما لو أنّه يوبّخنا. شعرتُ بعدم إمكان أي نقاش معه. فاتبعنا حركة الرجوع.

على طريق العودة، توقفنا أمام حاجز لم يكن موجوداً عند ذهابنا، حيث يُفتِّش السيارات رجال آخرون باللباس العسكري. يصعد شاب ذو نفوذ في سيارتنا. ويصعد آخر على واقيتها الخلفية. أرى جسد رجُل على الجانب، نائماً على الأرض، دامي اللُّعاب. يصرخ. تتوقّف شاحنة صغيرة. تنزل منها مجموعة شباب وتهرع صوبه لحمله. وبعد 2 كم، حيث أُوقِفنا على نقطة عبور أُخرى، رأينا جسداً آخر، رأسه في رامة من الدم المُتخثّر، وقد اسودّ الرمل حولَه، ورفٌّ من الذباب فوقه ـ لا أحد يلتفت إلى هذا الجسد، أظنّ أنه ميت، على كل حال، هذا ما يُفهمه الراكب معنا للسائق وهو يربت على كتفه كي لا يُجفّف السرعة، صارخاً «ف...!»

غرادا». هذا الشعور الذي يلازمني دوماً أمام موتى الحرب: الحد الدقيق الفاصل بين حالتهم السابقة وحالتهم الآن؛ رؤية دمهم التي تمنحهم فيضاً من الحيوية؛ والثقة القليلة التي نشعر بالقدرة على منحها، بالتالي، لحياة الأجساد من حولنا ـ وفكرة عدم مُناسَبة هذه اللحظة لأتوقّف عند هذه الأفكار أكثر من ذلك.

السبت 5 آذار/مارس (رؤية ولادة المجلس الوطني الانتقالي)

تحوّلت قضية عبد الجليل إلى وسواس.

بدأت اليوم بأن تسوّلت من صحفيّي تيبستي إمكانية الاستعانة بحقائب اتصالهم عن طريق الأقمار الصناعية؛ لأني أعرِف أن من المُمكن، حتى من هنا، الاتصال بالانترنت. شغّلت محرِّكات البحث المُفضّلة لديّ، وكتبتُ بأشكال فرنسية مختلفة اسم مصطفى عبد الجليل. فأنا ألفظ هذا الاسم من دون أن أعرف عنه شيئاً يُذكر.

أعرف باختصار أنّه كان وزير العدل في عهد القذّافي سنة 2007 (في الشهور الأخيرة لقضية المُمرِّضات البلغاريات)، وأنّه خلال عامي 2009 و2010 قاد حملة، من داخل النظام، لتحرير السُّجناء السياسيين (وهي حملة يصعُب قياس نتائجها الواقعية لكنّه بالتأكيد استحقّ الهالة التي يبدو أنه استفاد منها)، وأنه أوّل موظّف في الدولة التحق بالثوّار في 15 شباط/ فبراير (وبعد ذلك اختارته لجنة حكماء في 17 شباط، بعد أن اجتمعت في البيضاء، رئيساً مؤقّتاً للحركة)، وفهمتُ مؤخَّراً، من خلال الوثائق الأميركية التي سرّبها ويكيليكس، أنّه مسلم تقيّ، أقرب إلى المُحافظة، غير أنّه «مُتعاون ومُنفتح» (ومؤكّد أنه ليس إسلامياً قريباً من القاعدة، الخ، كما تزعم أبواق القذّافي).

قضيت باقي اليوم مع فكرة في واحدة في رأسي، عبّرتُ عنها في كلّ لقاءاتي، وكرّرتُها بلا كلَلٍ أمام دوّار الشمس البائس الجاهز، في كلّ مرّة، لتذكير غوقة بوعده في لقاء عبد الجليل، وقيادتي إلى هذه الشخصية التي لم أعُد أعرف إن كان خيالي وحدَه هو الذي يُعطيه هذه الأهمية أم الواقع؛ فأنا أريد بأي ثمن، حقاً بأيّ ثمن، أن يؤمّن لي الاتصال مع هذا الرجل غير المرئي، مع هذا الفرد الغامض للغاية، مع أفلوطين التمرُّد، ومع هذا الجِدعون الآخر ـ لكن، أقول مرّة أُخرى، هل عيوني وحدها هي التي تُحيط بها هذه الهالة (يقول لي جيل «لا» مُطمئناً لكنْ من دون أن أصِل إلى معرفة إنْ كان هو نفسه يبحث عن الاطمئنان؛ فلا أحد حتى الآن

استطاع أن يراه؛ ومن الواضح أنّه الشخصية المفتاح؛ فتخيّل سفرَنا إلى جنوب السودان، لو لم نُصِرّ في نيروبي، ثُمّ في لوكيشوكيو، على النجاح في رؤية جون قرنق...).

وحيث إنّهم أكّدوا لنا أن رجمة قريبة من بنغازي، وأنه كان بإمكاننا، لو أنّ الاتصال الهاتفي يصِل هناك، أن نعود إلى المدينة بسرعة، ذهبنا إلى رجمة لنرى مستودع الذخيرة الذي انفجر الليل الماضي. لنرى أنقاضه. وهذه السحابات من الدخان التي ما تزال تنبعث من بعض الأنقاض. وفي مكان أبعد قليلاً وابِلٌ من غبار أسود وكأنّ قوّة الانفجار شكّلت سحائب من السّخام الذي كان يتصدّع. بينما تجول مجموعة من الناس المتدثّرين بمعاطف ذات قُبّعات يبدو أنها تقيهم من عدوى مجهولة، بين الأنقاض بحثاً عن قطعة سلاح سليمة، عن صندوق ذخيرة لم يأتِ عليه الانفجار. هل نتج الانفجار عن حادث؟ عن عملية تخريب؟ عن قصف جوِّي (لكن رأى أو سمع شيئاً)؟ كلّ ما هو معروف أنّ هناك 27 قتيلاً وأنّ هذا ليس في صالح الثوّار الذين سمعناهم أمس في البريقة، يستاءون من نقص السلاح. من جهة أُخرى، كلّ شيء تغيّر. بعد عدة ساعات تقريباً، لكنّ لهجة بعضهم ممن خضنا معهم نقاشاً كانت مختلفة. إذ خفّ التبجُّح، وازدادت الوجوه اكفهراراً. حكى بعضهم كيف يُعطي القذّافي رجالَه الفياغرا وشحم البنادق تاركاً لي أن أحزر الغرض من استخدامه. ويذكر آخر قائد مرتزقة تشادي، فظيع جداً، مجهول الاسم، لكنّه معروف بأنه أكتع. بينما يؤكّد الطالب الجامعي ربيع بأنه تلقّى معلومات من ابن عمّه في طرابلس عن هجومٍ مُضادّ وشيك.

ساعة الغداء، قتلنا الوقت على الكورنيش، بإعادة شرحنا لقصص الحضانات وجمع القمامة التي بدت في أعيننا أقلّ أهمية من البارحة. وفي الحيّ الإيطالي القديم، قضينا الوقت في زيارة الكاتدرائية (المُحوَّلة عن وظيفتها) ذات القُبّتَين بلونهما الأخضر، والقصر الأسقفي سابقاً نصف المُهدّم. حاولنا أن نعثر على أطلال بنغازي القديمة، أطلال هيرودوت، والملكة بيرنيسا ـ لكنْ ماذا يُمكِن أن يبقى من مدينة دُمِّرت ثلاث مرّات، بل أربع مرّات. أجل! إبّان الغزو الفارسي، والعربي، والعُثماني، يُضاف إليها الغزو الإيطالي؟ دوّنتُ، على عجَل، ومرّة أخرى أيضاً، أنّ الفن، وفن الأدب بالتحديد، يعرف كيف يمنح الحجرَ حياةً، وأن مدينة خالية من الكتّاب، لن تعرِف أبداً إلا وجوداً من مستوىً ثانٍ. في الثانية بعد الظهر، يأتي النصر! فها هو محمّد عبد الملِك، المعروف بدوّار الشمس يتلقّى أخيراً المُكالمة الهاتفية التي كان ينتظرها، فنوّرت وجهه المليء بالزوايا والتجاعيد. يقول مؤكِّداً: «مصطفى عبد الجليل هنا»،

ويبقى صوته فاتراً، مُتباطئاً قليلاً، رُبّما يفعل ذلك قصداً، أم أنّ هذه طريقه في أن يتقدّم قليلاً على هؤلاء الفرنسيين مُستفزّي الأعصاب، الذين يستعجلونه منذ أمس.

«الرجُل في المدينة، ينتظرنا، هيّا بنا...»

بيت واسع جميل، غرب مركز المدينة، كان الدائرة المحلية لوزارة الخارجية. حديقته مطلّة على البحر، مُهملَة، ومليئة بجذوع الأشجار ونباتات الأدغال. وتَتسلَّق على واجهته نباتات الجهنميّة الحمراء والبيضاء من دون دعائم. علا ضجيج حشراتٍ حادّ فَوْر تخطّيها العتبَة. في الحديقة حوض مليء بالرمل. وفي داخل هذا المقرّ الغريب عدّة حجرات مُتتالية حيث يقف رجالٌ مُسلّحون، وفي الطابق الأوّل قاعة بأعمدة، فتحاتُها زُجاجية عليها ستائر مفتوحة، بأرائكها ذات الدواليب التي جُهّزت أمامها كؤوس الشاي وفناجين القهوة، وعُلّقت على الجدار خريطة ليبيا، ألوانها عديدة ومزيّنة بحروف على شكل حلقة، يبدو أن القاعة تحلّ محلّ البهو. هذا هو المكان.

بعد أن قضينا ساعة في دراسة تفاصيل دوائر الخارطة، قال جيل بقلق: «هل أنتم مُتأكّدون من مجيئه؟». أجاب دوّار الشمس، بصوته المُترافق مع شكّ المرح المُفتعَل الذي يُشير إلى أنّه هو القائد في هذه القضية: «أكيد سوف يأتي. تفضّلوا بالجلوس. لن يتأخّر». وأضاف بصوتٍ خافِت استعاد النغمة الأخوية التي كانت فيه البارحة: «لا تغضبوا، هذا يوم خاصّ، إنّه اليوم الذي ستتمتّع فيه بنغازي بحكومة انتقالية؛ لهذا السبب تأخّر». وقال لي حين رأى اندهاشي من عدَم اتّصاله ليُخبِرنا بأنه لم يَنْسَنا: «لا تقلَق، أرجوك؛ خصّصَ لكم وقتاً، وفهِم أن هذا هامّ، وسيأخذ الوقت الكافي للتحدُّث معكم».

يدخل رجُل بهيُّ الوقار ظنَنْتُ أنّه هو طبعاً. وارتكبتُ الخطأ نفسه مع دخول شخص آخر. ودخل ثالثٌ يبلغ من المهابة ما جعلني أتأكّد من أنّه لا يمكِن إلا أن يكون هو، فنهضت بالتالي للسلام عليه مُحضِّراً تحياتي له؛ لكن لا، إنّه خطأ جديد. فوجدت نفسي في هذا الموقف الذي أعرفه جيداً، بأن أخمّن العلامة التي سأتعرّف من خلالها على هذا الرجُل حين سيُقدّم نفسَه، الرجُل الذي لا يعني لي شيئاً، وكنت ما أزال، حتى عشية أمسِ، أجهلُ اسمه ووجودَه، لكنّه يبدو لي، في تلك اللحظة، أهمّ شخص على وجه الأرض؛ حيث أمرّ، تقريباً بطريقة محتومة، جانب الهدَف.

قلت لنفسي كثيراً من المرّات: «لن أعيدها». مرّات كثيرة، حضّرتُ نفسي: «لن أترك نفسي هنا أنخدِع بمظهر». وكلّ مرّة، يحصل الشيء نفسه. كلّ مرّة، السيناريو نفسه. في أسمرة (في أرتيريا)، في هوامبو (في أنغولا)، في جوبة (في جنوب السودان) حيث سلّمت على حوالى ستة أشخاص حسِبتُهم جون قرنق قبل أن أهتدي إلى شخصه الحقيقي، وفي زينيكا (في البوسنة الوسطى) حيث قضيت النهار أنتظر، في المقرّ المركزي، اللواء محمّد ألاجيك، القائد الأسطوري للفيلق السابع في جيش البوسنة، وذلك قبل أن أتعرّف وجهَه النقيّ، ونظرته نصف الخبيثة، نصف المُرتبِكة التي سوف يكتشفها العالَم، بعد زمنٍ طويل، لحظة إدانته في محكمة لاهاي، كانت تحدُث، في كلّ مرّة، المهزلة نفسها. تماماً مثلما حصل اليوم، فخلال ساعة، وبعد ازدراءٍ تكرَّر ثلاث مرّات، حيث تركت نفسي للانخداع، هنا، يظهر لي بهيئة مهيبة لا تقبل الجدَل، هنا، بتواضُع مظهره، وبمزيّة أفضل أيضاً، هنا، بقامته العالية، يُغطّيها لباس قبَلي تقليدي، فخلق، حين أطَلّ، قشعريرة غير ملحوظة بين الليبيين أنفُسهم، وانتهى بتقديم نفسه: مصطفى عبد الجليل، الحقيقي: قصير القامة، بسمته متواضعة، نظرته كنظرة النسر الباهرة، أصلع، شعره قصير جداً، والدائرة السوداء في جبهته التي تدلّ على مزاولته السجود وكثافة تعبُّده، معطفه رمادي، تفصيلته ممتازة، لم يخلعْه، على الرغم من الحرارة المرتفعة، إلا في وسط الحديث؛ إنها الصلابة الشديدة التي طالما وجدتُها عند أولئك الذين يُواجهون الاستبداد بأيدٍ عارية، وقد وصل، كالمُعتاد، لحظة عدَم انتباهي،وبالتالي لم أتمكّن من «تعرُّفه».

تمّ الحديث بحضور ستّة من مُعاونيه، في حُجرةٍ أُخرى، متّصلة طولياً، مفروشة بأثاث حديث، ومجهّزة بحواسيب، وثُريّتَين موضوعتين على طاولة، وبهواتف محمولة لا تتوقّف عن الرنين، وتنتشر عُلَب الصودا في كلّ مكان، بينما لُفَّت سجاجيد الصلاة. جلس مصطفى عبد الجليل وراء مكتب من خشب متين. يفهم الإنكليزية. ورُبّما الفرنسية أيضاً. لكنّه يزعم أنه لا يُجيدها. ويطلب من أحد الحاضرين، الذي يتكلّم الإنجليزية بامتياز، أن يقوم بالترجمة. راح يُراقبني. أقرأ في نظرته حُسْنَ اهتمامٍ مشوباً بقليل من التحفُّظ. بدأ خلال ما يقرب من ثُلث ساعة يُجيب على أسئلتي ويشرح لي، في اللحظة الراهنة لحديثنا، واقع حال التمرُّد: حدّثني عن نفسه، ومن أين جاء، عن قصّة المُمرِّضات البلغاريات، التي كان القذّافي يُريد استغلالها، ضدّ رأيه هو، كي يبتزّ الغرب؛ وعن اجتماع مدينته البيضاء حيث قرّر مجلس الحُكماء أن يسمّيه

رئيساً له؛ وعن نهار اليوم الحاسِم الذي سيُكرِّس هذا القرار ويمنح الحركة «مجلِساً انتقالياً» مبنياً ومدعوّاً للاستمرار، وعن الانتصارات العسكرية التي يُحقّقها الثوّار، وانتصارات الأيام الأخيرة، التي تشهد على تفوُّقهم المعنوي، وعلى عدالة قضيّتهم، وعلى إيمانهم، لكنْ، بحسب ما كان يعرف عن ردود أفعال هذا «القائد» الذي خدمه زمناً طويلاً طبعاً، فسوف يتصرّف بسرعة، ويردُّ بطريقة وحشية، مُحاولاً أن يغسل التمرُّد الذي قام في وجهه، بالدم ولن تُقاوِم المدُن المُحرَّرة (بن جواد، وراس لانوف، البريقة، واجدابيا، وحتى بنغازي) طوابيره المصفّحة إلا بِمُعجزة.

هل أنا الذي قاطعتُه هنا؟ أم توقّف بعد أن قدّر أنه تكلّم بما فيه الكفاية؟ لم أعُد أعرف. لأنّ الأشياء بعد هذه اللحظة ستجري بسرعة. أتنبّه أولاً إلى أنه لا يملك فكرةً من أيّ نوع، كما تنبّه هو إلى أنّ الذي أمامه كذلك. ينظر إليّ بطريقة بيغوفيتش نفسها حين رآني أوّل مرّة في قصره الذي كان تحت القصف. أو بطريقة مجيب الرحمن قبل عشرين عاماً، حين أتيت، بسروالي القصير، في البيت الواطئ، في طابق كان يسكنه في شارع مُطِلّ على ساحة «داكا» الكبرى، لأشرح له أنني ساهمتُ في تحرير بلاده وتقضي كبريائي بأن أُساهم في إعادة بنائه. وحتى بطريقة الجنرال مسعود، المُحاصَر في مخبئه، ذات يوم من عام 1968، غداة سقوط «تالقان»، حيث أتيتُ لإجراء مُقابلة معه لجريدة اللوموند، واقترحتُ عليه، وأنا أغادر، بأن أجعل شيراك يُقابله.

بدأت بالقول «العالَم كلّه ينظر إليكم»، لأنّه ينبغي قول شيء، ولأنني دائماً ما أفعل مع المناضلين من أجل الحريّة الذين أُتيح لي أن ألتقي بهم في طريقي. «كل العالَم ينظر إليكم. عيونه مثبتّة عليكم. فبنغازي ليست عاصمة ليبيا الحرّة فقط، بل عاصمة أحرار العالَم كلّه رجالاً ونساءً. أتينا لنقول لكم هذا. أتينا أيضاً لننقل لكم تحيات أبناء وطننا ممّن يتذكّرون كفاحنا ضدّ الفاشيّة. فمعركتُكم هي معركتنا. وشجاعتكم تُوجِب علينا الالتزام بمساعدتكم». كنتُ مُكبّلاً بما نطقتُ به توّاً. حتى إني مُتضايق قليلاً بسماع نفسي من جديد أكرِّر الخُطب الرنانة المُملّة مثلما فعلتُ أمام قرنق في جنوب السودان، وعبد العزيز في جبال النوبة، وللمقاومة في بوروندي، وأنغولا أو أفغانستان، وخصوصاً أنها خُطب عديمة الدلالة يسمعونها بتهذيب، مع علْمي أنها في ذاتها لا تساوي شيئاً. وحيث إنّها عديمة الدلالة لأنها عديمة الدلالة، ولأنني أفكر ببيغوفيتش المُحاصَر، المحبوس في الجزء الأقلّ دماراً في قصره،

الذي كان، في ذلك اليوم، صائراً إلى موت مُعلَن، فتخطر في بالي فكرة، تكاد تكون أقلّ عبثيّةً، لكنّها تستحقّ أن تصير محسوسة.

أقترح عليه ما سبق أن اقترحتُه على بيغوفيتش بعد أن شرح لي، ببعض الكلمات، بعد عودتي إلى فرنسا، التي ستُثير غضبَ سيمون فياي، وكلود لانزمان، وبعض الآخرين، إذ قال إن سراييفو هي فرصوفيا، وأنه يتوسّل الغرب ألا يترك غيتو فرصوفيا مرّة ثانية. اقترحتُ على بيغوفيتش أن يجعل من طلب النجدة الذي يُوجِّهه إليّ رسالة مكتوبة بحسب الأصول، وسوف أُوصِلُها إلى الرئيس فرانسوا ميتران. وإليه، إلى الرجل المجهول الذي يقف أمامي، والذي يُذكِّرني، من خلال ملامح كثيرة، ذاك الذي تعوّدنا على تسميته، كالبوسنيين، «الختيار»، عرضتُ أن أنقل ما قاله لي، كما هو، إلى نيكولا ساركوزي ـ ورُبّما، إذا رغِب، أن أُرافق وفداً من مواطني بنغازي أو من مسؤولِيها إلى فرنسا.

في تلك اللحظة، لم تكن لديَّ أية فكرة عن الطريقة التي يُمكِن أن تتِمّ فيها الأشياء. وأقلّ ما يُمكن قوله أنني لم أكن على يقين من إمكانية القدرة على الاتصال برئيس الدولة الغربية الذي استقبل، قبل أربع سنوات، القذّافي استقبالاً فخماً في باريس، ولا من كيفية تصرُّفه إزاء فكرتي. لم أنتخِبْه. ولم أتحدّث معه منذ سنوات. أجل! فيما عدا مرّة واحدة، أو بالأحرى مرّتين، حين تعلّق الأمر بالحصول على موافقته على التدخُّل لإنقاذ سكينة، أم العائلة التي حُكِم عليها بالرجم. وقد تدخّل، وإليه يعود فضل أنها لا تزال على قيد الحياة ـ ومنذئذٍ، انقطع الاتصال.

الحقيقة أنّ هذه الفكرة، كما في سراييفو، تماماً كما في سراييفو، خطرت ببالي هكذا، من دون تفكير أو تأمّل مُسبّق: مجرَّد حركة تمرُّد داخل ذاتي، مجرَّد رُعب انتابني أمام ما صُرِّح به أمامي، إذ شعرت فعلاً باللحظة المُناسِبة «لِواجبِ فِعلِ شيءٍ ما» واجب الحكمة الشعبية حين يكون حدوث الجريمة وشيكاً، وبضرورة التنبُّه إليها، وعدَم الانصياع لحتميّتها.

يُراقبني مصطفى عبد الجليل بانتباه يكاد يُضايقني. شعرت كما لم أشعر من قبل أنّه يتساءل: من هو هذا الرجل الذي لا يعرفه، الذي ينتمي إلى نوع ينبغي ألا يعرفه أكثر من ذلك، جاء يقترح عليه أن يصِله برئيس جمهورية خامس أقوى دولة في العالَم. ثمّ هل أكون دبلوماسياً...أم صحفياً...أم جاسوساً... هذه الأنواع كلّها يعرفها عبد الجليل... وهي معروفة في ليبيا، على صعيد قدراتها، وحدودها، وطريقة عملها...لكنْ لا! «مُثقّف»!

و«مُلتزِم»! فضلاً عن أنّه خَدُوم «يعرف نيكولا ساركوزي، مع أنّه لا ينتمي إلى حزبه»! بدا له ذلك كلّه في غاية التعقيد. تجتاحه بقوّة فكرةُ أني قد أكون مازحاً، أو مُتحمِّساً، أو مُجازِفاً، بحُسن نيّة، ولكني أحد الحالِمين الذين تُنتج منهم الحرب عدداً كبيراً. حتى قد يقول لنفسه (وقد يقوله أي إنسان، وخصوصاً موظّف كبير في الدولة الليبية الذي مارس عمله في ظلّ طرائقها ونُظُمها!) ما هكذا تتِمُّ الأمور، وهذا الرجل يُضيِّع وقته.

رُبّما حدّث نفسه قائلاً: ينبغي التحقُّق، لكن كيف العمل؟ أتكلّم بالهاتف ـ لكنّ البلد مقطوع عن العالَم. يسألني أكثر، يسبرني بشكلٍ أفضل ـ لكنّ الزمن يستوجب التعجيل. لا. في هذه اللحظة، تولّدَ شيءٌ في ذات هذا الرجل. شيء كاللُغز، ليس عندي شرح حقيقي له، وأنا أعيد التفكير بهذا المشهد، مُحاولاً إعادة وصْفه. فأضاء وجهه على عكس كلِّ توقُّع. شكرني على كلِماتي القليلة التي قلتها، ثمّ نظر إلى جيل، ومارك، وفرانك، وإليّ، وشكرنا لمجيئنا إليه، ولأننا سافرنا هذه المسافة الطويلة كي نصل إلى مدينته التي تعيش حالة حرب. وفي النهاية قال ببساطة، بينما كان أحد هاتفيه المحمولَين (ماركة ثُريّا) يرنُّ، إذ نسي أن يفتحه، للمرة الأولى، منذ بداية الجلسة: «أنا موافق، اتصلوا برئيسكم إذا استطعتم، وقولوا له لم يعُد القذّافي يملك أية صفة لتمثيل شعبي، فالشرعية، وحدَها، التي يجب أن تعترف بها الأمم المتحدة هي هنا». وإذ اعتقد أن الحديث انتهى، وأشار إلى روسيل، الذي صوّر كلّ شيء طبعاً، أن يجمع أدواته، قائلاً إنه سوف يأخذ إجازة لعدّة أيام، أضاف، باللغة الإنكليزية على الفور، وانفرج وجهه: «لا، لا، لا تذهبوا، فهذا الاجتماع هامّ، لا تُصوِّروه، فهو مُهِمّ، ويُمكنكم أن تلخّصوا مجرياته في تقريركم لرئيسكم».

تلت مُناقشة باللغة العربية استُبعِدنا عنها تلقائياً. لكنّي شعرتُ أن النقاش مُتأجّج، ومتناقض، حيث بدا أن عبد الجليل كان يُقدِّم مُرافعة، ويُصِرّ، ويُقاتِل كاسِباً الموقف، لكن خطوة خطوة، وبصعوبة في مواجهة رجالٍ أخطأتُ حين ظننتُهم مُجرّد مُعاونين له. بعد حوالى ربع ساعة، سكت الجميع. انتهى النقاش فجأة كما بدأ فجأة. وخيّم صمتٌ على الجو اخترقه عبد الجليل بقوله بالإنكليزية أيضاً كما لو أنه يعدّنا شهوداً على نقاشٍ تابعْناه: «هو ذاك» وردّد هذه الكلِمة وهو يأمر الآخرين بنظرته الثاقبة أن ينصرفوا. لم يكن عددنا كبيراً. عاد كما كان عليه قبل قليل. في أي فندق تنزلون؟ في فندق تيبستي. هذا مُلائم جداً، فهناك سوف نجتمع لنختم ونُطالِب بهذا...». ويُرينا صفحة مُزدوَجة مطبوعة على الساحِبة، تعتمد، بالإنكليزية،

تشكيل «مجلس وطني انتقالي»، رأيت في رأس القائمة أنه رئيسه. أضاف بصوتٍ مُتأثّر: «هذه وثيقة تاريخية. أنتم أوّل من علِم بها. احتفظوا بهذه النسخة حتى موعد اجتماعنا هذا المساء». وهمَّ بالذهاب ليفتح الكوّة الزجاجية على يسار مكتبه وكأن النقاش رفع حرارته. وفي هذه اللحظة، أسرع أحد الرجال يبدو أنه كان يهمُّ بطواعية ليفتحها له. فاستنشق، مُوارباً وجهه، جُرعةً من الهواء المُتصاعد من البحر ـ وبعد لحظة صمْت، صرفَنا بالقول: «القاؤنا في الطابق الأول من فندق تيبستي. وإذا تكلّمتُم مع رئيسكم هاتفياً، ارجِعوا، من فضلكم، إلى السيد غوقة، المُتحدّث باسمي الذي سوف ينتظركم في البهو».

السبت 5 آذار/مارس (الاستنجاد بنيكولا ساركوزي)

عُدنا إلى الفندق. كان الصُّداع المُنذِر منذ هذا الصباح قد انتهى بالتفاقُم. صعدتُ إلى غرفتي لأتمدّد وآخذ حبّة أسبرين. ثم نزلتُ إلى الطابق الأوّل حيث يبدو لي أن الرجال أنفسهم الذين رأيناهم في الفيلّلا يجتمعون بالإضافة إلى خمسة آخرين، حول طاولة ويستمعون إلى عبد الجليل. وإذ لم يكن لدي مُترجِم، وكان رأسي ثقيلاً، قلت لنفسي: الخروج في الهواء الطلق سيُريحني. فنزلت حتى عتبة الفندق باحثاً عن المكان الذي تعمل فيه الهواتف المحمولة بالكاد. بعد قليل تكون الساعة السابعة مساء. أهتف لطيّارنا لأتأكّد من أنه حصل على السماح ببقائه في مرسى مطروح، وفي الوقت نفسه، لاختبار الخطّ الهاتفي البائس. اتصلتُ بجاي، إلى جريدة **الأحد**، لأقول له إن ورقتي تتخذ مساراً هاماً، لم نستطع التفاهُم بسبب رداءة الاتصال، فأغلقت الخطّ حالاً. بقيت حوالى نصف ساعة على السُّلّم، وجهي بين يديَّ، ورأسي كالطبل، أكاد لا أُعير انتباهاً للصحفيين العائدين من تصوير تقاريرهم. قلق جيل، ودوّار الشمس، وفرانك الذي لا يتركني، فأخبرتهم أن كلّ شيء على ما يُرام، فبعد دقائق قليلة سيزول هذا الصُّداع النصفي. وأخيراً يزول لأنني التزمتُ، حين شعرتُ فعلاً بتحسُّن حالي قليلاً، بضرورة محاولة الاتصال بنيكولا ساركوزي.

كيف أتصرَّف؟ وبأية نغمة؟ وماذا لو عاد الصداع النصفي بقوّة؟ وماذا لو كان الصوت غير واضح كما حصل مع جاي والطيّار؟ ما العمل حين أتصل من بنغازي على خطّ رديء، مع رئيس الجمهورية الذي لم أُكلّمه منذ سنوات؟ لكن! على افتراض أن الاتصال مُمكِن، وأن مركز الهاتف في الإليزيه (وليس معي إلا رقمه) يُحوّلني فعلاً إلى الرئيس، وأنني أجِد الكلِمات الأولى، الكلمات التي تسمح بفتح الخطّ، فماذا أقول له؟ ما الرسالة بالضبط؟ فآلام رأسي تبلغ

من القوّة ما يحول بيني وبين أن تكون أفكاري واضحة تماماً، حتى إنّي لم أعُد أعرف، في الحقيقة، الرسالة التي أُريد تمريرها؟ اتّصلت.

لحُسن الحظ، ليس الخط رديئاً جداً.

لحسن الحظ، يردّ عليَّ في مركز الهاتف ضابط مُناوب يقول لي، كما لو أن الأمر تحصيل حاصل، «لا تترك الخط، سأصلِك بالرئيس».

ولحِسن الحظ أيضاً، ها أنذا، بعد عدّة ثوان من الموسيقى، مع نيكولا ساركوزي على الهاتف - بصوته الواضح اللطيف، ونغمة صوت الرئيس الذي أُزعجه لكنّه يتخيَّل تماماً أنه لابُدّ أن يكون لديَّ، إذ أتّصل به يوم السبت، وفي هذه الساعة، شيء مُهِم أقوله.

بدأت بالقول: «السيّد الرئيس».

يقرع الصداعُ رأسي من جديد. فأشدُّ على الهاتف بيد، وأعصر صدغيَّ باليد الأخرى، الإبهام على صدغ، والخنصر على الصدغ المُقابِل.

«أنا في بنغازي، سيادةَ الرئيس».

أجاب وكأنّ لا شيء أكثر عاديّة من أن يسمعني أتحدّث من بنغازي: «آه! كيف تسير الأمور؟ كيف حالك؟»

هو الذي بدأ يخاطبني بضمير المُخاطَب المُفرَد. لم يُدهشني هذا ما دُمنا نتحدّث دوماً برفع الكلفة. لكن هنا، في بنغازي، حيث أقف متوازناً على درجة السلّم الوحيدة حيث تعمل الهواتف المحمولة، ورأسي يشتعل صُداعاً، يُزعجني حتى أن أفتح عينيَّ، فقد بدت لي بداية المُكالمَة غير واقعية.

«عندي شيء مُهِم لأقوله لك».

«هاتِ، نعم؟»

دائماً باللطف نفسه. لكن مع قليلٍ من نفاد الصبر في الصوت. رُبّما لأنّ الخطّ تشوّش. أو رُبّما لأنّ هذا الصداع اللعين يُسمِعني، من حيث لا أدري، صوتاً غريباً.

«التقيت للتوّ «المسعودون» الليبيون.

- التقيتَ ماذا؟

- اللواء مسعود. «المسعودون» الليبيون. مُعارِضو القذّافي. رأيت المُعارَضة تتشكّل في شخصٍ واحد...»

أتى شخص بدين. صحفي فرنسي من دون شك، والتصق بي مُحاولاً أن يتصِل بالهاتف هو الآخر. أدرت له ظهري. كان هذا الانتقال البسيط، فوق أنّه يُفجّر رأسي، ليجعلني أفقد شبكة الاتصال. أعدتُ الاتصال. من حُسن حظي أن الخطّ واضح، وأنهم حوّلوني إلى الرئيس من جديد.

«كنت أقول مسعود... مسعود الذي أغلقت فرنسا أبوابها في وجهه بصورة مُحجِلة، في عهد شيراك...»

ـ أعلَم... أعلَم...

خامرني شكٌّ بإزعاجه من جديد، رُبّما لأنّه وجد أن أنني بالغتُ قليلاً في الغمز من شيراك. لكن، رؤية الأشياء من هنا، مع صراخ الشباب في الأسفل، ورَشّات الكلاشنكوف، وإطلاق منصّة الصواريخ المُدوِّي بقوّة هائلة في النواحي القريبة، لاشيء حقاً يفوق هذا ضجّةً، ولم أحسِب حتى الآن نتائج ذلك كلّها. استدرتُ قليلاً باتجاه البحر لأن الشاشة تُظهر لي أن ليس لديّ من مؤشّرات الشبكة الستة سوى أربعة.

«شاركت قبل قليل في ولادة كومونة بنغازي».

ـ «الكومونة؟ لا أسمعك بوضوح...»

هل حقاً لم يسمعني جيّداً؟ أم أنّ هذه الكلمة المُشبَعة بالتاريخ، بتاريخٍ خاص، أرهبته فجأةً؟

«في النهاية، أريد أن أقول المُعارضة. رأيتُ ولادة المعارضة الوطنية ضد القذّافي، وأرى من الخارق أن تكون فرنسا أوّل من يعلَم بذلك».

ـ «أكيد».

كان يبدو مطمئناً. لهجته أقرب إلى المودّة. بدا لي أنه عنى، في قوله «أكيد»، صدى أنصاف الكلِمات، والتواطؤ القديم.

«فكرتي هي دعوة وفد من هذا المجلس الذي شُكِّل توّاً إلى باريس».

ـ جيّد.

ـ لكنْ عندي سؤال؛ وعَدتُ بهِ أصحابَ الشأن هنا، وعليّ أن أسألك إيّاه: هل تقبل أن تستقبل شخصياً هذا الوفد؟

كثيراً ما جحدتُ المُعجزات، لكنّ الذي يحدث هنا في هذه اللحظة إنما هو مُعجزة، المُعجزة الثانية اليوم،وإذا فكّرنا فيها، تكون أقلّ احتمالاً من الأولى. فبدل أن يتعجّب قائلاً: «يا لها من فكرة!»، بدل أن يُجيبني بحذر «لِمَ لا؟ ليست الفكرة واضحة تماماً، ولكن لِمَ لا؟ فلنتحدّث في هذا حين نلتقي، في باريس»، بدل أن يُلامس الموضوع برفق ويطلب مني، وهذا ما كنتُ سأتفهّمه كلياً، أن أتصِل بِمُستشاره جان ـ دافيد ليفين، وأبحث الأمر معه، قال رئيس الجمهورية، وقد بدا له من الطبيعي أن يقترح استقبالاً رسمياً لسُلطة مُتكوِّنة حديثاً لا أحد يعرف عنها شيئاً وهي تنتفض ضدّ حكومة طرابلس القوية جداً، وكرَّر بصوتٍ هادئ:

«بالتأكيد...»

انقطع الحديث فجأة. لم أفعل شيئاً هذه المرّة. حرصت على ألا أتحرَّك مليمتراً واحداً بعدُ. غير أني تساءلت عمّا إذا لم يكن هاتف الثريّا، خلافاً لهاتف الإيريديوم الذي تملكه صفوة الصحفيين، يفصل كل ثلاثين أو أربعين ثانية. تلزمني عشر دقائق، هذه المرّة، للعثور على شبكة، مُتنقِّلاً من نقطة إلى أخرى، مجرِّباً أكمة، في الشارع المُعاكِس، رُكن من مرآب، عائداً إلى السُّلّم من جديد، ذلك كلّه وفي ذهني جملة «بالتأكيد» الغريبة، الثمينة، اللُّغز، ترنُّ الآن مُتّحدة بآلام رأسي. ومن حسن حظّي، الرئيس ما يزال هناك. وهذه المرّة هو الذي بدأ.

«فكّرت...»

طرأ تشويش حال بيني وبين سماع بقية الجملة. قلتُ «ألو»، وأنا مُقتنِع بأنّه فكّر، أجل، لكن كي أختم بأنه لا يفهم شيئاً ممّا أطلبه منه، ينبغي أن نتكلّم في الموضوع بهدوء بعد عودتي، ومكالمة ليفيت، الخ. ألو؟ لم أعُد أسمع شيئاً...

استأنف قائلاً بعد أن صار الخطّ واضحاً من جديد، والصوت صافياً: فكّرتُ. سوف أستقبل أصدقاءك بطيب خاطر.

ـ قلت: أصدقائي، بينما كان صدغيَّ ينبضان بقوة، وما صدّقت أذنيَّ... لاشكّ أنّه سيكون حدثاً عظيماً... سيكون صداه عالمَياً...

كرّر: هذا ما أقول، وابتعد صوتُه فجأة، لكنّ الخطّ هو الذي يُصلِح نفسه على ما يبدو، حاسماً جودة الاتصال ونقاء الصوت. سوف أستقبلهم بكلّ سرور. سنتحدّث في أمرهم عند عودتك. تعالَ قابِلْني.

أنهى الاتصال. استغرق الحديث خلال المرّات الثلاث ثلاثين ثانية. قلت لنفسي إنّه أجمل من أن يُصدَّق. غداً أو بعد غدٍ، سيستيقظ قائلاً: لا معنى لهذه القصّة. سيجِد مُستشاراً يُحذِّره ويُقنِعه بأنّ أيّ رئيس جمهورية لا يستقبل هكذا، بفعل مُكالمة هاتفية من صديقٍ قديم بينهما مشاكل منذ عدّة سنوات، وفد سلطة في المهد، بالإضافة إلى أنّها تُعارِض قوّات القذّافي التي لا تُحصى. ماذا سأقول إذاً لأصحاب الشأن؟ بأية هيئة سأبدو إذا أعلنتُ لِغوقة، هنا، في البار، حيث تركتُه، وحيث ينبغي أن ينتظرني دوماً: «تمام، وافَق ساركوزي، سوف يستقبِل مَن تُريدون، مَن نُريد، بسرور، هذا حدث تاريخي» - وإذا استقبلهم مُستشار حين يصيرون في باريس؟

قال مارك الذي كان حاضراً، والذي صوّر المُحادثة سِرّاً، وفهِم، من إجاباتي، أن الأمور تسير بالأحرى على ما يُرام: «أين المُشكلة؟». أمّا جيل الذي التحق بنا، ووضعتُه في الصورة على عجَل، فخاطبني مُطمئناً: «قال لك ساركوزي إنّه سيستقبلهم، إذاً سيستقبلهم، هذا أمر بسيط، هذا رائع، هيّا بنا نُخبِر غوقة الذي ينتظر».

عُدنا إلى الفندق، وكان جيل ومارك يركضان تقريباً، وحالي كحال «كودي جاريه»، الشرّير الذي مثّل دورَه جيمس كاني في فيلم «راوول والش» جهنَّم لهُ، الذي مات بسبب آلام صُداعِه النصفي.

كان غوقة جالساً في الزاوية الأبعد من البار، مع رجُل بطربوش أحمر، لاشكّ أنه واحد من الوجهاء لم يكن هناك قبل قليل، وها نحن نراهما معهاً الآن غارِقَين في حديث طويل ومُريح. أخبره جيل بإطلاق قوله: «تمام».

كرَّر جيل باهتياج: «تمام»، لأنَّ هدوء غوقة، وطريقته في مُراقبتنا بتحفُّظٍ غريب، بدل أن يرقص من الفرح، أغاظَه: رئيس الجمهورية الفرنسية سيستقبِلكم، إذاً فهو يعترف بكم، وعليكم تحديد التاريخ وتسمية أعضاء الوفد، هيّا بنا إلى عبد الجليل!»

لكنّ غوقة لم يقُل شيئاً. تأمّل جيل مليّاً، وراح يُراقبني مُعبِّراً بلَطف عن قلقه من صُداعي. أخذ رشفة قهوةٍ كما لو أن أمامه مُتّسَع من الوقت. وتبادل بعض الكلِمات بالعربية مع جليسه. واستغرق ثوانيَ كثيرة، ثوانيَ طويلة جداً قبل أن يُجيبَنا قائلاً:

«شكراً يا أصدقائي، شكراً جزيلاً. سأنقل الخبر إلى المجلس الذي يمرّ الآن كلّ شيء من خلاله. هل من المُمكِن أن نلتقي هنا بعد ساعة؟»

لا وقت لدينا للدهشة، لنهزّه، لنتأكّد من أنه فهِم، لنقول له: «إذاً لم تفهموا المسألة؟» إنها فرصة وحيدة لدعوة مُمثّلي الشباب الشجعان المحرومين الذين رأيناهم أمس، إلى أوروبا»، بينما كان قد وقف وانصرف - وهو يُكرّر قوله: علينا أن ننتظره، وسيكون هنا في أقلّ من ساعة، والقضية «هامّة» بالفعل.

خلال ذلك، قدّم لنا مصطفى عبد الجليل نسخة عن الصفحة المزدوجة المطبوعة على ورق الحرير. هؤلاء الناس غريبو الأطوار. لا خيار لنا في الواقع إلا الصَّبْر.

السبت 5 آذار/مارس، آخر النهار (الاتصال الثاني بنيكولا ساركوزي، ونتائجه)

مضت ساعتان.

ما نزال في تيبستي.

بفضل واحد من الألغاز التي تُكوّن ليبيا سرَّه، مرّت الرسائل النصيّة، وهكذا تلقّيت عدّة رسائل من ليفيت يطلب مني أسماء أعضاء الوفد الذين سوف يستقبلهم ساركوزي، ويُخبرني بأن أمين سرّه الخاصّ سوف يتصل بي ليُحدّد لي موعداً معه فور عودتي إلى فرنسا.

لكنّ غوقة لم يظهر.

ذهب جيل ومارك إلى المحكمة العليا الواقعة على الكورنيش حيث لا أحد يعرِف عنه شيئاً.

حتى الذين كانوا هناك بدوا لهم غريبين، أحياناً يتعرّفون عليهما، لكنّهم سُرعان ما يتجنّبونهما.

ما الذي يحصل؟ هل يُمكِن أن تكون المشكلة نابعة، في النهاية، ممّا حصل؟ هل عبد الجليل مشغول؟ هل هو حذِر؟ هل يُمكن أن تكون هذه الفكرة النابعة من مجهول، تقترح عليه انفتاحاً هائلاً، بدت له،بعد أن فكّر فيها، أجمل من أن تُصدَّق؟ بدت مثيرة للشكّ؟ عبثيّة؟ كلّ شيء مُمكِن. سوف ننظر في الافتراضات كلّها. فمع مرور الزمن، وبمساعدة البارانويا، تخيّلنا واحداً من مواطنينا، صحفياً أو غير صحفي، يُحذّر الليبيين. أو رُبّما يكون قد حصل اتصالٌ أيضاً - وهذا سيكون أهون الشرور، لأن الأشياء ستَتِمّ في نهاية المطاف - بين المجلس والطرَف الآخر، ليس الإليزيه بالطبع، لأنّ ليفيت طلب مني أسماء أعضاء المجلس، بل طلبتها وزارة الخارجية الفرنسية التي لم أكن أبداً محبوباً فيها، وبذلك تكون الوزارة قد تولّت

القضية بنفسها. شرح هذا أمرٌ آخر تماماً. وسوف نكتشفه بعد ساعة، ونحن ما نزال في بار الفندق، لا نعود ننتظر غوقة في الواقع، بل نعيش إحباطاً، ويستولي علينا القلَق، يُرافقنا دوّار الشمس الذي اتّخذ من جديد هيئة السيّد الذي يعرف شيئاً كثيراً ولا يُريد أن ينطق.

- مساء الخير، هل بحثتُم عنّا؟ ها نحن هنا...

إنّه غوقة، لم نرَه يدخُل. يُرافقه الوجيه الذي رأيناه سابقاً معه.

- آه! أخيراً! مكتب رئيس الجمهورية يطلب منّا أسماءَ أعضاء الوفد...

جلس غوقة. وطلب فنجان قهوة.

«انتظروا. لا تتسرّعوا. المجلس مُجتمِع الآن. يُشرِّفه الاقتراح. وهو مُمتنّ لكم، ومُمتنٌّ للرئيس ساركوزي. لكنْ ببساطة، من الصعب في نظرنا أن نأتي إلى باريس هكذا من دون الاعتراف بنا...»

- كيف هذا، من دون الاعتراف بكم؟ أنتم مُعترَف بكم في الواقع! المجيء إلى باريس يعني الاعتراف!

- نعم ولا... صعبٌ علينا حقاً أن نأتي إلى باريس من دون أن تتِمّ التفاتةٌ أولى... فمجلسنا تشكّل توّاً... والوضع العسكري غير جيّد... ولا نستطيع أن نرتكِب خطوةً غير صحيحة...

لمّا رأيت موقفه، مهما كانت درجة إدهاشه، قد تجمّد، وأنّه ليس موقفَه بل هو موقف المجلس، وأنه لن يتزحزح بعدُ، رَجُوتُه أن ينتظر بدوره عدّة دقائق، وصعدتُ إلى غرفتي لآتي بهاتفي المحمول، وأخرُج إلى سُلّم الفندق - وأنا أظنُّ أنّ عند هؤلاء الناس رباطة جأش هائلة - اتّصلتُ مرّتين. المرّة الأولى مع جان - دافيد ليفيت الذي كانت ردّة فعله مُطابقة في الجوهر لردّة فعلي: «الاعتراف هو الزيارة، وفرنسا لا تستطيع أن تتصرّف بلياقة بأكثر من أن تستقبل، على أعلى مستوى،مبعوثي المجلس المتشكّل توّاً.

والاتصال الثاني مع رئيس الجمهورية الذي أعلمتُه بالوضع، وكانت ردّة فعله مُفاجئة جدّاً أيضاً إذ يُذهِلني، لكن بعكس ذهولي من موقف غوقة والمجلس الوطني الانتقالي. قال بكلِمات واضحة: «نعم، أفهم ذلك؛ موقفهم منطقي، سوف أُفكر، لكنّي سأجِد حلاً، تعالَ لرؤيتي فور عودتك، يوم الاثنين صباحاً».

اكتشفت الحلّ بعد ساعة، حين كنت قد صعدتُ إلى غرفتي - اكتشفته كما اكتشفه أهل بنغازي، من ضجيج المدينة. إذ بدأ هذا بضوضاء أبواق السيّارات تحت نافذتي. ثمّ تعالت

صيحات الفرح وتناهت إليّ. ورأيت مجموعة من الناس تتجمّع على الأقدام على شاطئ البحر ثُمّ تتّجه إلى الكورنيش مُنشِدةً اسم ساركوزي، فنزلت الدرج أربعاً أربعاً، ورأيت أمام الفندق من جديد مارك وجيل. فانخرطنا بين الناس وحاولنا أن نفهم ما يجري. قال أحدُهم: اعترفت فرنسا قبل قليل بالمجلس الوطني الانتقالي. فأضاف آخر: لا، لم تعترف به، ولكنّها رحَّبت بتأسيسه، وهذا شيء رائع. حين وصلنا إلى الكورنيش، صعدنا إلى الطوابق العُليا حيث أرانا البيانَ الذي أعلنه الإليزيه والذي تبثّه وكالات الأنباء العربية، أحَدُ مُعاوِني غوقة المزدحم بالعمل، المُنهَك، الذي يتلقّى وابلاً من المُكالمات الهاتفية، ومع ذلك فهو مُغتبِط.

يقول البيان: «تُرحِّب فرنسا بالمجلس الوطني الليبيّ، وتدعم مبادئه وأهدافه التي يعمل من أجلها. وتُهنّئ نفسها بإرادة الوحدة التي توّجت تأسيس المجلس، وتُشجّع المسئولين فيه والحركات التي تُكوِّنه أن يُكمِلوا عملَهم بهذه الروحية. وتُدين فرنسا الاستخدام غير المقبول للقوّة ضدّ المدنيّين، وتتوجَّه إلى أقارب ضحايا المُواجَهات الجاريَة في ليبيا. وتُحيِّي شجاعة الشعب أمام العُنف في الزاوية وفي غيرها من المناطق الليبية. وتدعو بإصرار إلى احترام القرار 170 الذي أصدره مجلس الأمن، وإلى إيجاد حلّ سياسي سريع يسمح بوقف أعمال العُنف، ويتشكيل حكومةٍ ديمقراطيّة تستجيب لتطلُّعات الليبيِّين».

الجماهير في الخارج تصرخ من فرْط السعادة. وتوارد الناس الذين ازدادوا عدداً لِسماع الأخبار، أو أنهم يعرفونها، لكنّهم جاؤوا يحتفلون بمناسبتها يتعانقون ويُعانقوننا. حُدّد الموعد هنا غداً صباحاً: لقد قُبِلت دعوة فرنسا بشكل طبيعي، وسوف يُعطوننا أسماء أعضاء الوفد غداً. فاختفى صُداعي تماماً.

الأحد 6 آذار/مارس (بحثاً عن الجهاديين في درنة)

استيقظنا عند الفجر. عُدنا إلى الكورنيش، فوجدنا أنّه ما يزال مليئاً بالناس الذين يحملون أعلاماً عليها الأزرق والأبيض والأحمر صُنِعت أثناء الليل. لم تكن أشكالها ناجحة. بعضُها كان مستطيلاً جداً. وبعضها مُربّعاً أكثر من اللازم. رأيت، وأنا أقترب من أحد الأعلام، علَماً ضخماً جداً في الواقع لأنّه يُغطّي قسماً من واجهة مركز الصحافة، صنعوه من قِطَعِ قِماشٍ خُيِّطَتْ على عجَل، ولم يلوّنوها بأحمر حقيقي ولا بأزرق حقيقي. لكنّ تأثيرها فعّال. المدينة هي التي شرعت في الاحتفال بالعيد، والعيد فرنسيّ. بنغازي هي التي قرّرت، بعد هذه

السلسلة غير المتوقّعة من المُكالَمات الهاتفية، واللقاءات، أن تُكرِّم بلادي، وهو تكريم شعبيّ وعفويّ. حاولتُ جاهداً ألا أكون وطنياً بإفراط. هذه الفكرة تفعل فيّ شيئاً. دخلتُ، بتأثرٍ عارم، مكتب غوقة الذي لم يكن قد وصل بعدُ، لكنّه أرسل مُسبّقاً مُعاوناً كلَّفه بأن ينقل إليّ «المعلومات الأولى» عن الوفد الذي سوف يستجيب لدعوة الرئيس ساركوزي. من الأعضاء السيّد علي العيساوي الذي كان وزير المالية في عهد القذّافي، ثُمّ سفيراً في الهند، وبهذه الصفة كان واحداً من أوائل الدبلوماسيين يتغيَّب عن الموعد (فليس لديه تأشيرة دبلوماسية لدخول أوروبا ـ فهل يُمكِن تسوية هذا الأمر؟). والسيّد محمود جبريل أيضاً الذي كان، في السنوات الأخيرة، رئيس «تنمية الاقتصاد الوطني»، ورأس حربة تحرير الاقتصاد الليبي، وأنه، بحسب الورقة المزدوجة التي أعطاني عبد الجليل نسخة عنها، هي في جيبي، مُكلَّف مع العيساوي بالشؤون الخارجية للمجلس الانتقالي. ورُبّما سيُضاف اسم شخص ثالث، لا نعرِف بعدُ مَن يكون. أقول «لِمَ لا تكون اِمرأة؟. سيكون مُهِمّاً للرأي العام في فرنسا أن تكون امرأة من أعضاء الوفد. عندكم الأختان باغاغيف، إيمان وسلوى اللتان ستصنعان مُعجزة ـ سوف نرى، لا نعرف، سوف نُخبِركم...». أعطيتهم رقم هاتفي وعُنواني الإلكتروني، ورَقمَي جيل ومارك وعنوانَيهما الإلكترونيين. أكّدوا لي أنّهم لن ينتظروا حتى اللحظة الأخيرة، وأنهم سوف يُخبروننا فور توجُّه الوفد، أو أيّ عضو من الوفد، إلى باريس. فقرّرتُ العودة إلى فرنسا دون تأخير ـ من درنة إلى طبرق، والطريق كلّها بالاتجاه المُعاكِس حتى سالوم، ثُمّ مرسى مطروح حيث تنتظرنا الطيّارة.

توقّفنا من جديد في درنة. قصّة «الإمارة الإسلامية» هذه التي حدّثني عنها أيضاً أحد الصحفيين، في قاعة الفطور، في فندق تيبستي، تُكدِّرني. ولمّا قدَّرنا أن نُقلِع خلال الليل لنصل إلى باريس حوالى الثامنة صباحاً، وأنّ معنا، في النهاية بعض الوقت، قرّرنا أن نقضي فيها جزءاً من النهار. حقّاً النساء قليلات في الشوارع. والنساء النادرات اللواتي نراهُنّ مُحجَّبات. ثمّ إننا عزفنا عن إحصاء عدد المساجد. لكنْ هل هذه المدينة إمارة حقّاً؟ وإسلامية أصولية؟ طبعاً علينا توخّي الحذَر. وخصوصاً أننا لن ننجح في رؤية مَن قد يكون «أمير» المدينة، الأفغاني القديم، المدعوّ عبد الحكيم الحسدي، لكنّه، كما قيل لي، في الجبهة مع «فرقته»، هناك حيث «تحتدِم المعارك» لأنّ مُحارِبي درنة «أفضل مُحاربي ليبيا». لكنْ في النهاية، ثمّة علامات لا تُخطئها العين ـ ولا تمضي في الاتّجاه الذي يُخيفني.

عاشور، الطالب القديم في كلية الطبّ، المسلِم طبعاً، والتقيّ، رُبّما، غير أنّه يشرح لنا قائلاً: ليبيا الغد ستعترف بالحريّة، ليس فقط بحريّة الرأي، بل بحريّة التفكير، وأنّه أُخِذ بالشرح حتى نسِيَ وقتَ الصلاة.

هذه المجموعة من المحاربين تعيش تحت الخيام، غير بعيد عن الجامع الكبير: أحدهم يحكي لنا عن تحرير المدينة، ويُرينا آخر غاضبٌ جداً صُوَر أجساد مُقطّعة احتفظ بها في هاتفه المحمول، وهي تشهد على وحشية رجال القذّافي، بينما يقودنا ثالثٌ إلى قاعة مُتّصِلة بالمسجد، إلى حائطٍ من وجوهٍ حيث تُعلَّق صُوَر «شُهداء» أيام شباط/ فبراير ويُسمِّيهم واحداً واحداً، بنغمةٍ رثائية مؤثّرة لكنّها جليلة ـ ومع أني نظرتُ كثيراً، وسألت كثيراً، لكنني لم أرَ الفرق بين هؤلاء الثوّار، والثوّار الشباب الآخرينالذين تمكّنتُ من رؤيتهم في اجدابيا أو في البريقة.

هذا الإمام الفخور بأن مدينته هي «الأكثر تديُّناً في ليبيا»، وبالروح نفسها، كما لو أنّ هذا يُناسِب ذاك، هي التي دفعت الثمن الأغلى ـ مائتي قتيل ـ لثورتها ضدّ القذّافي: ويحتجّ على أن تكون درنة قد قدّمت، منذ عشر سنوات، إحدى أكبر فصائل «المُحاربين الأجانب» ذهبت لمُحاربة الأميركيين في العراق؛ وصرخ حين حدّثته عن «الأصولية»، وقدّم لي كلِمة «إسلام وسيط» نفسها التي قالها السيد الذي التقيت به على الكورنيش في بنغازي، في المساء الأوّل، ووقّع كلامه بالقول: لا يوجد في هذه البلاد إلا إرهابي واحد يُحضِّر ضدّناً شيئاً رهيباً، هو مُعمّر القذّافي المعروف بـ «المُجعَّد».

ثمّة تفصيلان أيضاً.

فرنسا. أخبار البارحة مساء أثارت هنا الحميّة نفسها التي أثارتها في بنغازي. ويكاد يكون الفرح مُزعجاً، كلّما قلنا نحن فرنسيون، في طريقنا إلى باريس. الأكثر أهمية هو إجماع هؤلاء الشباب على أن يطلبوا، بروحٍ واحد، تدخّلاً عسكرياً: لكن بأي شكل؟ ليس هذا واضحاً، لكنّ الدعوة واضحة، واليد هنا، ممدودة، وهنا مَن يطلب النجدة؛ فنحن بعيدون، بعيدون جداً عن أفغانستان، والعراق، وبُغض الغرب الذي هو غالباً الدين الحقيقي.

وهناك هذه الطرفة. عند مخرج المدينة، وقد هبط الليل، حين كنّا نبحث عن طريق طبرق، صادفْنا نقطة عبور غير مُتوقّعة. وهنا، وللمرة الأولى منذ دخولنا ليبيا، طلب الرجل المُناوب الذي يعطي لنفسه أهميّة، جوازات سفرنا. لاحظ، تحت ضوء شُعلته، وعدّ على جواز سفري وعلى جواز جيل، العدد الكبير من الأختام الإسرائيلية. أنزلنا من سيّاراتنا. وأتى بنا تحت واقية مرفوعة على أربع سَواري أعلام تكوِّن مقرّ نقطة العبور. ودعانا للجلوس على الأرائك

الغائرة، التي فقدت قِشّها، الموضوعة على سجّادة مُزرِيَة، وهذا كلّ أثاثهم. والمذياع الموضوع على أعلى درجة صوت، يُمطر فيضاً من الأخبار التي خمّنا أنها مُقلِقة، يبرز فيها اسم راس لانوف، وبن جواد، والبريقة، وبنغازي، وهانحن نمضي في نقاشٍ ليليٍّ طويل، حادّ لكن غير حاقِد، عن إسرائيل، والصهيونية، وحقوق الفلسطينيين المُنتهَكة - لكن الإزعاج الوحيد أنّ النقاش أخّرنا قليلاً.

لكنْ كلُّ شيءٍ على ما يُرام.

كنّا في الواحدة صباحاً، على الحدود التي عبرناها، في هذا الاتّجاه، بسرعة.

وفي الثالثة صباحاً كنّا في مرسى مطروح حيث قام بتسفيرنا موظّف شبه نائم.

خلال ذلك، استطعت للمرّة الأولى أن أفتح بريدي الإلكتروني.

كان في فيض الرسائل الإلكترونية، وقد تُهتُ في البرقيات التي بدأت تتحدّث عن «انقلاب الموقف» المُمكِن لِصالح القذّافي، ثلاثة أخبار.

صدر تقريري في جريدة الأحد، وعنوانه «ماذا يُمكِن أن نفعل من أجل الثورة الليبية الفتيّة؟» حيث أقترح التدخُّل العسكري الجوّي الذي يستهدِف مطارات القذّافي، وتشويش منظومات الاتصال والقيادة، وخصوصاً، الاعتراف بالمجلس الوطني الانتقالي بوصفه المُمثّل الشرعي الوحيد للشعب الليبي.

وثمّة خبر عاجل من وكالة الصحافة الفرنسية يستشهد بإعلان ألان جوبّيه الذي اعترف، قبل عدّة ساعات من القاهرة، بأنّ «الكولونيل القذّافي ونظامه» قد «فقد الشرعية» وعليه «أن يتنحّى»، لكنّه أضاف في الحال أنه يُعارِض بشدّة فكرة «تدخُّل عسكريّ غربيّ في ليبيا» إذ ستكون له، في رأيه، «نتائج سلبية للغاية».

وأخيراً رسالة من أمانة سِرّ رئيس الجمهورية يطلب منّي أن أكون هناك، غداً صباحاً، بل بعد قليل، الساعة العاشرة، في الإليزيه. كيف سيتناغم هذا مع ذاك؟ وكيف سيتمكّن ساركوزي من التوفيق بين حذَر وزيره ونزوته الخاصّة ساعة تأكيد هذا الموعد؟ سأعرف المزيد عن هذا بعد عدّة ساعات.

الاثنين 7 آذار/مارس (ذات صباح، في الإليزيه)

الساعة العاشرة صباحاً. لم يتوفّر لي الوقت إلا بالكاد لآخُذ حمّاماً سريعاً، وأحلُق ذقني، وأُبدِّل قميصي بآخرَ نظيف. وها أنا الآن، في الإليزيه، أمام هذا الرئيس الذي تربطني به علاقة مُتميِّزة.

هو خصمي طبعاً. هو رجل لم أنتخِبْه، ولن أنتخِبَه العام القادم. ولم أتوقّف، منذ أربع سنوات، عن النضال بشدّة ضدّ سياسته، في كلّ القضايا تقريباً (وهذه علامة لا تخدع أبداً: لاحظتُ أنني لم ألتقِ به على انفراد منذ ذلك اليوم من شهر حزيران/ يونيو عام 2008، قبل حوالى ثلاث سنوات، حيث كان قد طلب منّي أن آتي إليه لأحدِّثه عن آرته ـ ولم يكن لقاؤنا انفرادياً حينئذٍ، لأنّ «آلان مانك» الذي رتَّب المُقابلة كان حاضراً!).

لكنّ بيننا صداقة في الوقت نفسه. صداقة قديمة جداً تعود إلى أوّل انتخاب له، وهو في الثامنة والعشرين، مُحافظاً لمدينة نويّي. كنتُ ناخباً في نويِّي. دعاني إلى الغداء. ومن ثَمّ تولدّت بيننا علاقة، تميَّزت بلحظاتٍ جوهريّة من الرفقة، لحظات البعثة التلفزيونيّة التي دافع فيها منّي وعن «غلوشمانّ» ضدّ طارق رمضان، أو الأهمّ، خلال حرب البوسنة، حيث كان بالأحرى واعياً بيوميّاتنا، بِمَشاهد السّيرة، وأخيراً، بالجنس السردي الذي لا يُنسَى. زواج أحد الإخوة... هذا الصباح المنحوس من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر حيث تغور الأرض تحت أقدامكم، وحيث تعتقدون أنكم سوف تموتون أيضاً، وسبَق أن أجابوكم بأنه لم يعُد ثمّة من مكان، ولا حتى قبر صغير، في مقبرة نويّي القديمة، لوالدك الذي توفِّي قبل حين ـ لِحُسن الحظّ أن ساركوزي كان موجوداً... باختصار. إنّها حرية علاقة وتقارُب راسخة في هذا الماضي لم تنقطِع أبداً، ولا شكّ أنّها سهّلت الحديث الهاتفي المُدهِش أوّل أمس، والحديث الذي لا يقِلّ إدهاشاً، الذي سَنُجريه الآن مُباشرةً (علامة أُخرى تُعبِّر كثيراً عنه لكنّ هذا في الاتجاه الآخر: هذه المُخاطبة بضمير «أنتَ» المُزعِج تقريباً ـ حقيقة أن يكون أوّل رئيس جمهورية ـ مع احتمالٍ كبير أن يكون آخر رئيس جمهورية ـ يُخاطبني وأُخاطِبه بهذا الضمير).

أراقبه وهو يدعوني للجلوس، واقفاً أمامه في هذا المكتب الواسع الذي سبَق أن أتيتُ إليه للدفاع عن قضايا أُخرى لدى رئيسَين، بل لدى ثلاثة من رؤسائه.

الرئيس جيسكار الذي لم أعُد أتذكّر زيارتي له بوضوح، ويصعُب عليّ مُطابقة الصُّوَر. كنّا بصحبة موريس كلافيل، وكلود ـ ليفي ستروس، وجان ـ لوك ماريون، أتينا نُحدِّثه، من جُملة أمور، عن حالة رانوتشي، وعن مسألة الحُكم بالإعدام. أتذكّر فقط سيّداً على قدْرٍ رفيع من التربية، ساهٍ قليلاً، كان يبدو مُركِّزاً على فكرة وحيدة هي أن يحدِّق فينا واحداً واحداً، مُخصِّصاً لِكلّ منا العدد نفسه من الثواني، بانتظام كانتظام الساعة.

فيما يتّصِل بالرئيسَين الآخرَين، الصُّوَر، بصراحة، أوضح بكثير، ولا أستطيع الامتناع عن المُقارنة.

ميتران الذي أتيتُه إذاً في ظروفٍ مُشابهة، لأنقل طلب النجدة من بيغوفيتش: كان مُتحصِّناً وراء مكتبه، كما لو أنه يُريد أن يضع أقصى مسافة مُمكِنة، ليس بيني وبينه فقط، بل بينه وبين البوسنة أيضاً.

أمّا شيراك فقابلتُه لأحدّثه عن موت اللواء مسعود، وعن حركة الطالبان التي قتلته، وعن هذا التقرير الذي طلبه منّي حول «مُشاركة فرنسا في إعادة تعمير أفغانستان» ـ وكان موقفه مُعاكِساً لموقف ميتران: يوم مجيئي لاستلام طلب التقرير، ثمّ بعد شهرين لتسليمه له، كان قد اختار الجلوس على واحدة من الأرائك المُخصّصة لزوّاره باذلاً أقصى جُهدَه لِيُريحني ـ ينهض باستمرار، ويعود للجلوس، لِيُقدّم لي زُجاجة ماء معدني «بيرييه»، ويسألني إن كنتُ أريد «فُستق» وحين أخذ هاتفي المحمول يرنُّ في جيبي، نهض من جديد، وتظاهر بالابتعاد ليُتيح لي أن أردّ، وقال: «خُذْه، لا تُزعج نفسَك، قد يكون هذا مُهمّاً».

ساركوزي وسَط بين الاثنين. لم يبقَ وراء مكتبه، ولم يجلِس على أريكة. ليس بارداً كميتران، ولا رفيق حميم مثل شيراك. يتصرَّف تماماً بما ينبغي من حذَرٍ مشروع، وتشجيع وُدّي على الكلام.

بدأ بالقول: «شُكراً على مجيئك».

ـ أنا السعيد بتحقُّق هذا الموعد، وبهذه السرعة.

ـ قرأتُ ما كتبتَ. ولكنْ ستحكي لي قليلاً بطبيعة الحال.

حكيتُ له عن بنغازي. عن غوقة. عن اللُغز عبد الجليل. عن المجلس الوطني الانتقالي الذي شهِدتُ وِلادته. وعن العلَم الفرنسي على الكورنيش. عن الطيارة الورقية بألوان علَم فرنسا. عن مصير الربيع العربي الذي يحدث اليوم في ليبيا. وعن الاقتراحات الثلاثة أو الأربعة التي أقترحها في جريدة الأحد.

استمع إليّ. لم يُقاطعني، أصغى إليّ خلال عشر دقائق. هل هو مُقتنِع سلَفاً؟ وهو على أية درجة معلومات بالضبط؟ أضفتُ، في جوٍّ من الريبة، قليلاً. جبهة راس لانوف. شجاعة الشباب الفوضوية لكنّها الرائعة. يقين الناس في بنغازي بأنّ كتائب القذّافي، إذا وصلت إلى داخل المدينة، سيقتلون الجميع، وسوف يُفيضون حقاً أنهار الدم التي وعد بها سيف الإسلام. وشدّدتُ على أنّ هذا ليس فرضية مدرسية، بل مذبحة مُعلَنة. وهو إعلان، إن صدّقنا المعنيِّين بها، وأعتقد أننا يجب أن نُصدِّقهم، ليس أبداً فصاحة خالِصة. ومن جهةٍ أُخرى...

هذه الكلمات، هذه الكلمات التي سأنطق بها الآن، لا أملك أية فكرة عن الطريقة التي راودتني بها. وهي لا تُشبهني إلا قليلاً جداً... بل تُناقض جداً رؤيتي إلى العالَم، وتُناقِضني... ومع ذلك، أرى نفسي أربط في ما بينها ـ أسمع نفسي ألفظ هذه الجملة التي كانت ستبدو لي، في الظروف العاديّة غريبةً ببرود:

«ومن جهةٍ أُخرى، هذا أمر بسيطٌ جداً... إذا حدثت مذبحة في بنغازي، فسوف يُلطِّخ دمُ المذبوحين العلَم الفرنسيّ».

وأنا لم ألفِظ هذه الكلمات وحسب، ولم أرَ فقط أنني أستقيها من بئر مجهول في داخلي، بل بدا لي أنّها تُثير، عند من يسمعُها، انفعالاً غير مُتوقَّع.

إنّها، في قليل، قصّة فرانسوا ميتران، وهو يتلقّى طلب النجدة من بيغوفيتش، إذ حدّثته طولاً وعِرضاً عن المدينة المُحاصَرة. حكيتُ له عن الأطفال الذين قتلَهم القنّاصة، والمُثقّفين الذين يعقدون الندوات عن جان ـ بول سارتر في أقبية البناية المقصوفة. حكيتُ له عن الصحفيين الأبطال الذين استمروا، على خطّ الجبهة، في كتابة جريدة المدينة أوسلو بودجنج وفي طباعتها، وعن اللواء اللامع يوفان ديفيجاك، المُكلَّف بالدفاع عن سراييفو، مع أنّه من أصل صُربي. قلت له كلّ شيء. نوّعت في زوايا الهجوم. لكنْ لم أستفِد شيئاً. لاشيء كان يبدو أنّه قادرٌ على زحزحةِ عدم اكتراثه الجليل بمكان هؤلاء البوسنيين الذين يشعر، حتى النهاية، أنّهم أقلّ قُرباً إلينا من الصُربيين. بقي كذلك حتى أيقظت جملةٌ بسيطة ومضاً في عينيه، ثمّ سألني سؤالاً أو اثنين حدّد من خلالها أنّ القضية تبدأ من صاحب الشأن: إنها الجملة التي قلتُها له (هكذا، على عجَل، لكنّي أدركتُ أن التفاصيل هي التي سوف تُغيِّر كلّ شيء في نظره؛ لأنّه كان يُنسِّق مجموع القصّة مع مشهد مؤسِّس في مُخيِّلته) وهي أنّ الرئيس بيغوفيتش المُحاصَر قد يكون مات الآن ونحن نتحدّث، جعلتني أُفكر تفكيراً لا يُقاوَم بالصورة الأخيرة لسلفادور ألليندي، المُلاحَق ولكنّه يقِف بعزّة نفسٍ، بقُبَّعته المائلة على رأسه، ينتظر في القصر الرئاسي في سانتياغو المُدمّرة، هجوم الفاشيّين التشيليين. هنا الشيء نفسه. هذا ما سوف يفعل فعله مع قصّة الأعلام الفرنسية الملطّخة بدماء الثوّار، ومع سلسلة من العلامات الدقيقة (ومض مُرتعِش في النظرة، ثباتٌ مفاجئ وعابر في الملامح). لديّ الانطباع عينُه بأنني لامست، من دون أن أدري، نقطة سريّة من النفس، وجَعاً قديماً، لستُ أدري.

«قاطعني بالقول، بصوتٍ أصمّ بغتةً: «حسَناً. حسناً. فلنوفّر الوقت. أعرف هذا كلّه. وأنا إنّما أتلقّى تأكيد التقارير. من الواضح أنّه لم يعُد ممكناً فرْض الحظْر الجوّي. غير أنّ قصف المطارات الثلاثة التي تُقلِع منها الطيّارات الحربيّة، ثُمّ تشويش منظومات اتصالاتها، هو الحلّ في الواقع...»

وبرَم شفتيه كأنما أراد أن يقول: «نرجو، حتى في هذه النقطة، ألا يكون الأوان قد فات»، ثُمّ ألقى نظرة على هاتفه المحمول، الموضوع على الأريكة، الذي بدأ بالرنين، وتابع يقول:

«قد تكفي غارات على سيرت، وسبها، وباب العزيزية، أجل. لكن يجب المُضيّ سريعاً، سريعاً جداً».

ليس أمامه مُلاحظات. لكنّي تنبّهتُ أنّ أمامه ملفاً.

قال وكأنّه يعترض على نفسه: «المشكلة الحقيقية ستكون سياسيّة، لكنّ الأولوية لهذا المجلس الوطني الانتقالي...»

- طبعاً؟

وافقتُ على استقبال أعضاء منه، إذاً سوف أستقبلهم.

- حسناً.

السؤال الجوهري هو الآتي: «ماذا علينا أن نتصرّف معهم؟ وعلى أي مستوى، على مستوى الاعتراف مثلاً؟»

يبدو أنه طرح على نفسه السؤال بصدق، وما أوقف إيمانه في هذه النقطة. حينئذٍ حدّثتُه من جديد عن الانطباع الجيّد الذي تركه فيّ هؤلاء الرجال. وعن أنهم قضاة قُدماء، ومُحامون، ورجال قانون، وحقوقيّون. وبيّنتُ له أيضاً الأهمية التاريخية التي سيكتسِبها الاعتراف الكامل بالمجلس في حال حصوله، فقاطعني فوراً:

- متى يُمكِن أن يأتوا إلى باريس؟

- لا أعرف... بسرعة فائقة... رئيس المجلس مصطفى عبد الجليل يُفكّر بإرسال الشخصَين المُكلّفَين بملفّ السياسة الخارجية. الأوّل في الهند، والثاني في القاهرة...

أخرجتُ من جيبي الورقة المزدوجة التي صوّرتُها، وفيها إعلان ولادة المجلِس. كنتُ قد كتبتُ بخطّ اليد، بجانب اسم العيساوي: «مشكلة تأشيرة الدخول تشينغن». أخذ الرئيس الورقة، وألقى عليها نظرة سريعة، ووضعها جانباً.

ـ وهناك أيضاً المشكلة السياسية الأخرى. فرنسا لا تستطيع أبداً أن تتدخّل وحدَها في ليبيا.

قلت له: «أوه! هي ثلاثة مطارات...»

فابتسم.

ـ حتى لو كانت فقط ثلاثة مطارات، فهذا لا يتِمّ إلا بموافقة حُلفائنا. والأهمّ من ذلك، لا يتِمّ إلا بتفويض دولي. والأدهى أن نُكرِّر الخطيئة نفسها التي ارتكبها بوش في العراق. في هذه الحال، لن تُسامَح فرنسا، ولن أُسامح أنا أيضاً. لكنْ حسَناً...

قام بحركة مُشَعوذٍ يُخرِج من قُبّعتِه أرنباً. وينظر نظرة ثانية أقلّ حِدَّة، وأكثر طفولية من تلك التي سادت منذ بداية الحديث.

ـ هو ذاك، يأتي هذا في الوقت المُناسِب. هناك اجتماع أوروبي يوم الجمعة القادم. ثمّ ستنعقد قمّة الثمانية، في باريس، في 14 آذار/ مارس ...»

اعتراض آخر على نفسِه:

سيكون هذا مُتأخّراً طبعاً. ولن نتمكّن من الانتظار حتى قمّة الثمانية. إذاً سنحاول أن نتدبّر أمر هذا بدءاً من يوم الجمعة. سنكوِّن إجماعاً أوروبياً. نتسلّح بهذا الإجماع، ونذهب إلى الأمم المُتّحدة.

ـ وإذا لم ينجح هذا؟

ـ سوف ينجح.

رأى هيئتي المُرتابة وسأل باندهاشٍ صادق:

ـ مَن يُمكِن أن يعترِض عليه؟

ـ لا أدري ... ومَن قال إنّ برلسكوني، وميركل سيقتنعان بسهولة؟

ـ أنا وأنجيلا ميركل مُتفاهِمان كما ينبغي، ولا يُمكِن أن تكون غير مُكترِثة بعدالة القضية.

ـ إذاً جوبّيه هو العقَبة في هذه الحال...

تظاهر بأنه لم يسمع، وردّد القول:

ـ ميركل! كيف يُمكِن أن أتخيَّل ميركل تقول لا، في قضية إنقاذ الشعب الليبي؟

عُدتُ إلى المشكلة:

ـ ولكنْ جوبيّه؟ لم ننسَ الطريقة التي تصرّف بها في قضية البوسنة، ثُمّ في قضية رواندا. وسيكون حتماً ضدّ هذه القصة الليبية. ولن يكون جوبيّه إذا لم يقِف ضدّها. عندي نصيحة أسمح لنفسي بأن أقدِّمها: ننُجِز كلّ شيء من هنا، من خلال الخليّة الدبلوماسيّة، ولا نقول شيئاً لأحد ـ نحتفِظ بالسِرّ، ونُخفيه حتى عن جوبيّه.

تظاهر دوماً بأنه لم يسمع شيئاً، أو بأنّه لم يكن يفهِم إلا نصف النصيحة.

ـ ما فائدة السياسة إن لم تنفع في تذكر دروس التاريخ واستنتاج العِبَر منها؟ لن أكون مثل ميتران. ولن أكون الرئيس الذي تُرِك الليبيون يموتون في عهده.

أُفكر بسنة 2007. أُفكر بذلك الحديث الذي خُضناه قبل الانتخابات الرئاسية، الذي نقلتُه فاتحاً خفايا الأمور الكبرى بالمقلوب. طبعاً، لم يكن يتكلّم عن ليبيا، بل عن حريّة الشعوب بشكلٍ عام. وأنّ طموحه، فيما لو تمّ انتخابُه، أن يقود سياسة خارجية واسعة، مقياسها ضرورة حماية حقوق الإنسان. لم أهتمّ بذلك حينئذٍ. وما آمنتُ بأنّه سوف يَفِي بِوَعْده. ويمكِن القول إنّ كلّ ما استطاع القيام به منذئذٍ (بادئاً في شهر كانون الأوّل/ ديسمبر 2007، بالاستقبال الفاحش للقذّافي) أو، بعبارةٍ أفضل، لم يتوقّف كل ما لم يستطع فِعلَه أو لم يُرِد فِعلَه (عدَم وجود أية مبادرة في دارفور، والتفاتة جميلة مُزيّفة في جورجيا، واليد لم تكن ممدودة باتجاه بوتين بأقلّ من امتدادها باتجاه الذي كان قبلَه) عن أن يجعلني على حقّ. هنا، فجأة، لم أعُد أعرف. ثمّة في طريقة تعبيره بالقول «لن أكون الرئيس الذي يُترَك الشعب الليبيّ يموت في عهده»، نبرةٌ من الحقيقة تُقلِقني. أستأنف القول:

«بالمُقابل، العسكريُّون سيكونون مع التدخُّل». هل يطول الأمر، لا أدري. غير أنّ العسكريِّين، الفعليِّين، أولئك الذين رأيتهم يتململون في البوسنة، وأفغانستان، ثُمّ في تشاد، أولئك الذين ملُّوا من البقاء بعيدين عن القتال أمام شعوبٍ تموت، سوف يتلقّون خبر التدخُّل بحماسة».

أجاب، لكنْ خارج الموضوع. كان حالِماً قليلاً، وخارجَ الموضوع.

«حين أُفكر بهؤلاء الناس جميعاً الذين سوف يقولون إنني أفعل ذلك لأغراضٍ سياسية... فأنا لا أتوهّم. فهذه الحرب لن تكون شعبيةً. أو، إن كانت كذلك، فلن يدوم هذا وقتاً طويلاً. لكنْ، ليس هذا هو السؤال. ينبغي خَوضُها».

ثُمّ:

- ما وضع المدينة؟ أهِيَ مُهدَّدة؟ قلِقة؟ جاهزة لردّ هجومِ القذّافي؟ كيف؟

- نعم أعتقد أنها جاهزة. ينطبق عليها قول مالرو عن مدريد خلال الحرب الإسبانية: قدرة المقاومة السريّة العجيبة التي تمتلِكها المدُن.

- والرّجال؟

- أكثر يقظةً ممّا تُبديه الصحافة. أكثر حزماً أيضاً. وجاهزون للقِتال إذا أخلتْ لهم قوّةٌ حليفة الجوّ، وقدّمت لهم دعماً جويّاً جِدّياً.

هزّ رأسه كأنما ليقول إنّ هذا أيضاً يُعزِّز ما سبق أن عرَفه. سوف نتبادل أيضاً بعض الأفكار - من بينها فكرة حسَّاسة، عن استقبال القذّافي سنة 2007 التي لِمْتُه عليها ويدّعي أنّه ليس نادماً أبداً؛ لأنّ هذه كانت وقتها أفضل طريقة «لتخليص المُمرِّضات البلغاريات من الدعوى». لكنْ يبدو أننا، حالياً، يجب أن نكون مُتَّفِقَين.

الثلاثاء 8 آذار/مارس (مبعوثو بنغازي)

ربطتُ وأعدتُ ربطَ الأحداث. فكرتُ وأعدتُ التفكير بذلك المشهد المجنون الذي بدأ في شاحنة خُضار صغيرة، واستمرّ مع اتصال غير مُحتمَل من هاتف ثُريا مُعطَّل، وانتهى بقصّة هذا العلَم الأزرق الأبيض الأحمر الذي كان سيُحيِّرني توظيفي له بهذه الطريقة فيما لو لم أكن أتصوَّر أنني، أنا أيضاً، خلافاً لأيِّ توقُّع، حسّاسٌ تُجاهه قليلاً. لم أتكلَّم مع أحد. وعدتُ الرئيس بالسِرية. ويبدو أنّه مُلتزم به، وإذاً عليَّ الالتزام بوجهٍ خاص. لا أحد يجب أن يعرِف. لا أحد إطلاقاً. باستثناء جيل الذي يُتابع الاتصال ببنغازي، ويُحاول أن «يتعقَّب» مبعوثينا ولحظة وصولهم إلى أوروبا. وأنا أنتظر.

الأربعاء 9 آذار/مارس (المبعوثون أيضاً)

الأخبار عند جيل ومارك. المبعوثان هما جبريل والعيساوي، الرَّجُلانِ اللذانِ أعلن اسمَيهما مكتب غوقة. بالإضافة إلى اسم ثالث، هو علي زيدان، رئيس رابطة حقوق الإنسان الليبية. الخلية الدبلوماسية في الإليزيه تتولّى كلّ شيء. سيكونون في باريس هذا المساء، في فندق يقع في الدائرة الثامنة. سيصِل زيدان من ميونيخ، وجبريل من القاهرة. كلاهما قضيا نهارَي أمس واليوم في البرلمان الأوروبي في ستراسبورغ حيث التحق بهما العيساوي. وقد

استقبلت الوفد، باستثناء العيساوي الذي كانت عنده مشكلة تأشيرة الدخول، هذا العصر، رئيسة الاتحاد السويسري في برن. ولم يتوفّر لهم من الوقت إلا ما سمح لهم تحديداً أن يلحقوا موعد آخر طيّارة بين برن وباريس. إنّهم هنا إذاً. سيستقبلني وإيّاهم، نيكولا ساركوزي غداً صباحاً، في العاشرة.

الخميس 10 آذار/مارس (عندما تعترف فرنسا بليبيا الحُرّة)

الإليزيه. في العاشرة. نحن في صالة الاجتماعات الكبيرة، المُتّصلة بمكتب الرئيس الذي كان مكتب آتالي. عند المدخَل، على يسار الطاولة، ساركوزي يُحيط به هنري غينو، وجان ـ دافيد ليفيت، ومُعاونه نيكولا غالي. ومُقابلهم علي العيساوي، وعلى يساره محمود جبريل، وعلى يمينه شخص لا أعرفه استنتجتُ أنّه علي زيدان ـ ثُمّ أنا الذي جلستُ تلقائياً إلى جانب علي زيدان.

يشعر الليبيون بالخجل.

الجوّ رسميّ.

لِلمُستشارين الفرنسيّين، على نحوٍ غريب، هيئة مُرتبِكة، وكأنّهم لا يعرفون، هم أنفسهم، ما ينبغي أن يتوقّعوا.

غينو، خاصّةً، مُلتصِق بكرسيّه، كتفاه مُنكبّان إلى الأمام، نظرته حارقةٌ في وجهه المُكفهِّر، وطريقته المُضحِكة في إطلاق النظرات القلِقة يميناً وشمالاً.

وجه ساركوزي مُتوتِّر، مكظوم، لا أتعرَّفه.

هو الذي بدأ، فضلاً عن أنّه، هو الذي سوف يتحدّث خلال الوقت الأساسي للمُقابلة.

قال: أُعير تطوُّر الأحداث في بلَدكم الانتباه الأقصى. وقد أعلمَني السيد برنار ـ هنري ليفي بِمُجريات سفره إلى بنغازي، وبِما رآه، وبلقائه برئيس المجلس عبد الجليل. أشكركم على تحمُّلكم أعباء السفر للمجيء إلى هنا. الحقّ أنّ المجتمع الدولي (والتفتَ إلى جان ـ دافيد ليفيت) لا يستطيع أن يبقى مكتوف الأيدي إزاء ما يحدث في بنغازي وفي المدُن الليبية الأخرى. بعضهم يتحدّث عن مُساعدات إنسانية: قولوا لي إن كنتُ مُخطئاً، لكن يبدو لي أن وقت المُساعدات الإنسانية قد فات. وبعضهم يُفكِّر بتدخُّل جوّي، بفرض منطقة حظر جوِّي

هل طيارات القذّافي: فهمتُ، على ما أعتقد، أن هذه الصيغة أيضاً غير كافية إطلاقاً إذا تنبّهنا إلى تسارُع الأحداث. لا، أبداً، لقد وصلت إلى نتيجة ـ وهنا أيضاً، أوقفوني إن أخطأت ـ مفادُها أنّ الحلّ الوحيد أمام العنف المُتعاظِم، وامتداد الجرائم التي تُرتكب، إنما هي العملية العسكرية.

ـ أوه! لن نُعلِن الحرب ضدّ ليبيا. ولن نقوم بالثورة نيابةً عن الشعب الليبي. فالفرنسيّون لم يحتاجوا أحداً سنة 1789، للقيام بثورتهم. وبالتالي لا أرى لماذا سيحتاج الليبيون إلى الفرنسيين أو إلى غيرهم للقيام بثورتهم. دعوني أقُل بالمناسبة إنني رأيتُ قصّة هذه القوّات البريطانية الخاصّة التي دخلت بلادكم، من دون إذن، وهي مُدجَّجة بالسلاح. وكنتم على حقّ بإعادتهم إلى مكانهم. لأننا لا نفعل هذا حين نأتي إلى أصدقائنا. نطلب الإذن، وننتظر التأكّد من الحصول عليه لندخل بمعدّاتٍ حسّاسة. إذاً أنا أستجيب هنا لدعوتكم. فهِمت من خلال السيّد ليفي أنكم تُطالِبون بتدخُّلٍ جوِّي متواضِع، لزمنٍ محدود، من دون جيوش على الأرض، واستهداف الوسائل العسكرية التي تُسبِّب للتجمُّعات المدنية الأضرار التي يشهد عليها العالَم أجمَع. حسناً، أنا مُوافِق. أقول لكم هذا باسم فرنسا، أنا مُوافق على هذا التدخُّل الجزئي، المحدود، الذي تطلبونه منّا.

ـ يتعيّن فقط أن نضع شكلَه، وأن يكون قليل من العالَم معنا. أنا لا أتحدّث عن فرنسا: القوى السياسية الكبيرة سوف تتبعني. لكنَّ هناك شُركاءنا الأوروبيين، وسيكون في غاية الأهمية أن يُوافقوا، ويلتحقوا بنا. وفي ما وراء أوروبا، ثمّة المجتمع الدولي، أليس كذلك؟ اسمعوني جيداً: بإمكاننا أن نتدخّل تقنياً؛ فلدى فرنسا الوسائل التكنولوجية، أعني العسكرية، التي تسمح لها بمثل هذا التدخُّل على الساحة الليبية. لكنني لا أتحدّث هنا عن التقنيّة، بل عن السياسة والدبلوماسية (يلتفت من جديد إلى ليفيت). وأُفكر أيضاً بما سوف يكون غداة تدخُّلنا، وبليبيا الجديدة التي ستخرج بعدَه. وإليكم سيعود أمرُ معرفة الديمقراطية التي تبغونها، وعلى أيِّ إيقاع سوف تبنونَها. لكنّي أعلَم (ويلتفت هذه المرّة إلى جينو) أنّ الديمقراطية هي أُفقُكم. والديمقراطية تبدأ اليوم. تبدأ بإجماع دولي حول عدالة قضيّتكم. حاول آخرون أن يستغنوا عنها، ورأينا إلى أين قادَهم ذلك! إذاً الديمقراطية أوّلاً. وفرنسا إلى جانبكم. غير أني أطلب أن تُمهِلوني عدّة أيام لأرتِّب الأشياء، وأتأكّد من دعم المجتمع الدولي.

ـ وإذا لم أحصل على الدعم الدولي؟ إذا امتنع المجتمع الدولي، خلافاً لكلّ التوقُّعات، عن إدانة القذّافي والتحرُّك ضدّه؟ لا يُمكِن أن أتخيَّل هذا. لكنْ في النهاية فلْنتخيَّل ما لا يُمكِن تخيُّله. لِنَفرض أن فرنسا لم تحصل على قرار من مجلس الأمن والأمم المتحدة. في النهاية، «فرنسا... لن تكون فرنسا على أيّة حال. لأنني سأتصرف بالتكاتُف مع صديقي كاميرون، رئيس الوزراء البريطاني. ولاحقاً، سوف نستند إلى قرار موجود، قدّمته دولة لبنان. لكنْ لنتخيَّل عدَم الموافقة على مشروع القرار. في هذه الحال، فسوف نتجاوز ذلك. سوف نجِد مع أصدقائنا البريطانيين، وسائل أُخرى، ومنظّمات أخرى لنُعطي العملية شرعيّتها. الجامعة العربية مثلاً. وأنا على اتصال دائم مع عمرو موسى. فهو يُتابع باهتمام شديد تطوُّر الأحداث. وسنعمل على تكوين تحالُف، لهذا الغرض، مع بعض البلدان الأوروبية، والإفريقية، ومع الجامعة العربية. سيكون أقلَّ فاعليةً من الأمم المتّحدة. لكنّه سيكون أفضل من لا شيء. لأنه سوف يسمح لنا بالتصرُّف. ومرّة أُخرى أقول، ليس هذا ما سوف يحصل. الملفّ تامّ. والتعاطُف كبير. ولا أشكّ في مقدرتنا الجماعية على تشجيع الرجال والنساء المُستعدّين للالتفاف حول عملية حماية المدنيين.

«حينئذٍ ستكون هناك بعض الأشياء التي أستطيع أن أقوم بها وحدي، من دون انتظار موافقة أحد أيّاً كان. مثلاً، الاعتراف بكم. فهناك قواعد بسيطة، كما تعلمون. فلرئيس الدولة حقوق (قليلة) وعليه واجبات (كثيرة). والحال أنّ من أوّل واجباته ضرورة حماية شعبِه. والقذّافي عجز عن القيام بهذا الواجب. حتى إنّه ارتكب الأسوأ من هذا لأنّ ضحايا القمع الذي أطلقَه تُعَدّ، على ما يظهر، بالآلاف. يبقى التأكد من الأرقام، لكنها، مهما افترضنا، أعداد كبيرة. انطلاقاً من هنا ونتيجة ذلك، فقَد القذّافي حقَّ إدارة البلاد. ولم يعُد يملِك أيّة شرعيّة. لهذا السبب أنا من أنصار نقل الشرعية الكاملة نقلاً عاجلاً، بل فورياً، إلى المجلس الوطني الانتقالي الذي تُمثّلونه. نقْل ملموس، سيكون سهلاً. سوف نعترف بكم، بدءاً من اليوم، مُمثّلين شرعيين وحيدين لليبيا. وفي أقرب وقت (يلتفت من جديد إلى ليفيت)، مثلاً في نهاية الأسبوع القادم، سوف نُرسل لكم سفيراً، وسوف تُرسلون إلينا سفيراً. وأُكرِّر أمامكم رجائي بأن يلتحِق أكبر عدد ممكن من بُلدان العالَم بهذا الموقف الفرنسي، ويعترفون بكم كسُلطة شرعية لليبيا الجديدة.

ـ هل ينبغي أن تحتفظوا بسِريّة هذا كلّه؟ (يتظاهر بأنّه يُفكِّر ويطلب بنظرته رأي مُستشاريه). لا. لم يعُد الآن من داعٍ للاحتفاظ بالسِرّ. فالذين يعرفوني يعلمون أنني صادِق

الوعد، وبالتالي ليس عندي كلام مُزدوج. وإذا التقيتُم صحفيين في ساحة القصر، عند خروجكم، بإمكانكم أن تقولوا لهم جوهر ما قلتُه لكم، رُبّما باستثناء نقطة واحدة: فكرة الهيئة الشرعية البديلة في حال عدم موافقة الأمم المتّحدة ـ لنترك هذا سرّياً بيننا، في الوقت الحاضر».

استمرّت الجلسة ساعة. الليبيون مذهولون. لم يكن لديهم، وهم يُصافحون الرئيس السماوي، كلمات يُمكِن أن تُعبّر عن اعترافهم بجميله. ولمّا كانت ساحة القصر، مليئة فعلاً بالصحفيين، وبأجهزة التصوير التلفزيونية، فكّرت بالخروج من الرواق الذي يبدأ على اليمين، تحت السُلّم، وهكذا وقفتُ وراء ستائر إحدى النوافذ لأتمكّن من الاستماع، عن بُعد، إلى مؤتمرهم الصحفي المُرتجَل. وحين انتهوا، واتّجهوا صوب المخرج، من جانب شارع ضاحية سانت اونوريه، يلحق بهم مصوِّرو التلفزيونات، خرجتُ من الباب الجانبي، إلى شارع الإليزيه. وما كِدتُ أصير في الخارج، حتى رنّ هاتفي. إنّه الرئيس الذي يُريد أن يعرف رأيي في اللقاء، وإذا ما كنتُ مبسوطاً، وإذا كان كلّ شيء مُناسباً لما كنا قد قُلناه. ثمّ، وبغرابة، أعرِف الآن، مع نهاية اليوم، وحتى قبل أن أُعِدّ مُخطّطه، لماذا يتّصل بي: «حسَناً...كنتَ حاضراً، حسناً! أنتَ أيضاً... لا تتردَّد... قُل ما رأيتَ وما سمِعتَ...لا تتردَّد في التعبير عن رأيك...». ما إن انتهت المُكالمة، وصرتُ في السانت اونوريه، حتى اختفى الصحفيّون. لم يبقَ إلا قناة عربية، أدليتُ لها ببعض التصريحات. أمام البريستول، دعاني ديدييه فرانسوا للمجيء الساعة السادسة مساء إلى إذاعة أوروبا الأولى حيث كنتُ أُحاول، أمام الجُموح الإعلامي، أن أُخفِّف وقْعَ الحدث، بالقول: يجب عدم المُبالغة، ولن تذهب فرنسا لقصف طرابلس. نحن بعيدون عن الصورة التي تُعطيها القنوات التلفزيونية كافّةً، عن برنار ـ هنري ليفي الذي يتحدّث ـ باسم ـ الدولة الفرنسية ـ على مدخل ـ الإليزيه ـ لِيُعلِن ـ الحرب ـ على ـ ليبيا. لكنْ إن كان هذا يُسلّيها...فلا أهمية لهذا الكلام الجارح برُمّته...الشيء الوحيد المُهِم هو أن الرئيس قطع عهداً. وتمّ الاعتراف بالمجلس الوطني الانتقالي. وأنا سعيد بهذا.

الجمعة 11 آذار/مارس (عندما اعتقد رئيس الجمهورية بوجوب تغيير لهجته)

جنوب فرنسا. قبل أن أترك باريس، وافقت، لأوّل مرّة في حياتي، على إجراء مُقابلة على هذه القناة المُسمّاة الجزيرة، التي قلتُ عنها كلاماً سيّئاً كثيراً لحظة تأسيسها، واكتشفت أنّها في

الواقع قناة عظيمة، من مستوى CNN، حيث بالإمكان، كما حصل اليوم، أن نتسلى بإطلاق عبارة تُفرِح شبكة الإنترنت: «blow jobs»[4] التي سيصير صعباً إعطاؤها للدكتاتوريين العرب. أنا سعيد بكلمتي. سعيد حين نتساءل، هنا أو هناك، من هو المُستهدَف. إنها العاشرة ليلاً. كنتُ أتناول طعام العشاء عندما رنَّ هاتفي. تردّدتُ في الإجابة من خشية أن تكون الإذاعة الألف تطلب مني ما أقول؟ مُصِرّاً على «صوت» حول قضية blow jobs أو عن «دبلوماسية مدخل الإليزيه». لكنْ لا شيء من هذا. إنّه ساركوزي. غير أنّه ساركوزي حزين. تقريباً مُغتاظ. فهو بحسب ما أحسستُ من نبرة صوته، لم يستطِع أن يجذِب شُركاءه الأوروبيين إلى صفِّه بالسهولة التي كان يتصوّرها.

يقول العكس بشكل طبيعي. يدَّعي الترفُّع - أيّ زعْمٍ!: «لم يكن هذا سهلاً، لكنّه كان يُمكِن أن يكون أسوأ؛ على الأقلّ حصلت على بيانٍ مُشترَك». يُشدِّد، على عجَل، على أنّ الجامعة العربية تتقدَّم «بخطىً سريعة» نحو وضعٍ صارم. غير أني اكتشفت الحقيقة لاحقاً وأنا أقرأ البيان المشترَك، وعندما شاهدت التعليقات عليه على شاشات التلفزيون؛ فقد مضى أمس سريعاً جداً مع الليبيين، ولعلّه أفرط؛ ومن الواضح أن شُركاءه سيجعلونه يدفع ثمن تصرُّفه بمُفرده (بوصفه مظهراً جديداً للصَّلَف الفرنسي). وفيما يتّصل بالأميركيين، الأمر مُختلِف أيضاً: سلسلة من المُكالمات الهاتفية مع نيويورك ترفع حرارتي، وقلّما تكون أفضل. فالجمهوريون كالديمقراطيين يبدون على الخط: «تخوض الولايات المتّحدة الأميركية حربَين لا تعرف كيف تنسحِب منهما، فهل هذا هو الوقت المُناسب لتخوض حرباً أخرى مُرتجلَة فوق ذلك؟» باختصار: فرنسا وحيدة. يبدو أن جمَل البارحة تمخّض فولَد فأراً. وهل امتلك ساركوزي الحكمة في أن يضرب ضربته من دون أنِ يطلب رأي أحد، لأننا عندما نرى كيف يتصرّف هذا العالَم الصغير بعد قراره، نجرؤ على تخيُّل حجم المصاعب التي وضعها قبله!

ما العمل الآن، ونحن في هذا الموقف؟ هل هناك وسيلة للمُساعدة، وما هذه الوسيلة؟ دفْع الأمور، كيف؟ أم أنّ كلّ شيء قد انتهى، ونحن بصدد المُشاركة، بشكل آخر، في إعادة نشر مشهد ميتران - 1992، مع سفرته الرائعة إلى سراييفو الذي سمع به العالَم كله على الفور تقريباً؟ ذلك كلّه يدور في رأسي. وإذ أضاف النعاسُ الخلط والبلبلة، بنيتُ مُخطّطات مجازِفة (العودة إلى بنغازي، لكن لماذا؟ أُقدِّم عريضةً؟ - هذا وهم؛ نداء أوروبي؟ ليس هذا بأفضل من

ذاك). حتى جاءتني هنا، في الثالثة وبضع دقائق صباحاً، فكرة أقلّ رداءة، أجّلتُ تنفيذها إلى الغد. باختصار: إقناع الأميركيين. أو بعبارة أفضل: إقناع سيّدة أميركيّة. أعرف هذه الأميركية قليلاً. رأيتها سنة 2004 مع تينا براون في بوسطن. ورأيتها ثانيةً في مسرح كارليل حيث جاءت، مثلي، لتسمع مُغنيّة شعبية. كنتُ حيَّيتُ شجاعتها وعزّتها عدّة مرّات في مقالاتي في جريدة American Verrigo لحظة الاغتصاب الرمزي الذي مُورِس معها بفتح ملفّ لوينسكي. وقبل ذلك بزمن طويل، سنة 1994، في نيويورك، حيث علِم مكتبُها بعرض فيلم بوسنا! من أجل مجموعة من المثقّفين، وقادة الرأي، وحيث طلب نُسخة عن الفيلم، أعلمتني باشمئزازها أمام استشهاد سراييفو، وأمام صمت العالَم! هذه الأميركية هي طبعاً هيلاري كلينتون، وزيرة خارجية باراك أوباما. ستكون يوم الاثنين في باريس لحضور قمّة الثماني. قرّرت أن أفعل كلّ شيء من أجل تهيئة لقاء بينها وبين أحد أعضاء الوفد الليبي الذي زار الإليزيه.

الجمعة 11 آذار/مارس (كما مع اللواء مسعود؟ كما في البوسنة؟)

في وقتٍ متأخّر من الليل.

هناك حدَثان مُزعجان يُرعِبني تكرارُهما.

ميتران ـ سراييفو. كنتُ أعتقد أنني وصلت حقّاً إلى إقناعه. أتذكّر حين اتّصل فيدرين بي إلى ابسبلي من طرف الرئيس، وكأنّه حصل البارحة، يوم السبت المشهور حيث أخبرني أنّ الرئيس، سيطير من لشبونة قاصداً العاصمة البوسنية المُحاصَرة. فبصرف النظر عن أنّ هذا الرئيس ماكر بحقّ، كان يعرف ماذا يفعل وهو يُغرِق المشكلة السياسية للقومية الصُّربيّة ومشروعها في التطهير العِرقيّ في ضوضاء التفاتة المساعدات الإنسانية الهادفة إلى خلق جسرٍ جوّي يسمح بتأمين الأغطيَة التي لن تُستخدَم، كما رأينا في فيلم بوسنة! إلا لِصُنع الأكفان. كانت القضية قد سُوِّيَت منذ البداية.

وهناك الحدث الثاني الأقلّ ذيوعاً من الأوّل، الذي أتى لاحقاً، وترك فيَّ ذكرى حارِقة، هو خطوة الثنائي مسعود ـ شيراك. كنت في شهر شباط/ فبراير من عام 1998، قد أقنعتُ اللواء مسعود بالمجيء إلى فرنسا للتعريف بنفسه. وفي سنة 2001، في نهاية شهر آذار/ مارس، يوم الجمعة 30 آذار تحديداً (وكنت في مهمّة تصوير تقرير، عند قرنق، في جنوب السودان، وهذا

كلّه محفور بحروفٍ وأرقامٍ من نار في ذاكرتي) اتصل بي عن طريق المهندس إسحاق، ليقول لي إنّه جاهز. أعلمت فوراً فرانسوا بينو الذي كان، بحكم أنه كان دائماً على عِلْمٍ بأننا سوف نذهب لاستقبال اللواء بطيّارة في دشنَب، في طاجكستان، وأنّ عليه، في اللحظة المناسِبة، إلزام شيراك باستقباله، يطلب مني بانتظام أخبار المشروع. خلال الوقت الذي استغرقته عودتي إلى باريس، اتّصل بصديقه الرئيس. ورآه يوم الأحد، بعد يومين، وأقنعه. ويوم الاثنين صباحاً، شرعَت آلةُ الإليزيه في العمل، وحين تشرع في العمل، تُنبِّه حتماً آلة ماتينيون. يوم الاثنين عصراً، تدّعي رئاسة الوزراء أنّها تلقّت من البِعثة الفرنسية في كابول، خبراً يُفيد بأنّ مُبادرة الإليزيه تضع المتطوِّعين الإنسانيين الفرنسيين الموجودين على الأرض الأفغانية، في خطر. حيث إن رئيس الوزراء ليونيل جوسبان، إمّا أن يأخذ التهديد على محمل الجدّ، وإمّا أن يُحاول نزع فتيل ضربة سياسيّة قد تنقلِب لصالح مَن يخوض ضدّه معركة حتى الموت، قبل سنة من الانتخابات الرئاسية، ويفتح مظلّته ويُنبِّه أنَّ القضية، إذا تمّت، فستتِمّ من دونه. أمّا الرئيس، الذي كان فريسة الشكّ، وموت النفس، ولا يُريد أن يتحمّل أيَّ خطر، فيُلغي الدعوة، ويطلب من فرانسوا بينو، الذي كان آسِفاً مثلي، أن يُلغي إرسال طيارته ـ ويُرسِل الطفل الوليد سِرّاً إلى البرلمان الأوروبي. فأنقذت رئيسته نيكول فونتين ماء الوجه. كذلك فعل هوبير فيدرين، وزير الخارجية، الذي أخذ على عاتقه أمر استقبال الذي كان، في تلك الفترة، قبل عدّة أشهر من أحداث 11 أيلول/ سبتمبر، وقبل مقتله، رمزَ الإسلام المُعتدِل ومُقاومة الإرهاب. أما السيناريو الكارثة الذي أخشاه، أكثر من أيِّ شيء آخر، أن أرى اليوم إعادة إنتاج دوّامة الضَّعف.

فهل وصلنا إلى هذه المرحلة؟

السبت 12 آذار/مارس (نحو جامعة فرنسية عربية)

القاهرة. قرار صارم من الجامعة العربيّة. يقول إنَّ القذّافي «فقَد شرعيّته». وعلى القُوى التقدُّميّة أن «تتعاون» مع المجلس الوطني الانتقالي. وعلى مجلس الأمن في الأمم المتّحدة أن يفرِض على الفور «حظراً جويّاً» على ليبيا. فهل هي بداية الانضمام إلى فرنسا؟ هل هو مُخطَّط هذا التحالُف الكبير الذي ذكره الرئيس أمام مبعوثِي عبد الجليل؟ هذه مرحلة حاسمة بالتأكيد. لحظة تاريخية. تكذيب لأطروحة المصري البلهاء حيث استبعد، خلال حفل العشاء

في سفارتنا في القاهرة، أيّ تدويلٍ لهذه القضية العربية الداخلية التي ينبغي ألا تُحَلّ إلا عربياً. اتصلت بعلام واصف، مُرافقي في ميدان التحرير، وأحد آخر من احتفظوا بموقفهم أمام أعداء الثورة. فيؤكّد لي النبأ.

الاثنين 14 آذار/مارس (موعد هامّ مع كلينتون)

قمت بما قرّرتُه.

اتصلت، لا على التعيين، بالهواتف المحمولة لأعضاء الوفد الليبي الثلاثة، حتى أجاب واحدٌ منهم، هو محمود جبريل.

بعد تأكدي من أنّ جبريل يستطيع أن يكون في باريس اليوم، يوم الاثنين، من دون مصاعب كثيرة، اتصلتُ، مع صديقٍ قطري، بمكتب هيلاري كلينتون للحصول له على موعد في الخامسة مساء، في فندق وستون، تماماً قبل لقائها بنيكولا ساركوزي، والعشاء الرسمي لمجموعة الثماني في قصر الإليزيه.

باستثناء أنّ لاشيء سار كما كان مُخطّطاً، كان هذا، من أوّله إلى آخره، يوماً من الغُبْن.

أولاً، وصلت طيّارة جبريل، التي استأجرها القطريون، في الموعد المُحدّد، الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، قادمةً من الدوحة. ممّا يوفّر له الوقت الضروري، قبل الموعد المُحدّد مع كلينتون في الخامسة، للمجيء إلى باريس، والمرور إلى فندق رافاييل حيث حجزتُ له غرفة وحضّرت له اللقاء مع هيلاري. فقط، لم يُفكّر أحدٌ أبداً بإعلام أحد أيّاً كان بالوصول الوشيك لممثّل المجلس الوطني الانتقالي المُعترَف به حديثاً. فاضطرب رِجال شرطة مطار بورجيه حين رأوا جواز سفره، وانكبّوا على الاتصال الهاتفي مع كلّ الجهات، يُتابعون القضيّة، ولكنّهم يُعرقلوننا. دافعتُ كثيراً، وزمجرت. وجبريل انفجر، وأدان، وهدّد، حين فِهم من هذا أنّه غير مُرحَّب به، بأنه سيعود من حيث أتى. ما أكثر ما شرحت الأمر لرجال الشرطة، المُتشبّثين برأيهم، أنَّ هذا هو محمود جبريل، حامل جواز السفر نفسه، هو جبريل نفسه الذي زار باريس أوّل مرّة يوم الأربعاء الماضي. لكنّهم لم يقتنعوا. مضت ساعة. ساعتان. فاتّصلت بالرئيس الذي لم يفهم شيئاً من القصّة، فحوّلني إلى ليفيت الذي وعدني، وهو يلفت نظري إلى أنّه ليس على عِلْمٍ بشي، بأن يفعل ما يستطيع. لكنّ آن - لور مونديزير، من وكالة الصحافة الفرنسية، هي التي اتصلت، فإذ كانت على علم بالموعد مع كلينتون، اندهشت من بقائنا في مطار بورجيه حتى ذلك الوقت، ورأت سلفاً وقوع الغلطة السياسية،

ومُضيّ الخبر الجيّد الصغير. وميشيل ديكلو، المستشار الدبلوماسي في مكتب وزير الداخلية (الذي شرحتُ له أننا نُلامس الحدث الأكبر، ولا داعي لإذهال العالَم بكوننا أوّل المُعترِفين بالمجلس الوطني الانتقالي، وبعد ثلاثة أيّام، نزُعِج مبعوث هذا المجلِس) هو الذي توصّل إلى حلّ المشكلة. إنّها للأسف الخامسة والنصف مساء. مضت ساعة الموعد. وجبريل غير المرتاح يبدو في هيئة، بل في مزاج ثور هائج. ركبنا في سيارتي، ووصلنا إلى أبواب باريس، وبقي جبريل لائذاً بالصمت.

سوء التفاهم الثاني. بينما كنت أجاهِد، وأنا في السيارة، لأحدّد ساعةً أخرى لهذا الموعد مع كلينتون، تلّقى جبريل رسالة نصيّة على هاتفه الخاصّ. «صاح فرِحاً، وفجأةً تحسَّن مزاجه قليلاً: إنّه جوبّ، حُدِّد لنا موعد مع السيّد جوبّ». قلتُ له: هذا رائع، وطلبتُ من السائق أن يتّجه إلى وزارة الخارجية. حتى لو أتيتُ إلى هذا الموعد، فعليّ أن أُنبّهه بصدق أنني، نظراً لحال العلاقة بيني وبين من يُسمّيه السيد جوبّ، من دون تشديد النبرة، ويلفظ اسمه كما تُلفَظ كلمة تنّورة jupe، فسوف أُرافقه، لكنني لن أُشارك... وا أسفاه. على محرَس وزارة الخارجية، لم يسمع أحد باسم جبريل. وبعد التنقيب، فهِمنا أن جوبيه نفسه ليس هنا لأنّه غادر منذ ساعة إلى قصر الإليزيه ليستقبل السيّدة كلينتون مع ساركوزي. وفي النهاية، وعندما نزل أحد المستشارين الذي ما إن رآني حتى انفجر ضاحكاً، اكتشفتُ أنّ هناك خلطاً قد حصل، نتج عن الصياغة السيّئة للرسالة النصيّة، فالموعد ليس مع جوبّيه، بل مع مدير مكتبه. توجّهتُ إلى ايسّي ـ ليه مولينو، إلى قناة الآرتيه، لأترأَس مجلس الرقابة الذي ينبغي أن يُنصّب فيرونيك كايلا، ويُودِّع جيروم كليمان. بينما بقِيَ جيل هرتزوق ينتظر، في مقهى مُجاوِر، نهاية الموعد مع مدير مكتب الوزير. أمّا جبريل، الذي باغتَه برد باريس، فوضع في رأسه فكرة شراء لِثام ومعطف. وبعد ساعتَين، حين التقيتُ به من جديد، كان أكثر تعجرُفاً وغضَباً ممّا كان حين تركتُه.

سوء التفاهم الثالث. لقاء كلينتون. أُجِّل الموعد في النهاية إلى التاسعة مساءً، تماماً بعد موعد ساركوزي ـ جوبّيه، والعشاء في الإليزيه. نحن في فندق فيستن. هذا الفندق محطة استراحة كبرى نموذجية للأميركيين المسافرين. فلول من الصحفيين، والمعاونين من مختلَف الألوان والأنواع. مُخابرات. حرَس شخصي. وفجأةً، في العاشرة، تشرع خليّة النحل في الحركة وكأنّ علامةً نبّهتْها إلى وصول ملِكة النحل. «قهقَهتْ وهي تراني، عند باب المصعد

وأنا مع جبريل بين مُرافقيها، وقالت: ها أنتَ هنا! كنتُ أعتقد أنّك في ليبيا ـ تماماً يا سيّدتي، فقد وصلت توّاً من هناك» وأشرت لها إلى جبريل قائلاً: «نحن هنا من أجل هذا...». صعدنا إلى الطابق الذي تنزل فيه. استمرّ اللقاء الثنائي كلينتون ـ جبريل حوالى خمسين دقيقة. وكان حين خرج منه، أكثر حنقاً ممّا كان عليه في مطار بورجيه، وأكثر اهتياجاً ممّا كان عليه بعد موعده الخُلّب مع «جوبّ»، ويشرح للسيّدة كلينتون المذهولة أنّه يطلب (باباً خلفياً) back door، يجب أن أجِد باباً خلفياً، بل مخرج نجاة...لأنني لا أُريد أن أرى الصحفيين... لا أُريد أن أكون فظّاً مع أحد، غير أنني لا أريد أبداً أن أقدّم أيّ ضمانٍ لأيٍّ كان عن هذا الموعد الذي انتهى توّاً... لأنَّ الموعد، كما شرح لي حين عاد إلى السيّارة، لم يكن موفَّقاً. فكلينتون لم تقُل شيئاً. تركتْهُ يتكلّم، ولم تقُل شيئاً. وشعر تماماً بـ «تعثُّر» مُرافعته عن المدنيين في بنغازي، وعن دعوته إلى توازُن السياسة الأميركية التي لا تستطيع أن تدعو، في كلّ مكان، إلى قِيَم الديمقراطية وحقوق الإنسان، وتترك الشعب الليبي يُقتَل عندما يُطالِب بها. جبريل واثق من أنّه أخفق. واثق من أنّ كلينتون لم تفقه شيئاً. لهذا السبب، وبعد مروره إلى البريستول لأنّه كان على موعد مع إماراتيّين، عدنا إلى فندق رافاييل حيث حاولت أنا وجيل، ونحن مُتعَبان، تعيسان، لأنّ مرارة جبريل تغلّبت على حُسن مِزاجَينا، أن نكتب، في قاعة الطعام الخالية، على طاولة مُعَدّة لفطور اليوم التالي، مسوّدة «نداء الفرصة الأخيرة» الذي سأنصح جبريل، منذ الفجر، بأن يُطلِقه، كطلقة أخيرة، كآخر قارورة تُلقى في البحر.

يقول النداء: «ليبيا، صديقة العالَم أجمع! ليبيا الحُرّة في خطر الموت، فهبُّوا لنجدتنا. ثار الشعب الليبيُّ، منذ ثلاثة أسابيع، بعد أربعين سنة من الاضطهاد، وحرَّر قسماً كبيراً من البلاد بدماء آلاف القتلى.لكنّ الطاغيَة تمالك نفسَه ثانية. فصدّ جيشُ مرتزقته مُقاتلينا غير المسلّحين كما ينبغي، الذين انطلقوا لتحرير طرابلس. طيّاراته، ودبّاباته، ومدفعيّته تقصِفنا ليل نهار في قلب الصحراء. كان ينبغي أن نتراجع. خسائرنا فادحة. وطريق بنغازي المُحرّرة مفتوحة أمام أرتاله الجهنّمية التي نخشى وصولها السريع عاجزين. فلم يعُد أيُّ شيء في الصحراء يعترِض القوّة الميكانيكية، والمصفّحات التي لا نملِك الوسائل ولا الزمن لإيقافها. لا نملِك إلا صدورنا لصدِّها. وسوف نُضحّي بأنفسنا. قوّة واحدة تستطيع إنقاذنا يا أصدقاءنا في سائر أنحاء العالَم. إنّها قوّة أصدقاء الحريّة. القوّة الخارجية وحدَها، الخارجية حقّاً، هي القادرة على إنقاذنا. فرنسا هي أوّل من اعترف بنا كبلَدٍ حُرّ. وعلَمها يُرفرف في بنغازي. ونحن نُناشِد هذا

البلد العظيم أن يأخذ زِمام المُبادرة لتشكيل تآلُفٍ عسكريٍّ دوليّ. فبإمكان الأساطيل الأجنبيّة القريبة من سواحلنا، والجيش المصري الصديق أيضاً، أن تصدّ بطريقة حاسمة، عبر قوّتها الرادعة وحدَها، تقدُّمَ كتائب القذّافي باتجاه بنغازي وليبيا الحرّة. أيها الأصدقاء الفرنسيون، أنتم الذين عانيتُم من الاحتلال الأجنبي الشرِس طيلة الحرب العالمية الثانية، أنتم الذين حقّقتم التحرير بفضل الجنرال دو غول والمقاومة، ومساعدة حُلفائكم. ندعوكم يا سيادة الرئيس ساركوزي لِنجدتنا. إذ لا ينبغي أن يموت الربيع العربي، وحرية ليبيا في بنغازي».

إنها الساعة الثانية صباحاً. سيكون نهار غدٍ وعِراً.

الثلاثاء 15 آذار/مارس (مُكالمة هاتفية من ساركوزي)

لم أعُد أفهم شيئاً.

الإخفاق من جانب. وحتى النحس. فمجموعة الثماني أعلنت موافقتها على عقوبات، لكنّها استبعدت الخيار العسكري. وألقت ألمانيا بثقلها الكامل لتمنع صدور بيان صارم، ويبدو أنّها تغلّبت على التصميم الفرنسي. ومن جانب ثقافي، وقّعت على عريضةٍ أرسلها إليّ غلوكسمان وكتبها نيكول باشاران، ودومينيك سيمونيه. لكنّ العريضة الوحيدة التي لم أتمكّن من تنظيمها، والتي يمكِن أن يكون لها معنى، هي عريضة المُثقّفين الفرنسيين والألمان الذين يجب أن يضغطوا على حكوماتهم لتذكيرها بقواعد الشرف الأساسية ـ وهانس كريستوف بوش لا يُجيب، ورقم بيتر شنايدر الذي عندي غير صحيح، وحين هتفتُ لبوب جلدوف المحترِف في المجال الذي لا خلاف حوله، أجابني بأنه موجود في الولايات المتحدة، وأنه مشغول جداً في تلك الفترة، وأن الدول وحدَها هي التي تستطيع، في هذه المرحلة، أن تُوقِف المجزرة.

لكن من جهة أُخرى، تلقيتُ مُكالمة هاتفية من الرئيس، الحانق على شُركائه، وخصوصاً على ألمانيا، فقال لي (لست أدري إن كانت المُستشارة مُتنبِّهة إلى مُجازفتها والمُجازفة ببلدِها؛ فأنا ممّن يجدون طبيعياً أن تكون ألمانيا مُرشّحة لنيل مقعد دائم في مجلس الأمن ـ لكنْ كيف يُمكِن أن تبغي الشيء ونقيضَه، وكيف تغيّر موقفها بهذه الطريقة أمام الأزمة العويصة الأولى التي تُواجِهها السياسة الأوروبية منذ حرب البلقان؟) لكنّه مع ذلك ليس مُحبَطاً، بصورة غريبة ليس مُحبَطاً تماماً (من جديد يُخيِّم شبح البوسنة الذي سبق مذبحة سربرنيتشا، والذي أتنبّه على عجَل أنّ في رأسه توقيته الدقيق تقريباً؛ «قال لي: اليوم أنا صاحِب القرار، وأريد أن أفعل كلّ

شيء، لا أعرِف بعدُ كيف، غير أنّي أُفكر في الأمر لأمنع تكرار مذبحة سربرنيتشا»)، وشدَّد على دعم الجامعة العربية الجوهري والأكيد. ومن جهة أُخرى، قال لي مصدر مُقرّب من هيلاري إنَّ جبريل لم يفهَم، وأنّ هذا الدبلوماسي المُحنَّك جانَبَ الموضوع الذي أثاره بغرابة؛ وأثّر في هيلاري، وهزّ مشاعر الحيوان السياسي الكامن فيها، وببساطة شديدة حرَّكَ مشاعر المرأة، وما إن عاد على أعقابه من الباب الخلفي، حتى انعقد مؤتمر هاتفي بين باريس وواشنطن، في جُنح الليل، مع روبر غيتس (المُعارِض الشرِس للتدخُّل) ومع أوباما (المُتردِّد) الذي لم يكن من المؤكد أنه يمضي في اتّجاه عدَم التدخُّل الذي يتبنّاه غيتس.

لمّا أحاطني الشكّ، وجدتُ من الحكمة أن «أحتفِظ» بـ «نداء الفرصة الأخيرة» ـ وأن أُخبِر جبريل بذلك عبْر رسالة نصيّة. اقترحت عليه أن نمنح أنفسَنا أربعاً وعشرين ساعة. فالبشر، وحتى السياسيُّون، غامضون في بعض الأحيان. ومَن يدري، فرُبّما زحزحتَ كلينتون عن موقفها من دون أن تعلَم؟

الأربعاء 16 آذار/مارس (مُكالَمة ثانية من الرئيس)

مضت الأربع والعشرين ساعة. وجّهتُ رسالة نصيّة أُخرى إلى جبريل، وطلبت منه أن يؤكِّد لي رغبتَه في نشر النداء الذي كتبناه يوم الاثنين مساءً. وخلال فترة انتظار جوابه، كنتُ أكتب، في غرفتي كلِمتي الخاصّة بتكريم جورج سمبرون التي ينبغي أن أُلقيها، نهاية شهر حزيران/ يونيو، بحضور جورج، في مدريد. رنَّ هاتفي. إنّه الرئيس. رأى عريضة باشاران ـ سيمونيه التي كانت قد نُشِرت توّاً في جريدة اللوموند. ويبدو أنّه كان قد تقدّم قليلاً في القضية ـ ما يزال مُغتمّاً، ويائساً، لكنْ من المُحتمَل أنّه تبصَّر حلاً.

ـ «هل تعرف سفيرنا في الأمم المُتّحدة؟ ـ هو الذي كان سفيراً في إسرائيل منذ سبع أو ثماني سنوات؟ قريب من دو فيلبّان؟

ـ هذا شخص ممتاز. مِقدام.تخاصَم أمس مع سوزان رايس.يا لَرخاوة الأميركيين. لم أعُد أفهمُهم». صمتَ ثم قال:

ـ أو أنني أفهمهم تماماً. لكن لِنصرِف النظر ...

ـ تفهمهم تماماً؟

ـ لا، لا أهمية لهذا. علينا أن نتقدّم الآن، ونحاول المُضيّ بقوّة.

قلت، وأنا مُقتنع أنه يعرف المسألة أكثر مني، وأنه سيقول لي ذلك: مُعادلة الأميركيين شديدة التعقيد. فهناك كلينتون من جهة، التي قيل لي إنّ موعدها أمس مع جبريل رُبّما هزّ كيانَها...

لم يُعلّق على كلامي.

ـ ومن جهة ثانية، هناك روبي غيتس، الذي مضى إلى حدّ القول، كأكثر طبقات العزل سماكةً، إنّ أنصار العمل العسكري في ليبيا خارجون من مستشفى الأمراض العقليّة...»

دمدم شيئاً عن غيتس ومستشفى الأمراض العقلية، لكنّه غيَّر الموضوع.

ـ ما الأخبار عندك عمّا يجري هناك؟

ـ دبّابات القذّافي تخطّت البريقة. وسيطرت كتائبه على المدُن كلّها، بما فيها اجدابيا التي كان الثوّار ما يزالون يسيطرون عليها صبيحة اجتماع الإليزيه. والآن تزحف كتائب القذّافي إلى بنغازي.

صمتَ لثوانٍ. واستأنف كلامه بصوتٍ مخنوق وكأنّه كان يتحدّث مع نفسه.

«أعرف هذا كلّه». ولذلك يجب أن نُخاطر بكل ما لدينا. الآن. قد لا ننجح. وحينئذٍ لن يستطيع أحدٌ أن يقول إننا لم نُحاول.

ـ ما ذا تعني المُخاطرة بكلّ شيء؟

ـ التصرُّف بسرعة، واستباق العالَم.

ـ ماذا تعني؟

ـ استباق الأميركيين أوّلاً. ثم الروس الذين يستعدّون لاستصدار قرار لن يذكر إلا وقف إطلاق النار، ممّا سوف يُعقّد المسألة.

ـ من دون الحديث عن الصينيِّين الذين يترأسُّون مجلس الأمن...

ـ من دون الحديث عن الصينيِّين، نعم، بالتأكيد. لهذه الأسباب مُجتمِعةً يجب المُضيّ بسرعة فائقة، والاعتماد على عنصر المُفاجأة. لكنْ لا تقُل كلمة عن هذا، أيّة كلِمة.

وبعد فترة صمت جديدة، قال، قبل أن يُغلِق الخطّ، هذه الكلِمة الأخيرة بصوتٍ مشوبٍ بالسخرية:

«أسمح لنفسي بإسداء نصيحة إن أمكن، نصيحة بسيطة للغاية هي أن يعدِل جبريل عن توجيه ندائه إلى دوَل العالَم...»

لا أتذكر أنه تحدّث عن ذلك. أو رُبَّما لم أعُد أتذكّر. كل شيء غريب، على أيّة حال. **الزمن** يغدو غريباً. فهو سريع حيناً، بل سرعتُه رهيبة، وخصوصاً حين تنسكب موجَزات الأخبار الإذاعية التي تورد تصريحاً لسيف الإسلام، ابن القذّافي، يُعلِن فيه أنّ كلّ شيء سينتهي «خلال ثمانٍ وأربعين ساعة»، أو تورد تقارير مُراسِليها النادرين الباقين هناك الذين يستحضرون مشاهد من الرُّعب، وعائلات تنحشر في سيّارات للسفر إلى طبرق، وفلولاً من اللاجئين المتدفّقين إلى الحدود المصرية. وهو، على العكس، بطيء جداً حيناً آخر حيث تستمر الدقائق ساعاتٍ، كمثل غيوم ثقيلة تتأخّر في الانجلاء ـ حين أحاول الاتّصال ببنغازي أو أُفعِّل تحذيراتي على تويتر وفيسبوك عن ليبيا. فمن سينتصر في سباق السرعة بين الدبّابات من جهة، ومن جهة ثانية، تبنّي مشروع القرار الذي كان ساركوزي يُكلِّمني عنه قبل قليل لكنّه، في الوقت الحاضر، غير مكتوب، وغير مطروح، وغير مُصوَّت عليه؟

الخميس 17 آذار/مارس (اليوم الأطول، ثلاثة أحاديث مع الرئيس عن الكارثة الوشيكة)

يوم غير معقول.

قد يكون هذا اليوم هو الأغرب منذ بداية هذه القصّة.

كنتُ في الثامنة والثلث على موجات إذاعة فرانس أنتير مع باتريك كوهين. أعتقد أنني كنتُ مُمثِّل كلّ أولئك الذين يرون قدوم هذه الكارثة المُعلَنة، وعدَم قُدرتنا على منعها. ثرتُ. واهتجتُ. تكوّن لديّ انطباع بأنني، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، أعيش من جديد ساعات نحس البوسنة، وأستعيد، بالمقابل، لأعبِّر عن ذلك، كلامي في تلك الفترة عن القائلين بمذهب نوربوا، أقصِد الذين يُعارِضون أيّ نوع من التدخُّل، أنصارَ إيديولوجية وزارة الخارجية الفرنسية. كنتُ، على امتداد لُقابلة، أضرب ذاتَ اليمين، وذات الشمال، مُعرِباً عن أسفي على صمت الاشتراكيين المُطبِق، الذين ينبغي أن يفهموا، على أقلّ تقدير، أنّ ثمّة مواقف يجب أن تُترَك فيها المُشادّات السياسية جانباً، وأن يقبلوا بدعم رئيس يذهب في الاتّجاه الصحيح، وذلك مهما كانت الخلافات كبيرةً معه. في القسم الثاني من البرنامج، المُخصَّص للمُستمِعين، انبثق صوتٌ يقول لي شيئاً لم أتبيّنه إلا بعد عدّة ثوانٍ: صوت وزير الدفاع السابق، بول كيليس، يقول إنّه يتفهّم غضبي، لكنّه يعترِض على فكرة صمت الاشتراكيين، إذ كانت الأمينة

العامة للحزب، مارتين أوبري، حتى قبل ساركوزي، أوّل من دعا إلى التدخُّل في ليبيا. وحين خرجت من الاستديو، وركبت سيّارتي، بحثتُ عن رقم هاتفه. اتصلت به. لم أرَه منذ ثلاثين عاماً، من فترة مجموعة الخُبراء البعيدة، ويبدو لي أنّه كان يهتمّ فيها، من أجل فرانسوا ميتران، وبعد شارل هيرنو، بقضايا عسكرية - ومع ذلك اتّصلتُ به. «لا أهمية للخلافات الأبويّة. الأمر عاجِل. وإذا كانت مارتين أوبري أخذت حقّاً الموقف الذي ذكرْتَه، فهيّا نرَها معاً، لنعمل على أن يُلاقي هذا الموقف - الذي كان حتى الساعة غير مسموعٍ به على نطاقٍ واسع - الصدى الذي يستحِقّ». أخبرني كيليس أنّه في بيته في منطقة تارن، ولكنّه سيطلب من أوبري أن تتصِل بي. وبالفعل، تلقيت، في الحال، اتّصالاً ليس من أوبري، بل من مُستشارها، فرانسوا لامي، الذي طرَح عليّ عدّة أسئلة، تقريباً الأسئلة نفسها التي طرحها ساركوزي البارحة، وقال إنّه سيُعيد الاتصال بي سريعاً.

إنّها العاشرة صباحاً. كنتُ في الطابق الأوّل من فندق فلور. أُناقِش مع دانييل كوهين - بنديت نداء الفُرصة الأخيرة الذي أريد إطلاقه، منذ أمس، بين المثقّفين الألمان والفرنسيين، والذي هو وحده يستطيع أن يُعِدَّه معي. تأثّر بذلك. كان أقلّ تهكماً من المُعتاد، لكنّه تأثّر. وهكذا، من دون أن أؤمن بذلك حقّ الإيمان، وإذ تملّكني شعور بأنني أُقوم بنوعٍ من معركة يائسة، كتبنا قائمة من أسماء شخصيات ستتّصِل بها بدءاً من هذا الصباح، وهو خصوصاً، إلى فرانكفورت، وباريس، كي نُحمِّلهم مسؤولية نجدة أخيرة. وفجأة يُنشر في جريدة لو بوست le Post خبر عاجِل طويل بعنوان «هل سمعت مارتين أوبري هجومَ برنار - هنري ليفي على الحزب الاشتراكي قبل أن تدفع حزبَها ضدّ المجتمع الدولي؟». يبدأ الخبر بهذه الكلمات: «بينما تقوم قوّات القذّافي بدحر الثوّار، وبينما تُبطئ الأمم المُتحدة في اتّخاذ قرار الحظر الجوّي على ليبيا، أطلقت رئيسة الحزب، يوم الخميس، خلال زيارة إلى سانوا لدعم مُرشّح الحزب الاشتراكي في الانتخابات المحليّة في الفال - دواز، هذا الكلام» - ويُعيد، لاحقاً، تصريح أوبري الآتي: «أُفكر بليبيا التي لا أحد يتحدّث عنها، تركنا القذّافي يفعل ما يُريد، واليوم، الأمم المتّحدة لا تملك القُدرة ولا الشجاعة على التصرُّف، أشعر بالخجل من موقف أوروبا، من موقف مؤسّساتنا الدولية، فنحن نتّفِق على مُساعدة صيارفة بنوكنا، لا على مُساعدة شعب، آسفة على هذا الهجوم، غير أنّي أُفكر بليبيا ليل نهار». أمّا وكالة الصحافة الفرنسية فأضافت أنّ مُحافِظ مدينة ليل ذكّر بأن الحزب الاشتراكي كان قد طالَب «منذ 27

شباط/ فبراير، بمنطقة حظر جوّي»، ووجّه، خاصّةً، «بالمُقارنة مع سلبيّة المجتمع الدوليّ»، في الحرب الإسبانية ـ مُشدِّداً على أنّ «العالَمَ أجمع قال إنَّ ما حصل مع فرانكو ليس مقبولاً، لكننا تركناه يفعل، وهذا ما نفعله اليوم». قال داني، إنّها ضربة مُعلِّم. وأظنّ، أنا أيضاً، أنها مناورة سياسية ناجحة. لكنْ لِمَ لا؟ ومن يدري، ولِكون السياسة هي السياسة، والتنافُس يُغذّي التنافُس، إن كان هذا التصريح سيُضيف، إذا دعت الحاجة، شيئاً إلى عزيمةِ الرئيس؟

الساعة الثانية بعد الظهر، بعد أن أنهيتُ تناوُلَ طعام الغداء مع ماتيو تارو، رنّ هاتفي. إنّه الرئيس. لكنّه رئيس مختلِف. لأنّه استعاد حبَّه للمواجهة التي كانت لديه الأسبوع الماضي. أعلن لي أنّ سفير فرنسا في الأمم المتّحدة «جاوَز»، كما كان قد قال لي مُغمغِماً، نظيرتَه الأميركية بتقديمه، قبلَها، مشروع قرارٍ صارم. قال لي ـ لكنّي فهِمتُ هذا وأنا أرى برنار غيتا، هذا الصباح في أستوديو فرانس آنتير، يمضي مُصرِّحاً لِمعاون باتريك كوهين بأنه كان ذاهباً مع جوبّيه، غير أنّ تغيراً غريباً في البرنامج حصل قبل قليل ـ حرفياً، «حوّل اتّجاه» الوزير الذي كان يجب أن يذهب إلى برلين، لكنّه أمره بأن يتوجّه إلى نيويورك للدفاع عن مشروع القرار الفرنسي. وأظهر لي خاصّة ورقته الأساسية في التفاوض الذي بدأ توّاً حديث مع ميدييديف وأقنَعه بالامتناع عن التصويت مُقابِل أن تُضاف، على مشروع القرار، عبارة تُلزِمنا صراحةً بعدَم إرسال جيوش إلى الأرض الليبية. فهل يُمكِن أن يعتمِد مستقبل ليبيا، ومستقبل العالَم العربي، ومستقبل العالَم، على مُفاوضات صُغرى، وبالتالي على مُفاوضات صُغرى من هذا النوع؟

الساعة الثامنة والنصف مساء، تناولتُ طعام العشاء وحيداً من دون شهيّة، كابساً الأزرار لأنتقل من قناة تلفزيونية إلى أُخرى، أجول على شبكة الانترنت، بحثاً عن أخبارٍ طريّة. فالحقّ أنّ العالَمَ كلّه ينتظر دخول كتائب الموت إلى بنغازي. المسألة، بحسب قناة CNN، مسألة أيّام. وبحسب الجزيرة مسألة ساعات. لكنّ النهاية لم تعُد مثارَ شكٍّ عند مُعظَم الناس... فوجّه الرئيس نداءً جديداً. وزجر بالقول، المستشارة الألمانية، «فجيعة» من الحذر. لكنّ ميدييديف سيفي بتعهّده. وساركوزي شخصياً أقنع رئيس جنوب إفريقيا، والرئيس اليوناني. بحيث إذا قَبِلَ «هو جيانتو» الذي اتصل بهِ هو شخصياً، بعدم استخدام حق النقض (الفيتو)، واكتفى بالامتناع عن التصويت، وإذا ما استسلم أحد الأعضاء للاسترخام (ليس هناك كلِمة أُخرى)، الذي وجّهه، فهناك فرصة ثمينة ليمرّ مشروع القرار الفرنسي ـ مُنتصراً بذلك على تعقيدات العدوانية، والمصالح المُتناقضة، والتحفُّظات التي تُعيقه من حيث المبدأ.

أخيراً، في مُنتصف الليل. انتظرنا، على منصّة تادّاي، حتى آخر لحظة، لكن من دون جدوى، ما انتهت إليه المُناقشات في نيويورك، ونتيجة الملاحقة الصاخبة بين «مؤيّدي» قرار التدخُّل، وطوابير المصفّحات. نحن في لونتالامبير، مع فريق من مجلّة La Règle du Jeu. شيء ما يقول لنا هذا كلُّه شديد البطء، هو من البطء إلى حدّ أنّه لا يُبشِّر بالخير. وماريا دو فرانس، وأرمين أريفي، وجيل كولار، يفُكِّرون بمبادرة يُمكننا، هذه المرّة، أن نأخذها في نيويورك عندما يرنّ الهاتف. رئيس الجمهورية من جديد: «ما أزال مُستيقظاً، وليس هذا من عادتي. لكن يجب أن أُخبِرك بنفسي. لقد تمَّ تبنّي القرار. نعم، تمَّ تبنّيه. هذا نصر كبير لفرنسا. وهو نصر كبير خاصةً لليبيا التي أصبح شعبها بدءاً من الآن تحت حماية المجتمع الدولي». تخلّلت هذه المُكالمة المُتأخّرة، وهي الثالثة اليوم، كلِمات تُعبِّر عن الفرح («لقد قاتلتُ، أنا سعيد») وعن الاعتراف بالجميل («كان يوما رائعاً»)، وعن تقديرات أكثر سطحيّة («إذا قرّر أوباما المشاركة أم لم يُقرِّر، سأتصل به لتهنئته»)، وعن فضول (الظنون حولي، وعمّا إذا كنتُ متأكّداً من أنّ كوهين ـ بنديت مثلاً مؤيّد للتدخُّل العسكري) وأخيراً عن النغمة الحادّة لقائد حربي كان مُجبراً، اعتباراً من هذه اللحظة، على اتّخاذها (عنده سلَفاً فكرة عن أرض المعركة، والجبهات، وقد كلّف بالعمل مُعاونه الخاصّ، وجنرالاته، وسيكون بين يديه، بدءاً من صباح الغد، خطة ضربات عسكرية يجب أن تُنفَّذ فوراً إذا أردنا إنقاذ بنغازي).

الجمعة 18 آذار/مارس (الحرب؟)

يوم سهرة الاستعداد. أعرف أن الطيّارات الحربية في طريقها إلى ليبيا. وأنّها لن تكون جاهزة «فوق مناطق الحظر» إلا غداً، السبت، بعد القمّة التي دعت إليها فرنسا، والتي، إذ تجمع مُمثِّلين عن بلاد غربية وعربية، ستنتهي بإعطاء شكلٍ للتحالُف الذي سبَق تكوينه من أعلى شرعية دوليّة مُمكنة. فكيف سيتصرّف القذّافي؟ هل سيمتلك حكمة الاستسلام؟ أمّ أنّه سيستمرّ في التقدُّم ـ ويجعل التدخّل حتمياً بتحدّيه للمجتمع الدولي؟ تقول آخر الأخبار إنّه يُمكِن أن يُعلِن وقف إطلاق النار. لكن على الكورنيش حيث تمكّنتُ من الاتصال بأحد مُعاونِي عبد الجليل، قيل لي: هذه مُناورة، والكتائب سوف تستمرّ في الزحف. قضيتُ الليل من جديد في الكبس على الأزرار والانتقال بين الـ CNN، والجزيرة، والعربيّة؛ ومُتابعة رسائل محمّد نابوس على التويتر، ومحاولة الاتصال من جديد ببنغازي، حتى الفجر.

السبت 19 آذار/مارس (فرنسا أنقذت بنغازي)

بدأت العمليّات.

ثلاث مُكالمَات هاتفية مع الرئيس.

الأولى قبل موعد الغداء تماماً حيث كانت القِمّة على وشك الانعقاد في الإليزيه. «سيكون الجميع هنا. بان كي ـ مون، وهيلاري كلينتون، والنرويجيون، وهذا جيّد لأنهم ليسوا أعضاء في الاتحاد الأوروبي. أعتقد أنني نجحت، أخيراً، في إقناع أنجيلا ميركل بالالتحاق بنا ـ مُقابل تعديل في النصّ أعددناه معاً حيث نعترف بحرية كلّ بلد في أن يُطبِّق، بطريقة مختلِفة، القرارات التي يُمكِن أن تتبنّاها الأمم المتّحدة في قضية ليبيا. ستكون قطر حاضرة، لن يأتي الأمير الذي سبق أن جاء أمس، سِرّاً، ليُجهِّز آخر تفاصيل العمليّة، بل سيأتي رئيس وزرائه الممتاز. المشكلة البسيطة الوحيدة هي تلك التي أثارها مُمثّلا السعودية والإمارات. فهما لا يُريدان أن يجلِسا على الطاولة نفسها مع هيلاري كلينتون بسبب مُساندتها للمتمرِّدين في البحرين. لكنّهما وصَلا أخيراً. وهذا هو الجوهري. فهذه هي المرّة الأولى التي تتحرَّك فيها مِثل هذه الجبهة، من بلاد الشمال، والجنوب، من أوروبيين وعرب، ضدّ ديكتاتوريّة».

كانت المكالمة الثانية، قبل الرابعة عصراً بقليل. فقد انتهى الغداء توّاً. بدا الرئيس أكثر توتُّراً، وقلَقاً، تنِمّ لي المُكالمَة، هذه المرّة، عن بدايةٍ وشيكة للضربات العسكرية. «حان وقتها. كلّ المعلومات التي تصِلنا تُشير إلى أن القذّافي سخِر منّا بادعائه وقف إطلاق النار، وسقوط بنغازي، ونحن نتكلّم الآن، ليست إلا مسألة ساعات، ورُبّما مسألة دقائق، إذا لم نتدخَّل. لكنْ هنا، تدخُّلنا سيَتِمّ. وسنكون فوق مناطق الحظر في الوقت المُحدّد. والطيّارات الفرنسية هي التي ستبدأ القصف أوّلاً. ثُمّ الطيارات الكنديّة والأميركية غداً. وفي الساعات اللاحقة، تصِل الطيّارات العربية. ولِمَ لا تأتي فوراً؟ لأنّ عندهم مشكلة طيّارين. لكن لا أهمية لهذا أبداً. هم وراءنا، يدعموننا دعماً كاملاً».

وأخيراً جاءت المُكالمة الثالثة قُبيل الثامنة مساء. كانت هادئة. «تمّ تحييد الكتيبة الأولى. وقد دمّرنا، قبل ساعتين، سيّارة مُصفّحة. وهنا تغدو العمليات أكثر أهمية. إذ يتصل الأمر بتدمير أربع دبّابات، الدبّابات الأربع الأولى التي كانت على أبواب بنغازي. وطيّاراتنا هي التي قصفت في المرّتين. الطيّارات الفرنسية. وسوف نتابع القصف طيلة الليل إذا لزم الأمر.

كانت معلوماتنا جيّدة. لم تكن المدينة قادرة على الصمود ليلةً أُخرى. فاعتقدتْ كتائب القذّافي بسقوطها، وبدأت تظهر في ضواحيها. وهي الآن تستسلِم. الخوف غيّر المُعادلة. هذا رائع».

الأحد 20 آذار/مارس (حيث يظهر أن ليبيا ليست العراق)

رسائل «تهاني» نصيّة... قيل كثيراً: إنّه لأمرٌ غريبٌ أن يتلقّى مُثقّف التهاني على حرب تبقى، مهما كانت عادلة، حرباً، وستُخلِّف بالتأكيد أمواتاً، وجرحى، وأضراراً من كلّ نوع، وتدميراً. الفكرة مُدوِّخة. تُغرِق المرء في هاويةٍ من الحيرة. قضيتُ بقيّة اليوم محبوساً في غرفتي، لم أتّصِل بأحد، ولم أُجِب على اتّصال أحد، وخصوصاً على الصحفيين الذين قرؤوا مقال رونو جيرار، الذي نُشِر أمس في جريدة الفيغارو، ويُحاولون أن يعرفوا المزيد عن هذا الكاتب، الذي كان يُمكِن أن ينجح، في نهاية ترابُطٍ من المُصادفات والعِناد، في إيجاد طريق مركز القيادة الرئاسية، وفي أن يستصدِر له قراراً من مجلِس الأمن يُوافق، لأوّل مرّة، على التطبيق الكامل، والعسكري لمبدأ التدخُّل.

الحقّ أنني لا أستثني إلا واحداً. بوتِل. ميشيل بوتِل. اتّصلت به قبل قليل، بعد الرسالة النصيّة الجميلة والغريبة التي أرسلها لي، بعد عدّة دقائق من أوّل قصف لضواحي بنغازي. قال لي فيها: «يا برنار. نعرف منذ القديم أنَّ ما فعلنا بحياتنا، وبهذه «الجبريّة»، أي طَبْعنا، سوف يُجابه ذات يوم الحدثَ الذي سيُناقِضه، ويُزعِجه، ويُعاكِسه - أو بفعل مُعجزة، يؤكّده، ويُحمِّسه، ويُمجّده. وها أنت للتوّ تنجح في الامتحان الكبير. وما كنتَ قد خلقتَه من قبل، يتحقّق الآن. كنتُ أحياناً غير مُتفِّق معك، ومُنزعِجِ أحياناً أخرى. واليوم، أقصد هذه الأيام التي نعيشها، أنا سعيد بأني التقيتُ بك، وأننا صرنا صديقَين عجيبَين، غالباً بعيدَين، لكننّا قريبان في كلّ الظروف الجِديّة. لك قُبلاتي يا ميشيل».

أجل، يا صديقي العجيب. حقّاً، لم نتقابل كثيراً في الفترة الأخيرة. حتى إنني، فجأة، لم أعُد أعرف إن كنتُ ما أزال عضواً في المجموعة الصغيرة أدفع اشتراكاتي للجمعية المؤسَّسة بحسب قانون 1901، التي أنشأتها نساءٌ سابقات وسيّدات لضمان المحافظة على التراث الوطني ممّا آل إليه في نظرِهنّ. لكنني أتذكّر **اللامُتوقَّع**.أتذكّر المكانة التي احتلّها في حياتي، قبل الآخرين، وأكثر من الآخرين، «كأفضل صديق» أصيل. أتذكّر الزمن - البائد الآن طبعاً - الذي كان خلاله يفتنني، إلى أعلى حدٍّ، بذكائه، وبجانبه العبقري، وبطلاقته «الفائضة»، وبأسلوب حياته وتفكيره.

رسالتُه النصية هي أكثر رسالةٍ أسعدتني من بين الرسائل التي تلقّيتها.

في ما عدا هذا، راودتني أفكار غائمة.

قضيّة الحرب هذه. إنّها، للمرّة الأولى، الحرب، الحرب الحقيقية، وهي، إذا تجاسرتُ على القول، الحرب فعلاً. كنتُ حتى الآن أُدافع عنها. وأدعو إليها. كنتُ أزدري دُعاة السِّلْم، على طريق اللواء بيتان، والأوغاد الذين يظنّون أن فاشيّةً صُغرى أفضل من حربٍ كبرى. لكنّي لم أكن أُخاطِر كثيراً، لأنني كنتُ أعرف أنّ الكلِمة الأخيرة ستكون، في آخر المطاف، للسِلْم، وأنّ العالم، مهما علا صُراخُ أناسٍ مثلي، سيبقى مُنقسِماً، من جانب، بين سكّان ميونيخ الذين يُفضّلون يقين العيش نائمين، على الموت ناهضين، وحُماة الديمقراطية الذين يقبضون أرباح شرفهم من دون أن يُخاطِروا برؤية نداءاتهم خاضعة لامتحان الواقع، من جانبٍ آخر. لم تَعُد هي الحال هنا. فالحرب اندلعتْ حقّاً. ومن حقّي ألاّ أنخدِع.

ما معنى حرب عادِلة؟ منذ بداية حديثي عنها... منذ الزمن الذي كنتُ أبحث في موضوعها...أقول: تجِد الحربُ العادلةُ نفسَها، إذا اعتقدنا بمن ولّدوا مفهومها، بدءاً بالقدّيس أوغسطين، وتوما الأكويني، وانتهاء بغروتيوس، في ثلاثة ملامح أساسية تبدو جميعُها متلائمة مع هذه الحرب الليبية.

1 ـ نُبْل القضيّة: أليس إنقاذُ شعبٍ مدني من مجزرة مُعلَنة، نَمَطاً أمثل للحرب العادلة؟

2 ـ الملاذ الأخير: من يُنكِر، مع وجود الدبّابات على أبواب مدينة بنغازي وتقدُّمها على الرغم من المُفاوضات السياسية، والعقوبات الاقتصادية، والجهود الدبلوماسية، انطباق هذا، بحقّ، على حجّة الملاذ الأخير؟

3 ـ التناسُب في النتائج الأخيرة، أي فكرة أن تكون الأضرارُ التي تُسبِّبها الحرب أقلّ من الأضرار التي تمنع قيامَ الحرب: هنا تتعقّد الأشياء، هنا حيث لا أحد مُتأكّد من شيء ـ هنا حيث لا يبقى الرجاء، والصلاة لمن استطاعوا إلى الصلاة سبيلا.

لماذا هذه الحرب لا حرب العِراق التي طالمَا أدنتُها أنا شخصياً؟ هناك أربعة اختلافات بين الحربين. بل خمسة. خمسة أسباب موضوعية، وواضحة، ولا نِقاش فيها، تُشير إلى أننا في نمطيّة مختلِفة، وأن حرب ليبيا مُعاكِسة للحرب على العراق. 1 ـ تفويض من الأمم المتّحدة، مصدر الشرعية الدولية المُسلّم بها. 2 ـ تفويض أخلاقي قويّ، منحَتْه الجامعة العربية التي لا ينبغي أبداً

نسيان أنها كانت حاضرةً على الفور هنا، مع الغرب، لإدانة عدوان القذّافي ضِدّ شعبه. 3. حضور مجلس وطني انتقالي يستحِقّ الوجود، ويتمتّع بقاعدة شعبية فعلية، ويمظهر أفضل من مظهر المؤتمر الوطني العراقي البائس الذي كان يرئسه شلبي. 4. ثورة ديمقراطية سبقت التدخُّل الذي جاء للمواجهة وليس للتحريض. وهذا أيضاً يُغيِّر كلّ شيء! ثُمَّ 5. ليس في حرب ليبيا جيوش على الأرض، ولا جيش احتلال. وهذا، إذا احترمنا شعب بنغازي، وإذا توصّلنا إلى حمايته، وحتى إلى إسقاط القذّافي، من دون أن نكون مُجبرين على إرسال جيش غازٍ، سوف يُنجِز تفرُّد هذه الحرب، ويُميِّزها عن الحروب التي قام بها الغرب حتى الآن.

لهذه الأسباب مُجتمِعة، ميشيل بوتِل على حقّ. ولاشكّ أن الحدث العظيم هو، لهذه الأسباب ولِغيرها، الموعد الأكبر في حياتي الثقافية والسياسيّة. فما الأسباب الأخرى؟ أوه! ثمة أسباب كثيرة... وجوب التدخُّل المشهور الذي أُدافع عنه منذ أكثر من ثلاثين عاماً، ورُبّما هو في طريقه إلى أن يتحقّق... هذه القذارة السياديّة، هذه القذارة الإيديولوجية التي تكون الكلِمة الأخيرة بحسبها دوماً للأوطان، والتي ما إن تُرتكب مذبحة أو جريمة ضد الإنسانية، أو قتل جماعي، في الغُرَف المغلَقة لوطنٍ ذي سيادة، ولا تنتهك سيادة وطنٍ مُجاوِر، فليس وارداً التدخُّل. رُبّما هذه الإيديولوجية بصدد معرفة أوّل هزيمةٍ تاريخية... خطُّ المُنحدَر الآخر هذا الذي هو أيضاً، في حياتي، على الدوام، رفْضُ الحتميّة الجغرافية: حين كنت أذهب، وأنا طالب شابّ في المدرسة العُليا للأساتذة، لدعم البنغلادشيين ضدّ برعم القتل الجماعي الأوّل الذي لم نشهد مثله إلا في اوشفيتز، حين كنت أذهب إلى دارفور، إلى أنغولا، وبوروندي، وحين كنتُ أُدافع، في صحراء نسبية، كي لا ننصاع لتقسيم الإنسانية الشنيع إلى شعوب بَرهميّة، تتمتّع بكل الحقوق والامتيازات، وشعوب لا تُمَسّ، مُعذّبةُ الأرضِ والحرب، وملعونة... ثُمّ مسألة العلاقة بين اليهود والمسلمين، نقطة الرُّعب التي وضعتها لنفسي، طيلة حياتي، بألاّ أُفكر انطلاقاً من سُلالتي، وأن أمُدَّ يدي: حين يقضي اليهودي الذي أكونُه سهراتٍ كاملة مع بيغوفيتش، في سراييفو المُدمَّرة، لمناقشة العلاقات بين الإسلام واليهودية، حين كان يُدافع، في جامعة بيرزيت أو حول خطّة جنيف، عن دولة فلسطينية، وفي الوقت نفسه عن وجود إسرائيل، وحين كان يهبُّ، ويهبُّ الآن، لنجدة الشعوب المسلِمة التي تضطهِدها شعوب غير مُسلِمة، وأحياناً شعوب مُسلِمة أُخرى، فماذا كان يفعل، في الواقع، غير أن يُحضِّر نفسَه لهذا الموعد العظيم الراهِن؟

الإثنين 21 آذار/مارس (علي ومنصور)

تلقّيتُ، في الحقيقة، اتصالاً هاتفياً أمس مساءً، اتصالاً واحداً من ليبيا يُشير لي إلى وجود مركز كتائب، ومُصفّحات في الجنوب، ويرجوني أن أوصِل الإحداثيات إلى الإليزيه. دوّنت هذه المعلومات. وأرسلتها في رسالة نصيّة إلى ليفيت. وحدّدتُ موعداً، في الصباح، لليبي كي أتعرّف عليه شخصياً. وكان هناك في الساعة المُحدّدة يُرافقه أحد أصحابه. الآن عرفت مَن يكون! أجل! لم أفهم شيئاً على الهاتف أمس. لكنّي الآن عرفتُه! إنّه أحد الثلاثة الذين زاروا ساركوزي، ذاك الذي كان مُقابل الرئيس، على يمين محمود جبريل، وعلى يساري - علي زيدان! يلبس الطقم البنّي نفسه بتفصيلته المُمتازة. نظّاراته الحرشفية السميكة نفسها التي ألاحِظ الآن أنّها تُصحّح عدَم تماثُل خفيف في النظرة. حركته دقيقة. صوتُه صافٍ، أرَنّ. شعره أصهب قصير، ينِمُّ عن أناقة. يعيش في ألمانيا منذ سنوات. يُدير أعمالَه في المواد الطبيّة، وفي الوقت نفسه يترأّسُ الفرع الليبي للاتّحاد الدولي لجمعيّات حقوق الإنسان. وبعبارة أخرى، هو مُعارِض كامل. كذلك، الرجل الذي يُرافقه، مُكتنِز، غير رشيق، يُشبه تشرشِل قدّاً، عملاق يعوم في لباسٍ أوسع من جسده، يعيش في فلوريدا، ويحمل جوازَ سفرٍ أميركيّاً، بالإضافة إلى أنّه يتكلّم فرنسية رائعة. لماذا؟ اسمه منصور سيف النصر. ينحدِر من أب كان آخر شخص من منطقة فزّان، تحالفَ مع الفرنسيين، ورفض الاستقلال، وبالتالي تقسيم ليبيا، الذي كان الفرنسيّون يمنحونه إيّاه. عمُره ثلاثةٌ وستُّون عاماً، قضى منها اثنين وأربعين في المنفى. شرح لي تاريخ بلاده. حكى لي عن جرائم العقيد غير المكشوفة. قال لي أيضاً إنّ له عمّاً كان وصيّ «القائد» العتيد وبالتالي كان من أولئك الذين عرفوا، بعد الانقلاب، أنّ البلد ماضٍ إلى الكارثة. حين جاء صحفيّون من تلفزيونَي **القناة، وقناة فرنسا الأولى** TF1، عرفوا مكانهما، فجاؤوا لمقابلتهما، اكتشفتُ، عند كِلَيهما، مهارة في استخدام وسائل الإعلام راقتني كثيراً. وعلى الفور صارت علاقتي معهما متينة. لا أفهم تماماً دورهما في كوكبةِ **المجلس الوطني الانتقالي**، لكنّي شعرت، تجاه كلٍّ منهما بالتعاطُف المباشر، بردود أفعال مُشتركة، وتفاهُم كامل - فطلبتُ منهما أن يُجمّعا حولَهما، غداً، برعاية جريدة La Règle du Jeu، لقاءً غير رسميّ مع أصدقاء صحفيّين، ومُثقّفين، ورِجال سياسة، لا مؤتمراً صحفياً.

الثلاثاء 22 آذار/مارس (وجه ليبيا الحُرّة)

مؤتمر صحفي في فندق رافاييل. رجُلان، نعم، مجهولان لم تطأ أقدامهما ليبيا منذ عشرات السنين، وليسا، بحصر المعنى، عضوين في المجلس الوطني الانتقالي. حاولتْ ماريا إقناع أحدِهما، هو زيدان، بأن يترك الغموض مُخيِّماً على ظهوره في المجلِس، وثانيهما، هو سيف النصر، بألاَّ يُلِح كثيراً على حقيقة أنّه لم يعُد إلى البلد منذ أربعين عاماً. لا نستطيع أن نفعل شيئاً. فهما، بالإضافة إلى ذلك، نزيهان في كلّ امتحان. وكانا، في الواقع، على حقّ، لأنّهما، خلال ساعتين، سَيُجيبان، أمام بعض الصحفيين الأفضل معرفة بما يجري، والأقلّ مُجاملة في باريس، وأمام كلّ ما يُمكِن أن يوجد في المدينة من شخصيّات بارزة، على الأسئلة، ويتجنّبان الفِخاخ مُجسدين ألوان ليبيا الحُرّة تجسيداً رائعاً. وكانا فصيحَين في جوابهما على سؤال يان مواكس، حيث وصَفا صَلْب بلدهما تحت حُكم القذّافي. يُحرِّكان المشاعر وهما يوجّهان الشكر لفرنسا على تدخُّلها المواتي. وكانا ماهِرَين حين حاول ايمانويل جاري، من وكالة رويترز، مُحاصرتهما بموضوع تقلّب ساركوزي الذي دعا إلى باريس، قبل أربع سنوات، ذاك الذي يُحارِبه اليوم. لم يرتكبا، في الحقيقة، إلا خطأً واحداً، مرَّ من دون أن يلحظه أحد: حين سُئِلا ماذا سيفعل الحكّام الجُدد بعقود النفط الموقّعة حالياً، إذا انتصروا، فأجابا، من دون استعراض، وببساطة، ومرّة أُخرى أقول بنزاهة تصل إلى حدّ السذاجة، بأنّهم سيلتزمون بها، لكن ليس من دون منح مُكافأة للبلدان التي ساعدتهم كثيراً كفرنسا. لو قيلت كلِمة زائدة في هذا الموضوع، وجرعة إضافية من سوء النية بين الحضور، لكتبتْ الصحافة غداً بالعنوان العريض «حرب البترول». لكنْ لِحُسن الحظ، توقّف الأمر هنا. ضغطتُ بحركة خفيّة قدَم زيدان فأنهى كلامه عند هذه النقطة. أشعر أنني سوف أُحِبّ هذين الرجُلَين. شهامة[5] السيّد سيف النصر. ونظرة الطفل التي ينظرُها علي زيدان أحياناً.

الثلاثاء 22 آذار/مارس (الخصومة مع جوبّيه وأسبابها)

وزير الخارجية الآخر.

سبَق أن خدعوني، منذ خمسة عشر عاماً، إبّان حرب البوسنة. هذا يُبرِهن، على الأقلّ، ثبات الصحافة. وكذلك ثبات ردود أفعالي أمام المواقف المُشترَكة أكثر ممّا كان يبدو (عبد الجليل يقوم بِدَوْرِ بيغوفيتش، وساركوزي بدَور ميتران، وليفيت بدَور فيدرين، وجوبّيه بدور

رولان دوما...). المشكلة الوحيدة أنني بقدر ما كنتُ أزدري دوما، في تلك الفترة، كنتُ أكره صلَفه، والجانب الذي يُشبه فيه تاليران، لكن من دون موهبته، وأحتقر أساليبه في إظهار بِلْ - آمي المُسِنّ[6]، يشكّ قرنفلة في عُروة سترته، وأنّ طريقته في التطفُّل ترقى إلى مستوى واحد من الفنون الجميلة، وانحناءات التحية، وبقدر ما تُنفِّرني حياته عديمة الكرامة التي يعرف الناس جميعاً أنّه جدلها، قشّة قشّة، مع رذائل مُعاصِريه، ليس عندي شيء ضدّ جوبّيه. لستُ مُتزمتاً إزاء المسؤولين السياسيّين، بصدق؛ وحين أرى الحمقى مفتونين بوزير الخارجية «العظيم» الذي منحتهم إيّاه العناية الإلهية، وفي واقع الحال، ساركوزي، وحين أسمعهم يتنهّدون بارتياحٍ لفكرة هذا «المُحترِف» الذي جاء بعد ذاك «السطحي» الذي كانه كوشنر، لا أستطيع أن أمتنع عن التفكير بأنّه كان كذلك، وهو وزير، وأنّ هذا الوزير نفسه، الذي شغل المنصِب نفسه، ساعة هذين الموعدَين اللذين مَنحَهُما تاريخ مُنتصَف القرن لِبلَدنا، وأنّه في كِلتا الحالَين، أساء التصرُّف: عدَم التدخُّل في البوسنة، وحماية «الهوتو» مُرتكبي القتل الجماعي في رواندا، ومُساعدتهم على العودة. لكن، بالمُقابل، لم يكن لي مع الرجل مشكلة أبداً. حتى إنّي أحتفظ بذكرى لقاءاتنا في بوردو لطيفة، وديّة تقريباً، تنطوي أحياناً على تواطؤ صامت. كان آخرها بمناسبة مؤتمر نظّمته جريدة ليبيراسيون. وعلى أيّة حال، بدا لي الرجل، على الدوام، مُحترَماً، صلْبَ الرأي، نزيهاً، وهذا ما قلته، قبل خمس أو ستّ سنوات، خلال فترة مُلاحقته القضائية في قضية الوظائف الوهميّة، حيث ادّعت جامعة كندية أنّها استقت حجّة منها لمنعه من التدريس فيها (فدافعتُ عنه، وحدي تقريباً، في واحدة من مقالاتي في مجلة لو بوان Le Point ضدّ المُتكالبين عليه). هذا كلّه لأقول إنّ تفادي جوبّيه، وإزعاجه، وفكرة رؤيته يصدِّق كلّ شيء كان يُحضره له ساركوزي، وأصير أنا مُتعهِّد ذلك مُباشرة أو بشكل غير مُباشر، قد يكون وهماً من أوهام جوبّيه أو حتى من أوهام ساركوزي، لكنّه ليس على الإطلاق وهمي، وهذا لا يروق لي في شيء.

عليّ، كي أكون صادقاً تماماً، أن أقول طبعاً إنّ هناك أسباباً لحذَر جوبّيه. على الأقلّ سبب واحد. حتى لو كان سوء تفاهُم هائل، ويبعث على الضحِك في النهاية. كيف أُعبِّر عن هذا؟ نحن في احتدام الحرب في البوسنة. لم نتوقَّف، منذ سنتين عن تبادُل الشتائم. نتناول الغداء على انفراد في وزارة الخارجية، ونتساءل حول الموضوع: «الوقوف ضد الحرب حقّ، لكن يجب على الأقلّ التصرُّف بشكل مُناسِب، من دون خِسّة، تصرُّف رجال شرف وعقل،

مُحاولين أن نتبادَل المعلومات حين تتوفَّر الإمكانية، حين يجب منح تأشيرة دخول لجريح حالته خطيرة، وتقديم منحة لمُثقّف أو لفنّان من البوسنة». يبدأ الغداء بوقار. ويستمر بلباقة. وينتهي غالباً، حين يُهدّئ كلٌّ منّا الأمور، في اكتشاف الآخر، وفي اللُّطف الذي لا يُقاوَم، جانب «كيف استطعنا أن نُغفل خلال هذه المدّة الطويلة أنّ...الخ». كنا نقول: هذه المرّة سنبقى على اتصال. ونُكمل القول: سيكون هذا كخطٍّ ساخن. وكنّا نختِم بالقول: هل يُمكِن أن توفِّر الظروف، بسرعة فائقة، فُرصة لرئيس الدبلوماسية الفرنسية، ولرئيس الحزب البوسني في فرنسا، ليُظهرا أن خلافهما لا ينفي الاحترام والحوار. بعد الغداء، أحدنا يدفع همّ الاحترام والحوار حتى يُرافق الثاني إلى أسفل السُّلَّم الكبير. وما كدت أركب سيّارتي حتى اتصل بي، بمحض المُصادفة، جيروم كليمان، حيث كان حينئذٍ رئيس آرتيه، ومن جهة أخرى صديق مُقرَّب من صديقي الجديد.

«حادث سيء. مؤتمرنا الكبير المُقرَّر انعقاده يوم السبت... بالادور الذي كان سيفتتحه اعتذر قبل قليل... يجب أن نجِد فكرة خلال فترة بعد الظهر لنرى مَن يحِلّ محلّه...

قلت له: عندي فكرة... خرجتُ توّاً من مكتبه... كان بيننا، حتى اليوم، سوء تفاهُم... لكننا قرّرنا أن نتبادل الثقة في ما بيننا، وأن نختصِم في جوٍّ من الإخلاص، ونحتفظ بخطٍّ ساخنٍ بيننا، ونجد، بسرعة كبيرة، فرصة نُبرهن فيها أننا قد نكون خصمَين من دون أن نتعامل مع ذلك تعامُل الكلاب... إنّه ألان جوبّيه!

أجابني بضيقٍ مخبوء: لا معنى لهذا. إذ لا نستطيع أن نتصل بجوبّيه هكذا، يوم الأربعاء ليأتي يوم السبت... هذا عبَث...

ـ دَعْني أُحاول... لا ندري... وكأنّما انطلق تحدٍّ... إذا كان الرجُل جيّداً بالقدر الذي قُلتَه لي دوماً، وإذا كان وفيّاً، ويمتلك حِسّ الشرف، والالتزام بكلمته، فأنا مُتأكِّد من أنّه سيبذل قُصارى جُهده ليُعطيني العربون... عليَّ أن أتصرَّف...»

الفعل أردَف القول. جوبّيه الذي وصلوني به فوراً مشغول.لكّن جوبّيه تحرَّر من أشغاله كما توقّعت. قال لي: ما تطلبه مني عُربون صداقة. علماً بأنني مشغول جداً، وعندي برنامج عمل هائل في بوردو سيتحتّم عليّ إلغاؤه. لكنْ قيل لي أن آتي، إذاً سأفعل. أنا موافق.

جاء يوم المؤتمر. لم أعُد أعرف موضوعه. لكنْ لمّا كنّا في قلب الحرب في البوسنة، وكنتُ أنا، مع جيروم، رئيسَه، وجبَ أن أجِد وسيلة لإدراج البوسنة في برنامج المؤتمر، وحتى لو لم

أفعل، حتى لو أنّه بالضبط واحد من هذه المؤتمرات السرمدية عن «أوروبا والثقافة»، لَكان الناس فَهِموه هكذا، فالحقيقة أنّني ميّزتّ، منذ دخولي، الوجوه التي صارت، مُجبَرَةً، لتتآلف بلا قَيْدٍ أو شرط مع القضية البوسنيّة. كان مُدرَّج ريشيليو مليئاً إلى حدّ أن كثيرين جلسوا على المقاعد، والدرَج، والقواطع العرضانية، وفي الممرّات، أو استندوا على حوافّ النوافذ، كما جلسوا على الأرض، وعلى المنصّات، مُعيقِين الوصول، من أيّ مكان، إلى الطاولة. القاعة حارّة، لا تعرِف ماذا تنتظِر، لكنّها تنتظر شيئاً.

جاؤوا يوشوشونني في أُذني، بينما كنتُ أُحاوِل إقناع الحُجّاب أن يُدخِلوا حوالى خمسين شخصاً آخرين: «وصل الوزير». «قلتُ: آه! هذا رائع!». نظراً لأنّه ضيفي الشخصي، ونظراً للخطّ الساخن، وعربون الصداقة، والعلاقات الجديدة، الخ. أوقفتُ كلّ شيء لأذهب بنفسي وأستقبله هناك، حيث يختبئ في الكواليس مُنتظِراً دخوله الكبير. شققتُ الجمهور في اتّجاه مُعيَّن. وأعدتُ شقّه من جديد في الاتّجاه الآخر، برفقته. قُلتُ: «عفواً، عفواً» مُنتبِهاً إلى ألاّ أدوس على البنات والصبيان الجالسين على الأرض، المُكوَّمين بين الكواليس، والمنصّة. سمعنا عندما دُسنا على قدَم أحدهم، أو على يدِه إذ لم يعرِف كيف يركن: «إيه هنا، انتبه». لكنّه كان طفلاً لطيفاً مؤدَّباً. وإذا كانت هناك دمدمة ترافقت مع مرورنا، فذلك من وقْع المُفاجأة لا نتيجة عُدوانية أو احتجاج.

باختصار، كلّ شيءٍ على ما يُرام. نجحنا، من كثرة التخطّي، «وطلب العفو، والمعذرة»، في الوصول إلى الطاولة حيث ينتظرنا جيروم. جلسنا، وجلس الوزير في الوسط بيننا، نحن الاثنين. تناولت مُكبِّر الصوت لأشكر مَن جاؤوا بأعدادٍ كبيرة، من رجال ونساء، وخصوصاً يوم السبت! يا لها من بطولة - ولكي أشكر شكراً خاصّاً، الوزير الذي، على الرغم من انشغاله، ومن خلافاتنا التي لا تخفى على أحد، قبِلَ أن يَفتتِح المؤتمر. باستثناء...أجل، هناك شيء واحد...هو أنني تحسّبتُ لكلّ شيء. وخيوط الموقف في يدي. مع بعض التحفُّظ. إنّه جيل. صديقي جيل. رئيس الحزب البوسني الآخر في باريس. الشخص الآخر الذي يثِقُ به الحزب البوسني، كما يثِق بي، ثقةً عمياء. إذ تعلّق في حلْق جيل، كما تعلّق في خلقي، كلّ المظالِم التي استطاع جوبّيه ارتكابها، ليس بحقّنا، بل بحقّ البوسنة. وجيل الذي نسيتُ أن أُنبِّهه إلى التحوُّل التكتيكي البسيط الذي جعلني أتصالح نصف تصالُحٍ مع جوبّيه، وأنّ جوبّيه، قدّم لي، كعلامة على حُسن نيّته، شرف قبول الدعوة التي وجّهتها له حالاً. لمحتُها في عُمق القاعة،

لكن مُتأخِّراً جداً. نظراً لانحسار بصري، لمحتُ في الحقيقة، في ما يُشبه الضباب، شبحاً طويلاً، يُجلبِبُه معطفٌ أبيض غريب. وقبل أنْ أتمكّن من أن أقول أيّ شيء، رأيتُ الشبح ينتصِب، شعرتُ أكثر ممّا رأيتُ ذراعاً مُتّهِماً يشير إلى المنصّة، وسمعتُ صوتاً جهيراً، سمعتُ صوتاً ثأريّاً، صوتاً صارِخاً كان في الواقع يُشبِه صوتي الذي علا قبل ثلاثة أيام: «السيّد وزير الخارجية، السيّد وزير الاستقالة الوطنية، موتى البوسنة يوجّهون لكم أجمل التحيّات».

وحيث اعتقد الجمهور أن هذه إشارة، وأننا توزّعْنا الأدوار، بين خيِّر وشرّير، أنا مع جوبّيه، وجيل ضدّ جوبّيه، انطلقت القاعة في عاصفة من الصياح، والصُّراخ، وضرب الأرض بالأرجل، والضجيج والصفير. أمّا جوبّيه الذي كان يُراجِع خطابه، فنظر إلى جيروم بهيئة من عدم الفهْم المشوب بالذهول، ثُمّ نظر إليَّ كأنّه يُريد أن يقول: «الستُما طبعاً سافِلَين إلى حدّ أن تنصِبا لي هذا الفخّ؟»، واصفرَّ وجهُه، وغمغمَ بعض الكلِمات التي غمرها الصّخَبُ، وقبل أن أتمكّن من الكلام، ومن فِعل أيّ شيء، نهض من مكانه مع جيروم، ومع الناس الذين كانوا جالسين قبل قليل، والذين نهضوا، هذه المرّة ليلتحقوا بالضجيج، وشقَّ له طريقاً، بصعوبة بالغة، حتى وصل إلى المخرَج. وحين صار في سيّارته، سألَ كليمان: «من كان ذاك الأرعن؟» من كان ذاك الرجل ذو المعطف الأبيض الطويل، ومن الذي أعطى إشارة الضجيج؟». فأجابه كليمان الذي لم يعرِف أبداً أن يكذِب، ولن يبدأ الآن بأن يتعلّم الكذِب: إنّه جيل هرتزوق. «هو صديق برنار المُفضَّل، بل هو باختصار قائده».

لم تتوفَّر لنا أيّة فُرصة لنشرح الموقف. ومنذ ذلك اليوم التاريخي، تكوّنت لدى من هو الآن وزير الخارجية الفرنسي القناعة بأنني إن لم أكن الشيطان، فأنا، على الأقلّ، مُغالٍ في السَّفالة.

الخميس 24 آذار/مارس (وزارة الخارجية ...)

«الحرب في ليبيا تتعقّد». أقرأ هذا في كلّ مكان. مع أنّها لم تبدأ إلا منذ عدّة أيّام. لكنّ الناس ملّوا منها. إذ يجدون أنّها طويلة جداً. فالعصر مُتقلِّب، وغير مُجْدٍ إلى حدٍّ أنّ حرباً تدوم أكثر من ثمانية أيام تبدو لهم بلا نهاية. إنّها رتابة تثبيط العزائم. إنّه اعتياد الضعف. هذه القضية الليبية كمُوحٍ ممتاز، في العُمق، بالأفكار الأبدية لأصحاب المُيول التَّركيّة، للبيتانيِّين الفرنسيين. وفي ما يخصّني، بدأت موسيقى خفيفة تتصاعد. ليس تماماً: الوزير مرّة أُخرى، الخ.لكن (مُتغيِّر): لكنّ الرجُل بدبلوماسيّته المُوازية، وبخطّه المباشر مع الرئيس، وتدخُّلاته

البربرية غير المُناسِبة، يلحِق الضرر بمؤسّسة فرنسية كبرى، بفَخرِنا، بدُرّة تاجنا الجمهوريّ، بهذه المُعجزة التي يحسِدنا عليها العالَم، وهو، فوق ذلك، يقوم بها قام به، كما بمحض المُصادفة، أجل! أجل! هذا لا يُصدَّق، ولكنّه صحيح، في الوقت الذي كان يقوم به ليفي.

آهِ، يا لَوزارة الخارجية! يا لَصواعق الحرب! يا لَفرط الخيال والجُرأة! يا لَهؤلاء المُبصّرين الكِبار، الذين لم يتوقّفوا، كما هو معروفٌ جيداً، منذ عُقود، عن أن يروا قدوم الثورات، ويستَبِقوها، ويدعموها! كانوا رائعين في البوسنة. يُثيرون الإعجاب في رواندا. وكانت سياستهم الإفريقية فريدة من نوعها. وهنا، في ليبيا، كانوا يُحضِّرون لنا رائعة فنيّة، رائعتهم الفنيّة، ضربة سياسية موفّقة، سريّة تماماً، كانت ستُذهِل العالَم لو لم أُحبِط عملَهم. إنّه تصريح جوبّيه، من القاهرة، حيث أكّد أنه لن يكون هناك تدخُّل عسكري؟ يا لَلخُدعة! انقلبت سِحنتُه عندما سمع من الصحفيّين، وهو ينزل بالكاد من الطيّارة، أنّ الرئيس ساركوزي اعترف قبل قليل بالمجلس الوطني الانتقالي كممثّل شرعي وحيد للشعب الليبي؟ يا لَلمهزلة! الدوران العكسي للساعات، ثُمّ للأيام التالية؟ أهُوَ سوء تفاهُم! كانت وزارة الخارجية تُخفي لُعبتَها. لَعِبتْها سِرّاً. الوزارة فذّة.

أُحِبُّ كثيراً هذه الطريقة في كتابة التاريخ. هذا المجلِس الحربي الذي عُقِد أمس، على ما يبدو، في مكتب مدير في الوزارة حول موضوع: «الوضع الحالي ومهمّاتنا، البديهيات التي من أجلها لا نستطيع المُضيَّ إلى الحرب، والفجوات الدقيقة التي ستمكّن من أن نضع فيها عناصِر لُغتنا». وهذه الاتصالات الهاتفية مع المُراسِل الدبلوماسي لمحاولة بيعهم، بصعوبة ومشقّة، سيناريو بسيط دبَّرته، منذ زمن طويل، وزارة الخارجية المتيقّظة، الواعية التي رأت كلّ شيء منذ البداية، وفهِمت دوماً كلّ شيء، وكان لديها خطة ساخنة لقلب نظام القذّافي! قال لي جان - بول انتوفن الذي يرقُب كلّ شيء ليس بعين سيريوس، بل بعين الأدب الخالِد: هذا في حدِّ ذاته ليس خطيراً. أو بالأحرى، من حُسن الحظّ أن ترى هؤلاء الخبراء الكبار الجامدين، المُعارضين وجودياً لأيِّ تدخُّل، يشعرون بالحاجة إلى القطار المُنطلِق. هذا صحيح. مادام القطار لم يصل بعد، وأنا، الآن، مَن يخاف أن أراهم يُعيقون هذه الالتفاتة الفرنسية الرائعة، ويُدمّرونا، ويمنعون وصولها إلى غايتها. يُضاف إلى هذا، من جهةٍ أخرى، أننا لا نرى كلّ يوم كيف تعمل، في المخبر، حول حالةٍ هي من الوضوح بحيث تبدو صغيرة، ونادراً ما نحتاط في أمرها، أقدم آليّة لإعادةَ كتابة التاريخ؛ ومشهد هذه المناورة، هذا الفجور الأخرق

في الطاقة، المُوجَّه لتوضيح ما لا يُوضَّح، هذا الاهتياج في كلّ الاتّجاهات، وعلى الجملة، الاهتياج الصبيانيّ للناس الذين لا يتراجعون أمام أيِّ شيء كي يُعيدوا كتابة التاريخ، أقول بصريح العبارة إنّ إعادة كتابة التاريخ، ومشهد هذه المناورة نموذجيّان.

جوهرتانِ في الحرب ـ جوهرتان صغيرتان إلى حدّ أنني لا أستطيع مقاومة لذة حجزِهما.

أولاً، قافلة المُساعدات الطبيّة المُتكوِّنة من أطبّاء، ومُسانِدين، وأدوات استشفاء، القافلة التي وصلت إلى بنغازي مساء الثالث من آذار/ مارس، وذهب كلّ الصحفيّين في المدينة لاستقبالها. فاستخدموا كلّ الوسائل، وقالوا لأنفسهم، كلّما مرّ الزمن أكثر، ضاعت مصداقية قصّتهم في ضباب أرشيف غير أكيد، وبدأت حناجِرُ وزارة الخارجية تحكي أنّ رجال الدرك الفرنسيين كانوا يُرافقون القافلة (وهذا صحيح) وأن رجال الدرك، وعناصر القيادة العامة للأمن الخارجي الذين كانوا يُرافقونهم، كلِّفوا بمهمّة أن يتّصِلوا «بحسب الأصول» ـ وأن يتابعوا بنظرهم ... ـ مع المجلس الوطني الانتقالي (وفي هذا بعض التهريج نظراً لأنّ المجلس الوطني الانتقالي لم يتشكّل إلاّ في الخامس من الشهر، أي أنّه لم يكن موجوداً في اللحظة المذكورة!).

وهناك، على الأخص، الخبر الغريب الذي ظهر في رسالة سريّة تسمّى بـ «الرسالة آ» بعنوان من نوع «كاد برنار ـ هنري ليفي يموت في بنغازي. كان من المُمكِن توقيفي على الكورنيش على أنني «عميل إسرائيلي». وحين كان الثوّار الشباب على وشك «ضَرْبي»، ما كنتُ نجوتُ لولا التدخُّل اليقِظ لعناصر القيادة العامة للأمن الخارجي، الذين لاشكّ في أنهم هم أنفسهم الذين رافقوا قافلة المساعدات الإنسانية، وتواجدوا هناك بمُعجزة، وجعلوا من أجسادهم سوراً يحميني. لا جدوى من توضيح أنّ هذا الخبر لا أساس له من الصحّة. فأنا هنا، في الصفوف الأولى من مسرح (اختراع يستخدِم كل أنواع القِطَع، من دون أيّ أساس، ويثير الدخان من دون نار، وذلك لتضليلِ أُعِدّ بحسب الأصول هذه المرّة) كنت أعتقد أنه لا يوجد إلا في الروايات البوليسية الرديئة. لكنّ المُهِمّ أنّني، عندما طلبتُ من باتريك كلوغمان أن يذهب ليرى مدير هذه «الرسالة آ» كي يرجوه لسحب هذا الخبر الذي أُكذِّبه جُملةً وتفصيلاً، والذي سيكون أثره الوحيد إعطاء فكرة سيئة عني، ممّا يضعني في خطر إذا عُدتُ يوماً إلى ليبيا، المُهِمّ أنني اكتشفتُ أن مصدر هذا المونتاج اللامع هو طبعاً نفس المصدر الذي أشاع أنني هربتُ مع موكب قافلة المُساعدات الطبيّة. علاوةً على قطرة السُّمّ ـ «عميل إسرائيلي» ـ في نهاية المقالة. لكنْ أليس للمؤسَّسات لا وعي؟ ولماذا يُمكِن أن تُستثنى وزارة الخارجية من هذه القاعدة؟

الجمعة 25 آذار/مارس (الكاتب الشبح، ترجمة محمود جبريل)

في بداية فترة بعد الظهر، تلقيتُ مكالمة هاتفية من الرئيس. دائماً أخاف حين أسمع على الطرف الآخر من الخطّ الهاتفي، «هنا أمانة سرّ رئيس الجمهورية، الرئيس يُريد أن يُكلِّمك». في الواقع، أخاف دوماً من احتمال أن ساركوزي قرأ كثيراً من الصُّحف، واستمع كثيراً إلى وزرائه، أو إلى الأسياد في وزارة الخارجية، فبدأ يجِد أنّه خاض مُغامرةً أعقد ممّا تبدو. لكنْ لا. هذه المكالمة مجرّد حديث اعتيادي لأكون، كما قال، «على عِلم» بالمُستجدّات، ثمّ ليطلب مني شيئاً.

«بدأ بالقول: أنا مُسافر إلى بروكسل. أشعر أنني مثل فيل في مخزن بورسلان... هؤلاء الأوروبيّون لا ينتظروني إلا ليسلخوا جِلدي...»

ثمّ: «وصلتْ أوّل الطيّارات القطرية». سألته: في الجوّ؟ «ليس في الجوّ، لكنّها، أخيراً، هنا، ومعها الرمز».

ثُمّ: «وفي النهاية أعطوا ضمانَهم لإمكانية أن نقصِف ليس فقط طيّارات القذّافي، بل دبّاباته أيضاً (هل عنى أنّهم ضمنوا أن تقصِف الطيّارات الأميركية دبّابات القذّافي؟). لم أفهم تماماً، لكنّي لم أجرؤ على أن أطلب منه إعادة ما قاله).

وأعلن لي أيضاً أنّه وكاميرون (الذي تحفَّظ في البداية على الفكرة، ثُم وافق عليها في النهاية) بصدد تركيب «مصنع غاز» يسمح للتحالُف بأن تقوده مجموعة مُتراصّة - يسمّيها «مجموعة طيّارين» - بينما يضمن حلف الناتو، الذي يخشى من ثِقْل المصنع، إسنادَ العمليّات.

ثُمّ وصل في النهاية إلى السبب الحقيقي للاتصال: «أصدقاؤنا في بنغازي... ألا يستطيعون أن يظهروا أكثر قليلاً؟ وحين سألته عمّا يعني بذلك، وعمّا إذا كان ينتظر منهم حركةً عسكرية، وأيّة حركة يُريد: «لا، لا، من الناحية العسكرية، كلّ شيء على ما يُرام، لكنْ عليهم أن يظهروا سياسياً». ممّا يعني، حتى لو لم يقُله، أنّه يودُّ، من أجل طمأنة الرأي العام، تصريحاً استعراضياً من المجلس الوطني الانتقالي يُحيِّي فيه الجهد العسكري لقوى التحالُف، وخصوصاً فرنسا.

اتصلتُ فوراً بمنصور. ثمّ اتصلت بجيل الذي كتبنا معه، كما في الفترة البوسنية العظيمة، مشروع «رسالة شُكر للشعب الفرنسي» ترجمَها منصور إلى اللغة العربية، وأرسلها في الحال إلى محمود جبريل الذي صار، منذ ذلك الصباح، رئيس وزراء المجلس الوطني الانتقالي. وجدت أنّ الرسالة، وأنا أقرأها، مثيرة للأشجان. لكنّها لا تخرج عن نغمة الرسائل التي من هذا النوع التي كنّا نكتبها لبيغوفيتش منذ خمسة عشر عاماً. وخاصّة أنّ جبريل أجازها،

وأضاف عليها جُملة واحدة، في بدايتها، هي تلك التي تذكر اسمي. لكنّه يعتمِد باقي الرسالة ويُرسلها لي مُوقَّعَة، في ورقة بترويسة عليها ختم المجلِس.

وضعنا للرسالة هذا العنوان: «ليبيا الحرّة تُشيد بموقف فرنسا السامي».

إنّه العنوان الثاني الذي كتبتُه من أجل هذا الرجل ليلة تلاحُق المواعيد مع هيلاري.

وها هو النصّ كما أوجّهه إلى ايتيين موجوت الذي وعدني بنشره، غداً السبت، في زاوية بارزة من **الفيغارو**.

«العزيز برنار ـ هنري ليفي. اسمح لي أن أطلب مرّة أُخرى وساطتك ـ أنت الذي أوّل مَن قرّبنا من الرئيس ساركوزي ـ لتوصِل إلى الرئيس الرسالة الآتية.

«السيّد الرئيس. دمّرت طيّاراتُكم في الليل الدبّابات التي كانت تستعِدّ لِتدك بنغازي وتدخلها من دون مقاومة. شُكراً لطيّاريكم الذين ينطبِق عليهم قَول ونستون تشرشل في الطيّارين الإنكليز سنة 1940: «هذا العدد الكبير من الناس مَدينٌ لقليل من الرجال». ومنذئذٍ، شلّت ضربات التحالُف تشكيلات الطاغية، حتى لو احتلّ المدُن الساحلية حيث يتحصَّن، وحيث لا نزال غير قادرين على طرده منها نتيجة نقص المعدّات.فشكراً للقوّات البريطانية، والأميركية، والأوروبية، والفرنسية، والقطرية، والكويتيّة على مشاركتها. فالشعب الليبي يرى فيكم المُحرِّرين. وسيكون إلى الأبد مُعترِفاً بجميلكم. وأريد، يا سيادة الرئيس العزيز ساركوزي، أن أوجّه إليكم وإلى الشعب الفرنسي هذه الكلِمات.الشعب الليبي، وكذلك الشعوب الصديقة والجارة، بدءاً بإخوتنا التونسيين والمصريين، ترى في النجدة التي قدّمتموها لنا التفاتة عظيمة إزاء العالَم العربي.نجدة الربيع العربي، وهذا الدعم الحاسِم لتطلُّعات شعوب منطقتنا إلى الحريّة وحقوق الإنسان، إنّما يتجلّى اليوم في ليبيا: لكننا نعرف أنّ هذا يتخطّى حدودَنا ويتوجّه، في ما وراء كفاحِنا، إلى إخوتنا جميعاً. أما الآن فسوف يستمرُّ كفاحنا من أجل التحرير. لا شكّ أنّ على قوّاتنا أن تُنظَّم. لكنْ لا تنسوا، يا سيادة الرئيس، أنّ عمُر جيشنا لا يتعدّى ثلاثة أسابيع. ورجالنا جميعهم جاهزون للمعركة. ولا نشك بشجاعتهم. نحن لا نُريد قوّات خارجية. ولن نحتاج إليها. وبفضلكم سوف ننتصر في المعركة الأولى. سوف ننتصر بوسائلنا الخاصّة في المعركة الثانية. وتحرير بلادنا قادم. يلزمنا فقط بعض الوقت. ونحن نعلم أنّ بإمكاننا الاعتماد عليكم حتى التحرير النهائي لبلَدنا وسقوط الطاغية القذّافي. شكراً لفرنسا. وعاشت ليبيا الحُرّة».

في المساء، اتصل بي الرئيس الذي وجّهتُ له الرسالة بطبيعة الحال. كان يبدو راضياً. وقد تأثّر بصدق حين لفتُّ نظره إلى أنّ هذه الرسالة ستكون أوّل فعل رسمي لحكومة ليبيا الحُرّة، الوليدة. وقال لي على عجَل إنّ الأشياء تطوّرت في الساعات الأخيرة، وأنّ الاثنتي عشرة طيّارة إماراتية، والطيّارات القطريّة السِتّ دخلت المعركة فعلاً، كما أخبرني أنّ القمة الأوروبية التي كان يخشى عواقبها لم تكن بهذا السوء، وأنّ مجموع الشركاء انتهى، طوعاً أو كرهاً، بالاصطفاف وراء فرنسا، وأن قمّةً في لندن ستُنجِز، الأسبوع القادم، تقويم العلاقات. وستسمح في الوقت نفسه بالتفكير في وسائل تشجيع الانشقاقات في معسكر القذّافي، وتيسيرها، بل وتنظيمها.

السبت 26 آذار/مارس (بسرعة، لفتة من إسرائيل)

أمس مساءً.

في بهو فندق رافاييل.

حديث مع أفيغدور ليبرمان، وزير خارجية إسرائيل الذي لم أكن أعرف أنّه نزيل هذا الفندق.

كنتُ عائداً من قناة فرنسا الثانية، بعد أن شاركت، في النهاية، في نشرة الثامنة مساءً بعد أن ألغيتها بسبب مُقابلة على BBC.

الوزير هنا في البهو، يُرافقه صديق بلجيكي دنا مني وقال: «رآك الوزير توّاً على التلفزيون، في غرفته. هو الآن خارج ليتعشّى بسرعة، لكنّه يودُّ أن يراك بعد العشاء مباشرةً ليتحدّث معك عن القضيّة الليبيّة».

عاد بعد ساعة.

شكلُه مُطابق لما كنتُ أتخيَّله.

بنية جسدية لحارس ملهىً ليليّ.

هذه الطريقة في أخْذِ راحتِه وهو ينزع سترتَه، وربطة عُنُقه.

شخيره الرنّان، الهادِر. تَخالُه شخيراً؛ إذ لا أستطيع، من جهةٍ أُخرى، أن أمتنع عن تخيُّله، وهو يتكلّم، نائماً، يعلو شخيرُه بمثل هذا الضجيج.

فيما عدا هذا، هو ذكيّ.

إنّها المُفاجأة: وجدتُه أذكى وأكثر تماسُكاً ممّا كنتُ أظنّ.

قلتُ له كم أجِد فزَع إسرائيل من الربيع العربي مؤسِفاً.

ألححتُ على حقيقة أنّ هذه الثورات واقع، وأنّها، سواءٌ أراقَتْ لنا أم لا، لم تطلب من أحد السماح لها بأن توجد، وتسلك المجرى الذي حدّده لها التاريخ. لكنّ الخيار بالمقابل هو خيار باقي العالَم، وخصوصاً إسرائيل - فهل سنتمسّك بالعالَم القديم؟ وهل نُريد أن نكون آخِر من يخوض معركة خلفية، خاسرة سلفاً، ومُخجِلة؟ ومن وجهة نظر أخلاقية وإستراتيجية، أليس الاقتران بحدث لا يعتمد، في أية حال من الأحوال، إلا على نفسه، باهِظَ الكلفة؟

كنتُ أشجِّعه، في النهاية، على تبديد الإشاعة المتواطئة التي تقول إنّه على علاقة شخصية مع رجُل أعمال نمساوي غامض، هو نفسه صديق سيف الإسلام، الابن المُفضّل عند القذّافي: «قلت له: ليس هذا موقف شمعون بيريز، ولا يهود باراك؛ وأيّ شخص في ليبيا يعرف أنّ القذّافي هو العدوّ الأكثر بُغضاً لإسرائيل؛ فلماذا يبقى الشخص المُكلَّف بحقيبة وزارة الخارجية في إسرائيل، الذي هو أنت، مُنسحِباً بهذه الطريقة الغريبة؟»

وعلى غير المتوقَّع، أجابني بحُزمةٍ من الحُجج التي رأيت أنها رديئة، وغير مقبولة - لكنّ لها منطقها.

1. وجوب عدَم تخلّي إسرائيل عن حُلفائها على قلّتِهم. فإسرائيل معزولة كما هي حال بعض دوَل العالَم. وكلّ حليف من حلفائها سماوي، نعمة من الله. فلماذا تخون بن علي الذي عمِل كلّ ما يستطيع، منذ عدّة سنوات، ليحتوي مُعاداة الساميّة في الشارع التونسي؟ ولماذا كان يجب التخلّي عن مُبارك الذي كان الحارِس الوفيّ لمعاهدة السلام التاريخية، الفريدة من نوعها، التي وقّعها السادات وبيغن؟ ولماذا سنُقلِق ملِك الأردن الشاب، فضلاً عن الملك السعودي العجوز الذي تُقيم إسرائيل معه علاقات سريّة، والذي يعيش الرُّعب من رؤية الربيع العربي يجرِف عرشَه؟

2. تجنُّب إظهار أية علامة على الضعف. قال: منطقتنا صعبة. بل متوحّشة. لا تحترم إلا القوّة. والحال أنّ قوّة إسرائيل ما تزال مُتماسكة، من خلال نوع من النبوءة ذاتية التحقُّق، في هذه القوّة ذاتها التي تُقدِّم المشهد. تأمّل الذي جرى بعد أن تركنا لبنان. انظر كيف فهِمت المنطقة انسحاب جيش الدفاع الإسرائيلي من غزّة. وجّهنا رسائل سلام، ففُهِمت أنها دليل الضعف. قدّمنا تعهُّدات بحسن نيّة: فاعتقد الشارع العربي أنّه يستطيع أن يُركِّعنا. أُريد فعلاً أن أتعاون مع السلطات الجديدة في مصر. أُريد فعلاً لأنّها طلبت مني هذا، مُخالِفةً مع ذلك،

اتفاقيات كامب ديفيد التي تحظر نشر قوّات إضافية في سيناء، وقد وافقنا على هذا، خاصة، للمساعدة على حماية منزل مُبارك، وحراسة عائلته في ذهابها وإيابها، والسهر على أمن السُيّاح. غير أني لا أُريد، بأيّ ثمن، إعطاء صورة بلَد خائف. لا أُريد، وأنا أمُدّ يدي إلى ثوّار لا أعرف عنهم شيئاً، أن أُشعِرهم أننا نتملّقهم، وأننا نمضي في مهبِّ الرِّيح.

3. وأخيراً، وعرَضياً، يُريد تجنُّب أن يبدو مُثيراً للسخرية. ألا يبدو بهيئة الساذج الضخم الذي لا يرى كامل رُقعة الشطرنج، بل قطعة واحدة مُفرَدة ـ أو يبدو بهيئة أسوأ، هيئة السياسي الذي يحسِب، ويؤيّد هذه الثورات بدافع المصلحة، لكي يجني أموالاً، ويدَّخر أرباحاً. قال: عيوبي كثيرة. لكنّي لستُ انتهازيّاً. أمّا لعِب دور مُحرِّري ليبيا، الرومانسيّين (على طريقة بايرون)، فبصراحة تجاوزتُ هذا العمُر... هل كان يسخر منّي، وكأنّ شيئاً لم يكن؟

امتّد الحديث إلى ساعة مُتأخّرة من الليل، وهو يطلب الوسكي كأساً إثر كأس. ولم يكن يبدو، مع مُضيّ الساعات بالوعة خمر، بل أليف حانات لا يُريد الذهاب إلى النوم. لكنْ كلّما كان يشرب أكثر، يندلِق لسانُه، وتتلاشى حُججه، وتُشحَذ أفكاره حتى بدت لي رهيبة الوضوح. الحقيقة أنّ هذا الرجل خائف. نعم، هذا الرجل الذي قال لي إنّه خائف من أن يبدو بمظهر الخائف إنّما هو رجلٌ مرعوب بغباوة لا توصَف. فعلى وجهه الضخم بملامحه البسيطة ونظرة المُدمِن على الخمر، وفي جسمه الهائل، لكنْ المُنهَك الذي يهزّه الشخير الذي تعاظَم ضجيجُه، وكأنه نداءات استغاثة، وفي صوته الذي كان، في البداية، يُلبِسه نغمة صوت الوزير، ولكن مع مرور الساعات، وبعد أن خلا البار من كلّ أُذنٍ فضولية، لم يعُد يستطيع التمثيل، فاهتزّ الصوت قليلاً، ورأيتُ شيئاً أعرفه جيداً، ألا وهو خَوف إسرائيل المَرضي، الدراماتيكي العائد إلى آلاف السنين. وإزاء هذا الخوف، أنا خائف من الخوف، ولا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً.

الأحد 27 آذار/مارس (مُكالمة هاتفية جديدة من الرئيس)

لا شيء خاصّاً. أعلمني تحديداً بآخر التطوُّرات. قال لي إنّ الطيران الفرنسي يقوم بقصف سِرت. «أخيراً جاء قصفُ سِرت، أفهم نفسي، يُجدِّد نيكولا ساركوزي... قصف منصّات الدفاع الجوّي حول سِرت... تحييدها الواحدة بعد الأخرى... مع الحرص طبعاً على ألا تنتج عن القصف أضرار جانبيّة...»

سألتُه عما ستكونه «المبادرة الدبلوماسية الكبيرة» التي أعلنت عنها الإذاعات، منذ هذا الصباح، وتُعيد بثّها دائماً، والتي ينبغي أن تتمخّض عن قمّة لندن يوم الثلاثاء. «قال لي: لاشيء، صنعتْ منها الصحافة جبَلاً. لكنّ هناك سوء تفاهُم. وهذا ما تحدّثنا عنه يوم الجمعة: باب الخروج، المنخل الذي يجب فتحه من أجل ضبّاط النظام وكوادره ممّن يُريدون الانشقاق. أمّا القذّافي فلا شيء في شأنه، ومن المستحيل أن نتّفق معه، وبالتالي عليه أن يرحل».

فهِمتُ، من دون أن يُوضِّح لي، أنّه هو وكاميرون ترَكا برلسكوني يقترح برنامج تهريب القائد المخلوع. ترَكاه يفعل ذلك لأنّه كان يبدو راغباً في أن يتوسَّط، ويلعب دور الراعي الصالح الساعي إلى إنقاذ وضع شريك طرابلس. إذا تمَّ هذا بمُعجزة، فسوف نرضخ له، ونُتيح تنظيم انسحاب ذهبي إلى زمبابوي. لكنّ ساركوزي لا يعتقد ذلك. ولا يتمنّاه. إنّه لَشعور غريب أن يصير الأمر بينه وبين القذّافي، على نحوٍ مُفاجئ، «شخصيّاً» كما يُقال في الروايات البوليسية.

قلت له هذا، فضحِك.

سألتُه لماذا، فلم يُجِب.

هل يكون السبب معلومة لا أحد يعرفها غيره؟ أم ملمحَ شخصية اكتشفَه، منذ أربع سنوات، خلال الزيارة المشهورة إلى باريس؟ أم أنّه حدَث، عندما أرسل السكرتير العام للإليزيه، وكذلك زوجتَه بريسليا للتفاوض في قضية المُمرِّضات البلغاريات؟ اختزلتُ الأمر في افتراضات.

الاثنين 28 آذار/مارس (ما معنى الديبارديودونيه؟)[7]

هذا الصباح، حدثت مُصادفة غريبة وحزينة. ديودونيه في طرابلس التي يُمطرني منها بوابلٍ من الشتائم ـ وهذا ليس جديداً. حتى جيرار دوبارديو في **الفيغارو** هاجمني أيضاً ـ بلهجة عنيفة فاجأتني. طبعاً لم يستخدِم الألفاظ نفسها. لكنّ ثمّة في مُوحِيات نقدهما اللاذع، في رحيق التوتستيرون، والخمر، في جانبه الصَّعب، الوعِر، التحليلي الخِرائي الغامض من النقاط المشتركة ما يكفي لِيوحي لجان بول بأن ينحتَ كلِمة جميلة هي «الديبارديودونيه»، ولمجلّة La Règle du Jeu، بمقالة ظريفة جداً كتبها جان بول نفسُه تبدأ بهذه الكلِمات: «الديبارديودونيه حيوانٌ فرنسي، بَدين، سكران، فظّ، وأحياناً جاهل» وتنتهي بهذه الكلمات:

«لماذا الهدف ذاتُه، وفي اليوم نفسه، والمفردات المُتقاربة - بينما كان الديبارديونيه قد عوّدنا على فنِّ ازدواجِ الشخصيّة (التمثيل) الأكثر حذقاً؟ حقّاً إنّ دراسة الممسوخات علمٌ متلعثِم يُرثى له». ومرّة أخرى، وكما في البوسنة، تتأكّد الطريقة التي تجري فيها الأحداث الحقيقية، ليست الأحداث الأفلاطونية الضئيلة التي يتلمّظ بها «ثورجيّة» الصالونات أو المخابِر، ولا الأحداث الواقعية، الأحداث المحسوسة، حيث تتقرّر مصائر الشعوب أو رغباتها في الحريّة، أو العمَل كمُساعد على إحلال الحقيقة، واستلهام اللاوعي السياسي، وعوامل التقسيم أو التقريب غير المُتوقَّعة، وعلوم الخرائط المُلهَمة.

في البوسنة، تقاربتُ مع جوليار أو مونجان، والتقيتُ هيتشنز، وتخاصمتُ مع ماريك هاتير، وتصالحتُ مع فيكييلكروت. وفي ليبيا الشكوك المُعتادة نفسها، يُضاف إليها مُجدّداً آخرون غير مُنتظَرين - مارتين أوبري التي تَمّ اللقاء معها، وجوفران أو ديموران الكاملان، وتقارير ريمي أوردان في اللوموند، وتقارير جان - بيير بيران في ليبيراسيون أو تقارير موريس أوليفاري على القناة الفرنسية الثانية، المُمتازة، ومهدي بلحاج قاسم الذي أوّل من حذّرني من هَول الحدَث التونسي، ثُمّ، على العكس، هذا الحيوان الذي لا جنس له، لكنّه ليس من دون مستقبل، الحيوان الذي ظهر على قرون استشعاري الخاصّة - ديبارديودونيه الحزين...

الخميس 29 آذار/مارس (ظِلُ كوشنر)

الساعة العاشرة.

حديث مع الرئيس.

الرئيس غاضِبٌ من باراك أُوباما الذي هو الآن «على وشك إعلان إرادته في الانسحاب». تحدث معه أمس مساء. كان مُتصلّباً جدّاً. حازِماً، بالِغ القسوة. فتكوّنت لديه القناعة بأنّ الولايات المُتحدة ستسعى إلى الانسحاب. ألّح بالقَول: «هذا غريب. كانوا مُمتازين في البداية. ممتازين جدّاً. أوباما هو الذي كان الحكم النهائي، بين غيتس وكلينتون، حين اتُّخِذ قرار التدخُّل. لكنْ هنا، فجأةً... لم أعُد أفهم ما يحصل... أنا مُتأكِّد أنَّه انسحب...»

لفتُّ نظرَه إلى أنّ هذا الانسحاب الذي لن يكون نهائياً على كلّ حال، والذي سوف يُبقي بالتأكيد إسناد البنتاغون على الأرض، ليس بالضرورة سيّئاً من وجهة النظَر الأوروبية: ألا يجعل الأوروبيّين أكثر حريّة في التصرُّف؟ وبالتالي، أليست هذه فرصة غير مُنتظَرة لأوروبا

التي تجد صعوبةً في التكوُّن، كي تُبرهن على وحدتها بخطىً حثيثة؟ ألَنْ يُعطي الانسحاب الأميركي فرنسا، كي لا نتحدّث إلا عن فرنسا التي هي في المُقدِّمة، حين يحلّ اليوم المناسِب، أعني يوم النصر الذي لا ريب فيه، ألَن يُعطيها الاستحقاق الجوهري، وأكاليلَ الغار؟

قال بصوتٍ يشوبه قليل من التفهُّم لم أسمعه في مُكالماتنا منذ شهر: «نعم، رُبّما... لا أدري... ينبغي أن ينجح هذا... نعم، يجب أن ننجح في المضيّ إلى نهاية هذا كلّه، وأن يكون هذا فعّالاً...»

ثُمّ قال معبّراً عن قلقه:

- هل هناك أخبار من أرض المعارك؟

- اتصلت أمس بجبريل. وصلت الأسلحة الفرنسية. وكذلك المُدرِّبون العسكريّون. أشعر أنّ الأشياء تسير في الاتّجاه الصحيح ...

قال وهو ما يزال شاكّاً وقلِقاً بغرابة: هذا صحيح. لكنْ كان علينا، ونحن ننتظر، أن نكبح جموحهم قليلاً. لم نكن مُتأكّدين أنهم سيملكون وسائل هِياجهم، وبالتالي وجبَ أن نوقِفَهم. فليس لديهم ما يكفي من السلاح، ولا من التدريب، ولا من المُدرِّبين. ينبغي أيضاً الاهتمام بهذا كلِّه، كما ينبغي أن نكون صَبورين.

ثُمّ استدرك فجأةً. شعرتُ أنّه خائر العزيمة، مُنهَك، ومُحبَط تقريباً. إذ غيّر نبرتَه كليّاً. وانتقل بلا تحذير، وبشكل مرِح - بنبرة فجأةً لم تعُد تُشبِهه على الإطلاق.

- ما علينا! إنّهم رائعون! أصدقاؤنا رائعون دعوناهم إلى لندن. سوف تُفتَتح القمّة خلال بضع ساعات، وسيكونون هناك. سَوف يُلاقون الحفاوة الرسمية. وسيكونون محطّ كلِّ الأنظار. وهم يستحقّون هذا. فهم أناس طيِّبون. ليس هناك مُشكلة. ليس هناك مُشكلة على الإطلاق. سوف ننتصر في هـذه الحرب!.

وأغلق الخطّ.

نبرتُه تقول لي شيئاً. لديّ انطباعٌ بأنني سبَق أن رأيتُها، سبَق أن سمِعتُها. أنا مُتأكّد أنه ليس صوته. لكنّه صوتُ مَنْ؟ ومن أين أتاه؟ ومن أين حصل على هذا المرح المُباغِت، المبالَغ فيه قليلاً، وأخال أنّه لم يمتلك الوقت لصهره في لُغته وفي صوتِه الخاصّ؟ أين راح يبحث عن هذه الطريقة، الجانبية تماماً، في التصرُّف كما لو أن كلّ شيء يسير على ما يُرام، وأنّه يُسيطر على الموقف سيطرة تامّة؟ طبعاً... هذا بديهي... فلِكي يُقاوم لحظة انهيار العزيمة التي ليست من

طبيعته، استعار، من دون أن يدري، صوتاً لا يُشبه صوتَه، لكنّه لا بُدّ أن يكون قد سمِعه، في ظروفٍ مُشابهة لهذه الظروف، هو صوتُ مَنْ... صوتُ... أستطيع أن أتعرّفه من بين ألف صوت... إنّه صوتُ برنار كوشنر! يعثُر إذاً على صوتِ وزيره السابق، كأثرِ شبَحٍ، هذا المزاج التواصُلي الرائق، ونوبات فوَرانه الحماسية الصبيانيّة، وهذا الميل إلى طريقة كويه التي طالما اعتمدها المُكافِح الذي لا يعرِف الكلل من أجل حقوق الإنسان في اللحظات الحرِجة، وأنا واثق من أنّه كان يُورِّطه!

ولا بُدّ أنّه أزعجه طبعاً. وأفرغَ صبْرَه. الدليل على ذلك أنّه صرَفه واستبدله، قبل هذا، بليفيت المعروف بدبلوماسيّته، والذي صار وزير خارجيّته الحقيقي. غير أنّ كوشنر كان يُطمئنه بتفاؤله الذي لا يتزحزح، وحميّته، وجانبِ المرِح إذ يقول «هيّا بنا أيُّها الصبيان»، وطبعُ الطبيب الناجح الذي يجِد الحلّ دائماً. وقد وجد الدكتور الوسيلة، عن بُعد، من دون أن يعلم هو الآخر، في أن يصِف له دواءه السحري، ويحقنه به.فما الذي يبقى من صديق؟ رُبّما يبقى هذا...صوت...بضعةٌ من صَوت...طريقة في وشوشةٍ تُشبه الكلام الذي نقوله في الليل لأنفسنا كيف نستمِد منه الشجاعة والحيوية...وأحياناً يبقى منه حركة...أو إيماءة... والباقي... أوه الباقي! سُعداء أولئك الذين نحتفِظ لهم في داخِلنا بهذا الوجود من الظلال.

الأربعاء 30 آذار/مارس (لو أنّ كوشنر ما يزال وزير خارجية...)

كوشنر، من جهة أُخرى، قضية جادّة.

غالباً ما أُفكر فيه. أُفكر بأنه كان، بالإضافة إلى غلوكسمان، وإليّ، لكنْ أكثر منّا، مُبتدِع وجوب التدخُّل الذي يشهد من دونه أوّل تَحقُّقه.

أظنُّ أنّ خياره في أن يكون وزيراً هنا، الآن، مع هذا التدخُّل في ليبيا، الذي كان لابُدّ من أن يجِد مُبرِّره ومنطقه. قلتُ دائماً، في تلك الفترة، أنّه أخطأ حين قبِلَ المنصِب. وطالما قُلتُ له، عندما طلب رأيي، أنّه بقبوله، وببخس قيمة أسطورته، خان سيرته الذاتية. لكن على الأقلّ، القضية الليبية التي ستُثار في النهاية، والتي خُلِقت من أجله، وفُصِّلت على قدِّه، على قدِّه وحدَه، سوّغتْ كلّ شيء. والحال أن ليبيا لم تُسوِّغ شيئاً. لأنّه بعد عدّة أسابيع تقريباً، فوّتها. فتجرّع الإهانات، ومسح كلّ الإزعاجات، وصمت عن الصّين، والدالاي لاما، ونسِيَ دارفور، وقال أمام بوتين عكس ما كان يعتقِد ـ ولحظة شروعه في إثبات أنّه كان على حقّ،

لحظة كان مَلاك التاريخ على وشَكِ التجلّي، والتوبة عنا، عَبْر ليبيا، كان مُجبَراً على الرحيل وترْكِ مكانه لجوبّيه. يا للسُخرية. يا للحُزن.

ثُمّ إنّ هناك، في الوقت نفسه، سخرية السخرية، سُخرية مُضاعَفة، أتساءل: لو كان ما يزال وزيراً، هل كانت ليبيا هي ليبيا. بالتأكيد، ما كنتُ صِرتُ ضمن اللوحة. لأنّه، بأقلّ من جوبّيه، ما كان سيقبل تدخُّلي في مجال سُلطته. لكنْ رُبّما هو أيضاً سيكون خارج اللوحة. ورُبّما ما كانت حرب ليبيا قامت أبداً. ورُبّما ما كان كوشنر، الوزير،سيتمكّن من إقناع ساركوزي. ورُبّما ساركوزي، في آلية عملِه الغريبة الخاصّة به، لم يكن لِيفعل مع كوشنر ما فعلَه ضدّ جوبّيه. مَن يدري؟

الخميس 31 آذار/مارس (نيوزويك وفرنسا)

وصلتُ إلى نيويورك أمس مساء. فذهبت على الفور إلى تينا براون التي كان يُحيط بها فريقها من الصحفيين الشباب أصحاب المبادئ في صحيفتي النيوزويك والديلي بيست. ساركوزي هنا رجُل ممتاز. **النوفِل أوبسرفاتور** في باريس وضعت عنوان: «انتهت اللُّعبة». ما يظهر هنا إنّما هو حزمُه، وشجاعته، وطريقته في تناوُل هذه الحرب الجديدة في نوعها من وسَطِها. ومن جهة أُخرى، حضّرت النيوزويك غلافاً مع مقالة طويلة لكريستوفر ديكي عن موضوع «الفيلسوف ورئيسُه». فقلتُ لِتينا إنني أُفضِّل العنوان الثاني على العنوان الأوّل، لأنّ ساركوزي ليس رئيسي. لكنّي وجدتُ صعوبة في إقناعها وفريقها بأنّ تحالُفاً مؤقّتاً ليس انضواءً، وأنني لم أصِر بعدُ ساركوزياً، على الرغم من قضية ليبيا. ففهموا الأمر في النهاية. لكنّي شعرتُ بخيبة أملِهم.

الجمعة 1 نيسان/أبريل (ماتَ برنار. هنري ليفي!)

أعلنتْ موتي كذبةُ أوّل نيسان في باريس. كما حصل لحظة اندلاع حرب البوسنة حيث أعلن مُفوَّض الشرطة في الدائرة السابعة عشرة، بعد أن تلقّى الخبر من الصربيّين المُقيمين في باريس، أنني قُتِلْتُ أثناء الليل في بولفار بيري، وعندما شاع الخبر، كان أمام ماري جويل أوبير ثلاثون دقيقة، لا تزيد دقيقة واحدة، كي تحمل دليل أنني على قَيْد الحياة إلى وكالة الصحافة الفرنسية. وكأنّ كون المرء قتيلاً جريمة، وعلى المُتّهم المُفترَض، في هذه المحكمة

الغريبة التي هي محكمة **الفُرجة العظيمة**، أن يحمل الدليل الذي لا يملِكه. فيما عدا أنّ هناك اليوم وكالة تويتر، وأنّ الخبر لا ينتظر ثلاثين دقيقة ليبدأ في الانتشار، أو كما يُقال من الآن وصاعداً في الطنين. حينئذٍ اتصلتُ بجان ـ باتيست دوكروا ـ فيرنييه. كالعادة أتصل على الفور بساحِر... على الإنترنت. وكما في كلّ مرّة، يُحرِّك جيشه الهائل من الأقزام، ويُرتّب لي الموضوع فورياً تقريباً. كيف يفعل هذا؟ هل يُغرِق الخبر؟ هل يحقنه بحساب لعين كما في أشعة الليزر؟ هل يدخل المواقع التي تنشر الخبر بعد تكسير أبوابها، كسارق مُهذّب بأسلوب جديد، وُدّي، وأخَوي، بأسلوب إنسان مبدئي، وفارِس؟ هل يقتل الخبر؟ لا أعرف. لكن الجوهري أنّ هذا فعّال. تماماً كما في معركة «سكينه»[8] التي ما كنتُ أبداً سأخوضها من دونه. كما في معركة اليونسكو حين تصرَّف ووضع سدّاً أمام تعيين وزير مصري قديم كان قد وعد بإحراق الكتُب الإسرائيلية في مكتبة الإسكندرية، الكبيرة. ولم أستطع أن أربح المعركة إلا معه. كما في قضية بولانسكي الذي لا يعرف، على ما أعتقد، كم هو مَدين لهذا الإنسان الخارق، فائض الكرَم، الذي، في ما عدا بعد الاستثناءات، لا يُحِبّ الناس إلا عن بُعْد. أجل، ألقى بنفسه في معركة انبعاثي من الموت، وانتصر طبعاً. وعلى عجَلٍ اكتشفتُ شخصَين أو ثلاثة أشخاص من معارفي أنّ الخبر لم يكن يُناقِض شيئاً أكثر من هذا.

السبت 2 نيسان/أبريل (يهودي مُحرِّض على الحرب)

هل هو خبر من أخبار **نيوزويك**؟ مقالة ستيفن ايرلانجيه في **نيويورك تايمز**، الذي يستأنف ويُطوِّر مقالة جيرار في **الفيغارو** ومقالة سيّد مهران في مجلّة **لو بوان**؟ جاء في الجريدة النيويوركية (ريشار برودي: «هل قاد برنار ـ هنري ليفي حلْف الناتو إلى الحرب؟») لكنّي أشعر أنهم يخترعون هنا، وفي فرنسا أيضاً، قصّة كاملة عن الموضوع: «هذه الحرب التي لم يكن أحد يُريدها» ـ طريقة أنيقة لِقول: «هذه الحرب التي أرادها ساركوزي، وأوحى بها برنار ـ هنري ليفي، وأشعلها هؤلاء الشياطين، حُلفاء الظرف الراهن، ومن أجل الظرف الراهن، على ظهر الشعوب».

الأذُن الثالثة تسمع شيئين.

هنا، في الولايات المتّحدة، جنون نظرية المؤامرة الذي استبدّ بالبلد لحظة اندلاع الحرب في العراق، وافتراض سيطرة المثقّفين المُحافظين الجُدد على دماغ جورج بوش: ساركوزي ليس

بوش إطلاقاً: أعود وأُكرِّر القول إنّ حرب ليبيا، هي العكس الصحيح لحرب العراق، وكثيراً ما كنتُ، أنا نفسي، ضدّ جماعة أسبوعية ويكلي ستاندارد، لم ينفع هذا في شيء. ولم يكن يمضي يوم إلا وأقرأ مقالةً، أو مُدوَّنة، أو مُدوّنة فرعيّة تُحطِّم الموقفَين أحدهما بالآخر، وتخلِط بين علاقتي بساركوزي وعلاقة بيل كريستول بجورج بوش.

في فرنسا، موضوع سيلين، القديم الجيِّد المُفضَّل عند المُعلّمين الذين «يُنوِّمون» في الخفاء، المُعلّمين بالمظهر فقط، ويقودون العالَمَ إلى مجزرة لا يُريدها أحدٌ غيرُهم. فَما تكون هذه الكائنات عديمة الذمّة، هذه الوحوش المُتعطِّشة للدماء التي وضعتنا في «أجمل الأكفان» المحتفِلة رسمياً في مدرسة الجُثَث، والتي لا ترى في مجازر الشعوب البريئة إلا «تفاهةً»؟ هجائيات سيلين كانت ممنوعة طيلة ستّين عاماً، لم يُعَد نشرُها أبداً، وقد غرِقت في اسمنت الحظْر والرقابة الكارثيّة: الأمر الخارِق هو أن يكونوا هنا أحياء كما في أيامهم الأولى، ينفثون سمومهم - أحياناً أقول كان يجب أن تُقرأ، ومن المؤسِف أنها حُظِرَت، وأنّ وجود هؤلاء كان سيقِلّ لو كانت هذه الكتُب غير محظورة، وأننا أخطأنا جداً حين تصرّفنا وكأن الشعوب لا تملِك «لاوَعيَها» الخاص.

الأحد 3 نيسان/أبريل (سيلين أم شاتوبريّان؟)

تعشّيتُ مع شارلي روز، وأريانا هوفانتون. قلتُ لهما: لنفرض أنني لعبتُ هذا الدور، لنفرض أنني ضغطتُ فعلاً للمساعدة على إقرار هذه الحرب، فقد سبَق أن أشعل كاتب فرنسي الحرب. كاتب وحيد. هو كاتب هائل طبعاً. ولْست هنا بصدد المقارنة. المُهِم أن لا علاقة بين هذه الحال وحماقات مُعادي الساميّة التي تنتشر ببطء في فرنسا، ويجب القول، في الولايات المتحدة الأميركية أيضاً. السابقة هي سابقة شاتوبريان الذي، حين صار وزيراً للخارجية، أيّد قيام الحرب الإسبانية، الحرب الأخرى، حربه، حرب 1823، وإعادة تنصيب فيردينان السابع على العرش. فألاّ يكون ثمة شيء يدعو للفخر (إعادة العرش «لحفيد من أحفاد سان لويس» ليس تصويراً لواجب التدخُّل الذي حُلِم به) شيء. وألاّ تكون تعليلات شاتوبريان (إنقاذ عروش أُوروبا، وسحق شبح الثورة، وبالمرّة الكسْب النهائي لِقبضته الحديدية مع نابليون) جذّابة كثيراً، فهذه بديهة. لكنّ الحقيقة تكمن هنا. فقد أراد شاتوبريان هذه الحرب، منذ مؤتمر فيرون. وعدّها إنجازاً من إنجازاته. وحين اكتشف فيلِلْ، الذي يُمثّل

قليلاً جوبّيه ذلك العصر، سِرّ القضيّة ولاحظ أنّ وزيره غير مُهتمّ بمشكلة «تحويل الأرباح» (المُعادِلة في ذلك الوقت لمُشكلة «الديون السيادية» في أيّامنا) التي تُخاطر فيها حكومته بأن تصير أقليّة، والتي يحتاج من أجلها إلى دعم وزرائه كلّهم، كان قد فات الأوان، إذ انتصر شاتوبريان في الحرب، وما سوف يدعوه «مورا» بـ «الطير الكاسِر الوحيد عاشِقُ الجُثث» أضاف إلى مُذكرت ما بعد القبر، بعضاً من أجمل صفحاتها.

الاثنين 4 نيسان/أبريل (اللغز أوباما)

قال لي كريستوفر هتشنز الذي غيّر الصراع مع المرض سِحنتَه، لكنّه لم يمسّ نقده وحزمه إزاء المبادئ: «ما تُظهره حفنة من الشباب في مُقاومتها لدبّابات القذّافي من الشجاعة يفوق ما تُظهره إدارتنا مُجتمِعة».

معه حق. فجُبْن الأميركيين غريب.

وغريبٌ أيضاً (لكن الشيء هو نفسُه) أن ينطلقوا برعونة في هاتَين الحربَين الطويلتَين، باهظتَي التكاليف، والشاقّتين للغاية، ورُبّما الخاسرتَين، هما الحرب في أفغانستان، وفي العراق - ولْتكنْ هذه الحرب التي ليس فيها جيوش على الأرض، وليست حرب الألف عام بين السنّة والشيعة، هذه الحرب التي استغرقت بعض الوقت، ولكنّ الجميع يعرفون أنها رابحة سلفاً، وباختصار، لِتكنْ حرب ليبيا هي الحرب التي يدخلون فيها رغماً عنهم أو بتردُّد.

أتكون هذه خطيئة الولايات المتحدة الأميركية الإستراتيجية في بداية القرن؟

أتكونُ العلامة الحقيقية على هذا التراجُع، على هذا الخسوف الذي تحدّثت عنه أريانا ذاك المساء، والذي سيكون النزعة الثقيلة للحظة الراهنة؟

أم أنّها مشكلة أوباما، هذا الرئيس المُتردّد، غير الواثِق من نفسه، بالإضافة إلى أنّه المُذعن، بغرابة، لدفْع حساب الآخرين - في هذه الحال، حساب مرحلة بوش وحرب العراق المُدمِّرة التي لا بُدّ أنّه شعر كأنّه سدّدها بالامتناع عن المشاركة في حرب ليبيا العادلة (هذا على الرغم من أن المُحاجّة قد تكون مُعاكِسة تماماً: هذه الحرب هي التي كان ينبغي أن تقوم، الحرب التي لا ينبغي تفويتها، ولأنّ بوش أخطأ في العراق، كان يجب على أوباما أن يكون على حقّ في ليبيا)؟

على كلّ حال، في كل البعثات التلفزيونية اليوم لا أُواجِه، باستثناء فريد زكريا، إلا انعزاليين غاضبين يُلقون في وجهي ثمن التوماهوك...

الأربعاء 6 نيسان/أبريل (الذهاب ثانيةً)

عدتُ إلى باريس. ومنها ذهبتُ ثانيةً إلى ليبيا. هذا مؤسِف. لأنني أحِبّ نيويورك، وأنا في حاجةٍ، كلّما عُدت إليها، إلى ثمانية أيام لأتلاءم مع هذه الحياة فيها. لكن يجب الذهاب إلى ليبيا. لأنني، كي أُعبّر ببساطة، أشعر أنّ مُعارضةً حيّة تتعاظم ضدّ هذه الحرب، وأرى كثيراً من الحماقات تخرج من فَمِ مُشوَّهين يعلنون أنهم خُبراء في الشأن الليبي، وقد أزعجني جداً أن أسمعهم يُردّدون باستمرار: «هذا المجلس الانتقالي الذي لا نعرف عنه شيئاً... هذا البلد المُنقسِم... هذه القبائل المُتحارِبة في ما بينها منذ أجيال...»، إلى حدّ أنّ عليَّ الذهاب أوّلاً لأرى، وفي ما بعد، أشحن، على عجَلٍ، بطاريّات أجوبتي وحُجَجي.

الخميس 7 نيسان/أبريل (الذهاب ثانيةً!)

عُدتُ إلى باريس.

نظّمت جوليا كريستيفا حلقة بحثية عن الكاتب سيلين، في جامعة باريس السابعة، وكانت قد خصّصت لي مُداخلة فيها: عُدتُ في مداخلتي إلى مسار الأشباح في هجائيات الأشرطة الصوتية لتلك الفترة.

ثمّ تناولتُ طعام الغداء مع الشخص الفريد بوب ووردويرد، الذي جاء إلى باريس ليُطلِق كتابَه الممتاز «حروب أوباما»: لا أستطيع معه الامتناع عن التعبير ثانية عن دهشتي أمام هذه الحرب التي فوّتَها أوباما على نفسه مع أنّها لصالحه، أعني الحرب في ليبيا. «قلت له: أميركا تُجهِّز الحرب بتقديم الإسناد، والأقمار الصناعية، والتغطية التكنولوجية التي من دونها ستكون الطيّارات الفرنسية والإنكليزية والعربية عمياء. لكنّها بقيت مُتراجعة بغرابة. وبغرابة بدت بمستوىً متدنٍّ، وبغرابة يُخلي نذير إله الحرب (مارس) إلى جماليةٍ مُبالَغ فيها. لماذا؟». لم يكن لدى ووردوير أيّ شرحٍ لهذا. لكنْ هناك ثلاثة افتراضات. خطأ تقدير الموقف بصورة طبيعية. تسميم البيت الأبيض من البنتاغون، وإداراته التي لا بُدّ أنّها روّجت له أطروحة أنّ القذّافي فائق القوّة، وعالي التجهيز، ولن تكون العصابات المُتمرّدة غير المنظّمة إلا لُقمةً في فمه. أو، ولِمَ لا، الإدارة الأميركية نفسها التي ينحصر همّها في حماية حُلفائها في المنطقة، وخصوصاً السعوديين، ومن أجل حمايتهم، ينبغي إيقاف الوباء الديمقراطي على أبواب طرابلس.

غداً سأذهب ثانية إلى ليبيا.

هوامش

1- رواية l'espoir لمالرو (م).

2- كلِمة عاميّة تعني «يرتدي» (م).

3- آثرنا أن نترك الكلِمة بالإنجليزية كما وردت في النصّ (م).

4- هكذا وردت في الأصل بالإنجليزية (م).

5- يُعبِّر المؤلِّف عن شهامة سيف الدين نصر من خلال تشبيهه بشخصية ليستينغوا الذي أنقذ الكلب «بودي» بعد أن رآه من مكتبته يُلقي بنفسه في نهر السين، وذلك في فيلم Badou sauvé des eaux إخراج جان رونوار 1932، وأضاف كلِمة فلوريدا على عنوان الفيلم لأنّ السيد نصر كان منفياً في الولايات المتّحدة الأميركية (م).

6-Bel-Ami : رواية لغي دو موپّاسّان يسخر فيها من جورج دي روا، الشخصية الانتهازية الوصولية (م).

7- يجمع الصحفي جان بول، صديق ليفي في كلِمة Depardieudonné كنية المُمثّل الفرنسي المشهور جيرار ديبارديو، والمُمثّل الهزلي المعروف بمُناصرته للقضية الفلسطينية ديودونّيه في نوع من السخرية لأنّهما وقفا ضدّ مواقف ليفي إزاء تدخُّل حلف الناتو في ليبيا (م).

8- سكينة ايشتياني التي حُكِم عليها بالرجم في إيران سنة 2010؛ لأنّها تعاطت الزِنا (م).

الباب الثاني

الأمَل

الجمعة 8 نيسان/أبريل (العودة إلى بنغازي)

أقلعنا في الصباح الباكر. سلكنا مسار المرّة الأولى نفسه. مرسى مطروح. ثُمّ سالوم. وكنّا نحن أنفسنا (جيل، مارك روسيل، وفرانك فافري) مع مُصوِّر جديد (فوجتا جانيسكا، لأننا قرّرنا الأسبوع الماضي أنّه علينا بالمرّة أن نجمع التجهيزات اللازمة، بانتظام أكثر، لتصوير فيلم مُحتَمل) وحارِس آخر (فرانكو فافوريل)، وأخيراً صديقيَّ الليبيّين المُتلازِمين اللذين تعرّفتُ عليهما في فندق رافائيل. عرَفنا مأمورو الشرطة في المطار المصري فعجّلوا لنا بفضله توقيع الأوراق. وقادنا حتى الحدود نفس سائق سيارة المينيفان إلى الحدود (سائق واحد للمدينة كلّها؟). ألِفنا الطريق. والحدود هي ذاتها. الأمر المختلِف الآن هو وجود عدد قليل من الناس. أكيد أن كثيرين نجحوا أخيراً في العبور، ولم تعُد هناك كتلة البشر الهائلة، العدوانية التي رأيناها في المرّة الأولى. غير أنّ الذين بقوا يبدون أكثر إنهاكاً. عيونهم غائرة أكثر. وقاماتهم أكثر تهدُّماً. ينبعث منها حُزنٌ بلا غضب، وخصوصاً أنها غير قادرة على الوقوف. فهي نفوسٌ ميتة. نفوسٌ تُنادي من دون كلِمات. حيَوات لا هدَف لها. حيَوات لا شيء. ولادة، فحياة، فموت، ولا يبقى شيء. وبينما كان علي ينتظر في الطابور، تنبّهتُ إلى وجود حُزمةٍ من جوازات السفر في المكان نفسه الذي رأيتُه قبل شهر (تظهر اليد نفسُها، وتختفي، بسرعة كبيرة، من نفس الفتحة الصغيرة في نفس الكوّة ـ باستثناء أنّه لم يعُد هناك من دواعٍ لأن تُزعِجَ كتلةُ البشر اليائسة تلك اليدَ؛ إذ ما عاد حولها إلا مجموعة رجال، ونساء مُجعّدات الوجه ساهِمات، وأطفال يقضون الوقت باللعِب في تجنُّب حُفَر الماء الراكِد التي حفرتها في الأرض أقدام مجموعات البشر الذين كانوا هنا قبل شهر، أو اللّعِب «بحجَر الرِّجل» الذي رسموه على الأرض الجافة، حيث كوّنوا من أنفسهم أشكالاً غريبة تُشبه شكل النجمة)، وتنبّهت وأنا أنظر إلى هؤلاء الناس أنّه إن كانت هناك معركة سوف تشغلني من بين ما يشغلني، فهي هذه المعركة: المعركة من أجل هذه الحيَوات الصغيرة الزهيدة التي لا مستقبل لها ولا قيمة.

قال لي كولومباني ذات يوم إنّي لديَّ رؤيةَ «ملحمية» عن العالَم. لكنْ بشرط أن أُضيف أنّ العالَم الملحمي ليس تمجيداً للشخصيات الملحمية الرسمية، بل هو المعاملة الملحمية للشخصيات البسيطة التي لا معالِمَ لها، ولا أرشيف، والتي لا يُغيِّر موتُها نظامَ العالَم في شيء. وعلى المرء أن يبذل جهوداً على نفسه كي يستطيع أن ينظر في عيون إنسان ليس له نظرة. يلزمه

الألم الملحمي ليُقيِّم وجوه الذين ليس لهم وجوه حقّاً. ليُقيِّم هذه الدمدمة المخنوقة، الغاضبة، البشرية بالكاد، دمدمة أولئك الناس الراقدين في صالة الترانزيت القديمة..أجل! أعرِف لماذا لم أُحِبّ أبداً الشِعار المتأنّق: «جعل من حياته رائعة فنيّة». إذ ليس عليَّ أن أجعل من حياتي عملاً فنيّاً، بل من حياة الآخرين، أمثال هؤلاء.

هذه المرّة تنتظرنا سيّارات على الجانب الآخر من الحدود. رِجال أشِدّاء، مُسلّحون بالمُسدّسات، بالإضافة إلى بنادق كلاشنكوف، وبندقية هجوم بين المقاعد الأمامية في كلّ سيّارة من السيّارات الأربع. في سيّارتي رجُل بدين جداً، شعره طويل، يرتدي سترةً جلدية كبُلغار الستينيات، يسحب البطاقة الإلكترونية من هاتفه بعد كلِّ مُكالمة مُختصَرة دوما، مع سائق السيارة الأولى. وإلى الأمام باتجاه بنغازي، يتتابنا الشعور دوماً بأننا في مكّوك فضائي لننطلق صوب كوكبٍ مجهول. باستثناء ...

نعم، باستثناء اختلافٍ آخر، كبير، مع الرحلة السابقة. وبحضور علي ومنصور، الودودَين، المُريحَين، لم تعُد لدينا مشكلة لُغة، وعاملتْنا السلطات مُعاملة طبيعية في كلِّ مرحلةٍ من هذه الطريق التي تكوّن لدينا انطباع، بفضلهما، أننا نُعيد اكتشافها من جديد بعينَيهما. أؤكِّد على كلمة «بعينَيهما» لأنّ ثمّة هذه الحقيقة الأخرى، المؤثّرة بصورة خارقة التي جعلتُهما يُكرِّران عدّة مرّات، ولم أُصدّقهما في البداية إلا بصعوبة، ولستُ واثقاً من أنني فهمت، لكن هذا حقّاً ما كان، هو لا يُصدَّق، ولكنه صحيح: ترك منصور ليبيا سنة 1969، وتركها علي سنة 1980، وهذه هي المرّة الأولى، التي يعودان فيها، الأوّل بعد أربعين عاماً، والثاني بعد ثلاثين، إلى هذا البلَد العزيز الذي ظنّا أنهما لن يرياه أبداً. يا له من شعورٍ مؤثِّر أن أكون أداة هذه العَودة، ووكيلها، والشاهد عليها، وأن أكون الإنسان الذي من خلاله التقى أصدقائي بذويهم من جديد!

مساء الجمعة 8 نيسان/أبريل (عشاء القبائل)

منصور وعلي لم يخسرا الوقت.

أنا مُتأكِّد تقريباً أنّهما رتّبا الأمر من باريس وليس كما يُحاولان أن يجعلاني أعتقد، بلباقة خالصة، حتى لا أُبالِغ في شُكرهما، بأنهما فعَلا ذلك هنا، منذ كنّا في تيبستي التي وصلنا إليها في مُنتصف فترة العصر) ـ لكن يا له من أداءٍ عالي المستوى على كلّ حال!

فمع عِلمهما أنّ إحدى كبرى المشكلات التي تُنيخ بثقلها على صورة التمرُّد هي قضية الانقسام القبَليّ، وأنّ واحداً من الأهداف الأساسية لسفرتي الجديدة محاولة أن أرى هذه القضية بوضوح أكثر، أكثر قليلاً، نظّماً، بدءاً من هذا المساء، في مكان بين بنغازي واجدابيا، قمّة غير رسميّة لرؤساء قبائل ليبيا.

لا أعرف أين نحن.

أخذنا المخرَج الغربي لبنغازي.

قطعنا في السيارة حوالى ثلاثين كيلومتراً، أوّلاً على الطريق الرئيسة، ثُمّ على طُرق فرعيّة.

لكن رُبّما لأنني كنتُ أقول لنفسي، كما أفعل غالباً، سيكون لي الوقت لأستعلِم في ما بعد، ورُبّما أيضاً لأن علي ومنصور، لأسبابٍ أمنيّة، لا يرغبان في أن أعرف إلى أين نحن ذاهبون، ويتهرّبان من الإجابة عن أسئلتي، ورُبّما لأنّهما لا يعرِفان، هما أيضاً، وأخيراً، رُبّما لأنني متشبّع بالمعلومات ولم أعُد أستطيع استيعاب المزيد، والحقيقة أنني وصلت إلى المكان وعلِمتُ في الحال أننا مدعوون من طرف الدكتور الميهوب، عضو المجلس الوطني الانتقالي ورئيس مجلِس الحكماء والأعيان ـ ولا شيء أكثر من ذلك.

كانت حوالى مائة سيّارة بك ـ آب تركن أمام بوّابة المزرعة حيث توقّفنا.

وحولها يقف ثلاثة أضعافها من الرجال المُسلّحين ـ وأُخمّن أن كثيرين غيرهم يكمنون في الأدغال.

عندما تخطّينا البوّابة، على مدخل المبنى الرئيس، وهو سُرادقٌ هائل سميك الجُدران المطلية بالجِبس، كان في انتظارنا اثنان وثلاثون زعيم قبيلة، أو مُمثِل قبيلة، يقفون مصفوفين بحسب بروتوكول خمّنتُه لكنّي لم أستطع فكّ رموزه، تُضيئهم من أسفل إلى أعلى فوانيس موضوعة على الأرض، بعضهم يرتدي لباساً على الطريقة الغربية، وأغلبهم باللباس التقليدي، سترة مُطرّزة، وفرو على الكتفَين، وغندورة بيضاء وذهبية، وقفطان كشميري أو معاطِف من جلد الثعلب، وشاش مُزركش على الرأس، وأسلحة للعرض في الحزام، وعصيّ خشبية منحوتة. حيّيناهم واحداً واحداً.

هنا كلّ رؤساء قبائل برقة من دون استثناء.

وأكثر مُمثّلي القبائل الأخرى خرجوا سِرّاً من فزّان أو من مدينة طرابلس.

سلّمنا عليهم واحداً واحداً، اثنتان وثلاثون قبضة يد، عددتُها، قبل أن ندخل معاً في مستودَع التبن، ونخلَع أحذيتنا وصنادِلنا معاً، واتّخذنا معا أماكننا على طول الجُدران حيث

مُدّت سجاجيد، وحُصُر من قصب، ووضِعت مقاعد واطئة جداً تُعلي الرُّكب وتكسر القامات، ومساند من صوف أو مُفضَّضة، وأغطية.

سوف نتعشّى على الأرض، من دون ملاعق وشُوَك. فثمة قصعة ضخمة من لحم الخروف نُقطِّعه باليد، ونجعله في كراتٍ مختلطة بكتَل من الرُزّ المُتشرِّب بالدِّهن، اللذيذ، الذي يؤخَذ من صحنٍ مُجاوِر.

لكنّ الجوهريّ قبل العشاء الذي لم يكن سوى التمهيد، إنّما هو حفلُ الخطابات.

ليست الكلِمة قوية جداً ما دام كلُّ واحدٍ سيمنح، بأسلوبه الخاصّ، أفكاره الرصانةَ المطلوبة.

اكتفى بعضهم بتحية مُقتَضبَة للأصدقاء الفرنسيين الزائرين.

وبعضهم كموفَد الجبل الأخضر، يخطب كما في المسرح مادحاً موقف فرنسا الذي «سوف يبقى في الذاكرة حتى نهاية الأزمان».

وصرّح رئيس القبيلة التي تبسط نفوذَها على منطقة طبرق: «ثمّة جدلٌ، في بعض البلدان الإسلامية، بين السُّنّة والشيعة، وهنا، نحن مُتّحِدون في شعورٍ مُزدوج. بُغضُ التطرُّف وحبُّ فرنسا من الآن وصاعداً».

أمّا موفد مصراطة الذي هو من النادرين الذين يرتدون اللباس المدني، والذي حكى أنّه وصل عشيّة أمس في سيارة فيري، ناقلاً جرحى، وباحثاً عن الدواء والأسلحة، فقد كلّفنا بنقل رسالة هي: «حين سيصير شعب ليبيا حُرّاً بعون الله، لن ينسى ما فعلتموه، نحن شعب قليل العدد، لكنّه يملِك إحساس العُرفان بالجميل».

وأطلق عبد السلام شريف، الموفد الآخر من مصراطة، بصوتٍ مبحوح نتيجة الانفعال، نداءً لمساعدة مدينته مثلما ساعدْنا بنغازي، وأنهى خطابَه بالبُكاء.

وشرح شاب يُمثّل قبيلة مقرحة التي تهيمن على مدينة طرابلس، وتتحالف مع قبيلة القذّافي أنّ قبيلته تتحرّك، وأنها تتخلّى عن تأييد «القائد» شيئاً فشيئاً، والدليل على ذلك حضوره هنا.

وكانّ هناك أيضاً مُمثِّل عن قبيلة قذافا، قبيلة «القائد» الذي وقف يهتِف مُرحِّباً بحماسة حتى قبل أن ينطق بكلِمة.

وكان أيضاً مندوب قبيلة ورفلا، في برقة، التي شرح لي منصور أنّها كانت دوماً مُواليَة للقذّافي.

أمّا المندوب الثالث القادم من مصراطة، الأشقر، بوجهه المُكتنِز، وشاله ذي اللون الخُباري، وسترته الذهبية المطرّزة، فصرخ قائلاً: «نحن بلد مُتكوّن من قبائل، لكنّ قبائلنا مُتمسّكة بالوحدة الوطنية، ولن يقبل أحد بتحطيم هذه الوحدة».

وعرف مندوب اجدابيا الذي يرتدي غندورة من الخام الأبيض، معقودة على شكل تولها، فوقها سترة سوداء، أننا سوف نزور مدينته، فشكرنا بامتنان فائض.

وها هو شريف، ابن عمّ منصور الذي تعرّفت عليه قبل قليل في تيبستي في رُكنٍ من البار حيث كان السيد غوقة ينتظر أن أنهي مكالمَتي الهاتفية مع ساركوزي: كان يرتدي طقماً رمادياً داكناً يعطيه هيئة مُحامٍ أو طبيب، صعُب عليَّ أن أميِّزه هنا بعد ثلاث ساعات إذ كان يرتدي اللباس التقليدي كزعيم لقبيلة فزّان ـ كرّر قائلاً: لن يقبل أيُّ ليبيٍّ أبداً بتقسيم البلَد؛ فكلّ الحاضرين هنا جاؤوا يشهدون على هذه الحقيقة، فصرخ الحاضرون بصوتٍ واحد هادرٍ بحرارة، صوتِ الحرب والنصر المُحقَّق «ليبيا حُرّة!».

وها هو أيضاً مُمثِّل مدينة الزاوية يقول: «الشعب الفرنسي جزء من ليبيا. كان الشعب الليبي ينتظر مُنقِذاً، وهذا المُنقذ هو فرنسا. أهلاً وسهلاً بكم، أنتم إخوتُنا».

آهٍ لو استطعتُ أن أذكر هؤلاء «الفرسان» الليبيين جميعاً، وأن أصِف طيبة وجوههم وهم يتحدّثون عن فرنسا، ونظرتهم التي تصير مُثيرةً للشفقة حين يُذكر اسم القذّافي؛ لو استطعت أن أعكِس كثافة هذه اللحظة حيث بدت لي فجأة تفاهة التصوُّرات الفرنسية عن «القبائلية الليبية».

جاء دوري في الكلام. عبّرتُ عن شعوري. وأقسمت بأنني حال عودتي سأنقل بصدق حقيقة ما سمعته توّاً. وسمحت لنفسي في النهاية أن أقترح هذا الاقتراح: ما دُمنا مُجتمعين، وما دام الوقت مُناسباً يسهِّل علينا تنفيذ الأمر حالاً، سنكتبُ معاً، على زاوية هذه الصينية التي سأجعلها مكتباً، بياناً من أجل ليبيا الموحّدة التي تهتفون باسمها، فهذه هي بالضبط الرسالة التي يجب أن يسمعها الغرب...

لم أكد أنهي كلامي حتى هبّ الجمعُ واقفاً، وكانت قامات الأكبر سنّاً مُعوّجة قليلاً، وكادت لفّة مُمثِّل ورفلة تقع عن رأسه، هبُّوا وأطلقوا، تحت قُبّة السُّرادق، هُتافاً جديداً مُرعِداً «ليبيا حُرّة» وردّدوها عدّة مرّاتٍ بصوتٍ يُشبه صرخة الحرب، وصيحة الفرح.

طلب الدكتور الميهوب من الجمْع أن يصمُت. وعانق هؤلاء الأجانبَ الغربيين الذين يجعلون من أنفسهم أقلام هذا المجلس الحربي الذي لا يعرِفون عنه شيئاً. وها نحن من جديد نشرع في العمَل: أنا

وجيل في دَوْر الكاتب، وإلى جانبنا منصور وعلي والدكتور الميهوب، بينما تتجمهر الجماعة حول ضيوفها، مستغربة من ديوان قصائد آراغون الذي كان في جيبي إذ أخرجتُه وسوّدتُ صفحة الوقاية: وبعد نصف ساعة صار لدينا نصّ، فعاد كلٌّ إلى مكانه، ورُحتُ أقرأ.

قلتُ: « يُمكِن أن يكون عنوان هذا البيان »قبائل ليبيا كلّها قبيلةٌ واحدة».

عمّت القاعة دمدمة الموافقة.

«والنصّ تركيب الكلِمات التي هي كلِماتكم ونحن نُسجّلها».

حلّ صمتٌ، وتكاثفتِ النظرات.

«نحن رؤساء قبائل ليبيا أو ممثّليها، اجتمعنا اليوم في بنغازي، حول الدكتور الميهوب عضو المجلس الوطني الانتقالي. وأمام التهديدات التي تتربّص بوحدة بلَدنا، وأمام مُناورات الدكتاتور وعائلته وآلتها الدعائية، نُعلِن الآتي رسمياً. لاشيء يستطيع تفريقنا. فنحن نتقاسم المثل الأعلى نفسه وهو ليبيا الحرّة، الديمقراطية الموحّدة. لاشكّ في أن لكلّ ليبي أصلاً في هذه القبيلة أو تلك. لكنّه يملك كامل الحقّ في أن يُقيم علاقات عائلية، وصداقة، وجِوار، وأُخوّة مع أيِّ عضوٍ من أيّة قبيلة. فنحن الليبيين نُكوِّن قبيلة واحدة: قبيلة الليبيِّين الأحرار المُكافحين ضدّ الاضطهاد وروح التفرقة. الدكتاتور هو الذي كان يُفرِّق القبائل، بتأليب بعضها على بعضها الآخر، كي يتمكّن من الهيمنة عليها. ولا شيء من الحقيقة في أسطورة الخصومة بين الأسلاف التي أجّجها، وفي التصدّع الراهن بين قبائل فزّان، وقبائل برقة، وطرابلس. وبعد رحيل الطاغية، ستكون ليبيا الغد موحّدة، عاصمتُها طرابلس، حيث سنمتلك، في النهاية، حريّة تكوين مجتمع مدني كما نريد ونتمنّى. ونحن نستغلّ هذه الرسالة التي نبلّغها لفيلسوف فرنسي وفيها نشكر فرنسا، ومن خلالها نشكر أوروبا: فهما اللتان منعَتا حصول المجزرة التي وعَدنا بها القذّافي، وبفضلهما، ومعهما، سوف نبني ليبيا الغد، الحُرّة، الموحّدة».

كان منصور يُترجم ما أقرأ جملةً إثر جملة. وفي نهاية القراءة، نهض الجميع، واقتربوا، من دون تصفيق حادّ هذه المرّة، يبصمون، على التوالي، تواقيعهم على ما بقي في الورقة من بياض، ثُمّ على ظهرها. أخذ الدكتور الميهوبي الورقة. وقال إنّه سيسعى بكلّ الوسائل ليجمع تواقيع أخرى. تواقيع آخرين كثيرين. تواقيع رؤساء القبائل أو مُمثّليها من الغائبين، كلّها إذا أمكن، أو على الأقل قبائل طرابلس. وسوف يُرسِل لنا مجموع التواقيع إلى باريس كي ننشرها. لا يعرِف بعدُ متى وكيف. لكنّه سيجدهما.

السبت 9 نيسان/أبريل (نحو اتفاقية دايتون ليبية)

تناولنا الفطور، في تيبستي، مع كريس ستيفنز سفير الولايات المتحدة (أعتقد أن صفته «مبعوث» أو «مُمثّل أعلى»). هو شابّ، أنيق، ابتسامة ناصعة، يغلب عليه طابع الساحل الغربي West Coast، لكن أفضل ما فيه، أي طابع سان فرانسيسكو. كان، في ما يبدو لي، في فندق ويستين في باريس، الشاهد الوحيد على اللقاء بين جبريل - الهائج، وهيلاري - اللُّغز. تبادلنا أحاديث عادية. إنها طريقة الدبلوماسيين في ألاّ يقولوا شيئاً، لكنّهم يُحاولون أن يحصلوا على المعلومات من دون أن يبدو عليهم ذلك بوضوح. لست أدري لماذا شرعنا، في لحظة معيّنة، في التحدُّث عن ريتشارد هولبروك. عن ودّه المعتاد. عن لقائي الأخير به في تبليسي، آخر يوم في حرب بوتين وميدفيديف ضدّ ساكشفيللي. واللقاء السابق، في باريس، عند السفير هاريمان، عشية قصف سراييفو. وأخيراً دايتون الذي كان واحداً من المُهندسين المعماريّين، وهو، في نظري، اتفاق لعين.

قال وهو يكشف نفسه لأوّل مرّة: «هل تظنّ؟ لا أعرف...على الأقلّ كانت النيّة حسَنة...»

قلتُ باختصار: «رُبّما. لكنّ هذا حلّ يستسهِل الأمور. جحيم التسويات. إنّه، على كلّ حال، موت البوسنة الجامعة، مُتعدّدة الأعراق، التي كانت البلَد الذي جئنا لإنقاذه. بإمكاني أن أشهد على حُزن بيغوفيتش المُجبَر على أن يُوافق على هذا الاتفاق الرديء، والمُسدَّس الأميركي على صِدغه - كان على وشك الانتصار، فأرغِم، بتطرُّف، وباسم حسابات جيوسياسية مؤسفة على أن يرتدي لباس المهزوم...».

وفجأة قال، وقد استولى عليه بعض الارتياب:

«لكنْ لماذا تُحدّثني عن دايتون؟ هل تعتقد أن هذا النوع من الحلول مُناسب في ليبيا...؟»

وقال، وهو يرسم ابتسامة ذئب على وجهٍ برونزي لدبلوماسيّ شاب واعِد - ويُخاطِر بإظهار ثغرة صغيرة في سريرته:

«ولِـمَ لا؟ ألم تكن ليبيا، إذا فكّرت فيها جيداً، هي دوماً ليبيا. كان فيها دوماً جانبان، بل ثلاثة مع قبائل فزّان، والشركات البترولية هي التي حسمت الأمر، في لحظة مُعينة، وعمِلت، لترتاح، ولكي لا يكون لها إلا شريك واحد تتفاوض معه، على أن يكون البلد مُوحَّداً. أما

اليوم...فقد تغيَّر العالَمَ كثيراً...أوَ لا يُمكِن أن تَعتبِر شركات بترولية أُخرى، لها نفس المصالح، أن ليبيا مُقسّمة إلى دولتَين أفضل من ليبيا موحّدة أو على الأقل مثلها؟»

لا أعرف إن كانت هذه فكرة عابرة أم أُمنيَة. وجهة نظره الشخصية أم وجهة نظر إدارته. تحليل حقيقي أم بالون اختبار يُطلِقه لأنّه يرفض أن يتحدّث في الموضوع أكثر من ذلك. للبحث صِلَة.

السبت 9 نيسان/أبريل، تتمّة (المجلس الوطني الانتقالي: مَنْ هو مَن؟

موعد مع عبد الجليل. لأسباب أمنيّة، لم يعُد في تيبستي ولا على الكورنيش، بل في فندق الفاضل، غرب المدينة ـ مظهر مُزيَّف لفندق عطلة، ومرمر ينمّ عن ذوق القذّافي الحقيقي، وحلقة من الرسميين، وشبه الرسميّين، وقليل من المراسِم، سفيرا فرنسا وبريطانيا يصِلان على أعقابنا، ومُلحق بالطابق الأرضي يُساوم عليه علي وزيدان كي ننتظر بهدوء وصول عبد الجليل، ونُجري، خلال فترة الانتظار، مُقابلات أُخرى.

لأنني صمّمتُ أن أستغِلّ هذه السَّفرة الثانية ساعياً كي أرى بأكبر قدْرٍ من الوضوح هذا المجلس الوطني الانتقالي المشهور الذي يُثير في أوروبا الانتقادات والشكوك. فلأسباب أمنية واضحة، لم نستطع أن ننشر أسماء أعضائه المُنحدرين من المدن التي ما تزال تحت سيطرة القذّافي؟ هذا أمرٌ مشبوه... ومثير للريبة إلى درجة عالية... وبما يكفي، على كلّ حال، لكي نرى هذا المجلِس كجمعية سريّة ذات بنية مُبهَمة، وأهداف خفيّة، رُبّما تكون فرنسا قد تسرّعت جداً في جعلها مُمثّلة رسمية للشعب الليبي...فكيف نُفهِم الناس أنّ هذه الأوهام عبثيّة؟ وأنّ **المجلس الوطني الانتقالي** ليس **أنفار الخمير الحُمر**، ولا حتى **جبهة التحرير الوطنية الجزائرية**؟ وأنّ أعضاءه، مع بعض التحفُّظ، مرّة أُخرى، أي مُمثّلي اجدابيا، والكفرة، وغات، ونالوط، ومصراطة، والزنتان، والزاوية، وبني وليد، وغيرها من المدن الرازحة تحت البوط، معروفون تماماً؟ وأنهم يعيشون غير مُتستِّرين؟ وأن نتمكن من الحديث إليهم إن أردنا، وأن نجعلهم يتحدّثون، ويحكون رؤيتهم عن العالَم، وتاريخهم؟ حسناً فلْنفعَل هذا. ولْنُحاول تقديم المثَل بالذهاب فعلاً للقائهم، حتى لو كان ذلك مُنفِّراً بعض الشيء. هذا ما بدأتُ في فعله أمس في فندق تيبستي إذ أجريتُ مُقابلة مع عثمان سليمان المقراحي (مُمثّل منطقة بوطان) وفتحي محمّد البعجة (أحد مُمثّلي بنغازي) وقرّرتُ استغلال نهار اليوم لرؤية الأعضاء السبعة

الذين لم أتعرَّف عليهم بعد (ومن المفروغ منه أنني لم أتأخّر كثيراً، بحسب ما أرى، عن عبد الجليل وغوقة - وطبعاً عن جبريل والعيساوي، والرجال الذين التقوا بساركوزي لكنّهم ليسوا أعضاء في المجلس)

علي هو الذي أتى بهم إليّ. ويجب القَول إنّه هيّأهم لي. فحالما يرى واحداً منهم في بهو هذا الفندق الجديد، يصير نقطة ارتباط حيث يبدو أنه يعرف كلّ الناس، وهذا غريب بالنسبة لإنسان قضى ثلاثين عاماً في المنفى، وهكذا يوقِف الشخص، وينعطِف به فوراً بالقول من هنا إذا سمحت، ثمة كاتب فرنسي ومعه مُصوِّر، ومع هذا نفسه مُصوِّر آخر، الخ.

هكذا قابلتُ عاشور حامد بورشيد، من درنة، بوجهه الجميل النحيل الذي يجعله يُشبه روجيه فايان. حدّثته عن عبد الحكيم الحسدي، ابن درنة الذي لم أستطع رؤيتَه لكنّ سُمعتَه سيئة جداً. فهل يعلَم؟ هل أخبروه بهذه المقالات المنشورة في الصحافة الفرنسية (سارا دانييل في النوفيل أويسرفاتور)، والصحافة الإيطالية (جريدة Il sol 24 ore اليومية الخاصة بأرباب العمل)، والتي تتّهِمه بأنه قريب من القاعدة؟ قال لي إنّه يعرف هذا الرجل معرفة عاديّة. ولكِن إذا كان، بحُكم أنه فعلاً مُسلِم تقيّ جداً، قد أُغرِيَ، منذ عدة سنوات، بشكل من أشكال الأصولية، فأوّلاً لا علاقة لهذا بالقاعدة، وثانياً هو مؤيّد للمجلس الوطني الانتقالي، وهو مُنضبِط، وثالثاً يُمثِّل أقلية في درنة، وأغلبية الشعب تجِد فيه نفسَها، عاشور حامد بو رشيد، شخصية علمانية في المدينة، ومُحامٍ مُتخصِّص في الحقوق البحرية والمشكلات البيئية. والباقي كلّه إشاعات وسوء نيّة.

وأحمد الزهير السنوسي، وعمره سبعة وسبعون عاماً، وهو مُن أحفاد الملِك إدريس الذي انقلب عليه القذّافي، محكوم بالسجن ثلاثين سنة. «قال لي بهيئة مُكتئبة إلى أبعد الحدود: أنا أقدم سجين سياسي في ليبيا... الأقدم هو الذي بقي أطول مُدّة محبوساً، والأكبر سنّاً أيضاً...» وهو مسؤول في المجلس الوطني، بطبيعة الحال، عن ملفّ «السجناء السياسيين». وهذا ملفّ ضخم نوعاً ما، يتضمّن من العائلات ما يكفي ليستحِقّ وزارة كاملة.

وعمر حريري، وعمره سبعة وستّون عاماً، وهو جندي قديم آخر من جنود ثورة 1969، عسكري، كان بدوره سجيناً إلى وقت قريب، وهو اليوم مسؤول عن قضايا الدفاع في المجلس، عِلماني، شعبيته عالية جداً في أوساط الثوّار الشباب، وهو من قبيلة الفرجان المهيمنة في منطقة سرت.

وأحمد ربوع العبر، يُمثّل آخر لبنغازي، رجُل أعمال، تربطه علاقات تاريخية بعائلة السنوسي الملكيّة، مُكلّف بالشؤون الاقتصادية، عِلماني.

وفتحي تربِل سلوى، هذا المُحامي ذو الثمانية والثلاثين عاماً، الذكيّ، العصريّ، الذي اهتمّ بالسياسة إثر رؤيته، سنة 1986، صورة المشنوقين في بنغازي، أولئك الطلاب الذي كان ذنْبُهم الوحيد أنهم طالبوا ببعض الحقوق، وأخذوا على عاتقهم الدفاع عن عائلات المفقودين في سجن أبو سليم في طرابلس، حيث أعدمتهم شرطة القذّافي بعد عشر سنوات، كما روى لي مُحامٍ آخر جاء يراني في تيبستي أوّل مساء، وعددهم 1200 سجيناً لم يفعلوا شيئاً على الإطلاق (كانوا فقط من بنغازي حيث كانت تنطلق، في اللحظة الأولى، بداية ثورة شعبية). فتحي تربِل، بوجهه المُراهِق الذي أصبح رمز الحركة الثورية في 15 شباط/ فبراير، عندما ارتكبت شرطة الديكتاتور حماقة اقتحام مكتبِه، وتوقيفه، هو المسؤول عن الشباب في المجلِس.

وعلي طرحوني، أفضل الاقتصاديين في المجموعة، وهو وزير الاقتصاد فيها، الرجُل المكلّف بِسَكّ العُملة، وبترحيل الصادرات البترولية من ميناء طبرق: هو مُعارِض تاريخي أيضاً، منفي منذ عام 1973، حين كان في الثالثة والعشرين من عمره، ومحكوم بالإعدام غيابياً، درس في جامعة ميشيغان، ثُمّ في المدرسة العليا للتجارة، في جامعة واشنطن.

والتقيتُ اِمرأة اسمها سلمى فوزي الدغالي، طالبة قديمة في باريس، وأستاذة قديمة، وهي المرأة الوحيدة في المجلس، لكنّها مُكلّفة بثلاثة بل بأربعة مجالات من المهمّات: شؤون النساء، والقضايا القانونية، الأعمال التحضيرية لكتابة الدستور الجديد، وبدءاً من هذا التاريخ، تحضير ملفّ الإثبات ضدّ القذّافي استعداداً لليوم الذي سوف تُقرّر فيه المحكمة الجنائية الدولية إدانته.

وأخيراً التقيتُ مُمثّل منطقة القُبّة، المُنحدر من قبيلة العبَيْدات، إحدى أكبر القبائل الليبية لأنّها تمتدّ من سالوم إلى البيضاء، وهو الرجُل الذي التقيت به أمس مساء، القوّة التي دعت إلى عشاء رؤساء القبائل، الدكتور الميهوبي، الذي يحكي لي، هذه المرّة، قصّته الشخصية، وكيف أنّ القذّافي يُضمِر له، منذ ثلاثين عاماً، حقداً شخصياً غريباً: طُرِد من الجامعة حيث كان أُستاذاً قبل أن يصير عميداً للكليّة، ومُنِع من التدريس بكل مستوياته، ودُعِي إحدى عشرة مرّة إلى طرابلس من أجل لقاءات مُضحِكة حيث كان القائد يحاول، طيلة الليالي، أن يُقنعه بتبنّي «النظرية الثالثة» وحيث كان يرفضها مُعانداً؛ بحجّة أنّه يعدُّها مُتشرِّبة

«بالبرودونية»، وفُرِضت عليه الإقامة الجبريّة في مدينته الأصلية القُبّة، في قلب الجبل الأخضر، وقد نجا بالعودة إلى حياة الرُّعاة البسيطة، حياة أجدادِه، وهنا، في شهر شباط/ فبراير أتى مبعوثون من القبائل البدوية يبحثون عنه، كشاوول الملِك أو جدعون، ليتوسلّوا إليه كي يكون ملِكهم، أو على الأقلّ، مُمثِّلهم في المجلِس الانتقالي الذي تتشكّل معالِه حيث سيُكلّف بمهمّة في مجال «تنسيق الجبهة الوطنية الداخلية»، وبعبارة أُخرى، بمهمّة الوحدة الوطنية والحوار بين القبائل.

لا أدّعي أنني أجريتُ مع كلّ واحدٍ منهم أحاديث كاملة، لكنّ لديّ عدداً لا بأس به منها، وقد جمعت ما يكفي من القصص يُمكّنني من القول 1. تسمية هؤلاء الناس تمّت في نهاية عملية غير ديمقراطية كليّاً، لكن من الصعب إنكار أنّها تمّت انطلاقاً من القاعدة ـ قاعدة القبائل، والعشائر المُتّحدة على مستوى القُرى، والمدن، والمدن الكبرى، قبل أن يُعيّنوا بالإجماع، في أغلب الأحيان، ذاك أو تلك ممّن ترى الجمعية الأكثر عدداً، التي تجتمع في ميدان، أنه أو أنّها الأكثر حكمةً. 2. التشكيل النهائي للمجلِس يشهد إجمالاً على بعض النضوج السياسيّ؛ لأنّه حقّق المهمّة الصعبة في أن يُمثِّل فيه كل القبائل، وكذلك كل المناطق، وكل الفئات الاجتماعية والمهنيّة في ليبيا، بالإضافة إلى الطيف الكامل تقريباً للحساسيات الروحية والسياسية ـ ما خلا الاستثناء البارز، وهذا هامّ جداً طبعاً، ألا وهو «الإسلام الأصولي» الذي بدأت الصحافة الأوروبية بنصب فزّاعته، ولكنّي حتى الآن لم أجد له أثراً. 3. إن كان بينَهم، حتى في قمّة المؤسَّسة، بعض الذين كانوا من جماعة القذّافي وتابوا، فأغلبيتهم مُعارِضون تاريخيون، مُكوّنون في مدرسة السجن، تعلّموا تحت الضرب، والتعذيب معنى حقوق الإنسان، والديمقراطية ـ وأكثرُهم خريجو حقوق، ومثقّفون، وأُحِبُّ فكرة شعب بدوي يختار، لكي يتجسَّد، أساتذة جامعات.

على أيّة حال، سأتوقّف هنا.

ففي مُنتصَف مُقابلتي الأخيرة جاء مَن يقول لي إنّ الرئيس عبد الجليل وصل من البيضاء، وقد رأى السفيرين الفرنسي والإنكليزي، وهو في انتظارنا.

السبت 9 نيسان/أبريل، تتمّة (اللقاء الثاني مع الرئيس عبد الجليل)

بنفس نظرة النسر الفاتنة دوماً. والأنف الحادّ نفسه. ونفس الطريقة من الاقتراب منك بِخُطىً وئيدة، والجلوس على طرف الأريكة. ونفس غياب السلطة الظاهري. أو بعبارة

أفضل، السلطة الشفافة التي يفرِضها حين يبدأ في الكلام. المُختلِف الآن أنّه لا يرتدي معطفه (بحُكم أن الجوّ كان مُدفّأ بمهارة)، وأن حوله نُواة تنظيمية، وبروتوكوليّة (العيساوي إلى جانبه، في حال تُرقب، لكنّه صامت، وعلي ومنصور بعيدان قليلاً، ومُفاوضات مُحتدِمة للسماح بدخول كاميرات التصوير).

نقلتُ لعبد الجليل رسالة شفهية كلّفني الرئيس ساركوزي بإيصالها يوم سفري: أنّه طبعاً لا يأسف على شيء فعَله، وأنّه لو خُيِّرَ أن يفعله، لفعلَه ثانيةً بالطريقة نفسها تماماً، وأنّه يدعوه لزيارته في باريس.

وعلى الرغم من أنني لم أذكر له حديثي هذا الصباح مع المبعوث الأميركي، عبّرتُ له عن خشيتي، في ما لو استمرّت الحرب، من أن تظهر، في المجتمع الدولي، نزعة فرْض اتفاقية دايتون عربية: حكيتُ له عن اتفاقية دايتون الحقيقة، اتفاق البوسنة، الذي يبدو بوضوح أنه لا يعرف عنها الشيء الكثير، وقلت له كيف أنّ تقسيم بلاده سيكون في مصلحة كثيرين - الشركات البترولية بالتأكيد، لكن هناك أيضاً جمهور أولئك الذين يريدون أن يُلقّنوا القذّافي درساً، من دون أن يدفعوا بالضرورة أي ثمنٍ (سياسي أو عسكري) لخلعه.

ثُمّ حدّثتُه، بوجهٍ خاص، عن موضوع الورطة التي ستستفيد منها الصحافة الغربية والتي نصحتُه أن يرُدَّ عليها بنصّ قويِّ التعبير، ورصين سيكون أوّل حديثٍ يُدلي به منذ أن استلم مهّامه، وسيكون خليقاً بجعله معروفاً بصورةٍ أفضل: أليست المعركة السياسية، بدورها، معركة رِجال؟ معركة أجساد وأسماء؟ أوَ لا يستقِرُّ خصمه في طرابلس، هنا، من خلال ضخامة حضوره، واسمه؟

كان عبد الجليل يسمع. ومن وقتٍ إلى آخر، يستشير بالنظر علي عيساوي عن يساره، وعلي زيدان مُقابله. وحين تأكّد تماماً من أنني أنهيتُ كلامي، وجّه إليّ ابتسامةً خجولة، ورحَّب بي في زيارتي الثانية إلى بنغازي، شاكِراً ساركوزي وفرنسا على التدخُّل المعجزة في 19 آذار/ مارس: «أجل! لأنّ هذا مُعجزة، فقد كانت فِرَق الموت على أبوابنا، كانت ليلتنا الأخيرة في الحياة؛ فكل الذين بقوا كانوا يستعدّون للاستشهاد؛ وحينئذٍ قصفتْهُم طيّاراتكم».

بقي عدّة لحظات ساهِم النظر، في مكان آخر، يستنشق الهواء من حوله بطريقة مُضحِكة، مثلما كان يستنشقه عندما التقيتُ به أوّل مرّة، عبر النافذة المفتوحة في الفيلّلا الحديثة. ثُمّ عاد من شروده، وفجأةً تلوّن وجهه الطويل الحزين بغرابةٍ. وراح يُجيبني نقطة نُقطة. التقسيم، لن

يحصل أبداً. الزيارة إلى باريس، بطيب خاطر. وبالمُقابل سأدعو الرئيس الفرنسي الذي لا
يكون، بحسب المُقتضى، أوّل رئيس دولة أجنبية يَحطُّ بطيارته في بنغازي. وحول ال
الأخيرة، المتعلّقة بالخطاب المُنتظَر الذي اقترحت عليه أن يكتبه، نعم، هو موافق. ولِ
أفكر بمشروع وأعود لأسلّمه إياه غداً أو بعد غدٍ؟

« ليس غداً سيادة الرئيس، بل اليوم. فالعالَم، والعفو إن كررت لكم أنّ العالَم ب
حديثكم. ويجِب أن تفعلوا هذا بسرعة، فلْتسمحوا بأن ننفرِد ونكتب شيئاً، هنا، على الف
إنّه، في الواقع، مشروع سوف يُسلّمكم إياه علي زيدان.

الرئيس يسمح. الرئيس ينتظر. وها أنا من جديد أبدأ العمل مرّتين خلال يومَين. ثلا
مرّات إن حسبتُ نصّ جبريل الذي كتبته في شهر آذار/ مارس لجريدة الفيغارو. صار
عادة. هوَساً. أجد أنّه عبثٌ تقريباً حين أفكر فيه. فمن أجل مَن فعلتُ هذا؟ ومن أجل
يُمكِن أن أفعلَه؟ فالرئيس مجيب الرحمن، في بنغلادش لم يكن يثِق بي إلى هذه الدرجة،
بيغوفيتش فكان يثِق بي، أجل! لكنّي، في أغلب الأحيان، لم أكن أستخدِم ثقته. لكنّ هذا،
الوقت نفسه، هامّ جداً... أُريد إلى حدٍّ كبير أن يتيسّر هذا... أُريد إلى حدٍّ كبير أن أتمكّن
عندما أعود، من الإجابة على هؤلاء «الكساندرات»[1] الذين يجولون في كلّ مكان مُعيبين ع
المجلِس الوطني الانتقالي بأنه غير مُتماسك، لا يملك خطاباً، ولا هيئة... ثُمّ البوس
تحديداً... أُكرّر قولي، شبح البوسنة... لا يمضي يوم واحد من دون أن أفكر في البوسنة...
ينقضي ليل من دون أن يمرَّ في ذاكرتي مشهد من مشاهد احتضارها الطويل الرهيب. البوسنة
هذه الـ «ليبيا» التي تخلّفنا، نحن الغربيّين، عن نجدتِها. فليبيا تعكِس ما حاولنا القيام به في
البوسنة، ولم ننجح. فكيف لا نُخفِق هنا؟ وكيف نستخلِص الدروس، هذه المرّة، ولأوّل مرّة
من إخفاقنا هناك، كي ننجح هنا؟ بعد ساعة، كان المشروع مكتوباً. وسلّمه علي. فصادق عليه
الرئيس عبد الجليل. وفي الحال، أرسِل إلى أوليفييه بيفو، ليُنشر في جريدة اللوموند، وفي
جريدة نيويورك تايمز سانديكات أيضاً. عنوان المشروع: «الحرية تحتاج إلى زمن». ويُقدَّم
بوصفه «تصريحاً» من مصطفى عبد الجليل الذي أعلن - «بعد أن نُقِل قبل عدّة ساعات من
اجتماع مجموعة الاتصال حول ليبيا، المُنعقِد في الدوحة» - «المبادئ التي لن يُساوم عليها
الليبيّون الأحرار». وها هو النصّ.

«في 17 شباط/ فبراير، ثار الشعب الليبي بعد أربعة عُقود من الاضطهاد والظُّلم، وحرَّر
جزءاً كبيراً من البلاد بتقديم آلاف الشهداء الذين سوف تبقى أسماؤهم في قلوبنا إلى الأبد.

«في ليبيا الحُرّة التي هي قيد التكوُّن، تنفتح سيادة الحقوق والعدالة.

لقد شكّلنا لجاناً محليّة، ثمّ مجلِساً وطنياً انتقالياً كي نقود صراعنا، الذي لا رجعةَ فيه، إلى نهايته، ونولِّد أوّل ديمقراطية، ونُدير بلادنا النازفة مُنتظِرين اليوم الذي يتمكّن فيه كلّ الرجال والنساء في ليبيا من أن يتخلّصوا من القذّافي وعائلته، ويُعبِّروا، في النهاية، عن رأيهم بحريّة كاملة من خلال انتخابات عامة، شفّافة وحُرّة.

واليوم، ما يزال الطاغية هنا للأسف.

أوّلاً هو في موقع الدفاع. فسرعان ما انسحب.

جيشُ مُرتزقته أجبر مُقاتِلينا على التراجُع أمام مدينة سِرت.

مُدرَّعاتُه، ومدفعيّتُه، وأرتاله الجهنميّة، تدكّهم في قلب الصحراء، فاضطُّر شبابنا الأشاوِس، الذين انطلقوا، من دون دبّابات وأسلحة ثقيلة، لتحرير مصراطة المُحاصرة، وطرابلس الخاضعة للاستبداد، إلى التراجُع، مُتحمِّلة خسائر فادحة.

من دون نجدة الطيّارات الفرنسية التي أنقذت بنغازي من حمّام الدمّ الذي توعّد به الدكتاتور، ومن دون تدخُّل المجتمع الدولي الذي قاده السيّد ساركوزي وحُلفاؤه، كانت ليبيا بكاملها ستُكبَّل بالأغلال من جديد. لأنّ لا شيء، في الصحراء، يُمكِن أن يقف في وجه المُصفّحات إلا من الجوّ. وقد نجحت الطيّارات الغربية حتى الآن في التصدّي لها، ونحن مُمتنّون كبير الامتنان من هذا.

لكنّ الأسطول الجوّي لحلف الناتو لا يستطيع تحرير المدُن المُحتلّة التي يلتجئ إليها رجال القذّافي من الآن وصاعداً،ويستخدمون سُكّانها دروعاً بشريّة.

ونحن، الليبيين الأحرار، ليس بين أيدينا حتى الآن القوّة الكافية المُدرَّبة للقيام بهذه المهمّة بالغة الحيوية بالنسبة لكلّ مُواطنينا المقصوفين أو المُستعبَدين.

ستّة أسابيع من الحرية لا تجعل من آلاف المواطنين المُسلَّحين جيشاً: يلزمهم المزيد من الوقت.

الآن، مُقاومتنا جيّدة. ونحن فخورون بهذا.

نحن لا نطلُب أن يخوضوا الحرب عنّا. ولا نطلُب من جنودٍ أجانب أن يأتوا لكي يصدُّوا العدوّ. ولا ننتظر من أصدقاء ليبيا أن يُحرِّروها لنا. بل نطلب منهم إعطاءنا الوقت الكافي لتشكيل قوَة توقِف مُرتزقة الطاغية، وحرسه الشخصي عند حدِّهم، ثُمّ تُحرِّر مُدُننا.

على المجتمع الدولي، إلا إذا عدَل عن قراره، أن يستمِرّ في دعمنا، **ليس فقط بالطيّارات،** بل بمختلَف أشكال التجهيزات والتسليح.

فليمْنحونا الوسائل التي تضمن تحرُّرَنا، وسوف نُذهِل العالَم؛ **فالقذّافي ليس قويّاً إلا** بكوننا أغراراً، وبنقاط الضعف التي عانينا منها في البداية؛ **فهو نمر من ورق، انتظروا،** وسوف ترون.

إرادة العالَمَ في أن يُضحي بنا، بذريعة نقاط ضعفنا في البداية، على مذبح سلامٍ غير مشروط تقريباً، لن تكون إلا ظالِمَةً، وقاتلة.

هل سيكون هذا سلاماً أم، بالأحرى، استسلاماً مُمَوَّهاً؟

هل يُمكِن أن نُفاوض القذّافي مُفاوضة عقلانية، أن نُفاوض هذا الطاغية في حين أنّ قوّاته، فوق ذلك، تُهدِّد ليبيا الحرّة تهديداً خطيراً؟

وهنا أو هناك، وباسم واقعية عمياء، باسم هذا التذرُّع الأبدي لأنصار الإهمال، هل سيختزلون الدعم الذي أنقذنا، ويقيسوه، ويربطون أيدينا؟

الحرية في حاجةٍ إلى الزمن لكي تنتصر.

انتظرنا أربعين سنة لتدقّ ساعة النصر: وما نزال في حاجةٍ إلى قليل من الوقت.

أُناشِد أصدقاءنا الأجانب ألا يُفسِدوا، بدافع السأم، ونفاد الصبر، معركتنا من أجل ليبيا حُرّة، وفي ما وراء ذلك، من أجل كلّ الشعوب المُتعطِّشة للحريّة والعدالة».

هذا الأسلوب المُوشّى. الرصين قليلاً. هذا الأسلوب يُغاير أسلوبي، يُغايره كذلك نسقّ الكلِمات، وجسدها. ولكنّ المصلحة العليا ضرورة عاجلة.

السبت 9 نيسان/أبريل أيضاً (دموع اللواء عبد الفتّاح يونس)

قال جيل للرئيس عبد الجليل: «إذا أردتم أن نُساعدَكم، فعليكم أن تُساعدونا، بطريقةٍ ما، وهذا ما فعله أليشا إليشا بيغوفيتش، رئيس البوسنة ـ والهرسك، لحظة حصار سراييفو؛ فقد أوصلنا إلى قُوّاده، إلى خطوطه على الجبهة، إلى أرشيفاته العسكرية، وإلى بعض أسراره، ونحن ننتظر منكم الشيء نفسَه، ننتظر الوصول نفسه إلى قوّاتكم الخاصّة، إلى معسكراتكم التدريبية، إلى مراكزكم الإستراتيجية، وإلى قيادتكم العُليا. فهذا في مُنتهى الأهمية».

فيما يتصل بالقوّات الخاصّة، ومُعسكرات التدريب، وخطوط الجبهة، سوف نراها غداً، وبعد غد.

لكن فيما يتصل بالقيادة العُليا، فقد تمّ هذا هنا، على الفَور، بعد الحديث مباشرةً؛ إذ أجرى الرئيس نفسُه المُكالمة الهاتفية اللازمة.

وهكذا اجتمعنا، في بداية فترة بعد الظهر، في مكتب رجُل طويل، يرتدي لباساً عسكرياً مُموَّهاً، غُرّته صهباء تميل إلى الزُرقة، تُشبه بنيتُه بنية مُمثّل أميركي، اسمه عبد الفتّاح يونس، الضابط السابق عند القذّافي، ووزير الداخلية السابق، الذي التحق بالثورة، وعيّنه مصطفى عبد الجليل قائداً أعلى لقوّات ليبيا الحُرّة.

«حلف الناتو، ليس على ما يُرام»، رشق عبارتَه في البداية، مع هذا الجانب السكران، وهو يهزهز برأسه قائلاً:غالباً ما رأيت قادة الحرب في نهاية الليالي ساهرين يشربون القهوة في الغرف المحصَّنة التي ينبعث منها الدخان، ويتلقّون البيانات التحذيرية التي تنهال عليهم كلّ ثلاث دقائق، يتلوّون تحت ثقل التحذير، لكنّهم، مع ذلك، يُقرّرون.

«غمغمَ بصوت ما يزال ثقيلاً: قامت فرنسا بعملٍ خارق...خارِق...لكنْ الآن لم يعُد الأمر يسير على ما يُرام... منذ تركتُم حلف الناتو يأخذ زِمام المُبادرة، لم يَعُد هناك قرار، وما عُدنا نشعر بوجود إرادة، لم يعُد الوضع ماشياً، والأخبار لم تكن جيّدة هذا الصباح...»

ذكّرَني باللواء مسعود في بنشير غداةَ سقوط طلْقان...وبعمير بيرتز، وزير الدفاع الإسرائيلي، صبيحة اليوم الذي أسر الفلسطينيّون عسكريَّين من صفوة عساكره في خِضَمّ الحرب الثانية على لبنان... وبديفيجاك، خلال الساعات السوداء لحصار سراييفو حيث نمتُ كطفل، عشر دقائق ورأسي على الطاولة، وبلّلتُ بِلُعابي ما عليها من تقارير المجلس العسكري غير المُكتمِلة، واستيقظتُ مذعوراً.

وألحّ قائلاً، كما لو أنّه، هو أيضاً، قَيد الاستيقاظ، ويشقُّ عليه أن يُجمِّع أفكاره: «حلف الناتو بطيء التحرُّك... نُعطيه الإحداثيات... لكنّه يجلس فوقها... يجلِس بهدوء تامّ... وحين يُقرِّر أن يتحرّك، أفّ أففّ! فاتت الفُرصة، واختفى الهدَف...تعالوا، ستفهمون ما أعني».

قادنا، بخطى مُتثاقلة إلى الطابق الأرضي، وأدخلَنا «غُرفة المُراقبة»، غُرفة العمليّات، وهي عبارة عن قاعة واسعة مليئة بالخرائط حيث يعمل ثلاثة ضبّاط قادة من دون لباسهم الرسمي، وحيث تصل، مبدئياً، كل المعلومات القادمة من أرض المعركة وتُنقل إلى حلف الناتو، الذي يُقرِّر أن يقصِف أو لا. لست مُتأكّداً من أن أجانب آخرين دخلوا هذا المكان شديد السريّة. طلبتُ من مارك وفوجتا أن يُصوِّرا كلّ شيء فيه.

أخذ كتاباً ضخماً مُجلّداً يُشبه سجّل محاضِر مجلِس إدارة، ويفتحه، لا على التعيين، قائلاً: «خذوا مثلاً، أنتم في صفحة 5 نيسان/ أبريل؛ وترون هنا إشارة إلى هدف أرسلته مجموعاتنا، إذاً في الخامس من نيسان؛ الساعة السادسة؛ غير أنّ...»

تردّد. مضى إلى الصفحة التالية. ثُم عاد.

«... غير أنّ»، أضاف أحد الضابطين الذي جاء لنجدته، وأرانا مُلاحظة في أعلى الصفحة، «حلف الناتو لم يُجِبْنا إلا في الساعة الحادية عشرة والنصف؛ أي بعد خمس ساعات، سيّدي اللواء...»

قال اللواء: «هو ذا»، مُزايداً من دون أن يعرِف إن كان عليه أن يُبدِي سحنةً آسِفةً بسبب ساعات التأخير الخمس، أم سحنةً ظافرة لأنّ الملاحظة تجعل الحقّ معه؛ «فحلف الناتو رُبّما تعمّد السماح بفرار الهدَف حين لم يتصرَّف بطريقة أُخرى».

ثمّ توجّه إلى الكولونيل ثانيةً، وقال:

ـ هل تُعطينا مثالاً آخر؟

أخذ ورقة مُنفصِلة موضوعة على أكبر خريطة ـ تلك المفتوحة في وسط الطاولة المركزية. وأشار إليه اللواء إشارةَ سأم، وإحباط، علامة يبدو أنّه عنى بها «تابع، هذا يؤلمني جداً»، والكولونيل هو الذي يُتابع.

«هذا رتل مُكوّن من دبّابتَين، وثلاث سيّارات مُصفّحة خفيفة، وأربع شاحنات، تخرج من البريقة. هذه إحداثيات وصلت اليوم، الساعة السادسة، إلى ضابط الارتباط...»

قاطعتُه بالقول:

ـ ضابط ارتباط مَن؟

ـ ضابط ارتباط حلف الناتو.

ـ لأنّ لِحلف الناتو ضبّاطَ ارتباطٍ على الأرض؟

طبعاً. ضبّاط بريطانيون، وإيطاليون، وفرنسي واحد، قُبطان بحري، وصل معكم، ونحن نعرف أنكم رأيتموه.

ـ هذا صحيح، ولكنّي لم أكن مُتأكّداً.

ـ تلقّوا المعلومة الساعة السادسة. والساعة الآن الثالثة، وحتى الآن، ونحن نتحدّث، لم نتلقّ أيّ خبر عن أنّهم قصفوا.

قدّم لنا، مع زميله ثماني حالات من نفس النّمَط، أُخذت كلّها في الأيام الأخيرة، وهي تُشير إلى «دائرة القرار» التي يبدو أن متوسّطها يتراوح، في الواقع، بين ثلاث وعشر ساعات. فلماذا هذا الزمن؟ ومن دون الدخول في بارانويا نظرية المؤامرة التي إن لم ألاحِظها عند عبد الفتّاح يونس، فعلى الأقلّ عند مُعاونيه الذين قالوا (ماذا يُريد حلف الناتو؟ وبِمَ يلعب؟ ألا يفعل هذا عن قصد؟)، أليس من البديهي أنّ الأشياء تتِمّ بصورةٍ أفضل، حين يتحمّل كلّ بلَد مسؤوليته الكاملة عن عمليات القصف التي يقوم بها؟ بدا اللواء مُنهَكاً. فصعدنا إلى مكتبه ثانية.

قال مُزايداً، وهو يرتمي بتثاقل على أريكته، كما لو أنّ زيارة غرفة العمليات استنفدت قُواه: «وخصوصاً أنّ هناك شيئاً آخر، هو هذا».

ومن دون أن ينهض، سحب من ملّف مرتّب وراءه على رفّ، صُوراً غير واضحة، ولكنّها تُظهر هياكل دبّابات.

«وشوش قائلاً: هذه دبّاباتنا.

قاطعه جيل قائلاً: لأنّ لديكم دبّابات؟

قال بصوتٍ خفيضٍ جداً، يكاد يكون غير مسموع: طبعاً.

ضبطتُ نظرة مارك. كان قلِقاً من نوعية الصوت في التسجيل، رفعتُ كتفيَّ، لأقول إننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً، وأنّني أحسستُ بواجِب ضبطه، وأنّ المهمّ هو مضمون ما سيقول.

- عندنا ثلاثون دبابة ت - 54 وت - 55 التي قد لا تُعادل دبّابة ت - 72 التي يمتلِكها القذّافي، غير أننا أصلحناها، وهي تعمل، غير أنّ...

توقّف عن الكلام - مُتأكّداً، مرّة واحدة، من أن الكاميرا تُصوِّر.

- غير أنّها كانت، قبل يومين، ضحية ما يُسمّيه عسكريُّوكم بالنيران الصديقة. اعتباراً من الآن، احسبوا حساباتكم... أنتم الفرنسيين، في مهمة، وتمثّلون ساركوزي، إذاً قوموا بحساب الكلفة، وانقلوه...

لم يكن لديّ الوقت لأقول له إننا لا نُمثّل أحداً، ولسنا مُتأكّدين من أننا قادرون على أن ننقُل شيئاً يُذكر. كان قد تناول ورقة بيضاء، وجعلها ضمن إطار الكاميرا. رسم عليها عمودين. وشطبَهما. وعاد إليهما ثانيةً. وتوقّف عندهما كأنّ هذا يفوق قُواه.

- قلتُ هذا للوزير جوبّيه، مرّتين، على الهاتف. لكنّه لم يفعل شيئاً. فمن جهة أنتم بطيئون بطء قرار حلف الناتو حين نُشير له إلى تمركز كتائب القذّافي. ومن جهة أُخرى، يجب تسمية

الأشياء بأسمائها والقول أنتم مستعجِلون استعجاله في قصف آخر رتلٍ بائس من دبّاباتنا، مع أننا أعلنّا له عنه بوضوح. الحقيقة...

استسلم للغضب. رأسه كرأس الأسد العجوز الذي وصفه الكاتب «كيسيل»، مُستعِدا دوماً للاستيقاظ والزئير. لكنّ الصوت ظلَّ مُختفياً بغرابة.

ـ الحقيقة هي أننا لن نصل...

ـ عفواً؟

لم يعُد الصوت مخفياً وحسب. بل صار مكسوراً. يرتعش قليلاً. إنّه صوت أسدٍ عجوز لم يعُد يعرِف الزئير، وأدرك أنّه كذلك. إنّه صوت مُتبجِّح لم يعُد فاعلاً، فانهار.

قال بصوت أكثر انخفاضاً أيضاً، أقرب إلى النحيب: «لقد أنقذتم هذه المدينة، وهذا شيء حسَن. لكنْ إذا لم يُقدِّم أولئك الذين أنقذوا المدينة أنفسُهم، وبسرعة كبيرة، كلّ ما تحتاج المدينة إليه، فلا أستطيع أن أضمن الدفاع عنها. لم أعد قادراً على التحمُّل. هذا هو الواقع».

رأيتُ في عينيه، عيني العسكري، دموعاً تتكلّم، لا أستطيع أن أقول إن كانت دموع الاهتياج أم دموع العجز، أم دموع العجز والضيق، أو رُبّما دموعاً كوميدية بسبب وجود الكاميرا. ثمّ إنّه لم يعُد يفعل شيئاً. إذ تجمَّد وجهه وانغلق. أشرت إلى مارك بأن يُوقِف التصوير.

السبت 9 نيسان/أبريل، نهاية (مكان غريب عجيب من أجل اتصال هاتفي مع ساركوزي)

المرآب الذي كان خالياً عند وصولنا، يعجُّ الآن بالرجال المُسلّحين، وبسيّارات البك ـ آب التي تذهب في كلّ الاتّجاهات. حتى إنّ هناك شاحنتَين تعلوهما منصّة صواريخ مُضادة للطيّارات تتهيّأ للنصب، في حين أنّ منصة أُخرى سبَق نصْبُها، وهي تُشبه كلباً واقِفاً، ينظر صوب السماء، وثمّة أيضاً على بوابّة المدخل رشاش ثقيل، كأنّ المسلّحين يتوقّعون هجوماً.

وقفنا أما سيّاراتنا مصدومين بصورة جنرال رأى كلَّ شيء، وعرف الشاردة والواردة، وعبَر كل حلقات الجحيم بما فيها الحلقات التي رسمها هو نفسه، وعاد هنا، تحت أعيننا، إنساناً عادياً يبوح بعجزه، وهياجه، واضطرابه.

ألَحَّ أحدُنا، لكي يُعقلِن الأشياء، على حضور الكاميرا متسائلاً عمّا إذا كان الرجل قد تصنَّع هذه الملامح.

ولاحظ آخر أنّه، عندما أجابنا، لم يعرف عدد الدبابات التي دمّرتها النيران الصديقة لحلف الناتو، فهل هذا جادٌّ حقّاً؟

أمّا الثالث فشدّد على أنّ هذه الحرب هي حرب شباب، شباب مدنيّين مُتمرّدين، إذ لا نرى على الجبهة كثيرين ممّن يرتدون اللباس العسكري، فهل يكون جنرال مُحترِف شَابّ في جيش القذّافي، مصدر المعلومات الأكثر فعاليّة في واقع موازين القُوى؟

لكنْ حسناً. الحقيقة واضحة. فنحن جميعاً مصدومون بهذا المشهد غير الطبيعي. وقد احتفظنا في أعيننا، من دون أن نُصرِّح، بنظرة هذا الجُنديّ العتيق المُجرَّب الذي ينصاع، أمام أُناسٍ لا يعرفهم، لاعترافٍ باهظ الثمن بالنسبة لعسكريين من نوعه. وشعرنا جميعاً أنّ في هذا التصرُّف رسالة، رسالة بالمعنى الحقيقي، ورسالة عاجلة، حاول إيصالها بهذه الطريقة أو تلك.

اليوم هو السبت.

الساعة الثالثة بعد الظهر.

أمام هذا الموقف، ، أمام هذه المعلومة التي هي خطاب جنرال، قائد الدفاع عن بنغازي، يُصرِّح فيه أنّه لا يملك من القُدرات ما يسمح له بالاستمرار في مهمّته، وأنّ المدينة تجِد نفسها في الحالة التي كانت عليها قبل شهر، عشية تدمير الطيّارات الفرنسية لأوّل رتل دبّابات كان يدخل ضواحي بنغازي، فاستعدتُ ردّة فعلي آنئذٍ، وهنا، في هذا المرآب، في قيظ بداية فترة بعد الظهر، حاولتُ من جديد، أن أتّصل برئيس الجمهورية.

إذا حكيتُ يوماً هذا المشهد، سيقول الناس إنّه يسخر.

سوف يقولون: «ما قصّة هذا الكاتب الذي ما إن يجِد نفسَه في بنغازي، حتى يأخذ هاتفه، ويتصل بساركوزي؟»

ومع ذلك، هكذا حصلت الأمور.

ما إن شعرتُ أنني أقل تشوُّشاً، ومُستعيداً توازُني، بعد لقائي بعبد الجليل في بيت الاستعمار الجديد بطرازه الإيطالي، حتى تصرّفت بالطريقة نفسها.

والذي أثار دهشتي من جديد، كما في المرّة الأخرى، أنني كنتُ محظوظاً حين وجدتُ أمانة سرّ الرئاسة في دوامٍ مُستمِرّ، وأمّنت لي الاتصال فوراً.

- السيّد الرئيس... أنا في بنغازي...

ـ أعرِف، هل كلُّ شيء على ما يُرام؟

ـ تقريباً نعم. أنا حائر في هذا الاتصال. لكنّ عندي خبرَين. خبرٌ مُسلٍّ، وخبر هامّ.

ـ اِبدأ بالخبر الهام.

ـ لا. سأبدأ بالمُسلّي. وسيكون قصيراً. قبل قليل، وُلِد طفل في طبرق، سمّاه أهلُه باسمك.

ـ عفواً؟

ـ سمّوه «نيكولا ساركوزي».

ـ اسم عائلته: لا أعرف، لكنّ اسمه الأول هو «نيكولا ساركوزي».

ـ هذا غير معقول!

ـ ليس بالضرورة. هذا يُشبه ما حدث في الستينيات، لحظة صدور كتاب رونيه ديمون، حين أطلقتْ العائلات السنغالية أو عائلات ساحل العاج، على جيلٍ كاملٍ من الأطفال اسم «بدأت أفريقيا السوداء بداية سيّئة».

ـ طيّب. وما الخبر الهامّ؟

لا أستطيع أن أجزِم بأنّ قصّتي قد سلّته أو راقت له، أو أثّرت فيه ـ أم أنّه لم يُصدّقها تماماً. قال، وفي صوته بعضٌ من الضيق الواخز: هاتِ، ما الخبر الآخر؟

ـ رأيتُ توّاً اللواء المُكلّف بالدفاع عن بنغازي، وأعتقد أننا إذا لم نُقدِّم له المُساعدة...

ـ لكنّنا نُساعِده!

ـ في الظاهر، لا نُساعده كفاية.

ـ نقوم بما ينبغي القيام به. والآن عليهم أن يُكملوا العمل.

ـ المشكلة كلّها هنا. يبدو، كما يقول على كلّ حال، بأنّه لا يملك وسائل الدفاع عن المدينة.

ـ لكنْ، مَن يكون هذا اللواء؟

ـ يونس... عبد الفتّاح يونس...

ـ عرفته.

بدا الرئيس مُرتاباً. فألححتُ.

«قال لي إننا إذا لم نُساعده، فسوف يتقدّم القذّافي، ويستعيد ما فقده من الأرض، ولن يكون لكلّ ما فعلته فرنسا أيّة فائدة.

ـ يجب النظر في الأمر... لستُ أدري.

بدا مُستعجِلاً ليُنهي المُكالَمَة. رُبّما لأنّه لم يفهم ما كنتُ أريد قولَه. ورُبّما لأنّه وجَد أنّ فرنسا قامت بما يلزم. أو رُبّما لأنّه، بكل بساطة، مشغول. فحاولت، تحت شكٍّ نظراتِ جيل والآخرين، المُقامرة بكلّ شيء لأربح كلّ شيء.

ـ لحظة، سأجعله يأتي إلى باريس.

ـ عفواً؟

ـ نعم. سأقترح عليه بأن ندعوه إلى باريس.

ـ وماذا تفعل إذ تدعوه؟

ـ آتي به إليك.

ساد صمتٌ على الطرف الآخر من الخطّ. يجب أن أعترف بأنني مُنزعِج من فكرتي، لأنني حتى الآن لم أقترِح أيَّ شيء على يونس. هل أغلق الرئيس الخطّ؟ لا، ما يزال على الخطّ. وهنا صار الصوت واضحاً (فلا بُدّ أن المنطقة تملك أجهزة اتصال عالية الجودة، لأنّ نوعية الاتصال أفضل بما لا يُقاس من نوعيّتها في تيبستي قبل شهر)، فأجابني:

ـ لِمَ لا...

فجعلتُه يُردّد:

ـ هل ستكون مُستعِدّاً لاستقباله؟

ـ نعم. هذه فكرة، في الواقع. فقلت بالتالي:

لِمَ لا، يجب الاتصال بي من باريس، وترتيب هذا الأمر مع ليفيت.

وأغلق الخطّ.

هل فهِم تماماً ما طلبتُه منه؟

وهل هو جاهز بالفعل لهذا اللقاء الجديد؟

هل في وُسعنا الآن أن نعود ونرى يونس، ونتحمّل مسؤولية جعلِه يُغادر بنغازي ـ وخصوصاً أنني أعرف خطأ أو صواباً أنّه لن يترك بنغازي إلا إذا كان مُتأكّداً من أنّه سوف يرى ساركوزي وليس أيّ شخصٍ آخر؟

لم يعد أمامي من خيار.

صعد علي زيدان إلى الطوابق العُليا ليُخبِر صاحب الشأن.

عاد بعد عشر دقائق بردّة فعله: يقبل طبعاً، بشرط أن يُوافق مصطفى عبد الجليل (المشكلة الوحيدة، كما قال، هي أنّه يجب أن يُسافر غداً إلى روما ويعود في طيارة عسكرية إيطالية، لذا سيقضي الليل هناك، وفي هذه الحال، يكفي أن ننزل، ونحن في طريقنا إلى باريس، في مطار فيوميتشينو حيث سيكون في انتظارنا).

اتّصل بعبد الجليل ليضمن موافقتَه - ومن جديد أعطى موافقته.

اتصلتُ بِليفيت الذي لم يكن على عِلم بشيء (وليس هذا دليل خير) فبدا مُتحفّظاً على فكرة أن يلتقي الرئيس وحدَه باللواء (وهذا ما أقلقني بعض الشيء).

لكن لم يعُد في وسعنا أن نفعل شيئاً.

فمهما حصل، ستكون هذه الزيارة إلى فرنسا بادرة طيبة.

لم يبق إلا أن أرجو أن يتذكّر الرئيس وعدَه - وأن يكون الاستقبال مُشرِّفاً.

الأحد 10 نيسان/أبريل (رئيس الشباب)

«بدأتُ هذه الثورة وعلى كتِفي حاسوب، وبعد شهر، صار في مكانه بندقية». الرجُل الذي يُعبِّر بهذه الطريقة يُدعى مصطفى الساقزلي. كان، في حياته المدنية، رئيس مشروع لبيع الشرائح الإلكترونية، وقد صار بعد عدّة أسابيع قائدَ جيش الشباب، قائد هؤلاء المُحاربين الفِتيان، غير النظاميّين، الذين، من جهة أُخرى، ليسوا جميعهم شباباً (فبعضهم - ممّن رأيتهم، عند وصولي، في التدريب، في الأرض غير واضحة المعالِم وأنا واقف بعيداً عن الأسلاك الشائكة - في الأربعين، وفي الخمسين، بل أكثر من ذلك)، لكنّهم ليسوا غير مُنظّمين إلى الدرجة التي نُريد أن نعتقد بها (يتكون كلّ عمله، كما شرح لنا، بالتحديد من محاولة أن يجعل من هؤلاء المُحاربين جيشاً فعلياً).

نحن في معسكر 17 شباط/ فبراير الذي أُطلِقَت عليه هذه التسمية بعدما كان، قبل الحرب، واحداً من سجون النظام الذي بنى أقسامَه. عمره أربعون عاماً. نحيل. جميل الوجه. له سكسوكة. يحمل شالاً بُمربّعات. يحمل رتبة عريف (v) على الكتِفين. تظهر عليه ملامح الذكاء والفضول. نظرتُه مُغريَة. صوته فاتن. إنّه بطريقة ما الأنا الآخر المدني لعبد اللطيف يونس- ويُشكّل للمقاومة المدنية مايُشكّله الآخر للمقاومة العسكرية.

قُمنا معه بجولة سريعة حول أمكنة التدريب. زُرنا مواقع الرمي. ولمّا لم يكن لديَّ مُتّسع من الوقت، كما حصل معي، قبل قليل، في مُعسكر القوّات الخاصّة، لم يتوفّر لي الوقت الذي

يُمكّنني من تدوين أية ملاحظة، وهو تحت رقابة اللواء يونس وما تبقّى من الجيش النظامي في بنغازي، وحقول الرمل حيث تُدرَّب الرجال على الجري، والقفز، والتسلّق على حافّة طويلة، والصعود على سلّم من الحبال في وقتٍ قياسي - التدريبات التقليدية لكلّ وحدات النخبة في العالم. قضى الوقت معنا في تفقُّد مائتي رجُل، مصفوفين في أربعة أنساق، سيُشكّلون مُستقبلاً وحدة مُقاتِلة كانوا يُعلِّمونها توّاً، تحت شمسٍ حارقة، كيفية تنفيذ التحيّة، والنظام المُنضم، وهتاف «ليبيا حُرّة»، وتقديم السلاح (الذي لم يكن في الواقع إلا عِصيّاً). وكانت دهشتنا كبيرة إذ رأينا، مرّة أخرى، أن الكتيبة التي يُفتَرض أنها كتيبة شبيبة تضمُّ، بالإضافة إلى الشباب، عدداً لا بأس به من «المُسنّين»: فيهم من تجاوز الأربعين، وأحياناً الخمسيني والستيني، وفيهم مُثقّفون، وقادمون من الأعمال الحُرّة، شعرهم أبيض، يضعون على رؤوسهم عمائم مُزركشة، حركاتهم غير مضبوطة، ووجوههم مليئة بالنَّمَش أو غير مُعتادة على الشمس - إنّه الخليط النموذجي، مُتعدّد الأشكال والألوان، الذي يُميِّز كل الجيوش الشعبية، وكلّ جيوش التحرير التي استطعتُ أن أراها في حياتي، وفي هذه الكتيبة أربعة أو خمسة سلفيّين مُحتمَلين تدلّ عليهم لِحاهم القصيرة، وجّهوا لي التحية من دون تحفُّظ. إذاً قُمنا بهذه الجولة. لكنّنا الآن في البرّاكة الخشبية التي تُستخدَم مكتباً لقائد القاعدة. أمّا ما يهمُّني أكثر من أيِّ شخصٍ آخر فهو مصطفى الساقزلي.

هيئته الذكيّة، كما قُلت. طريقته في شرح أنّ هذه الثورة بدأتْ، كما في تونس، وكما في مصر، عبْر الإنترنت. وجانبه المباشر. طريقته غير المُعتادة في الإجابة بدقّة على الأسئلة المُحدّدة التي نطرحها عليه - أكثر دقّةً بكثير من طريقة اللواء يونس يوم أمس.

بدأ بالقول إنّ ألفَي رجُل دُرِّبوا هنا. ثُلثُهم أنهوا تدريبهم وعُيِّنوا في الدفاع عن بنغازي، وثلثُهم في المواقع المتقدِّمة؛ وخصوصاً في اجدابيا. والثلث الأخير، وهو ثلث صغير، رأيتم عناصره قبل قليل، وهم ما يزالون هنا، للتدريب...

كان كأنّه يبحث في ذهنه عن كلِماتٍ يقولها. لكن يبدو لي أنّ هذا شيءٌ ما، يعرف كيف يصِل إليه.

- حذارِ. عليكم أن تعرفوا أيضاً أنّ هناك عدداً كبيراً من المتطوّعين الذين يقدِّمون أنفسهم، لكننا لا نستطيع استقبالهم. أحياناً لأننا لا نملك بدلاتٍ عسكرية - غير أنّ هذا ليس هو الأخطر. فأحيانا لا نجِد سلاحاً نُوزِّعه عليهم - وهذا هو الأكثر إزعاجاً...

واستشار بالنظر ذاك الذي قدّمه لي، في بداية الحديث، بوصفه الشخص رقم واحد الحقيقي في القاعدة، واسمه فوزي بو قاطِف، وهو مهندس في صناعة البترول يبدو أن منصور يعرفه، ورُبّما ظلّ منزوياً إمّا لأنّه لا يتكلّم الإنكليزية جيّداً، وإمّا لسببٍ آخر، فالرجل لم يعترِض على أي شيء لاحق من حديثنا.

ـ مشكلة الأسلحة مُزعجة للغاية. أعرِف ما يُقال في أوروبا عن أنّ التحالُف يُنفِّذ، في الجوّ، بشكل كامل ما يجب أن يفعل، وأننا، نحن على الأرض، لا نلحق به. ولكن كيف تُريدون أن نلحق به ونحن نفتقِر إلى كلّ شيء، وليس لدينا حتى ما نُجهِّز به المُقاتلين...؟

ألقى نظرةً سريعة على حاسوبه المفتوح، على لوحة أرقام.

ـ ... مائتان واثنا عشر شاباً، هذا الصباح فقط، حضروا، وكان علينا أن نُعيدهم إلى بيوتهم؟ ومع هذا سيكون هذا بسيطاً...

أخرج ربطة أوراق من مُصنَّف بلاستيك لاحظتُ منذ البداية أنّه مُعلَّق تحت الحاسوب كأنما ليُثبِّته. ووجّه نظرة جديدة إلى الشخص رقم واحد الذي ظلّ غير قابلٍ للاختراق.

استأنف يقول، والأوراق في يده، وكأنّه يتردّد في أن يُعطيني إيّاها: أعرف أنك تتحدّث مع الرئيس ساركوزي، ونحن جميعاً نعرف الدور الذي قُمتَ به، ولن ينساه أحدٌ هنا. فهل يُمكِن أن تحمل هذه الأوراق؟ وتُسلِّمها له؟ كلّ شيء فيها.

سلّمني الأوراق. أربع صفحات مكتوبة باللغة العربية.

ـ هذه قائمة أسلحة... قائمة صغيرة... لكنّنا في حاجة ماسّة إليها... وهناك أيضاً خارطة طريق مشفوعة بمشروع استراتيجي... انظر.

استعاد الأوراق، ووضَعها على الطاولة بيننا، وبدأ يقرأ، بطريقة المُربّي اللامع، مُشدِّداً كلّ مرّة بإصبعه على عناوين الفصول.

ـ مائة مُصفّحة 4×4... من عيار12,5 ومن عيار 514,... ومواد نقل... مائتا جهاز هاتف تلكي ـ ولكي، بالإضافة إلى قاعدتَين، أو ثلاث إنْ أمكن... وأقل ما يُمكِن مائة بك ـ آب، وبين سبعمائة وثمانمائة RPG7... وألف كلاشنكوف... وأربع، وإن أمكن خمس قاذفات صواريخ ميلان...».

نظر إليّ كأنّما ليقول لي: «وهكذا دواليك، أنت ترى الطراز». وختم، وهو يطوي الأوراق، ويمدُّها إليَّ من جديد.

ـ هل تعتقد أنّ ذلك مُمكِن؟ أضع هذا بين يدَيك.

التفتّ، بدوري، إلى جيل، ثُمَّ إلى فوجتا الذي أوقف الكاميرا، لكنّي أشرت له بأن يستمِرّ في التصوير.

ـ ماذا تقصِد بكلمة مُمكِن؟ فأنا لا أملك أية كفاءة في معرفة هذه المواد...

فقطب تقطيباً معناه: أوه، الكفاءات! لم أكن أملِك أنا أيضاً، أيّة كفاءات!».

فألححتُ بالقول:

ـ أنا كاتب. ولستُ دبلوماسياً. كما أنني على الأخصّ غير عسكري. وهذا الحديث يتجاوز قدراتي. لكنّي سأكلّف أحداً بترجمة الملفّ. وسأسلّمه لرئيس الجمهورية. نعم، أستطيع أن أقوم بهذا.

أجابني الساقزلي بابتسامة مُبتهِجة: هو ذا المطلوب.نحن لا نطلب منك أكثر من ذلك. ثُمّ إنّ هناك شيئاً آخر...

ونظر إلى رئيسه من جديد.

ـ الخطّة.

ـ الخطّة؟

ـ عندي خطّة، نعم. سِريّة. لكنّها سوف تُغيِّر مجرى هذه المعركة إن تحمَّلتُم، أنتم الفرنسيين، تَبِعاتها.

أخرج من مُصنَّف آخر، خارطة ليبيا ومدَّها على الطاولة ـ وقام. الكاميرا ما تزال تُصوِّر.

ـ هل تَرون هذه المنطقة؟

يُبيِّن بإصبعه المنطقة الساحلية ـ التي نُحارِب حولها منذ شهر: اجدابيا، والبريقة، وسِرت. ويجول بإصبعه في عملية ذهاب وإياب لا تتوقّف.

ـ يوم نحن... ويوم هم... لا معنى لهذا. اقرؤوا مُذكرات رومل. كلّ الناس يعرفون أنّ حروب الصحراء هذه، لا أحد أبداً ينتصِر فيها حقاً، ولا أحد ينهزم حقاً. وبالمُقابل، انظروا هنا... وقام بالإصبع نفسه بحركة تحليق فوق ليبيا، وبالهبوط في مركز الخارطة، جنوب البلاد.

ـ هنا، ماذا تقرؤون؟

ـ قلتُ بعد أن رفع إصبعه: الكفرة.

ـ صاح بهيئة المُنتصِر، تماماً، هي ذي.

الكفرة! لا داعي لأقول لكم، أنتم الفرنسيين، ما ذا تعني لكم الكفرة!

ـ بالفعل... أوّل انتصار للفرنسيين الأحرار... الثأر للشرف والشجاعة...

ـ انظروا الآن هنا...

ومن جديد انهال الإصبع على الخارطة، ووقع على نقطة أُخرى، أبعد باتجاه الشمال.

ـ أنتم في مارادا. ومارادا هي منطقة آبار البترول. هل تُتابعوني؟

الكاميرا مُستمرّة في التصوير. وكان يعلم بذلك. فذهب الإصبع في الاتجاه الآخر، على الساحل.

ـ كلّ كتائب القذّافي هنا. بينما هنا...

ومن جديد أيضاً عاد إلى مركز الخارطة. كأنّه مُشعوِذ يقوم بحركات خِفّة.

ـ هنا، في مارادا لا يوجد أحد. هل تسمعوني؟ هذا الغبي جمّع كلّ قوّاته على الساحل، وحوالي سرت. وفي هذه المنطقة الإستراتيجية جداً، لا يوجد أحد.

وتباهى بمظهر الفوقيّة والوضوح.

ـ هذه هي خطّتي السريّة. نُرسِل وحدة من النُخبة إلى الأغاليا، بين البريقة وراس لانوف. ومن هناك نتحرّك باتجاه مارادا. ثُم يُحتمَل ننقضُّ على الزنتان، وعلى مصراطة التي نُحرِّرها. لكنْ على الخصوص، على الخصوص نبسط سيطرتنا على آبار النفط في المنطقة. ما رأيكم بذلك؟ هذا الهجوم المُباغِت هو الشيء الوحيد الذي لا يتوقّعه القذّافي.

ـ مرّة أخرى، لا أعرف أي شيءٍ من كلّ هذا. لكنني أحِبّ فكرة الهجوم المُباغت. يبدو لي أن لنا مصلحة دائمة في...

قاطعني، بينما كان انفعاله يتعاظم، وكأنّ التكلُّم معي يُعزِّز وعيه بألمعيّته الإستراتيجية.

ـ لنا أنصارُنا في مارادا. اتصلنا بهم. وهم معنا 100٪. الخطّة جاهزة. نحن فقط بحاجة إلى المُساعدة.

ـ أفهم ذلك.

ـ هل ترون الصفقة؟

ـ آه، الصفقة، لا، قُل لي.

ـ تُساعدوننا. بعض المروحيّات المُقاتلة تكفي. وبعض الوحدات الخاصّة على الأرض. فنسيطر معاً على آبار النفط، وأنا أجلِب لكم على طبَقٍ رمز الكفرة.

وضع في جيبي الأوراق الأربع المكتوبة باللغة العربية حيث توجد قائمة الأسلحة التي يحتاجها. وردّد عدّة مرّات وهو في حال من الاهتياج المُتزايد: «now, we are partners: الآن، نحن شُركاء». وشدّد على هذا بالقول: «فرنسا بالنسبة لنا غير إيطاليا. فبيننا وبين فرنسا صفحة بيضاء». ومن ثَمّ، وقد بدا بهيئة المُفاوِض الذي يعتبر أنّه قال كلّ ما عنده، وأنّ علينا الآن أن نقبل عرضَه أم لا، أغلق حاسوبه، ونهض، وقادنا بخطى مُتثاقلة، لنزور أقسام المُعسكر التي لم نرَها بعد.

مُراجعة جديدة تفصيلية، في طراوة آخِر فترة بعد الظهر، على أرض مُعسكر تدريب آخَر حيث يتمرّن المُجنَّدون على الرمي، في سُحبٍ من الغبار والدخان، رمياً استعراضياً بقدر ما هو خُلّبي.

مررنا بالمكان الذي أُوقِف فيه حوالى ثلاثين سجيناً، قبل تسليمهم إلى الصليب الأحمر، إذ تمَّ أسرُهم بين البريقة وراس لانوف، وأكّد بأنّهم عومِلوا، كما تقتضي قوانين الحرب، بعدالة. «أليس هنا المعنى المزدوج للحرب العادلة، بحسب رأي فلاسفتكم المسيحيين الذين فكّروا في هذا المفهوم؟» إذاً قائد الشباب يعرِف فلاسفة مسيحيّين...

توقّف لبعض الوقت كي يتحدّث بالهاتف مع أحد أعضاء المجلس الوطني الانتقالي، قد يكون علي العيساوي، في موضوع الخطأ غير المفهوم الذي ارتكبه حلف الناتو منذ ثلاثة أيام، والذي ذكره لنا اللواء يونس. قال وقد استشاط غضباً: كيف أمكن أن يحصل مثل هذا الخطأ؟ ترجم لنا منصور بصوتٍ مُنخفض. ونظراً لأننا أعلمنا الحلف بحركتنا، أليس علينا أن نتصوّر افتراضَ خطأٍ مقصود؟ افتراضَ انتهاك؟ خيانة؟ وبدا أنّه يذكر لِمُحاوِره غير المرئي، كما يذكر لنفسه أيضاً، كلَّ الشروح التي يُمكن تصوُّرها. كلّها.

وفي الحديث تكرَّر اسم شخص عدّة مرّات، مع تصاعد نبرة الغضب المُخيف في كلّ مرّة، هو يوسف منقوش.

علّق بالقول لحظة توقُّف الحديث حيث كان ينتظر أن يتّصل به الآخر: هذا أحد أفضل قادتنا. عمُره ستُّون عاماً. كان قائد الوحدة الوحيدة التي حاربت في تشاد ولم تتكبّد أيّة خسائر. وهو من عائلة كبيرة ونبيلة...

قاطعه منصور وأبلغني خِفيَةً: هل تتذكّر تلك الصبيّة الأنيقة جداً، التي تعرِف كتُبك، والتي دعتْك لتتحدّث أمس مساءً، في القاعة الكبرى في تيبستي؟ هي من نفس عائلة منقوش...

ـ نعم، كان لقاء جميلاً،لكنني لم أتمكّن من أن أتحدّث مع نساء المدينة ـ اللواتي يُعبِّرن بحر يضعن مناديل لكنّهنَّ غير مُحجّبات، يأملن بليبيا علمانية، ويضمان حقوق المرأة...

وأردف الساقزلي قائلاً: كان يتقدّم رتل الدبابات مسافة أربعين كيلو متراً، لعرّض نله للأسر، والتعذيب، التعذيب الوحشي، هل تفهمون؟ ولهذا السبب أيضاً، أتمنّى أن يُعمّ المجلس في فتح تحقيق عن سبب خطأ الحلف، وكيفية وقوعه.

وددتُ أن أسأله عن العلاقة بين منقوش والدبّابات، بين أسْر منقوش، وتدمير الدبّابات التي قصَفها الحلف عن طريق الخطأ. لكنّه كان قد تابع يقول: «أريتُكم سجننا قبل قليل حسَناً، هنا أيضاً الاختلاف بيننا وبين كتائب القذّافي كبير جداً! فنحن نُسلِّم سُجناء للصليب الأحمر، بينما هم، عندما أوقفوا منقوش، ومعه الكولونيل ناصر من طبرق عرضوهما على التلفزيون وأجبروهما على مُهاجمة الثورة بعُنف؛ ناصر انصاع لهم، وقال إن التحق بنا لأننا أخذنا أطفالَه رهائن؛ لكنّ منقوش لم يرضخ، ولم يستسلِم، فهل تتخيّلون الصلابة التي لا بُدّ أنّه أبداها من أجل هذا؟

لم أجِد إلى الآن من الوقت ما يسمح لي بشرح صلابة منقوش، وبربرية جلاّديه، وسرّ لفّ ودوَران حلف الناتو الذي لا يُمكن اختراقه، فقد صرنا في السيارة نُغادر المنطقة ـ مثلما طلبوا منّا،لكنّي فكّرتُ بأنه، إذ انصرف كليّاً إلى خُطّتِه، إلى «صفقته»، وإلى انفعاله، قد نسِيَ قصّة الحلف ـ نُغادر باتجاه الخطوط الأولى للدفاع عن المدينة، أي حوالى أربعين كيلو متراً إلى الجنوب، وأرجو أن نرى خطّ الدفاع عن اجدابيا.

أرانا الساقزلي الدبّابات المُدمّرة بهياكلها الصّدئة. وآثار الديدان على الأرض قبل قصف الدبّابات، التي تبدو محفورةً في الوحل اليابس. فثمّة في قلب الصحراء، حيث توقّفنا، معاقل مُربّعة. وجدنا فيها كتيبة من الشُّبان تخرج من معقله، فهو مُدرِّبُها، ويبدو أنّهم جميعاً شاركوا بكلّ شيء في هذه العِزّة الرهيبة التي صنعها لهم بوضعهم هنا، في المكان الذي سيُوقِفون منه زحف الدبّابات القادمة في ما لو عادت.

وجوههم نضِرة. وهذه الأيادي التي تبغي القتْل وما فعلت حتى هذه اللحظة غير اللّعِب، والعمل، والمُداعبة. هذه النظرات التي تتدرّب على الحزم، وتتحدّى عدوّاً مُتخيَّلاً، لكننا نشعر أحياناً أنها تُكافِح أصلاً ضدّ القلَق. أما الفتى رامي الرشّاش الذي نزل ليُحيِّينا من بُرج آخِر دبّابةٍ بقيت في الكتيبة، فكتِفاه غريبان، غير مُتساوِيَين، ليسا مفتولَين تماماً ـ اللّهُمّ إن لم يكن معطفه القصير قد أعطاه شكل هذه الحدبة الخفيفة.

ظهرت طيّارة تُنفِّذ مُناوراتٍ خفيّة ـ ووراءها خطّ دُخان أبيض يتلبّد في السماء، متكوِّراً حول نفسه. فشرع رامي الرشّاش الفتى يُشير، كالطفل، إلى آثار الدخان صارخاً: «طيّارة، طيّارة». وحينئذٍ ثبّتوا عيونهم، جميعاً هو ورفاقه، في السماء ـ مُحاوِلين، وقد علّقوا حركاتهم، أن يفكوّا رمز رسالة الطيّارة. قال جُندي الدبّابة: هذه طيارة للحلف. فقال آخر: لا، هذه للطاغية. قال صفّ ضابط خرج فجأة من خيمته: جُندي الدبّابة على حقّ، إذ لم يعُد عند الطاغية طيّارات. فتدخّل رابعٌ ـ ليحكم بينهما بالقول: طبعاً عنده طيّارات أكثر تطّوراً تأتي، كما سوف يشرح لنا الساقزلي لاحقاً، من طرابلس: فقد زوّده الجزائريون توّاً بسِربٍ منها. غير أن الساقزلي حسم المسألة وكأنّ هذه الألعاب كانت تُتعِبُه.

«هيّا، انتهينا، نحن ذاهبون؛ علينا أن نعود إلى بنغازي، وسيتأخّر الوقت علينا إن أردنا أن نُسافر هذا المساء إلى اجدابيا».

في السيارة، قال من دون تفكير، وفي نظرته بريق أسود غريب:

«هل تريدون أن نعقد ميثاقاً؟ أقودكم غداً إلى خطوط الجبهة في اجدابيا. وأنتم، بالمُقابل، تقودوني إلى رئيسكم كي أعرض له خُطّتي».

وأخيراً!

الاثنين 11 نيسان/أبريل (تقلّب في بنغازي)

مشهد سريالي في تيبستي هذا الصباح.

أُعلِنَ عن وصول بعثة الاتحاد الإفريقي التي كانت أمس في طرابلس، والتي أتت إلى هنا لتقترح على المجلس الوطني الانتقالي خطّة للخروج من الأزمة، زاعِمةً أنّه «مُتوازن»، لكنّها اتفقت، في الواقع، مع «الأخ القائد».

من المتوقّع أن يصل المالي آمادو توماني توريه، والموريتاني محمد وِلْد عبد العزيز، ومن الكونغو داني سوسُّو نغوسُّو، ووزير خارجية أوغندة، وكذلك، من حيث المبدأ، وزير خارجية جنوب إفريقيا جاكوب زوما ـ هذا الذي ذكر لي ساركوزي كثيراً من إيجابياته: إلى هذا الحدّ أو ذاك، يبدون جميعاً في صفّ القذّافي، فقد سمّمهم، واشتراهم (هذا ما قاله لي باتريك ميل هذا الصباح، من باريس، وللأسف، لديّ شعور بأنه على حقّ).

بدأ الجمهور، من الساعة التاسعة، يتجمّع أمام الفندق. وفي العاشرة، صار العدد عشرة آلاف، ورُبّما أكثر من المتظاهرين المُغتاظين من حرارة الشمس، والمُهتاجين من طول الانتظار، والغاضبين أشدّ الغضب من موكب السيّارات الرسمية المُستعدّة لشقّ صفوفهم المُتراصّة كي

تصل إلى باحة المدخل، وتُنزِل رُكّابها المُرفَّهين، وتوسِّع الشقّ أمامها لتُتيح لها الدخول، بين الزحمة الناتجة عن المتظاهرين أنفسهم الذين استطاعوا الوصول إلى مظلّة مدخل الفندق.

كان المتظاهرون يهتفون شعارات مُضادّة للقذّافي. ويدفعون شيئاً فشيئاً، وبقوّة، الحواجز الموضوعة على مسافة 100 متر، عند أسفل السُّلّم، كي تتسَّع الجمهور الضخم. وحين لم يعودوا قادرين على دفعها أكثر من ذلك، حاولوا القفز من فوقها، وعندما تحرّكت قوى حفظ النظام كي تُرجعهم إلى الوراء، راحوا يهتفون هتافات تتهّمهم بالخيانة، ويسخرون من السلطات، ويقذفون بالشتائم التي بدت لي، كما سمعتها، أنّها مُعادية لأفريقيا، وعنصرية. وفي لحظة مُعيّنة، عند وصول السيّارة الثالثة الساعة العاشرة والنصف، وهي سيّارة تُمثِّل مالي، راودني شعور بأن الأمور قد تسوء فعلاً، فهل من العدل أن يسود هذا الجو الصاخب الذي أثارني أنا أيضاً، مما دفعني إلى أن أستعير مُكبِّر صوت من أحد قاذفِي الشتائم، وسحبت منصور من يده، وصعدت على سطح إحدى الشاحنات، وهنا، لستُ أدري ما الذي أغضبني، فاندفعتُ، ومنصور يُترجِم، أُلقي خطاباً غريباً، مُلهِباً وعقلانياً في الوقت نفسه، وكنت في ذاك المساء ما أزال أجهل إن كان خطابي قادراً حقّاً على تهدئة الخواطر، أم إن كان، على العكس، يصبّ الزيت على نار الاهتياج السائد.

«أنا فرنسي»، قلت هذا أمام الأنظار المُندهشة للجمهور الذي من الواضح أنّ ليس لديه أيّة فكرة عن هذا الأرعن الذي يتوجّه إليه، وأمام المبعوث الأميركي الشاب كريس ستيفنز، الذي أخبرني لاحقاً بأنّه كان موجوداً، وكان أكثر اندهاشاً أيضاً وهو يُراقب المشهد من نافذة غرفته في الفندق.«أنا فرنسي، صديق ليبيا، أُناشدكم أن تتوقّفوا. العالَم يُشاهدكم. يُتابعكم، وهو مُعجب بكم. وحين تُعطون عن حركتكم صورة وحشية قاسية، عنيفة ـ تفقدون ميزة ثورتكم المحترمة. قدّموا للعالَم الصورة المُعاكسة، واحتجُّوا بهدوء، وبضبط الأعصاب، وعاملوا باحترام هؤلاء الناس غير الشرفاء، الذين اشتراهم القذّافي، ويُريدون بيعكم معهم، وسوف ترون كم سيعود عليكم هذا النُّضج، وسموّ النظرة، وهذه العظمة، بالاحترام المُضاعَف». ومن بعد، نزلت عن سطح شاحنتي، وعُدتُ إلى الفندق، مسروراً بالأحرى لحظة انتهائي، من أدائي المتواضع، وإن قلت لنفسي، بسرعة، قد يكون إخراجي لقذائف المثقف الضخمة، وإلقائي خطاباً في جمهور من أبناء بنغازي الملتحمين، في غير محلّه ـ فحاولت أن أستدرك ذلك في التصريح لأجهزة الإعلام، الموجودة في بهو لفندق التي كانت تنتظر نهاية

النقاشات بين المُفوَّضين الأفارقة الأربعة والمجلس الوطني الانتقالي، بأفكار أكثر ترابُطاً: «كيف وصلتْ أفريقيا إلى هذا الموقف؟ وهل يجب أن تُداس مُثل التحرُّر المعهودة كي يتمكّن واحد مُبتذَل كالقذّافي من أن يأخذها كرهائن؟ هيَّا هُبَّ يا فانون، هُبَّ يا سنغور، فقد صارت مُثُل التحرُّر بائسة! نداء إلى المستشارين الكِبار الذين عليهم أن يعرفوا، في النهاية، بأنّ هنا، على هذه الأرض الإفريقية، معركة دبلوماسية وسياسية أخرى، يجب خَوضُها ـ وبعُجالة».

فسارتر ما يزال، بعد ثلاثين سنة من موته، يحمل برميله كصليب. ولم يبق لي إلا أن أرجو ـ وأطلب من مارك ـ ألا يكون برميلي ـ الشاحنة صورةَ ذاتي التي سوف تبقى من هذه السَّفرة.

الاثنين 11 نيسان/أبريل، تتمَّة (مع مُقاتلي اجدابيا)

هذا هو المكان الذي نُحارب فيه منذ أسبوعين. يوم لِصالح الثوّار. واليوم الذي بعده لصالح أنصار القذّافي. والمعركة كلّها من أجل السيطرة على عدّة كيلومترات من القُمامة والغُبار التي تفصل الباب الغربي للمدينة (الذي يُسيطر عليه أنصار القذّافي)، والباب الشرقي (حيث المواقع المُتقدِّمة للثوّار).

قال لنا الساقزلي بينما كنّا ننزل من السيّارات: «هذا ما كنتُ أشرحه لكم أمس. انتهت هذه اللعبة الصغيرة... هذه الحرب على طريقة رومل بلا رومل... حين استلمتُ قيادة الشباب، اتّخذتُ قراراً...»

وصل أحدُهم راكضاً، إنّه القائد الشابّ بلال، الذي يضع على رأسه قُبّعةً حمراء غريبة، تُشبه قلنسوة الحريّة عند الجمهوريّين، والذي يشرح، مقطوعَ النفَس، أنّ رتلاً من آليات القذّافي رُصِد هنا، على يسارنا، على مسافة عدّة كيلومترات، وأنّه جاء شخصياً لِيُبلِّغ ضابط الارتباط المتمرِّد الذي هو نفسه مُرتبِط مع ضابط الارتباط الإيطالي الذي يضمن الاتصال مع حلف الناتو، لكن مضت ساعتان على الخبر، ولم يحدث شيء...

«دقيقة»، قال لنا الساقزلي، بغضبٍ بارد، مكظوم ـ مُصدِراً من جهازه تلكي ـ وَلْكي أوّلاً، ثُمَّ بالهاتف، سلسلة من الأوامر المُقتضَبة ترجمها لي منصور.

من جهاز التلكي ـ ولْكي، يُضاعف المواقع طالباً أن تصعد إلى الخطّ الأوّل وحدة جديدة من الشباب الذين التقينا بهم قبل دخول المدينة ينصبون خيامهم ليكونوا في وضع رديف.

وفي الهاتف، يتصل بغرفة العمليّات في بنغازي ويطلب استخدام كل «الإجراءات العاجلة» وأن يتمّ إعلام حلف الناتو دون تأخير بحضور الآليّات.

يجب أن يتوقّفوا عن التعامُل معنا على أننا أغبياء، قال هذا وهو ينهي كلامه، كأنّه يريد أن يُسوِّغ لنفسه ما يقول. لقد دُمِّرت أصلاً آخِر الدبّابات التي كانت في حوزتنا. أتمنّى من كلّ قلبي أن يكون تدميرُها ناتجاً عن خطأ. أنا لا أفهم، كما قلتُ لكم أمس، كيف يُمكِن أن يحدث خطأ كهذا، لكن لِنُسلِّم بالأمر في النهاية. وهنا بالمُقابل، الأمر واضح تماماً. نُحدّد لهم رتلاً عدوّاً لا شكّ فيه، ويجب أن تكون طيّاراتهم هنا في الساعة المُحدّدة.

لفتُّ انتباهه إلى أن حلف الناتو عوَّض تقصيره أمس حيث دمَّر هنا، في هذا المكان، رتلاً من الدبّابات واصلة من أطراف المدينة، مُنقذِاً بذلك ما بقي منها.

«نعم، ولكن كان لا بُدّ من القتال. ممّا استغرق زمناً طويلاً جداً. هذه مشكلة جوهرية. وأودّ أن أتحدّث عنها مع السيّد ساركوزي إذا التقيتُ به. في البداية، عندما كان كلّ بلد يُقرِّر، كان تحليق الطيارات قصيراً، إذ يستغرِق عدّة دقائق، وأحيانا يستمِر لمدّة ساعة. أما اليوم فالتحليق يستغرق ساعات. وكأنّهم يفعلون هذا عمْداً. ولهذا السبب، أنا من الداعين، في قضية دبّابات ذلك اليوم، إلى تشكيل لجنة تحقيق تكشف كلّ جوانب الحادثة، لأننا لا يُمكِن أن نظلَّ هكذا، في عدَم اليقين، والارتياب والظنّ...»

كنتُ أستعِدّ لأقول له إننا نعرف كلَّ هذا، ويونس قاله لنا أمس، تقريباً بالمُفردات نفسها، غير أنّه ما لبث أن غيَّر الموضوع.

«حسناً. أين كنتُ؟ نعم. تغيير إستراتيجيتنا».

ذهبنا في الاتجاه الذي كان يُحدِّده القائد الشاب بُلال، بينما كان الرملُ يُخمِد وقع خطواتنا، وثلاثة عناصر من الوحدات الخاصّة يسيرون أمامنا وأصابعهم على زناد بنادقهم الكلاشنكوف. هبَّت ريحٌ حارّةٌ خشِنة.

«كان قراري الأوّل، حين استلمت قيادة هذا البازار، أن نحفر خنادق، فقط أن نحفر خنادق. لست أدري إن كانوا يُعلّموكم هذا في المدارس الحربية في فرنسا. أمّا أنا فحين رأيتُ هذا...»

وأشار إلى امتداد الصحراء، والريح المُحمّلة بالغبار، والآثار الطريّة للآليّات التي تسمح بملاحقة ما هو بارز - وهنا وهناك، يتمركز رجال صامتون خلف الكثبان، يترقّبون.

«عندما رأيت هذا، كلّ هذا، هذا الاتساع الهائل، هذه الأرض المكشوفة حيث يسير الناس جميعاً على هواهم، أدركت أنّ هذا هو المكان الذي يجعلنا أكثر تعرُّضاً للخطر أمام تقدُّم الدبّابات وأمام صواريخ «غراد».

ـ طبعاً، قلتُ وأنا في حالٍ من الشرود، ففكرة «الأرض المكشوفة» أثّرت فيَّ تأثيراً غريباً، كأنّها تقرِص شيئاً في داخلي، بعيداً، في عُمق أعماق ذاكرتي... في لا مكان حيث يُمكِن الهرب... في لا مكان حيث يُمكِن الاختباء... فالتهديد في كلّ مكان... مهما فعلنا، وإلى أي مكان نذهب، نحن هدف...

ـ أضاف الساقزلي: «تماماً (ونظر إليّ بدهشةٍ لأنني كنت أبدو غريب الملامح)، لهذا السبب قلت لِرجالي: لن نُدين الماضي، ولن نُحاول أن نتساءل لماذا لم يُفكِّر أحد بهذا، منذ شهر، لكن بدءاً من هذه اللحظة، هذا أمر، فأوّل شيء ستقومون به هو أن تقبروا أنفسكم».

وبالفعل، أرى الآن بعض القنوات، التي تكاد تكون غير مرئية لأنّها مُلتبِسة مع حدود الكثبان، وهي محفورة في الرمل، وغير متّصِلة فيما بينها. طلبتُ أن ننزل في واحدة منها، فوجدتُ أنّ طولها حوالى عشرة أمتار، بعمق يُساوي قامة رجُل، مقطوعة على شكل V، وقُوِّيَت حوافُّها بالحديد، وأُنزِل فيها سُلّم بشكل مائل، وقعرها الضيّق جداً مُغطّى بالحصى. وثمّة رجُلان يتربّعان، الواحد في مواجهة الآخر، يلعبان لُعبة الدومينو، والأكثر ضخامة يُوارِب كتفيه نظراً لضيق المكان. وبعد عدّة أمتار، في طرف الأخدود، رجل ثالث ينام في كيس نوم، هبّ واقفاً عند ظهورنا. ليس هناك أمكنة كافية لكلّ الحاضرين. لذا بقِي مارك وفوجتا على السطح، وعلى كلّ حال لن تتوفّر لهما المسافة الكافية للتصوير. فالجوّ خانق.

«أمّا قراري الثاني فهو ما كنتُ أقوله لكم أمس، في المكتب. أليس كذلك يا أحمد؟»

وأشار إلى الرجل الذي كان في كيس النوم، الخمسيني، ذي الشعر الأصهب، وعلى عينيه الخامدتَين نظّارات، ويلبس سترة خفيفة مُجعّدة كتِبت عليها «أُحِبُّكِ يا نيويورك» I love New York.

«هل تتذكر حين تشاتمنا، المرّة الأولى التي صعدتُ فيها إلى اجدابيا؟»

أجاب الرجل نعم، بصوتٍ عميق كأنّه خارجٌ من مغارة، وهو نتيجة صدى الرنين. ـ طيِّب، احكِ للسيّد برنار. تعالوا نصعَد، واحكِ له».

صعدنا من الحُفرة. فانتعش الرجل الذي استعاد في الهواء الطلْق، لونه ونبرة صوته، بأن يحكي لي قصة هذه المُشادّة الأولى التي حصلت قبل شهر مع ذاك الذي كان يصير رئيسَه.

قال لي وهو يُريني كثيباً على مبعدة حوالى خمسين متراً، أبعد باتجاه الجنوب أيضاً: «كنّا هناك. كنّا هناك أنا وبعض الرجال من المُرافقين ـ و...»

ونظر إلى مصطفى الساقزلي كأنه يُريد أن يتأكّد من أن هذا ليس مزحة، وأنّه مسموح له فعلاً أن يحكي القصّة.

«كنّا هناك، فوصل مصطفى الذي جاء ليتفقّدنا. فقلت حينئذٍ لمصطفى: «عندي أخبار سعيدة، يا رئيس؛ رجال الطاغية تراجعوا» فقال لي مصطفى: «وبعد؟ so what؟ ماذا تستنتج من هذا؟» فقلت لمصطفى: «الطريق مفتوحة؛ والبريقة في متناوَل يدنا، ويمكن أن نتقدّم». فقال مصطفى: «لا، أبداً، هذا بالتحديد ما لا ينبغي أن نفعله؛ أنتم تظلّون هنا، تُعزّزون مواقعكم؛ وتحمون بنغازي» فقلتُ أنا: «أنت تقول هذا لأنّك من بنغازي، تحمي مدينتك، وهذا منطقي». فقال مصطفى: «أنا أقول هذا لأننا إذا تقدّمنا عشرة كيلومترات من البريقة فسوف نخسرها في اليوم التالي، بينما إذا خسرنا بنغازي، فلن نربحها أبداً».

نظر الرَّجُل من جديد إلى مصطفى الذي دعاه ليُكمِل القصّة حتى النهاية، وأصرَّ عليه. فأكمل خافضاً صوته:

«تمرّدتُ، فربحنا عشرة كيلومترات. وما لبثنا أن خسرناها. ومنذئذٍ أنا من أتباع مصطفى».

قهقه مصطفى، وفجأةً لكز الرَّجُل الذي كان يضحك هو أيضاً. ثُمّ ذهبنا معهما إلى صيدلية مؤقّتة أُقيمت تحت خيمة مع لفائف مقطّعة إلى ضمادات تنتظر الجريح. ثم رحُنا في اتجاه واحدة من سيّارات بك ـ آب المُصلَّحة كيفما اتّفق، يعلوها أنبوبان كنّا قد رأينا نموذجاً منها على مخرج بنغازي، ورأينا سائق السيّارة أيضاً، وهنا اعترف منصور للسائق قائلاً له قرّرتُ ألا أندهِش بعدُ من هذه السيّارات، وعانقه. وبعد مائة متر، وصلنا إلى مُجمَّع صغير مُكوَّن من خمس فتحات قُدور، مخفيّة كليّاً، حيث يقف في كلّ منها رجل مُسلّح ببندقية هجوم، وبعد المُجمَّع مُباشرة باتجاه الأمام، مُرتفَع من الرمل، مائل، ينحدر بزاوية 120 درجة نحو الجنوب، تحيط به، في بعض الأماكن، أسلاك شائكة تُدعِّم الكثيب، وتشكّل هذه المرّة خطّاً أمامياً فعلياً.

كان هناك حوالى عشرين رجلاً، بعضهم واقف، وبعضهم متمدِّد بكامل طوله على الرَّدْم. والأكثر قِصَراً يستلقون على ظهورهم، وعيونهم مُتّجهة صوب السماء، وهم في حال الراحة. بينما يُواجِه الطِوال الذين تتجاوز رؤوسهم الردم، الصحراءَ يترقّبون الغارات، وعيونهم نصف مُغمضة، ومتصلّبة، كما لو أنّ من الضروري ادّخار النظرات. مدَّ أحدُهم، الذي قد

يكون رئيسهم، منظاره المُزدوج إلى مصطفى الذين ركّز طويلاً على شيء أمامه ـ ثمّ مدّ المنظار بالجاهي، هامساً:

«انظر، بسرعة».

تذكّرتُ العسكري الصُّربي القصير على تلِّ غرونج على الخطّ الأمامي، في الغابة فوق سراييفو. بدا لي هائلاً، بل فاحشاً تقريباً في منظار البندقية التي أعطاني إياها أحد المُقاتِلين. وخلال لحظة إعادة البندقية، ومُحاولتي أن أستعيدَها بقوّة يديَّ، كان قد اختفى. وشقّ عليَّ بعضُ الشيء إفهامُ أصدقائي السبب الذي لم يجعلني أُطلِق النار عليه، وأنّ هذه ليست مهنتي، وليس دوري أن، الخ. لكنْ هنا، لا شيء من هذا. ليس هناك من كائنٍ حيّ. ولا من خندق أمامي يُشبه خندقنا. لكن هناك في موضع بعيد نسبياً، على مسافة لا أستطيع تقديرها، أجسام سوداء، كبَّرها المنظار: لا شك أنّه رتل الآليات الذي رُصِد قبلاً ـ مطمور هو أيضاً، أو رُبَّما يكون هذا هو الستار الطبيعي للكثيب. بقينا هنا زمناً طويلاً، في صمتٍ مُطبِق، في ما عدا صوت الريح، والرائحة التي تأتي على دفعات، من جهة الرجال المُنهَكين، غير المُغتسِلين، الرائحة التي تنتشر في كلّ الخنادق الأمامية في العالَم، وتُسهِم، رُبّما مع الخوف المُشترَك، في إشاعة جوِّ الأخوّة الخاص جداً. بعد عشر دقائق، أعاد مصطفى المنظار من دون أن يَقوَل شيئاً. أمّا أولئك الذين كانوا مُتكئين على الرَّدْم، فعادوا، وصعد أحدهم على سلّة من قصب، وتسلّق آخر على سطوح خيام مطويّة، بينما وقف الثالث على مُنحدر التصويب المحفور في الرمل المُتراكِم، وهكذا، ومن دون أن يتلقّوا أية أوامر صاروا على مستوى رفاقهم. وكان ثمة خمسة رجال لم يلحظ أحدٌ أبداً وصولَهم، يُقرفِصون وراءنا، وبين أرجُلهم قاذفات قنابل، فقاموا، وأحاطوا بنا، ومن دون أن ينطقوا كلمة واحدة دعُونا للجري معهم في خطّ مُتكسِّر من دون سُرعة بسبب منصور، قاصدين الطريق الرئيسة.

«كلّ شيء على ما يُرام»، قال مصطفى بعد عدّة دقائق وهو يُطلِق النار، وبينما كنّا نتّجه إلى سيّاراتنا انبعث من بعيد (وبدا لي أنه كان قادماً، من مكان أبعد، من المنطقة التي كنّا فيها)، صوت الانفجار الأصمّ للقنابل الانشطارية التي قيل لي فعلاً إن كتائب القذّافي تمتلكها (في البداية يكون تأثيرها في الخنادق طفيفاً ـ لكنّ التفجّر المُتتالي تحت الأرض يُقوِّض الخنادق).

«ليست هناك مشكلة. هذه صواريخ غراد أُطلِقت من مسافة 20 كم. أسرعتُ كثيراً لأنني لا أُريد أن يمضي اليوم هكذا من دون أن تزوروا المدينة».

المدينة ميتة. المدينة مُتجمّدة، تحوّلت حتى هنا في الأماكن غير المُدمَّرة، إلى واجهاتٍ من زُجاج. مدينة خالية تماماً، أشبه ببومباي حديثة بائسة، تحلّ أكوام القمامة محلّ صهر بُركانها. مرّت سيّارة تُزمّر في الشارع الرئيس الذي أُطلِق عليه شارع ساركوزي. وبعد دقائق معدودة، توقّفت سيّارة أُخرى: صحفي من الجزيرة، الوحيد الذي بقي هنا، يُرافقه المحافظ الذي انبثق كالشبح. هل تُريدون زيارة المستشفى؟ نعم، طبعاً، المستشفى. الوحيد في المدينة. وهو آخر علامة على الحياة وآخر مُفارقة في منظر يوم القيامة. قصدنا المستشفى بالمرور في شوارع أخرى، أكثر دماراً من تلك التي وصلنا منها. رأينا أنّ واجهتَه، كواجهات البنايات المحيطة، أصابتها شظايا القنابل والصواريخ. وللبُرهان على القتل، عرَض أمامنا أحد الأطبّاء، بغضبٍ شديد، جُثة وصلت اليوم، لرجل قُتِل على مسافة مائة متر من هنا. رأينا أيضاً جريحاً حالتُه خطيرة، يُنازع الاختناق، وينبعث منه صوتٌ كصوت الحيوان، وضجة سائلة، توسُّل وصلوات في وقت واحد، شفتاه تنتفخان وتنفُسان كفم سمكة. وجاء رجُل، لاشكّ أنّه مُمرِّض، وأرانا مشهد فيديو مُصوَّر على هاتفه المحمول، حيث يُخصى طفل لأنّه زوّد الثُوّار بالماء حين كانوا ينصِبون كميناً. كان يودُّ البُكاء، ولا يستطيع. ولا يملِك من القوّة ما يكفي لأكثر من النشيج، والفوقة التي سرعان ما تتوقّف. كنّا في حال من الاشمئزاز أفقدتنا الجُرأة على أن نطلُب منه كيف استطاع الحصول على هذه الصور، ومن أعطاه إيّاها، وكيف. فبعد ثلاثين سنة، أشعلت بطريقة آلية سيجارةً قدّمها لي مُراسِل الجزيرة ونحن نخرج من المستشفى. في الخارج، بدت سماء زرقاء رمادية، شاحبة، تكتسب لونَ جُدران المستشفى - باستثناء أنّها في البعيد، في ما وراء الخطوط الأمامية، تصير حمراء من وقتٍ إلى آخر.

الثلاثاء 12 نيسان/أبريل (نقش أثري مُعادٍ للساميّة)

الكورنيش. المحكمة العُليا. البناء الضخم الذي كان يجتمع فيه المجلس الوطني الانتقالي خلال فترة إقامتنا السابقة. نحن على موعد، هذا الصباح، مع أحد مُعاوني عبد الجليل، الذي يؤسفني أنني لم أُدوِّن اسمَه، والذي قضينا معه ساعتَين، لكي نُحضِّر، بتوجيه من رئيس المجلس، لزيارة عبد الفتّاح يونس إلى الإليزيه. جئنا مشياً على الأقدام، أنا وعلي ومنصور وقادِم جديد انضمَّ إلى مجموعتنا الصغيرة، اسمه سليمان فورتيه (مُهندس معماري من مصراطة، يُمثِّل مدينته في المجلس الوطني، ذهبنا، ليل أمس، لاستقباله في ميناء بنغازي: إذ

وصل، هو الآخر، كمُوفد مصراطة الآخر الذي التقينا به خلال عشاء رؤساء القبائل، عن طريق البحر، على ظهر مركب مُحمّل بالجرحى، واستغرقت رحلة العبور ثلاثين ساعة - وجهه المُدوَّر المُنعَم، الشبيه قليلاً بوجهٍ صيني، فيه عُقَد عريضة ومُرتفعة، حفرها الإنهاك). وها هو في طريقنا، وبينما كان «فورتيه» يحكي لنا تفاصيل مُغامرته، وبينما كنا نُحاول أن نرى كيف ستتمكّن نحن، على المركب نفسه، أو على مركب من النوع نفسه، من قطع المسافة في الاتجاه المُعاكِس لنصل إلى مصراطة، وقع حادث مُفاجئ، حادث بسيط، ويبدو أنّه لا يُقارن، في أية ناحية من نواحيه، مع الرعب الذي شهِده «فورتيه». وهو لا شيء بجانب موت أخيه الأصغر، الذي أصيب بطلقة في رأسه الشهر الماضي. ولا شيء طبعاً بالقياس إلى سماعه بموت أخيه الآخر الذي قُتِل، بدوره، سنة 1996، في مجزرة سجن بو سليم في طرابلس. لكنْ هذا الحادث البسيط يهمُّني. وهو مُحمَّل، على قِلّة شأنه، بكثير من المعاني التي تحمِلني على أن أسجّلها هنا. ذلك أنّ واحداً من «إفرازات الزمن» التي كان ميشيل فوكو يقول إنّها لا مثيل لها يسمح بتركيز الذهن على موقفٍ...

نحن على مدخل الكورنيش. على مستوى نقطة الأمن حيث يُحاول عسكريّان غير مُسلّحَين تنظيم حركة المرور. فالمُتسكعون في الشوارع كثيرون. كثيرٌ من الشباب. من النساء. وإذا بي ألحظُ، أمامي، في خط مستقيم، صورة القذّافي، مُخربَشة على الجِدار، بأسلوب الكاريكاتير الذي أعجبني في طبرق، تُظهِر فكيه الهائلين، وقرنين نابتَين فوق جبهته، في إشارةٍ إلى الإشاعة التي سبق أن سمعتُها والتي تزعم أن أصله يهودي، كما تُبالغ عبارة «صهيوني» المكتوبة بحروفٍ حمراء، في ادّعاء علاقته بإسرائيل. تصرَّفتُ وكأنّ شيئاً لم يكن. لكنْ اتّفقتُ سراً مع جيل، كي أتأكّد من أنّه هو أيضاً رأى ما رأيت. ووضعنا سيناريو يُنفّذه حالاً، مُستغِلاً دقيقة أبتعد عنه خلالها.

«إيه، أيها الأصدقاء! ما هذا النقش المُعادي للسامية الذي مررنا به توّاً؟ من حُسن الحظّ أن برنار لم يُلاحِظ شيئاً. لأنّ عليكم أن تعرفوا أن هذا النوع من القذارة قد يكلّفكم خسارة دعمِه لكم - وهذا هو النوع من التفاصيل الذي لا يحتمِل المُزاح عندنا في الغرب».

ذُهول الأصدقاء... ذهول البراءة وصفاء النيّة... قال علي: «أشياء غير مُراقَبة»... ويُزايد سُليمان: «ولا تحمِل أيّة دلالة»... وشدّد منصور قائلاً: «ما البلد الذي لا يوجد فيه بعض العداء للساميّة؟ حتى عندكم، في فرنسا؟ ألَم يحكي لنا برنار، ذلك المساء، عن الفاشيّة

الفرنسية التي وصفها في واحدٍ من كتبه. على أيّة حال، هذا غير مقبول». وبعد ساعتَين، خرجنا من المحكمة العُليا بعد انتهاء موعدنا، مررنا ثانية بالمكان نفسه. لم تعُد القذارة موجودة. كانت بكل بساطة قد مُحِيَتْ. وحلّت مكانها مساحة بيضاء طُلِيَتْ بالجبس، مثلما طُليت الجدران في طبرق لإخفاء بقع الدم بلون قريب من الأبيض... وقياساً إلى منفيِّين منذ ثلاثين أو أربعين عاماً، يُعَدّ علي ومنصور نشيطين فعّالَين جدّاً! أمّا هذا الحادث فقرّرتُ أن أدوِّنه هنا، ليس في سلبيات مدينة تنهال عليها منذ اثنين وأربعين عاماً دعاية بلهاء، بل في إيجابية إدارةٍ قرّرت منذ اليوم أن تَعُدّ معاداة السامية خارجةً عن القانون.

الثلاثاء 12 نيسان/أبريل، تتمّة (طيّارة شارتير تُقِل ليبيين إلى باريس)

عنوان لا علاقة له بالنص ؟

مُنتصَف النهار.

عُدتُ إلى تيبستي.

أنا مُهيّأ، بطبعي، وخصوصاً حين يستبدّ بي الإنهاك، للتخبُّط في هذا النوع من البلبلة.

لكنْ أليسَ مبدأ دفاتر المُذكّرات هذه أن تقول كلّ شيء، أو كلّ شيء تقريباً؟

الحقيقة هنا.

ليس إلا هنا، في مُنتصَف النهار، فحين أُطلِقت عملية عبد الفتاح يونس، وأُطلِقت تماماً، انتبهتُ فجأة إلى تفصيلٍ أزعجني قليلاً: في النهاية، أنا لا أعرف شيئاً كثيراً عن هذا اللواء الذي أستعِدّ لجعله يلتقي برئيس الجمهورية الفرنسية، وبات من الضروري أن ينشغل بالي.

ليس هناك إنترنت، كالعادة.

بحثتُ عن واحدة من تلك «الحقائب» التي توصَل مُباشرة، بسعر عالٍ جداً، بأقمار صناعية في مدار جغرافي ثابت.

عرض عليّ صحفي من فرانس أنتير، تفاهمتُ معه أمس، رأيته من جديد جالساً يشرب قهوة باردة هي المشروب الوحيد في بار الفندق، أن أصعد معه إلى غرفته، وأن يتركني أفتح من عنده شبكة الإنترنت عدّة دقائق، بما يكفي لبحثٍ سريع.

هنا صادفتُ مشكلة بسيطة، لكنّها ستتعاظم مع مرور الساعات.

«المُمثّل الأميركي» تدرّب في الجيش، في عهد القذّافي، وهذا ما كنتُ أعرفه.

وكنتُ أعرِف أيضاً أنّ «ديفيجاك الجديد»، البطل ذا القلب الحنون، الذي أفضى ما في داخله، بطريقة مؤثّرة جداً أمام عدستنا ـ كان خادماً للنظام القديم.

لكنّ ما اكتشفتُه هو أنّه كان أكثر قليلاً من خادم، وأنّ سُمعته، حتى في ليبيا، مُخيفة.

القوّات الخاصّة، كان هو وراءها.

فرقة المظليين 36، التي تُسمّى أيضاً الصاعقة، والتي طالما روّعت بنغازي، كان هو وراءها.

دعم الإرهاب الأيرلندي والجيش الجمهوري الأيرلندي، مع حمّام الدم الذي جعل بريطانيا العُظمى في حِداد طيلة عقودٍ من الزمن، كان أيضاً وراءه إلى حدٍّ مّا.

مساء الأربعاء 12 نيسان/أبريل (خطاب على الكورنيش)

«يا شباب بنغازي... يا شعب ليبيا...». لم أكن أتخيّل أنّه يُمكِن أن يكون هناك هذا العدد الكبير من الناس. حتى إنني لم أكن أعتقد بأن يقوم هذا الحفل الخطابي الذي نظّمته سلوى بقصيص، المُحامية الجميلة التي التقينا بها خلال فترة إقامتنا الأولى والتي اقترحنا اسمها ليكون في وفد الإليزيه في 10 آذار/ مارس. وبالتالي لم أُحضِّر شيئاً. «يا شبيبة بنغازي... أيّتها القبائل الحُرّة في ليبيا الحُرّة... الإنسان الذي يتحدّث إليكم هو المُنحدِر الحُرّ من قبيلة هي واحدة من أقدم القبائل في العالَم». أمّا أستاذ اللغة الفرنسية القديم الآخر، كعبّاد الشمس، الواقف إلى جانبي، الذي شاركني في مُكبِّر الصوت، وكان عليه أن يُترجِم ما أقول، مقطعاً مقطعاً من كلّ جُملة، وبالتماشي مع إيقاع خطابي، فأبدى تردُّداً. حينئذٍ كرّرت كلامي، أتوجّه إلى الآلاف، بل إلى عشرات الآلاف من الرجال والنساء المُحتشِدين هنا، واقفين على أقدامهم، في هذه الساحة المُقابلة لمنصّتنا المُرتجَلة ـ حيث يلوِّح بعضُهم بعلَم النظام الملكي الليبي القديم، وبعضهم الآخر بأعلامٍ فرنسية، بينما يرفع آخرون أسلحة يدويّة أو بنادق كلاشنكوف: «اسمي برنار ـ هنري ليفي؛ أنا مثلكم، حفيد قبيلة قديمة جداً، غير أني فرنسي أيضاً، جئت أنقل لكم تحيات فرنسا، وشعبها، ورئيسها...». ولم يكن هناك من داعٍ لذكر اسمه، أو لترجمته، فما إن لفظتُ كلمة «رئيس» حتى هتف الجمهور دُفعة واحدة وملء رئتيه:«ساركوزي، ساركوزي»ـ مُوقِّعاً مقاطع اسمه، مُتلذِّذاً بنُطقها، مُنشِداً إياها، وصارخاً أيضاً. فاستأنفتُ خطابي تاركاً، بين كلّ جزء من الجملة، ما يلزم من الوقت للمُترجِم. «أنا

عائد من اجدابيا، من خطِّ الجبهة، هناك حيث رُحتُ أرى شجاعة شباب بنغازي الرائعة». عندما لفظت كلِمة شباب، علا الهُتاف. وحين عبّرتُ عن إعجابي بالمُدافعين عن المدينة قائلاً هؤلاء البواسِل، هؤلاء الأبطال، تعاظمت الهُتافات، وتضخّمت لتصير صُراخاً. «رأيتُ رئيسَكم»: صيحاتٌ مُتعالية. «رأيتُ عبد الفتّاح يونس»: علا الزئير. «وتحدّثت مع وفدٍ من النساء، هنّ زوجاتكم، وأخواتكم ـ ورأيت أيضاً أنّهنّ مُحترماتٌ للغاية»: ما زال الجمهور يزداد عدداً ويتضخَّم حتى وصل حشْد الناس أمامنا إلى البحر، وكذلك على جانبَي المنصّة، من اليمين واليسار على مدّ النظر، حتى غدا الهُتاف والتصفيق هذياناً، وأقرب إلى الهستيريا. «اسمعوني جيداً، لستُ مبعوثَ أحدٍ أبداً». وهنا تموَّج الجمهور قليلاً. «أعرِف أنّه قيل لكم سوف يتكلّم سفيرٌ هذا المساء؛ لكنْ لا! لستُ أنا هذا السفير! أنا إنسان أتصرّف وحدي، ولا أُمثّل إلا نفسي». فتتراجع الهُتافات وتغدو مُتردّدة. «أنا فيلسوف!». فينتظر الجمهور الذي خاب أملُه ولم يَعُد يفهم شيئاً. «جوهر فلسفتي حقوق الإنسان، وهذا الحقّ إنّما هو حقّ كلّ رجُل، وكلّ امرأة (أُكرِّر وكلّ امرأة)، فهم مُتساوون في الحقوق كلّها». فاستأنف الجمهور تصفيقه بصورة خجولة. «في أُوروبا نظرية تقول إنّ حقوق كلّ إنسان تُقاس بدينه، وعِرقه، ومكان ولادته، والديمقراطية فكرة أوروبية لا يُمكِن أن تجِد لها مكاناً في ليبيا». ماج الجمهور من جديد. شعرتُ أنّ المُترجِم لا يُتابع أفكاري، وأن الجمهور شعر بذلك فلم يَعُد يُتابعني أيضاً. «حسَناً! أمّا فلسفتي فهي عكس هذا. إذ إنّ مُرافعتَها تقوم على أن كون الإنسان أوروبياً أو عربياً، مسيحياً أو يهودياً أو مُسلِماً لا يُغيِّر شيئاً ـ لأننا إخوة في الإنسانية، ولنا جميعاً المستوى نفسه من الحقوق». علا الهُتاف بتردّد، وكان بالأحرى أقرب إلى الضجيج. تساءلت إن كان المُترجم قد ترجم كلِمة «يهودي». حاولت، بينما كانت يدي تُغطّي مُكبِّر الصوت المُشترك بيننا، أن أسأله عن ذلك خِفيةً: لكنّه لم يفهم. أو تظاهر بعدَم الفهم. فعل معي، لكن بالمقلوب، ما فعله لورانس مع تشرشل في غزّة حين ترجم هُتاف الجمهور «يعيش الوزير» أو «تعيش بريطانيا العُظمى» لكنّه تناسى بعناية بقيّة الهُتاف «اذبحوا الصهاينة» ذات الوقع الأقل جودة في اللوحة. استأنفت كلامي بالقول «وما لكم يا شباب بنغازي؟» فعلا الهُتاف قوياً من جديد، ومتعاظِماً. «ما يحدث هنا يُبرهن على أنني على حقّ؛ فطريقتكم في إيجاد الأفكار الديمقراطية كما لو أنّها أفكاركم الخاصّة، تُبرهن على أنّ معركتكم هي معركتي، وأنّ معركتي هي معركتكم». ومن جديد، هناك مشكلة في الترجمة. لكن كالصادِح الذي كان سيأخذ وقته

كي يجِد المقام الموسيقي المُلائم، مُتجنّباً أن يبدأ من جديد، يأخذ الجمهور وقعَه، بمصادفة تامة، ويصرخ بصوتٍ واحد: «ليبيا حُرّة، ليبيا حُرَّة». وأنا أيضاً تحمّست، وجاء دوري بأن أرفع نبرتي قليلاً: «جئت إليكم يا شباب بنغازي ليس لأتحدّث إليكم، بل لأسمعكم، وما سمعتُه، درسٌ في الفلسفة، درس في المُقاومة، وفي الحياة...». هذه المرّة عاد الجمهور إلى حميّته الأولى. فهدَر بالهتاف الأكثر وضوحاً، وفرحاً. «ثمة فلسفة خاصة ببنغازي. وهذه الفلسفة هي فلسفة حريّة لا تُهزَم». لم أضمن الكلمات لأنني أتكلّم ارتجالاً. لكنّي متيقنٌ من غلَيان الجمهور الفوري. من فرحه. حيث وضعت لي امرأتان صعدتا إلى المنصّة مع طِفلَيهما، الأعلام بين يديّ. ورايات ليبيا الحُرّة. وها أنذا أشعر فجأة أنني رُفِعت، وعلوت الأكتاف، وحُمِلتُ ـ مُتنقِّلاً من ذراع إلى ذراع على هذا البحر من البشر الذي مضى حتى البحر وهو يصرخ «ليبيا حُرّة». لم أشعر بانفعال كهذا منذ ذاك اليوم من شهر شباط، فبراير عام 2000 حيث تكلّمت في فيينا، أنا ولوك بوندي، وميشيل بوكوللي، وآخرون، في ساحة الأبطال، أمام مائة ألف مواطن أتوا للتظاهر ضدّ عودة الفاشية المنسوخة عن نموذج هتلر. لكنّ المُتظاهرين في فيينا كانوا يملِكون فكرةً عنّا. إذ كنّا نتقاسم مرجعياتٍ واحدة. وكان بيننا علامات تعارُف. بينما هنا... هؤلاء النسوة المُحجّبات، لأنّ عندنا مثلُهنّ... وهذه اللحى السلفيّة، قليلة العدد، لكنْ عندنا مثلها أيضاً... هؤلاء الناس الذين ينظرون إليّ، في رأي بعضهم، كما ينظرون إلى حيوان فضوليّ، والذين، في رأي بعضهم الآخر، سيهتفون لأيّ فرنسي حلّ في مكاني...

ينبغي أن يكون المرء رياضياً حتى يستطيع ترك الساحة. نجحتُ بعد خمس دقائق في أن أضع قدميّ على الأرض. لكن هاهو الجمهور يضع في رأسه فكرة مُرافقتي في موكب. ولمّا كان فرانك مشغولاً تماماً، قمت بقطع ما تبقّى من الكيلومتر الذي يفصلنا عن تيبستي يُحيط بي عشرات الفتيان الذي يتنازعون امتياز الإحاطة بإنسانٍ لا يعرفون عنه شيئاً، ولم يقُل لهم شيئاً تقريباً، غير أنّه يُمثّل، في هذه اللحظة، أوروبا التي أنقذتهم. يدفع أحدُهم الآخر مُدّعياً أنّه يقوم بدوره أفضل من جاره، وكلٌّ يُبعِد الآخر، ويضرِبه إن لم يبتعِد، فيصطدم بي في طريقه، ويحميني من الآخرين، ويتعثّر بي وهو يحميني أو يمنعني من أن أتقدّم: أمّا شرطي النظام المتواضع الذي أرسلتْه البلدية، بلباسه الرسمي الجديد فقد تبلبلَ، وتجاوزه الفتيان، فأهمل الأمر كليّاً ـ فما الذي يُمكِن أن يكون أفضل من جمهور مبسوط؟ وكيف يُمكِن أن

يُقاوَم؟ وما أهمية ذلك إذا فقد هذا الفرنسي الغامض، في الزِحام، فردة حذائه، أو الحبل بالشال المُزركش لليبيا الحُرّة الذي ربطوه حول رقبتِه بالقوّة؟ قلت «الأساسي» من المسافة لأن سيّارة وقفت على بُعد 300 م من الفُندق، في مكانٍ يتّسع فيه الشارع بما يسمح بمرور السيّارات. لكنْ حتى في هذا المكان، الموكب لا يتراجع. لأن الفتيان، الأكثر تهوُراً، صعدوا إلى سطح السيّارة، وعلى غطاء مُحرِّكها، وتعلّقوا بواقياتها، ونوافذها ـ ورافقونا حتى الفندق. يا لها من مُغامرةٍ عظيمة أن أكون صورةً، دالاً، اسم بلا اسم لِفرنسا التي يهتفون لها من خلالي! أيّةُ غرابةٍ هذه! عبثية طبعاً. لكنّه جمال سوء التفاهُم. إي والله.

الثلاثاء 12 نيسان/أبريل، خاتمة (موكبٌ في الليل)

أصرَّ مصطفى الساقزلي على أن يُحضِر لنا عشاءً في حديقة بيته في ضواحي بنغازي. كان سعيداً بأن يُرينا منزلَه الجميل، وثراءه، وخدَمه، وأطباقه المُترَفة في هذا العوَز، وأغطية طاولاته الرائعة، وأواني مائدته، وجيش حرسه الشخصي الذين يُرابطون على عتبة البيت وفي الزوايا الإستراتيجية، وابنه الذي يتكلّم إنكليزية مُمتازة، وباختصار حياته السابقة التي ستكون حياته القادمة عندما ستتحرّر بلاده، حياته التي تُعبِّر في وقتٍ واحد، عن السبب الذي يُحارب من أجله، والسبب الذي كان من أجله يستطيع كلّياً، لو أراد، ألا يُحارب، ويتخفّى كما فعل كثيرٌ من الآخرين. بعد العشاء، في وقتٍ مُتأخِر، بل مُتأخِّر جداً، سلكنا طريق طبرق. سيّارة مُرافَقة على رأس الموكب، علي ومنصور في السيّارة الثانية. ثُمّ سيارة مارك وفوجتا. فسيّارة فرانك وفرانكو، وأنا وجيل في السيّارة الأخيرة. إنها نفس سيارة الذهاب. ونفس السائق بسترته الجلدية السوداء الذي أثار إعجابنا من طريقته في نزع الشريحة الإلكترونية من هاتفه المحمول بعد كلّ مُكالَمَة. كانت السيارة الأخيرة للمُرافَقة أيضاً. الليل مُظلِم، والضباب كثيف. هذه حماقة، ولكنّي لم أكن أظنّ أن هذا القدر من الضباب يُمكِن أن يوجد في الصحراء. وبعد أن تجاوزتنا سيّارة المُرافقة لسبب لا يعرفه إلا الله، أخذنا طريقاً فرعية رديئة، وعُدنا على أعقابنا، وتردّدنا، وأخذنا من جديد الطريق الفرعية الرديئة، ووجدنا أنفسنا وحيدين، من دون موكب، في الظلام، ولحِقنا بباقي الموكب في طبرق، أمام الفندق الكبير، الفارغ تماماً، حيث حجز لنا علي غُرَفاً. لم يبق أمامنا الآن إلا ساعتان كي نستأنف السفر صوب الحدود. على كلّ حال، بلغ مني الإنهاك حدّاً لزم عنده، كي أنام، بعد أن تجمّدت أطرافي، وفرغ رأسي، أن آخُذ مغطَساً ساخناً.

في ساعات الفجر الأولى، سلكنا الطريق باتجاه مصر، ثُم باتجاه مرسى مطروح، حيث وصلنا في الساعة المُحدّدة تماماً لإقلاع الطيّارة.

الأربعاء 13 نيسان/أبريل (القصّة الحقيقية لالتحاق اللواء يونس بالثورة)

مصر

لم ننسَ، في عمليّة تمويه عبد الفتّاح يونس، إلا تفصيلاً واحداً: الإجراءات البيروقراطية المصرية.

كان الطيّار الذي ينتظرنا قد قدّم مخطّط رحلة يُحدِّد الانطلاق الساعة التاسعة، من أجل قائمة مُحدّدة من المُسافرين.

غير أننا وصلنا مع ثلاثة رُكّاب جُدد ليبيون فوق ذلك، لم أُعلِن له عنهم (فورتيه، رجل تور، وابن عم منصور - وأمير الشباب مع حاسوبه لكن من دون قاذفة الصواريخ...)؛ وهذا يكفي ليخلُق تعقيداً هائلاً.

بدأ عامل المهبِط بإعلان ساعة انتظار، وذلك لتدقيق مجموعة من جوازات السفر.

وصارت ساعة الانتظار ساعتَين، لكن مع السماح بصعود الطيّارة والانتظار فيها.

ثُمّ صارت ثلاث ساعات، وكان وجه مصطفى مُكفهِّراً، أقرب إلى العدوانية، وبدا لي ساخراً.

عند الظهيرة، وقد رأيتُ أنّنا ندخل في المنطقة الحرِجة حيث الموعد مع الإليزيه سيتأخّر، اتصلت بليفيت الذي قال لي إنّ مُساعِده نيكولا غالاي سوف يُرتِّب الأمور.

وبعد ساعة، اتصل غالاي مُنزعِجاً - «اتصلت بالسفير المصري في باريس، وبالسفير الفرنسي في القاهرة، وأوصلتُ أو كلّفت آخرين بأن يُوصلوا إلى أعلى مستوى في السلطة الجديدة، لكنّها سلطة غريبة، وليس لنا معها العلاقات التي كانت تربطنا بالسلطة القديمة، تُضاف إلى هذا قوة الجمود الخاصّة بالبيروقراطية المصرية العائدة إلى آلاف السنين؛ سوف تُحَلُّ المشكلة، ولكن يجب الانتظار أيضاً».

في الساعة الثانية بعد الظهر، بعد ألف اتصال من يونس الذي، وقد وصل خلال هذا الانتظار، إلى قاعة الشرف في مطار روما، لم يفهم، وبدأ يشعر بطول الزمن، غضِبتُ وطلبتُ

من قائد الطيّارة أن يُشغِّلها ـ ضربة قوّة بائسة لم يكن لها من تأثير إلا أنها جعلت سيّارة مدرج طيّارة تنبثِق وتركن أمام عجَلات طيّارتنا، وسيّارة ثانية وراءنا.

لقد اتّهمنا مصر ذات الحضارة الألفية ظُلماً.

انتهيت بالتساؤل عمّا إذا لم يكن لدينا هنا، بوجهٍ خاصّ، شرحُ ما كنتُ قد استشعرتُه منذ البداية، عن العلاقة بين الإدارة المصريّة الجديدة والربيع الليبي: لِماذا لا يهُبّ المصريون لنجدة «شعب أخٍ» في طرابلس؟ لماذا يبقى جيشهم مكتوفَ الأيدي مع أنّه من أقوى جيوش المنطقة، ويستطيع إن أراد أن يكنِس قوّات القذّافي خلال ثماني وأربعين ساعة؟ حسناً هو ذا الأمر... الجواب هنا، من خلال الطريقة التي رأى مصطفى الساقزلي، رئيس شباب بنغازي، أنّ موظفاً غامضاً يُعامِله بها، هناك، في القاهرة وبين يديه جواز سفره، ويشرع في تأخيره عن موعده مع رئيس الجمهورية الفرنسية.

ذلك كلُّه لأقول: لم يُسمح لنا بالإقلاع إلا في الخامسة عصراً، وهي الساعة التي حُدِّد فيها الموعد مع ساركوزي، وإذا أضفنا ثلاث ساعات طيران للوصول إلى روما، والزمن اللازم للقاء اللواء يونس إذا كان ما يزال ينتظرنا، ثُمّ ساعتي الطيران بين روما وباريس، فسوف نصل إلى مطار بورجيه في أفضل الأحوال الساعة العاشرة ليلاً: فما الذي يُمكِن أن يصير إليه الموعد في الإليزيه؟ هل سيؤجَّل؟ أم سيُلغى؟ أم سيتحوّل، الآن حيث ينبغي أن يكون حفل عشاء كاميرون قد بدأ، إلى لقاء مع أحد مُستشاريِّ الرئيس؟ وفي حال هذا الافتراض الأخير، الأكثر احتمالاً، الذي يجب أن أقول للّواء عبد الفتّاح يونس، أنني كنتُ أُريد، حتى البارحة، إلغاءه، وأنني، لكي أنتهي، قد أُضايِقه وأجعله ينتظر بلا جدوى؟ استمرَّ الكابوس...

أعترف أنّ الغضب، وقد أخلى مكانه للإحباط، والإحباط وقد أخلى مكانه للخضوع، أفقدني، في هذه اللحظة، القدرة على أن أتنبّه للأشياء.

وإذا كانت في رأسي فكرة، فهي، عند الضرورة، فكرة السفر إلى مصراطة التي أقلعتُ عنها بسبب هذه الخطّة المشؤومة.

أجبتُ على أسئلة مُرافقيَّ إجابة غامضة: «أُجِّل الموعد»؛ سنُرتّب الأمر عند وصولنا، لكنّي مُتأكِّد من أنّ الموعد سيؤجَّل ـ وكان جوابي نُشداناً للخلاص.

نام علي حالما أقلعت الطيّارة.

وراح حسَن يُقلِّب صفحات مجلاّت مُصوَّرة.

بينما كان مارك يلتقِط الصُّور في كلّ مناسبة.

شرعتُ، أمام منصور الذي كان يُدقِّق لي النقاط التي تنقصني، في كتابة هذه الملاحظات.

لم يبق إلا جيل ليُتابع، مع الساقزلي، نقاشاً حادّاً حول الخطة المُعجِزة التي ستُقدّم للفرنسيين رمز الكفرة.

لن تبدأ المشكل إلا خلال هبوطنا في مطار روما حيث ينتظرنا يونس الذي أتخيّله يتململ غاضباً نافِدَ الصَّبر.

أوّلاً، وفي ما يتّصل بالقصة البسيطة، سنقترب من جديد من الحادث حين يصعد رجال شرطة المطار إلى الطيّارة لتفحُّص جوازات سفرنا: فحين رأى مصطفى عبر الكوّة سيّارة تقترب ولم تكن هي سيّارة عبد الفتّاح، انتفض باتجاهي، شاحباً، وأخبرني أنّه لم يحصل على تأشيرة دخول تشينغن ـ وكان أمامي بالضبط الوقت الكافي لأحبسه في المرحاض داعياً الله ألا ينتبه رجال الشرطة إلى أنّ هناك راكباً ناقصاً بالقياس إلى وثيقة الرحلة التي بين أيديهم.

لكنْ المُهم على نحوِ خاص وصول عبد الفتّاح يونس، بذقنه المحلوقة توّاً، وأناقته، وكونه مِرحاً بصورة مُدهِشة على الرغم من ستّ ساعات انتظار، يرتدي طقماً تفصيله رائع، استبدل به بزّته العسكرية التي كان يلبسها في بنغازي، فأكسبتْه مظهراً أفضل، وعلى جانبه ابنُه طارق، ورجل الأعمال أحمد الشركسي الذي تزوّج ابن يونس الثاني من أخته، ورجُل الأعمال الثاني عصام السويحلي الذي هو، إلى هذا الحد أو ذاك، من عمر ابنه. أوّل سؤال طرحه عليّ بطبيعة الحال: «وماذا عن ساركوزي؟ في أية ساعة بالضبط سيكون موعدي مع ساركوزي؟»

وإذ اكتشفتُ أنّه الوحيد بيننا الذي لا يعرف شيئاً عن الاضطراب الذي حصل (أو أنّه إن علِم به، لم يعُد يتذكّره) ولا عن أنّ الموعد كان في الساعة الخامسة، وأنّنا بالتالي تأخرنا عنه، فكّرتُ في أنّ هناك مُتّسعاً من الوقت لإخباره بذلك في باريس، ورحتُ أُغمغِم على الطريقة الليبية أنّ «كلّ شيء مُراقَب».

ولمّا لم يُقنعه جوابي الغامض، ولمّا كان يُريد مكاناً، وساعة، وتقريباً جدول أعمال، بالإضافة إلى أنّه، من جهة ثانية، سبق أن حضّر، كما فعل الساقزلي، خطّة كاملة للقاء («هنا، في محفظتي، يوجد هذا الملّف الموجّه شخصياً إلى رئيس الجمهورية الفرنسية، اقرأ...»). بعثت رسالة نصيّة إلى غالاي، قبل الإقلاع تماماً، وأنا أعلَم بأنّه لن يقرأها، لأن الجميع الآن يحضرون حفل عشاء رئيس الوزراء البريطاني.

والحقيقة أنني أمضيت الرحلة في تجنُّب الحديث في الموضوع. ولحُسن الحظ أنّ بين مصطفى وعبد الفتّاح معرفة. ماذا أقول؟ تعانقا. لأنّ ما حصل أنّ مصطفى هو أوّل من فاوض في شهر شباط/فبراير باسم الثوّار، على انضمام الثاني إليهم. لم يضنّا بأن يحكيا بالتفصيل، مع الشركسي الذي لعب، هو الآخر، دوراً في القصّة، مُجريات الأحداث المجنونة لتلك الأيام الثلاثة التي حوّلت مصير ليبيا، ومصيرهما. وكان منصور يُترجِم كالعادة.

قصة الشركسي الذي جاء في 17 شباط/ فبراير يطلب من مصطفى أن يذهب للقاء عبد الفتّاح، قائد حامية بنغازي التابعة للنظام.

وقصّة مصطفى الذي ذهب إلى الكورنيش لرؤية رجال القضاء الذين سيصيرون أعضاء في المجلس الوطني الانتقالي، وحينئذٍ أسرّوا له بمُذكرة مضمونها هو الآتي تقريباً: «التحِق بنا يا عبد الفتّاح؛ جنِّب شعبَك حمّام الدم؛ سنُبقيك على رأس الجيش، وسوف تُنقِذ شرفَك».

تتمّة قصّة مصطفى الذي حضر إلى معسكر القوّات الخاصّة، وهو نفس المعسكر الذي تعرّفنا فيه على مصطفى، لكنّه كان في تلك الفترة مقرّاً عامّا لعبد الفتّاح، وطلب لقاءً على انفراد من دون عبد الله السنوسي، مُمثِّل نفْس القذّافي الملعونة الذي كان، يومئذٍ، في المكتب.

تردّد عبد الفتّاح حين عرَف بالمُذكّرة: «أودّ تماماً، نعم، ألا أُوجِّه بإطلاق النار، أُريد أن أتجنّب حمّام الدم، لكنّي لا يُمكِن أن أقبل بأن يشتم المتظاهرون اسم القائد أمام الثكنة».

لم يتوقّف الهاتف عن الرنين خلال الحديث. حتى ذلك اليوم، لم يكن مصطفى مُتأكّداً من أنه عرَف الذي يتّصل به. هذا الصوت الحادّ... صورة عبد الفتّاح المُحترَمة بصورة غريبة... هذه الطريقة في إعطاء صوت «سيّدي» هل تحقد عليه، هو ذا، ويُردِّد باستمرار «كل شيء على ما يُرام سيّدي، كلّ شيء تحت السيطرة سيّدي»... ويجيب عبد الفتّاح مُقهقِهاً: طبعاً كان هو! أستطيع أن أقول لك اليوم كان هذا صوت القذّافي!

وهذا الموعد الثاني، في اليوم نفسه، حيث طلب من عبد الفتّاح أن يُفكِّر باتّفاق مُعدَّل يُضمّنه نواياه إزاء القذّافي: «هذه شريحة إلكترونية هاتفية مضمونة، سوف أتصِل بك غداً، في الحادية عشرة، سأعتمد عليك في إيجاد فكرة».

ومصطفى على الكورنيش، عند رجال القضاء الذين يكتبون مُذكّرة تفاهُم جديدة، أقسى، ولا تتضمّن أمنية عبد الفتّاح: «وقف إطلاق النار، وتسليم رجالكم الذين قتلوا مُتظاهرين، وإطلاق سراح غوقة، والسماح بالمظاهرات».

وأضاف مصطفى (لكنّه لم يتوجَّه إليّ بقدر ما توجّه إلى عبد الفتّاح والشركسي اللذين كان يكتشفان، بولَع، الجانب الآخر لقصّتهما، مشهدها المخبوء): «ما كِدتُ، في صبيحة اليوم التالي، الساعة الحادية عشرة، أضع الشريحة الإلكترونية في الهاتف، حتى جاءني اتصال، وكنتَ أنت يا شركسي، إذ حدّدتَ لي موعدي الثالث، في اليوم نفسه الساعة الثانية بعد الظهر، معك يا عبد الفتّاح؛ لم أقلق، ويُمكنني أن أقول لك الآن ذلك، فما الضمان الذي كان معي حين دخلتُ مكتبَك لتسليمك مُذكّرة التفاهُم الجديدة؟ ومَن يضمن لي أنّك لن تأمر بتوقيفي؟ هل تتذكّر كيف دخل عبد الله السنوسي على أعقابي، فأخرجتَني، وأعدت إدخالي بعد عشر دقائق؟»

وحكى مصطفى أيضاً، متوجِّهاً إليّ هذه المرّة، بينما كان عبد الفتّاح الشركسي يُصغي إليه كما يُصغي الأطفال إلى حكاية نحكي لهم فيها، بنغمة القصّة، حكايتهم الخاصّة: عبد الفتّاح وافق على كلّ شيء تقريباً في ذلك اليوم، ففي النهاية تخلّى عن طلبه بوجوب احترام القائد وتمنّى فقط ألا يدخل الشباب إلى الثكنة، فقلتُ له: حسناً، اتركني أخرجْ، لأعود إليهم كي أشاورهم، وما كِدتُ أخرج من عنده، وأعود إلى الكورنيش، وأنقل إليهم أمنيته، حتى اتصل بي، ولمّا أبلغتُه أنّهم للأسف رفضوا ما طلبه، ولا شيء سيمنعهم من السيطرة على الثكنة، صرخ قائلاً: «إذاً ما الحلّ؟»، فرددتُ عليه، ورجال الكورنيش يتجمّعون حولي، في الحُجرة نفسها، يُلقّنونني الجُمل التي أقولها: «أنت تعرف الحلّ، وهو في الورقة التي تركتُها لك أمس، ووضعتها في جيبك أمامي، هذه كلِمتُنا الأخيرة...»

والتفت مصطفى نفسه إلى عبد الفتّاح، وإذ الرجُلان مُتّحدان الآن، يضحكان بتحفُّظ، يضربان كفّهما علامةً على تواطؤٍ كامل: «أنت الذي نجوت بنفسِك، ذلك اليوم، يا عبد الفتّاح؛ فقد خطر على بالي أيضاً أن أطلب منك، وأنا في مكتبك، أن تعتقِل ذلك الكلب السنوسي، ولست أدري لماذا لم أقُل لك هذا؛ فقد جرَت الأحداث بسرعة فائقة، وأعلنتَ لي انضمامك إلينا، فلم أفكر بأن أطرح عليك هذا الشرط النهائي؛ فكيف كنت ستتصرَّف؟ هل كنت ستُقدِّم هذه الهدية للثورة...؟

أسَرتْهم القصّة، نعم، وأسرتْنا جميعاً بقوّة خلال فترة الرحلة الجويّة.

والميزة الحسَنة أيضا أنّ الموضوع المُحرِج ـ موضوع الموعد في الإليزيه ـ اختفى.

حين حطّت بنا الطيّارة في مطار بورجيه، كانت الساعة الحادية عشرة. وهنا، حصلت مُعجزة...

كانت تنتظرنا ثلاث سيّارات رسمية.

لم يُطلَب منّا أيُّ إجراء رسميّ.

لا جمارك، ولا شرطة.

إقلاع مُباشر صوب ما اعتدناه أنا وجيل، ونحن نتذكّر زيارات الرئيس بيغوفيتش إلى باريس، والاتصال «بالبوسنو ـ روديو» المعالِمِ الثقافية، والأضواء، والإشارات الحمراء التي نتجاوزها بانتظام، وركلات سائقي الدراجات النارية المُرافِقة لأبواب السيّارات التي لا تُفسِح الطريق فوراً.

وبعد عشرين دقيقة من هذا السباق المجنون، من دون أيّ شرح، وبينما كنّا نُفكّر بأنهم ذاهبون بنا إلى فندق رافاييل، وجدنا أننا وصلنا إلى شارع الإليزيه، وفي مدخل جانبي إلى القصر الرئاسي حيث ولَج موكبنا.

لا بُدّ أن حفل عشاء كاميرون انتهى. لأنّ القصر خالٍ. وبدل الحُجّاب المُعتادين، كان بانتظارنا مُستشار مُناوِب، مُتذمّر، في أسفل السُلّم الجانبي، كي يُصعِدنا أربعة أربعة، ويُمرِّرنا في غُرَف انتظارٍ لم أكن أشك في وجودها، ويقودنا (وعددنا عشرة، إذا حسبنا ابن عبد الفتّاح الذي كان ينتظرنا في مطار بورجيه، وأنا شخصياً) حتى قاعة الاجتماعات نفسها التي اسُتقبِل فيها جبريل، والعيساوي، وعلي، قبل شهر، لكن باحتفاء باهر أكثر، يوم الاعتراف الرسمي بالمجلس الوطني الانتقالي.

دخل جان ـ دافيد ليفيت من باب آخر، ونيكولا غالاي، وقائد مستشاري الرئيس الخاصّين، الجنرال بوغا، ثمّ تركزّت العيون على نيكولا ساركوزي الذي جاء من دون أيّة مراسِم.

وهكذا في هذا القصر النائم، المُتجمِّد، الشبيه بقاعة أعياد بعد إطفاء الفوانيس، في هذا الجوّ الغريب حيث يتّخِذ كلٌّ مكانَه تلقائياً (الفرنسيون من جانب، والليبيون ثُمّ أنا من الجانب الآخر ـ كان عددنا كبيراً على كلّ حال ممّا أوجب أن ينهض غالاي ليذهب إلى غرفة الانتظار ويأتي بِكرسيَّيْن إضافيَّيْن، بينما ظلّ ابن اللواء يونس واقفاً طيلة المُحادثات...)، في هذا الجوّ الغريب، جوّ الأشباح حيث تبدو منظورات الحُجرة نفسها مُتغيِّرةً، وحيث ينعقد الحوار غير المُتوقَّع الذي كنتُ شاهداً عليه، في باريس كما في بنغازي، منذ بداية هذه المُغامرة.

بدأ الرئيس يتحدّث بالفرنسية، وقام بالترجمة المُترجِم نفسُه الذي تولّى هذه المُهمة صبيحة الاعتراف بالمجلس الوطني الانتقالي.

«دافيد كاميرون في باريس. قرّرنا أن نُكثِّف الضربات الجويّة، والانتقال إلى السُّرعة القصوى. إذ لا ينبغي أن يشُك القذّافي بقوّة تصميمنا. لا توجد ذرّة ريبة بيننا في هذه النقطة، حتى ذرَّة واحدة ...»

قاطعه عبد الفتّاح الذي لم يكن باللباس العسكري، بل يرتدي طقماً رمادياً فاتحاً بتفصيلةٍ مُمتازة، وجهه مُنفرِج الملامح، ولا تنقصه اللباقة طبعاً ولا قوّة الانتباه.

بدأ كلامَه بالإنكليزية، بصوتٍ لا تفخيم فيه، كأنّه يُحاول، ولا يستطيع، أن يُبدي النغمة العاطفية التي أظهرها في مكتبه بعد عودتنا من غرفة العمليّات: «السيّد الرئيس، يعرف شعب بنغازي، ومواطِنوها، وقوّات الدفاع التي أتشرَّف بقيادتها، ما يدينون به لفرنسا...»

أومأ ساركوزي برأسه علامة «نعم» ـ لم يستأ من طريقة هذا الضابط ذي الملامح الجسمية الشبيهة بملامح كلينت ايستوود في مُقاطعة كلامه، ولكنّه يُجسِّد الرجُل الذي يعرف هذا ويَودّ الدخول في الموضوع.

«السيّد الرئيس، سيدوم اعترافنا بجميلكم عبر توالي الأجيال. سيبقى أبناؤنا (والتفت إلى ابنه)، وأبناؤكم، وكذلك أولاد أحفادنا، مرتبطين بهذه الأخوّة التي توحِّدنا حين سيرفع شبابنا (وألقى نظرة على الساقزلي، ليس ليجعله شاهداً، بل ليطمئنّ إلى أنّه لن يستغِل التلميح ليختطف منه الكلام بدوره) أعلام فرنسا إلى جانب الأعلام الليبية على خطوط الجبهة. كانت تربطنا علاقات تاريخية. وبيننا، من الآن وصاعداً، روابط دم...»

قام بحركة رفع كمّه، وإظهار أوردة مِعصمه. لكنّه جَهِد في شَدِّ زُرِّ حاشية القميص ولم ينجح في فكّه، وساركوزي هو الذي هزّ رأسه علامة على موافقته، ويستعجِله كي يُكمِل حديثه.

«سيادة الرئيس، نحن في حاجة إلى مساعدة. وبفضل طياراتكم، تسمّرت طيّارات القذّافي في الأرض. لكنّه ما يزال يحتفظ بقوّات. بينما مُقاتلونا لا يملكون شيئاً. بحيث...»

هذه المرّة، قاطعَه الرئيس. إذ لا بُدّ أنّ يكون هذا الرجل قد ذكره بأحد الأشخاص، أو بشيء، أو رُبّما أثّر في مشاعره. لأنني وجدتُ أنّه صَبر صبراً مُدهِشاً. لكنّه انتهى أخيراً بمُقاطعته.

«لقد سبق أن قدّمنا لكم المُساعدة. إذ اعترفنا، هنا، في هذه القاعة نفسها، بمجلسكم الوطني الانتقالي...»

والتفت إلى الجنرال بوغا الجالِس على يمينه، ثُمّ أضاف:

«عندكم أصدقاء آخرون يُقدِّمون لكم أشياء كثيرة. ويتِمّ ذلك، كما تعرفون جيداً، بتفاهُم المجتمع الدولي. وهل يُمكِن أن يتخيَّل أحدٌ من بينكم، ثانية واحدة، أنّ قطر عندما تدعمكم، يُمكِن أن تفعل ذلك من دونِ موافقة باقي أطراف التحالُف؟»

التفت هذه المرّة صوبنا، متظاهراً بأنه يتحقَّق، من خلال استعراض بلاغي ساركوزيٍّ بامتياز. ثمّ قال، من دون تمهيد، والقلَق يُساوِره.

«إذاً معنا حُلَفاء بالتأكيد، وعلينا أن نعمل مع هؤلاء الحلفاء».

ازدادت دُكْنةُ سحنةِ ذاك الذي لا يستطيع حتى أن يُعبِّر عن مدى صعوبة العمل مع هؤلاء الحلفاء.

«عندكم اليونانيون مثلاً. ينبغي تعليمهم العيش. وسيتوجّب أن نشرح للسيِّد باباندريو بأنّه يُعرِقلنا قليلاً. فلا يُمكننا أن نمنع عملية من دون أن نُشارك فيها. وليس بإمكاننا أن نرجو تخريب سفينة في حين أننا لسنا فيها...»

ثُمّ أخذني شاهداً من دون أن أعرف لماذا.

«كالأتراك. يتحمَّلون مسؤولية كبيرة في نظر التاريخ، الأتراك...»

رفع إصبعه وكرَّر، متوجِّهاً دوماً إليَّ، كما لو أنّ المُهدَّد هو أنا:

«مسؤولية كبيرة! يا إلهي، كم أُهنِّيء نفسي على أنَّني أوقفتهم إبّان نقاش دخولهم في أوروبا».

ثمّ قال، بنبرة أكثر خطورة، متوجِّهاً هذه المرّة إلى الليبيين:

«إنّهم كالأميركيين. يؤسفني أن يفقد الأميركيون روح المُبادرة. لكنْ كونوا مُطمئنّين: سوف أعيدهم، أنا وكاميرون، إلى صفِّنا، وليس من المُمكِن ألا يسمع صديقُنا باراك أوباما حُججَنا، وينأى بنفسه عن هذه العمليّة».

سأل علي، الذي لم يكن قد تحدّث بعد، إن كانت فرنسا وإنكلترا، في حال ساءت الأمور، قادرتَين على المُتابعة من دون الولايات المُتحدة الأميركية.

«فأجابه الرئيس: أجبتَ عليَّ هذا السؤال في لقائنا الأوّل!»

وتعرَّف في علي على واحد من الأعضاء الثلاثة الذين التقى بهم في 10 آذار/ مارس، لذلك لم يكن سؤاله مُفاجئاً كثيراً. فأكثر ما يُميّزه أنّه يتذكّر تفاصيل أفكاره في ذلك اللقاء.

«هناك وسائل لا يملكها أحد غير أميركا. ونحن في حاجة إلى تلك الوسائل، على الأقل من الناحية التقنية. أمّا في ما يتّصل بالباقي فنعم، يُمكننا، كما قُلتُ لكم، أن نُحارب من دونهم».

صمتَ عدّة لحظات. يبدو أنه فكر خلالها. ثُمّ حدَّد فكرته بالقول:

«هذه مسألة أقرب إلى أن تكون نظرية؛ لأنّ بإمكان باراك أوباما أن يحكي ما يُريد: ولا أرى أن الأميركيين يأتون ليشرحوا للعالَم أنّهم غير مُشاركين في الحرب. والآن، إذا كان سؤالك هو «هل ستبقى هذه الحرب أوروبية؟»، فالجواب هو: نعم، ستبقى، في مجموعها، حرباً أوروبية».

وكرّر كأنّه يُخاطب نفسه.

«حرب أوروبية».

وبعد أن رسم على ورقة أمامه بداية شكل غريب، جدَّد القول:

«نحن، بحسب كلّ احتمال ظاهر، الذين نستمِرّ في التزويد بالوسائل الأساسية، وبتنفيذ الضربات الجويّة».

ثمّ أكمل بلهجة من انتهى من المُقدِّمات، ويُريد الوصول إلى الأشياء الملموسة:

«إذا الوسائل تحديداً... أطلب منكم التكتُّم إلى أقصى حدّ في هذا الأمر، طبعاً...»

وكرَّر كأنّه يبغي أن يطمئنَّ إلى أننا فهِمنا قصدَه:

«التكتُّم إلى أقصى حدّ...»

وبعد أن مسح الطاولة بنظرته كما لو أنّه يُشدِّد على أنّ الحضّ على التكتُّم موجّه إلى كلّ فرد:

«المُدرِّبون، المتوفِّرون أصلاً. كم مُدرِّباً فرنسياً بالضبط يوجد على الأرض الليبية؟».

التفت صوب ليفيت، الذي بدا مُتضايقاً، وأجاب إجابة غير مسموعة.

«لا أهمية لمعرفة العدد بالضبط. لكننا أرسلنا إليكم عدداً من الفرنسيين الذين يتكلّمون اللغة العربية. وسوف نُرسِل منهم عدداً إضافياً أيضاً في الأيّام أو في الأسابيع القادمة. ولا أحد يستطيع حينئذٍ أن يقول إننا لم نتحمّل مسؤوليّاتنا. لا، فالمسألة الحقيقية هي مسألة المعدّات التي يحملونها معهم. أنتم في حاجة إلى أيّ شيء بالتحديد؟»

هنا، أخرج مصطفى الساقزلي من جيبه القائمة التي قدّمها لنا في بنغازي، ونهض ليدفعها، من دون تمهيد، عبْر الطاولة، أمام الرئيس، سابقاً هذه المرّة عبد الفتّاح.

«نحن في حاجة إلى هذه يا سيادة الرئيس. هذه هي قائمة بما نحتاج إليه على جناح السُّرعة».

بعد هذا، بقي واقفاً، وبدا أقصر من عبد الفتّاح، لكنّه ازداد طولاً نتيجة توازُنه، ولباسه «الموحَّد» كرئيس للشباب (شال مُخطّط، وقميص أزرق بمربّعات، وسروال جنز...) كان يلبسه عندما أتينا لنأخذه من بنغازي، ولم يُبدِّله بعد ذلك، وانطلق، بدوره، في خطابٍ غنائي شعرتُ أنّه حضّره سابقاً، مثلما فعل عبد الفتّاح. اعتراف بالجميل أيضاً... وقضية ملعب بنغازي الذي كان اسمه تشافيز، وأُطلِق عليه اسم ملعب ساركوزي... ثُمّ أعاد سرد قصّتي كلِمة كلِمة كما سبق أن حكيتُها له في الطيّارة (لكنّي شوّهتُ ملامحها مُتأكِّداً من أنّه سيحكيها، كما هي، للرئيس)، فقال كم يُحِبّ شعب بنغازي فكرة رئيس فرنسي، وهو يتناول «آخر لُقمة» في غداء رؤساء الدوَل نهار السبت، ولم يأخذ وقتاً حتى ليشرب «فنجان قهوة، ولا ليطوي منديله» يتّصل بالمجلس العسكري لُيعلِن ساعة الصِّفْر وبدء العمليّات.

ابتسم ساركوزي. وصحّح في حكايته.

«هذا أعقد من ذلك قليلاً. وأنت تعرِف جيداً أن الطيّارات، لكي تقصِف في الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر، يجب أن تكون في الجو منذ التاسعة صباحاً، ولا بُدّ أن يكون الأمر قد أُعطيَ في اليوم السابق، مساءً. ولكي نُعطي الأمر قبل يوم، لا بُدّ أن نكون مُستعدّين منذ عدّة أيّام سابقة. وبعبارة أخرى: لكي أتمكّن من القصف، وأنا أبتلع آخر لقمة كما تقول، كان عليَّ أن أتصرَّف ـ وأتمنّى أن يبقى هذا بيننا ـ مع القانون الدولي».

ساد صمتٌ حول الطاولة. نظرة المُستشارين قلِقة. لكنّ الرئيس أراد أن يختم حديثه، فتناول قائمة الساقزلي، ولمّا اكتشف أنّها مكتوبة باللغة العربية أعادها، وكرَّر سؤاله.

«ماذا تحتاجون بالتحديد؟»

أمّا مصطفى الذي مرّرتُ إليه خِفيةً ورقة أطلب منه فيها أن يختصِر، فقد لخّص قائمته في خمس دقائق، وعرض الخطوط العريضة لخُطّته في قصف ليبيا من الوسط.

لكنّ عبد الفتّاح وجد أنه لا يستطيع في المجال العسكري أن يسمح لمدني بتجاوزه، ورُبّما، مَن يدري؟ وخصوصاً هذا المدني الذي استغلَّ لحظة صمت ليشرح أنّه في حاجةٍ إلى أسلحة

مضادّة للدروع من أجل بنغازي، غير أنّ الفكرة الأخرى،أي الخطة التي لم يُفكّر بها أحد، لكن هو الاستراتيجي أمام الخالد، والعارِف الخبير بنفسية عدوّه، إنّما جاء يعرض فكرة تسليح المُقاتلين في جبل نفّوسة، في هذه المناطق الجبلية، جنوب طرابلس حيث يُقاوِم العرب والبربر جنباً إلى جنب هذا الطاغية.

لاحظ أنّه سجّل نقطة؛ لاحظ نوعية من الصمت الجديد حول الطاولة، فأضاف ـ وفي صوته قليل من الحماسة.

«سنضرب عصفورَين بحجر واحد يا سيادة الرئيس، بل ثلاثة. ولِمَ لا نضرب أربعة بحجر واحد. أوّلاً في جبل نفّوسة، نحن فوق العاصمة. ثانياً، إنّ لدينا هناك مُقاتلين أشدّاء أعرفهم جيّداً، ولا يُهزَمون إذا تمَّ تسليحُهم. وثالثاً، القذّافي يتوقّع كلّ شيء إلا هذا، وبالتالي سيؤخَذ بالمُفاجأة. وأخيراً سوف نُبدِّد بنيران المعركة المشتركة، التنافُسَ القديم بين القبائل العربية وقبائل البربر».

الليبيُّون يُنصتون.

والمُستشارون يُسجِّلون الملاحظات.

الرئيس لم يُسجِّل شيئاً ـ غير أنّ في نظرته رصانة تدلُّ على أن الفكرة راقت له، بعد أن انتهى عبد الفتّاح.

أمّا أنا فلاحظت أنّه سجّل الفكرة في ذهنه، لاحظت هذا النوع من الرصانة، التي تصل حدّ الوقار الذي غمر وجهه حتى بدا فرِحاً تقريباً؛ وربُما بسبب الطابع الضبابي للمشهد، وربَّما بسبب التعب الذي ألمّ بي وبدأ يُشوش أفكاري، وأفكار الرئيس أيضاً التي لاحظتها، أعني الملامح التي بدأت تتراءى على مسرح وجهه، والأقنعة المتتالية التي رأيتُه يضعها منذ تعرّفت عليه، والتي تُلخِّص سيرتَه الذاتية (الذئب الفتيّ سنة 1983، والشيراكي المُقلَّد، ووصيف بالادور، وذئب الأوروبيين المهزوم سنة 1994، والظافر بالرئاسة سنة 2007 ـ هنا، فجأة، وفي نهاية هذه الصُّوَر التي تنزلق كصفحات كتاب حياة، ظهرت هذه الهيئة الحازمة الجديدة التي لا أعتقد أنها قِناع.

«قال أخيراً: هذا واضح، واضح جداً».

ثُمَّ التفت صوب بوغا، باطمئنانِ من لم يَعُد يُساوِرُه أيُّ شكّ.

«سوف ترى ذلك كلّه غداً. سترى نفسك بين مُحترِفين، بين رجال مُختصِّين. وسترى هذا باسمصيل، لكنّه واضح من حيث المبدأ».

بعد ذلك، نهض بخطوة مُتردّدة قليلاً، وأومأ إلى مُرافقيه بعلامة نهاية الجلسة.

وهنا، طلب ابن عبد الفتّاح الذي قال له أبوه في الطيّارة إنّه يُشبه ساركوزي، لحظةً لكي يلتقِط صورة مع الرئيس: ما إن وافق الرئيس حتى سارع الشركسي لالتقاط الصورة من كاميرا هاتفه المحمول.

احتشدت المجموعة أمام شاشة الهاتف المحمول لتتأمّل بشغف الصورة التاريخية، وصرخ أحدهم مُتعجِّباً (رُبّما علي) أو منصور، أو عبد الفتّاح تحديداً: «طبعاً! غير معقول هذا الشّبَه بينكما»، فاقترب الرئيس أيضاً، ونظر إلى الصورة، ورُبّما لكي يُلطِّف الجوّ الذي شعر، هو أيضاً، أنّه مُكفهِّر، أجاب: «لستم لطيفين مع هذا الفتى، فهو أجمل منّي بكثير».

أمّا الفتى الذي تشجَّع بكثير من الألفة، ورُبّما تأسَف لأنّه لم يتحدّث في الجلسة، فردّد، بينما كنّا نتخطّى عتبة القاعة، أنّ الشعب الليبي «لن ينسى أبداً حركة الرأي العام التي تعبُر الشعب الفرنسي وتُقرِّبه من الشعب الليبي». فأجاب الرئيس من جديد بروح الدعابة، وكأنّه أراد بإصرار أن يقطع النغمة المأساوية التي تركها تُخيِّم على الجلسة: «الرأي العام الفرنسي، علينا ألا نُبالِغ في أمره»؛ ثُمّ أشار إليّ قائلاً: «لم يَعُد هناك، في هذا البلد، غيره يدعمُني - أمّا الباقي فـ...»

وحين أجابه منصور بالقول: «نعرِف هذا، ولهذا السبب له شعبية كبيرة في بنغازي»، انفجَر ضاحكاً، ولكزني مُجيباً: «حسناً، خذوه من عندنا، وسوف يُرشِّح للانتخابات، ويفوز فيها، وهكذا ستكون بيني وبينه علاقات دبلوماسية طبيعية».

افترقنا بعد هذا مُباشرة.

هذه المرّة، افترقنا جديّاً.

كانت السيّارات تنتظرنا لتنقلنا، في نفس قطار الجحيم، إلى فندق رافاييل حيث ينبغي أن أحُلّ مشكلة الغُرَف التي يجب حجزها للشُّرطيين، شُرطي وشُرطيّة، لم أكن أعرف أنّهما يجب أن يناما في الفندق مع الوفد.

الساعة الواحدة صباحاً.

استمرّ الاجتماع حوالى ساعة.

الخميس 14 نيسان/أبريل، (بانهار انتيرميزيو)

بعد الوقار جاءت السُّخرية، وحتى التهريج. اعتقاداً منّا أنّ هذا، في إيقاع هذه الحرب، تناوبٌ لا بُدَّ منه. إنّها ساعة الظهيرة. وكنا جميعاً في فندق رافاييل. وكان الليبيّون قد عادوا توّاً من موعدهم مع نُظرائهم من «رجال الفنّ»، وقد حصلوا، بسِريّةٍ مُطلقة، على تأكيد القرار الفرنسي بمُساعدتهم على فتح هذه الجبهة، في جنوب طرابلس. إنّهم سُعداء. وينبغي أن يأتي سائقون في الخامسة عصراً ليأخذوهم إلى فيللاكوبلي حيث تنتظرهم طيارة نقل من سلاح الجو ستنقلهم، بحسب الوعد، إلى بنغازي. وبقيت أمامهم عدّة ساعات كي يكتشِف أحدُهما باريس، ويكتشفها الثاني من جديد، ويذهب الثالث إلى محلاّت عطور هيغو بوسّ، وإلى جادّة الشانزيليزيه ليتموّن بالقُمصان، ويستقبل الرابع، وهو مصطفى في بهو الفندق الذي يتّخِذ أجواء العيد، بعض أولاد عمومته القادمين من ضاحية أوبرفيلييه ـ أمّا عبد الفتّاح يونس فراح يستقبل على التوالي، كما في جلسات الاعتراف، سفيراً قديماً في باريس أو في اليونسكو، أو واحداً من أنصار القذّافي فعل مثله وأعلن انشقاقَه عنه، وأصدقاء ابنه، ورجال أعمال.

سُرعان ما دخل وتوجّه نحوي، فرنسيٌّ في الخمسين من عمُره، أصلع، يُعلِّق على كتِفه حقيبة ضخمة، يُجسِّد شكلاً زائفاً لبرنار بلييه في دور المُفتِّش مورفانديو في فيلم «مائدة باردة» Buffet froid، وفي يده بطاقة تعريف، ورأسه أنيق.

ـ أنت برنار ـ هنري ليفي؟ اسمي كريستيان مونس. أنا رئيس بانهار.

قلت له: أتشرّف، أتشرَّف حقاً.

دُهِشتُ قليلاً من اكتشافي أن سيارات بانهار ما تزال تُصنَع. وبِحُكم أنني لم أقُد سيارة بانهار أبداً، ولا أعرف عنها شيئاً، لم أندهش من اندهاشي. وصحيح، بالإضافة إلى تشرُّفي بمعرفة الرجل، أنّ كلِمة «بانهار»، تُذكِّرني، ككلِمتَي آروند وسيمكا، بسيارات عرفتها في طفولتي.

قال الرجل وفي صوته شيء من التواطؤ: «لديَّ انطباع بأن كلّ شيء جرى على نحوٍ جيِّد».

ـ قلت له بحماسة: أوه! أفضل من جيِّد، وكل الناس سُعَداء.

ـ وهل نجح اجتماع هذا الصباح نجاحَ اجتماع الليل الماضي؟

ـ طبعاً. توليف كلّ ما قُرِّر. لاشيء أكثر من هذا، لكنْ لا شيء أقلّ منه.

ـ تمام، تمام.

يبدو سعيداً حقّاً. ويتلذّذ المرء برؤية مدى سعادة هذا الرجل. قلت لنفسي لا بُدّ أن يكون صديقاً ليونس الذي يقلَق لكنّه يفرح، من أعماق قلبه، بنجاح المهمّة. اللّهم إلا إذا كان لبانهار مصالح في ليبيا؟ ماركة مُرخَّصة الثمَن؟ مصنع؟

كرّر قائلاً: إذاً كلّ شيء على ما يُرام. كان ثقيل الظلّ قليلاً، لكنّه دائم السعادة.

ـ في اعتقادي، نعم.

ـ تعتقِد أم أنّك مُتأكِّد؟

ـ هيّا! أنا مُتأكِّد. لم أكن في اجتماع هذا الصباح. لكنْ لا شك عندي في أنّ كلّ شيء يسير كما ينبغي.

ـ والتفاصيل؟

لفظ كلِمة «تفاصيل» مع حركة من ذراعه كنست مكتب الاستقبال، وفي طريقها، كنست مكتب موظّفي الاستقبال، والصندوق. فأدركتُ فجأةً أنّ هذا الصديق هو أيضاً فاعل خير، وداعم للقضية الليبية، دفع للتوّ حسابها فعلاً.

«التفاصيل أيضاً»، قلت هذا مع الإيماءة التي نقوم بها في المطعم حين نُريد القول للمدعوّ إنّنا نحن الذين سندفع الحساب، والدعوة ليست موضوع تفاوض.

قال بإلحاح: منذ متى أيها المُعانِد؟

أجبته مُقرِّراً ألا أستسلم: منذ أمس مساء.

ـ أنت مُتأكِّد من حُسْنِ سَير الأمور؛ لأنّ هذا مُهِم بالنسبة لي، أليس كذلك؟

ـ أفهم ذلك طبعاً، ولكنّه مُهِم بالنسبة لي أيضاً. هذا يُسعِدني.

كرَّر قائلاً، بهيئة المُنزعِج طبعاً، حسناً، طيِّب...

ثُمّ قال وهو مُتضايق بالفعل، ومُمتقِع:

ـ كلامك يكفيني، بطبيعة الحال.

ـ أرجو ذلك!

ـ لا أحد يشكّ بكلام برنار ـ هنري ليفي. لكنْ قد تستطيع...

ـ نعم؟

ـ لا أعلم... أن تؤكّد لي هذا كتابياً...

في النهاية، بدأتُ أجِد هذا الرجل، وهذا الحديث، غريبَين. لكنْ بما أنني كنتُ أتأخّر في إجابته، عدّ صمتي علامة على الموافقة، وضرب ضربته.

«توقيع فقط. توقيع بسيط يُمكن أن يطلبه من يهمّه الأمر. يجب أن تكون الاستمارة هنا، في حقيبتي...»

وضع حقيبته الجلدية على طاولة البوّابين، وحين فتح لاحظتُ أنّه رتّب في عُمقها كرّاسات صُوَر فنسيت لحظة تضايُقي، ولم تُفارق عينيَّ هذه الكرّاسات الجميلة التي رغبتُ في أن أرى نوع السيّارة الذي يُمكِن أن تُشبهه سيّارة بانهار اليوم. لكن لمّا كان الرجل يقرأ أفكاري، ويُريد إدامة اللذّة، توقّف... وفي عينيه بريق خبيث، وغمغم:

- هذا لأننا نملك السيّارات الجميلة كما تعلم.

قلت والفضول يفترسني: لا أشكّ في هذا.

- سيّارات جميلة جداً.

- نعم، أتحرَّق لِتُريني إياها.

- لأنّ عليك أن تعرف أنّ الأمور تسير بسرعة إذا أُعطِيتُ الضوء الأخضر.

- الأمور؟

- نعم. الطلبات. لأنني سأبوح لك بسِرّ...

- تفضَّل.

بدا هنا بهيئةٍ داعرة تماماً، وبدأ الموقف كلّه يظهر لي معتوهاً. طلبيّات بانهار لبنغازي؟ هذا لا معنى له. خفّض صوته. وهمس في أُذني تقريباً:

- في الحقيقة، شُحنة السيّارات جاهزة في المنطقة. وهي سيّارات رائعة. وبما أنّ الشاري لم يدفع ثمنها، فيمكننا إرسالها بسرعة...

أدركتُ في هذه اللحظة أن بيننا سوء تفاهُمٍ كبيراً، وأنّ بانهار لم يعُد يصنع سيّارات منذ زمن بعيد، وسيارة أبويَّ «Dina X»، ومُنتِج شبيهتها برنار بلييه يبيع، في الواقع، سيّارات عسكرية، وأنّ الورقة التي تنقصه، وهو في حاجةٍ إليها، والتي أفترض أنه كان يُريدني أن أشرِّع توقيعها، إنّما هي الموافقة على تصديرها كمواد حسّاسة مطلوبة في هذه السيّارات... فانفجرتُ ضاحكاً. وبينما كنتُ لَسكِّر حقيبته بعنف كما لو أنّ شيطاناً سيخرج منها، وبعد أن فقدت أدنى رغبة، حقاً أدنى رغبة، في أن أرى بضاعتَه، شرحتُ له أنني لا علاقة لي لا من قريب ولا من بعيد بكلّ هذا، وقُدتُه فوراً إلى طرف اللوبي حيث يشغل يونس كرسي الاعتراف والصالون.

فهِم يونس فوراً. فهو لا يُريد أن يعرف شيئاً، لذا ذهب لينعزِل، كما اقترحتُ عليه، في الصالون الأصفر الذي حجزتُه، قبل قليل، من أجل مُقابلة ستُجريها لوس أنجلس تايمز مع سليمان فورتيه (شعرتُ أنّه يرى هذا الصالون عقوبة تحرمه من سعادة أن يقوم بمُشتَرياته العسكرية وهو يرى في الوقت نفسه أصدقاءه الليبيين في باريس خارِجين وداخلين يُحيّونه ويُعانقونه). لكنّه سيفهَم حين يقتضي الأمر أن يفهم. وهكذا فالقائد العام عبد الفتّاح يونس، الرجل الذي كان شديد الإخلاص للقذّافي، وهو من الآن وصاعداً، قائد قوّات الدفاع عن بنغازي والقوّات الليبية الحُرّة يشرع هنا، وأمام البوّابين المذهولين، في تقليب أوراق كرّاس صوَر بعنوان «تشكيلة كاملة من القذائف ذات الدواليب لدعم معارك السلاح الأبيض» وأمنها، وفي الشراء منها ـ كما يشتري سليمان فورتيه أو الشركسي من محلات عطور هيغو بوسّ.

خلال الحديث بين الرجُلَين، استرقتُ، رغماً عني، بعضَ حوارهما.

إنّه برنار بلييه المزيَّف الذي يشرح للّواء، وهو يفتح الكرّاس المُصوَّر على ورقة مزدوجة يظهر فيها نموذجان من الدبّابات مُتطابقة في الظاهر، أنّ الاختلاف بين النموذجَين هو الدواليب المصفّحة التي ستُكلِّفه، إذا اختار شراءَها، سعراً أغلى بما لا أدري من عشرات الآلاف من الدولارات الإضافية عن كلّ دولاب.

فأجاب عبد الفتّاح، كسيّد كبير، وبلهجة «هيّا، هذه جولتي»، بأنّه يختار هذه الدبابات، وأنّه جاهز، إذا كان هذا يُفيد ويُسرِّع إرسال الدبّابات، أن يدفع بالطريقة التي يُريدونها ـ تحويل مصرفي، أو شيك، أو نقداً، وفوراً، فكلّ شيء مُمكِن.

الجمعة 15 نيسان/أبريل، (مع رئيس الطيّارين الفرنسيين)

باريس.

الجنرال جان ـ بول بالوميرو

رئيس هيئة أركان سلاح الجوّ

هو الذي طلب أن يراني.

لماذا؟ لستُ أدري. لأنّ الرجل لبِق لكنّه مُتحفِّظ. لطيف غير أنّه قليل الكلام. وقد قضيتُ معه ساعة في مكتبه في البورت دو فيرساي، من دون أن يُعبِّر لي بوضوح عن سبب دعوته لي.

رُبّما أراد فقط أن يشكرني على «مواقفي التي اتخذتها»، وعلى «الدور الذي لعِبتُه».

ورُبّما لفكرته أن يُحمِّلني رسالة من خلف حجّة صدأ الأجهزة، والانقطاع الوشيك لمخزون التموين، أو إنهاك الطيّارين ـ «صحيح أن عند بعض البُلدان مثل هذه المشاكل، وهذا من جهة أُخرى شيء جيّد أن يخوضوا تجربة عظيمة تسمح لهم أن يتنبّهوا إلى هذه المشاكل؛ لكن نحن، في فرنسا، فلا نُعاني من هذا، فأداتنا العسكرية، كما نكتشف كلّ يوم، عالية الأداء إلى حدٍّ أقصى، وهذا ما ندين به لإصرار مسؤولينا السياسيين، ورؤسائنا منذ عشرات السنين».

أو رُبّما كان يرغب فقط في أن يعرف هذا المدني الغريب الذي لا يمتلك الارتباط الشعوري الخاص بمؤسَّسته، والذي لم يؤدِّ خدمة العلَم، لكنّه دافع عن التدخُّل، والذي يُدين اليوم خِفّة الحسّ الجمهوري، وتهتكه، وإفلاسه، كما يُدين النساء والرجال ممّن يستنكرون «التورُّط»، ويتمنّون إيقاف كلّ شيء.

كان لي، من الجانب نفسه، هدف أوّل هو أن أسأله عن مصراطة التي كنتُ أنوي بإصرار، منذ عُدتُ منها، أن أذهب إليها.

والهدف الثاني: أن أسلّمه، مهما حصل، تسليم اليد خارطة ليبيا، والآن وقد مرّت خطّة يونس، أتى دور «خطّة كفرة» لمصطفى الساقزلي.

للأسف، لم يُقدِّم لي معلومات لا أعرفها مسبقاً.

حول النقطة الثانية، أصغى إليَّ: من المفروغ منه أنّه وجّه إليّ أسئلة سديدة (بدءاً من تلك التي لا أعرف الإجابة عنها)، وافترقنا على فكرة أن القذّافي، سواء بدأنا من الكفرة أم لا، وسواء اعتمدنا خُطة القصف من وسط ليبيا أم لا، قد انهزم، وفي كل الأحوال هو مهزوم ـ ونحن نصل إلى نقطة القطيعة، النقطة الحقيقية حيث سيكون مُضطراً للاستسلام أو للاستقالة.

الخميس 16 نيسان/أبريل، (عمٌ يُجيد الرَّمي اسمه لانزمان)

نشر لانزمان مقالة في جريدة اللوموند.

ر. نبّهني، خلال الليل من خلال رسالة إلكترونية غريبة. «عزيزي برنار، سوف تقرأ غداً في جريدة «اللوموند» (بل اليوم؛ لأنّ الساعة الآن الواحدة والرُّبع صباحاً) مقالاً بتوقيعي

سيُسبِّب لك إزعاجاً. وعلى الرغم من التوقيع الذي أُنتزِع مني انتزاعاً، فأنا غير موافق على شيء من أفعالك في ليبيا، وعن الابتزاز الذي تُمارسه على سياسات سريعة الانفعال (وأنت تُسرّع انفعالها بالتأكيد). أنت لستَ سيّد العالَم، وإذا كنت تعتقِد ذلك، فسوف تُهشّم نفسَك، وتفقد صوابَك، وتوازُنك، وهذا يُحزنني إلى أعلى حدّ. رأيتُك على قناة شارلي روز شو. أنت تتكلّم إنجليزيةً ممتازة، لكنّك لا تسمع أيّة حجة مُضادة لحُججك. لن أنسى شيئاً مما فعلتَه من أجلي، لن أنسى كرَمك معي، وأنا أحتفظ لك بمشاعر الصداقة، ولا أعتقِد أنّك تُبادلني نفس الشعور. سوف أكون آسِفاً على هذا، وأنا آسف سلَفاً. عليك أن تعرِف أن أسباباً صائبة وعميقة جداً أوجبت أن أقوم بهذه الوثبة. قبُلاتي. كلود».

ما هذه الأسباب الصائبة والعميقة؟ ضغط؟ توصيَة؟ رؤيته الشخصيّة، التي يعيشها قسراً، لمصالح إسرائيل أمام موجة الثورات العربية؟ أم مزاجه الخاص وحسْب؟ أم هذا الحسد الذي يستهدِف كل مُعاصِريه من دون استثناء، وعلى الجبهات كلّها، من أكثرها رصانةً إلى أكثرها عبثيّة (لم أجِد على الإطلاق واحداً من زُملائه نجح، في رأيه، في كتابة نصّ، أو في تأليف كتاب، أو نجح في بطولة رياضية، في السباحة، أو في الغطس، أو تشرّف بصداقة أحد غيره، من دون أن يدّعي بأنّه قادر على أن يقوم بمثل ما يقومون به، وأنه في هذا المجال، كما في مجال السينما ليس ترتيبه أقلّ من الأوّل)؟ أم أنّه، كما قالت لي إحدى صديقاته، لا بُدّ أن يكون إنساناً من عصر آخر، تحديداً من عصر آخر، وأن مبدأ هذه الحرب الجويّة قد يُثيره؟

أتذكر في رواية **عُمق الهواء أحمر**[2] غيظ كريس ماركر الشديد على هذه الطيّارات الأميركية بفُسيفسائها الناعمة التي توافَق فيها المشهد الأنيق مع قصف فيتنام بقنابل النابالم. ربُّما فكّر لانزمان بهذا، ورُبّما يكون في الموقف ذاته. وقد يشهد على هذا تقريظه الغريب، المؤرِّخ، بالفعل، من الحرب عن قُرب، الحرب المباشرة ـ الفكرة القديمة المصطبِغة جداً بأفكار دريُّو أو مونتيرلان، وبارايس، وأن قيمة الحرب الرجولية، بالتلاحُم، أفضل من الحرب المُجرَّدة، الحرب من الجوّ. أنا لا أُحِبّ التفكير بهذه الطريقة. فما أكنُّه لكلود من الصداقة، والحنان يمنعني من أضعه في هذه الخانة. لكنْ مَن يدري؟ على كلِّ حال، الحرب الإيديولوجية بدأت. ويُزَجُّ بمجد مُنتِج فيلم **المحرقة**[3] كلّه في المعركة. لكنّه زُجَّ من الجانب الآخر، الجانب الرديء، جانب السياديِّين، ومُعارِضي التدخُّل. وهذا مُزعج.

الثلاثاء 19 نيسان/أبريل، (لانزمان أيضاً)

نُشِرتْ مقالتي في عدد البارحة من جريدة **اللوموند** حيث وجّهتُ أوّل كلامي الجارح لكلود، آخذاً في الحسبان إقامتي الثانية في بنغازي. ولن تتأخّر زاويتي عن الظهور في **اللوبوان** Le Point. ومقالة جيل «وداعاً لانزمان» المنشورة هذا الصباح في جريدة **ليبيراسيون**. هذا كثير جداً، وأنا لا أُحِبّ ذلك. لكنْ ماذا في وُسعي أن أفعل غير ما فعل؟ وخصوصاً أنني تلقّيت للتوّ خبراً أذهلني. كنت أتناول طعام العشاء. بعثتُ رسالة نصيّة إلى الرئيس وقلت له إني سأكون سعيداً في أن أتكلّم معه، إذا رغِب في ذلك، عن زيارة الرئيس عبد الجليل إلى باريس غداً. فاتصل بي. ولكن قبل أن يفتح موضوع الزيارة، حكى لي هذه القصّة التي، لو لم تكن قد حدثت، لأثارت الخِلاف بيني وبين كلود. إذ بدأ هذا الأخير، يوم الأربعاء، بعد الغداء، بإمطار مكتب أمانة سِرّه بالمُكالمات العاجلة. وبعد ثلاثة أيام من الحرب المُضجِرة، اتصلتْ به أمانة السِرّ ووصلته بالرئيس. فسأله كلود: «هل قرأتَ مقالتي؟ فسأله ساركوزي الذي أُصيب بالذهول: أيّة مقالة؟ وحينئذٍ شرع كلود ينتقِدني انتقاداً حادّاً، وينتقد «طرائقي» في تسخير مؤسَّسات بلادي لأغراضي ومصالحي الشخصيّة، ممّا أدهش الرئيس - وأرعبني من هذه الطريقة المُبتكرة من المواجهة الثقافية.

الأربعاء 20 نيسان/أبريل، (ليبي في باريس)

قام مصطفى عبد الجليل بزيارة رسمية إلى باريس. كنتُ أُحِبُّ أن أُشارك في المُحادثات. لكنَّ ليفيت اتصل بي ليقترِح عليَّ ما يُسميِّه «قاعدة لُعبتنا» من أجل الفصول القادمة: «بما أنّك أنت مَن أتى بالثوّار إلينا، فقد كان طبيعياً أن تحضُر معهم، ولكن حين تدعوهم الجمهورية، فعليك أن تمّحي، وتُخلي المكان لمُمثّليها المُعتمَدين». لا شيء يُمكِن أن أعترِض عليه. وبالتالي تابعتُ عن بُعْد هذا اليوم الخالِد بكلّ المعايير. وسأوجِز القول في هذا.

الساعة العاشرة. مطار بورجيه. كنتُ هناك مع علي زيدان لاستقبال الرئيس الليبي وإعطائه، إذا أراد، توضيحَين أو ثلاثة توضيحات. هل يودّ؟ حسناً. ما حدث في ساحل العاج حاضر سلَفاً. أهمية الطريقة التي تمّت بها إزاحة الرئيس غباغبو، في فرنسا عامّةً، وبالنسبة لنيكولا ساركوزي خاصّة. وحقيقة أن يتصرَّف القذّافي «على طريقة غباغبو»، وأنّ هناك، بالتأكيد، بالنسبة لسقوط القذّافي القادم، دروساً يجب استخلاصها من سيناريو سقوط

غباغبو. ومن القضية الإفريقية بوجهٍ عام. قضية رؤساء أفريقيا، أصدقاء فرنسا وحلفاؤها، الذين اشتراهم القذّافي، وعاملهم كأنّهم خدَم عنده، وهم يُشكّلون له مُنحدَراً واقياً من الضروري، في نظري، تحطيمُه. ونصحته طبعاً بأن يُذكّر نيكولا ساركوزي بدعوته للمجيء إلى بنغازي وبوعده للواء يونس، في 13 نيسان/ أبريل، الذي تأخَّر تنفيذه، وهو وعْدُه بتسليح بربر الجبل. ونصحتُه في النهاية بأن يطلب ثلاثمائة عنصر من الوحدات الخاصّة، تتقاسمها فرنسا وبريطانيا، لتوجيه الضربات الجويّة، وتدريب مِظلّيي النُخبة الليبيّين، واحتلال الكفرة في اللحظة المناسبة. كان مصطفى عبد الجليل يُصغي إليَّ. لا يُجيب بشيء، لكنّه يُصغي.

اتصل الرئيس الفرنسي بعد أن انتهى اللقاء في الثانية عشرة والنصف - قال لي إنّه كان سعيداً بالطريقة التي تمّت بها الأحداث. لم يكن يعرف عبد الجليل. فوجد أنّه صادق، مُتّزن، مُرهَف سياسياً، ومنزّه عن الغرض. لذا أخذ على عاتقه، في حضوره، عدّة التزامات قويّة: تكثيف الضربات الجويّة في مُحيط بنغازي، ومصبّاتها النفطية؛ وعمليّات خاصّة في مصراطة، لفكّ الخناق الذي يسحق سكّانها المدنيّين؛ وتكثيف الضغط على البُلدان الإفريقية التي لن تسمح لها فرنسا بعد الآن أن تكون مُزوِّداً بالمُرتزقة، وتودّ أن ينكسِر تحالُفها؛ وفي النهاية رضا جُزئي بالطلبَين أو بالطلبات الثلاثة التي وشوشتُ بها عبد الجليل، وطلبَها بدوره، بما فيها مظليُّو النُخبة. ومرّة أخرى، أدهشني حزمُه. مرّة أُخرى، أسرني هذا الثبات الذي لا شيء يخدشه، هذه الإرادة في المُضيّ إلى النهاية. يا لها من طريق مختلفة سلكها، منذ الأشهر الأولى لرئاسته، حيث بدت التفاتاته السياسيّة أنّها أدوات سُرعان ما يملّها إلى حدّ أنّها تستولي عليه (إحياء ذكرى جوريس... وذكرى غي موكيه...). ويا له من اختلاف حتى مع الفترة البعيدة جداً التي كان مفتوناً بها، لكن كي ينساها حالاً، أعني تبنّي أطفال المدارس الفرنسية لأطفال موتى المحرقة النازية (لم أُحِبّ هذه المُبادرة، وحاربتها مثل كثيرين، لكنّ أكثر ما أدهشني هو اليُسر الذي حيَّد معه اقتراحه أمام موجة الاحتجاج التي أثارها). هنا، العكس تماماً. لا شيء يُمكِن فِعلُه. غياب لكلّ طيش، ظاهرياً على الأقلّ. وذهنية مُتابَعة يجب القول إنّه من خلالها يفرِض الاحترام. فما الذي حصل؟ تُرى هل تغيَّر؟

الساعة الواحدة بعد الظهر. التقيت من جديد عبد الجليل والعيساوي في جناحهما في فندق موريس حيث حكيا لي القصّة - المرآة للقاء في سلسلة من الانقطاع الناتج عن رنين هاتفَيهما المحمولَين اللذين تُركا مفتوحَين. معنا قليل من الوقت. عبد الجليل مبسوط. مما

جعلني أستغِل الفرصة لأسأله ـ للمرّة الأولى، عن قضية المُمرِّضات البلغاريات. الخبر السعيد أنّه لم يُصبح وزيراً للعدل إلا سنة 2007، أي في نهاية القضيّة. والخبر السيّئ أنّه ترأس طبعاً المحكمة العُليا التي أكّدت بالاستئناف إدانة المُمرِّضات البائسات. والخبر الأسوأ أيضاً أنّ بنغازي بدت، بحسب ما روى، بمُواطناتها، ومُواطنيها، وأصدقائي الذين تعرّفت عليهم على الكورنيش، وشبابي الثوّار النابهين، مُقتنعةً بارتكاب الذَّنْب. طبعاً. لم أكن أعتقد أنّه سَيُعبِّرِّ عن ذلك جيداً. فالحرية بحاجة إلى الوقت. ولن نطرد القذّافي من رؤوس الناس بين عشيّةٍ وضَحاها.

الساعة الثامنة مساء. الطابق السادس في فندق رافاييل. أقمتُ من أجله، مع بعض الصحفيين (وكذلك مع ليونيل جوسبّان الذي فكّرتُ، مع أني لستُ مُتبصِّراً كثيراً، في أنّ بإمكانه أن يكون مُفيداً ذات يومٍ قادم حيث يدخل بعض الاشتراكيين في حرب ضد هذه الحرب) حفل عشاء من نوع الحفلات التي كنتُ أقيمها لأولئك الذين يمرّون بباريس أو لِبيغوفيتش. ولكنّ العشاء لم يكن مُوفَّقاً كما كنت أرجو ـ بل كان، على كلّ حال، أقل توفيقاً بكثير من حفل العشاء مع عزيزي الرئيس البوسني. فما الذي حصل؟ لاشيء كبير الأهمية، سوى أنّ عبد الجليل احتفظ ببعض ردود أفعاله على مرحلة عمله مع القذّافي. إذ كان الحديث ينتعِش حين يشرع ديدييه فرانسوا، وايتيين جيرنيل، ومارك سيمو، وهيرفيه رواش من وكالة الصحافة الفرنسية، وسيلفي كوفمان من جريدة اللوموند، في سؤاله عن مُحادثاته مع ساركوزي، وحين تبدأ الأسئلة في أن تصير ضاغطة، وكثيرة، وأكثر انهماراً ودقّة، يتوقّف فجأة، ويتّخِذ مظهر الطفل الحَردان، ويقول إنّه ملّ الأمر، ويُعطي الكلام للعيساوي الذي يُجيب، من الآن وصاعداً، بالنيابة عنه. أمّا جوسبّان الذي أجلسْتُه في مركز الطاولة، مُقابل عبد الجليل، فشعر بالمأساة المُتعاظِمة، وفهِم كلّ شيء، فضحِك مُبدِياً ردَّة فعلٍ إيجابية. وقال: «السيّد الرئيس، الصحفيّون مُرعِبون. لَطالمَا اعتدتُ، أنا أيضاً، على طرائق أصدقائنا. ولستَ مُجبَراً على الإجابة على أسئلتهم. لا داعي للحرَج». ضحِك الجميع، بما فيهم عبد الجليل الذي غالب ضحِكتَه. إذ شعرت تماماً أنّه مُغتاظ. شعرتُ بما لم أشعر به أبداً في بنغازي، شعرتُ بأنّ لهذين الرجلَين، عبد الجليل والعيساوي، علاقة بالصحافة ما تزال بعيدة عمّا تكتسبه ثقافة ديمقراطية ناجحة. وشعرت على نحوٍ خاصّ أنّ التوقّف عن الأسئلة، هذا المساء سيكون قصيراً، وأن أصدقائي الفرنسيين لا ينوون التخلّي عن القيام بمهمّتهم، وأنّ عبد الجليل لا يجِد

أيَّ داعٍ لأن ينفتح ويَلِين خلال السهرة، وأننا سنُخفِق. والأسوأ من هذا: لست أدري العلامة التي أدّت إلى اقشعرار الجوّ، وإلى إيماءة من هذا أو ذاك، إلى نظرة غريبة، فأحسستُ بأنّ الصحفيين يوشكون على طرح السؤالَين الأكثر إحراجاً، السؤالَين اللذَين كان يتحدّث في أمرهما المدعوّون قبل وصول الرئيس، وهم يضحكون في رُدهة المطعم - أحسستُ أنّ أحداً، رُبّما جيرنيل أو جوفران أو روسلان، سينتهِك العُرف ويسألهما أوّلاً عن قضية إسرائيل - وأحسستُ أنّ الجواب قد يكون وخيمَ العواقِب، فأشرتُ إلى جيل الذي سُرعان ما فِهم قصدي فسألهما عن النظام العسكري في صفوف مُقاتِلي المجلس الوطني الانتقالي. وخلال فترة الإجابة، قمت بجولة حول الطاولة وتوجّهتُ صوب علي زيدان ووشوشتُه أنّ الساعة صارت التاسعة والنصف، وأنّ الرئيس لا يُحِبّ التحلِيَة بعد الطعام، وأنّه سيستيقِظ باكراً صباح الغد، وأنّ لا أحد يُمكِن أن يستاء من الراحة. فهل فهِم عليّ؟ يبقى أنّه نهض، بدوره، واقترب من الرئيس، ووشوش في أُذنه شيئاً، فقام الآخَر أيضاً - ليس من دون نظرةِ تحسُّرٍ على الحلويات التي كانت توضَع على الطاولة. انسحاب ناجح. لقد تجنّبتُ الأسوأ.

الاثنين 21 نيسان/أبريل (القذّافي مُزيّف عُملة)

اتصل بي مصطفى عبد الجليل قُبيل مُغادرته. قال لي: هل يُمكِن أن توصل من جانبي رسالةً شخصية إلى الرئيس نيكولا ساركوزي؟ قلت له: طبعاً. وهاهي الرسالة التي نقلتُها فوراً إلى الرئيس الفرنسي. «رسالة شخصية من رئيس المجلس الوطني الانتقالي إلى نيكولا ساركوزي. تلقّى المجلس الوطني الانتقالي، وتحرّى توّاً الخبر الآتي. وصل إلى تونس 1) كمية هائلة من مخزون الأوراق؛ 2) مطبعة مجهولة المصدر؛ وذلك كلّه لطباعة عُملة ليبية في تونس بأسرع ما يُمكِن. يبدو الخبر جديّاً.

بريد، ضابط الارتباط، ساعي البريد - سأقوم بكل ما يلزم.

الجمعة 22 نيسان/أبريل (عندما أرسل لي ابن القذّافي سيف، مبعوثاً)

حدث هذا كما يحدث في رواية من روايات جون لو كاريه. تناولتُ طعام العشاء في وقتٍ مُتأخِّر في مطعم سان - بول في ضاحية كولومب. كنتُ وحدي على الطاولة الصغيرة المُجاورة للمدفأة، في أقصى قاعة الطعام، حيث كان مونتان يتناول عشاءه. كان النادل قد سجّل طلبي

للطبَق. ولكنّه سُرعان ما عاد إليّ يقول لي إنني مطلوب على الهاتف. تُرى من يعرف بوجودي هنا؟ ومَن يُمكِن أن يتصِل بي في هذه الساعة وعلى هذا الرقم؟ كان على الطرف الآخر للخطّ صوتٌ مجهول، يُعبّر بإنجليزيةٍ لا بأس بها. «لا أهمية لاسمي. أنا في موناكو. وأودّ أن أراك. أن أتحدّث معك. عن ليبيا. هل تستطيع المجيء؟» أجبتُه أن مجيئي، هكذا إلى موناكو، غير وارد، لكنْ إن أراد أن يأتيني إلى هنا، فلِمَ لا. «ردّ الصوت: لا بأس، أنا قادم». وبعد 45 دقيقة كان عندي. هو رجُل بدين. قصير وسمين. ضخامة كتفِيه تُربِك هيئتَه. حاجباه كثيفان، شديدا السَّواد. شكله يُشبه شكل الخائن في المسرحيات. أنا آسف. فهو كذلك حقاً.

نحن في شُقّة عائلة «رو»، بمنجىً من النظرات والآذان. طلبت من رفيقي القديم فرانسوا الشاهد على كثيرٍ من فصول حياتي منذ ثلاثين عاماً، بأن يُقدّم لي خدمة بحضور اللقاء. قلتُ له: لا أعرف من يكون هذا الرجل. لا أعرف ماذا يُريد هذا الرجل منّي، ولا ماذا أتى يقول لي. غير أني أعرف ماذا سأقول له، ولا أسمع كلامي مُشوَّهاً في يومٍ أو في آخر. تأكّدتُ عند وصوله أنه لا يحمل في جيبه جهاز التسجيل. ثُمّ سألته عن اسمه الذي كتبه لي، آسفاً، على رزمة أوراق وضعها فرانسوا أمامنا. دعوتُه للجلوس. وبدأت.

ـ هل أُقدِّم لك شيئاً تشربه...

ـ لا، طبعاً. أنت مُستعجِل. وأنا أيضاً. هيّا بنا إلى الجوهري.

صوتُه غريب، فهو حيناً مُتردِّد، وحاسِم حيناً آخر، كأنّه لا يعرف أيّ دور يجب أن يأخذ.

«اتّصلت بسيف...

انتفضتُ قائلاً:

ـ متى؟

ـ اليوم قبل أن أتصل بك.

ـ حسناً، وماذا بعد؟

قال: سُفِح كثيرٌ من الدم، وقد سقط كثيرٌ من الأبرياء ضحيّة هذا الصراع بين الإخوة...

ـ أي صراع بين الإخوة؟ فلديكم، من جهةٍ، شعب لا يُريد أن يموت، ومن الجهة الأخرى، عائلة القذّافي التي تقصف الناس بالأسلحة الثقيلة، والتي ...

ـ لا ينبغي أن تقول «عائلة القذّافي»، فالأب والأبناء شيئان مُختلِفان. سأحكي له قصة. كنت شاهد عيان عليها. منذ سنة، في ملهى عاصمة أوروبية، قال صديق لسيف الإسلام: أبوك مجنون...

وكرّر ذلك وهو يضع سُبّابته على صِدغه الأيمن، في إشارة إلى ذاك الذي **فقد عقله**:

ـ Crazy... قذف في وجهه الكلِمة هكذا: أبوكِ crazy (مجنون)، **مجنون تماماً. هل تعرِف** كيف تصرَّف سيف؟ لو قلنا هذا عن واحد من إخوته، أو عن أُخته...

هذه المرّة قام بإشارة إخراج مُسدّس من جيبه وتصويبه.

ـ لكنْ هنا، لا. لم يفعل شيئاً. ولم يقُل شيئاً. كما لو أن هذا لم يصدِمْه أبداً. **ضحِك فقط**.

قلتُ بتحفُّظ: رُبَّما، لكنْ مع ذلك الابن هو الذي رُبَّما قال، وارتكب الأشياء الأكثر إرهاباً. تذكر يوم 20 شباط/ فبراير حيث هدّد بإغراق بنغازي في أنهارٍ من الدم.

أرجع الرجُل كرسيّه بضجّة، كأنني قلت الشيء الذي لا يُريد سماعَه، وأنّه يُفضّل الانصراف. لكنْ لا. فهو يُحاكي فقط حديثاً أجراه مع سيف.

ـ هذا بالضبط ما قلتُه له! خطابك خرا. هذه هي الكلِمة التي استخدمتُها... shit[4]... shit... أنت مُغطّى بالـ shit...قلت له هذا وجهاً لوجه».

ثُمّ توجّه إليَّ من جديد:

ـ لأنني لستُ مع هذا النظام. ويجب أن تفهم أنني من أجل الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والحياة الكريمة. إذاً لا يُمكن أن أكون مع هذا النظام الذي يُريق الدم.أنا أظنّ ببساطة أنَّ النظام لا ينبغي أن يكون مُعانِداً. وإلاّ فالشعب هو الذي سيدفع الثمن.

ـ وإذاً؟

ـ إذاً سيف عنده اقتراح ويجب عليّ أن أُبلِغَك إيّاه.

ـ تبلِغني أنا؟

ـ نعم، لكَ. لأنّه يعرف أنّك على اتصال بالرئيس ساركوزي وبالمجلس الوطني الانتقالي.

ـ لِنُسلِّم بذلك. وما هو اقتراحه...؟

ـ يترك أبوه السلطة. نهائياً. وبلا رجعة...

كرّر عدّة مرّات ـ مُقلّداً حركة اصطياد شيء على الطاولة، بعيد عنه، بعصبية:

ـ بلا رجعة... بلا رجعة...

بعد ذلك، تنفّس الصُّعَداء وكأنّ تقليده هذه الحركة أتعبَه:

ـ وبعد رحيل الأب، سيكون سيف جاهزاً لإجراء تفاوُض عميق بلا محظورات.

انبسط. قال كلّ ما عنده. وينتظر الآن ردّة فِعلي.

ـ حسناً. سمعتك. لكني أعترف لك بأنني لم أفهم لماذا يُرسِلك سيف إليّ...
هزّ كتِفَيه، وقال: السؤال ثانوي، ينبغي ألا نتوقّف عنده.
ـ لكنْ هناك شيء عليك أن تقوله له من طرفي: لا أحد في المجلس الوطني الانتقالي سوف يُفاوض أيَّ شيءٍ مع أيٍّ كان من دون الاتّفاق على نقطة: ليس رحيل القذّافي فقط، بل رحيل أبنائه أيضاً، وبالتالي رحيل سيف ذاته.
اتّخذ هيئة المُتضايق من مُفاوِض حسَن النيّة وقع على مُفاوِض شديد المِراس.
ـ سيف لن يرحل.
ـ إذاً لا شيء للنقاش. لأنّ ليس له من خيار. إمّا أن يرحل اليوم حيث ما يزال الأمر مُمكِناً، ويوفّر له المجتمع الدولي الأمان، وإمّا أن ينتهي كما انتهى تشاوشيسكو أو...
فأكمل الجُملة والأسى يغمر سُحنتَه:
ـ ... أو مثل صدّام حُسين.
ـ هو ذا، مثل حيوان مُطارَد، محصور في آخر جُحر، هل هذا ما يُريد؟
ـ لا. لكنّه لن يترك بلَده.
ـ سوف يترك بلَده. طبعاً. حتماً. أنا لا أعرف هذا الرجُل. لكنْ...
ـ هو يعرِفك. حدّثني عنك.
ـ حسَناً، أنا مُتأكّد من أنّ فيه بعض العقل لِيعرف أنّه بعد أن فعل ما فعل، وأنّه حين يعي حجم الجرائم التي ارتكبها، لا يستطيع العودة إلى الوراء، أبداً.
ـ لا. لا يعرف هذا. هذا إنساني، لكنّه لا يعرفه.
هذا الرجل يُثير فضولي. كما تُثيرني مُحاولتُه. فقرّرت أن أُتابع معه قليلاً.
ـ كان عند سيفكم مشروع حياة. كان يُريد أن يُحدِّث ليبيا، ويُدخِلها في دائرة الأوطان المُحترَمة.
ـ كان صادقاً. لا يُمكِن أن تتخيَّل ما فعلَه كي يُرمِّم صورة بلاده.
ـ صادق أم غير صادق، انتهى أمره، هذا ما أسعى لأقوله لك. وطبعاً حين سيتوصَّل، عبْر تحوّل تاريخي غيرٍ معقول، إلى هزيمة الثورة، فماذا سيفعل بعد ذلك؟ يقضي حياته في بلَد مُصاب بالطاعون؟ يعيش محروماً من الإقامة في العواصِم الكبرى، تتعقّبه المحاكِم الدوليّة، يعيش ملعوناً؟

ـ يُفضِّل هذا على أن يترُك وطنه.

ـ ما عمُره؟

قام بحركة من يحسِب:

ـ تسعة وثلاثون عاماً.

ـ هل سيُنهي حياته محبوساً في طرابلس كالبشير في الخرطوم؟ ليس لهذا معنى إذا كان رُجلاً كما تقول، إذا كان طموحه أن يصير هذا المُصلِح، هذا العصري.

تفكّر الرجل. ثُمّ فرَد ذراعيه وقال بنبرة قدَريّة:

ـ ليس له من خيارٍ.

ـ أجل. ما تزال أمامه عدّة أيّام، ورُبّما عدّة أسابيع، كي يفهم أن الجولة انتهت، وكي يُفاوض على رحيله إلى آخِر بلد لم يوقِّع اتفاقية ترحيل المطلوبين مع محكمة لاهاي...

ـ لا يُمكِن أن يطلب ضماناً شخصياً له فقط. سيف ليس كذلك أبداً. عنده ستة إخوة، وأُخت.

ـ حسَناً. لِنَقُل إذاً: ضمان له ولأفراد عائلته. أين المُشكلة؟

ـ المشكلة أن المجتمع الدولي لا يملِك مصداقيّة.

ـ حين يلتزم المجتمع الدولي يفي بالتزامه. ومن مصلحة الجميع أن تتوقّف هذه الحرب.

ـ لكنْ لا! انظر إذاً!

صرخ. ونهض كالمجنون، وكاد يقلِب كرسيَّه. وأشار لي إلى الشاشة حيث كان فرانسوا، منذ بداية الحديث، يُشاهد مُباراة كرة قدَم من دون صوت. وفي أسفل الشاشة، يمرّ خبَرٌ عاجِل يُعلِن أن اعتقال حسني مُبارك في سجن مستشفى قد مُدِّدَ خمسة عشر يوماً، وهو يُنقَل إليه الآن.

ـ انظر ما يحصل لِحسني مبارك. قال هذا بصوت يرتجِف اشمئزازاً. كان عنده الضمان الأميركي. وضمان العالَم. ثُمّ ضمان الجيش. وهذا المساء سوف ينام في السِّجن.

ـ هذا صحيح.

ـ وبعدا يداه ليستا مُلطّختَين بالدم. فقد قبِل أن يترك السلطة من دون إراقة الدم...

قاطعتُه بالقول:

ـ هناك 352 قتيلاً وهذا ليس قليلاً...

نظر إليّ ببلاهة، كما لو أنّه لا يعرِف بوقوع قتلى.

ـ طيّب. لكن لا يُقارَن بسيف الذي تلطخّت يداه بكثيرٍ، بكثيرٍ من الدم.

ـ أنا لم أقوِّلك هذا الكلام.

فكّر الرجل. حاول أن يلتقِط نظرة فرانسوا الذي لم تُفارق عيناه الشاشة المعلّقة على الجدار. وعاد إليّ:

ـ هل أنت جاهز لاستقبال سيف لتقول له ما قُلتَ لي هنا؟

ـ أين؟

ـ في طرابلس.

ضحِكتُ قائلاً:

ـ لا أُفضِّل هذا. هل يستطيع الخروج من ليبيا؟

فردّ بنبرة المُتبجِّح:

ـ نعم، أكيد! وإلى أيّ مكان يُريد!

ـ إلى جزيرة مالطة مثلاً؟

اضطرب.

ـ ليس إلى مالطة. إذ يُمكِن أن يُقبَض عليه.

ـ حسناً، أين إذاً؟

ـ تونس.

ـ طيّب. لكن بالنسبة لي يجب أن يكون الأمر واضحاً. فأنا لا أقبل بلقائه إلا بشرطَين. بل بثلاثة شروط.

أخذ الرجل ورقة كتبت عليها اسمه، كما لو أنّه سيُدوِّنُ شروطي. وفي الواقع، مزّقها ووضع في جيبِ سترته القطعة التي كتِب عليها اسمُه (من دون أن يعلَم أنني سجّلته في ذاكرتي تحسُّباً لذلك). وقام بحركة من سيُدوِّن شيئاً على القطعة المُتبقيّة من الورقة.

ـ أوّلاً أن يتمنّى هذا اللقاء طبعاً كلٌّ من الرئيس الفرنسي، ورئيس المجلس الوطني الانتقالي.

ـ دوّن ما قُلته ـ وهزّ رأسه كأنّه يُريد أن يقول إنّ هذا أقل ما يُمكِن.

ـ لكن بعد ذلك ستكون هناك نُقطتان. أن تشرح له بوضوح أن الجميع يُضيع وقته إذا لم يفهم أنّ رحيله، بالنسبة للفرنسيين وللبريطانيين، أولويّة. وعليه أن يفهم بعد ذلك أنّ هناك،

في نظري هذه المرّة، أولويّة الأولويّات: وقف قصف مصراطة غداً صباحاً، ولن ألوم حتى بإعلام أصدقائي بهذا الحديث الذي دار بيننا، إلا إذا نفذّت طرابلس وقف إطلاق النار في مصراطة.

تصرَّف كأنّه سعِد بكلامي وقرّر الكفّ عن أن يُدوِّن شيئاً.

ـ حين نعقد صفقة، يجب أن نكون مَرِنين. هناك ترتيب أوضاع الرحيل، وعلى كلّ طرف أن يتقدّم خطوة.

ـ أنا لا أعقد صفقة، ولستُ مرِناً.

ـ إذاً عندي فكرة أخيرة، هل يُمكنني أن أقترِحها عليك؟

هنا، بدأتُ أتعب. تكوّن لديّ انطباع بأن حوارنا حوار طُرْشان. فقلت باقتضاب:

ـ بإمكانك أن تقترِح دوماً.

ـ يرحل القذّافي، وننظِّم انتخابات حُرّة، تحت رقابة الأمم المُتّحِدة والجامعة العربية. ويرحل سيف مع تأشيرة من الأمم المُتّحدة، لكنْ بعد الانتخابات. هل هذا أفضل؟ هل هذا أكثر قبولاً؟

أعدتُ له القول بأنّ لا معنى لهذا وأنّ مَن بعثَه يجب أن يفهم هذا.

فصرخ من جديد أنّه ليس مبعوثَ أحد، وأنّه جاء فقط يُحاول استغلال فُرصةٍ ستكون فرصة الشعب الليبي، ولئن كان هنا، مُقابلي فذلك لاعتقاده أنني مثله رجُل حوار.

أجبتُه بأننا قُلنا كلّ شيء، أيّ لم نقُل في النهاية شيئاً ذا أهمية، ولن آخُذ في الحُسبان حتى هذا الشيء غير المُهِم ما دامت القنابل تتساقط على مصراطة.

قام بإيماءته القدَرية، إيماءة الوسيط النزيه الذي حاول كلّ شيء، حقاً كلّ شيء، غير أنّه كان عليه، أمام سوء نيّة الطرَفين، وبوجهٍ خاصّ سوء نيّتي، أن يخفض ذراعيه، ويمضي.

ومضى.

بعد ذهابه بخمس عشرة دقيقة، بينما كنتُ أُعلّق مع فرانسوا على هذا الحديث الغريب الذي تابعه، بشكل طبيعي من ألِفه إلى يائه، جاء الحارس الليلي يُخبِرني أنّ «صديقي» ذهب ـ وهذه غرابة إضافيّة ـ ناسياً مفاتيح سيّارته في مكتب الاستقبال، وأنّه أدار مُحرِّك سيّارته من دون مفتاح.

قمتُ ببحث على الإنترنت لأكتشف أنه مُهرِّب دولي كبير، وضعتْه وكالات الاستخبارات الأميركية على اللائحة السوداء، وهو متورِّط في عدّة عمليّات اختلاس في مُقاطعة بترول صدّام حُسين، وهو كذلك مُقرَّب من سيف الإسلام (وقريب جدّاً من محمّد إسماعيل، رئيس المُخابرات السريّة في طرابلس الذي جاء الأسبوع الماضي إلى لندن مُحاولاً أن يُمرِّر اقتراحاً كالاقتراح الذي قدّمه لي).

عدتُ كي أنام مُستمتِعاً، لكنْ شاعراً بأن هذا كلّه ليس جديّاً، ولا يستحِقّ أن أُزعِج به غداً لا الرئيس الفرنسي، ولا رئيس المجلس الوطني الانتقالي.

السبت 23 نيسان/أبريل (وقف إطلاق النار في مصراطة؟)

الساعة السابعة صباحاً. وصلت التلفزيون على محطة LCI وانتظرتُ الأخبار. وكان في عناوين النشرة، هذا الخبر الذي قُدِّم على أنّه «انقلاب مُفاجئ»: قرّر الليبيون المُوالون للقذّافي، خلال هذا الليل، وقف إطلاق النار في مصراطة كما صرّحوا للتوّ!...

طبعاً فوجئتُ.

وكي أكون صريحاً، كنتُ مُنفعِلاً قليلاً.

فقرّرتُ، خلافاً لما كنتُ أفكر فيه أمس، أن اتصل بنيكولا ساركوزي وبعلي زيدان.

اتصلتُ أولاً بساركوزي. سألته إن كان بإمكاننا أن نتكلّم، وإذا كان يُفضِّل أن أتصل به على رقم آخر. غير أني قليلاً ما عرفتُ من أمثاله أُناساً لا يُعانون كثيراً من البارانويا. قال: «لا»، بهذا الصوت الجديد العذْب الذي اتّخذه لِيُعاكِس نزوعه إلى الحميّة، ونفاد الصَّبر. «لا، لا، أنا أسمعك جيّداً». وبالتالي، حكيت له ببعض التفصيل قصّة نهاية سهرتي الغريبة أمس. قلتُ له إنني كنتُ قد قرّرت ألا أُزعجه بقصّة غير معقولة، لكنّ ما غيّر رأيي هذا الصباح، إثر استيقاظي، هو خبر انسحاب الليبيِّين من مصراطة. في هذه اللحظة، انفجر قائلاً: «يا لَلْوقاحة! هل تعرِف لماذا ينسحبون؟ لأننا بذلنا جُهداً كبيراً في مصراطة! من أجل هذا بالتحديد! إذاً فلْيكفُّوا عن أن يُقدِّموا لنا انسحابهم بأنّه ناتج عن حُسن نيّة! سيتّصل بك جان دافيد، وستحكي له ذلك كلّه طبعاً، لعلّ وعسى». بعد ثلاث دقائق، اتصل بي ليفيت، وكان أقلّ صرامة من رئيسه. سلّم بالقول «هذه علامة تؤكّد علاماتٍ أُخرى في حوزتنا، لكنّ هذه أقواها طبعاً، سوف نتحقّق من ذلك، وعلى كلّ حال، هذا يُبرهن على أننا كنّا مُحقِّين في أن

نضرِب بقوّة، وأنّهم في ضيقٍ شديد». أمّا علي زيدان فقد خاطبني، في قليلٍ أو كثير، باللغة نفسها. باستثناء التفصيل الذي يعرفه بحكم أنّه كان سابقاً وزير النفط في سلطنة عُمان. باستثناء هذا التفصيل الآخر الذي أعلنه لي وهو أنّه إذا انسحبت كتائب القذّافي، فذلك لتفسح المجال للمدنيين، وللعسكريين المُتخفّين باللباس المدني الذين تُلاحِقهم عملية الموت نفسها. وهذا هو الإثبات.

الأحد 24 نيسان/أبريل (ما نفع ألونزيو؟)

قُتِل مُراسلان صحفيّان أحدهما بريطاني، والآخر أميركي، في مصراطة: اسم البريطاني تيم هيترانتكتون كان يعمل مع قناة Vanity Fair، واسم الأميركي كريس هوندروس من قناة Gitrry images. وفوراً ظهر عدد مجلة Marianne الذي أخبرني به موريس تشافران، والذي وضع صورتي على غلافها، مع مقالة لجوزيف ـ ماسيه سكارون بعنوان «برنار ـ هنري ليفي أمير حرب». فهل العبارة هي سبب اضطرابي؟ أم سببُه هذه الكلِمة المُرعبة «حرب» التي تُلصَق باسمي من دون أن يكون الأمر، هذه المرّة، مُتّصِلاً بحرب بريئة في الفلسفة؟ أم هو تزامُن الخبرَين؟ فكرة أن يموت المُراسِلان الصّحفيّان، موتاً فعلياً، في حرب ليست مسرحاً، في الوقت الذي يُصوّروني «أمير حرب»؟ أم أنّه سوء التفاهُم الناتج عن الصورة التي اختارها موريس وتُظهرني في مُعسكر 17 شباط/ فبراير، يُحيط بي مِظلّيون من جنود النُخبة في التدريب الذي يبدو كأنني أقودهم، في حين أننا كنّا عائدين باتجاه خيامهم؟ لا شكّ في أنّ هذا كلّه سبب اضطرابي. كلّ هذه المصادر من الإزعاج معاً. لكن أيضاً ما تستحضره صيغة «أمير حرب» حرفياً في ذاتي ـ هكذا خُلِقتُ ـ عندما تُطلَق على الكتّاب.

فما الأمرُ في جوهره؟ ومن هم أولئك الذين عكفوا على الحرب في تاريخ الأدب؟ أضع جانباً مَن كانت مِهنتُهم أمراء حرب، في العالَم القديم مثلاً، كثوثيتيديس أو كسينوفون، اللذين زاولا الكتابة كاتبين لسرد أحداث الحروب التي خاضاها. وأضع جانباً حالة «لاكلو» الذي كان، مثل كسينوفون، جنرالاً مُحترِفاً، حتى لو لم تكن لروايته العلاقات الخطيرة أية روابط بالحروب التي خاضها فعلاً. وضعتُ جانباً الحال التي نُفكّر فيها كلّ يوم، حال بايرون الطائر، عام 1824، لنجدة استقلال اليونان لأنّه فجأةً، وبالعكس، كان «أمير حرب» بأقلّ ممّا قيل عنه: موته الأكيد في ميسولونغي على أبواب البيلوبونيز الثائرة ضدّ العثمانيّين،لكنّه مات

قبل أن يستطيع قيادة جيش سوليوت الصغير الذي جنّده، وجهّزه، وزوّده بالمدافع الريفية وببدلات عسكرية مُكلِفة من دون أن يملِك الوقت، بعبارة أخرى قبل أن يستطيع مُمارسة القيادة التي كان يحلُم بها ومن أجلها ترك إيطاليا، واقتحم الحصار البحري الذي فرضه الأتراك، وبذّر قسماً من ثروته. كذلك أضع جانباً حال ميشيل دو مونتينيو، حتى لو أنّ كاتب المقالة الذي سخّر لها كتاباً، فكر في ذلك حتماً: يبيع نفسه للشيطان، على جواد، طبعاً، مُعاكِس للمُثقّف المتسمِّر في «مكتبته» التي وثّقتها الخرافات الكسولة، أتمنّى ذلك من كلّ قلبي، لكن أمير حرب، قائد جيش، ورئيس مُرتزقة، فهذا شأن آخر وليس عندي انطباع بأنّ قصّته كانت هنا. وأستبعد أيضاً، وللسبب ذاته، الكتّاب المُقاومين، وكنت سأقول **فقط** المُقاومين - أستبعد جورج سيمون، وجورج أورويل، ورومان غراي، وجان بريفوست، ورينيه شار، أستبعد كلّ هؤلاء الرجال الذين طالما أُعجِبتُ بهم، والذين ما يزالون اليوم في قمّة اهتمامي، لكنّهم، وإن كانوا مثالاً للشجاعة، والبطولة، لم يكونوا بالمعنى الحصري «أمراء» حرب لأنّهم انخرطوا وحدَهم، باسمهم وحدَه، وبقرارهم الوحيد، في وحدات المُقاتلين التي لم يكونوا قادتَها.

لا. فعندما نقول أمير حرب، وعندما نبحث عمّن كان، في وقتٍ واحد، أمير حرب وكاتباً، أو كاتباً وأمير حرب، وعندما نتساءل مَن هم الكتّاب الذين صاروا بحقّ، من دون أن يكفّوا عن أن يكونوا كتّاباً، ليس فقط رجالاً يخوضون حرباً، ويُشاركون في حرب، ويُدافعون، والسلاح في أيديهم، عن قضية عزيزة عليهم، بل أُمراء هذه الحرب، وقباطنة هذه القضية، وقادة ينهضون بمسؤولية، أو بجزء من مسؤولية قيادة هذه القضية إلى النصر، وهناك أمثلة كثيرة كهذه تخطر على البال. ثمة أمثلة أخرى في الواقع. أو بالأحرى، هناك مثالان. لكنّ الثاني خطر من تلقاء ذاته، ثمّ حذا المثال الأوّل حذوه حرفياً. وهنا تتعقّد الأشياء، وتغدو مُزعجة وخصوصاً بالقياس إلى مُخيِّلتي ذات الطابع الخاص.

أوّلاً هناك مثال مالرو مؤلّف رواية **الأمل**، لكنّه كذلك قائد فرقة إسبانيا، أمير حرب إن كان ثمة من حرب، أمير حرب بامتياز، نموذج، ونموذج أمثل لأمير الحرب - وأنا أُحِبّ بطبيعة الحال هذا السابق. لكنْ ثمّة، قبل مالرو، ذاك الذي قال مالرو، في شبابه، إنّه يُريد أن يكون مثلَه أو لا شيء - ثمّة هذا الكاتب السابق لمالرو الذي كان مثالاً لمالرو، ومُلهِمَه السرّي، ليس سريّاً إلى حدٍّ كبير من جهة أُخرى، ثمّة هذا الكاتب المنسيّ، غير أنّه كان في نهاية الحرب

العالمية الأولى، بمعزِل عن قصائده، ومسرحياته، ورواياته، قائد طيّارين رائعاً، وكانت فرقة المطاردة 87 التي يقودها مصدر الإيحاء لفرقة إسبانيا، ثمّة غابرييل دانونزيو، مؤلّف ابن الشبَق، وقَوْل الأصمّ الأبكم، والذي كان بين الكتابَين: آ) الطيار البطولي الذي، على طريقة بايرون الذي كان يُقال إنّ حديثاً واحداً كان يكفي، في ليلة واحدة، ليجعله مشهوراً، لم يلزمه، ليترك أثره في ذهن جيلَين أو ثلاثة أجيال من الشباب، إلا طلعة جويّة واحدة، واحدة، هي طلعته المشهورة التي ألقى خلالها منشورات تشرح للنمساويين أنّ الطيارة لتي يقودها كان يُمكِن أن تُلقي عليهم قنابل، لكنّه اختار، في ذلك اليوم، ألا يُرسِل إليهم إلا كلمات أُخوَّة وسلام وب) قائد، نعم، بحصر المعنى، قائد الجيش الشخصي الصغير الذي احتلّ سنة 1919 مدينة فيوم، في إستريا، واحتلّها احتلالاً فعلياً مُقابل عساكر فرنسيّين وبريطانيين، بإستراتيجية حقيقة، وتكتيك حقيقي، وموتى حقيقيّين، وحكمها خمسة عشر شهراً، من أيلول/ ديسمبر 1919 حتى شهر كانون الأول/ ديسمبر 1920 على الرغم من أنف العالَم كلّه، ووضع لها دستوراً، ولم يُطرَد منها، ومن جديد بالقوّة، إلا عندما وجد الجيش الإيطالي أنّ المُغامرة تُسبِّب الفوضى.

هو ذا نموذج أمير الحرب، إنّه مالرو. لكنّ نموذج مالرو، وقُدوته، ومُعلِّمه إنّما هو غابرييل دانونزيو. وهنا، بوضوح، نقطة ضعفي، من هنا يأتيني الاضطراب، والتوعُّك، والدُّوار، الخ. أولاً، بالطبع، لأنّ هذا كلّه لا ينطبق على حالي، فهذا عبثيّ، إنّه حماقة ـ فأنا لم أُحاصِر أبداً مدينة، ولم أقُد جيشاً. لكن بوجه خاص لأنّني أعرف شيئاً لا بأس به عن دانونزيو، فقد قرأتُ جُلّ أعماله، وبلغ تأثيره فيّ، خلال فترة مُراهقتي، ما يكفي ليجعلني أعِي كل ما هو مَقيتٌ موضوعياً في النموذج. تضخيم الشخصية. جانبها المُفخَّم، الرنّان جداً، المُنفوخ في أشعاره، المتصنِّع في وضعيّاته. إيديولوجيّته في الفعل من أجل الفعل. وإيمانه بمذهب بائد ساد في العشرينيات من القرن الماضي. حتى قبل أن يتحدّث الناس عن المشهد. ويرتبط بالباقي تحريره على يد الفاشيّين وموسوليني الذي أدرك الكسب الذي يُمكِن أن يحصل عليه من إلحاقٍ سياسي لهذا القائد، أمير مونتانفوزو وحاكم دولة فيوم الحرّة، فسواء أكان صاحب الشأن أقلّ شُبهة ممّا قيل عنه، أم أنّه سار أقلّ ممّا كان يُريد الدوق في محاولة الإلحاق ومع المسرحيات التي تتماشى معه، فهذا لا يمنع من أن يكون اسمه باستمرار، ورُبّما إلى الأبد، مُلطّخاً بها.

لكنْ في الوقت نفسه... إذا فكرت في الأمر جيداً...نعم إذا فكّرت بهذه العلاقة مع مالرو الذي لايخلو من الأهمية إذا وضعنا إلحاقاً مُقابِلَ إلحاق. أفكر بهذه الصورة المزدوجة لمالرو الشاب يقول لكلارا، في الهند الصينية حين كانت تُعالج في المستشفى إثر قضية التماثيل إنّه لاشيء في العالَمِ يُشتهى، كما يبدو له، أكثر من أن يقيس الإنسان نفسه بأمير الحرب في فيوم، ويكون في مستواه ذات يوم (وأضافت كلارا، بعد خمسين سنة، في صفحة رائعة من كتاب **عشرون عاماً معاً** حيث تصف «بالمُهرِّج الفاسِق» المُغامرَ الفذّ الذي يدّعي زوجُها أنّه يُماثِله: «والأكثر طرافةً أنّه رُبَّما صار يُماثله حقاً»، صار هذا الأمير الحربي الذي كان يحلُم به) - وأُفكر بدانونزيو العجوز الذي، بالمُقابل، كان يقرأ لحظة موته، وهو مشلول، وأعمى تقريباً، وعلى وشك أن يصعقه الموت، وهو معزول في فيتوريال دو كاردون ريفيرا، بآخر هجوم، كتاب **الوجه العظيم** لإِيلي فور وكذلك **الظرف البشري** لتلميذه اللامع (أتصوّر أنّه كان يسمع في حوار جيزور وفيرال صدىً قصيّاً، أعني الصياغة الكاملة لمرافعته المزدوجة بين الحكمة والتألُّق، العقل والشهوة، الفضيلة والصَّلَف النيتشويّ).

أُفكر بنفسي، وأنا في العشرين، لحظة ذهابي إلى بنغلادش، وتطوُّعي في لواء مكتي باهيني، الذي، إن لم توجَد فيوم، قد يساهم في احتلال جيسور، وخولان، ثُمّ داكّا - أرى نفسي من جديد في فيرير، أمام مالرو العجوز الذي كان تقريباً مثل العجوز دانونزيو، حيث كان قد وجّه نداءً إلى تأسيس فرقة دولية استجبتُ له، ورأيت مالرو في آخر رمَق، زائغاً تقريباً، لكنّه دوماً، ولو طُلِب منّي لأكّدت ذلك، مسكون بحماسة المُغامر الكبير الذي كانه سنة 1919، وقد جعلني فجأة، وبفعل العدوى، مسكوناً أنا أيضاً.

أُفكر بمونترلان. أوافِق على أن مونترلان ليس مرجِعاً. لكنّي أتذكّره طبعاً، في نهاية حياته الخاصّة، وكان قد فقد بصره تقريباً، حيث كان يحكي لزوّاره عن تأثير دانونزيو فيه، وأنّه، في النهاية، قد يكون أتاح له الهروب من الافتتان الآخر، الذي كاد يودي بحياته، أي افتتانه بباريس. وإني لأتساءل إن كان بالنسبة لجيل كامل، بما في ذلك جيل مونترلان، ومالرو، وجيل الكتّاب الطيّارين الآخرين كسانت ايكزوبيري وغراي، والبطولة الفعلية، المعيشة، وبالتالي الشِّعرية، وجيل المؤلِّف الأعور، الذي جُرِح في الحرب عدّة مرّات، مؤلِّف مسرحيّة **شهيد سان سيباستيان**، **وليليّ** Nocturne، ألا يُمكِن أن يكون طريقة لنتوسّل قليلاً من الهيبة المظلمة لباريس الذي نسيناه تماماً، هو الآخر، لكنّه كان في فرنسا مُغنِّي أسوأ أنواع الوطنية،

المثقف النظامي المعادي لدريفوس، الذي ابتدع مع حفنةٍ من الآخرين، انطلاقاً من هنا، شعبوية الاشتراكية الوطنية على الطريقة الفرنسية - أي أنّه كان لهذه الأسباب مُجتمِعة خطراً مُهدّداً بطريقة أُخرى.

إنها دوماً القصّة نفسها. دوماً الحرب الأخرى نفسها، غير المرئية في قلب المكتبة. ونفس النموذج من البرهنة الذي غالباً ما قُمت به، من أجل جيلي، في ما يخصّ الألتوسريّة، والماويّة، اللتين كانتا ما كانتاه، تنقلان نصيبهما من الجنون، لكنّهما كانتا تفعلان فعلَهما، مع ذلك، كحِيَل التاريخ المنطوية على المُفارقة التي تُدين الستالينية وتتعامل مع شرّها بشرٍّ آخر، وتُقرِض اللغة إلى أولئك الذين كانوا يشرعون في التخلُّص منها من دون أن يعرفوا كيف. مُسلَّمة: لا أحد مسؤول عن عصره، ولا عن مُعاصريه، ولا عن الجيل الذي سبقه، ولا عن الطريقة التي ورّثوه بها ما كان يدعوه أساتذتي في عصر البنيوية، إشكالهم، وهو في كلّ مرّة مسرح عمليّاتهم الإجباري. نظرية: لم يكن من إشكال بالنسبة لكتّاب النصف الأول من القرن العشرين سوى إشكال الشمولية عامّةً، وإشكال الفاشيّة خاصّةً - ومسألة حيوية: مسألة أقصر الطرُق إلى الفاشية، وبالمقابل، أفضل طريقة ليس لقطع طريقها، بل للامتناع نهائياً عن سلوكها. وبالتالي ينتج تعليق: بالنسبة لأكبر الروائيين الفرنسيين في تلك الفترة، وفي الفترة التي تلتها، بالنسبة لأكثرهم شغَفاً بالفعل، بالنسبة لأولئك الذين حلُموا بالمُصالحة بين السيف والقلَم، بالنسبة لمن يعيشون الحنين، مثل ساندراس، إلى أدب «الأعصاب المتوتّرة، والعضلات المعصوبة المُتأهّبة للقفز في الواقع»، وقادرة على اختراق «الناسِفة، والمدفع، واللُّغم، والنار، والغاز، والرشّاش». رُبّما كان للمُغامرين مسلكان رئيسان. مسلك بارايس الذي يُضيف إلى مذهب الفعل، وعقيدة الطاقة، وحُبّه للفرجة، ودين الأرض والأموات، وتلاله المُلهَمة، ومعاداته الصارخة للسامية، ويُخفي النزعة الهتلريّة، ويُعارضها فعلاً من جانب آخر، من خلال الكفاح في إيطاليا سنة 1920 و1930، ضدّ التحالف مع ألمانيا، وفعلوا، بهذا، فِعل الترياق، فعل اللُّقاح، البديل عن الاختلاف البسيط. دانونزيو، التوسر، ومالرو، وأتباع مذهبه؟ الحليف المُفارِق الذي كان ينبغي الاتّكاء عليه كان يرفع، بوصفه دِعامة، عمليّات رهن أكثر عفَناً؟ هيّا! هذا حسَن! أتباع طيّار فيوم بالمُقارنة مع وخَم أرياف نانسي! بما أنّ الأشياء كذلك، وأن خارطة الأفكار تفرض علينا قانونها أحياناً، أريد في النهاية أن آخُذ هذا الغابرييل دانونزيو الذي أحضروه إلى ذاكرتي هذا الصباح عن طريق الصحافة. إنّها الحرب... فهيّا إليها.

الاثنين 25 نيسان/أبريل، (الإجابة على مقالة كلود لانزمان)

لانزمان أيضاً. يُحدّثني الناس، في كلّ مكان، عن مقالة لانزمان المؤسِفة.

فما الذي أمكن أن يدفع صديقي إلى هذا التراجُع المجنون الذي جعله يُدين العملية ضدّ القذّافي التي كان، قبل شهر، قد تمنّاها ودعا إليها؟

كيف أمكن لِرجُلٍ من جبِلّته أن يجعل المشهد ينقلِب هكذا: في يوم يوقِّع عريضةً تدعو فرنسا إلى التدخُّل، وفي يومٍ آخر، يُدين التدخُّل نفسه، ويخون توقيعَه؟

كيف يحصل أنّ مؤلِّف فيلم **جيش الدفاع الإسرائيلي** (تساحال)، فيلم عن جيشٍ إحدى قواعده المطلقة ألا يتراجع أمام أية مأثرة تقنية من شأنها أن تحمي إلى أقصى حدّ حياة جنوده، استطاع أن يُعلِّم، مثل برومان، وكثير من الآخرين الذين يُشبهونه قليلاً جداً، قضية «اختيار عدَم موت» أي جندي؟

هل يكون صاحب سارتر، الذي كان في أوج حنَقه على الحرب «عن بُعْد»، قد استطاع أن يُطلِق في تمجيد الثلاثينات المُبالَغ فيه لمعركة «المواجهة المباشرة» وبفروسيّته القضيبية[5]؟

حين كنّا، منذ خمسين عاماً، في كلّ المعارك ضد الديكتاتوريات، هل كان لنا الحقّ في أن نكتب مقالةً كاملة ـ ونكتب اليوم مقالة أُخرى في مجلّة **ماريان** الأسبوعية المُصوَّرة ـ من دون أن نجد أحداً، بصرف النظر عن جملة معترِضة شديدة الغرابة (لا أحد، بيننا، يُحِبّ القذّافي، ولم يكن له قضية معه، ولم يُفاوِضه أبداً)، يُدين المجزرة التي يرتكبها مُحترِفو الموت الذين أطلقوا صواريخهم عن بُعد 40 كم على مدنيين عُزّل في أغلب الأحيان.

يجب توضيح ذلك ذات يوم.

احترمت هذا الرجل للغاية. وأُعجِبتُ بكتابه **المَحرَقة**، وكتابه **أرنب باتاغونيا**، إلى حدّ أنني لا أُحاول أن أفهم من أين أتاه هذا الافتتان المُفاجئ بمُهرِّج دمويّ صار بريشته مثل محمّد عطا بريشة جان بودريار «شيطاناً يُلقي الأذى» و«يضرب» ضرباتنا بضعفٍ غريب.

لكنْ الآن، يجب أن نُجيبَه.

يجب (لأنّ الناس في كلّ مكان يُحدّثونني عنه باستمرار، وهم دعمٌ مُلهَم لجيش السياديّين الذين كانوا، بعد ستة أسابيع، ما يزالون يبحثون عن الأسباب الموجِبة لترك الليبيين يموتون) التصرُّف إزاء سلسلة من التخمينات، والحماقات، ومُعاكسة الحقائق التي يُمكِن لهيبته أن تُسلِّم بها من دون التأكد منها؛ وهذا سيكون مأساوياً.

عكس الحقيقة ـ الطفيف ـ أنه تحت «ضغطي عليه بحُكم الصداقة» كان سيوقّع النداء الذي يُنكِره، ويسحب توقيعه اليوم.

وعكس الحقيقة ـ الأكثر خطراً ـ هي فكرة أن أصدقاء ليبيا الحُرّة كان يُمكِن أن يُعلنوا عن الضربات «التي كان ينبغي ألا تستمِرّ إلا عدّة أيّام»: لو بدأت قبل ذلك، عندما كان ابن القذّافي (وليس القذّافي نفسه كما يكتب مُتسرِّعاً) يتوعّد بإغراق شعبه في «أنهارٍ من الدم»، نعم، رُبّما كانت «عدّة أيّام» كافيةً، لكن بالتأكيد ليس لاحقاً، ولا أحد، وبالتأكيد ليس أنا، يُجازِف في 19 آذار/ مارس حين أوقف الطيران الفرنسي أوّل الدبّابات في ضواحي بنغازي، وفق برنامج زمني بهذه الدقّة.

حماقة غير معقولة، وغير مفهومة، أن يستخدِم كلِمة «عملية انتحاريّة» (كاميكاز) في وصف «تكنولوجيا» طيّارات التحالُف.

والمُعاكِس للحقيقة دوماً هو العبارة التي يقول فيها إنّ بين صفوف العسكر، ومُرتزقة القذّافي «ليس للضحايا عدد، ولا اسم» ـ وهذا في نصّ لا نملِك عنه فكرة، وأكرِّر هنا، لا نملك أية فكرة عن الضحايا الأخرى، الحقيقية: المدنيّون في الزاوية، أو في الزنتان الذين قُصفوا بالأسلحة الثقيلة، وجرحى مستشفى مصراطة، الذين قُصِفوا بلا حياء، وآخر سكّان اجدابيا الأبطال، الذين أُجبروا، كما في كوسوفو، على العيش في الأقبية.

والمُعاكِس للحقيقة أيضاً، الذي يرقى إلى مستوى إشاعة الأكاذيب التي غالباً ما استنكرتها أنا ولانزمان، أو سخِرنا منها، إنّما هو الإدانة النكراء لعملية تقوم «بتدمير ليبيا»: هيّا بنا يا عزيزي كلود! تعالَ إذاً في المرّة القادمة، وسوف ترى بعينيك، في بنغازي، والبيضاء، وطبرق، أنّ رجال القذّافي، لا طيّارات التحالُف، هم الذين هدّموا هذا البلَد، وحطّموه، ودمّروه!

وإنّه لأمرٌ صبيانيّ، في ما يتعلّق بالقذّافي، ساعةَ بدا أننا نُفكِّر بمُفاوضته على إيجاد مَخرجٍ، كان التأكيد القاطع «غير المُعلَن هو أنّه يجب أن يموت».

وصبيانية هي الجملة التي يرغب فيها لانزمان أن يظهر بمظهر الخبير حين يأسف لأنّ المجلس العسكري «فرض عدداً مُفرِطاً من الطلعات الجوية» على «أجهزتنا».

وأنا لا أتحدّث عن العرض البلاغي القديم ـ لكننا نُعاني من أن نجِد بقلَمِه ـ حيث يتذرَّع بمظاهر جُبنٍ ماضيَة (ميتران، شيراك، ساركوزي الذي كان صديقاً مُقرَّباً لزعيم الإرهاب الدولي) لكي يُسوِّغ اليوم المواظبة على انعدام الفعل.

أعتقد، خلافاً لكلود، أنّ هذه الحرب المُختلفة عن الحرب في العراق (وهي عملية محدودة، أجازتها الأمم المتّحدة، بناء على طلَب الليبيّين أنفسهم، وعلى موافقة الجامعة العربية، وغايتها وقْف مذبحة مُعلَنة) تُشكّل سابقة، وستدخل التاريخ.

وأعتقد أنّ هذه الحرب المُختلِفة عن حرب البوسنة (ثلاث سنوات من عدَم التدخُّل!) وكذلك عن حرب رواندا (مجتمع دولي يقف مكتوف الأيدي مُنتظراً نهاية المذبحة!) هي على مستوى عصر فهِم في النهاية أنّ لا أحد يُمكِنه احتكار السلطة.

وفي النهاية، أعتقد أنّ القذّافي سوف يرحل ويترك الشعب الليبي يُقرِّر مصيرَه بنفسه.

لكن الآن، يا لَهَا من خسارة، ويا له من حُزن!

الثلاثاء 26 نيسان/أبريل (مع الطيّارين الفرنسيين)

المجلِس العسكري لسلاح الجو. الجنرال بالومرو، من جديد. لكن يُحيط به هذه المرّة مُعاوِنوه، وقادة العمليات، وثلاثة ضُبّاط شباب يُكلَّفون بمهمّات لأوّل مرّة - بل هذه هي (وإن لم يكن لي الحق في أن أبوح بهذا) مُهمّتهم الأولى التي كانت يوم السبت حيث دمّروا الرتل المُتقدِّم من دبّابات القذّافي.

بدأتُ بنقل اعتراف الشعب الليبي في بنغازي بجميل فرنسا كما سمعت التعبير عنه هناك. قلتُ لهم إنني لستُ «وطنياً» بإفراط، أنا الذي قلّما أنفعل عند سماع النشيد الوطني الفرنسي (لا مارسييز)، أنا الذي لا أُفاجأ أحياناً، كجيل فاليز، أن أسمع فيها «رنين الجرَس في أعناق الدواب»، حكيت لهم كيف أنني حين اتصل بي رئيس الجمهورية، في ذلك اليوم الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر، كي يُخبرني أن الطيران الفرنسي دمّر الدبّابات الأربع التي كانت تستعِدّ لدخول العاصمة المُتمرِّدة، شعرت بالفخر لأنني فرنسي. وعبّرتُ لهم أخيراً، مما لا يروق للصديق لانزمان، عن إعجابي بشجاعتهم.

جاء هذا في وقته. لأنّهم قالوا إنّ أكثر ما جرحَهم إنّما هذه الفكرة عن حرب من دون مُخاطرة، حيث نُقيمها ونحن نركب مُرتاحين في طيّارة مُقاتِلة تحمينا تكنولوجيّتها من أية إصابة. همس أحد الطيّارين الشباب: «كنتُ أتمنّى أن أراهم فيها، كنت أتمنى أن أرى رؤوس هؤلاء الذين يُعطون دروساً، لو كانوا في مكاني، في وَكْنِ طيارتي الرافال، لحظة كنتُ أستعيد في ذاكرتي، كما كان يفعل كل زُملائي في السِّرب، صوت القذّافي مُعلناً أنّه سيُسقِط أوّل طيارةٍ

أجنبية ستُحلّق فوق ليبيا». هؤلاء الرجال يُحبُّون طيّاراتهم. تنبّهتُ خلال الحديث إلى أنّهم لا يرون فيها أجهزةَ موت بقدر ما يرون أنّها آلاتٌ رائعة خُلِقت للعرض والاقتران بالسماء. لكنّهم هنا يُحارِبون. يخوضون حرباً فعليّة. وهم يكرهون أفكار **مقهى التجارة Café du Commerce** التي يسمعونها في كلّ مكان تقريباً.

ما كان يُضنيهم أيضاً من الجانب الآخر، أي على الأرض، هو خطر إيقاع ضحايا. فهناك أوّلاً خطر الضحايا الصديقة الذي يقضُّ مضجعهم. وهناك كلّ ما يعرفونه عن دبّابات القذّافي المُخبّأة في المدارس، أو في ساحات المستشفيات، وهذا حاضر في أذهانهم بشكل دائم. وهناك فنّ الخديعة الذي يُجيده القائد إذ يضع أهدافاً مموّهة أقوى من تمويه طيّاراتهم، بالإضافة إلى أنها أقوى من مُضادّات التمويه التي يعتقدون أنهم أغنياء بها لكنّهم أمام هذا القدر الكبير من المكيافيلية، يشحب لونهم ـ وهناك إذاً هذا الفنّ الذي يُكلّف ثمناً غالياً، ثمن دمِ الأبرياء، إن لم يكونوا، هم الطيّارون الفرنسيون، مُنتبِهين تماماً، ودقيقين، ومُتيقّظين. لكنّ ثمّة أيضاً العدوُّ نفسه، القوّات المُسلّحة المُعاديّة، جيش الخديعة والجريمة، حيث اكتشفتُ أنّهم مهمومون بأن يُوقِعوا، على الرغم من ذلك، أقلّ عدد ممكن من القتلى. مبدأ انعدام الموتى، كما شرحوا لي. همّ النزوع إلى انعدام الموتى، ينطبق علينا، طبعاً، وعلى الشعب الليبي المدني بطبيعة الحال، وعلى جيوش العدو أيضاً التي لا تتكون من أعداء، بل من بشر؛ اكتشفتُ كبرياءهم وهم يذكرون عدد النداءات التي أطلقتها إذاعات القذّافي، منذ بداية العمليّات، مُطالِبةً إياهم بالعودة إلى الثكنات (أو في أفضل الأحوال، بالانشقاق)... يقول لنا توسيديد إنّ الوساوس كانت تسكن المُحاربين الأثينيين، في فترة حرب البيلوبونيز، حين كانوا يصِلون أمام السُّكان المدنيين في المُدن المهزومة في بوتيديه وميلانة، والجيش الفرنسي يمدُّهم في حال جنود طرابلس المحكوم عليهم وسطياً أنهم في عِداد جرائم حُكّامهم ـ سوف يقولون ما يُريدون، لكنْ هنا تقدُّم حقيقي لا يُمكِن إنكاره في الحرب الجوّية وفي فنّ الحرب.

هم مهووسون، في الوقت نفسه، كرفاقهم الليبيين الأحرار، بثقل الآليات الأطلسية وبـ «مُنعطَف قرارها». قال لي طيّار آخر: في البداية، في أوّل البداية، في تلك الفترة التي ما تزال قريبة لكنّه يتحدّث عنها كما لو أنها من عصر بعيد، حيث كانت الضربات الجوية وطنية، تقودها المجالِس العسكرية في الدوَل الأعضاء، كانت تُرسَل المعلومات إلى طيارة الأواكس القائدة للعمليّات التي كانت تتقاطع معها في ساحل سِرت وتُجيب خلال عشر دقائق. بينما

اليوم... وتردَّد. ويبدو أنّه تساءل، كما تساءل القائد الذي أيقظناه من كيس النوم في عُمق خندق اجدابيا، إن كان يُمكِن أن يتحدّث بحريّة أمام «مدني». وحين شعر، خِفيَةً، بأنّ هذا مسموح، باح بما عنده: «اليوم تنزل المعلومة إلى نابولي، وتضيع في متاهات البيروقراطية، وتُعالَج في اثنتي عشرة دائرة قرار، وحين تصعد إلينا، يكون الهدف قد تبخَّر». إذاً طبعاً هناك قواعد صارمة من الالتزام حين يتعلَّق الأمر بتجنُّب إيقاع القتلى. لكنّها قواعد تُعطينا الانطباع بأنَّ لا موضوع آخر لها غير تغذية الآلة، تغذية عملها العبثي ومنحها سبباً للحياة - يا للخسارة، هنا، بالمُقابل! حتى خطاب يونس. وخطاب الساقزلي. في باريس وبنغازي نفس الخطة.

وفيما يتصل بقواعد الالتزام، لديهم معركتهم اليومية: هذا السلاح الذي لم يختبروه اختباراً فعلياً - هذه القنبلة المُعبّأة بالاسمنت، ويصحّح جنرال، لا، بل **بالألمنيوم** - وهم تقريباً مُتأكِّدون، إذا أرسِلَتْ بشكل صحيح، تماماً بزاوية قائمة، فسوف تخترِق الهدف من دون شظايا أخرى غير شظايا المُصفَّح المُتفجِّر: ألا يُمكِننا الحصول في هذا السلاح على أن تكون قاعدة الالتزام مرِنة؟ ألا يُمكِن أن نُقنِع الأخ الأكبر، الناتو، أن يُخفِّض قطْر الأمان، في هذه الحال، إلى ثلاثين متراً؟ ولماذا لا نحاول، هنا أيضاً، أن نبذل هذا الجُهد الأخير لكي نصير بالفعل جيشاً تقنيّاته عالية جداً؟

تحية إلى هؤلاء الرجال. تحية إلى هؤلاء الشباب الفرنسيّين الذين أنقذوا، من غرفة قيادة آلاتهم الطيّارة، يوم السبت في 21 آذار/ مارس، مدينة مُهدَّدة بمذبحة - وأعطوا ضربة البداية لحرب تبقى حرباً مع موكبها من الدموع والخراب، لكنّها حربٌ **عادلة**.

الأربعاء 27 نيسان/أبريل (نداء القبائل)

عاد نداء قبائل ليبيا عن طريق منصور. إذ كان في 8 نيسان/ ابريل، خلال عشائنا في ضواحي بنغازي، قد أقرَّه رؤساء القبائل الاثنين وثلاثين ممن كانوا حاضرين أو مُمثَّلين - أي قبائل برقة، ومدُن الغرب الشهيدة إجمالاً.

وخلال هذه الفترة، جرت اتصالات، وبُثَّت رسائل نصيّة، وأسرع مبعوثون باتجاه كلّ القبائل الأخرى في البلاد - حتى تلك التي يُفترَض أنها تؤيِّد القذّافي، أو ما تزال تعيش تحت إرهابه.

والنتيجة هنا.

نضيع في لفظ الأسماء. أضيع فيها، فأجعل منصور يُعيد تهجئة الأسماء عشر مرّات. لكنّ النصّ هنا.

في النصّ توقيع مفتاح معتوق الأورفلي، رئيس قبيلة الأورفلة في بني وليد، التي تُعَد من أكبر قبائل الغرب الليبي.

تلقى توقيع الشريف سيف النصر، بعد أن أجرى تعديلاً طفيفاً، وهو عضو في قبيلة وُلد سليمان شرق مدينة سِرت، مسقط رأس القذّافي، والمعدودة واحدةً من قواعده.

كلّ قبائل مدينة سبها، في منطقة الجنوب، وكلّ قبائل فزازونة التي كان يُعتقَد أنّها هي أيضاً مُناصرة للقذّافي، أو لا تجرؤ على إعلان عدَم مُناصرتها له، مُمثَّلة بالحاج علي الفزاني الذي حدّد لنا، في رسالة مُرافِقة، أن كثيرين من رؤساء القبائل في منطقته لم يستطيعوا أن يوقّعوا معه لأسبابٍ أمنيّة، ولكنّهم معه قلباً وقالباً.

كذلك أمر قبيلة مقراحة في الجنوب: أحد رؤسائها، عبد الله السنوسي، هو زوج أخت القذّافي وأحد أعمدة نظامه، لكنّ توقيع الحاج موسى المقراحي، مُمثّل واحدة من أقدم عائلات المنطقة وأكثرها تأثيراً، يريد أن يُكذِّب ادّعاءات طرابلس بقدرتها على الاعتماد على دعمه لها.

وحضور عبد القادر الطرقي، بين الموقّعين، وهو أحد رؤساء قبيلة الطوارق، هو أيضاً دلالة كبرى: قبيلة الطوارق المرتبطة مع طوارق النيجر، والجزائر، ومالي، معروفة بأنّها مع القذّافي ـ وبدءاً من اليوم ـ لا ينبغي أن تكون معه.

وهناك أيضاً القبيلة الساحلية صُرمان: هي مهد اللواء خالدي الحمدي، مُرافق القذّافي، لكن هاهي، بوساطة الحاج مبروك الصوماني، تؤكّد بصراحة تامة أنّها اختارت مُعسكر التمرُّد.

محمّد الدهماني العجيلي يُمثّل قبيلة عجيلة، غرب طرابلس.

بو كريس عاشور الورشفاني، مُمثّل قبيلة ورشفاني، وهي قبيلة أخرى من غرب العاصمة، في قطّاع حي العزيزية الذي يُعَدّ واحداً من أقوى معاقل «القائد».

وهناك أيضاً حالة خليفة صالح القذّافي، رئيس قبيلة قذافة وهي قبيلة القذّافي، وهي القبيلة التي يحمل اسمها: استطاع خليفة صالح القذّافي أن يُوقِّع هذا النصّ لأنّه موجود حالياً في بنغازي، وتوقيعه يُعلِن توقيعاتٍ أُخرى، توقيعات كثيرة، يجب أن تبقى سريّة.

كلُّ القبائل هنا.

كلّ أسماء ليبيا - لأنّ لليبيا أيضاً أسماء روائية جداً «أسماء البلاد» - استجابت لندائنا.

بطبيعة الحال، بعد هذا البيان كما تنشره مجلّة La règle du Jeu، وكما تلقّفتْه على الفور وكالات الصحافة، ينبغي ألا يبقى شيء من ليبيا «المُنقسِمة إلى فريقَين».

لم يعُد التقسيم، على الأدقّ، جغرافياً يفصِل قبائل الشرق وقبائل الغرب (وهذا ما كان يستفيد منه القذّافي): بل صار انقساماً سياسياً، سابق للقبائل ذاتها، التي، وإن لم تُبدِ بوضوح ولاءها للمجلس الوطني الانتقالي، على طريق أن تفعل ذلك، أو هناك بعض رؤسائها اللامعين الذي فعلوا ذلك.

الحدث مُهمّ جداً.

والنصر مشهود.

وأكثر من أثاره الحدث، رئيس الجمهورية الذي اتصل بي قبل ساعة من نشر البيان يقول:

«كل القبائل حقاً؟ كلّ قبائل ليبيا من دون استثناء؟ إذا تأكّد ذلك، فالمسألة محسومة».

ولمّا أكّدتُ له بالقول:

«هذا جيّد. الأمور تسير في طريقها الصحيح. وبالتالي فهي تتقدّم على الجبهات كلّها. وهذه الجبهة السياسية لا تقلّ أهمية عن الجبهة العسكرية».

وقبل أن يُغلِق الخط، هذه الملاحظة البصيرة:

«يعني هذا أنّ الأمر الخارق أنّ أولئك الذين لاموني حين ذهبتُ إلى ليبيا، يلومونني الآن لأنني لا أذهب إلى سورية».

هو مُحِقّ ومُخطئ.

والحقّ أنّ هذا السؤال (لماذا ليبيا، لا سورية؟) يتعاظم طرحُه غالباً، من أناسٍ ذوي نوايا حسَنة، ويُريدون أن يفهموا فقط.

في هذه اللحظة، لا أملِك إلا إجابات ضعيفة، وتصوُّرها غير كافٍ.

مسألة الحرب العادلة أولاً. ففي هذه الشبكة من القواعد الذرائعية، والتجريبية تقريباً، التي هي، بحسب مونيك كانتو - سبيربير، في الكتاب الصغير الرائع الذي تنشره عن هذه المسألة، نظرية الحرب العادلة، فهناك شرط آخر يبدو أنّ العالَمَ كلّه نسِيَه، وهو مع ذلك شرط أساسي: إنه القاعدة المدعوَّة «الأمل المعقول في النجاح»، كما أعلنها غِروتيوس في القرن

السابع عشر، وكما تُعلِنها اليوم بعض الأسماء الأنجلوساكسونية، الكبيرة. هذا الأمل واضح في ليبيا، فهل كان واضحاً، وهل سيكون واضحاً بالطريقة نفسها في سورية؟ ماذا سيكون أثر الضربات الجوية في هذا البلد، كثيف السُّكان؟

ثمّ تأتي فكرة أننا في عالَم لا يستطيع كل الناس أن يقوموا بكلّ شيء في أية لحظة، وحيث لا يستطيع البلد نفسه، الذي هو فرنسا، أن يدعم، في اللحظة نفسها، كل الحروب التي عليه دعمُها، بأخلاق جيوسياسية عالية، الدعم - هناك طريقة أخرى للدعم، - أقل فعالية في الوقت الراهن بالتأكيد، وأقل إرضاء للعقل، لكنّها أفضل من لا شيء: تعميم مبدئها الأساسي لا تطبيقها؛ بتثبيت قواعد جديدة لِلُعبة بالاعتماد على ما نقوم به، قاعدة لها قيمتها النظرية بالنسبة للجميع.

ومرّة أخرى أيضاً، أنا واعٍ تماماً بضعف الحجّة من الناحية البلاغية. لكنْ هل هناك حُجج كثيرة مثلها؟

الخميس 28 نيسان/أبريل (سياسة الكتّاب)

«نقطة ضعف الكتّاب كلّهم تقريبا أنّهم يُقدِّمون أفضل ما عندهم، وأكثر ما كتبوه تفرُّداً، وذلك للحصول على وظيفة ماسحي أحذية في السياسة». هذا الكلام لمارسيل آميه في **مجموعة كتابات عن السياسة** الصادرة عن دار **الآداب الجميلة**، كنتُ أُقلِّب صفحاتها في مكتبة السوربون، في نيس. الجملة نتنة، بطبيعة الحال، كما هي غالباً عند مؤلِّف **أورانوس**. لكنّها على الأخصّ رعناء. فما أمر مالرو؟ ولورانس؟ وهمنغواي وحُبّ إسبانيا؟ وكتاب **تحية إلى كاتالونيا** لأورويل الذي لم يُفارقني أبداً، هو وديوان شعر لأراغون، في بنغازي؟ وما أمرُ هذه الكتُب كلّها المُغذّاة بالسياسة مثلما يُغذِّيها آخرون بحياتهم اليومية؟ وتوكفيل؟ وبروست **جان سانتوي**، المُساعد في دعوى زولا، الذي أوصل إلى بيكار، في سجنه، نسخة من **الملذّات والأيّام**؟ وشاتوبريان في النهاية؟ كنتُ أقول في ذلك اليوم إنّ ألونزيو كان وحدَه زعيم الحرب الجِدّي في التاريخ الأدبي الحديث، وإذاً، شاتوبريان هو وحدَه الدبلوماسي الجِدّي، ووزير الخارجية مرّتين، ثُمّ الوزير الوحيد ببساطة للأدب الفرنسي، الأفضل بكثير من مالرو - وفي المُحصِّلة أعطى هذا مُذكرات ما وراء القبر. إذاً اتفقنا، مارسيل آيميه. أو الأفضل، مادام علينا أن نفعل، نابوكوف في هذا النص الجميل الذي استشهد لي به دانيلو كيس، قبل موته:

«سأدعم حتى أُعدَم بالرصاص أنّ الفنّ، بدءاً من لحظة اتصاله بالسياسة، ينحطُّ حتماً إلى مستوى أية تفاهة إيديولوجية». لكنّ «كيس» كان يشعر أنّ الحرب في يوغسلافيا السابقة كانت تحصل. وكان يعلَم أنه لو عاش، لسبّبت له مشكلة لا يُمكِن تجاوُزها. وإزاء هذا: همُّ العالَم الذي هو شرف أغلب الكتّاب الذين أُعجَب بهم.

الخميس 28 نيسان/أبريل أيضاً (اعتراف)

ما الذي يُمكِن أن يجمع ثلاثة رجال يخوضون مُغامرةً كهذه؟ وما الذي يمهر اتفاقهم الأساسي بالإيماء؟ كنتُ مع جيل، ومارك، في بهو فندق تيبستي، في بنغازي، في الليلة ما قبل الأخيرة، من إقامتنا الأخيرة هناك. هذه ساعة القدَح الأخير، قبل الصعود للنوم، بعد أن قِيل كلُّ شيء، لم يبق شيء لم يُقَل على الإطلاق، ما عدا المُسارّات الشخصية. نعم، ولاحظنا أنّ شيئاً يُشبِهنا. شيء لم نتحدّث عنه أبداً، لكنّه فجأة يظهر للعيان. شاغِل ليبيا الحرّة، مُوافِق. وفي ما وراء ليبيا، التلذُّذ بالمُغامرة والفعل، طبعاً. لكن الأعلى من ذلك كلّه،تشكّل له باختصار دعماً، ووَلعاً أكثر سريّة، سنكتشف، ونحن نستحضِره، أنّه هو الذي قرّر في النهاية أن تكون أسبابنا هنا، ومهرَ صداقتَنا. هذا الولَع هو إسبانيا. أعني حرب إسبانيا. هذه الحرب التي سأشرحها، خلال بضعة أسابيع، في مُتحَف برادو في مدريد، والتي كان جورج سمبرون يُسمّيها دوماً «حربنا» وهكذا أستمِرّ أنا، بعد جيلٍ كامل، وبطريقة أكثر تخيُّلاً، في تسميتها كذلك.

من الطبيعي إذاً أن أسميّها «حربنا»: فالأب يُوجِب ذلك ـ الفتى هنري ليفي الذي هرب في الثامنة عشرة من بلده الأصلي الجزائر، ليذهب إلى برشلونة، ليلتحق بالفِرَق الدولية. وجيل أيضاً ـ أعرف ذلك منذ زمن طويل: القصة بالغة الجمال، التي ألّف فيها كتاباً عن والِدَيه بول هرتزوق ومارسيل كاشان، الطبيبين على ظهر باخرة فرانس نافيغاسيون، الشركة التي كانت تنقل، حتى اليوم الأخير أو يكاد، من الاتحاد السوفييتي إلى إسبانيا، أسلحة للجمهوريّين ثُمّ، في صيف 1939، حين تحققت الهزيمة، رافق آلاف الجمهوريين إلى تشيلي. لكنّ المُفاجأة أنّ مارك روسيل، الذي كنت أعرفه بالكاد، أفهمنا أنّه في الحالة نفسها: فهو ليس ابن جمهوري، بل حفيد جمهوري ـ أمّا بالنسبة للباقي فالمُخطّط نفسه، والظلّ المحمول نفسه، والنمط البطولي نفسه الذي صنعه أيضاً (جدُّه نيكولا كامبوس، الإسباني المنفي إلى فرنسا،

لكنّه يعود هو أيضاً، في نهاية عام 1936، إلى الفرَق - إلى برشلونة أيضاً، والدفاع عن مدريد، ومعركة نهر الإيبر، ومن ثمَّ، كي ننهي القصة، اعتقال في واحد من مُعسكرات العراء حيث الجمهورية الفرنسية الجميلة «جمّعت»، في شتاء 1939 الحُمر الذين تركتهم يسقطون، وهم الآن يجتازون جبال البيرينيه هرباً من أرتال فرانكو الجهنّمية). والمُفاجأة أنّه، هو أيضاً، يعمل مثلَنا، نحن الاثنين، لا أقلّ ولا أكثر، على الذاكرة الحافظة، والمُخيِّلة البطوليّة: فهل هو في خندق في اجدابيا؟ في رأسه قصص معركة نهر الإيبر، والصفحات الأولى من كتاب أورويل تحية إلى كتالونيا تُشوِّشه، فيلتزم معي، معنا، في مغامرة فيلم عن ليبيا الحُرّة؟ فجاء ولم يُهمل الموضوع بعد ذلك، وأخذنا موديل تسيرا دو ترويل لمالرو وأو موديل مجموعة من الفنّانين أنتجوا، حول همنغواي ودوس باسوس فيلم أرض إسبانيا لجوريس ايفنز، الخ.

نحن صديقان في الخامسة والثلاثين (أنا وجيل)شكّل أبوَينا قانون واحد، ومن البوسنة إلى ليبيا مروراً بدارفور، ويُلحِق بنا... ثالثاً، قادِماً جديداً، يجهله فَوجُنا الأخويّ، غير أننا كنّا نعرف أن ثقافته السياسية، ومرجعيّاته، وأحلامه، مجبولة من طينتنا نفسها (مارك)... هذا هو الموقف. يُعادل تماماً لحظة افتتان. وحفنة من المُسارّات والأسرار العائلية المهموسة. ثُمّ، في هذا المعرض من المرمر المُقلَّد الواسع جداً، والخالي تماماً، أمام فناجين قهوة باردة، وبقايا من البيتزا المُتجمِّدة، و«لُعبة أسئلة» ارتجالية، صبيانية قليلاً، وعبثية بعض الشيء، وتشتد حماسةً كلّما تقدّم الليل. التاريخ هو بالضبط بداية هذه الحرب الإسبانية؟ فماذا يفعل فرانكو في جبل طارق، في شهر آب؟ وماذا يحدث في باداجوز؟ ومَنْ منّا، نحن الثلاثة، يعرِف كيف ولماذا سُمِّيَت دوروتي بهذا الاسم؟ وكم من المتطوِّعين في وحدة سيمون ويل في مدريد؟ وتشكيل كتيبة أبراهام لنكولن؟ ومن أيِّ كتاب استلهم «كين لواش» فيلم Land and Freedom؟ وأين يجري حدَثُ الفيلم، وقبل الفيلم، أين يجري حدث كتاب جورج أورويل (جبهة آراغون، ومعركة نهر الإيبر، وتوروايل)؟ ومَن هو الذي قال ساعة وصوله إلى مدريد: «أنا مُقتنِع بأن مناورات العالَم الكبرى ضدّ الحريّة قد بدأت توّاً»؟ ومَن هو مؤلِّف نشيد من أجل فرانكو؟ وكم من المُتعامِلين يستطيع كلّ منّا أن يُسمّي المختارات الجمهورية التي أعدَّتها نانسي كونار بـ Authors Take Sides؟

لماذا بقيَ، بينما كانت الكتائب تُحارِب مُنسحِبةً في مالقة، وكويستلِر، في المدينة المهزومة حيث سيَسجنُه رجال فرانكو؟ عمّن كتب همنغواي: «كان سَيُقال إنّه خاض الحرب لحسابه الخاصّ»؟ كان يتحدّث عن ايزنبورغ الذي هو وحدَه في ذلك العصر الذي لم «يُطهِّر» - لماذا؟

استمرّت اللعبة حتى وقتٍ مُتأخِّر. نحن الثلاثة، إذ نستقي معلوماتنا من الذاكرة نفسها، نقوم بغاراتٍ من التبحُّر، ونقوم، حين لا نعرف الإجابة، بغاراتٍ من الإثارة والاختلاق. نضحك. وحين لا نتّفِق، نقترع، اثنان ضدّ واحد، فـإنّنا نُشكّل نحن الثلاثة، مجموع ما هو، في هذه الحال الليبية، في ما نعيشه، هنا، الآن، يوماً بيوم، يبرز - ويرى نفسه أفضل - في ضوء هذا النموذج الإسباني. كلّ شيء هنا. القِسمة الكبرى، الوحيدة المُهِمّة، بين هذين النوعَين من المُعاصِرين: أولئك الذين يؤمنون بالتاريخ، وأولئك الذين لا يؤمنون به. أولئك الذين يُقاومون شحوب الذاكرة الذي هو مرض كتاب إشعيّاء، ويحضُّون البشرية على عدَم «تذكر الماضي»، وعدَم «التفكير بالأشياء الماضية»، وبعبارة أُخرى، أولئك الذين لديهم حنينٌ إلى العظَمة، وأولئك الذين فقدوه. بوسنة! كان فيلماً غنائياً - وتحمّلتُ مسئوليّته. وإذا أنتجتُ فيلماً، من الصُّور التي نُصوِّرها الآن، فسوف أُسمّيه ليبيا حُرَّة! سيكون فيلماً غنائياً أيضاً - وأنا أُحِبُّ هذه الفكرة.

الجمعة 29 نيسان/أبريل، (قارب للذهاب إلى مصراطة)

أشعر بالملل في باريس. عيني مشدودة إلى الأخبار المُرعبة التي تصل من مصراطة كلّ يوم. وفي رأسي فكرة، فكرة واحدة - إنّها وسواسٌ تقريباً: إيجاد حلّ سريع، سريع جداً، للذهاب إلى مصراطة. هناك حلّ الذهاب عبْر بنغازي، وهي طريق بعض الصحفيين الذين يُجرِّبون حظّهم، ونُحاول نحن أن نسلكها حين كان علينا أن نعود مع يونس ومصطفى، على جناح السرعة لرؤية ساركوزي. لكنْ قد يتوفّر لي، عن طريق بشير صبّاح مُتطوِّع ليبي، هو صديق منصور، إمكانية ثانية - أقل أماناً (لأننا قليلاً ما نفعل هذا) لكن ستكون ميزتُها أنني لن أرتهن بأيّ شخص، بأية مجموعة، بأية مهمّة (وبالتالي أربح الوقت): استئجار قارب صيد في مالطة، واستئجار طاقم، والإبحار مُباشرة، باتجاه الجنوب، ثلاثين ساعة ملاحة، حتى ميناء مصراطة.

الجمعة 29 نيسان/أبريل، أيضاً (يهودي في المغرب)

آندريه آزولاي في بيته الكائن في شارع فوزاندري في باريس. هو شخص لبِق. مُطَمْئِن عنيف قليلاً. وصوته الخالي من النبرة، الناعِم إلى درجة أنّه غير قابل للاختراق، ويصل إلى أن

يكون كذلك. وفجأةً طرأتْ ابتسامة أعادته إلى هيئة الطفل القديم: هيئة الشخص ذاتها التي كانت تُميِّزه حين تعرّفتُ عليه، منذ عشرين عاماً، وربّما أكثر، إنّه آندريه آخر، أندريه نفسه، وهو مع ذلك أندريه آخر، صيرفيّ، ايتابيشمنت، نوع من ديزراييللي فرنسي أو سولال يعدُّ نفسه خبيراً في فنّ الصُّنع الفرنسي ـ ثمّ ....، المغرب، مغرب يهودي إيبيري آخر، يهودي عند المسلمين مثلما كان عند المسيحيين. أتذكره لابِساً عباءته، وهو أكثر يهودية من اليهود الذين يضعون القلنسوة، وما أزال أسمعه يشرح لي، للمرّة الأولى، كيف ارتكزت حياته اليهودية بالتحديد على أن يصير مُستشاراً عند مِلك عربي. رأيتُه ثانية، صوته المرتاح نفسه، يكاد يكون غير مسموع وحتى الملوك يجب أن ينحنوا ليسمعوه. ولئن كان بيننا لورانس حقيقي ـ لكنْ لورانس من دون حرب، لورانس من أجل زمن السلم، وفضلاً عن ذلك، لورانس يهودي، لورانس مُزدوِج بطريقةٍ مّا، لورانس أُسّ 4 ـ فهو أندريه آزولاي.

جئته أسأله عن رأي حكومته بالليبيين الثلاثة الذين زاروا الرباط توّاً، وعن الموقف الذي سوف يأخذه المغرب في هذه القضيّة. أجابني بإيماءة ـ وهذه هي لُغة أندريه ـ أفهمتني أن المغرب سيتحرَّك بحذَر. مع أن قلبه مع الثوّار من دون شك. ويتمنّى بالتأكيد نهاية القذّافي. وبديهيٌّ أنّه يُلحِقه بالعدو الجزائري. لكنَّ المغرب خائف جداً على نفسه. وخاصة أنّه على جمرٍ حارِق. وهو مُهدَّد جداً من شبابه الغاضبين، حتى لو لم تكن لأوضاعه أية علاقة بأوضاع ليبيا. وبالتالي فهو مشلول. أمّا أنا فلماذا لم أفكر في هذا الأمر مُبكّراً؟ خسارة. لأنّ هلال الدول العربية المُعتدِلة، سينطلِق من المغرب إلى ليبيا ويمرُّ بالأردن، ولبنان وقطر، ويجب الإعلان عنه الآن. وأتمنّى بعُمق أنا وآزولاي، وآخرون، وكثيرون من الأصدقاء العرب أن نُدشِّنه. وبالفعل، بعد قرنٍ كامل، النسخة الأخرى من حزب لورانس ـ السياسي، العسكري، الأدبي ـ أو بتواضُع أكثر، الحزبي، كما كرّرت مرّاتٍ كثيرة، عن إسلام الأنوار المضادّ لإسلام الإرهاب ومِلَّته الحديثة من القتَلة.

الإثنين 2 أيّار/مايو (أتذكر روجيه ستيفان)

روجيه ستيفان، في الصفحات الأولى من كتابه صورة المُغامِر، المُخصَّصة لحالة مالرو، ولورانس، وأرنست فون سالومون: «أُغلِق مجال المُغامرات الفردية منذ حلّ فعل القوى الجماعية بشكل مفتوح محل مُبادرة الفرد». هل هذا أكيد إلى هذا الحدّ؟

وإذا ما نجحتُ في تنظيم هذه الحملة على مصراطة؟

الثلاثاء 3 أيّار/مايو (لا، أبداً ليست العراق بالتأكيد)

لجنة مجلة La Règle du Jeu. على يسار اللجنة التي ساورها، مع ماريا، بعض القلَق، شعرت به تماماً، من رؤيتي ألتزم بلا حدود بهذا الدعم للحرب الفرنسية، والساركوزيّة، في ليبيا، وأعطيت سبباً إضافياً لتمييز هذه الحرب عن حرب الأميركيين في العراق. فالأميركيون كانوا يتحدّثون عن «عدالة لا نهائية»، مُسلّمين ضمنياً بفكرة حرب لا حدود لها (لا في الزمان ولا في الوسائل الإجرائية، ولا في المنهجيات للأسف). أما فرنسا فتتحدث عن حرب محدودة الأهداف (حتى إنّها محدودة بشكل مُضاعَف، من خلال قواعد الالتزام التي حدّثني عنها العسكريُّون في ذلك اليوم، وكذلك من خلال تفويض الأمم المُتحدة الذي يفرض إنقاذ المدنيين، ويفرض اليوم إيقاف المجزرة في مصراطة). المحدود ضدّ اللا محدود. المقدار ضدّ العدالة اللانهائية. ومن جديد، نحن بصدد قانون غروتيوس عن الحرب والسلم. نحن، من جديد، بصدد نظرية الحرب العادلة كما عرَضها كانتْ في كتابه. ومن جديد، نحن في الطرف المُقابِل لإيديولوجية «جاكسون»، لإيديولوجيا الكاو - بوي، وللحرب بوصفها عِقابًا، ولِمذهب «نثِق بالمُسدَّس»[6] الذي هيمن في البيت الأبيض خلال حُكم بوش.

الأربعاء 4 أيّار/مايو (فكرة مُبطّنة)

تناولتُ طعام الغداء مع ألكسي لاكروا في المقهى الواقع وراء La Règle du Jeu. قال لي إنّ ألكسندر أدلر وجد أنّ زاويتي الصحفية عن إسرائيل والربيع العربي مُبتسرة، وفضلاً عن أنها مُبتسرة، فهي مُعرَّضة، إذا تدهورت الأحداث، لتكذيب قاسٍ. فأجبتُه أنّ ألكسندر معه حقّ بالتأكيد، وأنّ الأحداث ستتدهور حتماً بأكثر مما توقّعت، وأنّه ستكون في ليبيا الغد الحُرّة حتماً موجات مُعادية للصهيونية، وحتى مُعادية للساميّة، وأنّ لا أحد، ولا أنا طبعاً، يدّعي في أية حال من الأحوال أنّ الديمقراطية ستكون الترياق، وستلِد، بادئ ذي بدء، عالَماً من المُعجزات، أو بعبارة أفضل، أنا مُقتنِع بأنّ الديمقراطية قد تكون أيضاً، بطبيعتها، وعلى الأقلّ، في مراحلها الأولى، اسم تعبير حُرّ عن دافعٍ معادٍ للديمقراطية. لكنْ، بهذه البرهنة التي أفهمها، وأعنيها، وكل يومٍ من يومَين، أتقاسمها، سأجيب بثلاثة أشياء (وأكرِّرها، بالنبرات كلّها، منذ بداية هذه القضيّة).

أوّلاً، قاعدة أساسية. أن تتدهور الأحداث، هذا ممكِن. لكنّ الديمقراطي لا يستطيع أن يأخذ هذا المُمكِن على أنّه أكيد. ولا يستطيع ألا يمنح نفسَه فُرصةً على الأقلّ، في «المجر الصيف». وليس بإمكانه ألا يكون مُتيقِّظاً. وألا يُقلِّل من الخطَر. لكنّ استنتاجي من هذا الخطر، والاستناد إلى هذه العقَبة، كي أمنع الإبحار، فهذا لا يُمكن تصوُّره.

يأتي بعد هذا سؤالٌ صائب. الحدَث واقع على أيّة حال. ألم يتأكّد أنّ مُبارك لم يكن خالِداً، ولا بن علي، ولا القذّافي، وسيقع عاجلاً أم آجلاً. فماذا ينفع، في هذه الحال، أن نكون كالنعامة؟ وأي نظام عالمي سنُثير إذا كانت أركانُه ديكتاتوريُّون متهرِّئون مُدانون؟ وهل يُمكننا أن نبني جُغرافيا سياسية، أي رؤية عن العالَم، على فكرة وحيدة هي وجوب كسْب الوقت، وتأخير الحتمي؟ والموقف العقلاني الوحيد، أقول العقلاني، لا يرتكز، كما قلت لليبرمان، بمواكبة حدَث لا يرتهن حصوله بنا ـ أنا لا أقول أن نقترن به، بل أن نُلاحِقه، نُلاحقه فقط، وأن نحاول مُواكبته، وبذلك، نضغط بشدّة على قدَره؟ قال لاكان نقدياً: «السِّيريو هو السيريّ»[7]. وهذه حقيقة الأمر.

ثُمّ تأتي مشكلة الإستراتيجية. إذ ينبغي أن نكون داخلها حتى نضغط. وتلزمنا الشجاعة حتى نسمح لأنفسنا بالاحتجاج. ولن يُسمَع، في اللحظة المُناسبة، إلا أولئك الذين لم يُديروا ظهورهم قبلاً لتفتُّح هذا الربيع. وأعلم أنّ اللحظة ستأتي حيث ستكون عناوين الصُّحُف عن الدوافع الإسلامية، والأصولية، وأنّ هذه الثورات العربية تحرَّرت منها. وأعلم أننا سوف نرى، كما رأينا في البوسنة، وأكثر ممّا رأينا في البوسنة، إسلاميين سيُحسَب لهم أنّهم قاتلوا، في الخطّ الأمامي، الطاغية الفاضِح. إنّما ينبغي، في ذلك اليوم، أن يكونوا هنا، وأن يكونوا أخويِّين بما يكفي، ومُتضامنين، وأن يعقدوا مواثيق الثقة المتينة، كي يستطيعوا أن يقولوا لهؤلاء الناس إنّ هناك، عندما نريد أن نكون ديمقراطيين، أشياء لا تُقال، وأفعالاً لا تُرتكب. وهذا سيكون واحداً من أدوار فرنسا. وهذا ما يجِب تحضيره بتواضع اعتباراً من اليوم. احتيال إذا شئنا. لكنّه احتيال العقل.

الخميس 5 أيّار/مايو (لكي ننتهي من هنتغتون)

المسألة هي هنتنغتون. أي مرة أخرى هذه الأعداد الأولى للجدل الإيديولوجي التي نعود إليها دوماً. فإمّا أن نعتقد أنّ الفضاءات الحضارية كتَل، مُغلَقة على نفسها، ومُترابطة، في قطعة

واحدة ـ وبالتالي فإنّ ما يحدث في العالَم العربي لايعني العرب وحدَهم، وليس لدينا كلِمة نقولها، فهذا شأنهم في بلادهم. وإمّا أن نرفض أحكام هنتنغتون المُسبّقة؛ مُعتقدين أن الحضارات تتواصل، وتتداخل، وتتبادل التأثير والتأثُّر، وتتحاور؛ ونحن ننتمي باختصار إلى هذا الحُكم المُسبَّق الذي هو وحدة الجنس البشري، أو لنقُل هذا بعبارات عادية أكثر، ننتمي إلى مقولات ما كان يُسمّى قديماً بالعالَمية؛ ونعتبر أنّ الأرض العربية الإسلامية، مثلاً، لا تفتقر للمثل العُليا في الحرية ـ وبالتالي فالقضيّة العربية قضيّتنا، وهي أيضاً جزء من داخلنا، ومذهبي الفلسفي في تدخُّل المصلحة يُسوِّغ نفسه تسويغاً كاملاً. حُكم مُسبَّق مُقابل حُكم مُسبَّق. مُعسكر مُقابل مُعسكر. غير أنّها مُعسكرات الفِكر. وينبغي الاختيار.

الجمعة 6 أيّار/مايو (كوبّيه وميشيل فوكو)

تناولتُ طعام الغداء مع جان ـ فرانسوا كوبّيه في مقرّ حزب **الاتّحاد من أجل حركة شعبية**. على الشرفة، والطقس جميل. هبّت ريحٌ خفيفة كادت تقتلِع المظلّة فعُدنا على أعقابنا. على الطعام، ليبيا. ليبيا دائماً وأبداً. قال لي الأمين العام للحزب الرئاسي إنّه ساهم في تهدئة جوبّيه الذي كان غاضباً جداً منّي. وقال لي أيضاً إنّ بينه وبين ساركوزي وجهة نظر مُشتركة: عدَم التراجُع أبداً، وعدم الندَم ـ وهو متأكّد من أنّ هذا ما ستكونه حال ليبيا. غير أنّه قال لي أيضاً إنّه من أولئك الذين يخشون تطوّر الأحداث. وعندما عرضتُ عليه أطروحتي عن ضرورة الولوج في الأرض غير المستقِرّة كي نكون قادرين إذا اقتضت الحاجة، في اللحظة المُناسبة، الضغط على حُلفاء ينبغي أننا درّبناهم مُسبّقاً، وشجعنّاهم، ودعمناهم بإخلاص، أجابني جواباً أذهلني وجعلني أقيس، مرّة أُخرى، عند واحد من أهم عناصره، عدَم الفهم المتربِّص باليمين الفرنسي أمام هذه الحرب: «وإيران؟ ماذا سوف تفعلون بإيران؟ ألم يشكرنا الإيرانيُّون كثيراً لأننا آوينا الخُميني في نوفل ـ لو ـ شاتو؟ وفوكو؟ أرسلنا إليهم ميشيل فوكو الذي كان برنار ـ هنري ليفي ذلك العصر ـ فهل تتذكرون أنّهم شكرونا على هذا أيضاً؟

سأعبّر عن جوابي من خلال ثلاث نقاط:

1. عبد الجليل مُسلِم ورِع لكنه يختلف عن الخُميني.
2. فرنسا تُقاتل إلى جانب ليبيِّي اليوم، وتُساعدهم على التحرُّر ـ أليس هذا مُختلِفاً، بطبيعة الحال، عن إيواء الخميني في نوفل ـ لو ـ شاتو؟

3. أمّا فوكو... فأجِد أننا كنّا، في البداية، شديدي القسوة على سلسلة التقارير التي أعدّها فوكو، ونشرتها جريدة لو كورييه ديللا سيرا والتي هي، إثر قراءتها بعد هذا الزمن، أقلّ هذياناً ممّا يُقال عنها. لكنّ الأكيد أنّها تقارير، وتقارير فقط، وأزعم أنني فعلت في ليبيا أكثر من مجرّد نقل ما يحدث: عندما أعيد كتابة أوّل نصّ عام لجبريل، والتصريح الأوّل لعبد الجليل، وبيان القبائل، وعندما أعمل على الاعتراف بالمجلس الوطني الانتقالي، أو على مجيء يونس إلى باريس، فأنا في دورٍ لم يعُد مُتعلّقاً بالشرح، ولا بالتمجيد، ولا بالإعجاب، بل بالتأثير.

كان كوبّيه يسمعني. لكني رأيت أنني لم أُقنعه. فماذا يُمكِن أن يكون رأي مَن هو أدنى منه مرتبة في قيادة الحزب، أي قاعدة «حزب الرئيس»! فإذا كنا كذلك عنده، وهو أكثر رؤساء الحزب لَمعاناً، فكيف سيُفكر ناخب عادي من ناخِبي اليمين؟ وسواءٌ أكانت هذه الحرب مُتصوَّرة، ثُمّ مُقرَّرة، ثُمّ مُندلِعة حتى إشعار آخر، ألا تصدر مرّةً أُخرى عن مُعجزة سياسية؟

يمين قاسٍ... رأي (في أفضل الأحوال) غير مُكترِث. أوساط أعمال مُنسجمة مع نفسها، أي قشّة بيتانيّة... حزب سيادي قويّ، ضاجّ، يعُدّ قادِمين جُدُداً ذوي ثِقل... جهاز دولة، وعلى رأس الأجهزة وزارة الخارجية التي لم تفهم أبداً المُغامرة الفاسقة التي نجرُّها إليها... فما الذي يبقى؟ رئيس استثنائي. رئيس المُعارضة، أوبري التي تُبحِر عكس أعضاء حزبها، ولكنّها تُقاوم جيداً. وحفنة من المثقّفين، والإنسانيين، والصحفيّين، كما في البوسنة، وغالباً نفس صحفيي فترة البوسنة، يُقاومون التشويه الإعلامي، ويُدافعون. هذا كثير، وقليل. كان لا بُدّ من هذا التحالف الغريب وغير المُحتمَل.

السبت 7 أيّار/مايو (وأفريقيا؟)

بصدد التأثيرات، منذ خطابي الأبله يوم وصول وفد «الوسطاء» الأفريقيين، ومُظاهرات فندق تيبستي، كان يدور في رأسي مشروع هو الآتي: إيجاد وسيلة لِكسر هذه الجبهة الأفريقية التي بناها القذّافي بالدولارات والوعود، وإيجاد الداعِم أو الثغرة الكفيلة بتقويض هذا الإجماع الفضائحي، والمُفرِط في التملّق كما يرى العالَم الصاعِد، ورُبّما تكوَّنت لديَّ فكرة.

الأحد 8 أيّار/مايو (نعم، سوريّة طبعاً)

حدّثني ابني آنتونان عن اتصال هاتفي من فرانسوا هسبورغ يُدين فيه صمت المُثقّفين إزاء ما يحصل في سورية. وأنا لن أتصرَّف إلا إذا أقحمني بالاسم مع ساركوزي. في النهاية! لماذا

أنا؟ وإذا كان هذا الصمت يُزعجه إلى هذا الحدّ، فلماذا لم يخترقه في وقتٍ سابق؟ وباسم أي قانون غريب يجعلني الشخص المُفترَض الوحيد لاختراق الصمت عن الثورات العربية؟ الحقيقة أنّ ما فعلتُه في ليبيا يُنتظَر، ننتظِر، وأنا شخصياً أنتظر، على كلّ حال أن يفعله أحدٌ في سورية، ولِمَ لا يكون هيسبورغ ذاته. والأهمّ من ذلك أيضاً: ما قام به ساركوزي، بالتغلُّب على مُقاومة شُركائه، وتحفُّظاتهم، وعبقريّته في نزع سلاح المُعارِضين في مجلس الأمن الدولي، يُدهشنا ألا يوجد إنسان آخر، مثل مركِل، أو ساباتيرو، أو أوباما، وعضو كبير أو صغير من مجلس الأمن (كان يجب أن أجِد القائمة الصحيحة، فكل طرف معنيّ، معنيّ ضميرياً، ومن السهل جداً أن يتّخِذ المرء شكل الرُتيلاء غامزاً بعين السوء كي يُردِّد باستمرار «عجَباً، عجَباً، غريب... ألا تجِدون غريباً ألا يفعلوا في سورية ما سبق أن فعلوه في ليبيا... ألا تجدون هذا مُثيراً للشكّ، والاضطراب، وعلى درجة عالية من الارتياب، ومُثقَلاً بالمعنى ـ لكنْ، ما المقصود؟ ـ هذا الكيل بمكيالَين والقياس بمقاسَين؟»).

الثلاثاء 10 أيّار/مايو (لينين وأفريقيا)

وسواسي الأفريقي دائماً. لديّ في هذه اللحظة وسواسان: مصراطة وأفريقيا. ثمّة، في ما يخصّ أفريقيا، هذه الكلِمة للينين التي كنت أردِّدها في شبابي، ولم أعُد أعرف لا سياقَها ولا معناها: «من يبسط يدَه على أفريقيا، يبسُط يدَه على أوروبا». لعبتُ بهذه الكلمة، وأعدتُ اللَّعِب بها. داورتُها، وقلبتُها. أفريقيا وأوروبا... أفريقيا وأوروبا...عندما بسط القذّافي يدَه على أفريقيا...قالت أوروبا للقذّافي ...ممنوع أن تمَسَّ أفريقيا...فمَن يبسط يده على أوروبا، يبسط يدَه على أفريقيا...من يبسُط يدَه في أوروبا، يعني بسطُها على البلد الأفريقي الذي سيرفع يده في وجْه القذّافي... وأنا مُتأكّد، على كلّ حال، من أنّ في إفريقيا مفتاحاً.

الخميس 12 أيّار/مايو (عن الحرب الفكرية)

إذاً هذا كلّه يطرح أيضاً سؤالاً يُعلِن عن نفسه كالآتي: حين أفعل كلّ هذا، حين أتدخَّل بهذه الطريقة، غير سعيد بما أُلاحِظ وأكتب، أبني تصوّرات عن أفريقيا، فأرفع هيكل خطط لتحطيم الدرع الإفريقية للقذّافي، عندما أكون الكاتب الشعبي في نظر جبريل وعبد الجليل، عندما أُقنِع الرئيس الفرنسي بأن يلتزم مع المجلس الوطني الانتقالي، عندما آتي بلواء باحث

إلى باريس، هل ما أزال في دَوري - وبما أنني كنتُ أتكلّم، ذاك اليوم، عن **«مُعسكرات الفِكر»** التي يجب دوماً الاختيار من بينها، فهل يتّصل الأمر دائماً حتى بِفكر؟

وبعبارة أفضل أقول: قصص «الخارج» و«الداخل»، و**«الأراضي التي نربحها»**، و«الأراضي التي نخسرها»، وهذا التكتيك، والتجسُّس، هذا السطو، والقسر، **هذه الطريقة** في ليِّ الذراع، وفي تحديد موعد، في أن نكون هنا بُغية أن نزِن ذات يوم هذه **«الإستراتيجية** الجامعة»، كما كان يقول فيليب سوليرس حين كان يعمل في مجلة Tel quel، أو ماو **«بيني** ليفي» الأوّل، هذه المعركة جنباً إلى جنب، التي لا نعرف في أيّ اتجاهٍ سوف **تجري، هذه** الطريقة في التأليف، في قول نِصْف الأشياء (هذا إذا كان نصفُها أصلاً! فأحياناً يُقال الأقلّ من النِصف بكثير، مُزقة، مُزقة من الحقيقة)، أليس ذلك النقيض التام للعمل الفكري الذي خُلقِت له من حيث المبدأ؟

وبعبارة أفضل: حتى مكان السياسة، مكان احتمال الحدوث، واللقاء، مكان المصالح والعواطف المُتصارِعة، هذا المكان المُظلِم، المُعتِم، هذا المكان الذي ليس عالمَاً ونُحاول يائسين أن نجعل منه عالمَاً (لكنّه قد يكون حيلةً أُخرى، حيلة السياسة نفسها، الوعد الذي تأخذنا به، وشبحه بامتياز، خداع آخر)، أوَليس هو، كما هو، مكان مُعادٍ للفكر حيث تخور قُوى المُثقّفين، ويفقدون ذواتِهم؟ وماذا سأفعل في هذه المعمعة، الحقيقية، الوحيدة، الأكثر وعورةً من غيرها التي تحدّثت عنها في تقاريري عن الحرب؟

أرسل لي باسكال باكّيه، في ذلك اليوم، مجموعة من حِكم سليمان التي تقول «قلب المِلك في يد الله». وحِكمة أُخرى أجبته فوراً أنّها موجودة في رواية **الحرب والسلم** لتولستوي، بمفرداتها نفسها، في مقطع وقعتُ عليه وهو يتحدّث عن نابليون (عند تولستوي، ومعه هذه النتيجة الطبيعية: الملوك عبيد التاريخ - يعتقد أنهم يسودون التاريخ، ويُهيمنون عليه، ويعجنونه بأيديهم، لكنْ لا، هم الذين يُعجَنون، ونابليون **لاشيء**). أهِيَ مُصادفة إذاً؟ نقْل؟ وإذا كان هذا نقلاً، فعَبْر أيّة قناة؟ بأيِّ سِرٍّ نقلٍ وانتقال؟ لا أعرف شيئاً عن هذا، لكنّه واقع. والأغرب أنّ هذه الكلِمة تعني الشيء نفسه في رواية تولستوي وفي التلمود - أن يكون المرء مِلكاً، أن يكون من هذا المشهد، يعني أنّه في الظلام، كما يعني أنّه يُضيف أيضاً، على نحوٍ مُفارِق، ظلاماً على ظلام العالَم، حتى في الاهتياج الذي يُبديه وهو يُحاول أن يرى فيه بقليل من الوضوح. فالسياسة هي دوماً من طبيعة الظلام، من طبيعة غير القابِل للاختراق. هي،

في جانب من جوانبها، هزيمة مُكرَهة للذكاء. ومحاولة التفكير فيها ـ أي ما ندعوه فكراً ـ إنما هي مشروع محكوم عليه بالإخفاق.

وزيَّن «باكّيه» رسالته باعتباراتٍ لطيفة عن التعب حيث يفترِض لي (تعب الجسَد، وتعب الروح، والتثبيط، والسَّأم) حين يتخيَّلني في هذه الحبكة، حبكة هذا المشهد ـ وحول الشكّ الذي يُساوِره، مثل «بينّي» حين رآني عائداً من حروبي المنسيّة، وثائراً من أجل الموصل، أو مدافعاً عن شباب الضواحي في فرنسا، فأنا لستُ مُغفّلاً، ولا أستطيع أن أكون كذلك ـ وهو، على كلّ حال، لا يُمكِن أن يعتقد أنني أكتفي بنصف الفِكرة هذه، بفكرة الرُّخص، بهذه الفكرة المشبوهة، المُقتطَعة، كما يُقال، من كحول رديئة: فكيف لشخص مثلي لم يُعلِن الحِداد على الدراسات، وبأقلّ من ذلك، على الحقيقة، وكيف لواحد من أتباع لافيناس يعرف من أيّ سموٌ غير تاريخي يتجلّى، حين تُريده هذه الحقيقة الخفيّة، وكيف لليهودي في داخلي، المُثقّف، وهو عارِف ذلك، بحُكم أنّ **القانون**، وإن كان مُتزامناً مع أفعالنا، يسمو عليها إلى اللانهاية، كيف لشخصٍ مثلي يُمكِن أن يعتقد بهذه اللعبة، لُعبة الاختباء، لُعبة إخفاء البؤس، لُعبة هذا البؤس؟

رُبّما معه حقّ في ما يتصل بالإنهاك.ففي بعض الأيام أفقد طاقتي على الاحتمال. ويتملّكني شعور بأنّي في عالَمٍ لا يُمكن إدراكه، له عُمقان أو ثلاثة أعماق، حيث لا أعرف مَن يقول الحقيقة، ومَن يكذِب. نعتقِد أننا نفهمه، لكننا لا نصِل إلى ذلك. نظنُّ أننا نتقدَّم في معرفته، غير أننا في الحقيقة نتراجع. يحصل هذا على الساحة الفرنسية كما على الساحة الليبية. عندما أسمع جوبّيه أو كليتتون، أو عندما أتحدّث مع جبريل. ولئن كان هذا هو الواقعي ذاته، الواقعي بالمعنى الذي يُعطيه إيّاه لاكان، فهو بالتالي معنى السياسي الذي يخفى على إدراكي.

في ما يتصل بالسياسي وعلاقتي به، ليس مُخطئاً كلّياً أيضاً. ألم أكتب بدءاً من كتابي الأوّل الذي مضى عليه أكثر من ثلاثين عاماً أنّ مكان الكاتب، والفيلسوف والمثقّف بعيد جداً عن المِلك؟ ألم تقُل الحكمة اليهودية، التي لم أكن أعرف عنها حينذاك أيّة فكرة، كلّ شيء، كلّ شيء على الإطلاق، عن لُغز هذه المسافة: إبراهيم الذي تفاوض مع الملوك الخمسة ومضى، وموسى الذي بارك فرعون ونجى بنفسه، البطاركة، هؤلاء المنبوذون، وهم يعرِفون أن ساحة الملوك سجن، وأننا لا بُدّ أن نكون مجانين حين يكون عندنا ناس، وأننا نرى في الظلام، لنتركهم، وندخل السجن؟ «اِحذَر من السُّلطة» ـ فصل الآباء Pirk Avot...

الأسوأ من ذلك حقاً هو الخوف، خوف عميق لا علاقة له بالخوف الذي استطعت أن أستَشعِره في البريقة، واجدابيا، وقديماً في غابة تنغا، على أطراف بوجمبورا، لي بنشير مع الجنرال مسعود، وتحت القصف في سراييفو. لا، إنّه الخوف الآخر، خوف الروح، وقد كان فوكو يقول: الشجاعة الحقيقية ليست شجاعة الجسَد، بل شجاعة الروح (في نهاية حياته، وهو يلفظ أنفاسَه الأخيرة، كانت آخر كلِمة قالَها: «نادوا كانغلهيم، فهو يعرف كيف يموت»...). والحقّ أنَّ الأمر نفسه ينطبق على الخوف. مخاوف الروح هي الأسوأ. الخوف من المخاطر التي نتعرّض لها حين نتحالف مع الحقيقة. الخوف الذي ينتظرك، يا دون جوان، حين تدّعي، معها، أنّك تحتال. الخوف من أن أُخطىء، ومن أنّ ثمن هذا الخطأ يُدفَع من دماء الآخرين. والخوف طبعاً من الاسم الذي أحمله، ليس اسمي، لا، ليس اسمي الشخصي، وليس اسمي السرّي، لكن اسمي الآخر، اسمي العام، اسمي السرّي الذي هلّل له الناس، ذاك المساء على الكورنيش في بنغازي - لكنْ ما الذي فهِموه حقاً؟ وما الذي فكّروا فيه؟ مَن يدري؟ فأنا، كما قال لانزمان، لا أرى في نفسي «سيِّد العالَم»، أطبّق «الابتزاز» على «سياسات حسّاسة». وأنا لا أفقد «الصَّوَاب»، ولا «الاتّزان». بل أعتقد فقط أنني رأيت، حتى الآن، بأوضح قليلاً ممّا رأى الآخرون. وأشعر أنني قوي وهشّ في الآن نفسه. أنا أبعد عن الحقيقة من أن أكون قوياً. لكنّني داخلٌ فيها إلى الحدّ الذي لا يجعلني فريسة الميت، كالحيّ، وفريسة هشاشة السياسيّين الضارية. هل هشاشتي تفوق قوّتي؟ أم قوّتي تفوق هشاشتي؟ هذا مرهون بالأيام.

غير أنّ باكّيه، بالمُقابل، مُخطىء في ثلاث نقاط جوهرية - ورُبّما في أربع.

1. أولاً الحقيقة. أعرف طبعاً. وفهمت أنها آتية من الأعلى، أو سوف تأتي، وهذا واضح وضوح الشمس. لكنْ الآن... في هذه الأزمنة العدَميّة أو غير التبشيرية على كلّ حال... فهل أشتم الحقيقة حين أتذكّرها، حين لا أستسلِم لهذه الذاكرة، لكنّي أعرف أنّها لا تُعبِّر عن نفسها بشكل كامل، ولا تتجلّى بجلالتها، ومن الواجب أن نتحالف معها بما لدينا: جزء من هنا، وجزء من هناك، لُعبة مستمرّة في كل لحظة لتأخير الخطأ، لتعديله، وتعطيله، والاحتيال عليه؟ فالتحالُف مع الحتمي ليس خطيئة - بل هو واجب.

2. ألّفتُ كتاباً بعنوان عن الحرب في الفلسفة يُفصِح عُنوانه تماماً عن الغرض منه. وأنا ما أزال فيلسوفاً، وأفلاطونياً، ومُقتنِعاً، بالتالي، بتعالي الحقّ. لكنّي أرى هذه الحقيقة بعين

اللافت بريدا إنه يقول شيئاً من نفسه ولكنه لم يتجرأ من الإفصاح عنه!! ؟

المُحارِب، أعني من زاوية فلسفة نيتشه، أي بعين ذات تعرِف، من الآن حتى تنبثق، مُسلَّحة تماماً، من دون تحالُف، أن هناك هذا الزمن الطويل جداً الذي هو عصرُنا، حيث تُعبِّر عن نفسها على مسرح تُمثَّل عليه حرب التملُّك، والنزاع، والتمزُّق، التي ستصير موضوعاً لها. إذاً كان موقفي دوماً نيتشه في أفلاطون. نيتشه الذي ينتظر أفلاطون. وليس لي إلا عدوٌّ واحد هو هيغل.

3. تدخُّلي في هذه الحرب ـ عملي في هذه اللعبة، في هذه الواجهات، في لمعان الحقيقي وغير الحقيقي. فليطمئنّوا. أنا لستُ مُغفّلاً. وأعتقد أنّ لا أحد أقلّ انخداعاً بهذا القليل من الحقيقة. ومع التحفُّظ على لاوعيي الذي يتلاعب بي بكلّ تأكيد، أعتقد أنني مُتمكِّن تماماً مما أُحاول أن أقوم به الآن. أنا مُتعَب. نعم. خائف، قلت قبل قليل إنني خائف. أما أن يخدعني، ويلعب بي من هو أكثر دهاءً مني (سواء أكان من أتباع القذّافي، أم إسلامياً، أم مُعادياً للساميّة لا يعرف الندم)، فهذا لا، لا أعتقد ـ سوف نرى، لكنّي لا أعتقد.

4. اسم يهودي في نهاية المطاف لا ينفع، وأفترض أن أقول إنني لا أتخلّى عنه أبداً: شاهد من بين شهود آخرين على الكاريكاتير المُعادي للساميّة على الكورنيش، وشاهد أيضاً على افتتاحية خطابي إلى الشباب في آخِر مساءٍ من فترة إقامتي الثانية في بنغازي. لكنّي أؤكّد ـ وقد يكون هذا أقلّ وضوحاً ـ أنني لا أخفي يهوديّتي أكثر من ذلك. فهي واحدة من موضوعات معركتي. هذه المعركة أيضاً هي موضوع الدفاع عن «الاسم اليهودي».

الأحد 15 أيّار/مايو (أوّل مُكالَمة هاتفية مع عبد الله واد رئيس السنغال)

نعم، وجدتُ الفكرة.

وأعتقد أنّ هذا تمام.

إذا حكيتُ هذه القصة ذات يوم، فيجب أن أقول كلّ شيء، حقّاً كل شيء، وأن أُعطيها، إن تجاسرتُ على القول، عُمقها الكامل بوصفها سيرة.

هذا العشاء مع فرانسواز فيرني، منذ عشر سنوات، ورُبما أكثر قبل وفاتها. عكفتُ على أن أحكي لها عن سارترو(ي)، وكأنّها ما تزال ناشرة كتُبي. كانت قد حدّثتني عن كتابٍ جديد عن قائد الحُبّ، اليهودي المسيحي، التي قالت إنّ لديها مشروعه. استحضرنا معاً ذكريات فترة

عملِها في دار غراسيه، وخلال الحديث انبثقت صورة جاك ـ **فرنسيس رولان، الستاليني** السابق كانت قد تعرّفتْ عليه في فترة انتمائها إلى الستالينية، **أمّا أنا التقيت به في بيتها، في شارع** نابولي، في أثناء واحدة من حفلات العشاء الأسطورية المُحزنة **إذ فارقت الحياة لحظة تناول** المُقبّلات، وهي سكرانة، فانكبَّ وجهُها في صحن السَّلَطة المقدونية النجِسة **وهي تُحضّرها** بالمايونيز، السلطة التي كان يُرسلها إليها دائماً بائع الأطعمة الجاهزة في الشارع، **أسفل شُقّتها**. فحملها ابنها، الذي ساعدَه أصغر المدعوِّين سنّاً، الذي هو أنا، إلى سريرها. **فحُكِم على** ضيوفها في ذلك اليوم أن يتعارفوا من دونها: رأيت في حفلات العشاء هذه **جيسكار دو** ستان، وميتران، وموديانو، وروب ـ غرييه، ومدير جريدة اللوموند، ومدير جريدة **الفيغارو**، وأكاديميّين، وكرادلة. وفي ذلك اليوم كنتُ أنا ورولان.

فهِمتُ، أو اعتقدتُ أنني فهِمت، أنّ كاتبة السيناريو اللامعة كانت تحلُم ـ وهو آخر حلُمٍ في حياتها؟ ـ بأن تُعِدَّ للتلفزيون رواية الكابتن العظيم الذي قدّمه لنا رولان في ساعة مُتأخرة، الرواية التي تحكي قصّة حملة النقيبَين فوليه ـ شانوان[8]، هذه الوحدة من العساكر التائهين الذين مضوا عام 1900 للبحث عن تشاد، لكنّهم صاروا مجانين، وأفلتوا من رقابة باريس، وأنهوا مُغامرتهم في الرُّعب والدم. ونظراً لأنني، أوّلاً، كنتُ أُحِبُّ فرانسوازي، ولم أنجح ثانياً في الاعتقاد بأن الناس الذين أُحِبُّهم يشيخون، ويصيرون أقلّ مقدرةً على تجسيد أحلامهم، قرّرتُ أن أُقدِّم من المساعدة ما يسمح لهذا الفيلم بأن يرى النور، وذهبت، بجسارة، لأرى عبد الله واد، رئيس السنغال، لاكتشاف إمكانيات أن نُصوِّر الفيلم في بلاده.

لم يُنجَز الفيلم أبداً. لكنْ بالأحرى أجل! أنجِز. لكنّه، بسبب أنّ فرانسواز هوت، في الواقع، خلال هذه الفترة، في السنّ الطاعِن، أُنجِز من دونها، وبالتالي من دوني (لكنْ، بالمقابل، وهنا سخرية هذه القصّة، أُعِدَّ مع صهري باتريك ميل، إنما للمسرح، وأخرجه سيرج مواتي، صهري الذي لعِب دور أحد الضبّاط الخوَنة. بقيت لي من تلك الفترة علاقة مع واد، هذا الرئيس الاستثنائي الذي أشكّ في أنه صار رئيس دولة لأنّه لم ينجح في أن يكون اقتصادياً، والذي اقترح عليّ، منذ هذا اللقاء الأوّل قبل عشر سنوات، بصورة فوضوية أن آتي لإلقاء مُحاضرات في داكار، وأن أُفكر بتأسيس أكاديمية سنغالية، ومسرح وطني، وأن أُناقش معه **خطاب إلى الأمّة الإفريقية**، الذي صاغه على طريقة **خطاب إلى الأمة الأوروبية** لجوليان بندا ـ هذه الأشياء كلّها التي أعترف، بخجلٍ كبير، أنني لم أجِد لها الوقت أبداً.

إذاً كان يجب أن أحكي هذا كلّه. وبالتفصيل. وذلك كي أُفهِم الآخرين بأنني استندتُ إلى هذا الماضي في اتخاذ قراري، هذا الصباح، في طنجة حيث أنا منذ أمس مساء، بأن أتصل بهذا الرجل لأطلب منه، من دون أية موارَبة أخرى، لماذا لا يكون أوّل رئيس أفريقي يستقبل أصدقائي من المجلس الوطني الانتقالي.

حالما أجابني، قال: لِمَ لا؟ هذا مُمكِن. لَطالما استقبلتُ المُعارضين. وأنا نفسي كنتُ مُعارِضاً و...

ـ لم يعودوا مُعارضين، سيادة الرئيس.

ـ حسناً. لا أهمية للاسم الذي تُطلقه عليهم. أريد أن أقول إنني جاهز، إن كان هذا ما تُفكِّر فيه، لمهمّة التوسُّط.

ـ أخشى أن يكون الوضع قد تجاوز مرحلة التوسُّط ـ فقد كنتُ في بنغازي ذلك الصباح المشهود حيث وصل الوفد الإفريقي من طرابلس لتسليم خطّة الـ...

ـ هل نقول مبروك إذاً. إذا كنت لا تُحِبّ التوسُّط، فقُل مبروك. فنحن في حاجة دائمة إلى التهاني للخروج من خصومة.

ـ لم نعُد في هذه المرحلة أبداً، أبداً، سيادة الرئيس. فموقف أصدقائي لا لَبْس فيه: لن يكون هناك حديث مُمكِن، ولا تهاني، من دون الرحيل المطلَق لذاك الذي لم يَعُد يُسمّى بالقذّافي، بل بالديكتاتور...

سكت الرئيس. خلال ثوانٍ طويلة، طويلة جداً، ولم يقُل شيئاً. ثُمّ استأنف كلامَه:

ـ أنا لا أدين بشيء للقذّافي، لاحظ جيداً. لا شيء.

ـ أعرف يا سيادة الرئيس؛ فقد أعطاني ماري ـ لوك شرابورسكي، نسخة عن ذلك الحديث الهاتفي غير المعقول بتاريخ 9 آذار/ مارس الذي أجريتموه معه حيث قال لكم حقائقه الأربع: وأنا مُتأكّد بأنكم لستم مدينون له بشيء إلى حدّ...

ـ آه، حصلتَ على هذه الوثيقة...

شعرتُ أنّ الفكرة راقت له. وبصورةٍ مّا، شجّعته.

ـ لست مديناً له بشيء، لكنّي على اتصالٍ به. وأنا من النادرين، ورُبّما أكون الوحيد، الذي ما أزال أتصل به.

ـ به شخصياً؟ أم عبر وُسطاء؟

وهنا أيضاً أخذ وقتَه قبل أن يُجيب. رُبّما تساءل إن كان في إمكانه، ومن واجبه أن يقول لي الحقيقة.

انتهى بالقول: معه طبعاً. لكن من خلال مبعوث أيضاً، هو السيد عافي عنان. كان سفيراً في باريس وفي لندن. وأنا أُحِبّه كثيراً. فدائماً ما يُرسِل لي هذا الرجل حين تكون هناك مُشكلة يحلُّها معي.

- حسناً. وهل تحادثتما مؤخَّراً؟

- هذا الصباح.

- هذا الصباح!

لم أستطع أن أكبح هذه الحركة من عدَم التصديق، ومن الدهشة.

- نعم تحدّثنا قبل ساعات، أنت تعلم أنني أعرفه جيداً. قال لي إنّ القائد يتمنّى أن يُكلِّمني، وأنه يعتمد عليّ لحلّ هذه الأزمة.

- ليس هناك إلا حلٌّ واحد مُمكن: رحيلُه.

تظاهر بأنه لم يسمع شيئاً.

- تدور في رأسه أيضاً فكرة أن يدعو إلى قمّة استثنائية للاتحاد الإفريقي عن ليبيا.

- يجب تجنُّب هذه الكارثة يا سيادة الرئيس.

- قلت لعنان لقد فات الأوان، والقذّافي واهِم، والأفارقة لم يعودوا مُستعدِّين لمساعدته كما ذي قبل.

ثُمّ أضاف وكأنه كان يتحدّث مع نفسه.

- لديّ انطباع بأنّ مشكلات تُعيق اتصاله الآن. لابُدَّ أنّه مُراقَب جداً.

كرّرت، وجعلت كلامي موقَّعاً:

- لا يُمكِن أن يكون هناك إلا حلّ واحد: رحيله هو وعائلته.

سمعني هذه المرة فقال:

- أنتَ مُتأكّد؟

- لستُ أنا المُتأكّد، بل الشعب الليبي، فهذه أُمنيتُه.

- ليس كلّ الشعب الليبي. فالبلد منقسِم إلى قسمين - ألا تعتقد بهذا؟

ـ لا، لا أعتقد. يبدو أن القذّافي يُسيطر بالفعل في الجزء الغربي. لكنْ من خلال الخوف. حتى داخل قبيلته.

قاطعني قائلاً:

ـ في هذه الحال، لماذا لا يتقدَّم المُعارضون بسرعة أكبر؟ لماذا هذه الورطة؟

ـ هناك مُشكلتان. الشباب الذين ليسوا في الواقع مُدرَّبين كما ينبغي، وليسوا مُنظّمين. والتحالُف الذي يُمكِن أن يُسرِع أكثر في عمليّاته طبعاً ـ لكنْ بأيِّ ثمن؟

ـ نعم...؟

كانت «نَعَمُه» شاكّةً، فاستأنفت بالقول:

ـ أجل! طبعاً. كلّ شيء يتِمّ كي لا يكون هناك ضحايا من المدنيِّين.

ـ كما تعلم. القذّافي ماكر. ماكر جداً. أنا أعرفه جيداً. ومنذ زمن طويل.

ـ لا أشكّ في هذا. أنا فقط بصدد أن أقول لكم إنّ التحالُف يأخذ وقته. لا يُريد أن تكون هناك أضرار جانبية. لا يُريد أن يصدم الرأي العام العالمي، وخصوصاً العربي. هل تعرفون ماذا قال لي ساركوزي ذات يوم:

ـ تفضَّل، قُل لي.

ـ قال إنّه كان في موقف نازِع الغام يعرِف أن أمامه قنبلة مطمورة وأنّ عليه أن ينزَع صاعِقَها. وأمامه حلاّن. إمّا أن يتسرّع ويُفجِّر كلّ شيء، وإمّا أن يمضي لمُعالجة اللّغم بهدوء شديد، نكشة نكشة، حابساً أنفاسه حتى لو استغرق هذا ساعات. وهذا ما تفعله فرنسا.

ـ أفهم ذلك...

لم يبدُ أنّه مقتنع تماماً. لكنّ الصورة راقت له. فردّد عدّة مرّات «نكشة نكشة». وردّد أيضاً أنّه وحده القادر على «التحدُّث مع القذّافي». شعرتُ، كما شعرتُ في فترة توقيف كلوتيلد رايس، الفتاة الفرنسية في طهران، وفي فترة اعتقال سكينة حيث اتصل شخصياً بأحمدي نجاد، بأنّه لا يعاف أبداً أن يقوم بهذا الدور، بأن يؤدّي خدمة. سألني أين أنا، أين أصدقائي، وكم يستغرقون من الزمن للوصول إلى باريس، ثُمّ إلى داكار. كذلك سألني عن مستوى الوفد التمثيلي، في حال استقبل وفداً، وإذا كنت أستطيع، في حال لم يكن عبد الجليل قادراً على أن يترك أرض المعركة، أن أُجيب أنا شخصياً، بحُكم أنّ الوفد المزعوم لابُد أن يحمل رسالة منه. وعندئذٍ قال بغتةً، كأنما الأجوبة التي أقدِّمها له تكنِس تحفُّظاته:

ـ حسناً يابرنار، يبدو لي هذا كلّه محبوكاً بشكل مُتقَن. ثُم إني سأكون سعيداً برؤيتك من جديد. تفضّل مع أصدقائك إلى داكار، بعد غد.

لا أفِي الأمر حقّه إن قلتُ، وأنا أُغلِق الخط، إنني كنتُ سعيداً: بل ابتهجت، وفضتُ حماسةً؛ واقتنعتُ أننا بدءاً من اليوم... لكنْ علينا ألا نستبِق شيئاً. سأتصل الآن بعلي ومنصور اللذين هما في ذهني الوفد ذاته.

الثلاثاء 17 أيّار/مايو (مُكالَمة هاتفية ثانية مع عبد الله واد)

هذه المرّة هو الذي اتصل بي.

ـ هل موعد بعدَ غدٍ ما يزال مُناسباً؟

ـ طبعاً. أصدقائي في طريقهم إليّ. انطلقوا من بنغازي، وسيكونون في باريس عصر هذا اليوم.

ـ حسناً... حسناً...

بدا مُتردِّداً من جديد. أو حائراً.

ـ عندي أيضاً سؤال أودّ أن أسألك إيّاه.

ـ نعم، أيّ سؤال؟

ـ هل هذه هي رغبة ساركوزي؟

ـ عفواً؟

ـ هل يرغب ساركوزي حقاً في أن يرحل القذّافي عن ليبيا؟

ـ أفعالُه تُجيبكم. فقد اعترف بالمجلس الوطني الانتقالي كمُمثّل شرعي وحيد للشعب الليبي. وحرّك ...

قاطعني، بجفاف، وعلى نحوٍ مُفاجئ.

ـ أعرف هذا. أعرف أنّ هذا موقفه. أن أحدّثكم عن رغبتِه...رغبتِه العميقة...

قُلتُ مُجيباً: رغبته، لا أعرف...لا أستطيع أن أعرف حقيقة رغبته العميقة...أعرف فقط ما أرى، وما...

ـ نعم، نعم...

كان يبدو حالِماً. فكرّر القول:

ـ نعم، نعم، فهِمت...
ثُمّ أضاف، وكأنّه يُفكر الآن بسرعة فائقة:
ـ هل أستطيع أن أطلب منك التحقُّق من هذه النقطة؟
ـ لا أعتقد يا سيادة الرئيس. إذ لا يربطني هذا النوع من العلاقة مع نيكولا ساركوزي، لكنْ أنتم... أنتم تعرفونه جيداً...وهو يحترمكم...فلماذا لا تتصلون به لتطرحوا عليه السؤال مباشرة؟
ـ رُبّما...لست أدري...سأفكر في الأمر، وأتّصل بكم بعد حين.
ولِعلمي بأنه، كما تدلّ كل الاحتمالات، سوف يتصل بساركوزي، بعثت إلى أمانة سرّ هذا الأخير الرسالة الإلكترونية الآتية: «بعد غدٍ، الخميس سأقود أصدقاءنا من أعضاء المجلس الوطني الانتقالي الليبي إلى داكار للقاء الرئيس «واد». هذه مُبادرة شخصية. لكنّها قد تُفضي إلى اعترافٍ بالمجلس. وبالتالي تُحدِث ثغرة في الدرع الإفريقي للقذّافي. ودَدتُ فقط إعلام الرئيس بهذه الخطوة. وأرسلت لساركوزي نفسه، على هاتفه الشخصي الذي سمح لي باستخدامه في الحالات المُستعجِلة، هذه الرسالة النصيّة: «عبد الله واد سيتصل بكم بالتأكيد، وهو جاهز ليقطع علاقتَه بالقذّافي، رُبّما يجِب تشجيعه قليلاً». مضت ساعتان. فاتصل «واد».
كنتُ مع ليفيت على الهاتف، لأنّ ساركوزي مشغول،ولم يتمكّن من استقبال مُكالمَتي. لكنّي تكلّمتُ مع ليفيت. قتْل القذّافي ليس وارداً.
ـ طبعاً! لم أقُل لكم أبداً عكس ذلك!
ـ لا، أعلَم هذا. لكنّي أعتقد أنّكم على حقّ، ولم يعُد أمامه كثير من الخيارات...
حلّت فترة صمت، سمعتُ خلالها لُهاث الرئيس في جهاز الهاتف.
ـ أيّ شكل تقترحون؟
ـ عفواً؟
هل تعتقدون أنّ عليَّ أن أُعلن اعترافاً رسمياً بالمجلِس كما فعل ساركوزي؟ أم أكتفي باعتراف واقعي، باستقبالهم فقط؟
ـ الأفضل سيكون الأكثر من ذلك. إذ ينبغي أن يكون لالتفاتتك أقوى دَويٍّ مُمكِن. وخاصة أن الكلام عن ليبيا قليل الآن. فالواقع الراهن ينعطِف...إنّه مُتقلّب...سيتوجّب إذاً التصريح بقوّة كي يكون كلامك مسموعاً.

ـ أفهم...سوف أرى...على كلِّ حال، أنا في اِنتظاركم هذا العصر. حاوِلوا أن تكونوا هنا وقتَ الغداء. سوف نناقش آخر التفاصيل. وسوف أستقبل أصدقاءك على الفور.

الخميس 19 أيّار/مايو (ليبيا الحُرّة في داكار)

قد لا يفطن أحد إلى الحدث في الصحافة الأوروبية. لكن هذا هو النصر الفعلي الثاني بعد اعتراف فرنسا بالمجلس الوطني الانتقالي.

وصلتُ من طنجة قُبيل مُنتصف النهار. كان أمامي ساعة لأستمتع، على شاطئ فندق سوفوتيل، بروائح البحر الإفريقية التي طالما أحببتُها. كان علي ومنصور اللذان وصلا من باريس قبل الموعد بقليل، يرتاحان في فندق آخر من فنادق المدينة. جاء سائق ليقودني إلى قصر الرئاسة.

شعرتُ منذ تَناوُل المُقبِّل أن الرئيس «واد» مُطْمئنّ. وبدا لي ابنه كريم، الذي كان هناك، خبيراً. حكيت لهما عن عشاء القبائل في بنغازي. وشرحت لهما حالة حسّان دروّيه، من قبيلة الأورفلة الذي يُهلِّل له أهل اجدابيا. وألححتُ ـ إذ لم يبدُ لي أنّه على عِلم بهذا ـ على الالتزام غير الطبيعي الذي أخذه أعضاء المجلس الوطني الانتقالي على عاتقهم بعدم اللجوء، في حال سقط القذّافي وتمّ انتقال السلطة بسلام، إلى الاستحقاقات الانتخابية الكبرى. «اعترف واد بالقول هذا جيّد ... لأنّه يُبرهن، في حدّه الأدنى، على أنّ ليس لديهم طموحات، وأنّهم ليسوا مُستعدّين للقيام بأي شيء في سبيل الوصول إلى السُّلطة...». وأضاف طبعاً شيئاً ماكراً، بوصفه مُحنّكاً في السياسة التي لم يُعلِّمه إيّاها أحد: «ينبغي بالضبط ألا يستنتج أحد بأنّهم، هم أنفسهم، لا يؤمنون بثورتهم!»

سألته إنْ قرّر الحجم الذي سوف يُعطيه لهذا الاعتراف؟ فأجابني: «حجم متوسّط»، لأنّه يُريد، من أجل «مصلحة أصدقائنا»، أن يحتفظ لنفسه «بهامش للمُناورة»، ويعمل على أن يتمكّن القذّافي، إذا أراد، أن يكون على «اتصال» معه. لذا أمر، من جانب آخر، بتحضير مشروع بيان. طلب إليّ إن كنتُ أريد أن أُلقي عليه نظرة؟ فأجبت: نعم، طبعاً! والحقيقة أن البيان لا بأس به. حتى إنّه، باستثناء بعض الأشياء الطفيفة، التي نصحتُ بتصويبها قبل وصول علي ومنصور، بيانٌ جريء. أُرسِلَ البيان إلى الطباعة. وأُعيد. وخلال ذلك، شرح لي الرئيس بأنّه فكر، من أجل الليبيين، بجدول زمني للانتقال إلى الديمقراطية المستوحاة ممّا

عاشَ من تجارب، أو من تجارِب لاحقَها عن قُرب، وستكون مراحل هذا الانتقال: الدعوة، برعاية المجلس الوطني الانتقالي، إلى «مؤتمر وطني» موسَّع، يُمثِّل القوى الحيّة في المجتمع الليبي، وحلّ المجلس الوطني الانتقالي، والدعوة إلى انعقاد جمعية تأسيسية يُصار بعدَه إلى أن تضع الجمعية المعنية «برنامج عمل» بهدف خلق مؤسسات جمهورية، وتسجيل الليبيين الذين يحقّ لهم الانتخاب في لوائح، وتحديد موعد الانتخابات الرئاسية والتشريعية، وتشكيل حكومة وحدة وطنية ...

إنها الثالثة بعد الظهر. وصل علي ومنصور. وبدأتْ مفاوضاتٌ كان ينبغي ألاّ تستمرّ أكثر من ساعة، لكنّها امتدّت حتى الليل، فالليبيون لا يفوِّتون شيئاً، وكذلك الرئيس واد، لذا كان النص يُرسَل من جديد للتعديل، وأخيراً التحقت بنا أمينة السِرّ توفيراً للوقت، وفي لحظة مُعيّنة، أخذ الرئيسُ نفسه حاسوب العمل كي يُدخِل تعديلاً طويلاً ومُعقّداً أعدّه علي ومنصور معي خلال الاستراحة حيث كنّا نقف معاً في الجانب الآخر من القاعة.

أنجزنا البيان الساعة السابعة مساء. وحصل علي على ضمان أن تُحذَف أية إشارة إلى «توسُّط» مُمكِن بين «الأطراف»، ولكنّه وافق على الاحتفاظ بعبارة تُشير إلى أنّ الرئيس واد «جاهز» «للمساهمة في البحث عن السلام والمُصالحة الوطنية». وتمسّك بأن «يتضمّن النصّ فكرة أنّ أي حلّ مستقبلي، في نظر المجلس الوطني الانتقالي، يبدأ برحيل السيّد مُعمّر القذّافي»، وطلب الرئيس واد أن يُضاف، في هذه الحال، جزء من جُملة يُشير إلى أن هذا الرحيل هو ما سبق أن نصح به، هو نفسُه، القذّافي، مُعتبِراً أنّ مسار الأمور وصل إلى خط اللاعودة. وتمسّك الرئيس واد بأن يُثبِّت مقطعاً غريباً يقول إنّه «منذ التاسِع من شهر آذار/ مارس على اتصال مع السيد مُعمَّر القذّافي، وإنّه لم يتوقّف عن إسداء النصائح له» لكنّ علي تمسّك بضرورة حذف كلِمة «مُعارضون» من توصيف المجلِس الوطني الانتقالي. والمفاوضات الأطول تركزّت على عبارة الاعتراف بحصر المعنى: هل يعترف الرئيس واد «بمصطفى عبد الجليل والقُوى السياسية التي يرئسها» «كمُكوّنات مُعارَضة تاريخية وشرعية» أو كقوّة مستقبلية «مُكلَّفة بشكل طبيعي بالتحضير لإقامة مؤسّسات جمهورية في ليبيا»؟ أم الاعتراف بالأمرين! كنت سأرتئي، لو شاركتُ شخصياً في هذا النقاش الغريب، الإبقاء على جزأي العبارة في جُملة واحدة!

حضر الصحفيون الساعة السابعة مساء. قرأ الناطق باسم رئاسة الجمهورية بثلاث لُغات (العربية، والفرنسية والوولوف) البيان الذي تمّت الموافقة عليه من «سيّادة الرئيس المُعلّم عبد الله واد» ووزير الدولة، مدير مكتب الرئيس حبيب سي، ومن «الوفد رفيع المستوى» الذي أتيت به، المتكوّن من علي زيدان. وهكذا كانت السنغال أوّل دولة إفريقية تقطع علاقتها بالقذّافي.

الجمعة 20 أيّار/مايو (وصلَ ساركوزي الجديد)

أنا الذي طلبتُ هذا الموعد لكي أُطلِعه على ما جرى في لقاء داكار. الشمس حارقة، والحرارة صيفيّة. على شرفة الإليزيه المُطِلّة على الحديقة. تفصِل بيننا طاولة حديقة، من خشب أبيض.

- يُمكِن أن تُبقِي نظاراتك فأشعّة الشمس قويّة.

- كم معنا من الوقت؟

- ساعة. يجب أن يتّصل بي كاميرون قُبَيل الساعة الواحدة بعد الظهر.

حدّثته أوّلاً وبسرعة عن غدائي، ذات أسبوع، مع الطيّارين («الطيّارين الأربعة») الذين قاموا بالضربات الجوية الأولى. فأجابني: «أوه! كان عددهم أكثر من ذلك بكثير!» حينئذٍ قُلت له: «إذاً وسام الشرف؛ فإذا كان في فرنسا أناسٌ يستحقّون وسام الشرف، أليسوا هم من يستحقُّونه؟»

وحدّثته عن فكرة أننا خلقنا ذلك اليوم في بنغازي، أو، على الأفضل، في مصراطة، بالتعاون مع فرنسيس بويب، مُعادلاً لمركز آندريه مالرو في سراييفو. ويبدو لي أنّ هذه الفكرة تروقه. فخربش كلِمة على طرف ورقة.

بعد ذلك حكيتُ له قصة لقاء داكار. وركّزتُ خاصّة على أهمّ جُملتَين في البيان. الجملة المُتصلة بشبه اعتراف السنغال بالمجلس الوطني الانتقالي. وتلك المتصلة بإشارة الرئيس واد إلى أنّ الحلّ في ليبيا غير مُمكِن إلا مع رحيل القذّافي. هزّ رأسه. ينبغي الاعتراف هنا، إذاً بحقيقة تحوُّل سياسي جدِّي، إذا التزم واد بكلامه. «ولماذا لن يلتزم؟ - لا، أنا لم أقُل هذا... الرئيس واد شخص ممتاز... جادٌّ للغاية... لكنْ...» بدا حالماً، وأردفَ قائلاً: «لا، ليس هناك لكنْ؛ سوف يلتزم؛ مرحى له».

ثمّ جاء دورُه في الكلام، وإعطائي، كما يقول دوماً، مُستشعِراً بشكلٍ سافر بعضَ اللذّة، «أخباراً من الجبهة». عن غرق أسطول القذّافي. والضربات المستمرّة. والمرور الوشيك لِمروحيتَي الهجوم الغزال والنمر، المُزوّدة بصواريخ مُضادّة للدروع HOH، وهما نفس المروحيتَين اللتين استُخدمتا في أبيدجان لتحييد آخر القوى المُناصِرة لِلرئيس غباغبو.

حذّر قائلاً «ينبغي عدم الحديث في ذلك. هذا سرّ عسكري. لأن وقْع المُفاجأة يجب أن يكون مُطلَقاً. سوف يُغيِّر هذا وجه الحرب...»

سبَق أن لاحظتُ، عدّة مرّاتٍ، هذا العِناد، وروح المتابعة والجِدّيّة، والرغبة في المُتابعة حتى النهاية، التي نادراً ما تُشبهه، بل ظهرت فيه بمناسبة هذه الحرب.

كذلك لاحظتُ عدّة مرّات هذه الكفاءة، وهذا الجانب من «حنكته في القضايا العسكرية» اللذين لا يُشكّ فيهما، واللذين يجعلانه يُحدّثني عن قصص الضربات، ومروحيتَي الغزال، والنمر، والصواريخ المُضادّة للدروع، بدقّة لا أتوصَّل إلى أن أعزوها إلى الاكتشاف الوحيد لِلُعبةِ الخشخشة الحربية المألوفة عند كلّ الرؤساء.

واليوم يلفت نظري مُستجِدٌّ ثالثٌ يتعيَّن عليَّ أن أُضيفه إلى ملفّ التحوُّل الذي أحدثته ليبيا في ساركوزي. يتّصل هذا المُستجِدُّ بصواريخ HOH ودعوته إلى سريّة الأمر. هذا الحضُّ على الرصانة. فهل كان ساركوزي الآخر، القديم، قادراً على أن يفعل هذا؟ ما كتبتُه في السيرة الشخصية التي طلبتْها مني جريدة النيويورك تايمز، بعد الانتخابات، أنّ ساركوزي هو الرجل الوحيد الذي أعرف أنّه بلا ضمير (أوّلاً بلا «أنا أعلى» ـ لكنّه على الأخصّ بلا ضمير، بلا احتياط باطني، النمَط الدقيق للشخصية السارترية المُختزَلة إلى حُزمة من المقاصِد، إلى نقطة) فهل كان سيستطيع أن يفرض على نفسِه قاعدة الصّمت هذه؟ ليس أكيداً.

الأحد 22 أيّار/مايو (القذّافي يخسر أفريقيا)

اتصال هاتفي من داكار. كان عبد الجليل قد اتصل توّاً بالرئيس «واد». وشكره على استقباله لمبعوثيه. وكرّر له أنّ ليبيا الغد ستعكِف على خلق علاقاتها الجديدة مع إفريقيا، وإرسائها على مبادئ المساواة، وعدَم الانحياز في قضايا الآخرين، والتنمية المُشتركة. وقال له أيضاً ـ أفترض أنّ هذه طريقة للإجابة على الاتّهامات باستخدام العنف ضدّ المُهاجرين الأفارقة، الذي تُضخِّمه الصحافة في الولايات المتحدة وفي أوروبا ـ وأنّ ليبيا ستكون مفتوحة

أمام «الإخوة الأفارقة» الراغبين في المجيء للعمل فيها بطريقة شرعية. وبالمُقابل، وعده الرئيس «واد» بأنّه سيكون مُحاميه في قمّة الاتحاد الأفريقي التي نجح القذّافي طبعاً في الدعوة إلى انعقادها والتي ستنعقِد خلال ثمانية أيّام. أعتقد أنّ القضية رابحة. فالخطّ الإفريقي للقذّافي انقطع في الواقع. وبدءاً من الآن، لا ينبغي أن تطول الحرب. إذا أردتُ الذهاب إلى مصراطة (وأنا أريد ذلك أكثر من أيِّ وقتٍ مضى)، فعليّ أن أذهب بسرعة.

هوامش

1- إشارة إلى شخصية كساندرا في الأسطورة اليونانية، وهي بنت المِلك بريام التي جعل الإله أبولون توقُّعاتها تُكذَّب دائماً لأنها لم تستجِب لرغباته (م)

2- le fond de l'air est rouge فيلم من إنتاج كريس ماركر، وعنوانه الفرعي: مشاهد من الحرب العالمية الثالثة (م).

3- Shoah : فيلم وثائقي عُرِض سنة 1985، يتحدّث فيه شهود عيان يهود نجوا من المحرقة عمّا عاناه اليهود على أيدي النازيّين خلال الحرب العالمية الثانية (م).

4- هكذا وردت في الأصل (م).

5- في الأصل الفرنسي de son carrousel phallique (م).

6- يسخر من الرئيس الأميركي جورج بوش الابن مُستبدِلاً العبارة المكتوبة على الدولار الورقي «نثِق بالله» بعبارة «نثِق بالمُسدّس» (م).

7- في العبارة الفرنسية le sérieux, c'est la série تلاعُب بالألفاظ إذ تُشكّل كلِمة série القسم الأوّل من مقاطِع كلِمة sérieux. (م)

8- الحملة الفرنسية على تشاد التي سُمّيَت باسم قائدَيها، والتي بدأت منذ عام 1899. (م).

الباب الثالث

الورطة

الأحد 25 أيّار/مايو (السَّفَرُ الثاني إلى ليبيا)

جزيرة مالطا.

بداية فترة بعد الظهر. الانطلاق بعد قليل، خلال الليل، إلى **مصراطة، المدينة الشهيدة**، المقطوعة عن العالَم، التي يُحاصرها كلاب حرب القذّافي.

لديّ انطباع بأنني أجِد نفسي من جديد منذ تسعة عشر عاماً في أشبيلية، **في بداية عام** 1992، أستعِد لسفري الطويل إلى سراييفو.

الاختلاف بين الرحلتَين أنّنا، بعد ثلاث سنوات، كنا ما نزال في سراييفو. **أمّا هنا ف**... مصراطة... من جهة، طبعاً، أنني حين رأيتُ من جديد عصر هذا اليوم، **الملفّ الصحفي** الذي جمعه جيل، وحزمة الاعتداءات الشرسة التي ارتكبتْها كتائبُ القذّافي، وما تزال ترتكِبها اليوم استبدّ بي الإحباط. لكن، من جهة أُخرى، لا أستطيع الامتناع عن الاعتراف **في داخلي** بأنّ الأمر لم يعُد هو نفسه، فالدروس البوسنية أفادتنا قليلاً، ورُبّما ستتجنَّب، **في مصراطة**، صلب سراييفو اللانهائي، بشرط التصرُّف بسرعة، والشهادة على الأحداث بقوّة، **وبشرط أن** يصمد المجتمع الدولي، وفرنسا خاصّة، ويتذكر نكبة البوسنة.

وصل سليمان أمس مساء.

سليمان فورتيه، رجُل مصراطة، ومُمثّلها في المجلس الوطني الانتقالي الذي لم أرَه منذ عودتنا الليليّة من بنغازي، باتجاه الإليزيه، برفقة عبد الفتّاح يونس، وقد وصل مصطفى الساقزلي من الدوحة ليُرافقني إلى مصراطة.

ذهبنا معاً لُمقابلة دولانويه، في المكتب الكبير في بلديّة باريس حيث جئتُه زائراً، منذ عشر سنوات، إبّان حرب الشيشان.

وذهبنا معاً لنطلب توأمة بين عاصمة فرنسا والعاصمة العالَمية للألم: أجاب دولانويه، لن نوقِّع علاقة توأمة لأنّ هناك اتفاقاً حصرياً مع روما بهذا الشأن؛ لكننا سوف نقوم بأقصى ما يُمكِن، ونساعد قدْر المُستَطاع؛ ونُساهم، في الوقت المُناسب، في إعادة تعميرها، بالإضافة إلى الرسالة التي لا بُدّ أن أتلقاها بين لحظةٍ وأخرى من المجلس البلدي، ستُضاف إلى الرسائل التي سبق أن تلقيْتُها من مدينة ستراسبورغ، وتولوز، وليون، وليل، تقترح توأمةً كاملة بحسب الأصول (مارتين أوبري، طبعاً، تقود تحرُّكاً عاماً للمُدن المُناصرة لها؛ حقاً إنّ الأمينة العامة للحزب الاشتراكي كانت كاملة، منسجمة مع نفسها، ومستقيمة بنزاهة).

ونحن هنا معاً، في مالطة، على رصيف الفاليت، في الميناء، أمام مقهى ـ ننتظر ساعة الإقلاع.

معنا علي ومنصور اللذان قرّرا مُرافقتَنا مرّة أُخرى.

بشير صباح، الهاوي، هو الذي جهّز لنا هذه الرحلة البسيطة.

كان معنا ابن سليمان، عبد الحميد، عمُره اثنان وعشرون عاماً، وهو طالب في كوفنتري، لم يعُد إلى مدينته منذ بداية الحرب.

وكان معنا صديقان ليبيّان من أصدقاء بشير، وهما منفيّان: الأوّل اسمه عاطف القصير، منفِي إلى الميسوري، والثاني اسمه محمد حمزة، منفيّ إلى دوندي في اسكتلندا: كلاهما طبيب، وكلاهما يستغِل الظرف ليرى من جديد مدينته المعبودة.

وكان جيل طبعاً.

ومارك طبعاً.

وفرانك.

بالإضافة إلى مُصوِّر جديد في أوّل شبابه، مُراهق تقريباً، اسمه توما لوبون، لأنّ فكرة تصوير فيلم عن ذلك كلّه تتخمّر شيئاً فشيئاً في ذهننا ـ فكرة التقاط هذه الصُّوَر، والشخصيات، واللحظات، والمشاهد الفريدة التي كانت تنهال على رؤوسنا بقدر ما نبحث عنها.

إنّه زمنٌ مُعلَّق.

الجمعة 27 أيّار/مايو (قارب إلى مصراطة)

لم يكن الانطلاق بالسهولة التي ضمِنها الأصدقاء الليبيُّون بقولهم الدائم، والحلو «لا مشكلة».

أوّلاً لأنّ قاع قاربنا، الوحيد الذي وجدناه، في مالطة، والذي قبِل أن يقوم بهذا العبور المُعقّد، مليء بالسجائر المُرسَلة إلى المُقاتلين، التي كلّفتنا نقاشاتٍ طويلة مع رجال الجمارك المالطيين.

ولكنْ على الأخصّ، لأنّ بشير صباح لم يجد بديلاً للقبطان المُتوقَّع الذي خانته شجاعتُه في آخر لحظة، إلا قبل ساعاتٍ من الإبحار، في الساعة الخامسة مساء. اسم القبطان الجديد يان

بّاس، وهو رجُل مالطي بالغ الرشاقة، شُقرتُه غامقة، في الخمسين من عمُره، منظره الجانبي شبيه برأس العصفور، قامته عالية مُحدودبة تعوم في سترةٍ زرقاء باهتة اللون، تكاد تكون بيضاء، وأناقة جافّة ـ ولأنّ هذا القبطان الجديد لا يعرف الطريق، ولا القارب الذي قضى أوّل ساعتَين مُحاوِلاً استكشاف أدوات لوحة القيادة ومَقابِضها، وفهم وظيفتها وتشغيلها.

بدأ بالقول «يجب ألا يكون هذا صعباً»، بينما لم نُغادر رصيف الفاليت إلا بُعيد مُنتصَف الليل.

هذا قارب صغير بسيط جداً، في الواقع، كان يُستخدَم في زمنٍ آخر لنقل العمّال والمعدّات إلى المنصّة البترولية في البحرين.

إنّه قارب عادي، قعره مُسطّح، طوله خمسة وعشرون متراً. أحواضه غير صحّية. وقوارب النجاة المطّاطية نصف منفوخة، والمُحرِّكان يبعثان دخان جهنّم وضجيجها، ولكنّهم شرحوا لنا أنهما متينان جداً.

فقط الهيكل مدهون بالبرتقالي الفاقع الذي نتوجَّس من أنّه ليس لوناً مثالياً تُخطئه، في الوقت المناسب، زوارقُ القذّافي التي تتحرّى منافذ الشواطئ الليبية ـ لكن ليس هذا ما يُقلِقه بأكثر من الباقي، وهو مُقتنِع، في نهاية المطاف، بأنّه قادر على أن يُدبِّر نفسه.

المشكلة أنّ في هذا المركب جهاز تَموضُعٍ رديء، فلا دليل ملاحة آلي، ولا مِقوَد دقّة، وهو مُعطّل قليلاً، يجب تصحيح المسار باستمرار حسب التقدير، والشاشة التي يُفترَض أن تُحدّد دوماً مكاننا والمسافة المُتبقّية أمامنا، غير صحيحة. وقد لاحظنا بعد انطلاقنا (لكنّ هذا بالمُقابل لا يُدهِش أحداً لأنّ هذه هي القاعدة التي كانت في عهد القذّافي)، أنّ الخرائط البحرية الموجودة على متْن المركب، ليست ضخمة، وغير كاملة، مع مناطق واسعة لا تبدو بحاراً مجهولة وحسب، بل تُعطي معلومات، وعلى الأخصّ، تُعطي مسافات (عن عمْد؟) غير صحيحة أو خياليّة.

كلّ هذا لأقول كان يتعيّن على يان بّاس ودانييل آتّار (مُساعده المالطي، في الخامسة والعشرين من عمره، قصير جداً، قامته تُظهره كالطفل) أن يُبحِرا ساعتَين بسرعة مُنخفضة يترصّدان أقلّ عقَبةٍ، أو صخرةٍ، أو جُرْفٍ رملي، أو حشفة صخرية، أو مركب آخر قد نراه، أو يرانا مُتأخِّراً جداً، وفجأة، بُمّ! الكارثة! فقد استغرقا ساعتَين لا تنتهيان، وعيونهما مُثبّتة على الموج، وأحياناً على بصيص نور النجوم، كي يخرجا من المنطقة الشاطئية، ويتنفَّسا الصُّعَداء، ويستريحا في النهاية ـ ونستريح معهما.

توجّه بعضُنا إلى المطبخ القريب من قاع المركب، ليتقاسم شطيرة من سمك التونة مع أفراد الطاقم الثلاثة (أسودان، أحدهما بقامة ضخمة كهرَم، هما عامِلا الصيانة، ورجُل طويل جداً، وهو مالطي أيضاً، نظرته زرقاء شديدة الشحوب، يرتدي صدّارة برتقالية مُتناسبة مع لون المركب، لم أعرِف دوره). وانزلَق الآخرون في أكياس نومهم مُتقاسِمين المقصورتَين، الأولى على الجسر الأعلى، والثانية على مستوى القاع، وفي كلٍّ منهما ستة مقاعد سيّارات. بينما احتفظ ابن سُليمان بمعطفه واستلقى على الجسر الخلفي، في زورق الإنقاذ. وأنا وجيل، قبل أن نذهب لننطوي على أنفسنا في كِيسَي نومنا، على آخر مقاعد الجسر الأعلى، نعرِض القبطان يان بّاس على آلة الأسئلة.

هو في الحياة الواقعية رئيس شركات صغيرة ومتوسّطة لاستيراد المواد الغذائية إلى الجزيرة.

وإذا قبِل هذه المهمّة، فلأنّ ظروفه صعبة، حيث خسِر في القمار، ويلزمه مبلغ عشرة آلاف دولار لكي يُكمِل ميزانية زواج ابنته، يوم الخميس القادم.

لكن ما اكتشفناه بوجهٍ خاص هو أنّه يعرِف عائلة القذّافي، بل يعرف أفرادَها معرِفة لا بأس بها، نظراً لأنّه قبل أقلّ من ثلاث سنوات، كان يُرافق سيف، الابن، الرجُل الذي أرسل لي مبعوثَه إلى سان بول، في جولة بحرية على طول الشواطئ الفاتنة في الجزء الشرقي من ليبيا.

أسرّ لنا بأنّ سيف كان غريب الأطوار، وهيئته هيئة مَن يقبل أن يتكلّم حين نكون بصدد استجوابه مع أن هذا ليس من عادته. كان غريباً بكل ما تعنيه الكلِمة من معنى. كان يقضي أوقاتَه عارياً. كان المركب، وهو يختٌ جميل طوله أربعون متراً، يعُجُّ بالفتيات، وهو يتمشّى أمامهُنّ عارياً تماماً، وطول الوقت. أفهم أنّ المرء يتعرّى حين يأخذ حماماً شمسياً، أو حين يستحِمّ. لكنْ هنا، ليس كذلك أبداً. كان عارياً دوماً. كان على اليخت بنات وشباب. البنات جميلات. رُبّما من آخِر طراز. كان يختلي في حُجرة ثلاث إلى أربع مرّات يومياً، وفي كلّ مرّة مع بنت مُختلِفة. وحين يخرج، يخرج عارياً، تماماً بنفس حركات نزوة أبيه. لاحِظ أنّه كان رياضياً. كان قادراً على أن يقفز من المركب ويُكمل سباحةً حتى الشاطئ، مسافة كيلومتر، اثنين، ولا يتعب. لم أفهم أبداً كيف أنّ رجُلاً كهذا، رياضي كهذا، استطاع أن يضع نفسه في قضية وسِخة كهذه.

انتهينا إلى الخروج من ميناء مالطة. تعشينا عشاء خفيفاً. وارتحنا قليلاً. واستيقظنا بعد عِدّة ساعات، على صوت المركب يمخُر العُباب، في ضوء الشمس الصباحية، الساطعة في سماء معدنية، في بحرٍ فاتن. وهنا، وحوالى منتصَف النهار، علا الموج، وبدأت موجة عرضانية تحمِلُنا، فاجتمعنا للتشاور في القمريّة الأمامية حول موقف حرِج لم يشهَد أحدٌ قدومَه.

طلب منّا المالطيّون رسمياً أن نُغلِق، قبل وصولنا إلى مصراطة، نظام التعريف الآلي الذي يسمح لأيٍّ كان، حتى للعدوّ، أن يُحدّد موقعنا.

غير أنّ القائد تلقّى توّاً، على القناة 16، وهي التردُّد المحجوز للاتصالات البحرية، المعلومة التي بموجبها كلّ من يدخل المياه الخاضعة لرقابة الناتو، يُعرِّض نفسَه للتفتيش، وللكشف عن هويّته، وموقعه، والغرض من عبوره.

لسنا في هذه الحالة بالتأكيد. فأمامنا عشر ساعات على الأقل من الإبحار قبل أن تُواجهنا هذه المشكلة حقيقةً. لكنْ مهما يكن. إذ يُستحسَن أن تُعالَج هذه التعليمات المُتضارِبة بتؤدة لا على عجَل. ومن الأفضل أن نأخذ وقتنا في التشاور حول الخطر الذي نُفضِّل مواجهتَه: أن تقصفنا قوّات القذّافي، أو نُخالِف قواعد الناتو التي ستعدّنا حينئذٍ، وبالعكس، سفينة ممنوعة، يظهر أنّها للقذّافي، تكسر الحظر.

حللتُ المسألة قائماً بما كان ينبغي أن أقوم به قبل هذا بكثير، منذ كنتُ في باريس: الاتصال من هواتف الثُّريّا التي معنا، وهي وحدَها التي تعمل، مع الجنرال بوغا، رئيس المجلس العسكري الخاص لساركوزي. بدأ بوغا يُطالِبني بأن نقضي الليل على متن المركب، على حدود مياه الناتو، والوصول غداً صباحاً، بهدوء إلى مصراطة. ولمّا أدرك أنني لا أرغب في قضاء ليلةٍ إضافية في هذه الحُجرة المتشرِّبة بالبخار، والبنزين، وضجيج المُحرِّكات، على هذا البحر المُضطرب الآن، حيث يُهدّد اثنان منّا بنوبة عنيفة من دُوار البحر (انطباق جفون، وشحوب، وعرَق بارد، لا يقويان إلاّ على جرجرة جسدَيهما إلى المرحاض المُنتِن برائحة البُراز والتجشؤ)، طلب مني اسم المركب (نمر البحر)، ولونه (برتقالي لامع، سيّدي الجنرال، يُمكِن، أن يُرى حتى في جُنْح الظلام...)، وكذلك الساعة المُحتمَلة لوصولنا (بين العاشرة ليلاً ومنتصَف الليل، بحسب تقديرات بّاس وآتّار غير الدقيقة أبداً، اللذين، أُكرِّر، اللذين لم يقوما بمثل هذه الرحلة البحرية، ولا يعرفان أحداً قام بها) ـ وقبل أن يختِم المُكالَمة، وبعد أن أجرى حديثاً مُختصَراً مع أحد الأشخاص، على هاتفٍ آخر، لم أفهم منه إلا نُتَفاً، قال له إنّه سيُرتِّب الأمر المُتأخِّر أصلاً، لكنّه سيعمل ما في وسعه من أجل حلِّه.

قضيتُ النهار على الجسر الخلفي المغسول بالشمس، لكتابة هذه السطور. نمتُ قليلاً. وقضمتُ بعض البسكويت. وكنتُ أحياناً أتدرّج حتى مقدِّمة المركب مارّاً بسلالِم ظهر السفينة. وها نحن نتقدّم ساعة أو ساعتين على المواعيد المُحدّدة، تحت شمس لا تزال ساطعة،

على مسافة أربعين ميلاً من مصراطة ـ حيث عندنا موعد مع واحد من هذه المَشاهِد الهزليّة التي يبدو ظهورها، في نظري، واحداً من قوانين هذا الزمن الليبي.

الجمعة 27 أيّار/مايو، تتمّة (هنا مروحيّات الناتو)

الساعة السابعة مساء إذاً. ظهرت على الأفق، على يميننا، فِرقاطة حربية. ثُمّ طيّارة فوقنا، تطير على ارتفاعٍ مُنخفِض. وبعد رُبع ساعة، وعلى ارتفاع أكثر انخفاضاً، ظهرت مروحيّة حربية. فمروحيّة أُخرى حطّت على يميننا، ثُمّ على يسارنا، وأخيراً أمامنا، دارت عدّة دورات كي لا تبتعد عنّا. وفجأةً، وعلى جهاز استقبال قمرية القبطان حيث أتيت أسأل عمّا يحدث، في الجزء الذي يُغطّيه ضجيج المروحيات القريبة جداً الآن، علا صوتٌ مُميَّز مع ذلك:

ـ أنت نمر البحر؟ أنا أتحدّث من مروحيّة حلف الناتو...

يان بّاس، قبطان المركب، في القمريّة السُّفلى، يأخذ قسطاً من الراحة.

ألحّ الصوت: أنتَ نمر البحر! أنا أتحدّث من مروحيّة حلف الناتو...

نزل دانييل أتّار، المُساعِد الذي يأخذ النوبة خلال فترة استراحة قُبطانه، سُلّم الفتحة بسرعة كي يوقِظ القبطان.

ـ هنا نمر البحر، أجاب القبطان، بعد أن صعَد لاهثاً، مُنقطِع النفَس.

ـ هنا مروحية الناتو. لماذا لا تُجيب؟

ـ هنا نمر البحر، نحن نُجيبكم يا سيّد! ها نحن نُجيبُكم.

ـ لا، يا نمر البحر. نحاول أن نتكلّم معكم منذ خمس عشرة دقيقة.كان جهازُكم مُطفأ. لماذا؟

ـ لم يكن مُطفأ يا سيّد.

ـ كان مُطفأ يا نمر البحر. هنا مروحية حلف الناتو، جهازكم كانت مطفأ.

تبادل القبطان ومُساعِده النظرات، أوقَفا المكالمة، وتبادَلا بعض الكلِمات باللغة المالطية. وهذه المرّة أتّار هو الذي أخذ المكالَمة.

ـ هنا نمر البحر. لا بُدّ أنّ جهاز الاستقبال كان مُنخفِضاً جداً، وبالتالي لم نسمع.

بدا الصوت مُقتنِعاً بالجواب، فتابع:

ـ جهاز التعريف الآلي مُطفأ عندكم يا نمر البحر، لماذا هو مُطفأ؟

تنهّد بّاس وآتّار. فهما في مجالٍ معروف. ظهَرا بهيئة تلميذين يُسألان سؤالاً راجعاه.

ـ لأسباب أمنية يا مروحية الناتو. بالاتفاق مع السلطات في ميناء مصراطة.

ـ أي نوع من الأسباب؟

التحق بنا سليمان في القمرية، فقطع الخط، وتنهّد قائلاً:

ـ لا تقولا أكثر من ذلك. كرّرا فقط لأسباب أمنية.

كرّر آتّار لأسباب أمنية. من نمر البحر إلى مروحيّة الناتو: لأسباب أمنيّة.

حلّ صمتٌ جديد. لكن في الحقيقة، لا. إذ عاود الصوت:

ـ هنا مروحية الناتو. هل يُمكِن أن تُعطيني رقم تسجيل المركب يا نمر البحر؟

استعداد للمعركة في القمرية. بّاس وآتّار عانَيا كثيراً، أمس مساء، في العثور على عدّة المركب. والآن تأتي مشكلة رقم التسجيل...

ـ ألو، استأنف الصوت بنفاد صبرٍ، متوعِّداً من جديد.. ألو؟ هنا مروحية الناتو، رقم تسجيل مركبكم من فضلكم!

تناول بّاس من ورائه حُزمة من الأوراق. راجعها رسمياً. وناوَلها لآتّار. فأخذها تاركاً المقود الذي نزل تحت حزامه. ووجَد رقماً، وأجاب.

ـ هنا نمر البحر. رقمنا هو 249858000.

فأجاب الصوت: لا، يا نمر البحر.

فانتفض بّاس، وتناول ورقتَه ـ وببطء راح يقرأ الرقم من جديد:

249858000، يا مروحية الناتو، أُكرِّر 249858000.

ـ أنت تُعطيني رقم تعريف جهاز استقبال مركبك، استأنف الصوت قائلاً الذي أعتقد أنني ميّزتُ فيه (ولكن من دون شكّ هذه فكرة اختلقتُها لنفسي) ظلاًّ من السُّخرية...بينما طلبتُ منك رقم التسجيل. هل تسمعني يا نمر البحر؟ أطلب منك رقم Call Sign وليس رقم تعريف جهاز الاستقبال البحري...

تبادل البحّاران النظرات، وأعادا البحث بعصبية. وفجأة استدار بّاس، وعاين جزءاً من ورقة مُلبّسة بالبلاستيك كانت هناك، وراءه، مُعلّقة بدبّوس على الحافّة، منذ البداية.

صرخ قائلاً: ها هو الرقم!

ثُمّ أخذ حزمة الأوراق في حضنه، وقال بصوت قصير:

- ألو، يا مروحيّة الناتو؟ ألو؟

- نعم، يانمر البحر، أنا أسمعك.

رقم شهادة تسجيل مركبنا هو 119 95 H. أُكرِّر H9 مثل مالطة. ثُمَّ 1195 تمييزنا.

- أجاب الصوت الذي عذُب قليلاً: هو ذا الرقم.

- والآن، اسم المالِك.

بحث جديد، وارتباك جديد.

- Cassar Ship Repair

- واسم الوسيط؟

هرعنا إلى الجسر الأسفل لإيقاظ بشير الذي هو وحدَه مَن يعرِف اسم الوسيط. نحن الآن ثمانية أشخاص في القمرية الصغيرة - مُقابل الصوت. تساءلت عمّن يكون صاحب الصوت، ومن أية جنسيّة، وبأية لُكنة يتكلّم. للوهلة الأولى، حسِبتُه يتحدّث بلُكنة إسبانية أو إيطالية. وفي لحظات أُخرى (رُبّما كان في المروحيّة شخصان...)، كنتُ أكثر ميلاً للقول إنّها لُكنة نرويجيّة. حاولتُ أن أتخيّل، في الأعلى، داخل المروحيّة، رأس أخينا الأكبر الناتو، عمُره، وحالته الذهنية. ولأطمئنّ أكثر، تمرّنتُ على أن أراه في ملامح أحد الطيّارين الفرنسيين الشباب الذين دعاني وإيّاه رئيس المجلس العسكري بالميروس إلى الغداء.

«اسمه بيتر سيلفيان»، قال بشير الذي كان قد وصل توّاً، أشعث الشعر، استيقظ مُعكر المزاج، فوضع سروال جوغينغ كيفما اتّفق، مُغضَّن الوجه: هذا هو اسم الوسيط.

كرّر بّاس: بيتر سيلفيان.

قال الصوت: حسَناً، هذا جيّد. اسم الضامن، الآن؟ من هو ضامِن المركب يا نمر البحر؟

كانت مُفكّرة بشير الإلكترونية في الحجرة في الأسفل. فنزل ثانية بسرعة، فسمعناه يتعثّر بالسلّم. لم يكن ينقصه إلا أن يكسر وجهه. ثُمّ صعد ثانيةً، ومعه الجهاز الذي بدأ يستعرِض فيه الأسماء. لم يعُد يعرف في أيّ مدخل وضع اسم الضامِن. يعتقد أنّه وجده. ويخطىء. وأخيراً وجده.

- شكراً يا نمر البحر... وشحنكم؟

هنا، لم يكن عند قائد المركب مُشكلة، فهو يعرِف.

- مسافرون.

ـ كرِّر.

تحوّل الصوت من جديد إلى التسلُّط. واقتربت المروحية أكثر، كأنها لتدعم أهميتها، وراحت ترسم دورات مُتقاربة في السماء.

ـ غيِّر القناة يا نمر البحر. اذهب إلى 069.

وغدا الصوت أقرب وأكثر تهديداً على القناة الجديدة، فدقَّق سؤاله:

جنسية المُسافرين ...

ـ ستّة فرنسيين أيها السيّد، وثلاثة بريطانيين، وثلاثة أميركيين...

والتفت إلى بشير الذي أكّد له، بصوت منخفض، أنّ أحد أصدقائه لا يحمل إلا جواز سفر ليبي.

ـ... وليبي، يا سيّد. أُكرِّر، وليبيّ.

ـ الهدف من زيارتهم؟

التفت بّاس صوبي هذه المرّة. وكان مُتردّداً من جديد. وقلِقاً، بوضوح، من المسار الذي تتّخذه الأشياء. فكرّر الصوت:

ـ هدف رحلة المسافرين؟

همست له:

ـ صحافة.

فردّد بّاس:

ـ صحافة.

فألحّ الصوت:

ـ 72 ساعة من أجل اثني عشر صحفيّاً؟

أشرت له برأسي أنْ نعم.

فأكّد بّاس إشارتي، وأجاب بصوت غدا شيئاً فشيئا أقلّ اطمئناناً: اثنا عشر صحفياً، 72 ساعة.

حلّت دقيقتان من الصمت. التحق بنا ابن سُليمان بعد أن نبّهه الاضطراب. الطبيبان وعلي زيدان ظلّوا فاترين. بينما كان مارك وتوما يُصوِّران. الجميع هنا الآن، ماعدا منصور. عددنا اثنا عشر في القمريّة التي لا تهوية فيها، نحبِس الأنفاس. فعاد الصوت.

ـ هنا مروحية الناتو. في أيّة صحُف يعمل الصحفيّون الاثنا عشر؟

نظر إليّ بّاس وآتّار من جديد، مذهولَين

قُلت: الصحافة العالمية.

فكرّر، الصحافة العالمية.

ـ لا، يا نمر البحر، لدينا معلومات أخرى.

رفع القبطان بصره نحو السماء كأنّما كان يبحث عن اتصال مُباشر، واستأنف الكلام بصوتٍ خفيض:

ـ أيّة معلومات يا مروحيّة حلف الناتو؟

ـ لدينا اسم محمّد حمزة. أُكرِّر يا نمر البحر: محمّد حمزة. ليس صحفياً.

أخذت المُكالمَة بدوري.

ـ هنا نمر البحر. أنا فرنسي. السيّد محمّد حمزة طبيب. يُرافقني إلى مصراطة في مهمّة.

ـ أي نوع من المُهِمّات يا نمر البحر؟

ـ رسائل يا مروحية الناتو. نحن نحمل لمدينة مصراطة رسائل من مدُن فرنسية كبرى.

ـ كرِّر يا نمر البحر. لم نفهم.

أخذ سُليمان الهاتف من يدي، قطعه لحظةً وقال لي:

ـ لا تُعقّدوا الأمور، صحافة تكفي.

ثُمّ قال على الهاتف:

ـ مهمّة صحفية، يا مروحية الناتو، مدُن فرنسية وصحافة.

ارتفعت المروحية وبدا أنّها تتركنا وشأننا. لكنّها تعود.

ـ لدينا سؤال آخر يا نمر البحر. لماذا أخفيتُم أمر قدومكم من البحرين؟

تبادل الجميع النظرات.

ـ أُكرِّر يا نمر البحر. لماذا أخفيتُم أمر قدومكم من البحرين؟

فهِم بشير. إذ تذكّر أنّ مركبنا وصل بالفعل من البحرين، منذ ثلاثة أسابيع، مُحمّلاً على مركب آخر. ولا بُدّ أننا نسينا أن نُشير إلى هذه الحركة لدى السلطات المالطية، وبالتالي لدى الناتو.

ـ هذا خطأ يا مروحية الناتو. المركب قادم من مالطة.

ـ نحن مُتأكّدون يا نمر البحر. فالوثائق تقول: المركب قادم من البحرين، وليس من مالطة.

ـ نعم يا سيد. لم يكن للمركب من وقت لتغيير رقم تسجيله. لكنّه قادم من مالطة. فأسفل الهيكل مالطي. وهو مسجّل في سجّلات الجزيرة. وبإمكانكم التأكد من ذلك.

ساد صمتٌ طويل.

تكوّن لديّ انطباع، لا أستطيع أن أبيِّن سببه، بأنّ الطيّار في المروحية، ملَّ.

ونشّ الصوت بالفعل للمرّة الأخيرة قائلاً:

ـ حسَناً بإمكانكم أن تمضوا.

بقيت أمامنا ثلاث ساعات من الإبحار حتى نصل إلى مشارف مصراطة. ثمّ ساعتان أيضاً وسيكون الجميع، مع هبوط الليل، على متراس المركب لتفحُّص الظلام كما في رحلة الذهاب، لكنْ بحثاً عن لُغمٍ عائم. وقُبيل مُنتصَف الليل، انبثق خطّ السواحل وبدا قريباً جداً. فهبّت ريح رطبة غير مُتوقّعة. وبعد أن تردّد القبطان بضعة دقائق بين الميناءين اللذين كلّموه عنهما، وحزِرهما بغموض (ميناء مصنع الفولاذ، والميناء العام)، انتهى بالمُصادفة إلى قرار الإرساء في الميناء الثاني، وها هو يظهر أمامنا رصيفٌ خالٍ حيث ميّزنا مستودعات مهجورة. أرسينا. قفز اثنان من أفراد الطاقم على اليابسة كي يُرسِيَا المركب على مربوط الرسو. وهنا كانت المُفاجأة الأخيرة.

دوّت رشّات رصاص من الكلاشنكوف في اتّجاهنا. فانبطح الجميع على الأرض بدءاً بأفراد الطاقم. ألقى فرانك بنفسه عليّ. بينما سُليمان الذي جعل من يديه مُكبّر صوت، راح يصرخ شيئاً بالعربية وهو مُنبطِح. فتوقّف إطلاق الرصاص، وظهر رجال في إشعاعات المصابيح التي أضاءت فجأة. ظهر منهم أسفل الجسم أوّلاً. وبقدر ما كانوا يقترِبون، راح يبدو شبح الجسم بأكمله، يضعون أيديهم في جيوب سِتَرهم الأنورات أو الغبردين. وفي النهاية بدت وجوه نحيلة، التهمتها اللِّحى، مُنهكة، لكنّها مُبتسِمة. كانت لجنة أصدقائنا بأكملها في استقبالنا: المجلس البلدي، بالإضافة إلى مُدافعيه العسكريين، ومفرزة الإقلاع.

ما الذي حصل؟ من الذي أطلق النار؟ ومن أين؟ وإذا كان قنّاصاً، هل تمّ تحييده؟ طرحت السؤال عدّة مرّات. لكن لم يُجِبني أحد. فالجميع مشغول جداً بالمُعانقة، واستعادة اللقاء، والسؤال المُتبادَل عن الأخبار، والتعريف بالضيوف الفرنسيين، وتبادل التهاني. ويجب

أن أعترف بأنني شخصياً كنتُ أسعد بإمكانية أن أتحرّك في النهاية، وأنفض وعَث السفر، وأحمّي عضلاتي التي يبّستها ستٌّ وعشرون ساعة من الإبحار، من أن أُطالب بما تركتُ ورائي، وأُلِّح في الطلَب. سوف نرى جيِّداً.

الأحد 29 أيّار/مايو (أربعون يوماً في الجحيم)

مصراطة. قضينا ليلاً، ثُمّ نهاراً، ثمّ ليلاً أيضاً، في مصراطة نذرع الأنقاض. نُمنا ليلتَين ونهاراً في فندق قديم أعادوا فتحه من أجلنا، لم نأكل شيئاً، أو لاشيء تقريباً ـ وإذا لم يكن فيه كهرباء، فوجود الغاز أقلّ أيضاً، فلا أحد يطبخ، والناس جياع. كان معنا جنرال بلباس مدني هو رمضان زرموح اللطيف، بقامته القصيرة، وشكله الشبيه بحانوتي بلا تاريخ، أو رُبّما بفلاّح ـ إذ نشعر أنّ الإمبراطور سينسيناتوس الليبي لا ينتظر إلا لحظة عودته إلى عرَبته. وكان برُفقته رائدان. سأوجِز القصّة.

أولاً، الذي يصدم هنا إنّما هو هول عمليات التدمير. حجمُها مُذهِل. فشارع طرابلس، شريان المدينة الرئيس، تحوّل إلى أكوام من الخرائب والأنقاض. مبنى البلدية مُدمّر، ومُعظم أبنيته منسوفة، مُنهارة على بعضها، غير مأهولة تملؤها ثقوب شظايا القنابل الانشطارية. أو أنّ ثمّة أحياناً، كما في هذا المكان، في مبنى من المباني النادرة التي لم يأتِ عليها القصف كلّياً، ثقب هائل في الجدار، على ارتفاع الطابق الخامس والأخير: قيل لي قُصِف الطابق بمدفع دبّابة، مُستهدِفاً العائلة التي كانت تسكن فيه، ولا بُدّ من امتلاك الإرادة للقيام بذلك، لا بُدّ من عمليّات تقنية، وبالتالي من الإرادة، لا بُدّ من حساب الزاوية، والرجوع إلى المسافة اللازمة، وتصويب المدفع، وعقف الرقبة للتصويب، من دون أيّ سبب (نعم، طبعاً، كان أحد الشباب قد ألقى زجاجة مولوتوف عن السطح، لكنْ حتى لو لم يفعل، كانوا سيقصفون، فهذا فعل مجاني، وفعل سادي خالِص)، هكذا على هذا البيت الذي كانت تسكن فيه فاطمة مع أطفالها الخمسة، وكان قد سبق أن قتل ابنَها البِكر، عن كثَب، عشيةَ القصف، على مدخل البناية المُقابِلة، قنّاصٌ كان يُراقِبه منذ عدّة أيّام، ومن الواضح أنّهم أرادوا أن ينتهوا باجتثاث العائلة. أو أيضاً هذه البناية، على زاوية شرياني المدينة، شارعَي طرابلُس وبنغازي: أمضيت وقتاً حتى وجدتُ هذه البناية، بحثت عنها وقتاً طويلاً، كما أمضيت بعض الوقت لأتأكد من أنّها هي البناية التي أعرفها، البناية التي قُتِل على مدخلها المُصوِّران في قناة كوراج تِيم هيثيرنتون،

وكريس هوندروس، في 20 نيسان/ أبريل، يوم موعدي الخيالي مع وزير النفط العُماني الذي أرسله إليّ ابن القذّافي ـ أهُوَ حادث؟ ليس مؤكّداً، قال لي مُحسِن، الجار، وهو يحاول أن يُنعِش «تِيم» تحت وابل القذائف المتساقطة قبل أن ننقله إلى المستشفى! لا، ليس أكيداً أبداً، ألحّ مُحسِن بالقول، بهيئة المُوافق، وهو يُريني الثغرة في أسفل واجهة البناية حيث كان «تِيم» يتهيّأ لدخولها وأصابته شظايا القذيفة، ليس أكيداً بالنسبة له أيضاً، كما بالنسبة لِشهداتنا، ألاّ تكون إرادة لعينة أشرفت على قتْلِه.

كان يجب، في مكان أبعد، اهتياج ضمني فظيع لتدمير المقهى المركزي الكبير، الكراسي والطاولات المتفحّمة، ومعدن معقوف، وبلاستيك مُنصهِر، وصندوق جوك، والموزِّع الآلي المنفجرَين، هذا المكان من الألفة والفرح، هذا الفضاء من الحرية، وهو أحد الأماكن النادرة، كما قال لنا ابن سُليمان، التي كان يتمكّن الشباب من الاجتماع فيها، ويتمازحون، ويحلمون بمستقبلٍ أفضل، من دون القذّافي، وهذا ما لم يُغتفَر لهم، والآن، هذا الصرح الجنائزي، ضريح لشبيبة فقيدة، وأنشودة لأحلامها الذبيحة، صلاة على روح أحلامها الممنوعة.

ومحطة الكهرباء المركزية في المدينة، رئتها: مُحطّمة هي أيضاً، قُصفِت حتى أتى بعد الموت، حريق خزّانات البترول التي تُغذّي المولّدات ـ إذ بقيت النار مُشتعِلة فيها طيلة ثمانية أيام، ولا شيء كان يُمكِن، أو يوقِف النيران ولا سلسلة التفجيرات التي تُسبّبها، وخيّمت على المدينة سُحب من الدخان أياماً ولياليَ، وأحياناً حجبت الشمس في بعض الأماكن، وفي الليل الذي توقّفت فيه الحرائق، انطفأت آخر أضواء المدينة، ووجد أهل مصراطة أنفسهم في العتمة، وغرقت المدينة في الظلُمات، وفي مكان هذا المصنع الرائع، وساحته، الذين كانوا يعتزّون بهما اعتزاز الباريسيين ببرج ايفل، رُكام من الحديد المعقوف، ودعامات الفولاذ المُنصهِرة، المُعلّقة بسلك، وصفائح مُتفحّمة ومُنكمشة، وأنابيب مفغورة، وصفائح معدنية مُجعّدة عثرنا عليها حين خمدت ألسنة اللّهب، وتحوّلت إلى أكورديون، وأسلاك عالقة في الفراغ شبيهة بعنقود زهر، أو مُتشابكة كمعكرونة رفيعة عملاقة، وفي أعلى المبنى، في طرف السّطح الذي بقي لكنّ ألسنة اللهب شاطتْه إلى حدٍّ تحسَبه إفريز الذهب في قمّة معبد أزتيكي.

رأيتُ مدُناً مُهدَّمة. رأيتُ هوامبو في أنغولا، وأبيي في جنوب السودان. عُشت غرق سراييفو البطيء. مررتُ بفوكوفار في شهر أيار/ مايو عام 1992، بعد عدة أشهر من عملية إفراغها على يد الميليشيات الصربية، شارعاً شارعاً، وبناية بناية، من سكّانها ـ لم يبقَ فيها إلا

بعض الكلاب. رأيت هذه المدن كلّها، وغيرها أيضاً، وفي كلّ مرّة قلتُ لنفسي: «هنا القمّة، فما سبق أن ذهب مُشعِلو الحرائق أبداً إلى أبعد من هذا الحدّ في تعمُّد التخريب، وهوَس التدمير، ولم يتّسِع أبداً بمثل هذا الاتّساع نوعٌ آخر من الجريمة، جريمة إبادة المُدُن، إصابة روح المُدُن وهندستها». لكنْ لا. كان الأسوأ قادماً. إنّه هنا اليوم تحت ناظري. فحين كنتُ أمشي في الشارع المُتعامِد مع شارع طرابلس، رأيتُ على أنوار سيارات الدورية الأربع التي تُضيء المشهد كديكور في مسرحية رديئة، سلسلة أُخرى من المباني المحروقة التي تحوّلت إلى لا شيء أو عادت إلى حالة «كومة حجارة»، ولاحظتُ هذا المنزل المنسوف وكأنّه مضغوط بمكبس، والمنزل الثاني الذي لم يبقَ منه سوى سلَّمُه (وكلّ شيء حوله مُنهار)، أو المنزل الآخر، مُقابله، الذي ما يزال قائماً، غير أنّ واجهته مُخرَّقة بثقوب الرصاص الذي يُحتمل أن يكون قد أطلقه تعيَّن عليه أن ينتظر أياماً وليالي، وليالِيَ وأياماً، وينقضّ ليقتل، واحداً واحداً، قتلاً مُمنهَجاً، هؤلاء الموتى المطلوبين على القائمة (خمسة، كما قال عبد الله، حارس المتحف الارتجالي حيث أرانا على مدخلِ بيته المُهدَّم، الذخيرة من كلّ القياسات، من العاديّة 712, حتى قذائف الدبّابات الضخمة التي لم تنفجِر في رأي بعضِهم)، ولا بُدّ أنّه، حين أنهى مهمّته، استمرّ في إطلاق الرصاص (قال خليفة عزواوي، رئيس مجلس المدينة الذي التحق بنا في منتصَف النهار: لم نعُد قادرين على إيقافه، وكأنّه قنّاص مُحترِف، مهووس، ورُبّما كان مجنوناً، مجنون تحديداً،وكاد سكّان البناية الذين انقضّ عليهم يصيرون مجانين، فلماذا لا يُصيبه الجنون المُحيط، هو أيضاً؟) ـ قلت لنفسي، بعد أن لاحظتُ ذلك كلّه، وأخذت في حُسباني هذه المتعة الخالصة في القتْل، المتعة الخالصة في التكسير: هنا، في مصراطة، بلغ هَوْلُ إبادة المدُن ذُروتَه.

أجل، إبادة المدُن. هذه الكلِمة التي ابتدعها بوغدان بوغدوفيتش، عُمدة بلغراد السابق، خلال حرب البوسنة. هذا المصطلح، على غرار المصطلح الآخر، الإبادة الجماعية، يفترِض القصْد، والنيّة المُبيّتة، والبرنامج. هذا هو الذي كان لا بُدّ أن يحصل كي تُشَقَّ المدينة بذلك إلى شِقَّيْن، وتُقرَض، ونَبقُرها، ونتنوي، بعد بقْر بطنها، إفراغ أحشائها منهجياً. لم يكن مُمكِناً هنا، في مصراطة، تصوُّر هذه الخطة في إفراغ الأحشاء، وإبادة مدينة مُتمرِّدة، وتفريغها، بل في مكانٍ أعلى، أعلى بكثير، في تلك المدينة التي تجرّأ هذا الشارع أن يحمل اسمها، رُبّما تحت خيمة هذا «القائد» الذي، كصُربيي سرايِيفو، كرادوفان كرافيتش الذي أطلق الرصاص على الأطباء النفسيين، أمر بإطلاق الرصاص على المدرسة التي كان تلميذاً فيها، أو على قصر المؤتمرات حيث كان يأتي ليُلقي

خطاباته. فهل يبقى لديّ من شكٍّ في إبادة المدُن المُنسَّقة التي لا بُدّ أنّه رفعها عندما أراني موظّف في البلدية، خائف، وهو آخر الأوفياء لوظيفته، نوعَ المُتحَف الذي ارتجَل حيث علّق على الجُدران، في حُجرة من مبنى البلدية المهدَّم، نجت بأعجوبة من القصف، لكن لا يُمكن دخولُها إلا بإطلاق سيلٍ من الأنقاض والغبار، ما يُشبه كنزاً: صُوَر شهداء الحيّ، بما فيها صورتَي المُصوِّرَين الأنجلوسكسونيّين اللذين قُتِلا في 20 نيسان/ أبريل؛ وحوالى مائة جواز سفر لنيجيريّين، وماليّين، وتشاديّين قتلهم الثوّار أو أسروهم، وأوراق نقدية مُزيَّفة من فئة مائة دولار التي دفعها لهم القذّافي، ووسط ذلك كلّه قطعة ورق مُصفرَّة، رسميّة، مع أنّها مكتوبة ومرسومة باليد، حيث نكتشِف خطّة دخول المدينة عَبْر شارع طرابلس، ومُحاصرتها ـ يا لهُ من اعتراف!

الأحد 29 أيّار/مايو، تتمّة (كيف دمّروا الدبّابات)

الشيء الثاني الذي يجب أن أراه كي أُصدِّقه، هو ما شاهدته، من إقدام المدينة غير معقول، ومن روح مُقاومتها.

هنا حيث توجد سلطة، توجَد مقاومة، هذا ما كان يُقال في شبابي مع ميشيل فوكو وآخرين. حسناً، وأنا سأقول اليوم هنا حيث يوجد فيض السلطة، يوجد فيض المُقاومة ـ وحتى ما هو أفضل من المقاومة، لأنّ سكّان مصراطة، غير المُكتفِين بالمقاومة، وبعدَم ترك مدينتهم، وبالصمود، استطاعوا أن يصدّوا المُهاجِمين، ويُجبِروا الدبّابات على التراجُع، ويطردوها من قلب مدينتهم. أين؟ لا أعرف تماماً. لكنّ كلّ ما أعرف هو أنّ بإمكاننا، هذه الليلة، الليلة الثانية، بمرافقة الموكب الصغير الذي وضعه المجلس البلدي الانتقالي تحت تصرُّفنا قائلاً لنا إنّ المدينة «مُنظَّفة»، لكن قد يحصل كلّ شيء، وأنّ أمننا يقع على عاتقه، بإمكاننا أن نتجوّل، من دون أن تُطلق النار علينا، في أغلب شوارع المدينة الخالية تقريباً: لا وجود لأي إنسان، بل هناك بعض القِطط، وأحياناً بعض الجرذان، وعلى بعض الحيطان، بُقع الدم الجاف نفسها التي كانت في شهر آذار/ مارس، بعد البيضاء، قُرب مطار لبرق حيث كان القرويّون أعادوا تنظيم معركتهم ضدّ المُرتزقة ـ باستثناء أن بقع الدم هنا تبدو، تحت أضواء مصابيح سيّارتنا، فاتحة لونها ورديّ.

قاومت وارسو، لكنّها انتهت بالسقوط. المدُن الإسبانية قاومت، وبعضها قاومَ طويلاً، لكن جاءت الساعة التي كان لا بُدّ لها أن تُلقي سلاحها بعد حربٍ مُملّة.

سراييفو صمدتْ، صمدت حتى النهاية، غير أنّ الدبّابات لم تكن في المدينة، بل في لوكافيكا، مع القنّاصة، على المُرتفعات التي منها يجعلونها تحت نيرانهم.

باريس قاتلت، وببطولة، ضدّ الدبّابات الألمانية التي كانت في الجدران ـ لكن كان لا بُدّ من قوّة خارجية، الجنرال لوكلير، والكتيبة المُدرَّعة، كي تأتي لنجدة الباريسيين وإجلاء المُحتلّ.

أمّا هنا، في مصراطة، فالدبّابات في قلب المدينة. كانت على مداخل المباني. على مقرُبة من موارد الماء حيث كان الأهالي يأتون للتزوُّد به، وحيث كانت تنتظر حتى يكثُر عددهم كي تقصفهم. والحال أن المواطنين هم الذين جابهوها. وهم الذين جعلوها تتراجع، واحدة واحدة، بأيدٍ عارية تقريباً. وهم الذين نجحوا في تدميرها، إذ هاجموها بإلقاء قنابل على أبراجها كما فعلوا هنا، على هذه الدبّابة التي تُحاصر الشارع الموازي لشارع بنغازي، حيث لاحظنا وجود ظنبوب ساق بشرية محروق حديثاً، ورُبّما ظنبوبَين، بقايا مُتفحِّمة من إنسان.

الناتو ساعد طبعاً. كان له حسابه مع آلات الموت التي موَّتَها. فطيّاراته هي التي دمّرت أربع مُصفّحات ضخمة كانت مُخبّأة في سوق المدينة الكبير. غير أنّ الدبّابات التي تمركزت قُرب الجامع، وتلك التي وُضِعت على مدخل المستشفى، وحتى في داخلها، كان تدميرها أصعب، وكانت الأكثر تهديداً، فدمّرها المواطنون، ببسالتهم، وبزجاجات المولوتوف التي ألقوها في فُوهات المدافع، وبقذائفهم RBG7 التي أطلقوها عن قُرْب، مُلتصقين بها تقريباً، جسَداً بجسَد مع الآلة، رقصاً مع الوحش الفولاذي، وبفضل خُبثِهم أيضاً، ومَكرِهم غير المعقول.

أُعجوبة مهارة الطالب، والمُهندِس أو العسكري المُتقاعِد، ولست أدري من وجد هذه الفكرة؛ لأنّ ملمَح هذه العبقرية سوف يبقى إلى الأبد من دون مؤلِّف: السجاجيد المُشرَّبة بالزيت التي يأتون بها ليلاً، يستفيدون من الظُلمة، ويخدعون الحرّاس، ويضعونها أمام الجنازير حتى لا تستجيب حين يُقلِع سائق الدبابة، تتزحلَق، فتصير مجنونة، وفي الوقت نفسه هدفاً لمستهدفي الدبّابات.

ملمح العبقريّة الآخر، بما أنني بصدد الموضوع، الذي سيظفر بحظّ أنّ أحداً لن يعرِف عنه شيئاً أبداً، ولا هو أيضاً، ولا من أيّ دماغٍ خصب خرج: يرتكز الملمح على أنّ الثوار، حين لا تتوفّر لهم التغطيَة الجويّة، والناتو ليس موجوداً لتأمينها لهم، أو حين تكون قوّاتهم أضعف من أن تصمد على جبهة، ممّا يجعل القذّافي يستغلّ الوضع ليتقدّم، يُرسلون عبْر مُكبرات الصوت في الجوامع، بدل الأذان، هدير طيّارات مُسجَّل، وسجاجيد خادعة بالتناوب مع سجاجيد

الزيت، وغيوم صوتية تبعث على الاعتقاد بأنّ طيّارات التحالُف ستصِل توّاً، وتجعلهم أحياناً يكسبون وقتاً ثميناً.

ثمّ اكتشفتُ، في الجزء الغربي من المدينة، سُرادق أُقيمت فيها، على ضوء مصابيح لا يعلَم إلا الله كيف تُنار، أو تُنقَل إنارتها من أقواها إلى أضعفها، مسابك حديد مُرتجَلة، ومشاغل صناعية، بل استرداد أسلحة الثوّار، وتصليحها. أسلحة مستولى عليها من العدو، ومُعدَّلة. بنادق رصاص قديمة تُركب عليها سبطانات من عِيار 12 ملم. مجموعة من القذائف مُرتّبة على دبّابة أو على طيّارة، تُفكّك أجزاؤها كي تُعالَج، على آلات مُشحّمة، وبوساطة جهاز لِحام هائل من دون نظارات واقية، وطقطقاته تُهزهِز الأرض تحت أقدامنا، ثمّ تُركّب على رشّاشات هي نفسها مُركبة على شاحنات بك - آب. والعمل على شاحنات البك - آب! هذه الشاحنات الصغيرة التي صُفِّحَت مُقدّماتها بصفائح مزدوجة من السّبك وُضع بينها رمل أو اسمنت فتتخِذ أشكال أكباشٍ مُخيفة... أو بالعكس، مُصفّحة من الخلف: الصفيحة نصف الدائرية التي لُحِمت بطريقة تجعل المُقاتلين قادرين على الوقوف على سُلَّم صغير مُصفَّح، تجعل الآلة شبيهة حينئذٍ بدبّابة على شكل دبابة بن هور... أو مُصفّحة أيضاً على الجوانب، حيث تُلحَّم صفائح الفولاذ المُسقّى هذه المرّة على الرفراف كما لو أنّ الآلة مزوّدة بدِروع عملاقة يُمكِن أن يحتمي خلفها في وضع القرفصة رامِيان، أو ثلاثة، وأحياناً أربعة رُماة، وعندما يُصبحون في مرمى الهدَف، ينبثقون كالشياطين، ويخرجون مكشوفين، لكن في آخر ثانية، تماماً بما يكفي لمُهاجمة الدبابة المُستهدَفة أو مُحاصرة الموقع المُعادي... أو أيضاً هذه الشاحنة الصغيرة الزرقاء التي حسبتها في البداية شاحنة موزّع الخضار الذي نقلنا في أوّل زيارة قُمنا بها لليبيا من الحدود المصرية وأوصلنا حتى طبرق: مُصفّحة من جهاتها الأربع، ومُحوَّلة إلى قلعة مُتحرِّكة مُبطّنة بدبّابة هجوم مُرعِبة - التقطت لها صورةً من أجل رئيس شركة بانهار!

كنتُ قد رأيت مع «جيل» مصنعاً وحشياً من هذا النوع في البوسنة الوسطى، في كونيك، وأتذكّر أنه يعود، خلال تلك اللحظة، ليس إلى التاريخ الذي رأيته فيه، بل إلى ذاك الذي تصوّره بيغوفيتش الذي صار، على مرّ الشهور، أمير حرب ممتاز، وعودته بعد أن جعل من شعبٍ من الضحايا جيشاً من المُقاتلين المُتيقّظين والمُجهّزين. حسَناً، وفي مصراطة ينتابني الشعور نفسه. باستثناء أنّني لم أعرف لهذا الشعور مثيلاً، في هذا الانتصار على عدوّ كان،

وأُكرِّر، كان في الجُدران، لهذه الحملة خطوة خطوة، زنقة زنقة، على فصيلة مُحاربة استغرقت أربعين يوماً للانسحاب، لهذا الزحف الظافر، لكن المتواضع، الذي كان يُقوّي، على كلّ مُفترَق طرُق مُحرَّر، مكاسبَه برفع سُوْرٍ من الشاحنات المقلوبة، بحفّاراتٍ أو بحافلاتٍ مملوءة بالرمل، والحُطام من كلّ نوع، الذي يسدّ منفذ آخر تقدُّم وهي كالأسوار الداخلية للمدينة. وباستثناء أنني أستنتج منها حقيقة تفقأ العيون: هؤلاء الرجال الذين عاشوا محنة النار وتخطّوها، هؤلاء المُقاتلون الفولاذيون، في عيونهم بريق الإنهاك، لكنهم قاوموا العدوّ، ومع أسلحتهم البدائية، جعلوه يتراجع، هؤلاء المُقاتلون انتهوا بتشكيل جيش فعليّ، مُنظَّم، ومُتمرِّس في حرب الشوارع، هم أفضل مُحارِبي ليبيا الحُرّة، وهو الذين ينبغي التعويل عليهم بعد يوم النصر.

على جبهة برقة، رأيتُ شُجعاناً. أثار إعجابي شبابٌ بواسِل، جاهزون لركوب كلّ الأخطار للدفاع عن روح بنغازي وأهلها الأحياء. لكنَّ الطيّارات هي التي أنقذت بنغازي قبل أن تغزوها الدبّابات. إذ أتت من فرنسا وبريطانيا ومنعت حمّام الدم. بينما هنا، في مصراطة، كانت الدبّابات قد دخلت، والمواطنون هم الذين قاموا بعمل الطيّارات، وبالتصدّي لها مُباشرة، جسَداً بجسَد، حتى أجبروها على الانسحاب.

فمَن سوف يزحف على طرابلس حين يحين الموعد المواتي! وحين ستفتح المروحيّات الفرنسية الطريق، مَن سوف يوجّه الضربة القاضية إلى النظام المقيت؟ هو ذا. هذا واضح. مُحرِّرو مصراطة.

الأحد 29 أيّار/مايو، خاتمة (على جبهة عبد الرؤوف)

«أين المروحيّات؟»

الرجل الذي يطرح عليّ هذا السؤال هو أحد قادة الخط الأوّل في منطقة عبد الرؤوف، التي تقع على مسافة 15 كم من مصراطة، غير بعيدة عن مواقع القذّافي.

كرّر قائلاً: أين المروحيّات، ونحن تحت خيمة القيادة، المصنوعة من غطاء ممدود على أربع عصيّ حيث استقبلَنا، في قلب الصحراء، كسلطان شابّ، بلحيته السوداء، وشعره كثّ، كثيف، متأهّب الأعصاب، عيناه رماديّتان. وأضاف: نحن مُمتنّون من ساركوزي. ولن ننسى أبداً ما فعله وما فعلته فرنسا من أجلنا. لكنّه وعدَنا بمروحيّات. والسؤال الذي يطرحه الجميع هنا: أين المروحيّات؟

ولمّا شرحتُ له أنّها في طريقها إليهم، وأن مروحية النمر الفرنسية ستصل، ومروحيّات الأباتشي كذلك، لكن ينبغي إعطاؤهم الوقت، وأنّ هذا كلّه آلات ثقيلة، مما يوجب، فوق ذلك، تحضير الأمور كما ينبغي، فتخيَّلوا أن نتسرّع، وافرضوا أننا فقدنا مروحيّة، افرضوا أن مروحية واحدة تسقط، مع طاقمها، والآراء العامة شرِسة، أعني أنّها تتغيّر بشراسة، وهي تتغيّر أيضاً رأساً على عقِب، وتنقلِب كرأي رجل واحد، ضدّ مبدأ التدخُّل ـ فاختصر، وقادنا إلى الخارج:

ـ أعتقد أنكم لم تفهموا.

مرّت نقّالة وكوكبة خيام يحملها ثلاثة شباب، واحد من الأمام، واثنان من الخلْف، مع جريح ملتوٍ على نفسه، يئنّ، لمحت رأسه الملفوف بضمادة ضخمة، ووجهه المتورِّم.

ـ فقط هذا الصباح، سقط قتيل، وأسعفنا أحد عشر جريحاً. ومع هذا الجريح الذي ترونه، يرتفع عددهم إلى اثني عشر. والحال أننا نفتقِر إلى كلّ شيء...

وصل، عقِب النقّالة، شابّان، شعرهما أشعث، مليء بالرمل، وقميصاهما مُعفَّران بالتراب، يحمل كلٌّ منهما بطرف يده بندقية الكلاشنكوف ـ بقِيا جانباً، زائغَي النظرات، شاحبَي الوجوه، لا يجرؤان على مُقاطعة الرجل ذي العينين الرماديّتَين.

قال هذا الرجل، وهو بالكاد ينظر صوبهما: ليس لدينا أسلحة ثقيلة، ولا نصف ثقيلة. وهذا الجريح الذي مرَّ قبل قليل... ستقولون لي لا علاقة له بذلك وكان سيُصاب على أيّة حال... لكنّ رشّاشه تعطّل فجأة... فهل تجدون هذا طبيعياً؟

التفت صوب الشابّين الذين لم ينظر إليهما، وقال مخفِّفاً نبرته، كأنه يوجّه إليهما الكلام:

ـ هل تجدان هذا طبيعياً؟

لم يُجِب الشابان اللذان لا يفهمان الإنجليزية. نظراتهما ما تزال ساهمة، قليلة الثبات. علامة انفعال واحدة تلوح على أصغرهما سنّاً: تُفاحة آدم البارزة جداً، تصعد وتنزل بسرعة كبيرة.

استأنف الرجل كلامه متوجّهاً إلينا من جديد: «الحقيقة أنّ كتائب القذّافي تستطيع أن تُهاجمنا عندما تُقرِّر، وتأخذنا على حين غرّة، لأننا لا نملك، وخصوصاً في الليل، أية وسيلة للرؤية عن بُعد. تعالوا شاهِدوا...»

قطع حديثه المُتّصل كي يستعلِم طبعاً باللغة العربية ـ ومنصور ترجم لي كالعادة ـ عن سبب مجيء الشابَّين إليه. جاءا من الجبهة حيث ذهب أحد رفاقهم في مهمة استطلاع ولم يعُد. فهل سُجِن؟ أم أصيب بجروح وحوصر بين خطوط التماسّ؟ قُتِل؟ إنها التاسعة صباحاً، ورئيس

المجموعة يقول علينا أن ننتظر منتصف فترة العصر كي نتبصَّر أمره، واحتمال الانطلاق للبحث عنه. قادنا باتجاه تلٍّ رملي، على بُعد مائة متر، بعد حائط الاسمنت المُعدّ ليكون حاجزاً ضدّ هجوم الدبّابات. التحقنا هناك بحوالى عشرة رجال يبدو أنهم تجمّعوا على قمة كومة الرمل حول منظار مزدوج مثبّت على قوائم، مُركّزين، صامتين، مُنشدّين بمجامع حواسّهم نحو نقطة غير مرئية على الأفق، وبالكاد يُعيرون انتباههم لرئيسهم الذي يصل.

أمرني، بنفس حركة الساقزلي في اجدابيا، وهو يُبعِد الجندي الذي كان يُثبّت المنظار على الأفق، بالقول: انظر، ماذا ترى؟

- لا أعرف، كثبان... أشجار...

- تماماً، قال بلهجة المُنتصِر! الدليل هنا! أنت ترى عناصر مُتقدّمة من جيش القذّافي. هم على مسافة عدّة كيلومترات. نحن في وضَح النهار، ولا نراهم. تخيَّلوا الليل، إذاً؟ بإمكانهم أن يكونوا على مسافة 500 متر منّا، ولن نراهم يقترِبون. أين المروحيّات؟ أين مناظير الرؤية الليلية التي تعمل بالأشعة الحمراء، والتي وعدت بها فرنسا؟

التفتَ إلى سليمان الذي كان يستعِد لإجابته، وليُزايد عليه من دون شكّ. لكنْ سمعنا صوت انفجار. ثم صوتَ انفجارٍ ثانٍ، بعيد غير أنّه قويّ أطار على قمّة تلٍّ آخر، تُرى بالمنظار، شيئاً يُشبه فزّاعة.

قال وهو يُبعِدني ويأخذ مكاناً بدوره وراء عدسَتي المنظار: «اتركوني أرَ».

ثمّ توجَه إلى المجموعة، بعد أن أعاد المنظار إلى الجندي الذي أعطاني إيّاه، وحينئذٍ فقط لاحظت احمرار عينيه لكثرة حملقته بالمنظار:

«أربعة كيلومترات. قصف العدو على مسافة أقلّ من أربعة كيلومترات. يجب عدَم التحرّك. لكنّ عبدول كان على حقّ».

ثُمّ توجَّه إليَّ بلهجة مُربّ، بينما اتخذ الرجال مواقعهم السابقة، ثلاثة من بينهم تحت المنظار، والآخرون جلسوا على الرّمل.

«عبدول مزارع القرية المجاورة. صادرت مزرعَته، أمس صباحاً، إحدى وحدات مرتزقة القذّافي. توفّر الوقت الكافي لزوجته وأطفاله الثلاثة كي يهربوا بفضل الله. لكنّه بقيَ لأنّه لم يشأ أن يترك مواشيه للعساكر. وهذا لم ينفعه في شيء، لأنّهم قتلوها طبعاً. تك تك... تك تك...»

وقام بحركة إطلاق الرصاص بالرشّاش.

«أطلقوا على بطونها، ورؤوسها، وبدا أنّ الدم كان يتطاير من كلّ مكان، حتى إنّ الحيوانات الأكثر ضخامة طارت في الهواء...»

رسم بشفتَيه علامة الاشمئزاز.

«أوقفوه خلال الليل. ثُمّ في الصباح. لكنّه استغلّ فُرصة هجومهم، صباح اليوم التالي، على بقرة، لم يجدوها عشيّة أمس. فاختبأ. وهرب. وركض حتى موقعنا المُتقدِّم».

أشار لنا على مسافة مائتي متر، على يميننا، إلى كثيب آخر، وعلى الكثيب، سطح من خشب، ككوخٍ من القشّ، لم أنتبه إليه.

«وهنا شرح لعساكرنا ما رآه. كان المرتزقة تشاديين، ونيجيريين. وقائد جزائري. هم مُحترِفو حرب شرحوا أمامه، بالعربية، أنّهم كانوا ينتظرون الإيعاز بالهجوم. رُبّما هذا المساء. ورُبّما غداً. أيّ اليوم».

اتخذ هيئة اشمئزازٍ جديدة. فبصق على الأرض خليطاً من الازدراء والتطيُّر.

«ما أردتُ أن أقول لكم هو أنّهم إنْ هاجمونا، فليس لدينا أيّة وسيلة للردّ. عندنا، على مسافة كيلو متر من هنا، قليل من الصواريخ المُضادّة للدبّابات. وألغام مزروعة حيث يجب. وخنادق حفرناها سوف تؤخّر تقدّم المُصفّحات. لكن على افتراض أنّ القذّافي قرّر هجوماً فعلياً. سوف نوجِهه، ولكنّنا لسنا مُجهَّزين بما يجعله يتراجع».

انفجرت قنبلة ثالثة، أقلّ قوّة، تناهى إلينا صوت انفجارها كأنّه خفقَان أجنحة. بقيَ الرجال جالسين. يترصّدون. يُراقبون الرجل ذا العينين الرماديّتين. لكننا نشعر أنّهم لن يتحرّكوا، ولن يُفجّروا ما داموا لم يتلقّوا الأوامر. على خلاف الفوضى المرحة في البريقة خلال شهر آذار/ مارس، وحتى في اجدابيا الشهر الماضي.

- والآن عندي سؤال لك يا سيّد برنار...

قلتُ له: نعم، وسمعي مشدود صوب الكثبان، الأكثر قُرباً هذه المرّة، كثيب الكوخ، حيث بدا لي أنني أسمع إطلاق نار.

- بما أنّك سفير ساركوزي...

- لست سفير ساركوزي، أنا كاتب.

هزّ رأسه كما لو أنني كنتُ أُزعجه بتمييزي الدقيق ما هو خارج الموضوع.

ـ أريد أن أحمّلك رسالة إليه.

أهملت الدخول في التفاصيل.

ـ أستطيع، إذا استقبلني، أن أُحاول إيصالها إليه.

ـ حسناً هي ذي...

التقط عن الرمل أمامه ظرف طلقة فارغ، صغير للغاية، قطره نصف سنتمتر، وطوله ثلاث سنتمترات.

قال: هذهِ هي الرسالة. هذا ما أُريد أن تُسلِّمه إيّاه. ظرف طلقة سقط من كلاشنكوف أحد شباب الثورة الليبية. لكن يجب أن تُضيف...

أشار بيديه كما لو أنّه يقوم بعملية حسابية. ثمّ رفع ذراعَيه المتقاطعين على شكل صليب، نحو السماء، وولّى وجهه في الاتّجاه نفسه، بشكل استعراضي، يظهر عليه التعبير عن التوسُّل والغضب.

ـ يجب أن تُضيف أنّ الأسلحة التي يستخدِمها ضدّنا ضخمة مثل هذه... ألف مرّة أضخم من حجم ما أعطيتُك إيّاه توّاً... ولهذا السبب، المروحيّات وحدها تستطيع أن تُنقذنا...

مضت ساعتان قمنا باستغلالها بِمُقابلته، ومقابلة اثنين من ضُبّاطه برتبة مُلازِم أوّل. الجبهة هادئة الآن، وتشكّلت جماعة أُخرى في أعلى تلٍّ آخر مكشوف وراءنا. إنّهم حوالى عشرين مُقاتلاً يُغنُّون بأعلى صوتهم وهم يُلوِّحون بِعلَمين: علَم ليبي مثقوب في عدّة مواضِع، وعلَم فرنسي.

قال القائد ذو العينَين الرماديّتَين: «جاءت اللحظة المواتية. تعالوا. يجب أن تلتقطوا صورة من أجل السيّد ساركوزي».

صعدنا على هذا التلّ الجديد، معه، ومع علي، وسليمان، ومنصور الذي تسلّق بصعوبة وهو يلهث. كان الفِتيان يصرخون بصوتٍ راح يعلو أكثر «ليبيا حُرّة» و«شكراً فرنسا».

قال لي وهو يضع العلَم الفرنسي بين يديَّ، ويتراجع ليضمن جودة التأثير: «هي ذي الصورة».

ـ قلتُ: لا، هم يحملون العلَم الفرنسي، وأنا أحمل العلَم الليبي. هذا أفضل.

ـ حسَناً، لكنْ. من فضلك، احكِ لساركوزي ما رأيته هنا. واطرح عليه سؤالي: أين المروحيّات؟ أين المروحيات؟ فهي وحدها القادرة على تغيير قناعة القذّافي بالتقدّم، وجعله يفكّ قبضتَه عن خُنّاق مصراطة.

بعد أن التقطنا صورة جماعية، نزلنا عن التلّ. دعُونا إلى أكلِ اللحم المشوي، الذي كان علينا، للأسف، أن نُفوِّته. وليست الشهية هي التي تنقصنا، لكن أشياء كثيرة كان يجب أن نراها أيضاً، وأن نفعلها. سوف نتناول طعام الغداء في الفندق، في حساء يعوم فيه بعض فُتات اللحم، وصحن رُزّ، وتُفّاحة. وسوف نمضي لالتقاط صُوَر الشوارع المسدودة برُكام الدمار.

الاثنين 30 أيّار/مايو (عطَل كبير في عرض البحر مُقابل ليبيا)

أثناء العودة، مع طلوع النهار، وعلى نفس قارب الذهاب، وكما يقتضي الأمر، كانت عودة مجنونة. أبحرنا طيلة الليل. ولما وصلنا إلى هذه النقطة، في عرض البحر، وفي منتصف المسافة بين الشواطئ الليبية والمالطيّة، تعطّل بنا القارب.

استعدّينا لخوض معركة على متْن القارب. كنّا جميعاً في قعر القارب، لا على ظهره، وذلك لنرى مصدر المشكلة. القبطان، ومُساعده. عامل الصيانة ببزّته البرتقالية. فاتر، عيناه ذابلتان، بدا لي أنّه كان نائماً خلال رحلة الذهاب على ظهر المركب فتساءلت ماذا يُمكِن أن يُفيدنا. ومُساعده الأسود مفتول الذراعَين. والأسود الآخر الذي يبدو لي أنّه عُيِّن ليقوم بأعمال التنظيف، لكنّه كان أوّل من نزل، من فتحة ظهر المركب إلى أعماقه. كلّهم هنا الآن. كلّهم يحاولون أن يفهموا. يدفعون غطاء الفتحة، كلٌّ بدوره، وينزل كما فعل الأسود الثاني، من أجل أن يصِل سلِكاً مقطوعاً، ويُنظِّف واحدة من المصافي، ويفتح صمّاماً. يتصبّب العرَق منهم جميعاً حين يصعدون، وتتلطّخ أيديهم، ووجوههم، وشعرهم أيضاً بالشحم الأسود. كذلك يتناوبون جميعاً، في كلّ مرّة يعتقِدون أنهم وجدوا العُطل، لينفخوا بأفواههم أنبوباً بلاستيكياً وسِخاً لضخّ البنزين ومحاولة تدوير أحد المُحرِّكين. إنّها أُخوّة السّفر. والمساواة أمام العطل. إذ لم يعُد هناك أسود مفتول الذراعَين، ولا رجُل بصدرية برتقالية، بل فقط رفاق يُبحرون معاً على مركب تلعب به، بعد أن تعطّل، تيّارات الموج، وتحمِله قوّتها المُقلِقة التي لا توجد قوّة آلية تعاكِسها، وفوق الرؤوس، تُحوِّم أسراب من الطيور البيضاء، تبدو أكثر هُزالاً، وإثارة للشفقة.

قال الرجل الذي كنت أحسب أنّه مُعيَّن للتنظيف، على سبيل المُزاح: نحن نجنح باتجاه طرابلس.

ففكّر القبطان بّاس وهو يربت على كتِفه برِفق:

ـ ذلك لأنّ معك حق!

ووجَّه إلينا بصوتٍ مزّقه ضجيجُ ترنُّحِ المركب:

ـ لِيوفِّر لنا هذا النظام ساعة إضافية، وسيكون أمامنا أحد حلَّين: توجيه نداء النجدة كي يُرسلوا لنا قطرةً تُعيدنا إلى مالطة، أو نعود إلى طرابلس حيث سوف يُحضِّر لنا، صديقكم القذّافي لجنة استقبال بالمدفعية.

تقبَّل بشير كلامَه باعتدال. أمّا الصديقان الليبيّان المُختلِفان عن الصديقين اللذين رافقانا في رحلة الذهاب، اللذَين قبِل القبطان بأن يُسافِرا معنا، ولاحظنا حين صعدا المركب أنهما لا يحمِلان أوراقاً صالحة للسفر، فشعرا بالامتعاض الواضح.

لكنْ. في الموعد المُحدّد، بعد ساعة تماماً، نزل الأسود مفتول الذراعين مرّة أخيرة إلى أعماق المركب، وصعد منها برأس عرّاف وأتى أخيراً بالطالَع الحسَن، فبدأنا نسمع سُعالاً صادراً من القاع، تلاهُ بُصاقٌ بدا أنّه يُريد أن يتوقّف ويموت. لكن لا، استمرّ، وقاوم، وصار مُنتظَماً وكاد يحجب صخَب البحر.

كلُّ من كان على ظهر المركب التقط أنفاسَه. وأصاخ الجميع، من حول القبطان، سمعَهم باتجاه صوت المُحرِّك. نعم! إنّه أحد المُحرِّكين الذي دار بعد أن توصّل الأسود مفتول الذراعَين إلى إصلاح صمّامه. مُحرِّك واحد، نعم. والسرعة مُنخفضة، هذا صحيح. ورائحة المازوت الرهيبة التي تنتشر على الجسر كلّما هبّت الريح. لكنْ هذا أفضل من العودة إلى طرابلس. وها أنتم تستأنفون الإبحار، كيفما كان، وسبع عُقد غير كافية لامتصاص ترنُّح المركب، ولكن هيّا نُبحِر على الأقلّ، أما آتار والأسود مفتول الذراعين فذهبا إلى قاع المركب ليسترِقا غفوة، بينما بقي الأسود الثاني في المقدّمة ليُراقب البحر، وظلّ القبطان في القمريّة وعيناه نصف مُغمَضتَين، يتظاهر بالنوم، وفي الحقيقة هذه مُجرّد خدعة. وأنا على الجسر، أجلس على زورق نجاة الجسر الخلفي، وحاسوبي على رُكبتيَّ، أستغِل آخر خيوط الشمس، مُحاولاً أن أسجّل انطباعاتي عن مصراطة قبل غياب الشمس.

الأحد 30 أيّار/مايو، تتمّة (صُوَر من مصراطة)

لا ننسى بعض الخوف الذي سبّبه لنا الأخ الكبير الأطلسي، أمس ليلاً، قُبيل مُنتصَف الليل، بينما كنا ما نزال في منطقة المعارك، عندما طلب منّا، على قناة VHF العامّة، إن كنّا نستطيع تأكيد وجود قارب وراءنا، على اليمين، يقترب منّا بسرعة كبيرة. قال القبطان: نعم،

إذ كان يرى في الواقع بقعة مضيئة على شاشته. وبالتالي أطلق «ضابط ارتباط الحلف»، على نفس الخطّ العام، نداء إلى كلّ سفينة تُبحِر في المنطقة وإخطارها كي تُعرِّف بنفسِها. وهذه السفينة إمّا أنَّ ليس فيها جهاز استقبال، وإمّا أنها صمّمت على انتهاك الإخطار، ولم تستجِب وتابعت اقترابها. فكرّر ضابط الارتباط نداءه: «أنا ضابط ارتباط حلف الناتو، هنا السفينة الحربية للحلف، نُكرِّر إخطار الهدف غير المعروف». فوجدنا أنفسنا مرّة أُخرى، مثلما حصل لنا في رحلة الذهاب، في غرفة القيادة، أقلّ قلَقاً، وأكثر ارتباكاً، بينما لم تَعُد عَينا يان بّاس تُفارِقان شاشة مَتْنِه حيث استقرّت البقعة المضيئة.

ألحَّ الصوت: «هنا ضابط ارتباط حلف الناتو، هنا ضابط ارتباط حلف الناتو. هذا هو الإنذار الأخير، المروحيّات الحربيّة في الطريق». ولا جواب أبداً. فعلا الصوت للمرّة الأخيرة: «هدف غير معروف! هنا ضابط ارتباط حلف الناتو! كان هذا آخر إخطار! سنُطلِق النار خلال دقيقتَين!» مضت دقيقتان. دقيقتان تماماً. واختفت البقعة المضيئة عن الشاشة كانطفاء الفانوس. فسكت الصوت أخيراً. فهل تراجعت السفينة غير المعروفة؟ هل عادت من حيث أتت؟ أمّ أنّ ضابط ارتباط حلف الناتو نفّذ تهديده وأغرقها؟ لا أحد سوف يعرِف شيئاً عنها. «كل شيء مُمكِن»، قال بّاس وهو يأخذ مِقبض الدفّة. «فكل مساء هناك قوارب سريعة، من ماركة زودياك عموماً، تنطلِق من الشواطئ، في منطقة مصراطة، وتُطارِد إمّا قوارِب كقاربنا، وإما القوارب المُعدِّية إن وُجِدتْ. لا أعرف مصير هذه القوارب. ولا أحد يعلم عنها شيئاً».

ولا ننسى أبداً الخوف المُرتدّ الذي سبّبه لنا يان بّاس، عن طريق المُسارّة. «هل تذكرون لحظة وصولنا، عندما أخبرتنا مروحية حلف الناتو بأنّ جهاز الاستقبال على متننا مُطفأ، وأنّه لم يكن طبيعياً؟». لكنْ ما معنى هذا إذا تذكّرنا! ذهبتُ أمس إلى قمريّة القيادة، لأبحث عن قطعة تبديل، وأملأ خزّان الوقود. فقيل لي هناك إنّ قصة جهاز الاستقبال المُطفأ كادت بالفعل تكون وخيمة العواقب. فطيّار المروحية، حين رأى أننا لا نُجيب، وحين أجبناه قائلين إننا قادمون من مالطة، بينما كانت لديه وثائق تُثبِت أننا قادمون من البحرين، انتهى بالاتصال إلى مصراطة. وطلب من المسئولين: هل تنتظرون مركباً قادماً من البحرين؟ فأجابوه في مصراطة، لا، لا ننتظر أيّ مركب قادم من البحرين. فقال هل تُريدون أن نُحيّد هذا المركب القادم من البحرين ويدّعي أنّه قادم من مالطة، قبل أن يدخل في الميناء؟ فأجاب موظّف الحراسة في مصراطة، في تلك الليلة، بوحيٍ منه، رُبّما نتيجة تردُّدِه، أو نتيجة موازنته بين أن يكون مع

تحييد المركب وضد تحييده، بعد أن استولت عليه الريبة، أو نتيجة قرار، بأنّ الشباب في الميناء سيُسوّون المسألة بأنفسهم، ولا بُدّ أنّه قال: «لا، شكراً، سوف نهتمّ بالأمر» وهكذا أنقذنا من ورطة من دون أن يعلم (ومن ثمّ كان القصف علينا حين وصلنا، الذي أفهم الآن أنّه كان من مُعسكرنا، وكي يتوقّفوا عن قصفنا، كانت كلِمات سليمان لازمة إذ صرخ أنّه سُليمان، وأننا في مركب صديق...)

لاحظوا، قبل أن أنسى، الفوضى التي كانت تُهيمن على الميناء ساعة إقلاعنا الثاني. لاحظوا أنّه، على حواجز الميناء، هناك حيث كان يُخيِّم، قبل مساء أمس، ساعة وصولنا، من الطبقة السوداء (انعدام الضوء، وظلُمات خفيّة، وإطلاق الرصاص من الكلاشنكوف غير المُحدّد، والتهديد غير الملموس...)، والازدحام الهائل الذي تشكّل، وكان يُمكِن أو يوقِفنا عن الإبحار عدّة ساعات، ورُبّما طيلة الليل، لولا أنْ تولّى الأمر بشير وسليمان ـ هرع أحدهما إلى قيادة الميناء ليقول من كنّا، وأمسك الثاني بمِقود السيّارة مُحاولاً، بالقوّة التي يستمدّها من كونه عضواً في المجلس الوطني الانتقالي، أن يشقّ طريقاً إلى خليفة عزواوي، رئيس المجلس المحلّي الانتقالي الذي نزل من السيارة كي يوقِف السير مع الجنرال رمضان زرموح، وتأمين ممرٍّ لنا. وحين وصلنا إلى الرصيف الأوّل حيث ينتظرنا مركبُنا، وجدنا بجانبه سفينة ضخمة ثُلاثية الجسور، طولُها مائة متر، تُظهِره أصغر أكثر أيضاً. إنه يوم السفينة المُعدِّيَة. اليوم الذي يتكرَّر مرّتين كل أسبوع، منذ أسبوعَين حيث تتهيّأ فيه هذه السفينة التي أتى بها بشير من تركيا لتأمين المكّوك مع بنغازي، للإبحار إلى العاصمة المُتمرِّدة. والناس الذين يسرعون إلى حواجز الميناء، هؤلاء الرجال والنساء الذين سبق أن حضروا إلى هناك قبل اثنتي عشرة ساعة من الإقلاع، في الريح الرطبة الباردة، لعلّ الحظّ يوفقهم في إيجاد مكان على ما هو، في رأيهم، خطّ بسيط من حياة، رئة تتنفّس منها المدينة المُحاصَرة، حريّة، هؤلاء الناس غاضبون، يائسون وغاضبون، مستعِدّون لفعل أيِّ شيءٍ من أجل الخروج من المدينة. شعرت بالعار فجأة. بالعار الكبير. مثلما حصل لي في سراييفو حيث اعتقد جيل أنّه فقد جواز سفره، وحيث راح الأصدقاء البوسنيون المحبوسون كالحيوانات في زريبة، ولم يكن لهم، بجوازات سفر، أم من دونها، أيّ حظ في الهروب من الفخّ الذي تحوَّلت إليه المدينة، راحوا يبحثون معنا تحت طاولات المطعم حيث كنّا نتناول غداءنا الأخير، فوجدت أنّه لم يكن مدعاةً للفخر أن نُسارع إلى الاحتيال. فوداعاً يا أصدقائي. مع قبُلاتي. وفّقهم الله، سوف نُسافر مغمومين.

لاحظوا «المؤتمر الصّحفي»، بالضبط قبل الرحيل، في مسرح مصراطة حيث احتشد
ورُبّما ماثتا صحفي محلّي، ومُثقّف، وشخصيات من المدينة. فكيف حُدّد موعده في مد
هاتف، ولا إنترنت، حيث تعيش العائلات النادرة الباقية فيها، محشورةً في الأقبية؟ ،
غير مفهوم. لكنّهم هنا، متيقّظون. مُتأمّلون. سُعَداء، يبدو لي كلّما تذكّرتُ أطروحتي:
وحدَها، من دون مُساعدة خارجية تقريباً، فكّت الخِناق عنها، وغداً سوف تتحرّر
بعدها ليبيا كلّها. لقد علا التصفيق حين قلتُ إن جيش ليبيا الحرّة حاضرٌ هنا، في مص
التي زادها هذا الانتصار العريض صلابةً، الجيش الذي يبحث عنه المُتحالِفون في ب
عبَثاً، حاضرٌ هنا، وسوف يزحف، في الوقت المُناسِب، على طرابلس. وشعرتُ بالحير
نحوٍ غريب، بل تقريباً بالشكّ، عندما حاولتُ أنّ أشرح لهم أنّ فرنسا التي أنقذت بنغ
فرنسا هذه التي لا يتوقّفون عن تحيّاتهم الهادرة بالقول «شكراً يا ساركوزي» لا تُلخَّص
ذلك، بساركوزي؛ لأنّها تتضمّن أغلبية كبيرة من المُعارَضة في السلطة، في عديد من
تُديرها اِمرأة نقلتُ منها، قبل ساعات إلى المجلس المحلّي الانتقالي، المنعقد في اجتماع استث
رسالةً رائعة من التضامن والدّعم.

لاحِظوا عدَم تصديق أعضاء المجلس المحلّي الانتقالي حين قرأتُ عليهم، في وقتٍ
خلال النهار، في مباني المصرف التي تراجعوا إليها بعد إحراق City Hall، بعد أن ،
بالجبس، على عجَل، قاعة الاجتماعات، خمسَ رسائل نصيّة من رولان لي، عُمدة ستراسبو
وعُمدة تولوز بيير كوهن، وجيرار كولومب عُمدة ليون، وبرتران دو لا نويه، وأخيراً
مارتين أوبري ـ وختمتُ، لكي أقطع هتافاتهم بالشُّكر، أنّ إسراع مدينة أوروبية، مُر
وسعيدة، إلى نجدة مصراطة، شرفٌ كبير، بل واجب ومفخرة.

وفي ما يتّصل بالشرف، تثبّت تماماً انفعالي الذي غمرني عندما أعلن لي الرئيس، بعد نق
باللغة العربية التي كدتُ أُسيءُ تفسيره بقدر ما كان يبدو لي أنّه يُقصيني، أنّ المجلِس انتخ
بالإجماع مواطن شرَف في بنغازي. « سأتمكن من التصويت »، قلت له وأنا أتذكّر، عن ،
قصد، كلِمات ميتران على هامش الأرشيف الذي أعددناه في فيلم بوسنة! حيث نرى ردّة فِ
(لكن بنغمة طالما بدت لي زاجِرة، ومُثقَلة بالتهديد على نحوٍ غريب) على قرار تسميته مواط
شرف في سراييفو. فأجابني رئيس المجلِس فوراً، ليس التصويت فقط، بل تستطيع أن تُرشّ
وتُباشِر عمَلاً سياسياً أيضاً ـ فأجبتُ: ـ غير مُمكِن، عليّ أن أُنافِسك، ولن أفعل هذا أبد
فضحِك الجميع.

لاحظوا مرورنا بمستشفى المدينة. وفيض سيارات الإسعاف. والعائلات التي تُحاول الدخول. وازدحام السُلّم. وصمت الأموات المُفاجئ في غرفة الإسعاف، فلا صوت، ولا حركة ماعدا أصوات عجلات الحمّالات، وأنين قادم من سرير في أقصى القاعة، يقطعه نحيب رجُل مقطوع الذراع، وقد ضُمِّد صدره ورأسه بالكامل، وصراخه وحدَه هو الذي يبدو حيّاً. التقط مارك صُوَراً. لا أعرف كيف يفعل. فخرجت، كما فعلت في اجدابيا، كي لا أتجشأ. والطبيب خالد أبو فلاقة، المُرهَق بالعمل، الذي ينقصه كلّ شيء، وبالدرجة الأولى مُسكّنات الألم، والمُخدِّرات، وعلى افتراض توفُّرها في ذلك اليوم، الاثنين 30 أيّار/ مايو، حيث كان هناك ستّون جريحاً جروحهم خطيرة نُقِلوا من الجبهة وأُضيفوا إلى ستة آلاف جريح آخر، وإلى 1600 قتيل في الأسابيع الماضية. «جرحى خطيرون» في مصراطة، أي رؤوس شبه مقطوعة، ووجوه مهروسة، وأجساد مُقطَّعة، وجذوع مبقورة، وعويل.

ثُمّ لاحظوا، أخيراً، سعادتي الخالصة عندما عثرتُ، في قلب الليل، على حجرة مالطة الجافّة، بمظهرها المُبلَّل كأنّها مغموسة بالعرَق.

الثلاثاء 31 أيّار/مايو (حكم الوجوه المُسبَق)

أعدت قراءة ملاحظاتي عن مصراطة. ليس هناك ما يكفي من الوجوه. خرائب كثيرة جداً، وليس هناك كفاية من البشر. هذه هي اللعبة، وبالتالي سأترك كلّ شيء كما هو. غير أنّي حاقد على نفسي. آه يا ليفيناس! و«أودين»! كلِمته الصحيحة كليّاً، وهي بمثابة برنامج، في **رسالته إلى اللورد بايرون**: «المنظر هو بالضبط ديكور للأجساد»... والكلِمة الأخرى في نفس الرُّباعية، أستشهد من الذاكرة، وبالفرنسية ـ وكانت هذه الكلِمة شعاري الدائم: «أعطي سيزان كلّه، كلّ لوحاته عن الطبيعة الصامتة، مقابل لوحة لدومييه أو لِغويا». لكنّي خالفتُ شِعاري.

الثلاثاء 31 أيّار/مايو، تتمّة (رسالة إلى إسرائيل)

بدأ هذا بمكالمة هاتفية غريبة، واحتفالية على نحوٍ غريب.

ثمّ موعد، ليس أقلّ غرابة واحتفاليّة، في بار فُندقٍ كبير ـ مع إنسان ودود وكيِّس بطبيعة الحال، لكنه مُستعار، ومُتصنِّع قليلاً، وبهيئة أكاديمية مُفرِطة، بقفّازاتٍ بيضاء، وقُبّعة.

بدأ مُحدِّثي بالقول: «هذا شيء أردنا أن نقوله لك منذ زمنٍ طويل. ولم نجِد الوقت المُناسِب. وها نحن الآن نجِد الفُرصة المواتيَة. الأمر مُتعلِّق بأصدقائك الإسرائيليّين. بودّنا أن نُمرِّر إليهم رسالة. أوه، ليست رسالة سياسيّة! بل رسالة عامة. إنسانية. رسالة تقول لهم، باختصار، إنّ ليبيا الجديدة لن تُناصِبَهم العداء. ولن نُفرِج، طبعاً، عن شيء من الملفّ الفلسطيني. وسوف نعمد، في النهاية، إلى أن تُحتَرم الحقوق المشروعة لإخوتنا الفلسطينيين. غير أننا سنُقيم علاقاتٍ حضارية، طبيعية، مع جيراننا، كلّ جيراننا، بما فيهم الإسرائيليون. ومن المُهِمّ في نظرنا أن يعلموا بهذا. ومن المُهِمّ أيضاً أن تعلم به أنت أيضاً، يا سيّد برنار ـ هنري ليفي، بصفتك يهودياً فعلتَ الكثير للدفاع عن قضيّتنا ـ وخصوصاً في الأيام الأخيرة في مصراطة...»

طبعاً فاجأتني الخطوة.

تساءلتُ أولاً إن كانت هذه الخطوة مُرتبطة بدفتر ملاحظاتي حيث طرحتُ بالتحديد سؤالاً عن علاقة إسرائيل بالربيع العربي، وعلاقة الربيع العربي بإسرائيل: مُحدِّثي لم يقرأ هذا الدفتر، ولم يسمع أحداً يتحدّث عنه، ولا يبدو أن لرسالته إلى إسرائيل أي رابط به.

قلتُ لنفسي لاحقاً: قد تكون هذه طريقة خرقاء وفاتنة في آنٍ معاً، كي يُعبِّر لي عن عُرفانه بجميلي، وعرفان المجلس الوطني الانتقالي أيضاً، من أجل ما استطعت أن أقوم به، كما قال، للدفاع عن القضية الليبية: لِمَ لا؟ الخطوة لا تنقصها اللباقة، وقد تكون رائعة، ومؤثِّرة، لكنني موقنٌ بأنّ الأمر ليس كذلك أبداً؛ فأنا في نظره فرنسي قبل كلِّ شيء، وصديق ساركوزي، ومُشارك في المسئولية عن زلزال 10 آذار/ مارس ـ طبعاً لا يخفى عليه ارتباطي بإسرائيل،لكنّ هذا يأتي في مرتبة لاحقة.

أحياناً تُراودني فكرة أنّ أصدقائي يبحثون عن مساعدة، وعن مساعدة عسكرية بوجهٍ خاص: لذا طرحت عليه صراحةً السؤال ـ فأين السوء في هذا؟ لكنّه أجابني إجابة لا تقِلّ صراحةً عن سؤالي، أنّهم تلقّوا سلَفاً مُساعدات كثيرة، وصلت أوّلاً من فرنسا، وثانياً من الدول العربية التي دخلت في التحالُف. والمشكلة، من الآن وصاعداً، ليست في إيجاد مصدر جديد للمساعدة، بل في أن تصل المُساعدات الجاهزة للإرسال، مثلاً إلى مصراطة، والزاوية، وغاريان، إلى هذه المدُن المُحاصرة الشهيدة.

لا.

أعتقد أنّ هذه الخطوة تريد فقط أن تقول إنّ ليبيا حين تتحرّر ستكون بلَداً طبيعياً.

الرسالة هي أنّ ليبيا ستصير بلَداً مُعتدِلاً، وتلتحق بمحور البلاد العربية الأخرى المعتدلة التي تُكافح ضدّ كلّ أشكال الإرهاب والتطرُّف.

ولئن كانت ثمّة رسالة تحت الرسالة، فهي الآتية: ينبغي عدم الإصغاء إلى ما يُحكى، وإلى ما يحكيه القذّافي خاصة، عن النزعة الإسلامية في برقة.

طلبتُ من المبعوث درجة استعجال الرسالة.

سألته إن كان عليّ وحدي أن أنقلها أو إن كان يودُّ أن ينقلها معي.

وإذا قدّمتُ له مسوِّغاً، فهل يظنُّ أنّ هذا يستحقّ أن أقوم برحلة خاصّة أم أنّ بإمكاني أن أستغِلّ هذه الفرصة أم تلك؟

قال لي باختصار، لا أعرف. أترك هذا لفطنتك.

ولّما قلتُ له إنّ عليّ أن أكون في إسرائيل غداً، على أية حال، للحديث مع رئيسة المُعارضة، تسفني ليفني، وبما أن موضوع الحديث سيكون بالتحديد «على إسرائيل أن تخاف من الثورات العربية»، فبإمكاني أن أستغِلّ الفرصة وأذهب، على عجل، لرؤية المسئولين هناك، أجابني: «هذا مُناسِب، ولا نستطيع أن نفعل أفضل من ذلك في الواقع، فافعل ما يحلو لك».

سأفعل هذا. سأستغِل فرصة حديثي مع ليفني، وأذهب لرؤية باراك، ونتنياهو إذا كان مُتواجداً في القدس.

تركتُ هذا الرجل، مُتأثّراً بالتفاتته التي هزّت أعماق مشاعري: فها أنا، الذي لم أتوقّف لحظةً، منذ ثلاثين عاماً، عن الحلُم بسلام القلوب بين أبناء إبراهيم، يُفوِّضني حاكم عربي، للمرّة الأولى، كي أذهب لأقول كذلك، على الطرف الآخر، لم يعُد الحقد قدَراً محتوماً.

الأربعاء 1 حزيران/يونيو (مُكالَمة من نيكولا ساركوزي)

الانطلاق إلى تل أبيب.

في الطريق إلى مطار شارل دو غول، اتّصل بي الرئيس. إنّها لحظة التخوُّف التي تُلِمّ بي كالعادة، الخشية من أن يتصل ليُعلِن لي، أو يجعلني أفهم، أنّ هذا طويل للغاية، ومُكلِف جدّاً، وورطة، ومشكلات كثيرة ـ إنّه وقتُ عدم التراجُع بالضبط، ولا القتال مع التراجُع، بل وقت إيجاد مخرَج، بإنقاذ ماء الوجه، الخ.

لكنْ لا. ربّما أنّه سمع فقط بمُداخلتي، أمس مساء، في برنامج روت ايلكريف على BFM - حيث وجّهتُ للرئيس ساركوزي، في آخر البرنامج، سؤالاً من طرف القائد العام لجبهة عبد الرؤوف: «أين المروحيّات؟» لأنّه أعلن لي من دون مُقدّمات:

- تمّ الأمر، فالمروحيّات التي تحدّثنا عنها في آخر لقاء، صارت هناك...

- في الساعة المُناسِبة! لكنْ لماذا أخذت كلّ هذا الوقت؟ فالناس في مصراطة لا يفهمون السبب. وليس على أفواه المُقاتلين على الجبهة إلا جملة واحدة...

لم يُتركني أُكمِل.

- كان يجب انتظار البريطانيّين. كان في طيّاراتهم بعض المشاكل التقنيّة. ونحن لم نُرِد أن نبدأ من دونهم.

...! كنت أتخيّل، على العكس، مُنافسة شريفة ستسبقهم فيها فرنسا. والتفاهُم واجب من أجل خير الليبيين.

- أنا بالتأكيد لا أفعل هذا. فأنا وكاميرون نعمل يداً بيد. منذ البداية يداً بيد. ولن أغيّر رأيي اليوم. ثُمّ...

لن أحلِف بأنه كان صادقاً في تلك اللحظة.

... ثُمَّ إنّ هذه التسريبات الصحفية... لم تخدِمنا، يجب أن نقول ذلك.

وبالفعل رأيت قبل عدّة أيّام مقالة ضخمة، في جريدة الفيغارو، دقيقة للغاية، ومُستعلِمة جداً. فهل يوحي لي بأنني قد أكون وراء إفشاء السِرّ؟

- رأيتُ هذا، نعم. غير أنّ هذه التسريبات جاءت من الإليزيه! قلتُ لنفسي...

فأوقفني بسرعة، وقال:

- لا، من وزارة الدفاع. خرجت التسريبات من وزارة الدفاع.

- هذا لا يُدهشني كثيراً. لأنّ لونغيه ضدّ التدخُّل منذ البداية.

لم يُجِب بشيء. مثلما فعل في أوّل يوم اثنين حين حدّثتُه عن جوبّيه، إذ أصمّ أُذنَه. فكرّرت:

- هذا مُزعجٌ لوزير. ولكنني واثِق بأنه كان ضدّ التدخُّل.

غيّر الموضوع، طالباً منّي متى أستطيع المجيء كي أحكي له ما رأيته في مصراطة. ولمّا قلتُ له إنّ الوقت ليس مُناسباً بحكم أنني مُنطلِق إلى تل أبيب حيث سأسعى لإقناع الإسرائيليين بأن يُظهروا أنّهم أقلّ وجَلاً ممّا يحدث في ليبيا، سخِر قائلاً:

ـ هذه مُبادرة طيّبة، ولكنْ...

ـ نعم؟

ـ... فقط يجب أن تعلَم أن جوبّيه سيكون في إسرائيل في الوقت نفسه. اتَّصِل بي عند عودتك.

بالتأكيد.

الخميس 2 حزيران/يونيو (عاصفة في تل أبيب)

كيف أمكن أن أرتكِب خطأ كهذا؟

ومن باب آخر أقول: هل هو حقّاً خطأ؟

1. الساعة السابعة والنصف. كنت صاعداً، في السيارة، من تل أبيب إلى القدس حيث كان عندي موعد، بعد ساعة، مع بنيامين نتنياهو. الضوء ساطع، لونه ذهبي. هذه الصباحات على جبال الجليل، حيث تكوَّن لديّ دوماً انطباع، وقد أضناني الليل، أنّ هذه المناظر تنتفِض وتبدأ بالابتهاج. كانت تُرافقني آنيت ليفي ـ فيلار. طلبتُ منها أن تنسى، خلال عدّة ساعات، أنّها مُستشارة في سفارة فرنسا، وأن تبقى فقط مُتنبِّهة معي، إلى القصّة الاستثنائية الرائعة لهؤلاء الثائرين العرب الذين قطعوا مع أبالسة الماضي، وفي هذه الحال، مع مُعاداة الساميّة. ولكي أكون مُتأكِّداً تماماً من قضيّتي، اتصلتُ، أمامها، بزائري في ذلك اليوم. كان مُكبِّر الصوت في هاتفي المحمول شغّالاً كي أتمكّن، في الوقت الذي يُردِّد لي كلامه حين وسّطني لإيصال رسالة إلى إسرائيل، من تدوينه على جهازي. تتضمّن هذه الرسالة ثلاث نقاط جوهريّة أُسجِّلها هنا بأمانة. النقطة الأولى: «ليس على إسرائيل أن تخاف شيئاً ممّا يحدث حالياً في ليبيا». والنقطة الثانية: «النظام الذي سيحلّ محلّ نظام القذّافي سيكون نظاماً مُعتدِلاً، قائماً على احترام حقوق الإنسان، وعلى الكفاح ضدّ الإرهاب والعُنْف». والنقطة الثالثة: «سوف يعترف بحقّ كلّ شعب أن يعيش في سلام، وأمن؛ وأوّلها إخوتنا الفلسطينيون الذين لا يُمكِن المساومة على حقّهم في إقامة دولة؛ وكذلك حق الجيران، الجيران كلّهم من دون استثناء». هذا بسيط، ولكنّه صريح. هذا مُتواضِع لكنّه واضح. وأنا سعيد حقاً بكوني حامل هذه الرسالة. لا، فالليبيون الأحرار ليسوا أولئك الإسلاميين الذين يصفونهم لنا هنا وهناك. نعم، كان معنا حقّ بأن نثِق، من اليوم الأوّل، بهؤلاء الديمقراطيين الجدُد.

2. شارع كابلان. الحيُّ الذي يسكن فيه رئيس الوزراء. حشْدٌ من النساء المُجنَّدات المُنشغلات في الحُجرات المجاورة. رئيس الوزراء، كما يُقال هنا، خلافاً لعادته، في موعده المُحدّد. وجدتُه قد نَحُف. سحنته غضّة. وباقي سماكة الاكتناز لم يُمتَصّ، بل توزّع في الوجه على نحوٍ يدعو إلى الظنّ أنّه استعاد، في النهاية، وجهه الطبيعي. بالإضافة إلى مرح الرجل العائد من واشنطن بعد أن منحه مجلس النوّاب الأميركي، على ما بدا، ستة وعشرين وقفة تصفيقٍ حماسيّ. تحدّثنا أوّلاً عن السلام. انطباع رهيب من أننا نُكرِّر نفس الحديث بالضبط، مع نفس الثوابت، نفس المُعطَيات، نفس الاعتراضات من الجهتَين، منذ أكثر من أربعين عاماً. اقترحت من جانبي ألف مرّة بإلقاء خطاب عظيم «تاريخيّ» حيث يقوم رئيس الوزراء الإسرائيلي (نتنياهو اليوم، لكن أمس بيغن، وشامير، ورابين، وباراك، وأولمرت - إنّه رئيس وزراء بأسماء مُتعدّدة، اسم سياسي مُستعار، شعرت في تلك اللحظة أنني أتوجّه إليه) في النهاية، بصياغة عرضِه للسلام على الفلسطينيّين بطريقة ليست واضحة وحسب، بل إيجابية أيضاً. نفس المصلحة لرئيس الوزراء، ولِمُراقبه الذي يجلس إلى جانبه، والذي يدعوه خفيةً، كالعادة لكي يُدوِّن محضر الجلسة (هو شاب، عمره أقلّ من أربعين سنة - لكن، هنا أيضاً، تصادُم كل أشباح المُرافقين الذين رأيتهم يأخذون نفس الملاحظات التي لديهم، وبالطريقة ذاتها، وكما سيفعل هذا المُرافق، حيث ستُدرَج في المحفوظات فور افتراقنا). اليقين نفسه للأسف بأنّ هذه المحاضِر كلّها لن تُفيد في شيء، في أيِّ شيء قطعاً (لأنّ نتنياهو، مثل الآخرين، سوف يُجانِب قدره، ولن يجِد لا الكلمات ولا الإيماءات، وسوف يُتابع، من دون تأثُّر، الإعلان عن برامجه «للتسوية»، والاحتفاظ «بحواجز التفتيش» في «الأراضي»، وتكرار أنّ «الضفة الغربية»، وكأنها هي المشكلة، تشهد نموّاً اقتصادياً استثنائياً). ثُمّ أخيراً، الرسالة التي وجدتُ الوقت لأترجمها إلى اللغة الإنجليزية، وقرأتها على جهاز هاتفي ببطء، وتمهُّل، مُتحقِّقاً بدقة، في نهاية كلّ نقطة من النقاط الثلاث، من أن رئيس الوزراء فهِمني جيِّداً - والحقيقة أنّه كان يسمع، مُبتسِماً ابتسامة عرَضية في البداية، ثُمّ بفُضول، ثمّ بمُفاجأة أستاذ قديم في الحديث المُسجّل مُسبقاً، وتسلسُل الأفكار المُجهَّز قبلاً، يجِد نفسه في مواجهة إشكال غريب، وحتى مُستجِدّ، كان التعبير عنه يعوم بيننا نحن الاثنين.

قال بعد صمتٍ طويل: «أتصوّر أنّ هذه الرسالة ليست قابلة للنشر؟ - ليس على الخصوص، لا...». كان لا بُدّ من أن أُبدي بعض التردُّد قبل أن أقول: «ليس على

الخصوص». لأنّه ألحّ بالقول: «لا، لا ينبغي نشرها؛ من أجلهم، لا داعي، بإمكاننا أن نساعدهم، طبعاً، لكنّ الإعلان عن ذلك سيُسيء إليهم». وكي أكون نزيهاً، كِدتُ في تلك اللحظة أستشعر، وأُظهِر بعضاً من نفاد الصبر إزاء هذه النظرية التي يُسلِّم بها العالَمُ كلّه، بدءاً بأصحاب الشأن أنفسهم، والتي مفادُها أنّ صوت الإسرائيليين، ودعمهم، وصداقتهم، من الأشياء المَعِيبة التي لا يُباح بها، وينبغي إخفاؤها. فكّرت: هذا مُماثِل تماماً لما يحصل في جمارك المطار، حين نصِل إلى مطار تل أبيب، وتأتي الشرطية الشرّيرة التي طرحت عليك، بلا مُقدّمات، ألف سؤال وسؤال مُحرِج (لماذا هذه الزيارة؟ هل لك عائلة في إسرائيل؟ أصدقاء؟ مُحِبُّون؟ هل جهّزت حقيبتَك وحدك؟ لا أحد دسَّ لك فيها شيئاً؟) ثُمّ تخفِض صوتها، تجعله متواضعاً ومؤثّراً، وتطرح عليك السؤال الأخير: «هل يُمكِن أن أختم جوازَ سفرِك؟» - لَطالما وجدتُ هذا باعثاً على الأسى! كم يرمز إلى أشياء، وكم هو مُحزِن! لكنْ لا. ابتلعتُ من جديد حُزني المُمكِن. وأجبتُ نتنياهو: «في الحقيقة الليبيُّون لا ينتظرون شيئاً، لكنّ العالَمَ، في هذا الظرف، ينتظر شيئاً ما من إسرائيل؛ إذ لا يُمكِن أن تظلُّوا هكذا في هذا الوضع المُتشنِّج، خائفين. ولا تستطيعون أن تكتفوا بالقول، أو بترك الآخرين يقولون، إنّه كان في عالَم الأمس أناسٌ أخيار، وإنكم تأسفون على زمن حسني مبارك، فأمامكم الآن شعوب، ليست شعوباً لا تهمُّكم؛ فهي جارتكم التي تدقّ باب ديمقراطية قدّمتُم نموذجاً عنها - لا تستطيعون أن تُغلِقوا الباب في وجوهها، ومن واجبِكم أن تُصافحوا اليدَ الممدودة إليكم». كان نتنياهو يسمع. وبدا مُنزعجاً، ومُرتبِكاً. أهكذا تكون ردّة فعل إنسان ذكي على معلومة جديدة تدعو إلى ردود فِعل مُختلِفة عن تلك الردود الناتجة عن نقاشات مُعدّة مسبقاً؟ انتهى إلى القول وكأنّه يُثبِّت قدمَيه على أرض صُلبة: «سأستقبل جوبّيه بعد قليل. - أعرِف. - أليس في لقائه فُرصة لأقول شيئاً مّا؟ - بالفعل هذه فرصة، هنّئ نفسك بالموقف الفرنسي، وبمبادرة ساركوزي؛ وبذلك تُكذّب بالفعل فكرة أنّ إسرائيل تخاف من هذه الثورة. - قال في النهاية: فهِمت... فهِمت...». وبعد ذلك حوّل الحديث - مثلما فعلتْ لاحقاً، جبهة باراك ليفني، وكل الإسرائيليين الذين تحدّثت معهم من دون استثناء - إلى موضوع دومينيك ستروس - كان الذي يفتنه أكثر بكثير ممّا يُذهِله. انتهت المُقابلة. رافقني إلى غرفة الانتظار بكياسة. فبقي معي رئيس المكتب، الذي قال له نتنياهو بعض الكلِمات بالعبرية، عشر دقائق، في مكتبه الخاص المُتصِل بمكتب رئيسه، من أجل كشف السبُل لنشر البيان الصحفي الذي سوف يُعلَن هذا المساء، الساعة السادسة مساء، بعد زيارة ألان جوبّيه.

3. الساعة الحادية عشرة والنصف. شرفة فندق الملك داوّد مع السفير الفرنسي كريستوف بيغو. تلقّيت رسالة نصيّة من رئيس مكتب نتنياهو الذي لا يعرِف بعدُ إن كان سيصدر بيان مشترَك، أم بيان إسرائيلي فقط، ولا حتى إن كان مجرى اللقاء سيأخذ الجميع باتجاه سبُل جديدة ـ لكنّه، في جو من الشكّ، يُرسِل لي، مع ذلك، مشروعاً. يتضمّن هذا المشروع (الذي سيكون، في النهاية، البيان الذي سيُعلَن، بعد قليل في السادسة مساء، بعد بدء اللقاء) أربع نقاط تعكِس بأمانة روح لقائنا، وما قُلناه لاحقاً، خلال العشر دقائق الأخيرة. 1. هنأ رئيس الوزراء ألآن جوبّيه على قرار الرئيس الفرنسي ساركوزي في التحرُّك في ليبيا. 2. سمحت هذه المُبادرة بتجنُّب مجزرة بحق الأبرياء وبعثت برسالة قويّة إلى العالَم. 3. للقذّافي تاريخ طويل في دعم الإرهاب الدولي، وفي ممارسة العنف ضدّ شعبه، ولم يُبدِ أبداً مشاعر الصداقة إزاء إسرائيل، والشعب اليهودي؛ لذا لن تأسف إسرائيل على رحيل القذّافي في أيّة حال من الأحوال (Israel will certainly not be sorry). 4. ترجو إسرائيل أن تعمل الحكومة الجديدة، بعد رحيل القذّافي، على دفع عملية السلام، وتحقيق الأمن لكلّ شعوب المنطقة. ثُمَّ الحاشية الآتية: «هذا الصباح، التقى رئيس الوزراء ببرنار ـ هنري ليفي الذي جاء إلى إسرائيل من المدينة الليبية المُحاصَرة مصراطة». كان من المُمكن أن أستغني عن الحاشية، لكنّ الباقي يُلائمني. بل سأقول إنني مبسوط. وفي النهاية، حاكِم إسرائيلي (لا يهمّ إن كان بنيامين نتنياهو) يعلَم بتحوّلات العالَم العربي ليسعد بها! ويرى أخيراً، تكذيب الإشاعة اللئيمة، تكذيبها الرسمي حقّا، الإشاعة المُنتشرة في كل مكان، التي سمعتُها، أوّل مرّة، من فَمِ محمود جبريل، في باريس، مساء اليوم الذي التقى فيه مع كلينتون، والتي تتحدّث عن العلاقات السريّة بين القذّافي وإسرائيل! رُبّما قدّمتُ رحلتي هذه الفائدة. أو أنّها على الأقلّ أزالت سوء التفاهُم المُقزِّز. وأسعدني أنني قرأت للسفير بيغو، على الرغم من الحذر، والمهارة التي أذهلتني حين استعدتُها في ذاكرتي، الرسالة النصيّة التي وصلتني.

4. الساعة الحادية عشرة والنصف. ودوماً في فندق الملك داوّد. ودوماً مع السفير بيغو. ودوماً الجوّ نفسه ـ الخاص، في نظري، بهذا المكان ـ من الشمس والعُطلة. ما الذي حصل؟ ومن أين يُمكِن أن يكون التسريب قد جاء؟ ثمّة ثلاثة مصادر مُمكِنة. ساركوزي الذي نبّهتُه منذ أمس، عبر الهاتف، من مطار شارل دوغول: لكنّي لا أتوقّع أن يتّبع الإليزيه معي هذه العادة السيّئة. ولا نتنياهو قطعاً: لكنْ هناك عَرَض الجُمركية وعقدة جواز السَّفر غير المختوم ـ

ولا أتوقّع أنه فشا السِرّ الذي طالبني بحفظه. وأخيراً جوبّيه الذي عِلم حتماً بأنني سبقته إلى نتنياهو، وسوف أسبقه، بعد قليل، إلى يهود باراك في وزارة الدفاع: لا أتوقّع أنّه هو، إذ لا أعتقد أنه يفعل هذا...كبرياؤه لا تسمح له بذلك...لكنْ هل من غير المعقول أن يكون أحد من وزارته، في «الوفد»، قد قال في نفسه لقد طفح الكيل، ولا يُمكِن لوزارة الخارجية أن تقضي وقتها في جعل قنّاص يتجاوزها ـ وهل من غير المُتخيَّل أن يكون سِرٌّ هُمِس في أُذن أحد الصحفيّين في فوضى موكِب رسميّ، قد صبَّ الزيتَ على النار؟ ومع هذا رنّ هاتفي. كان على الطرف الآخر من الخط صحفي باغتَني ولم يترك لي الوقت كي آخُذ إجراءات احتياطي المُعتادة (نتكلّم...أفٌ...أتكلّم معك لكن لم نتكلّم... معلومة، نعم، استشهاد لا...). «يا سيّد، هل بإمكانك تأكيد أنّك التقيت بنتنياهو؟ ـ نعم، بالتأكيد، هذا صحيح. ـ وأنّك حملتَ رسالة من المجلس الوطني الانتقالي الليبي؟ ـ من المجلِس الوطني الانتقالي نفسه، لا، بالتأكيد، ورسالة، يجب ألاّ نُضخِّم المسألة، نقلت رسالة شفهيّة فقط. ـ لكنّها تُفيد بأنّ الليبيّين حين يستلمون السلطة، سيلتزمون بالاعتراف بإسرائيل؟ ـ كم أنت مُندفِع! أقول لك، هذه مُجرّد رسالة بسيطة، حيث حُدِّد فيها أوّلاً أن القضيّة الفلسطينية ليست قابلة للمُساومة، لكنّها تقول أيضاً إن الارتباط بقضيةٍ شقيقة لا يمنع إقامة علاقات طبيعية، في الوقت المناسِب، مع البلدان الديمقراطية، وبالتالي مع إسرائيل. ـ شكراً أيّها السيد، إلى اللقاء». وبالمُقابل، بعد ثلاثين دقيقة، يقع خبر عاجل ينقل بأمانة تامّة ما قلتُه لكنّ المعلومة الأساسية هي وجود هذه الرسالة التي نقلها إلى نتنياهو الكاتب الفرنسي الذي، الخ.

5. في اللحظة الراهنة، كان كلُّ شيء على ما يُرام. إذ لم يتكرّر الخبر إلا قليلاً. ولم تخطر على بالي إمكانية أنني ارتكبتُ عملاً أخرق. أجريت نقاشي مع ليفني في جامعة تل أبيب، من دون أن أُفكر في هذا الموضوع أكثر من ذلك (حتى هي ذاتها، لم تُفكِّر إلا بشيء واحد: إزالة الاعتراض الذي يبدو أنّ جماعة الحركة النسائية الإسرائيلية رفعته في وجهها ـ قضية ستروس ـ كان... إذ كيف يُمكِنها، هي مُمثّلة شرف نساء إسرائيل، أن تتناقَش مع كاتب كان قد دافع توّاً، في جريدة هآرتز، عن ستروس ـ كان؟). قضيتُ ساعة مع باراك، في مكتبه في وزارة الدفاع، أشرح له الرسالة، وجرْد قائمة الأسلحة التي لا يطلبُها الليبيون صراحةً، لكنّ إسرائيل، في رأيي، يُمكِن أن تُزوّدهم بها، ثُمَّ (وكان لهذا مظهر الرِهان، ولكنّه هكذا) وأُعيد التذكير بالقضية الحقيقية التي أشعر جيّداً أنّه يتحرَّق، بدوره، ومنذ اللحظة الأولى، للتطرُّق إليها

وهي... قضية ستروس ـ كان. وليس إلا هنا، وقبل ساعة، يأتيني اتصال من زائري في ذلك اليوم، من لندن، يحثني على تقدير الأضرار. إذ تلقى عدّة اتصالات. وحوالى مائة رسالة إلكترونية، ونصيّة. الصحافة العربية تُزمجر. وأجواء المُدوّنات تسخن. والشارع في بنغازي يطلب توضيحات. حتى النساء الشابّات اللواتي تناقشت معهُنّ في 9 نيسان/أبريل، في تيبستي، جئنَ، في وفد، لمُقابلة أعضاء المجلس الوطني الانتقالي قائلات: «أبونا الذي في فرنسا...اتصلوا، نتوسّل إليكم، بأبينا الذي في فرنسا... كيف هذا؟ قلتُ: مَن يكون هذا الـ «أبونا»؟ ـ أنت، طبعاً، أنت يا برنار؛ فهؤلاء الفتَيات يرَين أنّك كواحدٍ منّا، وبالتالي كأبيهِنّ تقريباً، ولا يستطِعنَ تخيُّل أنّك يُمكن أن تفعل هذا، أن تقول هذا... لكنْ ما هذا الـ «هذا»؟ التفاتة السلام هذه؟ كلِمات المصالحة هذه؟ وفي النهاية، هذا الدليل على أنّكم لستم أولئك الإسلاميّين الذين باعوا أنفسهم للقاعدة، الذين يُصوِّرهم الأوغاد؟». الحقيقة أنني أعزِف بسرعة، عن النقاش. إذ شعرتُ أنّ الأحداث تخطّت رسالتي ذاتَها. وليس لي من خيارٍ آخر غير أن أتحمّل أعباء البيان الآخر، بيان غوقة الذي سيُجبَر على إعلانه، والذي سيُنكِر وجود رسالة من المجلس الوطني الانتقالي. غوقة... أوّل أوائل الذين التقيت بهم في بنغازي... هذا الذي يسّر لقائي بعبد الجليل... الرجُل الذي أجرى أوّل اتصال هاتفي بساركوزي، والرجل الذي نظّم زيارة أوّل ثلاثة موفَدين من المجلس الوطني الانتقالي إلى باريس... يا للْخسارة!

6. منتصف الليل. أنا في غرفتي في فندق هلتون. إذا قمتُ بتوضيح القضية، أستخلِص درسَين. أو حتى ثلاثة. سذاجتي أوّلاً: ينبغي أن يبقى لي منها بعض الشيء؛ فالإستراتيجية لا يُمكِن أن تحتلّ دوماً، وفي كلّ مكان، مركز القيادة؛ حسناً، هو ذا نصيبي من الحياء؛ هذا أخرق، لكن أنا هكذا؛ وماذا بمقدوري أن أفعل في هذا؟ وثانياً، حقيقة أننا عبَثاً قُلنا، وعبثاً فعلنا، واعتقدنا، وأردنا الاعتقاد ـ وعبثاً راهنّا على ذكاء الناس، ووضوحهم، وعقلهم: فهذا الاسم، إسرائيل، لا ينفكّ يعني مُرادِف العار، نفس عامل الفضيحة في الأرض العربية: تقول إسرائيل؛ تكبس زرّ نتنياهو (لكنّ نتنياهو هذا لايعني شيئاً، فهو اسم آخر لإسرائيل)، تكبس على الزرّ السحري، أو على الأدقّ، الزرّ الشيطاني، فتصير على الفور من جهة العفريت، فأنت العفريت المُشخَّص، فهذا تسونامي أخلاقي، نحس، إنّه الشرّ المُطلَق ـ وهنا أيضاً، لاشيء نفعلُه. ثُمّ خبر عن هؤلاء الأصدقاء الذين اخترتهم لنفسي، هذا الشعب الذي وهبت نفسي له ـ خبر عن هؤلاء الليبيين الذين تبنّيتُ قضيّتهم بكثير من الحماسة: هم أبطال طبعاً،

ومتنوِّرون، من دون شكّ، لكن فعلت بقدر ما استطعت؟ ألم أحسَب رغباتي، على غير عادتي، واقعاً؟ ألم أُقلّل من شأن الرواسب الباقية في الرؤوس من عقود من حشو الأدمغة القذّافية؟ أم أنّني (وهذا يعود إلى الأمر نفسه) بالغت في تقدير مقدِرتي الخاصّة على قسْر نظام الأشياء وتحدِّيه ـ هذه القوّة التي لامني عليها لانزمان، وبعد أنّ قادتني إلى انتهاك المُستشاريّات، والتقدّم على المستشارين العسكريين، وتحدّي قوانين الجاذبية السياسية، والجيو سياسية، رُبّما غذّت وهم انتهاك وعي الناس؟ فات الأوان. أنا مُكبّل. قال مارلو عن لورانس في كتابه عفريتُ المُطلَق: «كان في جُهدِ سيزيف الذي بذله للارتباط بالعرب، الجزء المُقلِق من سيزيف الذي تجتمع فيه المصائر المأساوية». وهذا أيضاً ـ إذ أبدِّل الاتّجاه بالكاد: أعتقد نفسي «عميل المصير» وإذ استقبله أصدقاؤه الخاصُّون، بوصفه «عميل الصهيونية» (مالرو لا يقول «عميل الصهيونية» بل «عميل وزارة الخارجية»...) ـ يا لَلسُّخرية، ويا للحزن.

الأحد 5 حزيران/ يونيو (وماذا بشأن سورية؟)

أتت لمى أتاسي مع برنارد شلشا لتراني. كانت قادمة من تجمُّع كبير لمعارضين سوريين في مدينة أنطاليا التركية. حكت لي عن القوى التي كانت هناك: الأكراد؛ والقبائل التي سلّحها السعوديّون، والممولون الكبار في البلد وهم يشكلون حزباً خاصّاً بهم ؛ ثُمّ من تسميهم الثوار، أي الليبراليون والديمقراطيون الذين يجب تقويتهم أكثر من أي وقت مضى. أنا، في نظرها، السيد ليبيا، الرجل الذي ساعد في تحرك بلده ثُمّ العالم لأجل ليبيا، وهي تحلم أن تراني أستنسخ الشيء نفسه في سورية. كان من المؤلم القول لها إنّ التاريخ لا يُعيد نفسه إلا نادراً، والاحتمال ضعيف جداً بإيجاد نفس الكوكبة من الأشخاص، والظروف، أو من الخِلافات، والضرورات. ولكن، في المحصلة، لا ندري.

الاثنين 6 حزيران/يونيو (اقتراح للرئيس، تسليح مصراطة)

الإليزيه. الساعة الثانية عشرة والنصف، صف من سائقي الدراجات النارية، على الرصيف. الحرس الجمهوري. سيارات سوداء في ساحة الشرف، بأعداد كبيرة، نحِسُّ أنها، هي أيضاً، على وشك الانطلاق. «تقديم أوراق اعتماد عدد من السفراء» شرح لي الحاجب الذي رافقني حتى الدرج. جان دافيد ليفيت ينتظرني، تأخر الرئيس عشر دقائق. كما يحدث

عادة في مثل هذه المواقف، اعتذار مع مجاملة فيها القليل من المبالغة، «أحضرت هذا»، قلت دون مقدمات، ماداً له صوراً من مصراطة، التقطها من أجله مارك روسيل.

ـ لا، أشار بغرابة، وهو يأخذ الصور مني، كان يقوم بحركة مفادها أن يبعدني معتقداً أنني سأجلس قريباً منه على أريكته. كلا، سوف أتأمّلها بهدوء.

وفي الواقع كان مُستغرِقاً في تأملات مديدة في كليشيهات وملصقات، مجموعها خمسة، أغلبها تُظهِر المدينة مُقفرة، والصورة الأخيرة التي تهمه أكثر، تظهر جموع المقاتلين، على جبهة عبد الرؤوف، في أعلى الكثيب الرملي، تُلوِّح بالعلم الفرنسي، بينما كنت «أنا أرفع علماً ليبياً».

قال: «هذا رائع»....

رنَّ هاتف على مكتبه. رد، ولكنه عندما عاد، تأمّل نفس الصورة وبنفس الحمية كأنه شرَد أمام تلك الصورة لليبيين أحرار، يجدون أنفسهم مع علمٍ لم يحظ بذلك الشرف في فرنسا إلا فيما ندر.

ردد مرّة أخرى: هذا رائع... حقاً رائع ...

ـ انتقلنا إلى السرعة الأعلى. قصفنا برقة».

ـ رأيت ذلك بالطبع.

ـ أغلب الطلعات تكون في الليل، لتصعيد الأثر الصاعق.

تذكّر الكليشة وينظر من جديد إليها.

ـ لا أدري ما رأي الناس هناك، ولكن يجب أن يكون لضربات تلك الأيام الأخيرة نتيجة ما على الأقل...

رفع إصبعه والصورة ما تزال في يده، وابتسم ـ كما لو أنه طرح سؤالاً عويصاً.

ـ قليل من الجهد أيضاً وسيكون أصدقاؤنا على مشارف راس لانوف. والحال أننا إذ نقول راس لانوف فمعنى ذلك المصبات النفطية. ومن يقول مصبات نفطية فهذا يعني تعود الثروة الوطنية إلى مالكيها الحقيقيّين.

وضع الصورة، على مضض.

ـ ... يستطيع الليبيون أن يبدؤوا أخيراً، رغبتهم العميقة، بتمويل جهودهم الحربية ذاتياً. لأننا مع ذلك أعددناهم، لهذا اليوم...

التفت من جديد إلى ليفيت، الذي يبدو أنه أومأ له بإشارة لم ألتقطها؛ لأنه بدا أنّه يستأنف حديثه بالقول.

ـ أرسِل 40 طناً من الأسلحة لبربر جبل نفوسة، من البلدان العربية الصديقة، بعد زيارة يونس لباريس. نعم، 40 طناً فقط في الأسابيع القليلة الماضية. هذا كمّ هائل.

أنا لا أنخدع بتعبير «البلدان العربية الصديقة». غير أني لا أكشف ذلك. وخصوصاً أنّه كان يتابع ـ بنبرة الرجل الذي لم يفعل شيئاً خارقاً، والذي يسعد فقط لأنه منسجم مع نفسه:

ـ هذا ما قلناه دائماً. وقد وفينا بعهودنا، إلا أنّ...

قطّب حاجبيه.

ـ إلاّ أنّ... الوعد شيء. فقد كنا كثيرين يوم الوعد. ولكن عندما جاء وقت إيفاء الوعد، فليس من باب المصادفة ألا يبقى إلا القلائل. نعم، إنها مشكلة. نحن وحدنا، القذّافي يعرف ذلك. و...

كما في كلّ مرّة، اجتاحتني فكرة، أنّه سيُعبّر لي عن أنّه وحيد جداً، وأنّ هذا الحِمْل ثقيل، وأنّ فرنسا وصلت إلى حافة ما يمكن أن تفعله لوحدها، كذا، وكذا، وكذا... ـ يجب أن أنتبه، إذ إنّ ليبيا دوّختني، وأنا على وشَك أن أصبح مهووساً بها.

ـ ... مع ذلك يجب أن يفهم هذا النظام، في النهاية، أننا جادُّون».

قلت مرتاحاً: ألأنّه لم يفهم ذلك بعد؟

ـ ليس مؤكداً، لا. يعتقد أن الوقت لصالحه، وبأننا سنمل وننهك، وبأن التحالف سينفرط عقده.

ـ أوَ ليست الحال كذلك؟

هذه المرّة هو الذي انتفض.

ـ بالطبع، لا!

بعد ذلك: كما لو أنني هفوتُ هفوةً كبيرة:

ـ التقيتُ منذ ساعات مدير مكتبه.

ـ هنا؟

ـ نعم، هنا. أخيراً في باريس.

ـ بشكل سري؟

ـ بالتأكيد، استمر اللقاء عشر دقائق تماماً.

قلت له: تذكروا غباغبو، لقد عرضنا عليه فيللا في أبيدجان، واقترحنا أن نُعيد له أملاكه غير المسروقة، مع حمايته من اتهام المحكمة الجنائية الدوليّة؛ لم يشأ أن يفهم، انظر أين هو الآن...

خطرت ببالي فكرة أنّ من الغريب في النهاية أن يتصوَّر كل العالم، ابتداءً بنفسي، بسهولة فكرة مجرم ضد الإنسانية وجزّار، يمكن أن يفلت من العدالة، وأن تبيّض صفحته، بشرط أن يكون مُتعاوناً، فهل نفعل ذلك مع مجرم عادي في نظر الحق العام؟ فهل يُمكِن أن نقبل بإهداء منفىً ذهبي لقاتل مُتمرِّس لو تعهّد بألا يقتل مستقبلاً؟ بالتأكيد لا؟

ـ إذاً بشير صالح؟

ـ أرجو أن يكون قد فهم، وأن يتجرأ، بمجرد عودته، أن يوضح ما فهمه.

هذه المرة، هاتفه هو الذي رنَّ. ردّ بصوت شديد الخفوت، واضعاً يديه أمام شفتيه، دام ذلك قليلاً، ولكنني استغلّيتُ الفرصة لأتطرّق إلى موضوع زيارتي الحقيقي.

ـ أعتقد أنّ هناك، على الرغم من كلّ شيء، عنصراً لا يتساوق مع الإستراتيجية.

ـ وكيف ذلك؟

استمع إلي بشرود ـ من المحتمل أن المكالمة الهاتفية ما زالت تشغل ذهنه.

ـ هناك أشياء... لطالما عرفناهم: رؤيتهم تُغيِّر كلّ شيء...

ـ نعم...

ـ هنا مثلاً، تلك السفرة إلى مصراطة... التي كان لها، في نظري، وقعَ الوحي. منذ شهرين، أليس كذلك، والعالم كلّه قلق، لمعرفة سبَب عدَم تقدُّم المجلس الانتقالي؟

تناول الصورة من جديد عن الطاولة، وتأمَّلها بدقة. توقَّف ليفيت عن الكتابة.

ـ بالنسبة لي، الإجابة بسيطة، هي أنّ ثوار بنغازي، وبرقة، وراس لانوف، خبثاء، ولكن تنقصهم الخبرة وهم غير منضبطين، وغير فعّالين، اليوم يتقدمون 10 كم...

قال آليّاً كالصدى! ودون أن يهتمّ إلا بالصورة:

ـ ويخسرونها في اليوم التالي.

ـ هذا ما يحدث، ويمكن أن يستمر كذلك لزمنٍ طويلٍ، حتى نهاية الزمن، بينما...

لم أكن واثقاً من أنه يسمعني.

في مصراطة هناك أناس تقاتلوا في ما بينهم، ودفعوا الدبابات خارج المدينة، لقد فعلوا ذلك بمفردهم تقريباً.

بلى، إنه يسمعني، وحتى إنّه صحّح لي ـ وهو ما يزال مُستغرِقاً في تأمُّل الصورة

ـ هذا غير صحيح، لقد ساعَدنا هُم.

- صحيح. في السوق مثلاً،

- أو في المطار، مثلاً، نحن الذين حيّدنا المطار.

كدت أنسى أنّه يعرف ملفّه، وبالتالي أجبتُه بِرقة أكثر:

- إجمالاً، أقول بالضبط إجمالاً، إنهم هم من استعادوا مدينتهم.

- لِنُسلِّم بذلك.

- وهذا النصر، عوَّدهم على الحرب، وضبَطهم، وأعطاهم في نفس الوقت الشجاعة والثقة بأنفسهم والرغبة في المتابعة.

وأخيراً رفع رأسه عن تلك الصورة، ووضعها، ونظر إليّ.

أضفتُ بأنهم قريبون. على مسافة 200 كم تقريباً. بالمقارنة بالألف كيلو متر التي تفصل بنغازي عن طرابلس الغرب؟

- حقاً.

- لهذين السببين، ولأنهم الأفضل، ولأنهم في المرتبة الأولى، أعتقد أن جيش التحرير، هنا وليس في بنغازي، هو الذي سيزحف في اللحظة القادمة إلى العاصمة.

- وعند البربر، يقاطعني، بهيئة مَن لم يفهم ذاك الشخص الذي جاءه، منذ شهر، ليبيعه نفس الحكاية، وليعتمد المنطق ذاته، والذي، بالتالي اختلطت عليه الأمور! عند بربر جبل نفوسة!

- بالطبع. ولكن لنتخيل أن نُسلِّم مصراطة ما يعادل نفس المساعدة التي قُدمت لجبل نفوسة. لقد اكتفينا حتى الآن بالمساعدة على سد الرمق...

- شكّلت بحركة من يدي شكل الكماشة.

- طرابلس، ستكون حينئذٍ مهددة من الجنوب ومن الشرق على حدٍ سواء، أي على جبهتين...

كان يبدو مطمئناً إلى أنني لست في وارد التنكر للإستراتيجية المثبتة، والمطبقة في الجبل.

- آهْ فهمت، ماذا نفعل إذاً؟ وكيف نفعله، لو فعلناه، بحيث لا نعطي لأصدقائنا في المجلس الوطني الانتقالي، الانطباع بأننا نتجاوزهم؟

- لا يمكننا أن نعطيهم هذا الانطباع. لأننا سنفعل ذلك بالتعاون معهم، طبعاً، بطلب صريح ورسميّ. هناك أعضاء في المجلس الوطني الانتقالي من مصراطة، مثلاً، فورتيه، سليمان فورتيه الذي...

يتدخل ليفيت.

- لقد استقبلته، سيادة الرئيس. مع عبد الفتاح يونس، وكان مؤثِّراً.

قام بنفس حركة ميتران عندما يكون منزعجاً: ليست حركة مداعبة اليد اليمنى باليسرى، لا، بل الحركة الأخرى، تلك الحركة التي كان يطرد فيها الهواء من أمامه والتي تعني: «أعرف أنني استقبلته، ومن غير المُجدي القول إنّه كان مؤثِّراً..». وسأل بنظرة قاسية، ومركزة:

- بشكل ملموس؟

بشكل ملموس، اقترحتُ عليه مخططاً بسيطاً: أساعد قادة جيش مصراطة على الخروج من المدينة المُحاصَرة، وأصطحبهم إلى باريس، فيستقبلهم في قصر الإليزيه، ويستمع إليهم، ويقرِّر.

قال: أنا موافق. موافق، حقاً؟ طبعاً، موافق.

الثلاثاء 7 حزيران/يونيو (ترحيل مُحرِّري مصراطة)

اتصلتُ بمالِك السفينة بشير صبّاح كي أخبِره.ثم اتّصلتُ بمنصور وعلي. وبجيل طبعاً. كما اتصلتُ بمارك ويان بّاس، الكابتن المالطي الذي زوج ابنته أخيراً، ولكنه يتميّز بأنّه يعرف الطريق. شرعتُ في انطلاق العمليّة.

الأربعاء 8 حزيران (كلاوزفيتش)

قال كلاوزفيتش في كتابه عن الحرب مُتحدِّثاً عن نابليون: «غالباً ما يُعَدّ طريق الخلاص الوحيد مُجازفةً، و، بالتالي، قمّةَ الحذَر».

الخميس 9 حزيران (عاش كلاوزفيتش)

بدأ سريان المشروع. بالتأكيد. أصدقاؤنا في وزارة الخارجية بوجهٍ خاص، يطلبون النجدة، ويشعلون مضادات الحرائق. ودائماً بحسب كلاوزفيتش: «أعلى درجات المخاطر تتوافق مع أعلى درجات الحكمة».

لم أعد أعتقد أنّ الرئيس سيتخلى عني، أنا واثق، وخصوصاً أنّ حدثاً تاريخياً حصل في نفس الوقت: عبد الله واد، رئيس السنغال توقف في بنغازي، وهو أوّل رئيس دولة يزور معقل الثوّار، هذه المرّة هي بحق، بداية نهاية القذّافي.

الجمعة 10 حزيران (رهاني على مصراطة)

وجد جيل منظاراً ليلياً مُزوّداً بأشعة فوق بنفسجية: ثمنها 4000 يورو. وقد وصل مع علي ذاك الذي لم نعُد ندعوه في ما بيننا، منذ حرب البوسنة، إلا بـ «التركي»، والذي أنزل بشكل سرّي أسلحة في مقاطعة البوسنة الوسطى. سوف أتركه يفعل ذلك. فأنا لا أفكر إلا بـ «ضربة مصراطة» التي أزداد ثقة بأنها يمكن أن تُّغيّر وجه هذه الحرب.

الاثنين 13 حزيران (عندما عبَّر الرئيس عن استعجاله ليستطيع تسليح مصراطة)

باريس خالية. إنّها أوّل موجات القيظ. يان بّاس لا يستطيع، في نهاية المطاف، أن يُعيد العملية.قضيتُ نهاري في العراك مع إدارة مرفأ مالطة، مع السماسرة، ومُجهِّزي السفن، محاولاً إيجاد قبطان جديد. رنّ هاتفي.

ـ ألو؟ هنا أمانة سِرّ مكتب رئيس الجمهورية. أُمرِّر لك الرئيس.

مرّت لحظات. سمعتُ خلالها سيمفونية برليوز المعهودة، الرائعة. ومن ثمّ جاء الصوت الذي غدا أكثر أُلفة. إنها المرّة الأولى التي يبدو أنّني تجاوزت فيها بعض الرهبة المُعتادة.

ـ ألو؟ هل رأيت، الأمور تتزحزح.

ـ لا...

ـ بلى. زد على ذلك أن الأمور تسير نحو الأفضل في الغرب.

ـ في مصراطة؟

ـ لا في الجبال. في جبل نفوسة، تلقوا 40 طنّاً من الأسلحة. من الإماراتيين هذه المرّة.

ـ أسلحة جديدة أخرى؟ بالإضافة إلى الأربعين طناً التي تحدثنا عنها سابقاً، قدّمها الإماراتيون هذه المرة.

ـ لا، هي الأسلحة نفسها. لكن أضفنا الآن رجالاً إماراتيين لتأهيلهم، وتدريبهم على استعمال الأسلحة، وعلى تنظيمهم أيضاً.

ـ أنا أبقى عند تحليلي، جيش مصراطة هو الذي سوف يزحف إلى طرابلس ويطرد القذّافي منها.

ـ أعرِف. دونت ذلك جيداً، وأنا بانتظارهم. من جانبنا بدأنا التحرك. وأرسلنا المروحيّات.

ـ رأيت ذلك كما رأوه خاصّة، وهم مدينون لفرنسا بجميل أبدي أكثر من أي وقت مضى.

ـ سوف نُغيِّر إستراتيجيتنا. لقد اعتاد القذّافي عليها. وهو بالتالي يحتمي منها. يجب أن نستعيد عنصر المفاجأة.

ـ ما المتغيرات؟ منظومة مُقاربة الأجهزة؟ لحظة القصف؟ والارتفاع؟

ـ نحن بصدد التفكير في ذلك... الارتفاع، لا شك في أنّ الإنكليز يستخدمون مروحيّاتهم كما لو كانت طيّارات عادية... أعتقد أن بإمكاننا الهبوط إلى مسافة 50 متراً... وهذا يستدعي فقط أن نخرج في الليل فقط، في أحلك حالات الظلام...

ـ رأيتُ ذلك في أفغانستان... طيّارات تُحلّق على مقربة من الأرض، تتلبس تضاريس الوديان، تخلق انطباعاً بأنها ستتحطّم... ولكن، لا... إنَّ طيّارينا استثنائيون...

حسناً، هم الذين سلّمناهم طيّارات الميسترال، إنهم قادة طيّاراتنا.

أضاف بعد لحظة صمت:

ـ وبالتالي مصراطة؟

ـ قيد التحقُّق.

ـ ذلك أنني فكرت: سأكون سعيداً. سأسعد حقاً لو رأيتُهم.

ـ سوف أفعل كلّ شيء من أجل ذلك. كلّ يعمل ما في وُسْعه وزيادة.

ـ أنا بانتظارهم.

نستطيع أن نلوم هذا الرجل على أشياء كثيرة. باستثناء قدرته على التشبُّث بأفكاره.

الثلاثاء 14 حزيران (كيف أرسل لي القذّافي مبعوثاً جديداً)

عودة إلى الخانة المزلية.

في فندق رافائيل أيضاً.

قاعة صفراء، في الطابق الأرضي، تماماً خلف مكتب الاستقبال، هنا حيث حاولت أن أجمع على انفراد عبد الفتاح يونس ورئيس شركة بانهار للآليات الحربية لكي يتحدّثا سِرّاً عن تسليم المعدات الثقيلة للثوّار.

حضّر اللقاء رونيه جيرارد، خريج المدرسة العليا والمراسل الحربي. أما الرجل الذي اصطحبني فهو شاب. أنيق. يتكلم الإنكليزية بطلاقة. وله طريقة غريبة بمناداتي «سعادتك»

في كلّ لحظة. غير أنّ نظرته بالأحرى واضحة. له هيئة ولد طيّب،بِكْر، هو مدير مكتب رئيس الوزراء الليبي بغدادي محمودي، وقد وصل من تونس.

ـ اسمك إذاً؟

ـ محمد القليوشي.

أخذ حزمة الأوراق الموضوعة أمامي على الطاولة. كتب عليها اسمه، بعناية وبخط جميل، ومدّها لي.

ـ هل وصلت منذ مدّة طويلة؟

ـ وصلتُ البارحة.

ـ كيف؟

قال متعجباً، وفي صوته بعض اختناق: عبر الطريق البريّ.

طبعاً بسبب منطقة حظرنا الجويّ. ونتيجة تدمير الناتو لأسطول القذّافي الجوي. كان سؤالي عبثياً.

ألحّ، بلهجة مُجامِلة، لكنّي استشعرتُ نقطة الغضب فيها. أخذت الطريق حتى الحدود، في جربا، طيّارة صغيرة إلى تونس العاصمة، ثم إلى باريس.

طرحتُ عدّة أسئلة، عبثية بطريقةٍ ما أيضاً: (هل هذه هي أول مرّة تزور باريس؟ في أي فندق تنزل؟ وإلى متى؟) لكنّها سمحت لي أن «أنسجم» أمام هذا الموقف غير العادي (فأمامي، هنا، كائن لطيف بشحمه ولحمه، يحتسي كأساً من المياه الغازية، هو أحد الذين يمثّلون رسمياً هذا النظام المجرم الذي يلعنُه كلّ العالم، وأفترض أنه يكنُّ لي عداءً صريحاً) ـ وأدخل في صلب الموضوع. حسناً ما حقيقة الموقف على الأرض؟

أجابني، بصوت سلِس، صوت مَن لا يريد أن يكشف عن نفسه أولاً: ما الموقف على الأرض، فأنتَ، سعادتك، قادم من ليبيا، أيضاً...

ـ نعم لقد وصلت من مصراطة.

حدّد بالقول: وصلت منها يوم 28، كما لو أنّ للمعلومة أهميتها؛ كنتَ هناك يوم 28.

ـ هذا صحيح. ولكن هذا اللقاء اليوم...أنت الذي طلبته من صديقي رونيه جيرار. فلماذا؟

بدا عليه التفكير، والنظرة المترددة، أو المتظاهرة بالتردد، لا أستبعد أن يخفي هذا الولد الطيب مُمثّلاً مُحترِفاً.

قال: معك حق، كما لو أنّ ثواني التردُّد تلك سمحتْ له بالمبادرة.

أردتُ أن أراك لأنه حان الوقت لنتكلَّم معاً، أن نجلس حول طاولة وأن نتكلم.

قاطعه رونيه جيرار، أمير المراسلين الحربيين وأحد أقلام جريدة **الفيغارو**، شارحاً بمهابة تافهة ونبرة تحمل طابع **الفيغارو**:

ـ سوف تُفضي الحرب حتماً إلى نهايتها. ومن المهم بمكان أن نتكلم معاً لكي نبدأ بالتحضير للمستقبل، بعيداً عن المعارك.

بعد ذلك، قال مُوجِّهاً إلى القليوشي هذه المقارنة الغريبة:

ـ في فرنسا أيضاً، وفي الأشهر الأخيرة من الحرب، بدأ الديغوليون وغير الديغوليون، ولكن ممن لم ينخرِطوا في التحالف، بالتحدُّث في ما بينهم.

ـ بالضبط، ردّ القليوشي، هناك دولة في طرابلس. هناك إدارة، الموظَّفون يعملون، والناس يديرون أعمالهم، مباريات كرة القدم تقام. هناك مياه ـ هذا ما يجب أن نتحدث عنه، هل السيد ليفي موافق على ذلك؟

أضحكني هذا الرجل، لا أدري بحق حتى الآن كيف قبلت أن أستقبله، ولكن فجأة أثار ضحكي، ولكن يجب ألا يلحظ ذلك بالطبع.

ولكي لا يُلاحظ ذلك دسَسْتُ أنفي في أوراقي، على الورقة الأولى حيث كتِب اسمه، وبدأت أرسم، كما كنت أفعل في المدرسة، عندما كنت أضجر، حصى مستديرة، مُكدّسة جيداً، بعضها ضخْم، والبعض الآخر صغير يتلاحم في الفراغ بين الحصى الضخمة، تُحزَّز جميعها باسم القليوشي ـ وقد ذُهِل وهو يرى اسمه يتلاشى، شيئاً فشيئاً في تراصٍّ رسمي الصبياني.

انتهيت بالقول: نعم. ولكن نتكلم عن ماذا؟ عن مباريات كرة القدم، هذا شيء لطيف، ولكن في هذه اللحظات جيشكم يقتل الناس في مصراطة، في زليطن، وفي الزاوية...

ـ هذا صحيح، قال بهيئة منافق كبير يرتدي ثوب المُتأثِّر، معك حق لقد سال الدم كثيراً.

ـ نفس الكلمات التي قالها شخص عُمان، في سان بول، الشهر الماضي. لهذه النماذج من الناس وقاحة جهنمية.

ـ نحن مُتَّفقان، هذا ما يجب أن نتكلم عنه، وقبل ذلك، في الموضوع الذي تعرفه، وهو الشرط المطلق قبل أن يتكلّم أحدٌ مع أيِّ أحد.

ـ لا أعلم، قال بنفاق يتزايد شيئاً فشيئاً؛ عن أي موضوع تتكلّم؟
ـ رحيل القذّافي. ليس القذّافي فقط، بل عائلته أيضاً.
ـ نعم، سعادتك.

قال «نعم سعادتك» بصوت واثق ولكن دون أن يتوصل إلى أن يكبُتَ ابتسامةً مُرَّة مؤلمة، اللهم إن لم تكن تلك الابتسامة مُنافقة أيضاً.

ـ وهل أنت موافق على ذلك، قلت، بقسوة مشاعر، أن هنا أيضاً مشهداً مسرحيّاًيتكرّر؟
جاء دوره ليدس أنفه في أوراقه، قلمه الدائر فوق الصفحة كالمروحيّة التي تبحث دون جدوى عن نقطة الهبوط.

وأخيراً أجاب بصوتٍ خفيض والقلم في الهواء: لن نسمي الأشياء بمُسمّياتها وأسمائها، من فضلك، إنّ اللبيب من الإشارة يفهم.

ـ لا أدري إذا كنّا نفهم على بعضنا إلى هذه الدرجة.
قبل كلّ شيء، مَن يعلَم بزيارتك، لباريس؟ ومَن على دراية بخطوتك اليوم؟
ـ رئيس الوزراء.
ـ ومن بعد؟
ـ فقط رئيس الوزراء.
ـ هل يجب أن أفهم أنّ القذّافي ليس على علم بالزيارة؟

من جديد دسَّ أنفه في أوراقه، صانعاً مُعيداً بإصبعه حركة المروحيَّة. وبعد لحظة صمت جديد واضطراب بدا غير مصطنع. قال بصوت أكثر انخفاضاً هذه المرّة:

ـ أعتقد أننا يجب أن نتكلّم واضعين مشكلة العقيد بين قوسين.
ـ ليكن، ولكن كيف نضعها بين قوسين؟ هل لأنك سَتُخرجها بعد حين من القوسين في اللحظة القادمة؟ أو لأنّك فهِمتَ بأنّ مستقبل الشعب الليبي سيُبنى من دونه؟
ـ لن نسمي الأشياء بأسمائها، ردد، أقول فقط ما يلي: لقد فتحت صفحة تاريخ جديدة لليبيا.
تدّخل جيرار صانيه، متوجّهاً إليَّ هذه المرّة، بموالاة وبدبلوماسية شديدتَين.
ـ يجب أن تعلم أنّ السيد خاطر بحياته بمجيئه معي إلى هذه القاعة.

قضم السيد إصبعه هذه المرّة. وأدلى بدلوه: معه حقّ، إذاً يجب أن نترك بعض المواضيع في الظِلّ. ماذا بشأن الأيام التي ستَلي؟ أنت السبب في هذه الحرب؛ وعليك المساعدة على التفكير في ما سيحدث بعد إحلال السلام؛ لهذا أراد السيِّد أن يراك.

عبَّر الرجل عن رأيه أيضاً. وقد تجرأ بدوره هذه المرّة بفعل كلمات جيرار، ليطرح عليّ سؤاله بنبرة مختلفة كلياً؛ مُستعيداً بعض السُّلطة.

هل تعتقد، وهذا بالطبع السؤال الأول الذي طرحه، أنَّ الأطراف على الجانب الآخر جاهزون للِّقاء؟

ـ لا أدري، فهم الآن بصدد الانتصار في الحرب. وليس من المؤكد على الإطلاق أن يكون من صالحهم أن يقطعوا مسار اندفاعِها.

انحنى فوق الطاولة، ويداه الصغيرتان ممدودتان باتجاهي محاكيتَين أسلوب الترجّي.

ـ ربحتم الحرب حسناً، ولكن بأي ثمن؟ بتدمير البلاد؟

ـ بالفعل هناك ثمن، ولا يمكن تجنّب التدمير. ولكنَّ هذا أقلّ ممّا فعله القذّافي خلال الاثنين والأربعين عاماً من الديكتاتورية.

عاد إلى نفاد الصبر. سحب يديه إليه بسرعة كبيرة، كملاكم في وضعية الاحتماء، استشعرتُ خلف المجاملة خصماً جاهزاً ليكشف عن وجهه:

ـ قلنا إننا لن نخوض في المواضيع الساخنة!

ـ لنقبل بذلك.

ـ هيا بنا

ـ أنتَ تعرف عبد الجليل أليس كذلك؟

ـ بالطبع، أعرف الرئيس عبد الجليل.

ـ حسناً! ولكن على كاهله حمل ثقيل.

ـ هل اشترى لنفسه بدلات جديدة؟ هل يعيش الحياة بالطول والعرض؟

ـ هل هذا سؤالك؟

ـ نعم، تخيَّل فوز السيد عبد الجليل.

قال: «السيد عبد الجليل» كما لو كان يبصق باحتقار ما لا يطيق الاحتفاظ به.

ـ تخيَّل أن السيد عبد الجليل يستولي على السلطة مع أصدقائه من القاعدة. كيف ستعالجون ما سوف يحدث؟

لم أتبيَّن فوراً معنى السؤال. أحسَّ بذلك فوضّح بالقول.

لا أحد، في ليبيا، يريده أن يحكم.

ـ ليس هذا انطباعي.

ـ هذا بلدي. وأنا أعرف بلدي.

ـ أيضاً لن نخوض في ذلك. وخصوصاً أنّ من محاسن الصدف كون مصطفى عبد الجليل ورجال المجلس الوطني الانتقالي ليس لديهم، كما تعلمون دون شك، أية طموحات شخصية، ولا نية في أن يحكموا هم أنفسهم. وقد أعلنوا ذلك: سوف يؤمنون انتقال السلطة، وسيقودون البلد إلى عتبة الديمقراطية، وبعدها سوف ينسحبون أمام قادةٍ منتخبين.

تبدّتْ على وجهه هيئة الكفر بعينه، وبهيئة الساذج الذي كنت أبدو أمام ناظريه مثيراً للشفقة المؤسفة، تظاهرتُ بعدم رؤيته فتابع يقول.

ـ خُذ مثلاً، ليس فقط عبد الجليل، بل عبد الفتاح يونس.

هنا، لم يعد يستطيع أن يملك نفسه. وما كنتُ أملك، من جهتي، إلاّ أن أسمعه.

ـ نعرف عبد الفتاح! نحن نعرف هؤلاء الأشخاص الذين كانوا معنا خلال سنين عديدة ثم خانونا.

ـ لماذا خانوا؟ لا تستطيعون أن تتخيلوا أنّ أشخاصاً يجِدون، في لحظة معينة، في لحظة وعي، أنّ السيل قد بلغ الزّبى، وأنهم لا يستطيعون أن يضمنوا نظاماً غدا مجنوناً؟

هزَّ كتفيه كما لو أنّ سؤالي لم يكن يستحق الإجابة.

ـ خذ مثلاً، عبد الفتاح يونس. ينضم إلى الثوّار في لحظة جدّ محددة، عندما يعطيه القذّافي أمراً، ليس بأقل دقّة من قراره، أمراً بأن يطلق النار على جموع المتظاهرين العُزَّل.

قاطعني بالقول: كنتُ آنذاك في بنغازي.

ـ في 17 شباط/ فبراير، أي كنتَ في بنغازي يومَ حسَم عبد الفتّاح أمره؟

قفز، كما لو أنني وخزته، وصحّح ـ وأعترف أنني لم ألحظ أهميّة الفارق الطفيف.

ـ يوم 15! كنت هناك منذ 15! كنت آتي غالباً إلى بنغازي لحل المشاكل، والتجهيزات، والإدارة. كنّا عشرين شخصاً، ذلك اليوم، وأيضاً عشرين في اليوم التالي، في مكتب عبد الفتاح.

ـ وإذاً؟

ـ إذاً، كان ذلك يوم توقيف فتحي طربيل. وكانت هناك مظاهرات عارمة، للمطالبة بالتحرير.

حررناهم. لكن المتظاهرين واصلوا التظاهر بحقد وانتقام. لم نعد نعرف ما يريدون، إنها الفوضى.

أتذكر فتحي طربيل، هذا المحامي البطل، المدافع عن عائلات المقتولين في سجن طرابلس، لقد غدا أيقونة الحركة الديمقراطية.

تابعتُ أسأله.

ـ وهل عدت إلى طرابلس؟

ـ بالضَّبط.

ـ وعبد الفتاح انضم إلى الثوّار.

ـ تماماً.

ـ وأنت لا تفهم ذلك ـ أنّ ضابطاً يستطيع ـ بالمحصّلة، أن يتمرَّد؟

ـ لا، يا سيدي.

ـ مع أنه هناك سوابق، سوابق مشهورة. ديغول مثلاً...

عادت نظرة الكراهية من جديد، التي تزيد من حدّته عذوبة صوته المبالغ فيها على نحوٍ مُفارِق:

ـ هل تعتقد أنّ ديغول فعل هذا؟ هل تقارن حقاً عبد الفتاح بديغول؟

ـ أكلمك عن ردود أفعال الجنود الذين يُواجِهون، في لحظة معينة، أمراً أو موقفاً يُناقِض مبادئهم...

أرسل لي ابتسامة أراد أن تكون سمحة.

فألححتُ بالقول: ألم يحصل لك أبداً، لك أنتَ؟ ألم تستبِدَّ بك أبداً الرغبة، مثله، ومثل موسى كوسا، وكآخرين، في أن تقطع مع نظام يقتل شَــَ...

تغيُّرٌ جديد في مستوى الخطاب. من جديد وضع أنفه بين أوراقه، خافِضاً النبرة.

ـ لا، أبداً يا سيد.

ـ لماذا؟

ـ لأنّ ذلك يتعارض مع قِيَمي.

ـ أن تطلق النار على أبناء شعبك، هذه هي قيمك.

ـ لقد ولدت عام 1979. أول شيء رأته عيناي هو صورة معمر القذّافي، من بين الكلمات الأولى التي سمعتها كان اسم القذّافي. لا أستطيع أن أخون هذا.

ـ وبالمقابل، إذا كنت قد فهمتك جيداً، يمكنك أن تتصور ليبيا من دون الحاكم معمر القذّافي.

بقِي مُطأطأ الرأس، فتولّد عندي إحساس أنه احمرَّ قليلاً. غدا صوته ضعيفاً. فتنهّد.

ـ لو كانت هذه إرادة الشعب الليبي، لَقُلتُ نعم.

ومع ذلك، كم هي خرقاء الطريقة التي يمتلكها هذا الرجل بعدم قدرته على لفظ اسم مُعلِّمه، ولا على سماعه. كم هو مذهل استبطانه للطاغية، لصورته ـ واستحالة تخيُّل العالم من دونه. استحالة أن يطرد الشرطي من رأسه، كما كان يقول ثوار 1968. أردفتُ قائلاً: هؤلاء الليبيون بعيدون عن هذا.

ـ كنت أقول قبل أن تقاطعني إنّ أشخاصاً مثل عبد الجليل، أو مثل عبد الفتاح، ليس لهم طموحات شخصية، وليسوا بصدد تحضير أنفسهم لاستلام السلطة...

مدَّ يديه من جديد، لكنَّ كفيه اتجها نحو السماء، في حركة عجز ملعوبة بمهارة، كمن يريد أن يقول: وماذا بعد؟ جميل ألا تريد السلطة، ولكن ماذا نفعل؟ عملياً ماذا نفعل؟

قلت: المخطط بسيط. مؤتمر وطني يجمع القوى الحيّة في الوطن، والقبائل، والمجتمع المدني، والأشخاص في الإدارة العامة، من أمثالك الذين لم تتلطخ أيديهم بالدماء. وتُجرى انتخابات بعد ذلك، برعاية الأسرة الدولية التي لم تفعل كل ذلك لترك البلد، وسط المأزِق لتتدبَّر أمرها بِمُفردها.

قال، بريبة: لنأمل أن يكون ذلك ممكناً.

ـ بل سيكون ممكناً، ليبيا بلد صغير...

انتفض. فصحّحتُ:

ـ هو بلد كبير بتاريخه؛ ولكنه صغير بعدد سكّانه.

بدا مرتاحاً أكثر.

ـ إنه بلد شاسع غني، لكن ليس فيه إلا ستة ملايين مواطن ـ ينخرِطون، فوق ذلك، ضمن قبائل قوية، مشدودة البنيان.

ـ هذه حسنة وسيئة، سعادتك.

ـ هذه ميزة على وجه الخصوص. انظر إلى رجال المجلس الوطني الانتقالي، انظر إلى طريقة تحديد أسمائهم، وظهروهم، وفرض أنفسهم عبر مجالس قبلية.

ـ لم يُنتخَبوا

ـ بالطبع. ولكنهم لم يعترضوا رغم ذلك.

ـ هذا صحيح.

ـ منطقي بسيط. عندما يكون لديك الإحساس بشرعية أناس ينحدرون من قبائل واحدة، يمكنك أن تتخيل، عندما تأتي شرعية انتخابية أخرى هذه المرّة، لتضاف إلى الشرعية الأولى؟

قاطعني فجأة وبقسوة، كما لو كنا ما نزال في المرحلة التمهيدية، وكما لو أنّ تلك المرحلة دامت طويلاً.

ـ هل أنت مستعد، نعم أو لا، لترعى لقاءً بين أشخاص من جانبي ومن جانبهم؟

ـ إذا طلب مني أصدقائي ذلك، بالطبع أفعل.

ـ أين؟

استأنف جيرار الكلام:

ـ يلزمنا مكان سريّ. بيت. بيتك، ربّما.

ثمَّ توجَّه إلى الليبي:

ـ لأنّ السرية مهمة بالنسبة لك، أليس كذلك؟

ـ بالطبع.

ـ مَن يعلَم بوجودك في باريس، اليوم على سبيل المثال؟

ـ قلت ذلك للسيد ليفي: لا أحد باستثناء رئيس الوزراء.

ـ نعم ولكن من الجانب الفرنسي؟

ـ لا أحد أبداً.

ـ هذا غير ممكن، لابُدّ أن يكون الضباط على علم ...

هزَّ رأسَه علامةً على أنه لا يعرف.

ـ المخابرات، ووزارة الخارجية... على الأقلّ للحصول على تأشيرة دخول تشينغن...

احتجَّ شاعراً بوخزة: «لكنها معي! معي فيزا التشينغن منذ مدّة طويلة!»

أردف.

ـ لِنهدأ. يجب أن تعلم، على كلّ حال، أنني لن أقوم بأيّة خطوة من دون استشارة الرئيس ساركوزي.

قال بهدوء: طبعاً، كما لو أن سماع اسم رئيس الجمهورية، يضعه في حالة استعداد.

- ومن جانبكم...من يأتي من جانبكم؟

- رئيس الوزراء.

- شخصياً؟

- بالطبع شخصياً.

- ومن دون عِلْم القذّافي؟

لم يُجِب. ومن جديد راح يتأمَّل أوراقه.

فغمغم جيرار:

- لا تُلِحّ، لك إجابتك.

ولكن محمد القليوشي هو من أردف:

- ومن جانبكم، مَن؟

- لا أعرف...لم أفكر في ذلك ...علي زيدان...على ما أعتقد...

سجَّل الاسم.

- ألا تعرفه؟

- لا أعرفه شخصياً. ولكن يجب أن أسأل عنه.

- بالتأكيد. وغير زيدان أيضاً، لا أدري مَن: شخص مثل العيساوي...

هنا، قهقه بشدة. ومن كل قلبه على ما يبدو.

- الحلال؟ لأنكم تعلمون، أليسَ كذلك، تعلمون أنه حلال؟

اتجه إلى جيرار الذي كان يُترجِم:

- إخوان مسلمون.

قهقهتُ بدوري: مهلاً، نحن وسط ناس جادُّون، ما دُمتَ تتكلّم هكذا، لما ذا لا تقول إنه من القاعدة؟

- ومع ذلك بلى، قال هذا بلهجة من يعتبر أنّ البراهين، في هذا المجال، ترهق الحقيقة. وتظاهر بأنّه مُتردّد، بعد تفكير، بأن يرمي نفسَه في اليمِّ.

- هل ذهبتم إلى درنة؟

- بالطبع.

- حسناً عندكم هناك الإمام عاشور شكري العسّي؛ ربما كان عليكم رؤيته.

- لم أره؛ أو على الأقل ليس بعد؛ ولكنني جُلتُ في المدينة، سألت الناس، وقلتُ لهم من أنا؛ ولم أشعر...

- هؤلاء الناس خُبثاء. لا يكشفون عن أنفسهم حالاً. يفعلون ذلك حسب برنامجهم وعندما يشعرون أن اللحظة المناسبة قد أتت.

- تكلّمتُ في بنغازي أمام آلاف الشبّان؛ ولم يكن بينهم غير سلفي واحد...

- ماذا؟ لم يفعل لك شيئاً؛ لم يكن ذلك من مصلحته. وبالمقابل...

كان ينتظر أن أدعوه ليتابع كلامه. خائب الأمل لأنني لم أقل شيئاً، تابع كلامه.

وبالمقابل، قلِقنا عليكم في طرابلس. كنا نراقبكم من بعيد. لأننا كنا خائفين أن تحصل لكم نفس الحادثة المؤلمة التي حصلت لذلك الصحفي الأميركي... بالمناسبة، ماذا كان يُدعَى؟

- دانيال بيرل؟

- نعم دانيال بيرل. آه هذا هو، هل تعرفه؟

- لا، ولكني ألفّت عنه كتاباً. أنا على علم بالقصة.

- خشيتنا كانت من أن يضرب مُناصِرو القاعدة عنقك كما فعلوا بالأميركي دانيل بيرل.

قهقهتُ.

- لماذا تضحك؟

- هذه قصة يطول شرحها. لكن لديّ سؤال.

- نعم؟

- تبدو على علم أنني كنت في مصراطة يومي 28 و29...

- نعم، فزوجتي من مصراطة.

- لماذا لم تحاولوا قصفي يومَذاك؟

بحث طويلاً عن إجابة. ومرّة أخرى دسَّ أنفه بين أوراقه. وفي النهاية، رفع عينيه، راسماً على شفتيه ابتسامة عريضة:

- ربما لأنني لم أكن هناك.

تريد أن تقول: لو كنت في المكان، هناك على الأرض...

- هذه مزحة. لم نقتلك لأنك فيلسوف، ومكان الفيلسوف حول طاولة مثل هذه، كي يُعالِج المواضيع العميقة، وليس مكانه في ساحات المعارك. وبهذه المناسبة...

فعل كما لو أنه نسِيَ سؤالاً أساسياً.

- الطاولة!

- نعم؟

- تلزمنا طاولة مستديرة.

- وكيف هذا؟

رسم بيديه شكل طاولة مستديرة.

- في غاية الأهمية أن تكون الطاولة التي سوف نتحدث حولها مستديرة. هذا كل ما في الأمر.

- قُلتُ بذهول: موافق.

- ويجب ألا نكون أكثر من ستة أشخاص. شخصان أو ثلاثة من كل وفد. بالإضافة إليك، إلى سعادتك، لو منحتنا شرف ترؤس الاجتماع.

- ممتاز.

- من طرف أصدقائك، مَن سَيُرافقك يا سيد...

بحث عن الاسم بين أوراقه.

- ... زيدان؟

- لا أعرف، فورتيه مثلاً.

- عفواً؟

- سليمان فورتيه، مُمثِّل مصراطة في المجلس الوطني الانتقالي.

- آه فور-تـ-يه، قال فاصلاً المقاطع بوضوح.

- نعم، فور-تـ-يه...

يبدو أنه لم يبتلعها.

- بسبب مصراطة. قلت لي إنّ لديك صلات في مصراطة.

- زوجتي من هناك، نعم.

- لهذا اقترحت عليك فورتيه...

- قال مُقطِّباً مرّة أخرى: يلزمنا سياسيون...

- فورتيه ليس سياسياً.

ـ حسناً، جبريل؟

هنا أضاء وجهُه.

ـ نحن نعرف بعضنا، أنا وجبريل. عمِلْنا معاً، كانت لديه مهمات، في السنوات الأخيرة الماضية، مشاريع للتحديث. بهذه الطريقة تم تعارفنا.

جاء دوري في التدوين.

ـ جبريل، ردّد كصبيٍّ صغير. أعرِف جبريل جيّداً.

ـ لحسن الحظ. لحسن الحظ. ولكن لديّ سؤال أيضاً، قبل أن نفترق.

ـ نعم؟

ـ هو بالأحرى طلب، وسيكون طلبي الوحيد.

بدا مُحتاراً. وجيرار أيضاً.

ـ قلت إنّ مصراطة مدينة غالية على قلبك.

ـ على قلب زوجتي، وبالتالي على قلبي.

طلبي بسيط. أريد أن تفتح الإنترنت، وترى، وترى الصور التي أحضرتُها من المدينة العزيزة عليك، وأنتم، أو تحديداً، رئيس وزرائكم، أو على كلّ حال الجيش الذي يقوده، اختزلوها إلى حُطام.

ـ حسناً.

ـ هذا شيء يهمّني. هذه المرّة، أُخاطِب فيك الإنسان. متوجهاً إلى شعورك وإلى قلبك، لو قُدِّر لنا أن نلتقي من جديد، أُريد أن تُعطيني رأيك بهذه الصور.

بدا مُفاجَئاً، ولكن ليس كثيراً. ختم كلامَه وهو ينهض ـ قبل أن ينهض جيرار لمرافقته من جديد:

ـ وعد شرف. سأطَّلِع عليها.

الأربعاء 15 حزيران (عندما أعدتُ أنا وعلي زيدان المبعوثَ إلى أسياده)

فندق رافائيل أيضاً.

تسارعتِ الأحداث.

ـ لِنختصِر إذاً، قال جيرار، مُمسِكاً بزمام الموضوع، ...سيأتي المحمودي إلى باريس، يلخص القليوشي الجوهري. سيلتقي علي زيدان. لن يلفظ اسم العقيد، لكنه سيتطرّق، كما بين رجلين وطنيين، إلى ليبيا ما بعد الحرب.

لخّص علي الذي غدا جدياً فجأة: هناك شيء يجب ألا نُغفِله. رحيل القذّافي وعائلته، أقول بوضوح رحيله. لأننا يمكن أن نتحدّث بكلّ ما تريده. ولكن على محمودي أن يعرف أنّ رحيل القذّافي وعائلته نقطة لن يساوم الشعب الليبيّ عليها.

شيء آخر أيضاً، أقوله بدوري، نقطة أخيرة قبل أن نفترق. وقلت للقليوشي: وهي رسالة لك شخصياً. أنت مازلت شاباً. والحياة أمامك. ويجب أن تعرف:

1. أنّ الرئيس الفرنسي سيمضي في الحرب حتى النهاية؛
2. أنّ التحالف الذي تشكل، كمبادرة، هو تحالف متين وليس مُستعِداً للتفكك؛
3. أن للقذّافي ومن حوله نافذة صغيرة جداً ليفهم ذلك وعليه أن يلوذ بها ـ وبعد ذلك سيكون قد سبق السيف العذل.

استمع القليوشي. أخذ عدّة ملاحظات، وبدا لي مُتتكِساً. استعاد النظرة التي لا يمكن اختراقها، نظرة الموظف النموذجي كأنه عاد إلى هيئة البارحة عندما لمحتُه أول مرّة. تكلّم جيرار بدوره قائلاً إنّ من الجيد أن هذا اللقاء قد حصل لأننا حاولنا على الأقل.

ثم ّ عمل القليوشي من جهته، ولكي يصيب منّا، تصريحاً لمدّة ثلاث دقائق، كان معدّاً سابقاً على ما يظهر، حول الشعب الليبي الذي لا يطلب إلا الوحدة. وفجأةً، غيّر اللهجة ليضيف بلهجة بالغة الرقّة ـ متوجّهاً إليّ ثم ّ إلى علي:

ـ هل أستطيع قول شيء آخر؟

وعندما كان علي يشير بنعم بهزةٍ من رأسه، أخرج من جيبه ورقة، مطوية طيّتين، حينما كتبت البارحة عنوان الموقع الإلكتروني الذي يمكن أن يرى فيه صورنا حول مصراطة المُدمَّرة.

ـ آه، قل لي... إذاً رأيت... قل لنا، نعم، بالتأكيد...

ـ أجاب: كلا...، ليس بهذا الأسلوب... رأساً لرأس... إذا كان السيد علي يريد ذلك.

وبما أنّ علي أشار برأسه أنّه موافق، نهض، وسلّم، وخرج معي إلى نفس المدخل ـ حيث كان قد جلس، قبله، في الأريكتين الكبيرتين اللتَين أشرت له بالجلوس عليهما، عبد الفتاح

يونس ومصطفى الساقزلي، وفي اليوم التالي لاستقبالهم في الإليزيه؛ وعلي ومنصور في اليوم الذي تعارفنا فيه، وعبد الجليل عشيّة العشاء الصحفي الذي كاد أن ينتهي بشكل سيء، وكثيرون غيرهم، كثيرون من الليبيّين الأحرار.

ـ لا. لا لن نبقى هنا، قال، كما لو أنّه يقرأ أفكاري وأن تلك الأرائك قد استهلكت كثيراً، هيّا نَمْشِ.

في الخارج، عندما انعطفنا في شارع البرتغاليين المُعتِم، أخذت هذا المحادثة طابعاً سريالياً، فتساءلتُ، وأنا أفكر فيها، إذا لم تكن الهدف الحقيقي لتلك الكوميديا.

قال لي القليوشي: «يؤلمني أن أراك مع أناس كهؤلاء».

ـ عفواً؟

ـ هل رأيت ما كان يفعله علي عندما كنت تتكلّم؟

ـ لا.

ـ كان يتمخَّط.

ـ لا أفهم...

قلَّد تَمخُّط علي.

ـ هكذا...راقبْتُه جيداً...كان يتمخّط بالضبط هكذا...وسأقول لسعادتك شيئاً.

ـ ليس من اللباقة أن يتمخّط عندما يتكلَّم برنار هنري ليفي...

كان ذلك رغماً عني. انفجرت ضاحكاً، لكنه تابع، رافعاً عينيه إلى السماء:

ـ عدا عن ذلك، هل تسكن هنا؟

ـ لا نستطيع أن نخفي عنك شيئاً.

ـ في الطابق السادس، الأفضل، مع إطلالة على باريس...أجمل مدن العالم...، أنا أحسدك...

هل هذا تهديد؟ ودون أن يترك لي الوقت للإجابة، وهذه المرّة وهو يحدق بعينيّ جيداً، بقسوة في النظرة لم تكن موجودة في الصالة الصفراء، أمام الآخرين.

ـ مع ذلك، أريد أن أقول لك شيئاً.

ـ نعم؟

ـ يجب أن تلتقي السيد محمودي.

ـ سأكون هنا عندما يأتي لأنّ ذلك سيتم تحت رعايتي، هذا إذا حصل هذا الاجتماع الذي تتحدَّث عنه.

ـ ليس هذا ما أقصد. يجب أن تراه، نعم ـ ولكن وحدك، وعلى انفراد.

رفعتُ صوتي: هذا، بالمقابل، مستحيل أولاً لأنَّ قنزعته تُذهِلني، ولأنّ فكرةً راودتني، فجأة، بأنني لم أتحقّق، كما حدث مع رجل سان بول، من أنه كان يحمل جهاز تسجيل معه؛ ولن أخطو خطوة في هذه القضية، هل تسمعني، ولا خطوة، من دون أصدقائي في المجلس الوطني الانتقالي، ومن دون علي زيدان على وجه الخصوص.

ـ إذاً، هيّا نتّصِل.

ـ كيف ذلك؟

ـ محمودي، رئيس الوزراء، هيّا نتّصِل به، حالاً، هنا، عبر الهاتف.

ـ قلت لك قبل قليل: لن أُقدِم على خطوة من دون...

ـ فقط ألو... سوف أُكلّمه.

فتح غطاء هاتفه المحمول من ماركة نوكيا، موديل قديم، ويبدأ بالمحاولة.

ـ أنا أتّصلِ وأنت تقول ألو، فقط ألو، ألو صغيرة، لا تُكلِّف شيئاً.

استعاد هيئته الطفولية التي اتّخذَها أمام زيدان. اِعتقدتُ أنّ مصيره وحياته، يتعلّقان بتلك اللحظة، بتلك الألو التي يتسوّل مني.

ـ هذا غير وارد. قلت، ودائماً بنفس الصوت القوي القاطع، مُغلقاً بإصرار عُلبة هاتفه. بالتأكيد لن أكلم هنا، معك، رجلاً يداه مُلوّثتان بدماء الـ...

ـ لا تتكلَّم من دون دراية يا سيدي، رجاني بنفس الهيئة الفظيعة المثيرة للشفقة، أرجوك، لا تتكلّم من دون أن تعلم.

ثمّ إنَّ:

ـ في وُسعِك أن تُصلِح ما عملتَه وحدك.

وأضاف أيضاً برجاءٍ وخنوع:

ـ يُمكِنك إيقاف هذه المجزرة، سيكون حدثاً تاريخياً، وسيبقى الشعبُ الليبي مديناً لك إلى الأبد.

كرَّرتُ له أنّ القذّافي وحده، برحيله، يمكن أن يُوقِف «المجزرة»، وأضاف شيئاً أخيراً، كمن يلقي بورقته الرابحة: «بقِيَ شيءٌ آخر...»

كان يتراقص من قدم إلى أخرى ليطيل التمتُّع، يرسل لي ابتسامة مُتملِّقة:

«نحن جاهزون لنقيم، من خلالك، علاقات مع بعض أصدقائك ـ هل فَهِمتَ ما أريد قوله؟»

هنا، بالطبع، وجدتُ أنّ هذا كثير. هذا الإيحاء الوقح بإسرائيل، على لسان أحد مُمثّلي الدولة التي حاربَتْها باطراد مستمر، أشعرني بالغثيان. تركتُه هنا. وعدتُ لأحكي لعليّ الفصل الأخير من هذه المسرحية الهزلية. هذا الرجل، الذي يُقدِّم لي النصيحة، هذا المفاوض المفترَض، نائب هتلر الليبي، ضيق الأفق لم يقُل لي، طبعاً، أيّة كلمة عن مصراطة.

الأربعاء 15 حزيران يتبع (ومصراطة؟)

مُكالمة مختصرة مع الرئيس، قصصت عليه حكاية القليوشي. كان قلِقاً من وصول بعض الضبّاط من مصراطة.

الخميس 16 حزيران (هروب إلى طرابلس)

استعداد للمعركة. كان المبعوث الروسي إلى ليبيا قد أعلن منذ قليل، في طرابلس، أنّ اتصالات قد عقدت البارحة، يوم الأربعاء، في باريس، بين الثوّار والقذّافي. اتّصلت بي وكالة الصحافة الفرنسية، والوكالات الأجنبية، وعِدّة إذاعات مازالت تهتم قليلاً بليبيا (يَ) المسكينة. وبالطبع طلب منّا علي، الذي تكلَّم مع عبد الجليل، ألاّ نُقدِّم أيّ تعليق «تشغيل» وأنّ نُكذِّب كلّ شيء «إيقاف التشغيل» (وبالمناسبة، هذا ما كنت وبعفوية قد بدأت بفعله). ما الذي حدث بالضبط؟ هل خرق القليوشي، مدير المكتب، عن درايةٍ وسابِق إصرار، معاهدة السِرِّية؟ هل هي بداية مناورة لا أرى بوضوح حلقتها التالية لكنها تستهدف إما عرقلتي وإما عرقلة المجلس الوطني الانتقالي؟ هل يريدون أن يقولوا إنّ أهل طرابلس لا يُحدِق بهم الخطر الذي نتوقّعه؟ وهم مُستمِرُّون على خطّ الدبلوماسية الدفاعية؟ بعد التحقق، بدت الأشياء وقد حصلت كالآتي.أطلق المبعوث الروسي، عندما كان القليوشي مدير المكتب ما يزال في طيّارة العودة، فكرة لقاء محمودي بمُعلِّمه حيث سيكون هو مُنظِّمه اللطيف. وقد فَهِمَ، كالإيطالي فارتيني، وكآخرين، أنّ «التوسُّط الليبي» كما في السوق القديم للعرض العام، هو المنتَج الذي يعلو سِعرُه، والسلعة النادرة **القابلة للتمويل**، وقد تبرع بخدماته كوسيط. ويبدو

أنّ محمودي قال لا، شكراً، ليس الآن، لأنّ هناك مبادرة من نفس النوع في باريس. وهذا مُريح.

الأحد 19 حزيران/يونيو (مصراطة بعد الظهر)

منصور على الهاتف، ثمّ سليمان. ثمّ بشير صباح. غداً، سيكون قد مضى خمسة عشر يوماً على انطلاق الضباط الأحرار في مصراطة! لن نتخلّى عن رمضان زرموح. سنواصل الضغط. أنا منزعج من هذا مع أنّه الحلّ الوحيد؛ إذ لم يمرّ يوم من دون البحث عن وسيلة لنقول له إنّ السيد رئيس الجمهورية ينتظره، وهذا مهم، ويُمكِن أن يغير كلّ شيء في مصراطة وما بعد مصراطة، من أجل كلّ ليبيا. ولكن المعارك هناك أخذت منحى آخر، إنهم قساة جداً، ويبدو أنّ القذّافي، قد جمّع قوى جديدة على الجبهة الشرقية، ويقول زمروح إنّه لا يستطيع حالياً أن يترك الجبهة.

الاثنين 20 حزيران/يونيو (الميل إلى المفاوضات)

ذكرت جريدة **الفيغارو**، دون أن تسميني، في إطار التطور العام للمزاج الدبلوماسي لطرابلس، الاتصالات التي عقدت في باريس مع علي زيدان. قلقي الحقيقي، فيما يمس هذه القضية، لا ينبع من المعلومة (ألا تُشدِّد ـ وهذا هو الأساسي ـ على أنّ زيدان لم يُساوِم على الخط الأحمر الذي هو، بالنسبة للمجلس الوطني الانتقالي، رحيل عائلة القذّافي؟).ولا ينبع أيضاً من إمكانية ظهور اسمي (وبالمحصلة، ما أهمية ذلك؟ أوَلم يصدمني فصل القدس بشكل مبالغ فيه؟).

كلا، همّي الحقيقي هو الميل الجديد الذي أُحِسُّه في كل مكان تقريباً وهذه الحلقة الصغيرة ليست أكثر من مثال. فقد أعلن فراتيني، من إيطاليا، عن مؤتمر تيوديل. وبان كي مون الذي علمت أنّه اتّصل بالمحمودي، من القاهرة، وتلك المقالات الصحفية، في فرنسا، التي تتكلم كما في جريدة **الباريسيان** هذا الصباح، التي تتكلم عن الكلفة الباهظة لهذه الحرب، وعن عبثها، الخ. كلّ هذا لا يعجبني أبداً، وإذا كان للخطوة التي قام بها مدير مكتب القذّافي أن تحمل أي معنى، فهذا هو معناها الوحيد: تندرج في هذا الدرس الجديد، وتُعزِّزه، لتظهر أنها تتمدد حتى باريس، وتُشير إلى أنها تجمل الأشخاص الذين، مثلي ومثل زيدان، الذين يعارضون بشدة أي اتِّفاق مع القذّافي ـ

إنّها، باختصار، تسوِّق برفعةٍ وسُموّ، فكرة أنّ الحرب ورطة، والحلّ العسكري مأزق وأنّ كلّ الإرادات الطيبة، في كلّ مكان، تبحث عن حلّ غير عسكري.

الثلاثاء 21 حزيران/يونيو (إسرائيل والربيع الليبي)

القدس، من جديد. «محاضرة الرئيس». شمعون بيريس أكثر حذَراً من أيِّ وقتٍ مضى. وطوني بلير يهيم وجداً بفضائل النموذج الإسرائيلي. عوز، صديقي عاموس عوز، الذي ألقى خطاباً قوياً حول السلام وحول عظمة الاتفاق. وأنا مَن أعود إلى الربيع العربي بشكل عام، والليبي بشكل خاص، كي أشرح لـ 1500 مُشارِك لماذا يجب على إسرائيل ألا تخاف من العالم الذي يتولَّد تحت ناظريها.

قلت: علينا، بالتأكيد، أن نكون حَذِرين.

تلك الثورات التي لم تغب، منذ يومها الأول، عن ناظريّ، هي ككل الثورات تحمل كثيراً من التردُّد.

ووجود إسرائيل، واستمرارها، وأمنها ضروراتٌ قطعية إلى درجة لا تسمح لنا، ونحن نلعَب بها، أو نستهين بها، أن نعرِّضها لأي خطر.

ولكنّ هناك خمسة أسبابٍ على الأقل، لمقاربة هذا الحدث بتفاؤل نسبي.

ثمّة أولاً أسبابٌ مبدئية. كيف يُمكِن أن نتصوَّر الصهيونية، وهي حركة تحرير ناجحة للشعب اليهودي، إذا لم تمدّ يدَ المساعدة إلى شعوبٍ أُخرى لحظة تحرُّرها، أو في اللحظة التي تحاول التحرُّر بدورها؟ وما قيمة ديمقراطية تفاخرت، لعشرات السنين، بأنها الديمقراطية الوحيدة في المنطقة، وفي اللحظة التي يلتحق بها الآخرون، لا تُبدي أية التفاتة لاستقبالهم؟ وقد جاء في الوصيّة «لن تقتل أبداً»، هذه الوصية المقدَّسة كغيرها من الوصايا العشر، هذه الوصية التي قدمها اليهود للعالم: هل وجد مكان في العالم أسيء فيه استعمالها أكثر من ليبيا المسكينة حيث أرسل القذّافي، في شهر شباط، طيّاراته لقصف المتظاهرين السلميين؟ على هذا المستوى من المبادئ، المسألة غير قابلة حتى للطرح. لا تستطيع إسرائيل أن تدير ظهرها لما يحدث في بنغازي وطرابلس.

وثمّة، بعد ذلك، السياسة، وعلى الصعيد السياسي، هناك حقائق لا تستطيع دولة إسرائيل أن تتجاهلها. قُلتُ: أعرف أنّ في القاعة التي أخطب بها، أناساً يعتقدون بأن بلدانهم كان

بإمكانها، أو بإمكانها، أو سيكون بإمكانها أيضاً أن تتفق مع القذّافي. فهو يحقق لهم الخير العظيم. ولا بُدّ من امتلاك ذاكرة قصيرة المدى لننسى أنّ ليبيا القذّافي، لم تتوقّف، خلال أربعين عاماً، عن الدعوة إلى تدمير إسرائيل؟ وأنّها استُعمِلت قاعدةً خلفية، ومأوى، ومركز تمويل، لألدِّ أعداء إسرائيل؟ وأنّها قدّمت، بشكل منتظم، منبراً لأكبر مُنكِري المحرقة والمسعورين؟ وأنّها حاولت، في آب الماضي أيضاً، أن تُرسِل «قافلة مساعدات لغزة» بهدف الثأر من إخفاق التي انطلقت من تركيا؟ وأنّها طالما عدّت زيارة السادات للقدس خيانةً (كما عدّت معاهدة السلام التي أعقبتها) وبأنها طردت، في خطوةٍ انتقامية، وبين عشية وضحاها، 200000 عامل مهاجر مصري؟

ربما لن يبتدِع الليبيون مِنَ المحاولة الأولى، وربما لن يبتدِعوا على الإطلاق، ديمقراطية تشرشلية. قد يظهر إسلاميون مُتطرِّفون على الهامش، وربما في قلب السلطة الجديدة. ولكنَّ من الصعب جداً، بالنسبة لإسرائيل، أن يكون ما سوف يأتي أسوأ من الذي كان.

وخصوصاً أنّ هناك عدّة أحداث جسيمة تزامنت مع الحدث الكبير، وهي تمسُّ إسرائيل ومصالحها الحيوية عن قرب. فقد كان يقال للشعب الليبي، ويُكرَّر باستمرار، منذ عشرات السنين، أنّ له عدوّاً، عدوّاً واحداً هو إسرائيل. ولَقّنوه أنّ هناك مصدراً للشرور، ومنبعاً واحداً لها هو إسرائيل. وانتهوا بإقناعه، فجأة، بأنه لن يكون لهم من مهمة حتى نهاية الأزمان، إلا مقاومة هذا الكيان الذي هو سبب كل بؤسهم وإخفاقاتهم.

وفي الحقيقة، الحدث هو أنهم تحققوا، خلال النضال، ثمّ خلال القمع العنيف الذي أعقبه، أنّ لهم عدواً آخر تماماً، منبعاً آخر لعذاباتهم، وأنّ ذلك المنبع ليس له علاقة أبداً بإسرائيل.

وطبيعيّ أنني لن أقول، إننا سنعبر من الظل إلى النور. وأنه لن تبقى أية عواقب في النظام القادم، ولعشرات السنين، من الدعاية السامة والحاقدة. ولكنها قصفة رعد حدثت. في طبرق، واجدابيا وبرقة، وراس لانوف، وبنغازي، ومصراطة، في كلّ تلك المدن التي ذهبتُ إليها كفرنسي، والكل كان يعرف أنني يهودي، إنه زلزال إيديولوجي روحي، كنت شاهداً عليه. إنها عودة العالَم الحقيقي. ووداع الوهم. لقد مُزِّق حجاب من الوهم بين عشيةٍ وضحاها. في ليبيا الجديدة، في ليبيا التي عليها أن تواجه التحدّي الحقيقي والمحسوس، وهو إعادة بناء دولة ومجتمع حطَّمَها الطغيان، وسيكون أصعب من هذا بكثير ابتلاع وتصديق نظرية إسرائيل، سبب كل الخطايا، وإسرائيل كبش الفداء.

أضيف أنّ للسياسة قوانين. أرغب في أن أقول حتى إنّ لها نظريات، وأبداً، قبلاً، بإحدى هذه النظريات. ماذا تقول هذه النظرية؟ تقول: الديمقراطية لا تُحارِب ديمقراطيةً أبداً. أي نعم. يمكن أن يكون هناك دائماً استثناءات. ولكن، مع ذلك سيكون من الغريب جداً أن يحصل هذا، وبالمصادفة، وللمرّة الأولى، في هذه المنطقة. ولكن حالياً هذه النظرية مُفحِمة.

نعرف طُغاة يفتعلون الحرب مع طُغاة آخرين. وطُغاة يفتعلونها مع ديمقراطيين. وديمقراطيون مع طُغاة. ولكنّي لا أتصوَّر أن تُحارِب ديمقراطياتٌ ديمقراطياتٍ أخرى، ولا وجود لذلك. ثمّة تفسير عملي لهذا القانون. وهناك تفسيرات فلسفية نجدها عند مونتسكيو، أو توكفيل، وحتى عند الكسندر كوجيف. لكن الحتمية هنا من ثوابت التاريخ القديم، والحديث، والمعاصر. يمكن لليبيا ما بعد القذّافي ألاّ تكون ديمقراطية. ولكنها لو صارت ديمقراطية، فستأتي اللحظة، وسريعاً جداً، التي نكتشف معها بأنها أقل تهديداً لإسرائيل من الديكتاتور.

نظرية أخرى. عندما قدمني «عريف» الحفل، التقطت قوله إنّ ثمّة طُغاة يسقطون، وطاغية ليبيا هو «الشيطان الذي نعرفه» والذي نُحبّه جيداً لأنه «يقدِّم»، وهذه كلمة أخرى التقطتها، شكلاً من «الاستقرار». آه! استقرار الطُغاة... أية حماقة هذه! أية أفكار مُعلَّبة! الطغاة ليسوا أبداً مستقرّين. طِغيان واستقرار! هما كلمتان متناقضتان. متناقضتان لسبب واحد على الأقل: لأننا نصل دائماً إلى لحظة الانقلاب على الطغاة، وهذا أيضاً أحد قوانين التاريخ. خذوا، مثلاً، بلداً مثل إسرائيل، لقد أقامت معاهدة مع نظام استبدادي. هذا أفضل من لا شيء، طبعاً. ولكنّ معاهدة تستند على طاغية، وخاصةً، طاغية يشيخ، ويضعف، فهي معاهدة لا تساوي شيئاً ذا قيمة؛ معاهدة سلام مع هذا الطاغية، معاهدة يدَّعي أمام جماعة من الحيوانات الهائجة التي لا تُفكِّر إلا بتمزيقه، أنه الضامن الوحيد، والجدار الحامي، لهذه المعاهدة الأكثر ضعفاً، والأكثر هشاشة، وهي الأقل استقراراً بين المعاهدات. إما أن يستسلِم الطاغية، وبالتالي، يُمكِن أن تتدفَّق الجماعة الهائجة كالسَّيل، وإمّا أن يصمد، ولكن إلى متى؟ السلام الوحيد، الثابت نسبياً إنّما هو الذي نوقِّعه مع بلد أو، بكل الأحوال، مع غالبية شعبه، بعد أن تتِمّ مُناقشتها، والتصديق عليها. معاهدة إسرائيل للسلام مع مصر ستكون موضع تحدٍّ، وأقول أيضاً، سوف تُقاطع. ستظهر قوى نادِمة لأنها وقّعت المعاهدة. ولكن أعتقد أنّه عندما ستنقضي فترة الاضطراب، يمكن فرض المعاهدة مع سلطة مُتجدِّدة.

الطغيان ليس ضمانة للسلام. الديمقراطية هي خيرٌ أفضلُ ضماناً من الطغيان. إنه قانون آخر.

ما الخطر، على أيّة حال؟ إنّه أحدُ أمرَين. إما أن الأمور ستمشي. وإلا، مرّة أخرى، ستخرج ديمقراطية برلمانية ممتازة، تخرُج مُدعّمةً بأفكار عبد الفتاح يونس، ومصطفى عبد الجليل. ولكن الأشياء في النهاية تسير في الاتجاه الصحيح. فالثوار الليبيون يعودون إلى العالم الواقعي، وسَتُتاح لإسرائيل، كما للغرب، كل الفُرَص لكسب وضعٍ شجّعته، بل رافقته ـ وكلّ الفُرَص لخسارة كل شيء إذا استسلمت للقول إنّ هذا الوضع قد صار من دونها، وحتى ضدها، لأنه ستكون، حتى النهاية، تقود المعركة كمؤخرة للأنظمة القديمة الميتة. أو أنّ الأمور لا تسير على ما يرام. وتتعاقب، عبر الديمقراطية، ديكتاتوريات إسلامية. سيكون من المفيد للغاية، ومن الهام جداً أن نتمكن من القول «لقد عبّرنا عنه جيداً»؟ أية فائدة تُرتَجى، إلا الرضا عن النفس، وأن نضع في الجيب مكاسب تلك الشفافية المُبكرة؟ ولماذا التعرّض لِشكٍّ جنون العظَمة الكبير لأولئك الذين سوف يُتمتِمون حتماً: «يقولون ذلك لأنهم يقومون به» أو «هذا لن يمشي، لأن هؤلاء الغربيّين، الديمقراطيّين، واليهود، وإسرائيل، لم يريدوا الديمقراطية، ولم يصدقوها، لقد زحلقوهم، وخربوا». هناك كثير من الربح في الاحتمال الأول. وقليل من الخسارة في الاحتمال الثاني. هذه وجهة نظري، لهذا الصباح، لهذا الرهان. **رهان** باسكال جغرافي سياسي.

الأربعاء 22 حزيران (من فرانز فانون إلى القذافي ـ أشفقوا على أفريقيا...)

عودة إلى القدس. أسئلة مروان بن يحمد، رئيس تحرير مجلّة **جون افريك**. سأعيد صياغة ما يلي وأضعه في شكل ما. وآمل أن أنتهي في الوقت المناسب لكي تنشر إجاباتي في عدد المجلة الذي يسبق القمة الإفريقية الكبرى للاتحاد الإفريقي في 30 حزيران/ يونيو حيث يُحتمَل أن يُفرَض الخط السنغالي. لكنّي أُريد، بوجهٍ عام، أن أُمرِّر فكرتين رئيستَين.

1. إذا استمرّت هذه الحرب، وإذا بدا، في نظر بعضهم، أنها مستنقع، فهذا أيضاً لأنّ كل شيء سُخِّر لتجنُّب السيناريو العراقي، أي لتجنُّب انتصار مُباغِت يأتي على أرض غير ممهدة أمام بديل السلطة القائمة. ولن أذهب إلى حد القول إنّ هذه الحرب طالت عمْداً. ليس لأنّ

الحلفاء يلعبون لعبة التمديد عن سابق إصرار وتصميم. لكنَّ المؤكد أن القضية كان يمكن أن تُحسَم منذ وقت طويل. وكان بإمكان الطلعات الجوية المتحالفة أن تطلق، في اليوم التالي، لو أرادت، رصاصة الرحمة على آخر القوى المواليّة للقذّافي. غير أنّ ذلك سيكون مخالفاً للخيار الاستراتيجي الأساسي الذي صاغه ساركوزي منذ اليوم الأول. وبالتالي لم يكن مؤكداً أن تكون مكاسبها مُدرَكة، حتى عنده. وإجمالاً، لا نسرُق من شعبٍ انتصاره. ولا نصنع له الثورة التي يستلهمها. بل نعطيه الوقت الضروري كي يتشكّل كشعب ذي سيادة، مُزوَّد بإرادة عامة، وبقدرة خاصة به.

كان يمكن لبوش أن يقول، كما فعل في العراق: «نضرب ضربتنا ونتخلّص منهم». ساركوزي يسير بتؤدة وهدوء، مع النية الواعية أو غير الواعية بأن يترك هذا «التأخير» لليبيين وقتاً كي ينضجوا، وهذا ما سوف يظهر، بعد انقضاء الأمر، كأنّه مباركة من السماء. قد يقول خبير أرصاد جوية: ذوبان الثلوج المفاجئ يعني ربيعاً مُجهَضاً.

2. لقد أذلَّ القذّافي أفريقيا. انتهك قيَمها وأهانها، كما سخِر منها. يعتقد من يُدافعون عنه أنّهم يُدافعون عن قيم قارَّة تُواجِه نذالة استعمار جديد عُضال - لا والله فالأمر مُعاكِس تماماً، وهذا فخّ وأفريقيا إنّما تُقلِّل، بذلك، من قدر نفسها، وبعبارة أخرى: ما هذه الوقاحة، والإفراط في استعمال السلطة، من سمح لذلك الرجل بأن يعطي لنفسه الحق في أن يعلن قائلاً: «أنا أفريقيا»؟ هل تعون أيها الأصدقاء الأفارقة المرآة التي تمدُّها لكم تلك الشخصية، ويُجبِركم على أن تتعرَّفوا على أنفسكم فيه؟ وكيف وأنتم ورثة فانون، وأطفال هوفويت، وسنغور، أنتم من كنتم تحملون بحقائبكم حركات تحرر وطني طبعت تاريخ الإنسانية، أيمكنكم أن تنساقوا إلى اختزال أنفسكم في هذه الصورة الهزلية، التي يفرضها في كلّ قمة أفريقية، ذلك الشخص العجيب، والمزاجي، الذي لا يفكر إلا بنفسه، ويحتقر أفريقيا في أعماقه؟ إنَّ تذكير أفريقيا بحصَّتها من العظَمة، واستعادة التذكير بتلك العظَمة التي أرادتها أوروبا بأجمل ما فيها، وتذكيرها، علاوة على ذلك، بالمكانة التي يمتلكها أولادها، في مقبرة عظماء ذاكرة أخرى أيضاً، أعني ذاكرة تحرير فرنسا، من خلال النضال ضد النازيّة بالمعنى الحصري للكلمة. ذلك كلّه ليس إلا أفكاراً تكتيكية. وأنا أُصدِّقها.

لا أخبار جديدة من مصراطة. بالإضافة إلى أنني علمت، قبل قليل، بأن المركب الذي اعتقدنا أننا وجدناه، والذي عوَّلتُ عليه، غير قادر على تأمين العبور إلى مصراطة.

الخميس 23 حزيران/يونيو (أختي كاثوليكية)

إذاعة نوتردام. مُقابلة لا تنتهي حول الربيع العربي وليبيا، وهذه المرّة، مع فكرة ملء القاعة لأجل النقاش الذي سينظمه برنامج «قواعد اللعبة»، يوم الأحد، في سينما سان جرمان، حول الاضطهاد الذي يتعرض له مسيحيّو الشرق. وكما يحدث غالباً، في اللقاءات التي تتم هاتفياً، أُفضِّل أن أستمع مُقدَّماً إلى المحطة لمدّة عشر دقائق تسبق تدخلّي، وبذلك أستطيع أن أقيس حرارة البرنامج. وقد أردت ذلك، على وجه التحديد، مع هذه الإذاعة التي أعتقد أنها المرّة الأولى التي أتكلم بها عبر أثيرها، ولا أعلم شيئاً عنها.

أنا في بيتي، جالساً وراء مكتبي. مُبحِراً عبر الإنترنت، بحثاً عن أخبار جديدة من ليبيا هذا اليوم، وفجأة أسمع صوتاً يجعلني أشنِّف أذنيّ. إنه صوت مُعلِّمة دينية، له نغمة طفولية تُنشِد، على ما يبدو، أحد مزامير داوُد. لم يذكروا اسمها، ولم يقولوا لنا شيئاً عنها، اللّهمّ إلا قولهم لنا بين قراءتين، وبينما هي بصدد تلاوتها، في نهاية حفلة تعميد، وجمال الهداية، أنتم ترون أنّ الكاثوليكية مازالت مقبولة رغم كلّ شيء. وفي المزمور الثاني، عندما تعود إلى قراءاتها، أستوعب فجأة أنّ هذا الصوت الغريب، هذا الصوت الملائكي، هو صوت شاعرة ذات موهبة سرّية، يجهلها الجميع تقريباً، باستثنائي - وعرفتُ أن ذلك الصوت، ليس صوتَ طفلة، بل هو صوت شابة، فقدتُ أثرها؛ وأدركتُ أنّ مُعلِّمة الدِّين هذه هي... أختي.

الجمعة 24 حزيران/يونيو (في رأس القذافي)

التقيت دولون، البارحة مساءً، في المطعم الصيني، حيث اعتدنا. «ستة وسبعون سنة يا مايسترو! هل يُمكِنك أن تتخيّلني في السادسة والسبعين!» ثم، بشيء من القلق في عينه البنفسجية، يستعيد صوته الحاد الذي عرفته قبلاً، في المكسيك أيام كنا متخاصمَين وكان يريد مصالحتي، في آخر النهار، وبعد تصوير آخر لقطة (لصوته بقوّته الكثيفة)، وتلك الأزمنة البعيدة الآن،مازالت تشكّل في أعمق أعماقي، جزءاً من وجودي.

يوم كان يدعو المصوِّر السينمائي، ويشير له بتشغيل جهازه، ثم يتجه صوبي مطلقاً نظرة مثيرة «هذه لك يا مايسترو»؛ وحينئذٍ، أمام الكاميرا هذه المرّة، وعيناه ملتويتان في عدسة الكاميرا، وكل تَنانِين العالم التي ترقد عادة في قعر بؤبؤيه الموجّهَين إلى الهضبة الخالية. كان يمنحني نظرة، فقط نظرة، نظرة من لا شيء، نظرة غير واردة في السيناريو، هي نظرة لأجلي

ولأجل مجموعة نظرات ألان دولون، التي لم يشك أبداً في أنّني كنتُ أشكلّها بورع. وقال لي أيضاً بذلك الصوت الثاني، الصوت الأصم، الذي هو صوت الصامت:

«أنا قلق يا مايسترو... لا تسألني المزيد... إنهم حمقى، اِحْمِ نفسك... أنا قلق». وأضاف أيضاً، أقل ثقةً بنفسه، وأكثر تردُّداً، دخلت التنانين في صلصال نظرته، لكن في صوته، نبرة أكثر خفوتاً، مما زادني قلقاً: «ثمّ إلى أين وصلنا يا مايسترو؟ نموذج «القذّافي» هذا وغد... ولكن لا أحِبُّ الطريقة التي تتقدّم بها الأمور... أسمع... وأصغي... إنهم بصدد أن يجعلوا منه ضحية... بعد قليل سيصبح شهيداً... أو ربما أنكى! قد يصبح مُقاوِماً...

يا مايسترو إني أشتمّ الأشياء، رائحتها هنا ليست زكيّة...»

أعلم أنه يشمّ رائحة الأمور. أنا أيضاً، أشمّ، أشمُّ عبثية الرأي العام الجاهز كي ينسى الإرهابي، والسفّاح، والطيران الحربي الذي يُغير على الجموع ويقصفها، والطاغية، والمقابر الجماعية ولا يرى فيه إلا الشخصية التي تقف مُعانِدةً في وجه الغرب، الخارج عن القانون والمراوغ، الفاسق والمحبط، في مدينته طرابلس المُحصَّنة، وبقوى التحالف معاً. أحس ببداية هذه الحالة الجديدة التي يُحاط بها. هذا المبدأ من الغموض الذي يرتبط بأيّ شخصٍ يقِف وحيداً ضد الجميع، وبالتالي يرتبط به ذاته. أشم رائحة تلك الشائعة التي تتصاعد، وفي النهاية تجعل من هذا الشخص العام جداً، ومن هذا الديكتاتور العادي، من هذا الأوبو الطاغية الدِّميَة، شخصاً لغزياً، شيطانياً بعض الشيء، ولكن ليس كثيراً، مخلوقاً من لحم ودم، وفي الوقت نفسه أسطورة، ديكتاتور بالطبع ، ولكنَّ فيه قليلاً من روبن هود، ومن ثعلبٍ أو من فأر صحراء، كما يظنُّ «رومل» أو «الإنكليز»، ولكنّه، في الحالتين، متملق كبير، ثعبان بحر، يجري من مخبأ لآخر، متهكماً من عظماء العالم، أو من القوارض، وقرصاناً من دون ميزات، أرى تحولاته كمُدان. وألاحظ موهبته كساحرٍ لقدرهِ الخاص، يُحوِّل الرُّعب الذي كان يستلهمه إلى فضول شبه مقدس. وأقول في نفسي، نعم، هناك بداية ردّة عكسية إذا ما تأكّدت فسوف تكون مرعبةً.

يُضاف إلى هذا أنّني... أنا أيضاً... لو كنت شريفاً حقاً، فأنا مجبر على الاعتراف بأنني أتربَّص وأترقَّب ككل الناس، الصور النادرة التي تظهر له من طرابلس، وأطَّلِع عليها شخصياً ككل العالم، على مرّات ظهوره المجنونة، أشرحها، وأفسرها وأبالغ في تفسيرها. ماذا يفعل؟ في أيِّ شيءيفكّر؟ ماذا يمكن أن يكون في رأسٍ يعتقد أنّه ملِك ملوك أفريقيا، ملك

الملوك، النجاشي الجديد، أن نجد أنفسنا في جلْد ذلك المطرود من الجماعة العامة، وهذا الخارج عن القانون الكوني، وبجلْد ذلك السيد الملعون؟ هل ينام الليل؟ هل ينام في قيلولة بعد الظهر؟ هل يصلّي؟ هل يُحِبّ؟ هل يحلُم؟ لو كان الجواب نعم، فَبأيِّ شيء يحلُم؟ قال لي أحدهم إنّ اِبنه المفضّل سيف، يذهب كلّ صباح، بلباس سرّي، كي يسبح. هل هذه هي حاله؟ هل يقوم هو بتلك المخاطرة أيضاً؟ وهل مازال في طرابلس؟ هل هو هتلر في برلين؟ أو عيدي أمين دادا في جدّة؟ أو نيرون عشيّة حريق روما، أو تيبريوس في كابري؟ هل يعِي حقاً ما حصل له؟ هل يعلم بما يؤخذ عليه؟ أم أنه تحصَّن في ذلك التوحُّد الذي هو القاعدة عند الديكتاتوريين؟ المتضايقون والذين لا يريدون أن يروا؟ أُفكر بتلك الابتسامة الغريبة التي كان يزرعها منذ ثلاثة شهور، في خطابه الشهير في الساحة الخضراء في طرابلس. كانت ابتسامةً طويلةً جداً. وكانت ابتسامةً مُلِحّة ومطولة دون مُبرِّر. كانت حقاً ابتسامة مجنون، أو شخص مُنفصِل عن الواقع.

عزلة القذّافي تهمّني، يهمني أيضاً، الحقد الذي لا بُدّ أنّه يغذّيه، على ساركوزي، وعلى فرنسا، وعلى الغرب عموماً، وأكثر فأكثر على الجنس البشري، أتخيَّل نوبات غضبه وارتباكه، نفوره الجديد من الوجوه وحذره من كلّ ما يقترب منه. حوله الخونة. المؤامرات التي عليه إحباطها كل يوم. الهوس من السُمّ. وضجيج القنابل حول قصوره. ربما يقاوم كثعلب، لكنه بالتأكيد يعيش كفأر. حياة ناسك لا تُصدَّق، وربما حياة الاحتضار. ابن لادن جلبها لنفسه. كان يتلبّس دوره وقدره. لكن هو؟

السبت 25 حزيران/يونيو (وجدتُ المركب)

حتى الآن ما من تاريخ، من طرف الجنرال زرموح. ولكن على الأقل وجدِنا مركباً. أعتقد أنه، هذه المرّة، المركب المناسب. هو في جزيرة مالطة. مُجهَّز بعدّة المتن بأفضل من المركب الذي أُلغِي الأسبوع الماضي، وهو أيضاً أفضل من المركب الذي قطعت المسافات بنفسي لأجله. ولدينا مبدئياً طاقم للمركب. أعطي المعلومة للإليزيه، مكتب الجنرال بوغا، وقد نُقل الخبر حالاً إلى حلف الناتو لكي يكسب الوقت.

الخميس 30 حزيران (عندما يحلم الرئيس بصوت عالٍ)

قصر الإليزيه.

هو الذي طلب مني المجيء.

ولقد طلب مني ذلك، وسألاحظ بأنّ هذا، من أجل إبلاغي برسالة بسيطة مفادها: مهما قالت الصحافة واستطلاعات الرأي، ومهما بدأنا نتكلّم هنا وهناك، حول الثمن الباهظ الذي يمكن أن تُكلِّفه العمليات، ومهما فكر الدبلوماسيّون، وبعض العسكريّين، والرأي العام، والمعارضة، والمهووسون بالوساطة، هنالك شخص واحد لن يتزحزح قيد أنمُلة في قضية الحرب في ليبيا، ذاك الشخص هو نيكولا ساركوزي.

وجدته هادئاً.

كان بعيداً عن تلك الانفعالات التي ينعته بها خصومه من جديد.

مع ذلك الشيء الحادّ في أسفل وجهه الذي كنت دائماً ألحظه عند الأشخاص غير الواهمين.

ـ تلقيت رسالتك.

كنت قد تركت له رسالة قلت فيها إنَّ المحمودي ورجال القذّافي قد أعادوا الاتصال بي.

ـ مشكلة هؤلاء الأشخاص أننا لا نعرف من يُمثِّلون، ولا مدى هامش التحرُّك لديهم.

ـ حقاً، ولكن ألا يستحق الموضوع، مع ذلك، شرف المحاولة؟ هل سيكون ذلك تفادياً للندم في يوم من الأيّام؟

لم أفكر تماماً بما كنت أقوله له. كنت أفعله بروح جمهورية، وبِولاء.

ذلك أنني، كما فعلت مع رجل اليمامة الذهبية، وكما في الموعدَين السابقَين مع مدير مكتب القذّافي، وكما في البقية الباقية من هذه القضية، لن أترك شيئاً ليصير غصّة في حلقي.

ـ أوه، ندم... هذا ليس من طبيعتي في شيء! أنا، الآن، في قلب الحدث، أي أنني في الحرب. ومن غير الوارد، في نظري، تبديد أيّة لحظة زمنية، يمكن أن أُسخِّرها من أجلها.

ـ لا شكّ. ولكنّ هذا أيضاً حرب. ما بعد الحرب، وبالتالي الحرب. ماذا سيحدث في اليوم التالي للانتصار؟ وما الذي يضمن لفرنسا ألا تأتي كي تعيد سيناريو النموذج العراقي؟ ربما يريد هؤلاء أن يتحدثوا عن هذا الشيء.

أنا، هذه المرّة، محامي الشيطان قطعاً. هوسي بالقياس يدهشني، وبالتالي، يدهشه هو أيضاً.

ـ من المضحك أن تتكلّم كما يتكلّم مستشاري (توجّه بابتسامة دافئة إلى ليفيت). جميعهم يقولون لي: «السيد الرئيس، وماذا في اليوم التالي...في اليوم التالي يا رئيس...» ماذا يمكن أن

أجيب؟ فنحن لا نصنع أنفسنا من جديد. صحيح أنّ لديّ هذا الجانب من القيام «بمهمّة واحدة». أستغرِق بمجامع ذاتي في حدث اللحظة.

ـ وحتى لو أنّ آخرين، في هذا الوقت، يفكرون باللحظة التالية؟ وحتى لو أنهم أخذ وضعية أن يسرقوا من فرنسا اللحظة القادمة، انتصارها؟

ـ أواه...ما معنى أن يسرقوا الانتصار؟ سيكون هناك ديناميكية كهذه على كلّ حال، كأثر الانفجار...

ـ أفكر بما يحضِّر له الأميركيُّون، على سبيل المثال. والله وحده يعلم إذا كنتُ غيرَ مُعادٍ للأميركيّين أم لا، ولكن...

ـ ولا أنا!

راجع نفسه:

ـ ولو أنّ لهم، على الرغم من كلّ شيء... طريقة غريبة في انتعال أحذية قياسها 48، وفي سحقِ رِجلك تحت مداسهم الهائل، وعندما تصرخ قائلاً لأحدهم: آي... آخ، لقد دُستَ على قدمي يُجيبك: «إنه خطؤك يا صغيري! ماذا كنتَ تفعل تحت حذائي؟»

حسناً، أدري أن عملنا مُضنٍ، في هذه اللحظة التي نتكلّم بها، في وزارة الخارجية؛ وأنّ هناك أشخاصاً أقوياء جداً، سيخرجون من الغابة في الدقيقة الأخيرة، وسيعرضون على العالم السلام، وبالتالي على الليبيّين.

ـ خطة سلام رئيسة جاهزة في اليد.

هزَّ كتفيه.

ـ لِحُسن الحظّ.

ـ يصلون مُتأخِّرين، ويأخذون الأوّلية، ويفرضون خطّة مصنوعة في الولايات المتّحدة الأميركية.

ـ غودار، هم غودار في الحالتين، قال، رافعاً حاجبه، كما لو كان يشير إلى التزامن غزير المعنى مع جان ـ لوك غودار.

ـ لست من مناصريك، وسوف تنتهي صحبتنا، أنت تعلم ذلك جيداً، في اللحظة التي ستربح بها فرنسا هذه الحرب. ولكن لا أدري لماذا يترك الفرنسيون أنفسهم ينغلقون، في دور صانِعي الحرب، بينما يدّعي آخرون القيامَ بالسلام.

ـ ولا واحد من أنصاري، والله هذا جميل، حلو! أتعتقد أنّ السيدة رويال كانت لِتَفعل ما أفعله؟ وبأنك يمكن أن تكون هنا مع مدام رويال، وأنتما تتحدثان عن الطريقة المثلى لديمقراطية ما، أو لحماية المدنيين؟

ـ لا أعلم... وأُذكِّرك بأنّ هناك اليوم، على رأس المعارضة البرلمانية، شخصية لها طابعها الخاص، هي مارتين أوبري التي اتخذت موقفاً، قبل الجميع، حول ضرورة التدخُّل، ولم تغير رأيها أبداً بحجة أنّ هذا هو أيضاً رأي رئيس الجمهورية.

ـ صحيح.

ـ في يوم ما سيكون لدينا دور كدورها في إخراس دُعاة السلام في الحزب الاشتراكي، وفي إفهامهم أنَّ الحزب مُنقسِم إلى درجة لا تسمح بأن نفرِض عليه انقساماً جديداً في ما يتعلق بليبيا. هذه المرأة تتصرّف بشكل جيّد.

ـ لِيكن.

ـ ولكنْ دَعْنا في موضوعنا. يجب أن نتذكّر البوسنة. كنت معارضاً لاتفاقيات دايتون.

ـ وأنا كذلك.

ـ أعلم ذلك، ولكن هذا لم يمنع بيل كليتون من النجاح، في تلك الفترة، أن يقرِن الدورَين، وأن يجدّل معاً إكليلي غاره: إكليل القائد الحربي، من جهة؛ وإكليل رجل السلام، تقريباً في نفس الوقت.

ـ حقاً. لكن علينا أن نربح الآن.

ـ إرادتي الكاملة تتطلّع نحو ذلك: نحو النصر.

رن هاتفُه. إنه ابنه الأصغر لويس. يضيء وجهه، لديه مُنعكس أن يُخفي فمَه بيده. سمعتُ فقط كلمات رقيقة ـ وقد وعده بأن يعاود الاتّصال به

ـ أين كنّا؟ نعم، هذه الحرب. كنت أقول إننا سوف نربحها.

واستدرك بالقول:

بالمحصلة نحن... قال «نحن» بسرعة. لأنه هو من سيكون في النصر، أخيراً؟

أحصى بأصابعه:

ـ الأميركيُّون، نحن متفقون على أنهم ليسوا هناك حقاً.

الإصبع الثاني:

ـ الإيطاليّون، كان من الممكن أن يحصل ذلك، غير أننا نتساءل عمّا إذا كان ما يزال في رأس برلسكوني دماغ.

الإصبع الثالث:

ـ الاتحاد الإفريقي. لقد عملت عملاً جيداً مع واد. ولكن من دون زيما...

حرّك إصبَعه الثالث بإلحاح خاصّ:

ـ يجب أن نتذكر ذلك جيداً! جاكوب زيما، حاضر دائماً. لقد كان هنا وقت إعلان قرار 1973. وسيكون هنا من جديد في قمّة هذا الأسبوع. لقد اتصلتُ به، وقلتُ له: جاكوب، نحن بحاجة إليك، يجب ألا نترك واد يتفتّت. وبالطبع أجاب جاكوب: حاضر، كما فعل فيما يتعلق بالقرار الدولي.

استعاد سلسلة أفكاره، وطوى الإصبع الثالث، ورفع الآن الإصبع الرابع:

ـ حسناً، بالتأكيد هناك الإنكليز. آه الإنكليز! وبدت عليه هيئة من يريد أن يقول شيئاً كثيراً عن الإنكليز.

ـ الإنكليز، أناس جيِّدون. حلفاء رائعون. وأعلم جيداً أنّنا من دونهم، ومن دون كاميرون، لم نكن لنصل لما وصلنا إليه. هناك مشكلة واحدة معهم، هي أنهم بحاجة إلى استشارة ثلاث مكاتب محاماة، قبل أن يلقوا بقنبلة.

ولما لاحظ أنّني لم أفهم:

ـ نعم. أنا أطلب من رئيس مجلسي العسكري، وإذا قال لي رئيس مجلسي بأنني أستطيع، فإني أمضي في مَسعاي، أمّا هم...

مازال خنصرُه في الهواء، يرسم حركات دائرية صغيرة بذراعه مُقلِّداً هِياجاً كبيراً.

ـ لديهم خمس مروحيّات، خمس! مقابل خمس عشرة مروحيّة لنا! بالضبط، مابين عشر وخمس عشر حسب الحاجة! دون أن نحتسب الأجهزة التي تأتي لمساندتهم ولحمايتهم، لأنّ مروحيّاتنا، تحوم على ارتفاعات منخفضة جداً! وهم، عندهم، الإنكليز، نقاشات لا تنتهي، ليعلموا هل هم ضمن حيِّز القرار، أم لا، وبالمحصلة، في الأسفل، لن تنتظر الأهداف تقرير المحامي، للابتعاد إلى ملاذ آمن، أليس كذلك...؟

يرفع الآن بنصره، الإصبع الأخير، وعليه هيئة من وصل إلى نهاية تعدادٍ مُضجِر، ويختتم قائلاً:

ـ آه! لو ربحنا هذه الحرب...

واستدرك:

ـ لا، ليس لو، عندما سنربح هذه الحرب، سيرى العالم أننا والليبيون من فعل ذلك، ونقطة انتهى. في الواقع...

وأشار كمن تذكر شيئاً نَسِيَه.

ـ هل تعلم أنني رأيت جبريل مرّة ثانية؟

وأشار إلى الأريكة التي أجلس عليها، مقابل أريكته:

ـ كان هنا، قبل أمس. مع عسكريين. جبريل شخص جيد جداً، جادّ جداً، أتوا يقولون لي إنهم بحاجة إلى المال والسلاح.

التفت إلى ليفيت:

ـ الحق أنّ الأسلحة لديهم، لقد حصلوا على الكثير منها، أليس كذلك يا جان دافيد؟

ـ نعم، سيدي الرئيس، أجاب ليفيت الذي لم يكن قد تكلَّم منذ بداية اللقاء.

ـ كم؟

وبما أنّ ليفيت حذِر، تردَّد في الإجابة:

ـ لا أدري كيف تمّ ذلك، والواقع، أنّ قسماً كبيراً من الأسلحة مازال في أغلفته، وسيكون على رصيف بنغازي الكثير من الحاويات التي لم تُفتَح بعد. ومازالوا يطلبون المزيد. ولكن بالمقابل..

قاطع نفسه، كما لو أنّه يتلذّذ مسبقاً بالخبر، ويعمل على استمرار المتعة.

ـ وبالمقابل، يعِدوننا بالهجوم. اندفاع تكتيكي كبير. من دون شك على البريقة. أو في جبل نفوسة. سنرى. ومن ثمّ يأتي بالطبع الشيء الثاني والأساسي الذي لا أعتقد أنّه مُمكِن: أن يعلنوا لنا استقلال طرابلس قبل 14 تموز.

اتّخذ هيئة من لا يُصدِّق فعلاً، للأسف، الشيء الثاني. بعد ذلك، وبهيئة حالم، ونظرةٍ طفولية:

ـ ستكتمِل النشوة بحضور جبريل على منصة الشرف.

وكأنه يقرأ أفكاري:

ـ أعلم أنها كانت فكرتك. كنت قد قلت لي ذلك: أن يكون جبريل على منصّة الشرف والطيارون الفرنسيون مُكلَّلون بالمجد. سيحضر الطيّارون. لكن أخشى ألاّ يكونوا على منصّة الشرف.

حـدّق بي مرّةً أخيرة. شعرتُ أنّ اللقاء يشارف على نهايته، وتبقى الصلابة... صلابة ماذا؟ لا أدري.

ـ كلّ ذلك مغامرات. الشيء الوحيد الذي لا يُشكل انقلاباً مفاجئاً هو أننا كنّا على حق في خوض تلك الحرب وأننا بصدد إنهائها.

هناك اعتبارات عديدة أيضاً، حول الفرنسيين المخطوفين في أفغانستان. وقد ذهب الليلة السابقة لاستقبالهم في فيلا كوربي.

انتفض قليلاً، ولم يُعلّق، بل قال:

ـ تكلّم عن ذلك مع بوغا، كان ذلك عندما عبرت له عن رغبتي بالسفر على متن طيّارة أواكس فرنسية.

بضعة أسئلة أخيراً، حول زيارة مقاتلي مصراطة والذي لم يستوعب لماذا كل هذه الصعوبة في تنظيمها: ولو كنت محتاجاً إلى مساعدة؟ لا، لا أعتقد؛ فقط التأكد من أنّ روندو يقوم بما يجب القيام به عندما يصلون أخيراً إلى مالطة؛ الباقي، قمت به على وجه التقريب؛ وجدت أخيراً المركب؛ والطاقم؛ وهذا الصباح تلقيت المعلومات: بأنهم يجب أن يتوصلوا إلى الخروج من مصراطة في الأسبوع المقبل.

افترقنا بسلام.

الاثنين 4 تموز (الاجتماع الأول لأجل سورية)

اجتماع سوري في باريس في سينما سان جرمان. في البداية، كانت الأمور بسيطة. أتى سوريو أنطاليا ليروني وقالوا لي: «لماذا سياسة الكيل بمكيالين؟ لماذا هذا الظلم الغامض؟ لماذا هذه المُعاملة غير العادِلة؟» قلت لهم: معكم حقّ: هذا غير مُسوَّغ في الواقع؛ إنها فقط أسباب عرضية، ، وبالتالي أسباب سيئة. شرحوا هذا التفضيل؛ فلنمسك بشيء ما؛ لنفعل ما بوسعنا، وسيصبح ذلك أمراً واقعاً. بدأ جيل وشالشا بالتحرُّك مع فُرق عمل مجلّة La Règle du Jeu، وطاقم السينما وقد كوّنوا من ذلك مهرجاناً جميلاً، تخلّلته عيوب كثيرة بالتأكيد، ولكن كان له فضائل ثلاث على الأقل.

قد يكون الأول. يبدو من الجنون أن نقول ذلك. ولكنها الحقيقة. لم يحصل ذلك حتى الآن. إلى درجة أننا نستطيع القول، نعم، إنّ هذا المهرجان ربما كان سابقة نادرة من نوعها، وهو كذلك في الحقيقة، كنا الأوائل في التحرُّك.

1. شاركت فيه شخصيات من اليمين ومن اليسار. لوران فابيس وكوبيّه. وكان فيه مدارس ومشارب متعددة، أحزاب الوسط، ومفكرون مستقلون، ووزراء سابقون مثل كوشنير أو عمارة، حيث تحالفت كل الحساسية الفرنسية وتعالت على نفسها لتجعل من سورية الهدف الوطني الكبير الذي يجب أن تكونه.

2. السوريون. كانت الفكرة الفوريّة أن نرى سوريّين على المنصة يتوجّهون إلى الشعب الباريسي. سوريون من كلّ المشارب. سوريون من كلّ الانتماءات. منهم مُتديِّنون وآخرون غير مُتديّنين. منهم بعثيّون قُدامى، وآخرون لم يكونوا بعثيّين أبداً. ثوريون، وإصلاحيّون، محافظون بصبغة مُعتدلة... وقد حرصنا ـ وهذا تفصيل رئيس يتعلق بالثورات العربية ـ أن تكون هناك أيضاً نساء، وعلى وجوب أن يأتي السوريّون جميعاً من نساء ورجال.

هل يبدو كل ذلك جيداً؟ هل كلّ هذا جيد؟ كان ذلك رائعاً جداً في نظر بعضهم؛ لأننا رأينا منذ ثلاثة أو أربعة أيام، أن حركة غريبة بدأت تتزحزح، ولا هدف لها إلا إفشال المهرجان. الحجّة كانت بسيطة: برنار ليفي...ماذا، برنار ليفي...؟ لاشيء. فقط برنار ليفي. شيء غير مُحتمَل أن يتدخل برنار ليفي لإنقاذ السوريين. شيء لا يطاق أن يكون السوريون مدينين لبرنار ليفي بأيِّ شيءٍ كان. ليفطس السوريون، أي نعم، من الشاق عليّ قول ذلك، ولكن يجب أن أنتهي بقوله، ليفطس السوريون بدل أن يُنقِذهم هذا اليهودي، عفواً هذا الصهيونيّ، برنار ليفي. في البداية، اعتقدت أنّ هذا الشيء يأتي من أوساط موالية، زد على ذلك أنّ هذا ما قلته، منذ قليل، قبل بداية المهرجان. قلته على شاشة أحد التلفزيونات ولكن في الحقيقة لا. هذه المحاجة الغريبة، ويجب أن نقولها بصدق، المحاجة المتوحِّشة قليلاً، يبدو أنّ معارضين كانوا يدعمونها أيضاً.

أمرّ على الفرنسيين لأن القضية تبدو لي، بشكل خاص مُؤثّرة. في نظر واحد مثل كوبيه الذي لم يُبدِ أيّ استعداد للحيرة، وواحد مثل فابيس الذي صرف شُرطياً من جماعة الإسلام اليساري الذي جاء يشرح له أنّ مساندة يهودي إنّما هي ورطة وتهمة في نظر السوريين، وواحد مثل كوشنير الذي قدِم، ومن أكسيل بونياتوفسكي، ومن فرانسوا بيرو، ومثلهم كثيرون اخترعوا الأعذار التي تتفاوت في تصنُّعها، لكن قمّة الأعذار كانت عند راما ياد التي اتّصلت بي، قبل ساعتين من بدء المهرجان، لتقص عليّ قصة «مرض» (أوردها هكذا كما وردت)؛ «العملية عاجلة» (أعيد إيرادها كما هي)؛ «أحاول وسعي أن أُحرِّر نفسي، يا سيد

ليفي، سيد ليفي، كلّ شيء! ولكن سآخذ القطار، يا سيد ليفي، في نفس ساعة مهرجانك! إذا لم يكن هناك قطار بعد ذلك؟ أو غداً ولكن بما أنني أجريتُ عملية جرا ـ حـ ـ يّة، أقول لك؛ عمـ ـ ليّـ ـ ة هل تفهم! أم ماذا؟ ولكن في باريس بالطبع؛ آه، نعم، القطار... حقاً، عليّ أن آخذ القطار...لم أفهم سؤالك... ولكن ليس قطار هذا المساء، في الغد... ولكن ليس من أجل العملية ولكن للراحة بعد العملية... ماذا؟ لو استطعت، في هذه الحالة، سأمر لمدة ثلاث دقائق، لأنني سأكون على طاولة العمليات! عفواً؟ لا، صحيح، لم أخضع لعملية هذه الليلة... ولكن أنت تُبلبلني، يا سيد ليفي، إنها الراحة قبل التخدير وأنا بحاجة إليها، يا سيد ليفي، للراحة ـ لأنّك تعلم يا سيد ليفي ماذا يعني التخدير؟

غداً في نفس موعد مهرجانك سأدخل المستشفى هذا ما أستطيع أن أقوله لك....ماذا؟ مهرجانك اليوم. آه نعم؛ أنت محق... أنت تُشتّتني في النهاية... أنت تقوّلني ما لم أَقله...أنت تجعلني أخلط بين قطار ومستشفى، الاثنين والثلاثاء...هل تريد موتي، أم ماذا، يا سيد ليفي؟ أنت بدون قلب يا سيد ليفي؟

«أنا سأخضع لعملية، هل هذا واضح؟ ويجب أن أرتاح، هذا كل ما يجب أن تفهمه: آه، رسالة... صحيح أنه كان بإمكاني أن أرسل رسالة...هل أنت من سيقرؤها؟ أنت جاهز حتى لكتابتها بنفسك؟ آه... هذا لطف منك... ولكن الطبيب ينصحني بعدم كتابة الرسائل أيضاً...» وعلى هذا الكلام أقفلت راما ياد الخطّ.

تتدفّق على الشبكة، شبكة الإنترنت العربية سيول من الشتائم ضدّي، ومن تشويه كامل للحقائق، وجبال من الصور المُخجِلة تظهرني، في غزة، مُبتهِجاً بقتل الأطفال.انتهيتُ بقمة الغيظ، بأن أمسك الثور من قرنيه، فاتصلتُ بألكسندر كولدفارب، رئيس الوفد، وجئت، في قلب الليل، إلى فندقهم؛ شارحاً للمشاركين الأحد عشر المُحتمَلين، الذين، خافوا، في البداية، حتى من مجرد الظهور، في الردهة، معي:

1. أنني، في الواقع، يهودي؛

2. العلاقة مع إسرائيل هي مُكوِّن من مكونات يهوديتي؛

3. لا يوجد يهودي في العالم، من بنغلادش إلى البوسنة، ومن أفغانستان إلى دارفور وفي ليبيا الآن، وفي مؤسسة SOS racisme، لمكافحة العنصرية في فرنسا إلى النضال ضد الإسلام الراديكالي المتطرِّف على مدار البسيطة كلها؛ عمِل بقدر ما عمِلت من أجل المسلمين في العالم؛

4. وأنّه، لو استمر هذا التهريج، ولو استمر هذا الجو من الريبة، فسوف أُلغي ببساطة ووضوح هذا المهرجان، أو بكل الأحوال، لن آتي إليه. في النهاية، عادت الأمور إلى نصابها. وقام المهرجان. وقد شهِد بعض اللحظات القوية (لوران فابيس).

أظهر الكسي لاكروا، مُقدِّم المهرجان، تحت نذير العاصفة، أنّه خبير في فن إدارة قاعة صعبة.

هل أُنكِر نظريتي في مؤتمر القدس؟ البرهان المحسوس الأوّل، بأنني أخطأت عندما قلتُ إنّ الشعوب العربية، عندما تمزق حجاب الأوهام الذي يُشوِّهها، فسوف تعود إلى الواقع وإلى التقدير العادل لصراع القوى؟ كنت أتكلَّم بالطبع عن الليبيين. لكنّي شعرتُ في الوقت نفسه... وللمرّة الأولى، أنّني خائف.

الثلاثاء 5 تموز/يوليو (الإسلامان)

المشكلة بسيطة. أقول دائماً: كان يتعيّن أن نكون في مُنتهى القسوة مع الإسلام الفاشي. وقلت دائماً حرب الحضارات الوحيدة القائمة، في الإسلام، هي التعارض بين الإسلاميّين الفاشيّين والمعتدلين، بين أعداء الديمقراطية وأصدقائها. هذه هي الحرب التي ألاحِقها.

الأربعاء 6 تموز/يوليو (أنا اليهودي في ليبيا)

المشكلة بسيطة ـ وهي ليست مشكلة. طالما ناضلتُ من أجل يهودية منفتحة، وشاملة، يهودية الآخر التي أورثني إياها ليفيناس والذي لم يكن يوماً منسجماً مع ذاته إلا عندما يمد يده، يواجه نظرة الآخر ويواجهه وجهاً لوجه. هذه هي المعركة التي أقودها. «عبقرية اليهودية» تلك التي أحاول، من جديد، أن أتمثّلها. أيرفض الآخر يدي الممدودة إليه؟ ربما. سوف نرى جيداً. أضعف الإيمان أني فعلت ذلك. أضعف الإيمان أني فعلته.

الأربعاء 6 تموز/يوليو، تتمّة (إسرائيل أيضاً)

مشكلة إسرائيل. لا توجد مشكلة اسمها إسرائيل. إذ ماذا يُمكِن أن تكون المشكلة؟ على ماذا أُلام؟ على مساندتي للثورة الليبية دون أن أنسى، مع ذلك، وفائي لإسرائيل؟ الأدهى من هذا: أنني وضعت نُصب عينيَّ ليبيا حرّة تُعلِن القطيعة مع العصبية الدينية السابقة، وتُقيم

أواصر العلاقات الطبيعية مع إسرائيل؟ أي نعم، أنا أتحمّل المسئولية. أنا مناضل من أجل السلام. ولن أدَّخِر وسعاً في التذكير بذلك في كلّ المناسبات. هاهي الحقيقة.

الأربعاء 6 تموز، خاتمة (المخرج الأخير للقذّافي)

تناولتُ طعام الغداء مع بيتر ويستماكوت سفير بريطانيا العظمى في فرنسا. أخبرني بشيء لم أقرأه في أي مكان. أنّه في باب العزيزة، مدينة تحصُّن القذّافي، هناك موقع، موقع واحد، واحد فقط، تجنَّبت، بعناية، قوى التحالف قصفه، حتى الآن: مدرج المطار الخاص للعقيد؛ المكان الذي تحطّ فيه طيّارته الخاصة، حيث لم يضربها أيّ صاروخ بعدُ؛ وهو، في النتيجة، المكان المتوقع أن يهرب منه في اللحظة القادمة. قال لي ويستماكوت ضاحكاً: الرسالة مضاعفة. أولاً: هناك باب للخروج؛ هو هنا؛ ينتظرك؛ كلمة منك، أو بالأحرى حركة واحدة وتتوقّف المعارك. وبعدها. انتبه لنفسك؛ التقدير، الصالح من جهة، يصلح تماماً في الاتجاه المعاكس؛ لو استيقظت في صباح جميل وعلمت أنّ قنبلة انكليزية أو فرنسية أتلفت مدرج طيّارتك الخاص، وإذاً هذا يعني أنك انتهيت، وأن الفخّ قد أُغلق، وبدأ العد التنازلي.

الخميس 7 تموز/يوليو (هل من مبعوث إلى طرابلس؟)

فكّرتُ كثيراً، منذ البارحة، بحديثي مع ويستماكوت. بعثت رسالة نصيّة إلى نيكولا ساركوزي كي أقترح عليه إرسال مبعوث خاصّ مكلَّف بأن يتحدّث بخطابين. 1. انتهت جولة اللعب. مهما تخيّل وتحديداً، ومهما جهِدت في تنشيط خياله وكالاتُ تشويه الأخبار التي يدفع لها أجوراً هائلة لجعلها تقول ما يريد أن يسمع، فالتحالف متماسك، ولن يتفكك. وما دام كاميرون وساركوزي غير قادرَين على التراجُع - فهما محكومان بالانتصار 2. هناك، من ناحية أخرى، عرض حازم. هناك بلد، مكان في هذا البلد، مستعد لاستقبالكم، أنت وعائلتك. هذا العرض قائم لمدة محدّدة من الأيام. أنت تعرفني، يا سيادة العقيد. أنا لا أخدعك، هذا العرض حازم، وغير قابل للنقاش، الكرَة في ملعبك. سوف يُكلَّف هذا المبعوث الخاص، في النهاية، أن يوصل للقذّافي الحقيقة في يد، والحلّ في اليد الأخرى، ولا ينبغي أن يكون فرنسياً. ولا إنكليزياً. ولا ألمانياً بالتأكيد، لأنني لا أرى لماذا يجب أن نعطي هذه الهدية للألمان. وماذا نقول، إذاً عن الإسباني؟ وهناك، بين الأسبانيين، أزنار الذي يعرف

القذّافي جيداً، ويثق فيه، كما قيل لي، وسوف أجسّ نبضه من خلال صديقي مايكل انجل كورتز. أجاب ساركوزي بالقول: «الفكرة جيدة؛ لكنها عندنا من قبل؛ لا تتحرك؛ وخصوصاً لا تبُح بها أمام أحد».

الجمعة 8 تموز/يوليو (انتصار!)

سوف يُقلِع مقاتلو مصراطة يوم الأحد. سوف يذهب سليمان، شخصياً، لاستقبالهم. أخيراً! سيكون ذلك شيئاً آخر غير كلّ تلك «المفاوضات» المحزنة!

السبت 9 تموز/يوليو (نحو بوسنة! ليبيّة)

اتُخِذ القرار. سيكون هناك فيلم. فيرونيك كايلا هو الذي أقنعني. ووجدت أنّ فرانسوا مارجولين ـ هل كان هذا لازِماً! ـ هو المُنتِج المثالي له. صديق قديم، كنت قد التقيتُ به منذ ثلاثين عاماً، أعتقد أنّ ذلك تمَّ عن طريق لوران ديبو. لم يكن عمره يتخطّى العشرين. كان عائداً للتو من إثيوبيا، وكان يحضر فيلمه الكبير عن اوديسّة يهود بيت إسرائيل (الفلاشا)، ولم ننقطع عن بعض منذ ذلك الحين. أنجز فيلمَين وثائقيين، الأول عن الأطفال الجنود، والآخر عن طالبان. كنت أتمنّى لو أخرجته. وقد أنتجنا معاً، في نهاية الثمانينات، فيلماً من قصص قصيرة ضد لوبّان. أحب فيه كثيراً جانب السخرية المريرة، والجانب الأنيق والحساس، فهو مشّاء في باريس، أشقر هامد، وغامض. أحب فيه أيضاً شجاعته، وإقدامه اللذين سنكون بحاجة إليهما. وبعد ذلك هناك، من جديد، هذا التوافق الرائع بيننا. أُكلِّمه عن المشروع كما أراه. أستعرض دور الواحد تلو الآخر. أقص عليه «الخيط الإسباني» الذي يربطني بجيل ومارك روسيل. يجيبني، بنبرة مُتأخِّرة كثيراً عن يدِه التي يستخدِمها عندما يريد أن يقول شيئاً مهماً: «هذا غريب... هل تعرف أنّ جدي روبير لانتز، كان أحد مصرفيي توريد الأسلحة لأسبانية الجمهورية؟ كان متحالفاً مع بلوم...»

كان شاهداً على ضياعه عندماً يكون محشوراً أو عندما يحشر نفسه، بعدم التدخل... و... وقد وضع بلوم، وهو مغمض العينين، سلسلة من الإمدادات عبر عقود كانت تمر عبر ليتوانيا التي كانت بدورها، تعيد إرسالها في مراكب حتى برشلونة... الإمدادات عبارة عن بنادق... ومدافع... ولم أعرف على وجه الدقة، إذا كان هناك قطع طيّارات للتركيب أم لا، ولكنني

أعتقد جازماً أنّه إذا... ألا يُشبِه هذا، إلى حدٍّ كبير، توريد السلاح الفرنسي، اليوم، عبر قطر؟ طرح الكاهن في رواية وداعاً للسلاح سؤالاً على الراوي، هو: هل تؤمن بالله. فأجابه الراوي: أحياناً في الليل، وأحياناً في النهار، في ظروف شبيهة بهذه الظروف.

الأحد 10 تموز/يوليو (رجال مصراطة)

نيكولا ساركوزي على الهاتف. في فور دو بريانسون. الساعة العاشرة صباحاً. محادثة مختصرة. أعلن لي عن هجوم كاسِح يقول عنه الليبيون إنّه «دفعٌ قويّ»، لمنتصف الأسبوع، اليوم الخميس من دون شك. قلت له: وأخيراً صار رجال في المركب الآن. أكّد لي أنه سوف يستقبلهم، نعم، ليس يوم الثلاثاء، لأنه سيكون في أفغانستان، بل يوم الأربعاء. سيكون الوفد مؤلّفاً من الجنرال رمضان علي زرموح، وهو الذي قادنا في مصراطة وفتح لنا الطريق، في المرفأ، لحظة المغادرة؛ ومن مُعاوِنه، الكولونيل أحمد هاشم، الذي قال لي علي إنه كان حاضراً أيضاً، وإنني أعرفه من دون شكّ، وسأتعرف عليه حالما أراه؛ ومن خليفة الزواوي، رئيس مجلس المدينة الذي جعل مني مُواطنَ شرف؛ وطبعاً، من سليمان فورتيه الذي ذهب، شخصياً، لإحضارهم.

الأحد، 10 تموز، يتبع (القارب كان فارغاً)

نحن بالأحرى في الحادي عشر من شهر تموز/ يوليو؛ لأنّ الساعة الثانية بعد منتصف الليل. كلّ شيء جاهز. انطلق القارب من مالطة، وكان قد وصل البارحة، أي يوم السبت، إلى الرصيف الذي أعرفه، في مرفأ مصراطة، هناك حيث استُقبلنا برشّات من بنادق الكلاشنكوف. دانييل روندو، صديقي القديم دانييل روندو، ماو ـ السابق، أصبح سفيراً في مالطة، كان قد تلقى صور جوازات السفر وحلّ جميع المشاكل المتعلقة بدخولهم دول التشينغن. وكان بوغا قد حدّد لهم موعداً يومَ غدٍ، الاثنين، في الساعة الخامسة بعد الظهر، في الإليزيه. يجب أن يستقبلهم الرئيس، كما هو مُخطَّط، بعد الغد. وعليَّ أن أذهب بنفسي، في الفجر، لاستقبالهم في مالطة، ومن هنالك، أصطحبهم إلى باريس.في الساعة الواحدة ليلاً، تلقّيتُ رسالة إلكترونية من ابن سليمان يخبرني إنّه تلقّى مخابرة للتو من كابتن المركب، يخبره فيها، بأنه حال وصوله إلى المياه الإقليمية المالطية، انتظر، وانتظر، ولكن لا الجنرال زمروح،

ولا الكولونيل ولا أحد حضر إلى المكان المحدَّد، ولذلك انتهى بالإبحار من دونهم، هذا الصباح. ماذا حصل؟ لا أحد يعلم شيئاً. ولا أحد لديه أية وسيلة ليعرف، نظراً لعدَم وجود هواتف في مصراطة. لا شك في أنّ السبب هو عودة المعارك. ربما يكون هجومُ رجال القذّافي على جبهة راس لانوف التي أعلن عنها موقع جريدة ليبيراسيون قبل قليل. وقد يكون أصدقاؤنا مُحتجَزين على الحدود. لا أدري، ولكنني بالطبع منكوب، كلّ شيء ينتظر الإجابة. كلّ شيء.

الاثنين 11 تموز/يوليو (إستراتيجية رفيعة)

رسالة نصيّة جديدة من ابن سليمان يُعلِمني فيها باستئجار مركب جديد، وهذه المرّة استأجره بشير صباح، وسيُغادر مصراطة صبيحة يوم الثلاثاء، ولكن باتجاه تونس. فهل يمكنني استقبال أصدقائي من تونس، حيث سيصِلون مساء يوم الأربعاء؟ واللقاءات المُنتظَرة مع الرئيس، ومن ثَم مع العسكريين، أو العكس، هل ستتم اللقاءات في هذه الأحوال؟ نعم، بالتأكيد! لم أتردَّد لحظة في أنّ أقول له نعم! ولكن ستأتي المشكلة، هذه المرّة، من جانب الإليزيه. وفي الواقع اتّصلت ببوغا. أعلنت له، وأنا أطير من الفرح، الخبر السعيد. ولكن... «الدفع القويّ» الذي أعلنه لي ساركوزي الخميس مساءً...ويوضح أنه...مع هذا: «الدفع القويّ» سوف يدخل وصول أصدقائنا في تصادم، ومنافسة، وتضادّ معهم...اعترضتُ. ودافعتُ. قلت له إنني لم أفهم؛ وليس هناك من تصادم قائم؛ وإنّ هذا من الغباء؛ ولا معنى له؛ وعلى العكس فالأشياء تسير معاً وبالتوازي؛ وهذا ما هو متفق عليه؛ الخ. ولكنه جامد لا يُثنى. شعرتُ أنّه لم يقُل لي كلّ شيء. ربما هناك اعتبارات عسكرية، وربما هناك تحويل للهجوم على الجبهة، وزيارة جماعة مصراطة قد تُضعِف منه مجال الرؤية. هكذا إذاً، نعم. هذا هو الأكثر إراحةً في تلك اللحظة. لنفترض في الواقع أنّ الهجوم المُعلَن على جبهة البريقة فخّ نحاول من خلاله جذب القذّافي لجعله يُجمِّع هنا الحد الأقصى من قُوّاته: هل زيارة المقاتلين المتوقعة يمكن أن تفتح جبهة جديدة حاسمة، على أبواب طرابلس، ألن تجعل الرسالة ضبابية وتعقد كلّ شيء؟ عليّ هذه المرّة أن ألغي الموعد بنفسي، أحس بموتٍ روحي، ولكن الإلغاء. أنا على درجةٍ من الإحباط تمنعني من تهدئة أعصابي أكثر من ذلك.

الأربعاء 13 تموز/يوليو (لننتهي من أمر السيادية)

البارحة مساءً بثّت القناة البرلمانية برنامجاً، على هامش النقاش الذي دار حول التمديد للحرب، بين النائب عن التجمع من أجل الجمهورية فيليب فيتيل، وثلاثة مُعارِضين للتدخُّل في ليبيا بينهم روني برومان.

يستطيع هؤلاء الناس أن يقولوا ما يُريدون. يستطيع هؤلاء أن يُقسِموا بأكبر آلهتهم بأن المشكلة ليست في مبدأ التدخّل، ولكنّها في إمكانيته، كما يستطيعون أن يقولوا إنّه محكوم بالإخفاق الذَّريع.

بإمكانهم أن يردِّدوا، بطيب خاطر، أنهم لو فكروا، ثانيةً واحدة، في إمكانية أن يسير ويُسرِّع مجيء الديمقراطية، لكانوا من أوائل المدافعين عنه.

يمكن أن يسكرونا باعتبارات ادِّعاءاتهم الخيِّرة حول التقسيم القبَلي لليبيا، وحساباتهم المُراهِنة حول الـ«6000» قتيل، أو بالأحرى، حول قمع القذّافي إبّان أيام آخر شباط/ فبراير وما بعدها.

أساس المشكلة بسيط.

لنفترض أن شعباً تحت البوط. وليكن هناك طاغية، وهو موضع إجماع كلّ الناس، كما نُجمِع على تكرار كلمة سِرّ أو تعويذة، ولنفرِض أن الناس ليسوا، مشبوهين إزاءه - لا- بالتعاطف - ولا- بالتسامح. هل تمتلِك الديمقراطية الحق، نعم أو لا، في أن يكون لها رأي في الموضوع؟ لو كان الجواب نعم، فهل لها الحق في أن تُساهم، إنِ استطاعت، في حماية، وحتى، لو تطلب الأمر، في تحرير الشعب المعني؟ أم أنّ هذا التحرير يجب أن يكون فقط قضية الشعب موضوع الاضطهاد - بينما يُشارِك باقي الناس، مكتوفي الأيدي، في مشهد جهودهم، في مشهد موتاهم، ورُبَّما، طبعاً، في مشهد دمارهم؟

ثمّة من جهة، جملة، «بأيِّ حقّ!» التي أطلقها برومان عدّة مرّات، مغتاظاً، في وجه النائب؛ تلك الطريقة في تكرار بأيِّ حقّ، ولكن بلى، بأيِّ حقّ، نحن، المستعمرين القدامى، نمنح أنفسنا القدرة على أن نُقرِّر من يجب أن يحكم، داخل الحدود الليبية، ومَن لم يعد يستطيع أن يحكم؛ وبعبارة أخرى، فكرة أنّ القدر إن جعلكم تُولَدون ضمن هذه الحدود أو تلك، فكرة مُحزِنة، وغير عادلة، ولكنّ الأمر كذلك، وهذا المكان هو قدَرُكم.

وثمّة، من جهة أخرى، فكرة أنّ الحدود ليست كلّ شيء؛ وأنَّ الفضاء ليس الكلمة الأولى ولا الأخيرة للنوع البشري؛ وأن **الدُّوَل** هي منبع السيادة، طبعاً، ولكنّها ليست منبعَها الوحيد؛ وأنّها هي التي تضمَن الحق، حسَناً، ولكِنّ للأفراد حقوقاً أخرى ـ سوف نُسمِّيها «حقوقاً طبيعية» أو «عابرة للدول» ـ غير الحقوق التي تعترف لهم الدُّوَل بها؛ وبعبارة أُخرى، فكرة أنّه لو أُبِيد جزء من الإنسانية، وذُلّ، وقُتِل، فعلى القسم الآخر من الإنسانية أن يتدخَّل، نعم.

تُسمى النظرية الأولى بالسيادية. وهي نظرية لواحد يُدعى غوبلس وقد احتكرها، وحطّم الأرقام القياسية في ذلك. ونتيجته المنطقية هي أنّ الدول لديها سلطة غير محدودة؛ وأنّ الحد الوحيد الذي يحدُّها إنّما هو حدُّها الجغرافي؛ وأنّ الأفراد ضمن هذه الحدود، لا يستطيعون أنّ يطالبوا إلا بالحقوق التي تضمنها السلطة.

النظرية الثانية، تُدعى بالنظرية الدولية؛ وهي أفضل الإرث، قرين المذهب الإنساني لعصر ألانوار والماركسية السابقة؛ وهي تنهل، أيضاً، من إرث اليهودية ـ المسيحية طالبة، خِلافاً لكلّ الوثنيات، وحدة الجنس البشري ومتوافقة بشكل طبيعيّ، مع الرسالة الشاملة، التي يحملها، أيضاً، الإسلام؛ وهي الوحيدة التي، وهي تُفضي إلى هذا الواجب الأخلاقي من التضامن مع كلّ الشعوب المُستعبَدة على الأرض، تستمر بإرادة إعطاء معنى للكلمة الجميلة، أخوة.

الأربعاء 13 تموز، تتِمّة (السفرة الرابعة إلى ليبيا)

في عزّ الصيف.

رقة الجنوب.

هذه القراءة العامّة لألتوسر التي تمتّعتُ بها هذا المساء، في آفينيون، مع سامي فري.

أردت القيام بها تخليداً لذكرى ألتوسر الذي علّمني، في العمق، تلك الفضيلة وهي النظريّة الدوليّة.

وأردت أن أقوم بها من أجل، كوربيه، أُوليفيه كوربيه، مرافقي في هذه المغامرة، وناشر **رسائل إلى هيلانة** هذه التي كان يفرح بها فرحاً كهذا.

ثُمَّ إنَّ هذا الثنائي، مع فري، كان يروقني: منذ ذلك الوقت الذي كنت أسمعهم يتكلَّمون عن موجة الشبه العائلي الذي قد يكون بيننا! كانت وجبة العشاء هذه، في بورتو، مع شوهل،

وكافين، وأرييل، حول تصوير فيلم دانييل شميد؛ كان هناك ديلفين سيريغ، الذي التقيتُ به، في نفس السنوات، وربما قبل ذلك بقليل؛ وكان، من جانبه، ذلك الشخص الذي لكمه في وجهه، في إحدى الأمسيات، عند ليبّ، لأنه أعتقد أنّه أنا.

لكنْ.

لقد غيرت رأيي.

أولاً، لأنني لم أعد أستطيع التعويل على قادة مصراطة؛ تقوضني هذه التأخيرات؛ وهذه المواعيد الخائبة تجتاحني؛ وفكرة أن أكون هنا، في قريتي في عزِّ الشمس، بينما الناس يموتون في مصراطة، مدينتي الأخرى، تلك التي شرَّفتني، وهي تشرّفني باختيارها لي، هذه الفكرة لا تُطاق؛ وإذا كان كلّ وقتي انتظاراً في انتظار، فالأفضل أن أنتظر في ليبيا.

وبعد ذلك، وقد يبدو هذا غريباً، ولكنّ هذا ما حصل:قرأت أيضاً، هذا الصباح، مقالاً عن العمليات التي تتعثَّر، حرب الناتو القذرة، والفوضى التي وضعنا فيها برنار - هنري ليفي، وعن القذّافي الذي لا يُهزَم، وقوانين العشائر التي لا يُمكِن تجاوُزها؛ وهذا ما أزعجني، ويلبلني، لقد سئمت كثيراً من أن أسمع، فجأة، تكرار نفس الديباجة، ولهذا قرّرت أن أُلغي كلّ شيء، وأن أُبعِد الجميع كي أعود إلى ليبيا، وفي ليبيا، ليس فقط في مصراطة، حيث استعدتُ كلَّ شيء، هذا الصباح، من نقطة الصفر (ولم يبق لي من جديد إلا الانتظار) ولكن في تلك المنطقة التي لا أعرفها، والتي أتى عبد الفتاح يونس ومصطفى الساقزلي يُكلِّمانِ ساركوزي عنها والتي أعلم أنّ كلّ شيء يمكن أن يُفعل هناك أيضاً، يُفعل -يُفعل - في الشمال - الغربي من البلد، على مسافة ساعة في السيارة عن طرابلس، الهضبة العليا الوعِرة لجبل نفوسة.

اتصلتُ بمنصور الذي ردَّ عليّ بجملته الأبدية: «حسناً، موافق، ما من مشكلة».

ثم اتصلتُ بعلي المُتنقِّل بين بروكسيل ولا أدري أيّة عاصمة أفريقية، ولم أعد أستطيع ملاحقته، أضيع في أمكنته، ويحصل لي أن أتساءل، كيف يفعل ذلك، كيف يُدير دولةً له وحده، أو على الأقل، وزارة خارجية، إنه نوع من القمر الصناعي الدبلوماسي يدور في فلك دائم، حول الأرض يجولُ من عاصمة إلى عاصمة من أجل التفاوض، اعتراف بالمجلس هنا، وتوريد أسلحة هناك أيضاً: ودائماً بمزاج لطيف، وبتلك الحماسة المُعدية، وضحكته المراهقة - هنا، فقط، أجد تردُّداً؛ نقطة قلق؛ ربما للمرّة الأولى، تلقّى اتصالات أقل مما يقول؛ وربما لم

يكن يعرف المنطقة، هو أيضاً، وربما كان مقاتلوه في الجبل، ونصفهم من العرب، والنصف الثاني من البربر، ليسوا بعد، تماماً في المدار السياسي، للمجلس الوطني الانتقالي. قلت له: هناك حلّ وحيد، استغِلّ وجودي. استغِلّ هذه الرحلة، هيّا بنا، لننصِب معاً، علم المجلس الوطني الانتقالي.

هاتف، أيضاً، إلى كلّ الطاقم المعتاد: جيل، بالطبع، الذي التقطه في اللحظة أو أنه كان يختفي في مركبه؛ فرانك، الذي ذهب قبلاً في مهمة وسيحلُّ محله واحد آخر؛ ومارك الذي يعيد توماس لوبون من عطلة، وكميل لوتو، أحد مهندسي الصوت المفضّلين لراوول رييز؛ وبما أنه سيكون هناك فيلم، فسيكون معنا، فرانسوا مارجولان من الآن وصاعداً.

قُرِّر السفر بعد غد. إلى جربة أولاً. ثمّ نأخذ الطريق إلى الحدود التونسية. وبعدها إلى الجبل الليبي. ستكون إقامتي الرابعة في ليبيا.

الباب الرابع

النصر

الجمعة 15 تموز/يوليو (عفريت السفر)

جربة

مطار خالٍ.

لا سُيّاح، أو ثمّة قليل منهم.

رجال شرطة تونسيّون يعطِّلوننا

حد أقصى من الإزعاج، ومن الروتين، قبل أن يدفع فرانك رسوم سلاحه. نماذج غريبة من الأشخاص، تروح وتجيء، مثلنا، في صالة الإقلاع الفارغة، وتراقبنا دون توقُّف.

هم ليبيون، على ما أعتقد.

نعم، هم ليبيون، أكّد علي ذلك.

ولكنهم ليسوا، بالتحديد، أصدقاء ليبيا الحرّة.

أدركتُ أنّ هذه الطريق التي سنسلكها، لنذهب إلى جبل نفوسة، ما دامت موجودة، فلا بُدّ أن تكون هناك طريق أُخرى، غير بعيدة، هي الطريق الساحلي، وستكون سالكة في الاتّجاه الآخر.

وبدقة أكثر، أعي، أنه، مثلما كان القذّافي عنده مدرج الطيران الذي كلمني عنه، ذلك اليوم، سفير بريطانيا، فقد بقي لديه هذا الممرّ الأرضي الذي لم يقصفه الناتو والذي يسمح لرجاله: 1) أن يأتوا، كما أتى الولد محمد القليوشي، «ليفاوض» في باريس أو في مكان آخر؛

2) أن يعود مثل أولئك الأشخاص الذين وجدناهم، يمرون، خلال عطلة نهاية الأسبوع، بعيداً عن أبخرة الحرب.

لماذا لا يقصف حلف الناتو هذه الطريق؟

لماذا لا يُباشَر هجوم مشترك بين الثوار والناتو لوضع هذه الطريق تحت رقابتهما؟

لأنهم لا يريدون.

لأنهم يتركون، باب المخرج للقذّافي، مرّة أخرى.

للقذّافي دائماً الخيار، بين أن يستمرّ في الحرب، ويمدّد معاناة شعبه ـ أو أن يستسلم.

وبالعكس، يجب، بمنطق جيد، في الأيام أو الأسابيع القادمة، أن تبقى هذه الطريق نصب أعيننا: لأن الإشارات التي كانت يمكن أن تدل على أنّ التحالف قد فقد صبره، والإشارة

الأكثر تأكيداً للهجوم النهائي، والبرهان على أننا لن نفاوض بعد، وبأننا سنُمارِس، على القذّافي، الضغط الأقصى، سيكون ذلك بإغلاق مدرج (الطيران)، وهذه الطريق (الأرضية).

كانت أربع سيارات في انتظارنا.

واحدة رباعية الدفع يقودها رجل يناديه الجميع بـ «الدكتور»: طبيب مارس مهنته في دوبلن، لكنّه عندما اندلعت الحرب، آلى على نفسه العودة، مثل آخرين كثيرين، وقد صعدت معه برفقة جيل وفرنك. وسيارتان بمحركات ضخمة، واحدة يقودها الأخ الأصغر للدكتور، والأخرى يقودها مُتطوّع ليبي كلَّفه الأطباء المناوبون للعمل الإنساني من أجل اللاجئين في تونس: وفيهما ركب باقي الطاقم.

ثم كانت هناك، على رأس الموكب، سيارة يسمونها «سيارة الأمن» مع أنّ الركاب غير مُسلَّحين: يبدو أنّ التونسيين يحظرون حمل الأسلحة؛ وقد قدرت ذلك من عدد حواجز التفتيش، ومن المزاج العكِر، للرجال الذين يديرون التفتيش، وبأنه في كلّ مرّة، وبالطريقة التي يُفتِّشون بها تحت كلّ طبقات الثياب، رُخصة حمل سلاح العائدة لفرانك، وأن يعزلوا أنفسهم في نقطة حراسة مغلقة، كي يُرجِعوا إلى ما لا يعلمه إلا الله بغية تعقيد حياتنا، وأرى أنهم قد أخذوا هذا الحظر على محملٍ كبير من الجد.

وصلنا بعد حوالى الساعة إلى تطوان، المدينة الأخيرة قبل دخول ليبيا، حيث يلتقط الأنفاس القليلُ النادر من الصحفيين الذين يُغامِرون في جبل نفوسة، حيث سنذهب للعشاء والنوم بضع ساعات.

السبت 16 تموز/يوليو (على الطريق مرّة أخرى)

أكملنا طريقنا في الساعة الثانية والنصف فجراً، وبقيت الأمتعة في الصندوق الخلفي للسيارة، لكيّ لا نضيع الوقت.

بعد ساعة، وكنتُ ما أزال شبه نائم، وصلنا إلى الحدود، التي وجدناها لدهشتنا الشديدة، أكثر إراحة من الحدود الأخرى، المصرية، ممَّا رأيناها عندما مررنا في المرتين السابقتين.

لم نجد، من اللاجئين، إلا النَذْر اليسير (هل لأنَّهم استقرّوا في المخيمات التي تكلَّم عنها البارحة أخو الدكتور، خريج دبلن؟

أم لأنّ مقاتلي الجبل سيطروا على غالبية مدنهم، وبدأ الجميع بالعودة؟).

قلّة قليلة أو معدومة من السيارات سواء في اتجاهنا (لا يُدهِشني ذلك أبداً لأن هناك قليلٌ من الصحافيين، مرّة أخرى، في الجبل، أو حتى معدومين، ولا يوجد حتى ناشطون إنسانيون) أو في الاتجاه المعاكس (وهو ما يؤكد بالمناسبة، أنّ تدفق اللاجئين قد توقَّف، وأنّ الحياة في الجانب الآخر، بدأت تعود إلى طبيعتها).

وبالمقابل، وجدنا على الفَور آثار معارك.

منذ وصولنا إلى وازن ـ دهيبا، المدينة الليبية الأولى التي نجتازها، وجدنا هياكل بيوت محروقة، وآثار لطلقات من بنادق 12، 7 على المنازل التي لا تزال مُتماسكة، وحفريات خلّفتها القنابل. وحتى قبل ذلك، على الحدود، تماماً خلف البناية الجميلة، المدهونة ليكتب، باللغة الفرنسية (أُثبتها كما وردت) bienvenue en Lybia libre (أهلاً بكم في ليبيا الحرّة)، حيث تبدو صورة كبيرة عملاقة لخليفة عسكر، بطل الحرب ضد الإيطاليين، وحيث هذه الحفرة في منتصف الطريق المليئة بالحجارة والحصى، والحفرة الأخرى على بعد خمسين متراً، بعيداً عن الطريق، وفي عمق الصحراء، خلفها صاروخَا غراد سقَطا قبل يومين.

من هذا الجانب، أيضاً، لم يحتط الليبيون في تأمين الحراسة: ولكنَّ فرانك اقتيد وراء كومة من الحجارة المحطّمَة التي كانت ربما بيتاً ولم يبق منه إلا قسم من الواجهة كتب عليها: «ليس أخي ابن أبي وأمي، بل هو الذي يحمل السلاح معي»؛ عاد منها بعد بضع دقائق، مع بندقية قتال يعاينها بارتياب، يبدو أنها لم تُناسِبه ـ فوضع فيها رامي رمانات أوتوماتيكي جعلها ثقيلة جداً يصعُب التحكم بها ـ توقفنا على بعد 100 متر، في مزرعة مهجورة حيث توجد خيارات أخرى، وقد سُلِّم بندقية كلاشينكوف.

بقيت أمامنا ساعة لنصل، على طريق مستقيمة، تطل على السهل، وكأنها من بعيد شرفة على طرابلس، مزروعة بالمواقع المُحصَّنة جيداً، إلى مدينة كاباو «في منطقة الجبل الغربي» في بلاد البربر.

وكان علينا أن نقضي ساعة أخرى كي نصل إلى تمزان.

على بعد 50 كم من الحدود، في منتصف الطريق بين المدينة العربية زنتان والمدينة البربرية نالوت، وقعنا، في ثكنة جويبيا، على مشهد مائتي دبابة أهملها عساكِر القذّافي في أثناء انسحابهم.

الأكثر غرابة أنّ لهذه الدبابات خصوصية أغرقت الثوار في «الحيرة» حين استولوا عليها: ينقصها كلّها نفس «الصاعِق» الذي يسمح بالإطلاق؛ ماذا حدث، سألْنا قائد الثوار الذي

استولى على المكان؟ رُبّما خرَّبتها زُمرة من أنصار القذّافي الذين يتّبعون، كما في كلّ مكان من الجبل، سياسة الأرض المحروقة. ورُبَّما وجدوا الوقت، قبل الانسحاب، لتفكيك مائتي «صاعِق» (وقد أرونا عشرين واحداً منها استرجعوها من حوض، مِمّا يُعزِّز هذه الفرضية)؟ أو أنَّ الدبّابات كانت دائماً هكذا، القذّافي الذي كان يتوجّس من جنوده ويُكدِّس الأسلحة المتقدِّمة ككثير من ألعاب رائعة ولكنها مكسورة (أو ككثير من الخدع، والأسلحة الوهمية المُهرَّبة، وهي غير صالحة للاستعمال)؟

في طريقنا، تحقَّقنا، مرّة أخرى، كما في كلّ مكان من هذه «الأرض المحروقة» من أنّ خرائطنا كلّها خاطئة، كلّها، تلك التي جلبناها معنا من باريس، وتلك التي وجدها مارجولان في لندن: مسافات عبثية؛ ارتفاعات غير قابلة للتصديق؛ إشارات اتّجاه الطريق موجودة، لكنها ذائبة في الصخور أو غائصة في الرّمال؛ أسماء النجوم أو المدن غير الموجودة مكتوبة بخطّ كبير؛ أما أسماء المدن، المدن الحقيقية، فمكتوبة بحروف صغيرة، أو بأحرف مائلة، كما لو أنها أمكنة معينة.

بعد حوالى 10 ساعات، وبعد أن أضعنا الطريق مرتين وكدنا، في المرّة الثانية، بسبب خطأ دفعتنا إليه خياليّة الخارطة، أن ننزل تماماً في الوادي، على خطوط القذّافي الأولى، وصلنا إلى زنتان، عاصمة جبل نفوسة والمقرّ العام للقوات الدفاعية فيه.

هل بُلِّغوا بوصولنا؟

كان علي قد أكد لي أنّهم لم يُبلَّغوا (لأسباب أمنيّة، الخ).

لكن الواقع هو أنَّ لواء من نمط اللواء عبد الفتاح يونس استقبلنا حالاً في مبنى البلدية. (نفس الشعر الرّمادي المفضض، نفس السحنة المغامرة، نفس اللباس العسكري للجيش الليبي القديم بلون الخاكي، ونفس الطّبع المتوعِّد المازح).

بعد حوالى نصف ساعة من الأحاديث الشكلية، أتى رجل يرتدي سترة، وسِروالاً فضفاضاً أبيض، وجيليه سوداء، وعلى رأسه طربوش أبيض ناصع، فجلس، قرب اللواء، على مقعد صغير منخفض، القرآن في يد، والمسدَّس في اليد الأخرى - وضعهما على المكتب الكبير الخشبي اللامع، اسمه مختار خليفة. وهو أيضاً رغم لباسه المدني، ضابط، ولكن، بعد سلسلة من المؤشِّرات (الاحترام الذي أحاطه به اللواء؛ وتغيُّر نبرة صوته، فلم يعد يمزح أبداً، منذ أن أطل، بنظرته السوداء، غير المريحة التي عاملنا بها هذا الضابط الجديد القادم؛

وطريقته، بألا يقول شيئاً خلال دقائق طويلة، لاشيء على الإطلاق، وحين باشرتُ الكلام، جعل يتفحّصني، ويفصّلنا كلّنا تفصيلاً، بعين الصّقر الذي يأخذ كلّ وقته؛ وإلى جانبه، مُسدّسه طبعاً، والطاولة الصغيرة، الشبيهة بالمقعد الخلفي القابل للثني الذي يرتاح عليه كما يفعل المرء عندما يكون واثقاً من سلطته. إضافة إلى هذه الدفعات من المؤشّرات، لاحظنا تماماً أنّ له سيطرة على الضابط الأول مع أنه أدنى رُتبةً منه، ربما هو عقيد، كما لاحظنا سيطرة الساقزلي على يونس في بنغازي؛ ولكنْ قبل أن يُنهي العقيد تفحُّصه، ، قرَّر، بإيماءة غير ملحوظة من ذقنه إلى الجنرال الذي انبسطت أساريره فسمح لنفسه من جديد بالابتسام.

أنا الذي كنتُ أتكلّم حتى الآن.

عبّرتُ عن فرحي بقدومي إلى هنا، مع علي زيدان، ممثل المجلس الوطني الانتقالي، الممثل الشرعي الوحيد لليبيا الجديدة، هذا مع عِلمي بأنّ أيّ ممثل رفيع الدرجة مثله لم يجد الفرصة، حتى اليوم، كي يقوم بمثل هذه الرحلة إلى الجبل ـ ومن حسن الحظّ أن تسمح هذه المهمة بهذا الاتصال؛ ومن حُسن الحظّ أن تعمل على التذكير «بالسلطة البارزة» للمجلس الوطني الانتقالي.

تكلّمتُ عن شُهرة علي العالمية، عن هالته في فرنسا وفي أوروبا ـ ألححتُ بطريقة ثقيلة على أنّ لعلي زيدان، ولفرنسا بالطبع، ولكن له أيضاً، الفضل بأن الجبل تلقّى أربعين طناً من الأسلحة الجيدة، سمحت بطرد القذّافي خارج المنطقة، وسوف توفِّر في الوقت المُناسِب، وبالتزامُن مع تقدُّم مقاتلي مصراطة، فُرصة الزحف على طرابلس.

شرحتُ أيضاً أن ذلك الامتياز بتلقي أسلحة ومعدات أكثر من كل المناطق الأخرى في ليبيا الحرة يوجب بعض الالتزامات: ماذا عن سجونكم مثلاً؟ وكيف تعاملون سجناءكم الحربيّين؟ إذ يُحكم على جيش تحرير من الطريقة التي يعامل فيها أعداءه، أليس من الممكن مساءلة بعض منهم، بعيداً عن حضوركم، بحرية؟

وأضاف جيل: وماذا عن الاتهامات التي ساقتها ضدكم منظمة حقوق الإنسان؟. لقد صدر عدد من جريدة الليبيراسيون، بشأن تشخيص الوضع الإنساني. قام الرجل ذو اللباس المدني بحركة من يطرد ذبابة، بسرعة كبيرة، كما لو أنها ردّة فعل طبيعية، ودعم حركة يده بتكشيرة استياء وقرَف. ولكنّه لمّا انتبه إلى أنّ هذه الحركة لا تليق بضابط يرتدي اللباس المدني في جيش يتوجّه نحو الديمقراطية، استأنف حركته، بشكل عكسي تماماً، أي حركة مَن يصطاد

الذبابة لا مَن يطردها ثمّ، هذا كما لو أنّه يسحق ذبابة حقيقية، ضارباً بيديه على الطاولة، بقوة شديدة، مما جعل الضابط «الذي من نوع يونس» ينتفض.

ألحّ جيل بالقول: منظمة حقوق الإنسان تتَّهِمكم بالنهب، والابتزاز، يبدو أنه ليس عندكم إعدام بالجملة، ولكن هناك عودة إلى الضرب القاسي، وإلى نهب المُستشفيات، والتمييز بين المدنيين من أعضاء القبيلة، المعروفة بموالاتها للقذّافي، كقبيلة المشاشيّة.

ماردُّكم على هذه الاتهامات؟ ولو كذبتم ذلك، هل لكم أن تعطونا عناصر، وبراهين مضادة ـ وهل تستطيعون إثبات أنّ المنظمة غير الحكومية مخطئة؟

واسترسل فرانسوا مارجوليان ومارك روسيل بالقول: عدا عن ذلك، نريد أخيراً أن نصعد إلى الجبهة، لأننا، أوّلاً، بصدد تصوير فيلم عن ملحمة ليبيا الحرّة ونحن بحاجة إلى صور عن مُقاتلِيكم. ولكن أيضاً لأنّ هناك سؤالاً آخر، لا يزال يُطرَح في فرنسا ولن نستطيع الإجابة عليه إلا بالذهاب لرؤية المقاتلين: العلاقات بين البربر والعرب ـ هذه المنافسة منذ عهد الأجداد التي لعب عليها القذّافي والتي نريد أن نعرف إذا كان التمرد، والنضال ضد القذّافي، وأُخوَّة السلاح، سيمتصُّونها أم لا. من يقاتل في غواليش، مثلاً؟ هل هم عرب أم بربر؟ هل أنتم جاهزون لاصطحابنا كي تعطونا البرهان، وهنا أيضاً، أليست قوات التحالف وهي تمدُّكم بالأسلحة، بصدد أن تصبَّ الزيت على نار حرب قبلية مستقبلية؟

ها قد قلنا كلّ شيء، أخرجنا كلّ ما عندنا، لعبنا كلّ الأوراق.

وانطلاقاً من ذلك، هناك واحد من خيارَين: إما أنّ يستمر هذا العقيد الرديء بمزاجه العَكِر

ـ وإمّا...

كان الخيار الثاني هو الصحيح.

لا أدري لماذا أصبح وجهه أكثر انفراجاً، وبدا مُحبّاً بصورة مُفاجئة، وقبل طلبنا ـ واقترح، في هذه اللحظة، أن يُرافقنا بنفسه إلى الحدود، إلى غواليش، آخر قرية بيد الثوّار الذين يواجهون كتائب القذّافي.

السبت 16 تموز/يوليو، تتِمّة (على جبهة غواليش)

طريق الشمال.

سيّارة بك ـ آب رُكِّب عليها رشاش أيضاً حصلنا عليه في نقطة التفتيش الثانية بعد زنتان، وهي التي ستكون في آخر الموكب.

ركب العقيد في البك ـ آب الخاصّة به، من دون أيّ سلاح آخر غير مسدّسه الكولت، وبدون رشاش أيضاً على سطح السيّارة، الجنرال المازح قام بدور سائقه الخاص، فركِب في البك ـ آب الأول وركبتُ أنا معه، أمّا السيارتان الاثنتان، أي سيارة علي منصور، ثُمّ سيارة مارك وطاقمه، فسارتا بعدنا. لم أملّ من مُراقبة العقيد من مكاني خلفه حيث أجلس: فهو جامد بغرابة؛ بالكاد يهتز عنقه عند المطبّات، زجاج السيارة مفتوح، ويده موضوعة على حافة الباب كما في أفلام الدولشي فيتا، يدخّن باليد الأخرى السيجارة تلو الأخرى، وهي الحركة الوحيدة التي تكسر جموده، إنّه حاسم أو حالم، لا أعلم ـ فكرتُ للحظةٍ بمسعود، الجامد هو أيضاً، الغارق في أفكاره، يجلِس في المقعد الأمامي في المروحيّة الضخمة العائدة إلى العهد السوفييتي، وكانت هذه آخر صِلة لنا معه، عبر العالم الخارجي، في دوشانب للالتحاق بولاية بانشير.

مررنا بقرى مدمّرة،

مناظر من الأرض المحروقة، محروقة بكلّ ما للكلمة من معنى، وقد رأينا بقايا القطعان التي حرقها رجال القذّافي، حيّة أثناء انسحابهم.

بعد حوالى 60 كم، وصلنا إلى اللسان الأرضي المُمتدّ على طول كيلو متر ونصف،مشكّلاً خط الجبهة حيث يتتابع عدد كبير من الحصون، ومن صفوف المنازل الخشبية، والطينية أو المصنوعة من قرميد الخرسانة.

ذهبنا إلى البيت الأخير.

وتعرّجنا، بسرعة كبيرة، عبر الرمال لأننا كنّا في مكان مكشوف، فاخترقنا المسافة التي تفصلنا عنه. وهكذا وصلنا إلى المعقل الأخير، المعقل الذي احتفظ به قرويو بلدة غواليش، طوال الليلة السابقة، مُجابهين كتائب القذّافي المُنسحِبة.

ثمّة، هنا، حوالى خمسين رجلاً.

معظمهم مدنيون كالعادة، لم يلمسوا السلاح في حياتهم قبل هذه الحرب.

كانوا قد دُرّبوا في معسكرات مجاورة لجادو، وبالإضافة إلى المَدافِع الثلاثة التي رأيناها مؤمّنة في القسم المحصن تحت الأرض من الحصن، وجدنا أنّ كلاً منهم مُجهَّز ببندقية هجوم، وأحياناً، بواحدة أو باثنتين من الرّمانات اليدويّة المعلّقة في الحزام.

أحسَسْنا أنهم مُنهَكون من معارك البارحة، يرتدون لباساً موحّداً، لونُه الرملي، حصلوا عليه من القذّافيين السجناء، وأجسادهم مُغطّاة بالعرق والغبار.

يُغطّون رؤوسهم بكوفيّات تقيهم حرّ الشمس، ومن نظراتهم، تنبعث شعلة اضطراب لا يمكن لأية صورة أو فيلم أن يحيط بها.

ثمّة جريح مضمد القدمين، على نقالة، يتجمّع عليه الذباب. وآخر قربه، ولكنني لست واثقاً بأنه جريح، ربما هو فقط منهك، ينام على الأرض مباشرة وفمه مفتوح، متكوراً في علَم يجعل منه غطاءً له.

وثمّة زمرة صغيرة من رجال يلعبون بالعظيمات، جالسين بصمت على الأرض، يشربون الشاي، ويبدون كأنهم يحرسون النائم، أو الجريح، وبالكاد يروننا.

من الأشياء التي تصدمني هذا الصمت؛ هذه القسوة في الوجوه؛ هذا التصنُّع؛ هذا الغياب الغريب جداً، حتى في حالة الرّاحة، للفرح، والخفة؛ هذه القلة في التعاطي، ليس فقط معنا، ولكن فيما بينهم؛ فجأةً يظهر اختلاف كبير في التعامل بين المدينة وجبهات الشرق، في بنغازي، ومصراطة.

الجبهة هادئة، في هذه اللحظة؟

إنها ساعة الصلاة وبعد الصلاة، وجب أن نُشاركهم في تناوُل وجبة خفيفة: قُدمت، بصمت أيضاً، كما لو أننا في دير سماؤه مفتوحة، مطبقيات من الألمنيوم، والطعام هو قطع من اللحم المقدَّد، المغطَّس بالبصل المطحون ولكنّه للأسف أثار صدودي، ولكنَّ هذا لم يمنع جيل من أن يجد كلّ ذلك «لذيذاً»، حتى إنّه عندما أنهى حصته، تبادل معي الطبق بشكلّ سريّ.

أخذ علي زيدان الوقت، ليجمع الرجال، بعد أنّ ذهب كلّ بدوره، إلى نبع ماء، خلفنا، ليجليَ طبقه، يتعامل بسهولة أمام هؤلاء الجبليّين، كما يتعامل مع رؤساء الّدول والدبلوماسيين الذين يشكلون جزءاً من حياته العادية، وخطب بهم خطاباً عسكرياً وسياسياً، كان نموذجاً عن جان مولان وهو يدعو إلى وحدة مجموعات المقاومة والجبهات.

وضعتُ الصدرية الواقية من الرصاص، لأوّل مرّة، فلبِستُها تحت قميصي ولو على مضَض، مبادراً بالكلام بدوري ومتعهداً، تحت عيون مُعظمِهم، الشاكة، أو الحذرة أو غير

المُكترِثة، أن أكون صدىً، مثله، أي مثل عليّ، عند عودتي، أمام الرأي العام وأمام مؤسسات بلدي، وصدى ليقظة هؤلاء الرجال، وتصميمهم على النصر، وصدى وحدتهم أيضاً.

ذهبنا بعد ذلك، لكن لنعود بعد ساعتين لأنّ لدى العقيد خليفة، أثناء ذلك، موعداً على جبهة أخرى، وقد رجانا أن ننتظره، بعيداً عن نقاط التفتيش المجاورة (حيث انتهزتُ فرصة هذا «الوقت المُستقطَع» في الحديث مع الصحافيين)، وهنا، مع حلول المساء، بدأت عملية لهو. فمن عربات مدفع متحركة لم أرَها لأنها كانت مخبأة، إلى اليمين، في الجهة الأخرى من المكان، راح الثوّار يطلقون القذائف دفعة واحدة تعبيراً عن تكريمنا.

وقد أرعبتْهم تسديدة، بالغة القوة، لكنّها ذهبت بعيداً جداً، وسقطت خلف خطوطنا.

ثمّ أطلقوا سلسلة من القذائف، كانت واحدة منها، وهي الأولى، على ما أظنّ «مهداة» لنا كي يُصوِّرها مارك ـ فردّ عليها أولئك الذين في الجهة المقابلة، بقذيفتين، دقيقتين أكثر، أجبرتانا، على الانبطاح أرضاً في الغبار، ممّا جعلني أعاني، عند انبطاحي، من الدرع الواقي من الرّصاص.

عندما غادرنا في المرّة الثانية تأكّدتُ من أمرَين.

شجاعة هؤلاء الرّجال، ودمهم البارد أثناء القصف المعادي ـ لم يعُد هناك من مجال للمقارنة بين ما يجري هنا، وما كان يجري في مصراطة، مع الرعب، والاهتياج، ومع روح الهواية الرائعة، في بداية الحرب، على جبهات بريقة، وراس لانوف أو اجدابيا.

والأمر الثاني مُتّصِل بمسألة العلاقات بين العرب والبربر،

هناك توازن شبه تام، بين الشعبين:

طلبتُ أن نُحصيهم، عند العشاء؛ فتركوني أفعل ذلك على مضض؛ هنا أيضاً، وبكلّ الأحوال، في غواليش، يوجد ثلاثة وعشرون عربياً وثمانية وعشرون بربرياً، ولا أثر، بكلّ صراحة، لذلك الاحتقان العرقي الذي كنت قلقاً حياله، والذي نقول، في أوروبا، إنه يمكن أن يكون عائقاً أمام النصر.

وهذه شهادة على ذلك.

الأحد 17 تموز/يوليو (أشياء رأيناها في جبل نفوسة)

كاباو.

ليلة ثانية في بيت محمود، وهو تاجر قديم، في المدينة الخاوية كاباو.

عشاء حقيقي ورائع (طبق من اللحم، والرزّ والعنب، ومشروبات غازية وفيرة).

حصُر ممدودة على الأرض، مثل ليلة البارحة، نمنا كلّ اثنين في غرفة واحدة، عتمة كاملة، (وتلك هي المزية).

لم أنم ليلة البارحة، بسبب صرصور أزعجني، حاولت قتله بحذائي حتى الفجر.

نويتُ أن أنام فترة أطول هذه الليلة ـ وخصوصاً أنّ محمود، أغرق الغرفة بالمبيد الحشري، وأعطاني، بعناية خاصة، وبدون تعليق، وسادة وغطاء إضافيين.

ولكنّي رُحتُ أدوّن أثناء انتظار ذلك.

كتبتُ بسرعة، وبدون تنظيم، لسببين، أولاً، لكي أنعس، وثانياً خشية أن أنسى فجأة بعض الأشياء، فدوّنتُ بسرعة كبيرة، مستضيئاً بوهج حاسوبي، تلك المشاهد من الحياة في جبل نفوسة.

وجدتُ كلّ شيء في أزقة زنتان حيث قادنا العقيد مختار خليفة، لكي يرينا، بعد الجبهة، آثار المعارك الأخيرة، والدمار (شوارع مملوءة بالحُفَر؛ أبنية متهدِّمة؛ وثمّة هذه البناية التي ضربها صاروخ، لا أدري كيف، في سقفها، مخترقاً الطوابق الثلاثة، وواصلاً إلى الأقبية).

وجدنا صناديق من الذخيرة الفارغة، المُكدَّسة على درج سلم البناية. سيّارات بك ـ آب نُسِيت في مؤخرتها، قذائف صاروخية صناعة روسية، كانت لجماعة القذّافي، وتمّ الاستيلاء عليها أيضاً.

ووجدنا على السطح الخلفي لشاحنة، إسطوانةً من الحديد الأبيض، ارتفاعها 50 متراً، وقطرها 20 متراً، مكتوب عليها «1، مُشعِل قنبلة نابالم» اغتنمها الثوّار من أحد حصون القذّافي أيضاً في بير غنّام، أليست الدليل على أنّ القذّافي يستعمل، وقد استعمل، أو أنه يتحضّر لاستعمال أقذر أنواع الأسلحة فتكاً؟

في زنتان أيضاً، تحولت مدرسة إلى سجن عسكري. قلت لبشير ميلاد، الذي كان يعمل سائق تكسي، وتحوّل الآن إلى مدير للسجن، وأردت لقاءه بمُفرده مع طاقمي، من دون شهود ليبيين، من سجنائه الذين قبلوا، وعددهم ثمانية عشر رجلاً، بعضهم جالس، وبعضهم مضطجع على فرشتين، في قاعة مشتركة، تُهوّيها نافذة كبيرة على الحائط اليساري للمدخل. منهم خبّأوا وجوههم لأنهم لا يريدون أن يُصوَّروا غير أن أغلبهم قَبِل. لم يحكوا قصصاً تدل

على سوء معاملة. ولا آثار ضرب ظاهرة عليهم. هناك وجبات طعام جاهزة، وصلت ونحن هناك، وجبات مقبولة من (الرز والسمك المقلي، والفُليفِلة). وهناك شاهد على الأقل حكى قصة وحدة من الدبابات التي كانت تتقدم صوب مجموعة متمرِّدة، وعليها، في الخلف، قناصة، أكثر مما عليها جنود (وهؤلاء القناصة، يهددون أولئك بتصفيتهم لدى أقلّ ميل للتراجع أو للتعاطف الأخوي مع الأعداء).

ثمّة، في القاعة المجاورة، مساجين آخرون، بنفس العدد، ولكنهم، قادمون من النيجر، ومن تشاد، ومن السودان. وهي إشارة إلى نسبة المرتزقة في الجيش المسمى بـ «الموالي»؟ اعتراف القذّافي بأنه محاط، على غرار الملوك النورمنديِّين في باليرمو، بحرس عربي، وهو يعلم أنّ ليس أمام هذا الحرس إلا أن يصمد حتى النهاية؟

ما يدفع إلى الدهشة، الآن، إنّما هو المظهر الفقير لهؤلاء الرجال الخائفين، المروَّعين تقريباً، وقد شرحوا لي أنهم بالكاد قاتلوا، وبأنهم تلقوا تدريبات شبة عسكرية، أفضل بقليل من تدريبات خصومهم - وادّعى بعضهم أنهم كانوا قبلاً في ليبيا، وبأنهم اختيروا للعمل، حتى إنهم، إذا صدقناهم، كانوا معتقلين من بين المليون ونصف عامل مهاجر الذين يشكلون الجيش الاحتياطي لُملقِّمي وقود النظام. لا أعلم إن كانوا يقولون الحقيقة. وربما يجب أن أصدق بشير ميلاد حين قال لي، لاحقاً، بعد جلسة المقابلة، وهو يقهقه بقوة، بأنهم اعتقلوا جميعاً والسلاح بيدهم، وبأنهم يحملون دماء ليبية في وعيهم وبأنهم كلاب حرب. ولكن من المؤكد أننا بعيدون عن الصورة التي كوَّنتُها عن محاربي القذّافي المُرعِبين. كان يقال هم «مرتزقة». وكنت أتخيل رجالاً بعضلات قوية، منتقين حسب السوق الجديدة للعبودية على الأرض، أشداء في الحرب، ذوي صلابة. كان هناك، على العكس، هؤلاء الفقراء المضلَّلون، المرعوبون من أسئلتي. وما يلفت النظر أن تجد هنا الغليظ والمرهف، الطوال والقصار، السمان والنحاف - كما لو أنّ القذّافي أخذ الكلّ، كلّ شيء على الإطلاق، إنها إستراتيجية سفينة الصيد حيث عدد المحاربين أقل من عتاد المدافع.

مستشفى المدينة، شيء هام، هذا المستشفى، بسبب مشكلة اللوازم الطبية التي ادّعت منظمة حقوق الإنسان بأنها «نُهبت» في الأعوانية كي تُنقَل إلى هنا. أبقانا المدير في قاعة من دون نوافذ، وهي المقر العام الإداري حيث توجد ملفّات المرضى. فتّش في خزانة معدنية وأخرج وثيقة محفوظة في ملف بلاستيكي. وهو المحضر الرسمي للاجتماع التداولي للمجلس

البلدي للأعوانية مثبتاً أنّ المدينة شبه خالية، وبأنّ مستشفى المدينة عالي التجهيز مقارنةً بما بقي فيه من السكّان، ممّا سمح بنقل معداتها الطبية إلى زنتان التي تعاني، بالمقابل، نقصاً في كلّ شيء.العقيد خليفة كان على حق. بينما أخطأت المنظمة غير الحكومية.

بعد ذلك جاء أبرز ما في هذا اليوم. سلكنا الطريق إلى مدينة غاريان، آخر حاجز قبل طرابلس.إنّها الطريق العادية. الطريق التي تقود إلى كريت بشكل مستقيم، تاركة على يمينها وعلى يسارها كلّ مدن المنطقة كما لو أنها تريد أن تشير إلى أنّ الطرقات الرئيسة، في هذا البلد، ليست منشأة للخدمات والمرور بقدر ما هي معمولة لتتقاطع، وتراقب، ولتحتل المساحات الداخلية (طرقات للدبابات وليس للناس...). وهاهنا، في الرحيبة، سهم كبير أصفر، وصُفْران مدهونان بالأبيض، يشيران إلى أنّ الحصباء لتسوية الطرقات على بعد 1600 متر، مضينا حتى خط آخر، أحمر هذه المرّة، حيث كانت تنتظر جماعة من المقاتلين يصرخون «عاشت فرنسا!». رأينا مهبطاً للطيّارات. كانت الساعة السادسة مساءً. فجأة التقطت الجماعة أنفاسها. ونظر الجميع نحو الشرق، بكثافة، وفي صمت. وضع معظمهم نظارات شمسية لأن الضوء كان ما يزال قوياً، وحارقاً، ومع هدير محركات ضخم، وبغيوم كثيفة من الغبار، وصلت طيّارة وحطّت هنا، في قلب الصحراء. واكتشفنا عندما انقشعت الغيوم، أنه مكتوب عليها «طيران ليبيا». بقيت ثلاثين دقيقة، لتفرغ حمولتها من حوالى ثلاثين صندوقاً بألواح مدهونة بالخاكي كدّسها رجالٌ مُسلّحون بأسلحة خفيفة في سيّارات بك ـ آب سُرعان ما تنطلق إلى زنتان. قيل لي إنّها قادمة من بنغازي. لكنّ فرداً من الطاقم حدّد الأمر لحظة إعادة الإقلاع (مع حوالى عشرين من سكان جبرا انتهزوا الفرصة كي يذهبوا لرؤية أهلهم في منطقة برقة) بقوله ـ وبدا لي الفرق كبيراً: «قدِمنا من بنغازي، نعم، ولكن بعد أن هبطنا في مالطة». حصلت مثل هذه الرحلات سبع مرّات منذ ثلاثة أسابيع، وذلك لتوريد طيران مثل هذا، حصلت منه سبع رحلات منذ ثلاثة أسابيع وذلك لتوريد المعدات العسكرية المشهور الذي تحدّثت عنه جريدة الفيغارو الشهر الماضي.

هاهي كاباو أيضاً. مع بداية حلول المساء. الشمس محمرّة على خط الأفق. الشارع الرئيس في بلدة كانت أفضل مكان في المنطقة. كان تعداد سكانها بضعة آلاف قبل الحرب. ثمّة سرادق مُكوّنة من الطين المجفّف، والجبس والحجر القطع ذي اللون الأحمر الأرجواني للمدينة القديمة، كان يقام فيها كلّ عام مهرجان للعادات والتقاليد البربرية، وهي اليوم مدينة ميتة.

ليس فيها بيت للإيجار. ولا تجارة. فيها محطة بنزين نصف مهدمة، كان علينا أن نبحث حتى منتصف الليل عن المسئول عنها، كي نُفاوضه، في النهاية، على خمس صفائح توصلنا إلى الحدود. كان الهواء ثقيلاً ورطباً. كان أخ الطبيب خريج دبلن، الذي قاد السيارة منذ جربة مُستعجِلاً كي يُرينا مدينته، وفجأة راح يراها بعيوننا وبدا كأنّه يعتذر بالقول: «لم يعد عندي جيران على الإطلاق، هذا صحيح؛ وأعترف أنني، بنفسي أيضاً وضعت عائلتي في الملجأ، في تونس؛ ولكن كان يلزمنا القليل لكي تعاد ولادة كاباو؛ وبالقدر الضئيل، الذي قصف به الناتو منصّات الصواريخ التي ما تزال، من الجوش وتيجي، تجعلنا في مرمى النار - اسمعوا...». وسمعنا أصداء انفجار. لم تنتهِ الحرب. جبل نفوسة ليس بعد، وفي كاباو، يلوح ظل ليبيا الحرّة.

عودة إلى الوراء. البارحة. في اللحظة التي كنا نتهيأ خلالها للصعود في السيارات كي نتّجه إلى حدود غواليش، جاء شخص مدنيّ، شعره رمادي قصير، له رأس مُفكِّر، وَقور، اِسمه أسامة جويل وهو القائد الفعلي للدفاع في زنتان، والرئيس الأعلى للعقيد خليفة، وللجنرال شديد الشبه بيونس. سألتُه: ماذا تنتظرون لتسيروا إلى غاريان، ثم إلى طرابلس. أجابني: لاشيء. وأخيراً، لاشيء أساسي. إذ لم يعُد جبل نفوسة يفتقِر فعلاً إلى السلاح. وفيه خيرة مقاتلي ليبيا الحرّة. ما ينقصنا هو الضوء الأخضر من بنغازي: ولكن حضورك (والتفت إلى علي زيدان)، بالنسبة لنا، هو إشارة هامة جداً. إشارة الناتو: متى تعتقِدون، أنتم الفرنسيين، أنكم قادرون على إعطائنا هذا الضوء (التفت هذه المرّة صوبي، فأجبتُه، بالطبع، بأنني لا أعرف شيئاً)؟ ومن بعد... توقَّف في منتصف الجملة... كنا واقفين في مدخل البناية التي استقبلَنا فيها الجنرال الشبيه بيونس. كان مارك يُصوِّر. أحسَّ فجأة أنّ الجنرال الشبيه بيونس منزعج، يعود انزعاجه إلى أنه خاف من أن يستفيض في القول، أحس أنّه يشك في الدخول، بشكل أدق، أمام أجانب، في تفاصيل الاستراتيجيات وبأنه حاول أن يحصرها في هذين الضوء ين الأخضرين! لماذا تُعقِّدون الأمور؟)

ولكنه رأى أنني كنتُ أنتظر. رأى أنني أومأتُ إلى مارك وتوماس بألا يُصوِّر، وتصوَّرت أنّه فهم هذه الحركة على أنّها التزام بالسِرِّية. قال له علي أيضاً شيئاً ما بالعربية، وسمعت، على ما أعتقد، اسم ساركوزي. قال عنه كلاماً كثيراً أو لم يقُل ما يكفي؟ فأضاف مُتأسِّفاً: «كل ما نُريده هو دعم إخوتنا في مصراطة الذين، عندما تصل قوّاتهم من الشرق، سَيُحاصرون

العاصمة معنا؛ فأنا غير مُتأكّد من أنّ لدينا الوسائل العسكرية لنقوم بهذا العمل وحدنا؛ وحتى عندما سوف نحصل عليها، سيكون ذلك أُمنيتنا المطلَقة؟»

لاشيء نقوله بالنسبة للبرنامج. هو برنامج باريس بالتحديد. إنه الذي وعدتُ به ودافعتُ عنه، منذ رحلة يونس. ولكن ماذا يريد أن يقول بعبارة «أُمنيتنا المطلقة»؟ ولماذا هذا التحفظ الذي يمكن أن نفهمه على أنه إشارة حذر حتى من مقاتليه أنفسهم؟ حضرتني فرضية. هنا أيضاً، وأنا أكتب. ربما الظن العاطل في الليل، وقلة النوم، ولكنني أدون، على الرغم من كلّ شيء. الرجال الذين التقيت بهم في غولياش رائعون. لا يُقدَّرون بثمن. ويبدون أكثر انضباطاً أيضاً، من كلّ الذين رأيتهم في الأماكن الأخرى. كانوا ينشرون، على خط الجبهة هذا، أريجاً لم أشهدْه في مكان آخر. عطر جبل الجزائر، وعطر بانشير. وجانب من سيرا مادر أو فوكو بالمعنى القديم الذي قصَده دوبري بقوله (تأمّل... هذا الشخص، لم يقل شيئاً... منذ بداية هذه الحرب، ولا كلمة... ومن ناحية أخرى، حاله ليس أفضل من حال ألان باديو، ساحر الأحداث التاريخية ـ العالمية الذي لم ير شيئاً في ليبيا، ولم يسمع شيئاً...). ذكّرني هذا الأريج، فجأة، بحروب فترة شبابي، بالحُلوِ منها كما بالمُرّ. بالحلو؟ بهذا الجانب الصخري مقابل الرمل، عش النسر مقابل الصحراء ـ هذا الجانب من حرب المُرتَفعات التي أعطت دائماً مقاتلين أُباة لا يُقهرون. هذا العِطر سيكون هنا، في الوقت المُناسِب، معجزة.

الأسوأ؟ أو في كلّ الأحوال، الأقل جودةً؟ شيءٌ قارِص قليلاً، وشرس، وربما عنيف استشعرت في غواليش، ظلّه العابر: على المرء أن يكون شديد الحذر بشكل طبيعي؛ ولكنني أتساءل، على حين غرّة، إذا لم يكن ينقص هؤلاء الرّجال شيءٌ كي يكونوا «الاندفاع الأخير» ـ حد أدنى من المدنية بالمعنى المجازي للكلمة، وما دُمنا بهذا الصدد، ينقصهم أيضاً، بالمعنى المحسوس للكلمة، هذا الحد الأدنى من الأمور العملية، بمعنى حب المدينة، حيث أثبتت التجربة أن من المطلوب دائماً جيوشاً تحتلُّ أو تستعيد عاصمة؛ أليس هذا ما أراد قوله ذاك المدني ذو لشعر الرمادي، الأعلى مرتبةً من العقيد خليفة ومن الجنرال الشبيه بيونس، عندما أسرّ لنا، بلهجة تحمل طابع الحكمة، بأنه يفضل، قبل الهجوم، أن يكون واثقاً من دعم مصراطة؟

هي مجرَّد فرضية. رأيتُ تماماً الاستخدام الرديء لذلك. ولكن فضل هذه الفكرة، على الأقل، أنها ذكّرتني بالقضية العاجلة الأخرى، قضيتي، والتي أهرب منها بمجيئي إلى هنا:

هناك، في الأصقاع البعيدة جداً، في هذا الركن الضائع من أوروبا، ألا ينتظر الناس الذين يتضامنون مع ثُوّار زنتان وكاباو حيث أستعِدّ للعودة منها، ألا ينتظر هؤلاء الناس أكثر من أيّ وقت مضى، الجنرال رمضان زمروح ورجال مصراطة؟ هناك، بعيداً جداً، في رُكنٍ قَصِيٍّ من آسيا... بعد أربعين عاماً استعدتُ، عن غير قصد، الجملة الأولى للهنود الحمر...

الاثنين 18 تموز/يوليو (حيث حدَّد، أنه من دون مصراطة، لن يستطيع جبل نفوسة مُحاصرة طرابلس. والعكس صحيح)

باريس.

لم أتلقَّ أية أخبار أمس مساءً، عندما هبطت طائرتنا القادمة من مصراطة. التقيت، في مقهى باريسي، مع وحيد برشان، عضو المجلس الانتقالي لمدينة غاريان،الحاجز الذي يتحكّم بالوصول إلى طرابلس، عندما نأتي من الجبل. هو رجل لامع، يتحدّث إنجليزية مميزة. مهندس مُتخصِّص في بريطانيا، ومعلومات مبدعة وإليه يعود فضل مضاعف:1.وهذا غير معروف تقريباً، أنّه فصَل، منذ نهاية شهر شباط/ فبراير، شبكة الاتصالات في بنغازي عن النظام المركزي في طرابلس، وكان بإمكانه أن يقطعه في كلّ لحظة، وأن يتجسَّس عليه، ويشوِّشه، ويُعطِّله؛ 2. أنه افتتح، الشهر الماضي، مع عبد الكريم بزاما، مستشار الأمن في المجلس الانتقالي، الخط الجوي الذي رأيت، في كاباو، واحداً من مدرجّات الهبوط فيه حيث تُستخدَم، بشكل خاص، لِنَقل الأسلحة الفرنسية باتجاه جبل نفوسة. عرف أنني عدتُ للتو من هناك. لذا أصرَّ على رؤيتي. أراد إفهامي أنّ زنتان ليست غاريان. وليست غواليش، ولا الأصباح، وأننا إذا أردنا أن نسير بسرعة، وإذا أردنا أن تسقط طرابلس قبل رمضان، أي قبل نهاية شهر آب/ أغسطس، فيجب أن نفهم الحقيقة المعقدة لهذا الجبل، الذي نعدُّه، خطأ، كلاً واحداً. وأن نشرع في توزيع أكثر توازناً للسلاح الذي نُقدِّمه.

أوقفتُه، وقلتُ له أنْ لاشيء يسيء إلى القضية الليبية بقدر ما تُسيء فكرة المنافسة بين المدن، والقرى، والقبائل، ضمن المنطقة الواحدة. ردّ عليّ بأنه يعلم ذلك جيداً، ولكننا لا يمكن أن نُنكِر الحقائق. وبما أنه طلب مني أن أؤمِّن له الاتصال مع الإليزيه، فإنني لم أقبل أن أتّصِل بنيكولا غالي إلا بعد أن أسمعته جيداً وكرَّرتُ له، مع علمي بأنه يعرف الموضوع جيداً، أنّ حكاية المُنافسة بين القبائل الواحدة، والانخراط في حرب انتحارية بين الأخوة، هو نموذج

الخطاب الذي لا يمكن سماعه في الغرب. لكنّ خطابي، بعد أن قلتُه، لم يُلاقِ أذناً صمّاء، بل وجد حتماً صدىً، اعتماداً على ما أحسَسْتُ به في الجبل وما أسمعني إيّاه، ذلك اليوم، الرجل ذو الشعر الرمادي القصير، قائد الدفاع في زنتان. ممّا أكد الامتعاض الطفيف أيّاً كان، الذي عدت به. ورأيت فيه سبباً لأتمسك بتحليلي: الجبل، ولكن ليس من دون مصراطة، ومصراطة التي ينبغي أن تعطي الإشارة للجبل بسرعة؛ أجل! الجبل هو الذي يؤكِّد خطي الإستراتيجي منذ أسابيع وأسابيع؛ الذي أُمرِّره، وأدافع عنه، وأفرضه أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى.

الاثنين 18 تموز/يوليو، تتمّة (وعلى ما يبدو أنّ الرئيس لم ينسى وعده باستقبال ضباط مصراطة الأحرار)

فكّرتُ، طيلةَ النهار، بحديثي ذاك مع رجل غاريان. وبالتوازي، وكما لو كان الأمر مقصوداً، أتلقى، منتصف بعد الظهر، رسالة إلكترونية من ابن سليمان يُشير فيها، من لندن، بأنّ وفد مصراطة، قد أعطى موافقته، وبأنه جاهز، لمُغادرة المدينة. كتب لي أنّ الوفد سيتكوّن، بحسب الاتفاق، من الجنرال رمضان زمروح، والعقيد هاشم أيضاً. لكنّ رئيس المجلس البلدي الانتقالي، لا يستطيع، لأسباب غير محددة، الخروج من المدينة وسيحل محله رجل عسكريّ آخر هو العقيد «بيت مال» الذي التقيت به أيضاً، في مصراطة، وقد كان أحد صانعي التحرير في المدينة. سألني هل هذا يُناسِبني؟ وكيف لا يناسبني؟ يُناسِبني بالأحرى مرتين بدلاً من مرّة واحدة، أنا موافق. هكذا سيُعلن لي، خلال ثلاث ثوان ثمينة، بأنني سأكون موافقاً دائماً.

اتصلتُ بالرئيس. قلت له: حسناً! سَيَصل الوفد، الجنرال لوكلير الليبي لتحرير طرابلس! هم هنا، تقريباً هنا، القادة المقبلون للجيش الثاني! هل مازلتَ موافقاً على مُقابلَتهم؟ موافق دائماً. للقائهم شخصياً. شخصياً. لأنّ الرئيس ليس مأخوذا كلياً بالأزمة الاقتصادية التي يبدو أنها أخذت مُنعطَفاً جديداً مُروِّعاً هذه الأيام الأخيرة؟ ولكنْ لا؛ بقيت للرئيس أذنٌ ثالثة ليسمع بها هذا الصباح قصّتي، وحين تأتي اللحظة المناسِبة، هؤلاء الرّجال عندما سيخرجون أخيراً من الجحيم. لم أُحِطه علماً، في هذا الوقت، لا بخشية أسامة جويل، ولا بتحليلات وحيد برشان، ولا بشكوكي الخاصة حول الجانب الحاد «الفظّ» لرجال الجبل، وحول ضرورة تعويدهم، أكثر من أي وقت مضى، ولأسباب ليست فقط عسكرية بل لأسباب سياسية أيضاً، على الروح الحضارية لمدينة مصراطة. بعثتُ رسالة إلكترونية إلى

لندن، لأعلِن أنني تسلَّمت الخبر. ورسالة أُخرى إلى بشير صباح، صاحب المركب، طالباً منه أن يؤكِّد لي الموعد، حالما يستطيع، وحين يبدو ذلك ممكناً، هذه المرّة. وأخيراً.

الاثنين 18 تموز/يوليو، أيضاً (هل اقترينا من الهدف؟)

تلقّيتُ رسالة من بشير يخبرني فيها أنهم في المركب. سيكونون في مالطة، هم الثلاثة، غداً. ومن ثمّ في باريس مساء. سيصِلون في الوقت المحدد، ليستقبلهم الرئيس، قبل أن يُغادِر إلى ألمانيا، في اليوم التالي، أي الأربعاء. كدتُ لا أصدق. ولم أكن مُصيباً هذه المرّة. أخطأت بإفراطي في التشاؤم.

الثلاثاء 19 تمّوز/يوليو (عندما تصل مصراطة، أخيراً، إلى باريس)

استقبلهم دانييل روندو في مالطة.

هذا المساء، أنا مع فرانسوا مارجولانو ومنصور، في مطار شارل ديغول.

بما أنّ فندق رافاييل كان كامل الحجوزات، فقد حجزنا لهم في فندق بّا دو كاليه.

كان ثمّة إذاً، زمروح، والجنرال ذو الرأس الأبوي الهادئ، ونظّاراته بإطارها المستطيل، وشعره الأصلع، الملموم من الجانبين إلى قمة الرأس، وابتسامته التي لا تُفارق مُحيّاه.

والكولونيل بيت مال، معاونه، الأصغر منه سناً، بسحنته الجميلة ذات الزوايا، المقطّعة بسكين، وآثار جرح على الذقن، وأنفه الأعوج قليلاً، في طبعِه شيء من فرانك، إذ لا يكاد يتفوَّه بكلمة.

أحمد هاشم، ذلك الذي نسيته، وها أنا أستعيد شكله حالاً، فهو قصير القامة، يلبس طقماً، بدين بمهابة، ولكن باستدارات ساخرة للملامح تذكرني، بغرابة، بعمانوئيل ليفيناس.

سعادتهم بوجودهم، هم الثلاثة، في باريس.

فرحهم، وبالضرورة سوداويّتهم.

سعادتهم بأن يصلوا من المدينة الأكثر حطاماً على وجه الأرض، إلى مدينة من أجمل مدن الأرض.

الصدمة، في عيونهم، من مدينة الأنوار ومن عمرانها الشامخ بالمُقارنة مع الصور التي يختزنونها في أعماق عيونهم، عن مدينتهم المهجورة.

العنف والهدم، وروعة المدينة.

ظِلُّ مصراطة عالِقٌ في كلّ خطوة من خطواتهم.

في شارع سان جرمان، عندما نزلنا من السيارة، قبل الوصول إلى الفندق، لنأكل السندوتش، في مقهى، ونستعرض مواعيد الغد (مع نيكولا ساركوزي، ثمّ مع بوغا، وعلى عجَل، مع عسكريِّيه)، رأيتُ دمعةً تسيل على خد زمروح، المقاوِم المُغترِب.

الأربعاء 20 تموز/يوليو (المواعيد في الإليزيه تتتابع، ولا تتماثل)

التقينا ساركوزي الساعة الثامنة والنصف. جرى الاستقبال كما في «جلسة مغلقة» (التسلسل الهرمي الدقيق في الإليزيه): على الطرف، المجلس الوطني الانتقالي الذي يُمثِّل الشعب الليبي، وكان لعبد الجليل لاحقاً، يوم الاجتماع الثلاثي في 8 آذار/مارس، الحق «بمكانٍ متميِّز» يتضمَّن خيار عقد مؤتمر صحفي في أرض ساحة الشرف، وكان على الطرف الأقصى المُقابل، يونس والساقزلي، اللذان لم يكن لهما الحقّ إلا بنموذج مختزل وسري، وبين الاثنين، مستوى استقبال اليوم).

في قاعة الاجتماعات الكبيرة، اتُّبِعت نفس إجراءات المرّات الماضية، إلا أنّ مقابل الرئيس ورجاله، هذه المرّة، منصور وليس علي الذي ظلّ في القاهرة ـ لكن أيضاً الضباط الثلاثة الذين يقودهم سليمان وبشير: الجنرال رمضان زمروح في الوسط؛ والعقيدَين على يمينه؛ ومنصور وسليمان على يساره؛ وأنا على طرف الطاولة.

الرئيس هو الذي افتتح الجلسة بكلمة شكرهم فيها على مجيئهم.

سليمان، الذي ليس على علم بالحيل البلاغية للرئيس، اندهش من هذا الشكر، وقال إنّهم هم الذين يدينون بالعرفان.

أعلمَهم الرئيس بأنه لا وقت كثيراً لديه؛ وبأنه مسافر، بعد اللقاء إلى ألمانيا؛

ولكنه أبدى سعادته بهذا اللقاء المُنتظَر منذ عدّة أسابيع.

استرسل سليمان في شُكره، كما حدث في شهر نيسان، مع عبد الفتاح يونس، على كلّ ما قامت به فرنسا، ولكنه عبَّر بنفس العبارات عن أنّ ما يقدّم لهم ليس كافياً، وأنّ ليبيا تنتظر المزيد.

ردّ الرئيس: «وعدتكم بطيّارات مروحيّة، وهذا ما تَمّ، حصلتم عليها».

قال سليمان: «أعلم ذلك، ونعلمه جميعاً، فتدخلكم غيّر كلّ شيء، وعلى هذا نحن لكم شاكرون».

فردّ الرئيس: «أنتم تعلمون أنّ الكثير من حلفائنا لا يُفكرون إلا بترك أرض المعركة، وقد بدؤوا يفعلون ذلك بالفعل، إذا لم يكن الآن أو خلال الأيام القادمة، فسيكون في الأسابيع المُقبِلة».

قال الضباط، الذين لم يتكلّموا حتى الآن، بالإنكليزية: كلا.

قال الرئيس بالفرنسية: «بلى، حتى أوباما! فثقتي تتناقص شيئاً فشيئاً بنوايا أوباما؛ صحيح أنه يمنح الطيّارات دون طيّار، حسناً؛ ولكن لا شيء مُهِمّ آخر؛ بالنسبة لنا...»

قطَّب كما لو أنه أحِسّ بالألم فجأة. أتذكر ذلك العهد الذي كان هذا النوع من التقطيب يجعلُني أنتظر الأسوأ.

«القضية ليست بهذه السهولة، بالنسبة إلينا أيضاً».

قطّب، من جديد، تقطيب الألم.

«لا تمضي الأشياء بشكل جيد في أفغانستان. الرأي العام لا يحب ذلك. عدا عن أنّ...»

هنا ابتسَم. ووجَّه سبابته إلى سليمان.

«... عدا عن أننا يجب ألا نقول حماقات، هنا أيضاً. أولاً لأنّ جنودنا القتلى، قتلوا. ليس في اقتحام عسكري، ولكن بعد عمل إرهابي، وهذا ليس نفس الشيء. ومن ثمّ، نحن لا ننسحب هكذا، مطأطئي الرأس ـ ننسحب عندما نُنهِي عملَنا، وننجزه...» أشار سليمان برأسه علامة على الموافقة. فعل هذا بإشارة من يعلم ذلك منذ وقت طويل.

«ولكن في النهاية، نظراً لهذه الأسباب ولغيرها، تظلّ القضية غير سهلة بالنسبة لنا أيضاً. ولكن سِيّان عندي. كنت أعرف ذلك حين انخرطت فيه والتزامي به كاملٌ، ولن أَحيد عنه، وسوف نمضي إلى نهاية هذه الحرب».

وعندما رأى، في الوجه الحاد للعقيد بيت مال، ذي العين السوداء التي كانت تُحدِّق به، ربما، تأويلاً سيئاً لما قال، صحَّح:

«اِسمعوني: أنتم من تقودون هذه الحرب؛ ونحن نُساعدكم؛ ولكنها حربكم، وأنتم من تندفعون بها إلى النهاية».

ولكن سليمان هو من عقَّب.

«بالضبط، فالمُساعدة غير كافية».

ـ غير كافية، غير كافية... هل تعلمون أنّه، فقط، في الأسبوع الماضي، ألقى طيّارونا 22 طنّاً من القنابل على طرابلس؟ 22 طنّاً! ودون أخطاء! طيّارونا يقومون بعمل مميز.

- بالطبع، نعلم ذلك. لكنَّ المشكلة ليست طرابلس. المشكلة في مصراطة، جئنا، سيدي الرئيس، كي نُحدِّثكم عن مصراطة.

قال الرئيس: «أعلم ذلك، إذاً هيّا نتكلَّم عن مصراطة، كم عدد الرّجال عندكم؟»

أشرتُ إلى الجنرال رمضان زمروح بأنّ عليه أن يبادر بالكلام. فقال بالعربية التي تولّى المُترجِم نقلَها: «لدينا ثلاثة آلاف رجل مُدرَّب. ليس أكثر من ثلاثة آلاف، ولكن فعلاً، من الطراز الأول. وهم مُستعدّون للقتال».

أعدتُ الإشارة له، مُذكِّراً إيّاه بحديثنا البارحة مساءً.

لديهم خبرة المعارك؛ ولديهم الانضباط؛ ومُتحمِّسون، فوق ذلك، وهم منذ الانتصار الأول؛ كسائر جنود العالم، يتحرّقون لتحقيق النصر الثاني.

راقبه الرئيس. لفتَت هذه الشخصية انتباهه بشكل جليّ. بتقاطيعه غير الواضحة والمنتظمة، وبرأسه الشبيه ببابي موجيو، حيَّره، على نحوٍ غريب، أكثر من «بيت مال» وشكل وجهه الشبيه بساموراي عربي - فهل لدى زمروح معلومات لا أملكها ولا يُحيط بها في هيئته؟

تابع رمضان بالقول: «خُطَط هجومِنا جاهزة». وأخرج الخارطة التي حملها له مارجولان هذا الصباح، بحالتها المُزرية، ورسم بقلم اللبّاد خطاً ينطلِق من مصراطة إلى زليطن، ثمّ من زليطن إلى مدخل طرابلس.

«مفتاح طرابلس في مصراطة، قال ذلك، وهو يسحب الخارطة، عبر الطاولة باتجاه الرئيس. إذا سلَّحتم، مصراطة، فلن أستغرِق إلا بضع ساعات، قلت بوضوح عدّة ساعات لأصل إلى طرابلس».

ألقى الرئيس نظرة على بوغا غير القابل للاختراق. ثم أخرج، بدوره، خارطة، من ملف كان معه، الخارطة نفسها، خارطة مصراطة، ولكنّي لاحظتُ، من المكان الذي أتواجد فيه، أنها خارطة عالية الجودة، وأوضح بما لا يُقاس من خارطة طريقنا البائسة، فنهض الضباط الثلاثة نصف نهضة، كرجل واحد، كي يروها بشكل أفضل.

- غير معقول، قال رمضان، وكان المترجم ما يزال يترجم...

- نعم، قال ساركوزي، بهيئة المتواضع، كما لو كانت هذه الكلمة مديحاً.

- تمتم رمضان: نحن نرى كلّ شيء...

- كلّ شيء؟ يمكننا تقريباً رؤية تحركاتكم!

جلس رمضان من جديد، مصعوقاً من أُعجوبة هذه الخارطة.

عاد سليمان إلى صفاته.

«هناك شيء آخر، سيِّدي الرئيس، ... إذا قررتم توريد الأسلحة إلى مصراطة، فمن الأهمية بمكان أن تصل هذه الأسلحة إلى مصراطة، حقاً، وأن تصل خصوصاً بسرعة...»

قاطعه الرئيس بالقول: «ليس هناك من صعوبات. سنطلب مُساعدة أصدقائنا المشتركين».

دائماً الخيال، سر البوليشينيل، سِرّ فرنسا التي تبيع لقطر، دون أن تطلب ماذا ستفعل قطر، بعد الحرب، بالأسلحة التي تتلقّاها.

«أنا لم أفهم، ولم أُعبِّر بشكل مفهوم. إذا أردتم أن نعمل بسرعة، فيجب أن تصل الأسلحة بسرعة، ولكي تصل بسرعة، يجب أن تصل إلينا، مباشرة، إلى أيدينا ـ وبتعبير آخر، إلى مصراطة وليس إلى بنغازي...»

تشنّج طفيف، وتقريباً حركة تراجع، من الرئيس؛ ومشروع تكشيرة للألم الكاذب كما حدث منذ قليل:

ـ لا أحد يمكن أن يحلّ محلّ المجلس الوطني الانتقالي.

ـ بالطبع، قال سليمان، والقلق بادٍ في نظرته، وقد لاحظ حركة التراجع.

ـ الشيء الوحيد الذي يكفله أصدقاؤنا هو أنّ السلاح ينطلق. ويكفلون أيضاً، جودتَها بالطبع. ولكن، بعد ذلك، لديكم سلطة سياسية عليهم، يقبلها الجميع. وعليها أن تقرِّر توزيع هذه الأسلحة.

تدخّلتُ للمرّة الأولى، مشيراً إلى سليمان (وستكون هذه جملتي الوحيدة طيلة الاجتماع).

ـ السلطة السياسية هنا، سيدي الرئيس.سليمان فورتيه هو عضو في المجلس الوطني الانتقالي. وهو مشارك بكامل طاقته في المجلس، ومخول بأن يتحدّث في كلّ ذلك، باسم المجلس، لاتّخاذ القرار.

هزّ سليمان برأسه.

ومنصور الذي تذكر سلطته الحديثة كسفير لليبيا الجديدة في باريس وافق أيضاً. استشار الرئيس ليفيت بنظرة. ثم أكمل، ربما لِكونه واثقاً أو مقتنعاً أو مفكراً مرّتين بالموضوع، أو مفكراً بالقصة التي كان قد حكاها لي عن الطرود التي لم تفتح في ميناء بنغازي: «فعلاً، يجب أن نعمل بسرعة...»

ـ بسبب العُطَل، قال الكولونيل هاشم، الذي لم يقل أية كلمة منذ بدء اللقاء...

نظر الرئيس إليه مذهولاً، أعتقد، بسبب صوته الخفيض، الصخري، الشبيه بصوت كيسنجر، والذي يباغتك دائماً، في المرّة الأولى.

ـ العُطَل، التي توقف كلّ شيء، ألحّ هاشم، بهيئة من يعرف عادات القرية الغريبة التي تستقبله. ابتسم الرئيس.

ـ الدولة لا تُعطَّل أبداً.

ثمّ، أضاف بجدية أكبر مُتنقِّلاً من موضوعٍ إلى آخر؛

ـ هل تعتقدون أنه سوف يرحل؟

ـ مَن؟ سأل رمضان، ملتفتاً، كما لو أننا نتكلم عن أحد لا يعرفه.

ـ القذّافي؟

ـ آه، لا أعتقد ذلك.

ـ هذا رأي، لذلك يجب أن يركع.

ـ ولماذا لا نقتله؟ سأل رمضان بهيئة المتواطئ.

قام الرئيس، بذراع ممدودة، ويد مفتوحة، بحركة لإيقافه.

ـ أولاً، لأنني لا أريد أن أجعل منه شهيداً، ولأنني، فوق ذلك، لست قاتلاً.

ـ ولكنه، نفسه، قاتل!

ـ نعم، ولكن، في الديمقراطيات، ينتهي القتَلة في السجون.

وأضاف بصوتٍ أضعف:

ـ أن يُقتَل، الآن في مواجهة هنا، أمر مُختلِف؛ وأعتقد أنّ ذلك سيكون خطأ، وحينئذٍ لن تعود قضيَّتي. ولكن لِنَعُد إلى مصراطة...

كان يجب أن يستمرّ اللقاء عشرين دقيقة، ولكنه استمرّ، ساعة كاملة. شرَح الضباط وضع الجبهات، وحالات القوة، ومعنويات قواتهم. أعادوا شرح كيف ولماذا، على شرط أن يروا التسليح مناسباً، ولا يلزمهم أكثر من أربع وعشرين ساعة كي يدخلوا إلى طرابلس. سيعطي الرئيس موافقته، ومن حيث المبدأ، وعلى فكرة عدم المرور ببنغازي بل بالتوريد المباشر إلى مصراطة. تركهم بعد ذلك بعناية سليمان ومنصور، وبين يدي بوغا من أجل اجتماع لم أحضره، ولكن كما فعلت مع يونس، وكانت الأمور من المفترض أن تتم بتناغم. لخّصوا

المعلومات، على موعد الغداء، فرح الضباط الثلاث لا تشوبه شائبة، وعلى مفرش ورقي، وبقلم لباد، رسموا تتابع المدن التي تفصلهم عن العاصمة التي سوف يستولون عليها لحظة وصول الأسلحة الموعودة، دون طلقة أو بالكاد.

أمّا قائمة الخمس والثلاثين هدفاً استراتيجياً وجماعياً والتي سرَّبتها خلايا المجلس الوطني الانتقالي، إلى طرابلس، فقد نُقِلت إلى الإليزيه، وحيث إن الإليزيه تكتَّم على سرّ رجال مصراطة، فقد ربحت مصراطة.

ستُساعد مصراطة بنفس نسبة مساعدات جبل نفوسة. هذا الصباح، قطعت الحرب خطوةً حاسمة. كان يوم 20 تموز/ يوليو هذا، يومَ عيد ميلاد والدي.

الخميس 21 تموز/يوليو (فَنُهم الحربي وفَنُنا)

الشيء البسيط الوحيد الذي نغَّصني، لن أقول عند أصدقائي الليبيين، ولكن عند بعضهم هو جنون العظَمة فيهم. لاحظتُ علامة هذا الجنون في قضية النيران الصديقة للناتو التي قصفت آخر كتيبة من دبابات يونس. ولاحظتها، في ما يتعلق بيونس، في شكّهم بأنه يلعب على الحبلَين، وألصقوا به هذه التُّهمة، وما زال يُلصقها به قسمٌ من الشباب. ولاحظتُه، بحدِّه الأدنى، في قضية رسالتي إلى نتنياهو وما كان يمكن أن تُضرِم من نارٍ في شارع بنغازي كان يمضي في نفس المنحى. وهنا، كان آخر فصل مؤرَّخ. ولم يتوفَّر لي الوقت لتدوينه. قبل أمس، يوم وصولهم إلى فندق بّا - دو كاليه، الساعة الواحدة، تحدّثتُ إليهم عن ساركوزي، وأوصيتُهم الوصايا الأخيرة حول أفضل الأساليب في التعامل معه في الغدّ. قاطعني العقيد هاشم بصوته الشبيه بصوت كيسنجر.

«هناك شيء ...»

- نعم؟

- لا أدري إن كان بإمكاني أن أتكلّم عنه...

- يمكننا التكلُّم في كل شيء، بالطبع، في ما بيننا...

- حسناً. الإنكليز. هناك شيء ليس على ما يرام مع الإنكليز.

- أي شيء؟

حدَج الجنرال رمضان زمروح بنظرة سيِّئة.لم تعد هذه النظرة كنظرة شباب اجدابيا إلى مصطفى الساقزلي الواثق من أنّه يملك الحق في أن يحكي قصّة عصيانه، وعبور وحدته إلى تكتيك مضادّ لتكتيك رومل. وقصّته هي قصّة الضابط الذي، وإن كان كلامي غير مُريح، ويبدو كالتحدّي، والاعتراض، والاستثارة، قرَّر أن يُفرِغ كلّ ما في جعبته.

- هل تعرفون ماذا يفعلون قبل أن يقصفوا دبابة، قبل أن يقصف الإنكليز دبّابة، ماذا يفعلون؟

- لا.

- يُحذِّرون سائق الدبّابة بالمذياع...

- لكي يتركوا لهم فرصة أخيرة، أتصوَّر ذلك. لم أكن أعلم أنّ ذلك ممكناً حتى. ولكنّ الفرنسيِّين يفعلون نفس الشيء، على ما أفترض.

- بالضبط، لست متأكداً، ردّ هاشم، بسرعة كبيرة، ودائماً بصوت كصوت كيسنجر، ولكن أكثر خفوتاً، كما لو أنه كان يخشى أحداً يتنصَّت عليه.

- وماذا تستخلص من ذلك؟

لم يُجِب هذه المرّة. بل قام بحركة من إصبعه، كمن يختِم على شفاهه كما لو كان ممنوعاً عليه أن يقول المزيد.

- بلى، قل لي. لماذا تبدو لكم فكرة أن يُترك لليبي تعيس، محبوس في برج دبابته، مدّة خمس دقائق لكي ينسلخ عنه ويهرب من نيران السماء، فضائحيةً إلى هذا الحد؟

لم يُجِب البتّة. أعاد نفس حركة ختْم الشفاه، وبما أنّ الوقت كان متأخراً. قُلت:

- اسمعوا - لقد جاءت الفرصة في أوانها. سفير بريطانيا في باريس، شخص رائع. وهو يعلم بوجودكم هنا. ويريد أن يتعرف عليكم. وقد رتَّبتُ لكم معه موعداً، وسوف تطرحون عليه سؤالكم مباشرة.

وقد أُعطيت الموعد اليوم.

قدمتهم كالعادة، في صالون بيت السفير المُطِلّ على حديقة رائعة.

ألقى السفير عباراتِ الترحيب بنفس الطريقة التي قدمتهم بها، مردداً، مثل ساركوزي، بأنه لم يكن من الوارد، بالنسبة لإنكلترا، ألاّ تمضي حتى النهاية.

وكرَّر فورتيه نفس العبارات التي قالها البارحة لساركوزي، كلمة كلمة، وبشكل خاص، ضرورة توريد الأسلحة مباشرة إلى مصراطة.

أمّا هاشم المُتصلّب، العابس أصلاً، فبادر بالكلام قائلاً: «سيدي السفير... هناك سؤال يُخيفنا...»

- نعم، قال السفير، بمجاملة رائعة؟

- أية لعبة يلعبها الإنكليز بالضبط؟

- ولكن سؤالكم، لنرى، بالذات سؤالكم. ما معنى سؤالكم؟

- حسناً سؤالي، هو: قبل أن يقصف الطيارون الإنكليز دبابة، لماذا يأخذون احتياطاً، ويُنبِّهون طاقَمها؟

دون أن يقلل من ثباته، ألقى السفير نظرة على مُستشارته للشؤون السياسية التي كانت جالسةً في زاوية، في عمق الصالون.

- كي يتركوا لهم الفرصة بالطبع.

- فرصة لماذا؟

- فرصة الخروج منها.

حتى لو كان أفراد الطاقم قتَلة؟

- المهِمّ هو تدمير الدبّابات لا قتل الأشخاص.

- ولكن، ماذا لو ذهب هؤلاء الناس، وهرعوا، في اليوم التالي، كي يقودوا دبابة جديدة؟

ضحِك السفير. وأحسّ أنه أفلت في يده، فجاهد لإيجاد الكلمة الأخيرة. ومن حسن الحظ، أن العقيد هاشم لم يجِد أيضاً ما يقوله. فما كان منه، وقد بدا كأنّ هذه المبادرة بالكلام، أهانت بشدة طَبعه الصَمُوت، إلا أن ينعزِل في صمت الرجل الذي يحتضِن جنون عظَمته كما يفعل المخمور، الذي ظهر، حتى نهاية الزيارة، بمظهر رجُل لم تُقدّم له الإجابة الشافية، ولا يُريد أن يقول كلّ شيء عن الموضوع الذي يعرف عنه الكثير.

الجمعة 22 تموز/يوليو (إلى جبهات مقلوبة مع الرئيس)

عودة إلى الجنوب.

تلقّيتُ مُكالمَة من الرئيس.

لم تهدِف إلى شيء مُحدَّد. كانت للثرثرة فقط: حدّثني عن القمة الأوروبية التي انعقدت أمس، وعن انتصاره على ميركل، وإنقاذ اليورو المُحتضر، الأثر الحسن لضمانات المحادثات الإضافية حول البناء الأوروبي - وبالطبع حول ختام زيارة أصدقائنا.

قال:« لقد اتَّخذنا القرار الصائب، أنا متأكد من أنَّه القرار الصائب».

وللمرّة الأولى، وبما أنني أحسست أنّ لديه قليل من الوقت، تجرأت على أن أطرح عليه السؤال الذي يحرق شفاهي منذ أسابيع وأسابيع: هل يمرّ بلحظات يُخامره فيها الشكّ، وهل كان قد حصل له هذا.

انتفض قائلاً: «وكيف ذلك؟»

ـ ليس الشكّ في عدالة القضية، بالطبع، ولكن في مصيرها. رحيل القذّافي... والجدول الزمني...

ـ قال: أبداً، أبداً، على الإطلاق.

أحسَستُ أنه لا يُخادعني. أضاف، كما لو كان عليه إقناعي:

ـ يجب أن نترك أصدقاءنا يتصرَّفون. يجب أن يضربوا على كلّ الجبهات معاً، وأنا واثق من أنهم سوف يصلون إلى غايتهم. من أجل هذا كان من الأهمية بمكان، أننا استقبلنا جماعة مصراطة هؤلاء، واتخذنا ما اتخذناه من القرارات.

سألته إذا كان قد أحرز تقدُّماً في وساطة أزنار.

ـ نعم، بالطبع، ولكن ليس مع أزنار، بل مع فيليب كونزالس، غير أنّ هذا لم يُفِد بشيء. ولكن ذاك المخلوق القابع في طرابلس مجنون، بالتشخيص الطُبّي مجنون. وينبغي أن نُدرِك معنى أن يكون مجنوناً.

ـ مجنون...

ـ أفهم، ولكن...

ـ أنت لا تعرفه. الفرق بيننا، هو أنني أعرفه. ويمكنني أن أؤكد أنّ هذا الشخص مجنون بالمعنى الطبي للكلمة، وليس عاقلاً.

تكوّن لديَّ انطباع بأنني، كما اعتدتُ أن أفعل غالباً منذ بعض الوقت، جعلتُ نفسي محامي الشيطان. هو يمثل المُضيّ إلى الحرب حتى النهاية. وأنا من يبحث عن حلول مُختصَرة بل لِنَقُل، «سياسية»، لتكون استمراراً للحرب بوسائل أخرى.

ـ أريد جاداً أن أصدّقه. وهو بالمُقابل غير مُتزمّت. إنّه شخص قادر على الاستماع إلى ما نقوله له، وعلى تقييم صراعات القوى. هل أبلغه كونزالس الرسالة المضاعفة وذات الوجهين: الحقيقة في يد ـ والحلّ في اليد الأخرى؟

ـ بالطبع. ولكن هذا لا يمكن أن يمشي. لأنّ هناك مشكلة أخرى. يداه ملوثتان بكثير من الدماء. هو يعلم بأنه لو تراخى، فسوف يجد، ذاتَ يوم، أحداً يطلب رأسَه بالتأكيد

ـ وإذاً؟

ـ وإذاً، على أصدقائنا الذهاب بحثاً عنه، في اللحظة القادمة، فليس هناك حلٌّ آخر.

فكّرتُ، مرّة أخرى، بكلّ ما يقال، وبكلّ ما يُكتب، في كلّ مكان، حول ورطة هذه الحرب. فكّرتُ بتصريحات جوبّيه، ذلك اليوم، حين بدأ بالقول إنّ رحيل القذّافي لم يعد شرطاً مُسبّقاً. وفكّرتُ بذلك المراسل الأميركي الذي بيّن لنا، في جريدة **النيويورك تايمز** البارحة بأنه لم يجد أسلحة فرنسية في جبل نفوسة، وبأنّ ساركوزي تأخّر في مدِّ يد المساعدة أكثر مما نعتقد.

فكّرتُ من جديد بفانسان جوفريه، في جريدة **نوفيل اويسارفاتور**، بيد أنّ واحداً من أفضل المراقبين لهذه القضية، شرح لي، بعد ظهر هذا اليوم بالذات، أنّ الأميركيين هم من يقودون الحرب، وبأنهم سيعلنون نهاية العمليات، حسب توقيتهم، كما تنطلِق الصفارة مُعلِنةً نهاية الاستراحة المدرسية. فهم جميعاً يُخطئون الهدَف. جميعهم، جميعهم يُخطئون هذه الكتلة من التصميم، والرزانة التي لا شيء سوف يكسِرها.

السبت 23 تموز/يوليو (ألا تكون واثقاً من شيء، ولذلك تلتزم)

قضيتُ ليلةً في لندن. بدأتُ بتحقيقٍ حول حالة سيف الإسلام الذي، إذ أعترِف أنّ ذلك يحيرني، كنتُ أنتظر أن أستعلِم عنه أكثر، وأن أفكر أكثر، كي أُدوِّن ملاحظاتي. تعهّد جاك مارتينبز الذي كان، في هذه الساعة، متواجداً هناك بالمُصادفة، بأن يصطحِبني بعد الظهر، بين موعدين، إلى المتحف الإمبراطوري الحربي، كي أرى لوحة **باتري شيلد** للرسام ويندهام. عدنا سيراً على الأقدام باتجاه فندق كونو. وقد كلمني جاك عن علاقة الفنانين التشكيليين بالحرب، قائلاً لي، كثرة تركيزك على الأدباء تجعلك تنسى الرسّامين. أنت تخفي، بالرسّامين، فن رسم الحرب. أوتشيلوا، وبيكاسو وغويا، وبينهم من يعطي الميزة الإضافية بأن يكون أديباً أيضاً، مثل ويندهام لويس. توقّف فجأة وبالطريقة الهمجية التي تطبعه، وفي وسط الرصيف، وقال: «ولكن قل لي...هذه الحرب، لقد اندفعتَ في هذه الحرب كالمجنون، ولكن بيني وبينك، هل أنت واثق من نفسك؟ هل أنت واثق إلى أين يمضي كلّ ذلك؟»

صراحة السؤال خلخلتني لا السؤال بحدّ ذاته. واثق من ماذا؟ من أن القذّافي سوف يسقط، نعم، واثِق ثقة مطلقة من أنّ النظام الذي سيخلفه سيكون جنة الديمقراطية؟ كلا، بالطبع. ولكن انتبه، قلت له، مسترجعاً روح ثُلّتنا التي سادت بيننا من خمسة وثلاثين عاماً، في

الصيف الذي تعارفنا فيه على بعضنا (في لابّياد، في مقرّ «إينّا سلَمون» الذي كان، بشكِل ما هنا، كما في كلّ فصول الصيف الأخرى، مقرّ لويس ألتوسر الصيفي أيضاً)! **لأنني** لم أكن واثقاً، **ولأنه** مازال هناك قدر من عدم التأكد، **ولأننا** لم نلعب كلّ الأوراق بعد، **ولأننا** يمكن أن نلعب أيضاً نفس اللعبة، لهذا يا عزيزي جاك، اندفعتُ بهذا القدْر من الحميّة والحماسة، لو كنّا واثقِين يا عزيزي جاك، ولو كان المخرج مرسوماً سلفاً، فلماذا نتحرَّك إذاً؟ لماذا نغضَب؟ لماذا نلتزم؟ إذاً لَكنّا تركنا التاريخ يكتب نفسه بنفسه، ولَذهبنا للنوم، إنها مفارقة الالتزام البديهية...

كلّمتُه، ونحن ما نزال على الرصيف، نذرعه جيئةً وذهاباً، في ساحة كارلوس حيث وصلنا في النهاية، وكان يستنشِق نفحاتٍ من صيف 1977 في البّياد، ومن نفحاتِ شكوك مارلو في أسبانيا. ومن نفحات شكوك لورانس في **الأركان السبعة**، كيف، كيف «ندِمَ بمرارة، بعد الغارة الجوية على العقبة، لانخراطه في تلك الثورة». اِستشهدتُ ببايرون، في تلك الأشهر الأخيرة، مذعوراً من قلّة الجِدّية، ومن الفرق السرية، ومن قلة الشرف، وقلة وفاء جنوده الألبانيِّين.

إنها دائماً نفس الحكاية، يا عزيزي! الناس يلتزمون لأنهم لا يعرفون كلّ شيء، لأنهم يكونون في طور التردّد والحيرة والضبابية، لهذا يندفعون في التزامهم بِحَميّة. ولأنّ الرهان صحيح، يُقاتلون بكل طاقتهم، مع أنّهم غير مُتمكنين من إعدادات الرِهان. يُقال الشيء نفسه هنا، طبعاً، مع الاحتفاظ بفرق المراتب: مادامت هذه الحرب عادلة **لكنْ** قد تنتهي بشكل سيء، وما دامت الديمقراطية شيئاً جيداً **لكنها** تعطي الكلام للأوغاد، وما دام ما يحدث في ليبيا هو التكذيب الأوّل لنظرية صراع الحضارات، لكن بإمكان كلّ التاريخ أن يعود، أو ما زالت عودته مُمكِنة، وقد يتحوّل إلى نقيضه، ويُغذّي أعداء الغرب، ما دام ذلك كلُّه هكذا، فمن واجبنا على الدوام أن نلتزِم بهذه الحرب جسداً وروحاً.

بعد ذلك، هناك مخاطر لا شك فيها. من البديهيّ أنني لا أتكلّم طبعاً عن مخاطر فيزيائية. بل أتكلم عن الآخرين. عن الأقوال التي نُخاطِر بها، عن الأفكار التي نضعها موضع التنفيذ. أتكلّم عن هذا الالتزام الذي نجعله موضوع رِهان، وأقول إنّ ما نُراهِن عليه هو ذواتنا، وسمعتنا، واقتناعاتنا، قيمنا وحياتنا واسمنا، جسداً وروحاً. أعدتُ وكرَّرتُ، كي أختم كلامي، بينما كنت أدخل تحت قبة مدخل الفندق حيث تنتظرني عشيقة سابقة لسيف الإسلام

كي أُجرِي معها حواراً. يجب أن نلتزم جسداً وروحاً. هكذا هو الأمر. هذا هو الحل الوحيد، حتى لو أنّ هذه الكلمات تصيبني بالقشعريرة.

السبت 23 تموز/ يوليو، تتِمّة «خَلق العالَم كي يُفضي إلى كتابٍ جميلٍ»

تساءلتُ منذ بداية تلك المغامرة عدّة مرّات، عمّا يُشبِهني أكثر - أن أقول أو أن أفعل، أن أكتب أو أن التزم، أن أنهمك في كتاب جميل أو أن أعيد ارتباكي مع عفاريتي القديمة لزمن، في بداية السبعينات، فحينئذٍ، بدل أن أكتب أطروحتي بجِديّة، شغلتُ وظيفةً مؤقّتة في وزارة التخطيط، في بنغلادش. وتساءلتُ، في نهاية المطاف، عمّا إذا لم يكن اختياري الحقيقي هو ألاّ أختار. أن أقول ثُمّ أفعل، أن أفعل ثمّ أقول. أن أرى الليبيين يفعلون، وأُشاور في ما يفعلون، ثُمّ، في مرحلة ثانية، عندما ينتهي كلّ شيء أو أحكيه وأقوله، حتى تدريجياً، كما أفعل الآن.

رأيتُ الخطر جيّداً: الفعل من أجل القَول، وعلى كلّ وجهٍ محكيّ، وكل حدث مُعاش، أتساءل كم سطراً، وكم صفحة سيترك (عبد الفتّاح يونس، وخط جبهة كهذا، والاعتراف بالمجلس الوطني الانتقالي، وخطوط الدفاع عن بنغازي، وكم من الكتائب لا من الجنود، بل من الأدب والكلمات: كثير من الكتّاب، وليسوا قلّة، انخدعوا بذلك. وهنا مكمن الخطر)

ولكنّي رأيتُ المكسب أيضاً: هذه الأفعال غير المسبوقة، كل تلك اللحظات التي لا إرث لها، وهؤلاء الرجال الذين لا يتركون شيئاً وهم، على الرغم من ذلك، سيصنعون **التاريخ**، كل ذلك التاريخ الذي يترسّب، ولكنه بترسُّبه لم يعدْ بحاجة للاستمرار، بل سوف يتبخّر، أليس على الأدب أن يُقدِّم كتاب مُذكّرات، غرفة تسجيل ومحفوظات، أو مُستَراحاً؟

الكلمات لا تطير، بل تبقى. **الكلمة** لم تكن في البدء، بل في النهاية. الحياة هي التي تمضي، حياتي وحياة الآخرين - لكنْ من حسن الحظ أنّ هناك النصوص، الصيرورة - النص للحياة، التي تنقذ الأشياء قليلاً. هذا هو النص الذي أحلُم به. هذا هو الكتاب الذي يتوجب عليّ أن أكتبه، بطريقة أو بأخرى حول هذه الحرب.لقد أخطأ بلزاك بقوله: ليستِ الكتابةُ إعدامَ الأشخاص، بل هي حظُّهم في الحياة. أخطأ سارتر أيضاً في تفسير معنى **نقد العقل الجدلي** (وهو حوار مع مادلين شابزال) حيث يُقارِن الكتُب، كتُبَه بنُعوشٍ صغيرة: من الواضح أنّ العكس هو الصحيح، ذَهَبُ الكلمات؛ ونعمة الأرشيف إنّما تكمُن في أن تصنع أرشيفاً كي تُعيد الكائنات إلى الحياة. هل هي نعمة هذه المُذكّرات التي أُدوِّنها؟ سَنرى.

الأحد 24 تمّوز/يوليو (كارلوس فيونتز فهِم كلّ شيء)

رأسه النُحاسي الجميل الذي ازداد نحافةً عن ذي قبل. هذا الشباب الجديد، كما قال لي، يمنحُه شباباً. الرواية الضخمة التي يكتبها، ويقول إنّه كرّس لها جوهر وقته. تحدثنا عن جان سيبرغ، التي كانت عشيقته. عن أب آرييل الذي كان صديقه. عن كالا ميكيز التي فقدت عقلها. وعن ذكرياتنا المشتركة عن أوكتافيو باز والشجاعة التي لزمته سنة 1978 كي يُنظِّم في المكسيك المُتأثّرة بـ «فيدل كاسترو» تلك الفترة، جولة للفلاسفة الجُدد. لكنّ الموضوع الذي يُزعِجه، ويرغب في الحديث عنه هو هذه القضيّة الليبية والوقت الذي أُسخِّره لها.

قلتُ له بصوتٍ عالٍ كي يسمعني في جلَبة البيت الصغير في مدينة نيس حيث كنّا نتعشّى: «لا أتنبّه لمسألة الوقت». أليست هذه هي حال كلّ الكتّاب المُلتزِمين؟ كحالِك أنت نفسك، في الستينيات والسبعينيات؟ حياتك كسفير للمكسيك في فرنسا والوقت الذي أخذتْه على حساب كتُبِك؟ وحين عُيِّن دياز اورداز، جزّار تلاتلولكو، سفيراً في مدريد، واستقالتك المُدوّيَة، مع موجات صدمة، وإدارة أزمة، والإزعاج الدائم، أتذكّر ذلك؟ ومؤخَّراً أيضاً هذا الهجوم ضدّ بوش الذي لا بُدّ أنّه أخذ حيِّزاً في روايتك وضخَّ فيها طاقةً؟

أجابني: نعم ولا. ليس الأمر كذلك أبداً. فأنا لم أمضِ، مثلك، أبداً في تفاصيل القضايا السياسية، والعسكرية، والدبلوماسية. ولم أُعطِ لنفسي أبداً كلّ هذه الأدوار التي تُلصِقها بنفسك: أمير حرب، ووزير ثانٍ، مؤرِّخ أحداث، ومُستشار ـ مسرح لك وحدك، كوميديا للفنّ، العدّة الكاملة، هذا كثير على شخص واحد، لكن تبدو أنّك تقوم بكلّ ذلك، هذا ممتاز.

قلت له: «لا أتنبّه لذلك. فوضعي لا يسمح لي بقياسه. أحاول أن أقوم بالأشياء. تحمّلت مسئولية الدفاع عن هذه الحرب. وبالتالي أُحاول مُتابعة الأمور. لذا تراني أقول: أتيتُ بشخصيات من بنغازي إلى الإليزيه وإلى كليتون، ثُم أتيت بالقادة العسكريّين، وبمُقاتلي مصراطة ـ والآن، وداعاً، أُسعِدتَ مساء، أنا ذاهبٌ لقضاء العطلة، دبّروا أنفسكم. وخصوصاً...»

سأقول له إنّ كتاباً سوف يصدر، على أيّة حال، عن هذه القصّة. طبيعي. لا أصلح إلا لهذا. لا أعرف بعدُ أيّ كتاب. لكنْ ماذا في وُسع كاتب أن يفعل، حين تنتهي الحرب، إن لم يشرع في الكتابة، ويؤلّف عنها كتاباً بطبيعة الحال؟ لكنْ قاطعَتنا نيكول، صاحبة المطعم، وهي نوع من آرليتي من نيس، ومن جانب آخر، ساركوزية، حين جاءت تُعبِّر لي عن خيبة أملها

منذ قرأت في جريدة نيس ماتان أنّ تحالُفي مع بطلها تحالُف مرحلي لن يذهب إلى ما هو أبعد من نهاية الحرب في ليبيا.

«مرحلي... مرحلي... كيف يُمكِن، أن تقولي هذا؟ كنتُ اعتقد أنّ هذه الحرب تهمُّك كثيراً».

فوينتز هو الذي أجابها بلُطف، وبأناة. هو الذي شرح لها، بجاذبية، وبفرنسيةٍ ممتازة، درساً موجَزاً عن تاريخ المُثقّفين وأشكال التزامهم، وعن الفروق الطفيفة، والحيرة، وكيف يُمكن أن يُمارس رئيس يساري سياسةً يمينيّة، وكيف يصير رئيس يميني أكثر جُرأة من رئيس يساري، وما معنى فعل سياسي، وأنّه قد يحصل أن يتفوّق الناس على أنفسهم، ويجب أن يتحلّى المرء بقدْرٍ من النزاهة يجعله يعترِف بهذا النصيب من العظَمة. وأنّ بالإمكان دعم رئيس الدولة، في النهاية، في جانب من سياسته، من دون دعْمه في الجوانب الباقية.

هذا ما كنتُ أقوله في عهد بوش، للمُحافظين الجدُد الأميركيين. هذا هو اللوم الوحيد الذي كنت أوجّهه لهم حين أشرح قائلاً: «إذا ذهبتم إلى المطعم مع صديق، تختارون طبَقاً واحداً، ولا تطلبون كلّ الأطباق، فلماذا، بحجّة أنّكم أردتُم الحرب في العراق، تشعرون بأنّكم مُجبَرون على تحمُّل الحكم بالإعدام، ونظرية الخلْق، والسياسة الماليّة للجمهوريين، وحربهم ضدّ الإجهاض؟». عندما أدعم حرب ليبيا مُقرِّراً ألا أتخلّى، مع ذلك، عن شيء من اقتناعاتي وبالتالي أن أُصوِّت، بعد سنة، لمُرشَّح الحزب الاشتراكي، أقوم تماماً بعكس ما قام به المُحافظون الجدُد ـ والذي جعلَهم يخسرون الانتخابات.

الضجيج لا يُطاق. لذا توقّفنا عن الحديث.

الأحد 24 تمّوز/يوليو، تتمّة (وماذا لو عرف ساركوزي أنّ التاريخ مأساويّ؟)

تذكّرنا جملة ريمون آرون عن جيسكار ـ «ملمح النار» هذا، سيقول ميتران، في زاوية في جريدة الوحدة، نهاية شهر أيّار/ مايو 1975 ـ الذي كان يلومه لأنّه لا يعرف أن «التاريخ مأساوي». حسناً، وأنا ألاحِظ نيكولا ساركوزي. أستذكِر كلّ هذه الأحاديث الهاتفيّة أو المباشرة التي أجريناها على مرِّ هذه الشهور. ومن المؤسِف أن يصعُب قبولها: هذا الرجل المسخرة، هذا الاستعراضي، مِن روّاد مقهى الفوكتس، صديق الأغنياء، هذا الأمير المُبتذل

الذي كتبتُ عنه، في بداية ولايته الخمسيّة، أنّه لم يفهم شيئاً من القاعدة الذهبية، الوحيدة، قاعدة جسَدَي الملك بحسب كنتوروفيتش وحتمية انفصالهما (كان بن عمّو قد حكى لي أنّ مُستشاري الإليزيه تلقّوا تعليمات بأنهم قرؤوا، خلال عطلة نهاية الأسبوع، الألف صفحة التي تكوّن هذا الكتاب حيث يبدو أنّ صديقاً سابقاً قال إنّه يوجد، سِرٌّ مرموز بين السطور، هو سِرّ السيادة التي لا يُمكِن بلوغها)، هذا المِلك الذي يُطلّق، ويتزوّج من جديد، ويتحدّث عَن زواجه في مؤتمر صحفي، ويجعلنا شاهدين على غرامياّته وشهواته، هذا الرئيس الذي يبعث رسائل نصيّة أمام البابا، ويتّضِع إلى مستوى أن يقول لرجُل أفسد عليه مشهد مُصافحة الجمهور في المعرِض الزراعي: «انقلِع أيها المُغفَّل»، هذا الرئيس الشاب الذي هو، على عجَل، أوّل رئيس للجمهورية الخامِسة الذي لم تكن له تجربة مُباشرة مع الحرب، يُمكِن أن نقول عنه ما نشاء، وأُكرِّر مرّة أُخرى، أننا يمكِن أن نصطدم بالباقي، بكل الباقي من سياسته، لكنّ هناك شيئاً يجب أن نُسلِّم به، هي مزيّة (لكن هل هي، من جهة أخرى، مزيّة؟) لا نستطيع أن نُجرِّده منها: امتلاكه لحس التاريخ المأساوي؛ فهو بالتأكيد يتمتّع بهذا الجانب «على شرط أن يستمِرّ»، أو «لو كان أبونا يرانا»، من نابليون إلى أخيه جوزيف ـ لكن أمام هذا الحدث المأساوي بامتياز، أمام جوهر المأساوي، الذي هو قيادة الحرب، أمام هذه الهاوية، الهاوية الحقيقية، التي لم نعُد نلعب في قعرها، يملك، من دون شكّ، **الارتكاس المأساوي.**

الأحد 24 تموز/يوليو، تتِمّة (ما معنى المأساوي؟)

ينبغي الانتباه طبعاً.

لأنّنا، ما إن نقول«الـ» مأساوي، حتى تنبثق الثنائية الشيطانية لنيتشوية السوقيّة (هزّة الوجود، الإنسان المتفوّق، ديونيسيوس والمصلوب، ومحبّة القدَر) وبمذهب شميت الرخيص (قرار، وسياسة كبرى، والردّ على الإرادة بإرادة، والسيف هو محور العالَم، وإحساس العدوّ وذوقه) ـ وجه مذهب فاغنر المُزدوج في السياسة.

لكنْ هنا، ليس هذا أبداً. فنحن نتحدَّث، أنا أتحدّث عن تذكيرٍ ضروري: فلا شيء مُطلَق في كلّ شيء، وليس كلّ شيء في هذا العالَم صائر إلى الحلّ، ويتصالح مع نفسه، ويدخل بهدوء في الثرثرة الكونيّة، والتاريخ لم ينتهِ، وليس صحيحاً أنّه لم يعرِف بعدُ إلاّ رِجالاً أخياراً مدفوعين إلى هذا الحدّ أو ذاك كي يتقيَّدوا بقانون الإمبراطورية، والإرادة الكونية بتطهير

العالَمَ وشفاهه تتعثَّر بعَظْم، ليس بعظم خادِع، ليس صورة عظم، عظم حقيقي، يُؤخَذ على أنه حقيقي، ومن المُحتَّم أنّ المشرَّبين بالسُكر، والسُكريين، والمهووسين بالتفاهُم الكوني والتسوية، سوف يُخفقون، وأنّ ثمّة شَرّ، وبعبارة أخرى، يقول ساركوزي عن «الجنون»، إنّ هذا الشرّ وهذا الجنون في ذاتي، فيه هو، ساركوزي، وفي ذاتِ كلِّ منّا، لكنّهما موجودان بجرعات عاليَة في ذات القذّافي، وأنّه حتى عندما يتملّق، وحتى عندما يتواضع، ويتقدّم، هو أيضاً، بخطى حمامة، يبقى الشرّ شرّاً، وليس فقط ظلّ الخير، أتكلّم عن أنّ التنسيق، والترتيب، والدبلوماسية المُعمَّمة لا تتغلَّب على كلّ شيء، وأنّ رئيس الجمهورية المُضحِك، لم يفعل شيئاً آخر خلال ولايته، ولن يفعل شيئاً آخر، كان سيفهم **هذا** بأعجوبة ويفعلُه.

الاثنين 25 تمّوز/يوليو (عندما وعدت طرابلس بمكافأة لمن يقتلني أو يأسرني)

حديث مع بوريس بوالون، سفير فرنسا في تونس. يبدو أنّ التلفزيون الليبي، وخصوصاً قناة الجماهيرية، صبّت عليّ جامَ غضبها. وأعلنت مبلغ 2.8 مليون دولار لِمَن يأتي بي «مَيْتاً أو حيّاً». طبعاً هذا غير مُطمِئن إطلاقاً. ليس فقط المُدوّنات، وصفحات الشبكات الاجتماعية وخطوط تويترز المكتوبة بالعربية هي التي تتمنى موتي بوضوح، بل أحياناً الصفحات المكتوبة بالفرنسية أيضاً، أو كما يُعلِنه موقع «الوطن الشجاع».لكن، في الوقت نفسه...اعتيادي الطويل على هذا النوع من الاستفزاز...في زمن دانييل بيرل حيث تمنّت الجمهورية، خلال عدّة أشهر، أن تحميني...فالمجموعة الجهادية الباكستانية التي أصدرت (من بيشاور - وقد عانيت كلّ عذاب العالَم، لكنّي توصّلت إلى تجنُّب أن تأخذ وكالات الأنباء هذا الخبر) فتوى صغيرة ضدّي...والصربيّون في عام 1994...الجريدة اليومية البلجيكية آخر ساعة، الصادرة في 31 كانون الأوّل/ ديسمبر من عام 2008، وعلى صفحتها الأولى، وتحتها التعليق الآتي: الهدف القادم لبيليراج (عبد القادر بيليراج، إسلامي مُقتنِع سلَفاً أنّه قتل يهوديّين بلجيكيّين، وقاد عملية قتل أربعة يهود آخرين، وقد عُثِر توّاً في مسكنه في بروكسل، على قائمة بست شخصيّات كلّها يهودية، وكان لي الميزة المُريبة في أن يكون اسمي عليها)...وبصرف النظر - وهل لي أن أنسى عن «اللجنة الوهمية لِمُقاومة الاحتلال اليهودي في فرنسا» التي، بعد أن فجّرت مِسلّة جورج ماندِل، سنة 1978، في غابة فونتينبلو، شمّعت واجهة جريدة **اللوموند**

التي رفضت أن تطبع قائمة بأسماء حوالى عشر نساء ورجال سبق أن حكمت عليهم بالموت وكان اسمي عليها إلى جانب اسم سيمون فيايّ وأسماء آخرين (هذه هي الفترة التي كنت خلالها أقضي عُطَل نهاية الأسبوع في البيت الريفي الذي أعارني إيّاه أوليفييه أورban، لأتدرّب على الرمي)...إنّه اعتياد طويل بما يكفي مع هذا كلّه. وفكّرت بالفعل، مُجبَراً، في جِديّة هذا النمط من التهديد، وإذا كان جديّاً، في وسائل إزالته.أعرف الوقت اللازم لأناس نصف حازمين كي يُقرِّروا عملية قتْل وينفِّذوها. فتجنّبتُ أن أبقى خلال تلك الفترة في المكان نفسه، في المدينة نفسها، بل في سَير الحياة نفسها.تجنّبت عاداتي. ورحتُ أنظر حولي.أعرف الخدعة التي تسمح، حتى آخر دقيقة، بتجنُّب ظهور اسمي على لوائح المسافرين في شركات الطيران. فهنا، كما في أي مكانٍ آخر، حلٌّ واحد: القتال، والاحتيال ـ والانتصار.

الاثنين 25 تمّوز/يوليو، تتِمّة (تنكّرات لورانس)

إذ أعيد التفكير بالطريقة التي جلست فيها، ذاك الصباح، في الإليزيه، كما في المرة الأولى في شهر آذار/ مارس، وكما في المرّة الثانية ليلة مجيء يونس إلى باريس، بشكل عفوي إلى جانب الليبيين، لم يكن هناك أيّ شاهد. لا صحفيّون ولا مُصوِّرون. وبالتالي لا همَّ تكتيكياً بالنسبة لساركوزي، كاليسار، واليمين، والسياسة الفرنسية، الخ. فعلت هذا غريزياً. والأدهى أنني الآن أيضاً، حين أُعيد رؤية المشهد، يبقى هذا بديهةً، الشيء الوحيد الذي يجب فِعلُه، الموقف الوحيد الصحيح: لا أرى نفسي جالِساً مقابلهم، مع أهل بلدي الفرنسيّين ـ في مكاني الطبيعي من دون شكّ، ومع ذلك ليس بمكاني! هل هذا هو نوع المواقف التي، بعد أن نقوم بالتغييرات اللازمة، ومن دون أن نُقارِن، هنا أيضاً، غير القابل للمُقارنة، وجد لورانس نفسَه في مواجهتِها طيلة فترة مُغامرته في الحجاز وسوريّة، عندما كان عليه أن يخدم «سيِّدَيه»: بريطانيا والثورة القومية العربية؟ وهل هذا ما يُريد قولَه مُجيباً أولئك الذين اندهشوا من رؤيته باللباس العربي يوم رافق فيصل إلى فندق بونكنغهام، ومُعلِناً أنّه: «عندما يخدِم المرء سيِّدَين، وهو مُجبَر على أن يُزعِج أحدهما، فمن الأفضل أن يُدافع عن الأقوى بينهما»؟ ولورانس كان في لحظة ما مُزعِجاً. كان عليه أن يكون حكماً حقّاً، ممّا لم يعُد مسألة تنكر واحد بين سيِّدَين كان كلّ رِهانه، حتى الآن، أن يخدمها بنفس القدْر من الولاء. واختار في ذلك اليوم عكس ما اختاره في فندق بونكنغهام لأنّه كان يُمثِّل انجلترا لا العرب. ولو كنتُ في مكانه؟ فأيّ خيارٍ

كنتُ سأختار؟ وما الذي سيكون مُعادِل حرَجه؟ وفيما لو أنّ ساركوزي تراجع... وفيما لو وجب، كما في البوسنة، أن أختار بين العدالة، من جانب، والتاريخ الذي أراه جميلاً وجيّداً - وفرنسا من جانب آخر. الحمد لله، لم تكن هذه هي الحال.

الثلاثاء 26 تمّوز/يوليو، تتمّة (الرحلة الخامسة إلى ليبيا: بُرغم وردتي)

طبرق من جديد.

أو على الأصحّ مدينة كمبوت في منتصف الطريق بين طبرق والحدود المصرية.

قمت بهذه الرحلة وحدي.

وحدي بحزم، وبشكل مُطلق.

فقط سيّارة في سالوم، المدينة الحدودية - كما في المرّة الأولى قبل خمسة أشهر، هي الشاحنة الزرقاء الصغيرة التي تنقل الخُضار، لكن من دون جيل، من دون مارك، ومن دون حرس شخصيّ، ولا أحد.

لأنّ ما أبحث عنه اليوم ليس في حاجة إلى شاهد.

هذا لا يعني أحداً غيري.

إنّه أثر رجُل لم أتحدّث معه حتى الآن هنا، والذي له، مع ذلك، مكانته - وأية مكانة! - في هذه المغامرة.

اسمه آندريه ليفي.

هذا الرجُل الأكثر غموضاً الذي عرفته.

كان، كما قلت يوماً، في رسالتي إلى هولبيك، كتلة من الصمت والسِرّ.

كان هذا الرجل أبي الذي انتهيت بإدراك أنّه لعِب دورَ المفتاح في هذه القضية، قضيّتي، قضية التزامي برعونة، وببعض الجنون، في الدفاع عن ليبيا الحرّة.

أبدأ من أوّل القصّة.

أو أبدأ، بالأحرى، من النهاية - لكن كي أصعد نحو البداية.

ثمّة أندريه ليفي، العِصامي الذي يضع، عام 1948، العام الذي وُلِدتُ فيه، الحجارة الأولى في الصرح غير المرئي الذي صار، كما كتب مارك لامبرون ساعة موت أبي بأسلوب جميل، المِلك السرّي.

وثمّة، قبل هذا، في فجر هذه الحركة الذي سيطبع دخوله في مجتمع أصحاب الامتيازات، المقاتل السابق في الحرب الإسبانية، ثُمّ الفتى الشيوعي الذي لا يُهمِل أحلامه، ولا استِشاط غضبِه ـ فهناك «الساخِط»، وفي الوقت نفسه الذي يتحرّى «الساخط»، «القائم» خلالَه ورشات عمل الضواحي الحمراء، عمِل فيها كمُناورة، وما إن بدأ العمل، حتى بذر فيها الذهنية النقابية وعقليّة الإضراب الرديئة.

وقبل هذا أيضاً، هناك الفرنسي الحُرّ الراحل إلى إيطاليا، في شهر نيسان/ أبريل سنة 1994، مع رفاقه في الكتيبة الفرنسية الحُرّة الأولى الأسطورية التي بقيت حتى موته، السِّلك الذي افتخر دوماً بالانتماء إليه، تحت أُمرة رجل هو الجنرال دييغو بروسيه، الذي هو وحدَه الرجل الذي لم أسمعه يقول «سيِّدي»، وهناكَ الصبي حديث السِنّ، نعم،الذي لم أتمكّن أبداً من أن أقرأ هذا الشاهد، من دون أن تغرغر الدموع في عيوني، الشاهد الذي منحه إيّاه رئيسه في الحرب، في 19 تموز/ يوليو سنة 1994، بعد دخول مدينة روما، واندحار الجيش الألماني العاشِر، وخصوصاً بعد احتلال مونتي كاسّينو حيث عبّر عن شجاعة مُضمَرة: «أمّن هذا الموظّف في قسم الإسعاف المُتطوِّع دوماً، ليل نهار، وأيّاً ما كانت المُهمّة، إخلاء الجرحى تحت قصف المدافع، غير مُبالٍ بأي خطر، ماضياً عدّة مرّاتٍ للبحث عن الجرحى على خطوط الجبهة تحت نار العدوّ الكثيفة».

ثُمّ، لكي يتّضح في مونتي كاسّينو، وكي يُقاتل جنباً إلى جنب مع تابور وغوميه المغربيّيَن الصاعدَين للهجوم، ليس من السماء، بل من تلك الطريق التي سمَّوها بطريق الموت، والتي كان الألمان يظنُّون، حتى النهاية، أنّها لا يُمكِن بلوغها، كي تكون هدفاً للهجوم النهائي، الذي سمح، بين يومَي 11 و17 أيّار/ مايو، تحت نيران المدفعية، بتسلُّق المَسيلات العمودية لجبلَيّ فيتو وماجو، وصعود مُنحدراتها المُوحِلة، وفي النهاية، حماية البولونيّين الذين هم أوّل من رفعوا العلَم في قمّة جبل كاسان، وكي يكون هذا الموظَّف في قسم الإسعاف الجَسور في هذه الفرقة البطوليّة التي يقودها الجنرال بروسيه، والني كانت هي نفسها مع الفرقة المُدرَّعة بقيادة لوكلير، واحدة من الجيشَين الأسطوريّيَن لفرنسا الحُرّة، وباختصار، ثمّة، من أجل أن يجِد نفسه هنا، في قلب المعركة، سبيلان مُمكِنان، مُمكِنان تقنيّاً، وجُغرافياً، وواقعياً:راجعت كلّ القصص التي تمكّنت من إيجادها عن الفرقة الأولى لفرنسا الحُرّة، التهمتُ مُذكرات المُحاربين القُدماء وأضفت إليها نُتف المعلومات التي استطعت أن أُلمِها في حياته، فوجدت أنّ ثمّة لحظتَين كانتا مُمكنتَين، مسارَين، لا ثلاثة ـ كلاهُما يقودانني...إلى ليبيا!

تُطرِّقُ المحنة الرائدة، وأحدّد هنا، تُطرِّق القاعدة نفسها للشخصين اللذين اسمهما أندريه ليفي، لِهائج ورشات عمَل أوبرفيلييه كما لمن صار لاحقاً ملِك ساحة سان فرناند الخفِيّ.

المشهد «الإيطالي» نفسه برمَج حالات غضبَه كشاب مُتمرِّد مُسرَّح من الجيش وفي الوقت نفسه ينتمي إلى الأخوية الكبرى التي هي أخويّة «الديغوليّين» التي ستُتيح له، في الوقت المناسب، أن يقول وداعاً لعالَم العُمّال، وأن ينطلِق في حياةٍ أُخرى مدعوماً بتحالُفاته المتينة.

لكنّ الجوهري أنّه، كي يصل إلى هنا، كي يشتهر في ساحات المعركة في إيطاليا، ويصير بعد إيطاليا هذا المُقاوِم المُتأرجح بين الشيوعية والديغولية، وبين طريقتهما المُتنافستَين في تحدّي النظام العالمي، اتّخذ مسارَين مُمكِنَين، وكلاهما ليبيّان.

استطاع الالتحاق بالفرقة مع فيض الهاربين من جيش إفريقيا، والفارّين من فرنسا عبْر إسبانيا، ومن كورسيكا، الذين وصلوا بين شهرَي حزيران/ يونيو وأيلول/ سبتمبر من عام 1943، بعد معارك تونس، لحظة تحوُّلها إلى فرقة مُشاة مُزوّدة بدرّاجات ناريّة، وحيث استلم دييغو بروسيه، الذي حلّ محلّ كوينيغ، قيادتَها الفِعليّة: حينئذٍ قضى عدّة أشهر مُستقِرّاً في زوارا، على الساحل الليبيّ، على مسافة 50 كم من طرابلس، و50 كم عن الحدود التونسيّة، مُنتظراً الزحف الكبير على إيطاليا.

أو أنّه التحق بها قبل ذلك بقليل، في شهر شباط/ فبراير، في الفترة التي كانت تتشكّل الفرقة خلالها، حيث لم يكن بروسيه إلا قائداً لها، تحت أوامر الجنرال دو لارمينا، وأوامر أحد لِواءيها: كان في هذا الوقت جزءاً من آلاف «اليهود المحليّين» الذين قرّروا، بعد بير حكيم، مع كتيبة المُشاة الثانية والعشرين في شمال أفريقيا، أن يتركوا الجزائر للالتحاق بالجيش الظافِر - وهنا وصل، في كمبوت، على مسافة 60 كم بعد سالوم، و60 قبل طبرق، في الطرف الآخر من ليبيا، في المُعسكر الهائل الذي ينزل فيه رجال بروسيه، وأيديهم على الزناد خلال شهرين وعدَّة أيّام، قبل أن يتحرّكوا باتجاه تونس، وبالتالي باتجاه إيطاليا.

لم يقُل لي أيّاً من هذَين الافتراضَين كان الصحيح، وأين حدث تجنيده.

من جانبٍ آخر، لم يحدّثني عن أكثر من أفعاله الساميَة كحامل جرحى يتسلّق مُنحدَرات جبل كاسّان ليجمع عنها رفاقَه الجرحى المصورين بين خطوط القتال.

كذلك لم يقُل لي شيئاً عن دييغو بروسيه، هذا البطل من أبطال فرنسا الحُرّة، هذا الشُجاع الذي حيّاه الجنرال دوغول، ساعة موته، سنة 1944، بوصفه «رفيقه»، لكن أيضاً، وهذا نادر،

بوصفه «صديقه»: وأبي الذي خدَم العلَم تحت أُمرتِه، والذي أمضى شهوراً، سواء في زوارا أو في كمبوت، في الجزء الغربي من صحراء ليبيا، أو في جُزئها الشرقي، بصُحبتِه، في انتظار ساعة الانطلاق لتحرير إيطاليا ومِن بعدِها أوروبا.

هل لأنني لم أسأله ما يكفي من الأسئلة؟

وأننا دوماً نُفكّر بطرح الأسئلة الحقيقية بعد فواتِ الأوان؟

أمْ لأنّه كان هذه الكتلة من السِرّ - وأنّه ككلّ الأبطال، كان متواضِعاً وكتوماً؟

لستُ أدري.

لكنَّ الواقعة هنا.

واقتصرتُ منه، فيما يتصل بتفاصيل هذه الإقامة في ليبيا، في أن أُخمِّن وأُفسّر الإشارات الشحيحة التي وجدتُها بعد موته، واحتفظت بها بخشوع.

إشارة: هذه الصورة الجماعية، هم فيها خمسة؛ حيث نُميّز البُقعة الواضحة لخيمة وراءهم؛ وشكل مُبهَم، على يمينهم، قد يكون شكل رشّاش ذاتي الحركة، وأبي الثاني إذا بدأنا من جهة اليمين، هو الأصغر سنّاً، حاسر الرأس، على وجهه تعبير غير واضح، في مُنتصَف المسافة بين الابتسامة والقلَق، لكنّ العلامة التي تهمُّني هي أنّه، كرفاقه، في سروالٍ قصير، وأنّ جاره الذي على يساره يضع قُبّعة مُسطّحة ودائرية، بينما يضع آخر، على الطرف الآخر للمُلصَق، يحمل بندقية لي اينفيلد بريطانية - أوَ ليس عدَم وصول مخزون البدلات العسكرية والأسلحة الأميركية إلا بدءاً من صيف 1943، دليلاً على أنّ المشهد يحدث، على الأرجح، في شهر شباط/ فبراير، وبالتالي هنا في كمبوت؟

إشارة: هذه الرسالة إلى البنت الفتيّة جدّاً، الطفلة تقريباً، التي التقى بها قبل خمس سنوات، في بني ساف، قبل تجنُّده الطوعي، في شهر أيّار/ مايو 1939، والتي أقسم لها بأنّه، إذا عاش، سيعود للبحث عنها والزواج منها، هذه الرسالة غير مؤرّخة، وختم الطابع، على ظهر الورقة التوراتية الزرقاء، ممحوّ، لكنّها فعلاً كتابة أبي، إنّها كتابته المُتراصّة غير المقروءة تقريباً، غير أنّها هنا أكثر وضوحاً، وما تذكّرتُه منها، بالإضافة إلى طريقته الرومانتيكية الغريبة، أنّه قال لمُراسلته، حين تركها، أنّ عمُرها كعمُر روميو وجولييت، وذِكْر حمّام في قلب الليل، في بحر «بلون الميكا» يقول لها عنه إنّه يُذكِّره ببحر بني ساف والذي يجعلني أُفكر بأنّه حتماً على الساحل، وبالتالي على الجانب الآخر، غرباً، في زوارا.

إشارة دوماً: هذه الرسالة الأخيرة، غير المؤرّخة هي أيضاً، وثقب الطابع غير المقروءة حيث يصف خيمتَه، المنصوبة على أرض مطار مهجور، ويحكي أنّه كان يجب عليه تنظيفها من آلاف المسامير، والبراغي الهائلة، والعناكب المعدنية التي بعثرَها الألمان قبل هروبهم، وإذاً، كما أفترِض، بعد بير حكيم، ومعركة العلَمين العام السابق - كيف، هذه المرّة، لا أتعرّف على هذه الأرض الغامضة في كمبوت، على بُعْد 5 كم من كمبوت حيث مررت قبل قليل، وحيث لم يعُد من أثرٍ لأيّ شيء كان، لكنْ حيث أعلمَني بدويٌّ عجوز أنّ طيّارات بريطانية كانت تحطُّ، منذ زمن بعيد، بعيد جداً؟ وكيف لا أحلُم أننا ننقاد هنا، من جديد، إلى افتراض شباط/ فبراير، إلى منطقة طبرق التي أوجَد فيها؟

في الأحوال كافّة، الموقف استثنائي.

في الافتراض الآخر، الافتراض الثاني، عرَف مدينة زوارا هذه التي كنت أرجو، ذلك اليوم، إبّان إقامتي في جبل نفّوسة، أن ألمحها في المنظار المُزدوِج، وربّما استطاع، هو، أن يرى في طقسٍ صحوٍ القِممَ الصخرية حيث كنتُ، وربّما ذهب، خلال إجازة، يكتشف مغاور ناروت وكاباوا، وربّما مرّ بغواليش، أو مُقابِل غواليش، في قرية الأصباح، التي تُسيطر عليها جيوش القذّافي، والتي كنت أتمنّى جداً أن أتمكّن من زيارتها.

في الافتراض رقم 1، الأكثر قُرباً من الحقيقة، ذاك الذي تؤكّده الصورة، والرسالة الثانية، ركنَ هنا حيث أقِف اليوم، وحلُم،وفكّر، وشرِب من البئر المهجورة التي أُخمّن أنّها على يمين المستوصف القديم، داس الغُبار نفسه، ومشى بين البيوت نفسها، وعانى تحت نفس الشمس الحارقة مُحطِّماً نفس الحجر الداكن الذي سبق أن عانى، كما يُعاني اليوم، كي يُحرِّر نورَه الخاص، فهنا علّموه استخدام الألغام، وتقنية نزع الألغام، واستعمال قاذفات اللهَب والسلاح الأبيض، وهنا تعلّم أن يحفر، ويدفن نفسه، ويقود سيارة في الصحراء، وأضواؤها مُطفأة، على الحصى، وعلى إشارة البوصلة، وهنا حضّر نفسه للقتال - وللركض أيضاً، من دون إطلاق نار، تحت إطلاق النار، لتحرير رفاقه الذين حصدهم الرشّاش.

وأخيراً في افتراض إمكان أن يكون الافتراضان مُتساويَين، أي كلاهما على التوالي صحيح، وبعد كلّ خطوة غير مُمكنة، في افتراض إمكان وجوده في كمبوت في شهر شباط/ فبراير ثُمّ في زوارا خلال الصيف وحيث يجب أن يكون، خلال ذلك، شارك، في تونس، في معركة قنيطرة، وأن يكون عبَر ليبيا من الشرق إلى الغرب، وقطع الـ 1400 كم التي تفصل حدودَي مصر وتونس، وأن يكون، منذ سبعين عاماً، حقّق مشروعي الحالي، وربّما أوحى لي به خِفيَةً.

أتخيّله هنا، في كمبوت.

أراه ماشياً بين هذه البيوت التي يسحقها البؤس، لابِساً بدلته العسكرية غير المُتجانسة حيث لابُدّ أنّه خيّط شعار الشرف المشهور بلونه الأزرق الغامق المُزيَّن بصليب اللورين الأحمر.

أراه واقفاً، في انتصاره، أرى هذا «الفرنسي القويّ» الذي يُريني دليلي الموضع الذي يجب أن يكون قد أقام فيه.

أرى هذا القبر المُهمَل، المُهدّم قليلاً، الذي يوجد بقُربه، اليوم، جزء من نصُب على شرف الجنود النيوزلنديين الذين ماتوا من أجل الحريّة، وحاولتُ أن أُقدِّرها بعينيه.

أسمعه يضحك هذه الضحكة غير المِرحة التي لا ينبغي أن تكون خاصّةً به، ويتآخى مع رفاقه مُحتفظاً بمسافاته، ويتطوّع للسُّخرة، مثلما سوف يفعل في السنة التالية، لتجميع الجرحى تحت القصف، أسمعه يتظاهر بالفخر عندما يكون خائفاً، ويصطنعه لنفسه، بمحض المصادفة، ذلك الصوت الجميل الأصمّ، ذا النغمة عديمة الأثر، الذي سيُرافقه بقيّة حياته - هذا وقفٌ على أولئك الذين يمتلكون قوّةَ إرادةِ ألاّ يَروقوا أحداً.

ثُمّ أرى نفسي، أنا، ابنه، ذلك الأسبوع، على جبهة اجدابيا، أسمع مصطفى الساقزلي، رئيس شباب بنغازي، يقول إنّ أوّل شيء يجب القيام به، في الصحراء، حتى قبل القتال، تعلُّم الحفر، والانقبار، ورسم طرُق على الحصى، والركض، وقيادة السيارة على البوصلة، أرى نفسي، أنا الذي لا أعرف قيادة السيارة، ولم أحفر أيّة حُفرة في حياتي، ولم أُمسِك سلاحاً أبداً، إن أنا لم أستعِد هذه الحركات، فعلى الأقلّ أفكار الحركات التي أسأل نفسي في موضوعها من أين استطاعت أن تُراودني، وهنا، وعلى حين غرّة، تبدو لي في غاية الوضوح - ردود شاحبة، لكنها ردود على أية حال، على هذه الحركات الوهمية التي تُلاحقني من غير عِلْمي.

لَطالَمَا شككتُ بعضَ الشكّ في هذا النقل.

لقد شعرتُ دوماً، أنّ في الطريقة التي اكتسبتُها، طيلة حياتي، من بنغلادش إلى البوسنة، ومن أرتريا إلى دارفور، وفي تصرُّفي باسم قيَمٍ عُليا، شيئاً من هذا الإرث الأبوَيّ ومن إرادة أن أقيس نفسي به.

وحين كنتُ أقول «مالرو»، حين كنتُ أعتقِد، في ما وراء التزامي بقضيّة البوسنة، وشعرتُ بيد أورويل أو همنغواي غير المرئيّة، كنتُ أعرِف جيِّداً أنني نمطٌ آخر، وأنّ هذا لم يكن موديلاً من ورَق.

لكن في النهاية كنت أعلَم من دون عِلم.

كنتُ أُخمِّنه من دون أن أكون مُتأكّداً.

رُبَّما أجرؤ، من جهةٍ أخرى، على صياغته ما دام الردُّ يبدو لي باهتاً بالمُقارنة مع الأصل.

وهو نفسه، عندما كنتُ أسأله، منتبِهاً إلى أن أقول عن الموضوع أقلّ شيء مُمكِن - رُبّما لأنّه كان يُفضِّل أن يتركني في الارتياب أكثر من أن يُعرِّضني لخطر هذا الانتهاك للسيَر الذاتية وللمُقارنة التي ستُذهلني حتماً.

هذا واضحٌ هنا.

ليس ثمّة من شكٍّ بعدُ.

هذا مُخيف، بالتأكيد، ذاكرتي تهتزُّ قليلاً؛ لكنني سعيد في الوقت نفسه، كما حين نركضُ كثيراً، ويُمكِن أن نلهث.

هل كان ينبغي أن أصل إلى هنا، إلى هذا العمُر، كي أحصل على تأكيد ما كنت أمتنع، منذ بداياتي، عن صياغته، وهذا ما فعله هو أيضاً؟

هل كان يجب أن تمضي هذه العقود، تحت ناظريه، من دون أن يفهم شيئاً من علاقتنا كي يجِد، في الوقت الذي لم يعُد بيننا أو أنّه، لو كان بيننا، فقد ضاع بين النجوم التي بدأت تطلع في سماء ليبيا، سرّ الحركات التي خبّأها عنّي، ونقلها إليّ وهو يُحبُّها.

هذا مُمكِن جداً.

لكلّ إنسان قصّته السرّية، ينبغي فقط أن يعرف كيف ينتظر.

وحينئذٍ بوتيل هو الذي سيكون على حقّ - وهذا الموعد الليبي سيكون تماماً، كما كتب لي في البداية، موعد حياة سيتِمُّ في هدوء.

الثلاثاء 26 تمّوز/يوليو، تتمّة (ظلّ دييغو بروسيه، الحامي)

قلتُ إنّ أبي لم يذكر أمامي أبداً رئيسه دييغو بروسيه.

استثناء شديد الغرابة عادت ذكراه إليّ، هنا، والآن، في هذا النزُل في كمبوت حيث توقّفتُ للمبيت - كان الظلامُ دامساً، وليس هناك كهرباء، وكنت جائعاً إلى حدٍّ يمنعني من النوم، لكن بقي معي في البطارية ما يكفي لأسجِّل ملاحظاتي.

نحن في عام 1975.

كنتُ قد صُرِفتُ من العمل في غراسيه بحُجّة غير المُتوقَّع، اليومية التي أسَّستُها مع بوتيل، أخفقت إخفاقاً مُحزِناً، وبسبب أنني كنت أبدو بحسب أقوال إدارة الدار، كمَن «خبا نجمُه».

قرَّر أبي، الذي عرف بالأمر عن طريقي، أنّ القرار كان «أخرقَ»، ومع الوقاحة التي كانت واحدة من علامات جلالته المُفرطة، أن يذهب ليرى ناشرة كتُبي فرانسواز فيرني، التي لا يعرفها بأيّ حال من الأحوال، ويظهر أنّه ليس بينه وبينها أي شيء مُشترَك، لكنّه قال في نفسه إنّه يستطيع أن يُقنِعها، أوّلاً بأن شابّاً في الخامسة والعشرين لا يُمكِن أن «يخبو نجمُه»، وثانياً بأنه يعرف معنى المشروع وأن مؤسَّسة غراسيه ارتكبت خطأ بالاستغناء عن خدَمات ابنه العزيز.

نحن عندها، في شارع نابولي، ذات صباحٍ حيث كانت ما تزال على الريق.

هي تُقدِّر بفضولٍ مشوب بالخشية ربّ العمل العظيم، اللبِق لكنْ القاسي، الذي نتحمّل نظرته حتى قبل أن يُثبّتها علينا، والذي لا علاقة لأساليبه إلا قليلاً بأساليب دار النشر.

وأبي هو الذي أصيب بنوعٍ من السُّكْر، مع أنّه لا يشرب أبداً ـ موجة غضب في الواقع، غضب حادّ شديد القسوة، يبدو أنّه سرعان ما ندِم عليه، غضب ينتزِع منه، بوجهٍ خاصّ، هذه الجملة المُلغِزة التي يبدو أنّها، من دون أن أعرف السبب، جعلتْ مُحدِّثته تضطرب إلى حدّ بعيد: «ثُمّ... ثُمّ...» ـ وأردف، وهو يقوم عن كرسّيه كما لو أنّه سيمضي: «ثُمَّ إنّنا، حين رفضنا دييغو بروسيه، تجنّبنا أن نتظاهر بالذكاء!»

فماذا أتى دييغو بروسيه يفعل في قضيّة تسريح شاب موظَّف في دار نشر؟

وكيف كان يُمكِن أن «ترفض» دارُ النشر التي وظّفتني، قصّةَ هذا الجنرال، بطل فرنسا الحُرّة، الذي مات سنة 1944، في حادث سيارة جيب؟

أبي، الوفي لعادته، لم يقُل شيئاً آخر.

عُدنا مشياً على الأقدام، على وقْع هذه الخطوة البطيئة التي كانت لديه دوماً موهبة أن يُصبِّرني عليها، لكنّها، كصوته، علامة أخرى على جلالته، حتى وصلنا إلى شارع سان ـ فرنارد، وخلال كلّ الطريق، الطويلة مع ذلك، لم يقُل لي شيئاً آخر.

أمّا فرانسواز فيرني، هي ذاتها، كما لو أنّ ميثاقاً ضمنياً عُقِد هنا، خلال عدّة لحظات، بين أبي وبينها، فأبدت سحنة مُتضايقة، ولن تقولِ شيئاً فيما بعد، وتتلافى الأسئلة كلما أعدت الحديث معها في الأمر خلال الأيام والشهور اللاحقة.

الشيء الوحيد الأكيد أنّهم أعلموني، بعد عدّة أيام، بإلغاء تسريحي بسبب «خبوّ النجم»، مُشترِطين أن أقضي عدّة أشهر، عقوبة، في إعادة كتابة مؤلّفات المُفتّش السابق روجيه بورنيش مدوقة بيدفورد، وهكذا أُعيد دمجي في كوادر الدار.

والكلِمة الناعمة في القضية، كلمتها الناعمة حقّاً، سِرّ هذا التقلُّب ـ العائد إلى تدخُّل فرانسواز فيرني، الذي يجب الإيمان بفصاحته، لكن الذي لم أعرف أيّاً من تفاصيله، لدى صاحب دار النشر آنذاك، ابن أخ برنار غراسيه، هو برنار بّريفا ـ لكني علِمت بالتفاصيل لاحقاً، في زمنٍ مُتأخِّر جداً، وعلى دفعتَين.

في سنة 1991 أوّلاً، بينما كنتُ أبحث من أجل فيلم تلفزيوني عن المُثقّفين بشكل عام، وفي المقاومة بشكل خاصّ. ذهبت لمقابلة جان برولر، عن طريق فيركور، الذي كان الشاهد الذي لا يُمكِن الالتفاف عليه على هذه الأزمنة غير المعقولة. تحدّثنا بطبيعة الحال عن كتاب **صمت البحر**. منشورات miuit طبعاً. وعن آراغون، المُسمّى فرانسوا لا كولير. وعن موريس المُسمّى فوريز. لكنّه حدثني أيضاً، ولم أعُد أعرف لماذا، رُبّما بسبب فرانسوا تحديداً، عن أحد أعزّ أصدقائه يُدعى دييغو بوسيه، وأنّ مواهبه العسكرية لم تمنعه من أن يكون كاتباً، وحتى روائياً في بعض الأحيان، وأنّه سنة 1927، قدّم لدار غراسيه، مخطوطة رواية، بدعمه، هو برولر، وبدعم موريس، عنوانها **سوف يُسامَح كثيراً** ـ ورفضتْها...

بعد عدّة سنوات، وخلال لقاءاتنا الثنائية أنا وفرانسواز فيرني التي سهّلتُ لها، بدوري، العودة إلى دار غراسيه. فقد تلقّت بمجامع قلبها صدور رواية دورا برودر لباتريك مونديانو. كانت قد وضعت في رأسها فكرة العثور، بالتالي، على آثار دورا برودر الخاصّة بها، الصغيرة نيكول ألكسندر، صديقتها التي شهِدت اختفاءها من المدرسة الثانوية، ذات صباحٍ من عام 1944، ولم تعُد إليها أبداً لأنّها رُحِّلت إلى أوشفيتز، وأُعدِمَت بالغاز. وبينما كانت تعكِف، بعد أن دفعها وساعدَها مونديانو الذي كتبت مُقدّمة مؤلّفاته بعد موته، على كتابها **هل سنكون أحياء في 2 كانون الثاني/يناير سنة 1950**، الذي سيكون آخر كتاب لها وقّعته وهي تُكرَّم، في الوقت نفسه، بطريقة مؤثِّرة رفيقتها التي تحوّلت إلى رماد ودخان، شرعنا في الحديث، للمرّة الأولى، عن العُمق السياسي للقضية: مُعاداة الساميّة، وفيشي، وبالنتيجة، وهذه الفرنسا الحُرّة التي علِمتُ دوماً أنّها ارتبطت بها ارتباطاً غامضاً عن طريق أحد أصدقائها (موريس كلافيل) أو عن طريق زوجها السابق (شارل فيرني) لكن أسرّت لي، هنا، أنّها كانت عائلتها الحقيقية،

وكنيستها الثانية وكذلك مصدر إيمان في نفس حيوية الإيمان الآخر، «الأم ماكرِل» لدار النشر، تلك التي دعاها فرانسوا موريس دوماً بـ «الآنسة الخيط» بسبب حُبّها للتحايُل والدسيسة، وأنّها رمز لوقاحة وسَط «جماعة الأدب» gendeletttr وتلوُّثه، واعترفت، فجأةً، بأنهما لم تتوقّفا عن تعرُّف نفسيهما في هذه اللحظة من تاريخ فرنسا، وتبجيلها سرّاً، وتحاولان، حين تكون الفرصة مُواتية، أن تكونا وفيّتَين لها. حتى جاء يومٌ كنتُ عندها، في شارع نابولي، في نفس الصالون حيث استقبلتني مع أبي، عادت إلى موعد عام 1975، وقالت لي إنّ ذِكر اسم دييغو بروسيه هو الذي ألانه يومئذٍ، وحرّك مشاعره، وأقنعه ـ ولهذا ضرورته.

يا له من زمنٍ سعيد استطاعت فيه عبارة «فرنسا الحُرّة» أن تكتسِب قوّة سحرية؛ حيث كانت العبارة ـ فرنسا الحرّة ـ تُشكّل معنى ورابطاً في نظر الفرنسيِّين من كلّ الآفاق، وحيث كان اسم كلّ بطل من أبطالها قادراً على أن يكون كلِمة سِرّ بين كائنَين مُختلِفَين اختلاف آندريه ليفي وفرانسواز فيرني وجواز مرور لشابٍ يُحاول، بعد خمسة وثلاثين عاماً، بعد أن رحل الشهود كلُّهم تقريباً، أن يُخلّد أرواحهم، هنا، تحت سماء ليبيا!

الخميس 28 تمّوز/يوليو (مَن الذي قتل يونس؟)

لماذا عبّر لي مقتل عبد الفتّاح يونس عن نتيجة كهذه؟

الرجل، بالتأكيد. هذا الرجل الذي كنت أعرفه وتعود صُوَره المؤلِمة اليوم إلى ذاكرتي. هذا الرجل الذي، مهما قيل عنه اليوم، ترك فيّ شخصياً انطباعاً حسَناً كبيراً. ولهذا لسبب، من دون شكّ، لم أتوصّل لأقول، له في الطيّارة، إنني، نظراً للتأخير، لم أعُد مُتأكّداً من موعدنا مع ساركوزي. رأيته ثانية، خلال توقُّفنا في روما، غير مُبالٍ. ورأيته ثانية أمام الرئيس، واجداً الزاوية المُناسبة للإقناع. ورأيته صباح اليوم التالي، وسط بهو فندق رافاييل، يتحدّث مع رئيس بانهار، مازحاً، غير مُبالٍ. كان يُشكل في ذهني بوضوح جزءاً من المعصومين. كان نمطاً من الرجال نستطيع أن نمضي معه إلى الحرب قَولاً وفِعلاً. لكنْ لم تجرِ الأمور كذلك، لأنني مضيتُ إلى الحرب مع مصطفى الساقزلي، عشية رحلتنا الجويّة إلى باريس، على جبهة اجدابيا. ومع ذلك فأنا مُتأكِّد من أنّني، لو مضيت معه، أو لو طلبتُ منه أن يُرافِقني إلى البريقة أو، الشهر القادم، إلى مصراطة، لَشعرتُ بالطمأنينة العميقة، وكنتُ حتماً سأدّخر مشاعر الخوف، والتردُّد، وخفَقان القلب. وهنا، يموت ميتة غُرٍّ. ويُقتَل كما يُقتَل حيوان. وفجأة يبدو صغيراً

للغاية. ثانياً رُكبتَيه. باكياً لكن بُكاءً نهائياً.شكّاكاً. صوته مُحطَّم، حين يفهَم. هائجاً. مُتضرِّعاً إلى الله أو إلى جلاّديه، أو إليهما معاً، لكن من دون جواب. غير عارِفٍ حقاً ـ هكذا أتخيّله على كلّ حال ـ ما يجري له. إذا كان القذّافي هو الذي قتله. فلا بُدّ أنّه امتلك وقتاً هو الثواني المعدودة التي سبقَت احتضاره بطبيعة الحال، ليتعرَّف توقيع مُعلِّمه، إمّا ليلعنه وإمّا ليلعن اليوم الذي قرّر فيه أن ينشقّ عنه. وداعاً للعالَم. وداعاً، في النور الصاعد من الأرض، لهذين العقيدَين اللذين كان يحرسان غرفته عشية سفرنا إلى باريس، لا أدري. وجلده المُخرَّق بالرصاص، المُبلّل بالبنزين، والمحروق. وجُثّته المشوّهة.

ثمّ هناك، بعد ذلك، الأسئلة السياسية التي يُثيرها الحدَثُ طبعاً. لأنّ هناك أحد أمرَين. إمّا أنّ القذّافي هو الذي قتله. إذ كان يُشكّل جزءاً من نادي الخونة المُغلَق الذي وضع «القائد» على رأسها جائزة مليوني دولار، وربّما ثلاثة، ووجد لنفسه قاتلاً مأجوراً في بنغازي لتنفيذ العملية وقبض المُكافأة؛ وهذا افتراض غير جيّد لأنّه دليل على أنّ بنغازي ليست مُسيطراً عليها بالقَدْر الذي يُقال، وليست مُطهّرة بالقدْر الذي ظننتُه أنا نفسي، حيث نجِد فيها دوماً خلايا نائمة تابعة للقذّافي. وإمّا أن القاتلين خرجوا من صفوف الثوّار، وهم المتطرِّفون الدينيُّون؛ أو أفراد فاقِدو الصبر لم يفهموا أنّ الجيش الذي كان يقوده لم يعُد يتقدّم. أو عائلة أحد الشباب الذي، على العكس، يُمكِن أن يكون عرّضه للخطر بتهوُّر، ومات، ومن جديد، هذا مُرعِب لأنّه يُغذّي أطروحة مُعسكر الثوّار المُنقسِم، وصراع النزعات المُعادية في المجلس الوطني الانتقالي، للحرب غير الموفّقة، وضرورة الخروج، بسرعة، من هذه الورطة. إذا كان الأمر سيّان، فأنا أُفضّل، بطبيعة الحال، الافتراض الأوّل. أجِد أنّه الأقرب إلى الحقيقة، وتصويرهُ أقلّ كلفة ـ وهذا ما أقضي من أجله نصف الليل كي أتصل بالدوحة، وببنغازي، وأُقنِع أولئك الذين يُمكِن أن أتحدّث معهم بدعم أطروحة مقتله بإشراف طرابلس.

الجمعة 29 تمّوز/يوليو («عناصر لغويّة» في ردّة فعل على موت يونس)

نسيتُ الانفعال.

ووضعت الصوَر بين قوسَين.

وتخلّيت حتى عن أن أتساءل عن أية أطروحة أقرب إلى الحقيقة، أطروحة التسلُّل، أم أُطروحة تصفية الحسابات.

لأنّ العاجل هو الإجابة على سَيل ردود الفعل التي لا تُفوِّت أية فرصة في عدم الثقة بالثوّار أو بإلقاء بذور الشكّ على مبدأ هذه الحرب ذاته - آه، المجلس الوطني الانتقالي... لقد قُلنا لكم ذلك... غريب... غير جادّ... أُلعوبة في يدِ الغرب... «حركيّ»... جماعة من المُتخاصِمين...

ووضّحتُ حجّة شخصيّة بسيطة أعتقد بها بنسبة 95٪ نقاطها الجوهرية هي الآتية.

1. كل أشكال المُقاومة، وكل أشكال التمرُّد المسلّح، واجهت مآسي من هذا النوع، فهي ثمرة مكائد يُدبِّرها العدوّ بطريقة أو بأخرى: إذ شهِدت الثورة الفرنسية كثيراً من التصفيات، بعد خيانة مسئولين من الصفّ الأوّل، بدءاً، مع حفظ الأحجام، بجان مولان، وحلف الشمال في أفغانستان، الذي رأى رئيسه أحمد شاه مسعود ضحيّة عملية اغتيال بكاميرا مُفخّخة، بعد أن باعه، على أرض الحلْف نفسها، واحد من أركانه، وحدث الشيء نفسه في جبهة التحرير الجزائرية التي بعثر صفوفَها عُملاءُ مُندسُّون ومُقاومون أعادتهم المُخابرات الفرنسية، أو كابرال في غينيا البرتغالية الذي قتلته الشرطة الدولية والدفاع عن الدولة؛ فالثورات، بكلمة واحدة، تبقى تحت رحمة كوماندوس نائم، طابور خامس، وعصابات مُشتراة، وقد كان مُستشاروها السياسيون والعسكريون دوماً - ولا بُدّ لمن يتجاهل هذا من أن يفقد كلّ ذاكرة تاريخية - الأهداف المُفضّلة لهذه الألعاب المزدوجة، لهؤلاء المُجرمين الخارجين من الظلّ.

2. الضربة قاسية بالتأكيد على بنغازي. وخصوصاً أنّ المجلس الوطني الانتقالي يفقد، بفقدان اللواء يونس، واحداً من قادته الذي، بحُكم أنه كان الشخص الثاني في نظام القذّافي، هو أفضل من يعرف نفسيّته، وأسرار سلطته وأجهزتها، والغُرَف المُحصّنة التي بنَياها معاً تحت الأرض، وتكتيكه، وإستراتيجيته (ممّا يشرح أنّ طرابلس استطاعت أن تتمسّك بتصفيته، وطلبت رأسه، وجعلت منه موضوعاً أوّلياً سواء على الصعيد الشخصي أم على الصعيد العسكري). لكن إذا كانت الضربة قاسية، فهي ليست قاتلة. أوّلاً لأنّ يونس، إنْ كان لديه استحقاق معرفة النظام المُعادي من الداخل، وإن كان، فوق ذلك، موضع ثِقة عند التحالُف، وخصوصاً عند فرنسا، فلم يكن مفتاح الموقف الوحيد. وثانياً لأنّ ثمّة في مصراطة وفي جبل نفّوسة، وليس فقط في بنغازي، ضباط مُحترِفون يعملون قادةً مدنيِّين بأهميّة يونس، وليسوا أقلّ منه كفاءة في قيادة ليبيا الحرّة إلى النصر. وأخيراً لأنّ غيابه لم يُتبَع بأي تراجعٍ على

أية جبهة من الجبهات الثلاث (جبهة البريقة، وغواليش، وضواحي مصراطة) - بل على العكس.

3. شكّل المجلس الوطني الانتقالي لجنة تقصّي حقائق عاجلة، التزمت بإلقاء الضوء على هذه الجريمة. لكنْ هناك شيء أكيد. الطريقة التي اتُبِعت، منذ عدّة أيام، بجعل الجريمة ذريعة لتقديم المجلس الوطني الانتقالي كتحالُفٍ شاذّ وغير واضح لعناصر هي افتراضياً في صراع بعضها ضدّ بعضها الآخر، وهو عبثي ويشهد، هنا أيضاً، على افتقاد الذاكرة التاريخية الباعث على القلَق. فأن يكون في المجلس الوطني الانتقالي ماضويُّون ومُحدَثون، ممثّلو القبائل أو أن يشهَد صعود طبقات وسطى متمدّنة، ومؤيّدون سابقون للقذّافي، وأحياناً إسلاميّون تائبون، ومُعارضون تاريخيون، مُناضلون منذ أمدٍ بعيد من أجل حقوق الإنسان، أنا أفهم هذا جيّداً. لكنْ أن نستنتج من ذلك ما لا أعرف من الاستنتاجات الرخيصة، كي لا أقول غير الشرعية، عن المجلس الوطني الانتقالي، فهذا لا معنى له. لأنّه يعني نسيان أن المُكوِّن الديمقراطي يُمثِّل فيه الأغلبية الساحقة ويربح نقاطاً كلّ يوم. وهنا أيضاً، نجِد نسيان التاريخ العام لأشكال المقاومة التي كانت دائماً تحالُفات من هذا النوع، مُلملِةً في وحدة غير مُحتمَلة كلّ مكوّنات الوطن: ألا يتردّى مجرى الأشياء لأجلِ مُسمّى حين نُنكِر هذه البديهة، وحين لا نُريد أن نرى إلاّ رأساً واحداً، مثلما في جزائر جبهة التحرير الوطنية؟ وهل علينا أن نأخذ على السلطة المُتمرّدة في لندن أنّها لملمتْ سنة 1940 أناساً من اليمين واليسار، جمهوريين في حِداد على قِيَمهم، وناشطين فرنسيين مُحمِّلةً الجمهورية مسئولية الهزيمة، وماسونيين، ووطنيين، ويهوداً ومُعادين للساميّة، وشيوعيين، واشتراكيين، وديغوليّين، وحتى أعداء الديغولية؟

هذه هي نقاطي الثلاث. هذه هي «العناصر اللغوية» لحزب برنار - هنري ليفي. والنتيجة هي هذه: الإشاعات لا تؤثّر فيها بشيء، الثورة الليبيّة، بعد مقتل أحد عناصرها، محكومٌ عليها، أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، وربّما لهذا السبب عينِه، بالتجمُّع والانتصار.

السبت 30 تمّوز/يوليو (حين طالبتُ بخلَفٍ للواء المقتول)

معارِك في بنغازي. حتى في داخل بنغازي. مَن كان يُصدِّق هذا؟ ومَن كان يُمكِن أن يتخيّل أنّ «العاصمة المُتمرِّدة» تستطيع أن تكون مسرحاً لهذه المعارك التي يُحدِّثني عنها علي زيدان بالهاتف، والتي تنقل الصحافةُ جزءاً منها؟

رسالة نصيّة إلى عبد الجليل: «احرِصوا جيّداً، سيادة الرئيس، على اختيار خلَفٍ، إذا كنتُم تفكّرون بخليفة حفتر أو بعمر حريري، فسوف تُغذّون شكوك ألانقسام وسط المجلس الوطني الانتقالي؛ لأنّهما كانا مُنافِسَي يونس؛ ومُتحدّيَيه منذ البداية، أليس لديكم لواء جيّد آخر لا يُقال عنه إنّه كان يتآمر على الراحل؟»

رسالة نصيّة جوابيّة من رئيس المجلس: سوف يُعيِّن سُليمان محمود العُبيدي، العسكري الممتاز، الذي يُمثل مزيّة إضافية بانتمائه إلى قبيلة العُبَيدي، التي هي قبيلة عبد الفتّاح. وتُضيف الرسالة النصيّة أنّ عليّ الانتباه إلى نفسي. فهذه الأحداث كلّها أغضبت النفوس. ويتعيَّن أن آخُذ العِلْم بأنّ تلفزيون طرابلس يبثّ باستمرار صوراً لي مع وعد بمكافأة لا تُثير أمامها مُكافأة الذين قتلوا عبد الفتّاح شيئاً من الطمع؟

طبعاً، أنا على عِلم بهذا؛ لأنني تحت حماية الشرطة منذ أمس مساء. ومن جهة أُخرى، لديّ انطباع غريب. إذ رأيتُ خمسة موظّفين من مجموعة التدخُّل في الشرطة الوطنية، ينطلقون، من دون تحذير، مع مُعاونة الوالي التي كانت ترتدي لباس جيمس بوند نسائي، يرتبطون منذ هذا الصباح بوحدة دعم الشخصيات العُليا نزلت عمْداً من باريس. وعلِمتُ أن وحدة ارتباط مكافحة الإرهاب تضعني على «مستوى الإنذار» المُقلِق. ينبغي التعايُش مع هذا. كم من الزمن؟

الأحد 31 تمّوز/يوليو (أورويل، بايرون؟)

كِدْتُ، في تقديمي البراهين على الانقسام الحتمي لحروب التحرير وأشكال المُقاومة، أُضيف حرب إسبانيا (انظر: أورويل). وأكثر من هذا أيضاً، حرب اليونان عندما ذهب إليها بايرون سنة 1824 (انظر: مُراسلة بايرون نفسه، وتشجيعه، بل يأسُه، أمام هذه الحرب التي تندلِع بين «ورَثة ليونيداس» في ميسولونغي). توقّفت في الوقت المناسب: إنّها قصّة هزيمتَين.

الاثنين 1 آب/أغسطس (حاخام لِتواني)

تلقّيتُ اتصالاً من المحامي C. لم يقُل لي إلاّ اليوم، وهو يبدو مُنزعجاً. فقد اقتحم لصوصٌ مكتبَه خلال عطلة نهاية أسبوع 14 تمّوز/ يوليو. أفرغوا خزائنَه. وقلبوا عاليَه سافِلاً. لكنّهم على ما يبدو لم يأخذوا إلا شيئاً واحداً: حُزمة مفاتيح كانت في درج مكتبه الخاصّ المُقفَل

حيث يوجد بينها مفتاح الصندوق الذي يُجمِّع فيه مذكّراتي منذ خمسة وعشرين عاماً. فماذا كان في هذه الحُزمة؟ ومِفتاح مَن وماذا؟ وكم عددها فيما عدا مفتاحي؟ ولِضرورة الاحتفاظ بالسرّ الشخصي، لم يقُل لي شيئاً عن ذلك، بل اكتفى بأن يشرح لي أنّه، فيما يتّصل بي، ذهب بنفسه، في ساعة افتتاح البنوك، فأفرغ الصندوق، واستأجر صندوقاً آخر. وبالتالي تركني مع تخيُّلاتي. هذه المذكّرات وغيرها... هذه السيرة الليبية الخالصة التي سوف أنشرها حين ينتهي كلّ شيء، والأخرى، غير القابلة للنشر،ومع ذلك تُشكِّل سياق الأولى ـ وهي نوع من «كتابٍ مخفيّ» أو «محروق» كان الحاخام ماهمان من براسلو، ابن حفيد بال شيم توف، يقول إنّه لا يُمكِن أن يقرأه أحد إلا المسيح احتمالاً، وهذا أيضاً! على شرط أن يكون مُقطّعاً، منشوراً من جديد، مُحطَّماً، كألواح الوصايا. هذا ما سوف يحصل إذا وقع عليها أحد... اختلاف المُحتويات... الاعترافات الموجودة في السيرة الأخرى، والتي استأصلتُها من هذه... ثُمّ اختلاف الأسلوب...الجانب المُعتنَى به من هذه السيرة، المكتوبة ـ والنغمة الأخرى للسيرة المُخبّأة...ممّا يُكوِّن وحدة الكاتب، إذاً...إذا كان هو نفس الكاتب حقاً، حين يترك نفسه يمضي على سجيّته، وعندما يتجهّز... وإذا كان، بالمناسبة، حقّاً في الأولى، فلأنّه يجد نفسه فيها أكثر... أشباح الأصالة...فلوبير إلى الأبد...التصنُّع في مركز القيادة...لم أتحرَّك كثيراً في هذه الموضوعات منذ ثلاثين عاماً...

الثلاثاء 2 آب/أغسطس (قسم الحقيقة)

مُعلِّمان، نعم. يُضاف، في حالتي، مُعلِّم ثالث: الحقيقة.

الأربعاء 3 آب/أغسطس (عظَمة الإخفاق)

وإذا كانت ليبيا، في النهاية، قضيّة خاسرة، قضية جميلة، لكنّها خاسرة، هذا هو الخبر الشائع اليوم. هذا هو موضوع كلّ التعليقات منذ مقتل يونس والفوضى الخارجة عن السيطرة التي سبّبها في صفوف الثوّار. لِيَكن خيراً. فهذا لن يكون المرّة الأولى. وما فكّرتُ أبداً، على كلِّ حال، أنّ كون قضيّة مُنتصِرة، وسائرة بسواعد الظافرين وعلى خُطاهم، يُضيف شيئاً أيّاً كان إلى شرعيّتها. فالفصل بين الحقيقة والانتصار، وتحويل الهزائم، في الأمد المحدود، إلى أفعال ساميَة: حركة المُتأنّق (داندي)، وحركة ليفيناس، والحرَكتين معاً، يا لَها من سعادة.

من دون أن أتحدّث عن مالرو الذي كتب رواية **الأمل** وحوّلها إلى فيلم لحظة انعدام الأمل تماماً كما هو معروف ـ أجل، من دون أن أتحدّث عن هذه الرواية العظيمة، ثُمّ عن هذا الفيلم العظيم، التي تحكي ولادة جيشٍ ثوريّ، وتفتُّح وهم غنائي، ونموّ أُخوّة في اللحظة الدقيقة جداً حيث لم يعُد شيء للرسم إلا هزيمة بطوليّة. ومن دونِ أن أتحدّث عن هذه الجملة للورانس، في الجزء الرابع من الأركان التي بدت لي على الدوام غامضة: يتكلّم عن المجرى الظافر الذي تتخذه هذه الثورة العربية التي كان شديد الارتباط بها، ويُلِحّ على «الخجل الفيزيائي للنجاح» الذي أحسّ به دوماً بعد كلّ انتصارٍ من انتصاراته، والذي جعله يُفضِّل، على نحوٍ جِدّ منطقي، الهزائم الجميلة.

الأربعاء 3 آب/أغسطس، تتمّة (تزويق على صورة مُعمَّر القذّافي)

ضابط من حرَس الجمهورية اهتمَّ بالقذّافي خلال زيارته لفرنسا سنة 2007 شعرت بلذّة خبيثة بجعلِه يتكلّم. عن نزوات «القائد». عن حماقاته... اليوم الذي جعل الرئيس الفرنسي ينتظر ساعتَين...ذاك الذي شعر فجأةً بالحرارة فطلب من سائقه أن يُضاعف مجموع الموكب، ويقوده على عجَل إلى فندق ماريني كي يستحِمّ من دون تأخير...وراحت حارساته المُجنّدات يَجرينَ حول سيّارته واللذة التي كان يشعر بها حين يُسرِّع السيّارة ليُجبرهنَّ على الجري بسرعة أكبر، إلى أقصى طاقتهنّ، حتى تجاوزهنّ...وجهه المنفوخ، بملامحه الشبيهة بملامح المُهرِّج، حين نراه عن قُرب... وتغيُّر مزاجِه المُفاجئ...رُبّما بسبب الأدوية، ليس أكيداً...يومتمكّن من الذهاب إلى الصيد في رامبوييه: خشيَ ضابط الحرَس أن يتركه وحيداً ومعه بندقيّة، فلم يرفع بصرَه عنه، وحين انتهت رحلة الصيد، حلّت كارثة! سقطت شجرة، شجرة ضخمة جداً، ولو سقطت قبل خمس ثوان لأودتْ بحياته ـ ولا بُدّ أنّه حتى اليوم، في معقله في طرابلس، ما يزال يُفكِّر بأنّه نجا، في ذلك اليوم، في باريس، من محاولة اغتيال، وأنّ ساركوزي كان يشحذ أسلحته...أو، يوم لقائه بنساء فرنسا، في بافيّون غابرييل، انكسرت المنصّة، فوقع، وكاد يكسر رقبته، والضابط هو الذي أمسك به، وأنقذه في آخر لحظة ـ وهل هذه أيضاً مؤامرة تمّ إحباطها؟ أو غضبه في متحف اللوفر، من أحد حُرّاسه الشخصيين، وهو ليبي، الذي زلّت قدمه فاصطدم به: فلطمه بلكمةٍ هائلة على نقرته مثلما نَلكم أرنباً أو عجلاً ـ حقاً كان يُعامِل رجاله كأنهم حيوانات... ثُمّ طلبُه مرّتين أن تتوقّف السيّارة في قلب باريس، على رصيف نهر

السين حيث بائعو الكتب القديمة ـ حاولتُ أن أعرف الكتب التي اختارها، وأعرف عناوينها، وإن كان هو الذي دفع ثمنها، غير أنّ الشرطي نسِيَ...

الخميس 4 آب/أغسطس (خوفٌ يُخيِّم على المدينة)

وُجِّهتْ إليَّ تهديدات كثيرة بالموت على الإنترنت. وخصوصاً أنّ علي اتّصل بي من طرف عبد الجليل، لينقل إلي أنّ هذا الأخير يتمنّى ألاّ أُثبِّت تاريخ رحلتي إلى بنغازي في الثامن من شهر آب/ أغسطس. فالوضع خارج عن السيطرة. وفي المدينة معارك أكثر بكثير ممّا تقوله الصحافة. قلتُ: فهمت. فشكرني. لكنّ هذا كلّه يبدو لي، بطبيعة الحال، أنّه شاهدٌ على وضعٍ غريب.

الخميس 4 آب/أغسطس، تتمّة (الرئيس، ما قال حرفياً من جديد)

أودّ أن أنقل هذا الحديث ليعرفه كلّ البُلهاء الذين يُطنِبون الكلام عن الإخفاق في ليبيا، وعن فرنسا المُتحيِّرة، ورئيس الجمهورية الباحث عن أوّل فكرة ترِدُه وتسمح له بالتراجُع عن هذه الخطوة الخاطئة.

بعثت إليه هذا الصباح رسالةً أوحيت له باسم الشخص الذي بدا لي، فجأةً، أنّه الأفضل موقعاً كي ينقل عرضاً بالاستسلام على القذّافي. فذكّرني بما أنقله حرفياً.

«تلقّيتُ رسالتك. طبعاً فكرة «بوريس ب» فكرة جيّدة. لكنّه قريب منّي جداً. ثُم ماذا سيكون الموضوع؟ وسأرسله إلى طرابلس ليفعل ماذا؟ وكي يُفاوض على ماذا؟ ومع مَن؟ هيّا إذاً...ليس من شيء نتفاوض عليه مع هذا الشخص. فهو مجنون، وقد قلت لك هذا. ولم يعُد ممُكناً أن يجري معه أدنى حديثٍ جِدّي. وقد حدّدت لنفسي إستراتيجية. ولم أُحدّدها كي آتي وأغيرها اليوم. الأمر خاصٌّ بطبعي أوّلاً: فأنا لست من النوع الذي يُغيّر رأيه هكذا. وثانياً بسبب ما يحدث على الأرض أيضاً. فباستطاعة الناس أن يقولوا ما يشاءون: أصدقاؤنا في المجلِس الوطني الانتقالي يتقدّمون جيّداً. يتقدَّمون بهدوء في البدء. صحيح أنّ هذا يمضي بطيئاً أكثر من المُرتقَب. ولِحسن الحظ، بالمُناسبة، أنني أقنعت كاميرون أن يُبرمج رحلتنا إلى بنغازي في شهر تموز/ يوليو. تخيّل سفرنا في قلب التأثر المرتبط بموت يونس! لا. حين سنذهب، سيكون معنا مشروع حقيقي. ستكون رحلتنا من أجل الكلام، والتوجُّه إلى أهالي

بنغازي، وقول كلامٍ بليغٍ لهم. ولهذا السبب نحن في حاجة إلى موقفٍ يبدو، أقول تماماً يبدو، على الأقلّ مُستقِرّاً إن لم يكن قد سُوِّيَ. قرأتُ، على عجَل، ما كتبتَه عن يونس. أنت الذي على حقّ. إذاً سوف يجدون لنا، طبعاً، ثلاث خلايا إسلامية غامضة مُندسَّة! القضية الرائجة! كما لو أنه لا يوجد اندساس في كلّ المؤسّسات التي من هذا النوع! وعليه، لا أعرف حقيقة معلوماتك. لكنّ أصدقاءنا سائرون نحو النجاح. وهم يتقدّمون ـ وهذا هو الأهمّ! ـ على كلّ جبهة من الجبهات الثلاث: البريقة، وزنتان، ومصراطة. بعد ذلك، يستطيع الناس أن يحكوا ما يشاءون. يُمكِنهم مثلاً أن يُبالِغوا في تفسير إعادتي لحاملة الطيّارات شارل دو غول. سوف أذهب، من جهة أُخرى، لاستقبالها. يجب ألا تقول هذا لأحد، غير أني سأذهب لاستقبالها شخصياً، يوم الأربعاء. وسوف أقول حينئذٍ ما يجب قوله في هذا الموضوع. أعني على الخصوص أن الحالات النفسية للميونيوخيِّين ليس لها أيّ نوع من الأهمية أمام المخرج الذي لا تشكّ فيه. ولكون الانتصار هو الانتصار، لن يأتي أحدٌ بعدُ ليقول: «كم كان هذا طويلاً! كم شوَّقت الناس! كم كنّا نُفضِّل حرباً أقلّ تورُّطاً، الخ!». في لحظة مُعيّنة، سوف يتسارع الزمن. سوف يُحطِّم كلّ شيء كما حين ننظر عبْر عدسَة طيفيّة مُقرِّبة. ولن يتكون لدينا بعدُ الانطباع، مع الوقت، بحربٍ طويلة. الحقيقة هي أنّ هذا الانتصار سوف يُقاس بالصعوبة وبالرِّهان. فحذارِ! لأنّ ما يحدث هنا يتعدّى شخصي، وولايتي. فوضع فرنسا في العالم العربي هو ما نحن في فجر إقامته. النظام العالمي، وأسلوب العلاقات الدوليّة، من أجل العقود القادمة، هو ما نحن بصدد تعريفه. هذا حدَث ذو أهمية بعيدة المدى. زلزالٌ بطيء. كلّ هذا يستحقُّ قليلاً من الصَّبر. لِنَبْقَ على اتّصال. شكراً على ما تقوم به».

الأحد 7 آب/أغسطس (الرئيس، ما قال حرفياً أيضاً)

الساعة العاشرة والنصف. اتصال جديد من نيكولا ساركوزي. يُريد أن يسألني عن مُقابلتي هذا الصباح مع فريديريك جرشِل من جريدة **لو بّاريسيان**. لكنّه ذهب سريعاً إلى الجوهري: «كانت مُقابلتك مُحذِّرة. لأننا قصفنا هذه الليلة، من جديد، قصفاً عنيفاً. حتى إنّ القذّافي فقد ضابطاً برتبة لواء، هو قائد قوّاته، يبدو أنّه مات في معركة البريقة. هناك تقدُّم على الجبهات كلّها. كلّها. وبدأت الأمور تتحوّل تحوُّلاً إيجابياً بالفعل. لو حصلت مصراطة على الأسلحة التي طلبتْها؟ طبعاً. عدد واحد منها. فقد قدّمت قطر للتوّ ستمائة بك ـ آب، ذهب

نصفها إلى مصراطة. من دون الحديث عن التجهيزات الثقيلة التي هي قَيْد الوصول. نعم، العمل الذي بدأ في 20 تموّز/ يوليو يُعطي آثاره المُحتَمة. ثمّة علامة لا تُخطئها العين: لم يعُد القذّافي قادراً على التصرُّف، وليس هناك أدنى قصف لمروحيّاتنا. لقد انتهى. أقول إذاً انتهى. لكنّ هذا لا يعني بالطبع أن الحرب انتهت. إلا أننا في الاتّجاه الصحيح جدّاً. ينبغي بالضبط أن يكون أعضاء المجلس الوطني الانتقالي أكثر جُرأة. فهم ما يزالون مصدومين بموت يونس، ونحن نَفهمهم. لكنْ على الأخصّ الفصل الذي فعلوه في شهر آذار/ مارس عندما وصلوا حتى بن جواد، وكان عليهم أن يعودوا من حيث أتوا. وسوف يُدرِكون، على ما أعتقد، أن الموقف تغيَّر. هل ستعود إلى ليبيا قريباً؟ ستكون عودتك إيجابية. لأنّك تستطيع أن تشرح لهم بعض الأشياء. يجب الانتباه، طبعاً. غير أن ذهابك إليهم سيكون جيداً بحق. في ما عدا هذا، رأيت كاميرون. قال لي إنني كنتُ على حقّ حين أرجأتُ السفر إلى بنغازي. سوف نذهب إليها. لكنّنا سوف نذهب لإيصال رسالة. ستكون الرسالة «الفصل العسكري انتهى، ونحن ندخل المرحلة السياسية، وهاهي إعداداتها». وأضفت أنّ عندي سبباً آخر كي لا أستعجِل: ذلك أنّه لا ينبغي أن نُعطي انطباعاً، حتى ضمنياً، بقبول فكرة تقسيم البلَد. وهنا، حين سنذهب إليها، قد لا يكون هذا بعدُ في طرابلس، لكنّنا في النهاية سوف نتوجّه إلى كلّ البلَد، وعبْر البلد إلى مجموع البلاد العربية.

الثلاثاء 9 آب/أغسطس (ماذا يفعل المجلس الوطني الانتقالي؟)

حلّ عبد الجليل كلّ اللجان التنفيذية في المجلس الوطني الانتقالي. وأنا أعرف، كما قال ساركوزي، أنّ الأمور تتقدّم جيداً. أعرف أنها تتطوّر على الجبهات كلّها. لكنْ في الوقت نفسه... يصير من الصعب الدفاع عن كلّ هذا... فقليلون من يصغون إلينا عندما نشرح أنّ هذه القفزات المُفاجئة عديدة، وأنّ للديمقراطيات الوليدة كامل الحق في أن تُعدِّل حكوماتها، الخ... جعلني جيرشِل في جريدة لو بّاريسيان قبل أمس، أقول: «لاشك عندي أبداً». هذا صحيح. لكنّ هناك بالتأكيد لحظات حرِجة. فأمام قلّة مهارة عبد الجليل، والمجلِس الوطني الانتقالي، نشعر أحياناً أننا، مثل المُدافعين عن دريفوس شديد الشحوب، شديد الانعزال، يتوسّلون بالقول: «أليس ممُكناً أن تُغيّروا لنا البريء؟»

الجمعة 12 آب/أغسطس (عندما أعلن لي جبريل تاريخ انتفاضة طرابلس)

جان نوفيل يحتفل بعيد ميلاده. مع هبوط الليل. الهواء طريٌّ مُنعِش. وآخر لاعِبي لُعبة الكرَة في الساحة الكبيرة التي تُطِلّ عليها شُقّة جان، أوقفوا تصفيرهم الأخير، ورتّبوا كراتهم. مائدة ريفية. جوّ ودِّيّ صيفي، وريفي جميل. حكى لي هوبير تانكا، المستشار في جريدة نوفيل، نهاية جان بوديّار الذي كان صديقه وناشِره. وحكى لي أيضاً كيف أنّ سيّدة شابة كانت تأتي، خلال فترة مُعينة، كلّ أسبوع تقريباً، إلى المكتبة المشتركة بينه وبين بائع كتُب مُستعمَلة، في شارع غي - لوساك، وتعرض رزمة كبيرة من الكتُب التي كان الصديق البائع يأخذها. يُساوم على السعر، ويشتريها. إلا أنّ سيّداً كان يأتي دائماً، بعد عدّة أيام، وأحياناً بعد عدّة ساعات، ويقول بتهذيب شديد: «لا بُدّ أنّكم استقبلتُم سيّدة، وأنا آتٍ الآن لشراء الكتُب التي باعتكم إيّاها». هذا الرجل هو لوي ألتوسر. والسيّدة هي زوجته هيلانة. والكتب التي كانت تبيعها هي كتُب ألتوسر. لم يفهم مانكا ولا صديقه تاجِر الكتب سِرّ هذه اللعبة الغريبة التي تجعل أحد الزوجين، من دون أيّ شرح، يقضي وقته في ترميم المكتبة التي يُبعثرها الآخر (وبالمُناسبة، حصلت اللعبة نفسها، في الثلاثينات، بين جان كوكتو وموريس ساش).

في لحظة من السهرة، رنّ هاتفي. حين رأيت شارة الدوحة، أجبت. إنّه محمود جبريل يطلب مني أن أنقل رسالة عاجلة إلى الرئيس ساركوزي. الرسالة هي تقريباً الآتية: «ساعة الانتفاضة في طرابلس قريبة، قبل نهاية الشهر، لكن، لكي ينزل شبابنا إلى الشوارع، ويجابهوا عساكر القذّافي، يجب تحييد الأهداف العسكرية الأخيرة التي يُمكِن أن تُسبِّب الأذى، وأنتم تعرفون هذه الأهداف، والمستشار العسكري للرئيس يعرفها أيضاً، وعددها ثلاثون، بإمكاننا أن نُحيِّد عشرة من بين هذه الثلاثين بوسائلنا الخاصّة، أما في ما يتعلّق بالأهداف الأخرى، أي بالعشرين الباقية، لاشيء يُمكِن فِعلُه من دونكم، من دون حلف الناتو، وفرنسا. وأنا أعرف هذه الأهداف فعلاً. أمرها مُتّصل بغرفة عمليات القيادة العسكرية، وبمركز مُراقبة بكاميرات الفيديو، وبترسانتَين، وبعدّة قواعد، وبمدرج الإقلاع الخاص للقذّافي الذي كان يُحدّثني عنه سفير بريطانيا العظمى في باريس مُعلناً لي أن تدميره سيكون علامةً من علامات النهاية. فوعدته بنقل الرسالة، ولكنني استغلّيت المناسبة لأقول له شيئين.

أوّلاً: من العاجل الإعلان عن نتائج البحث في مقتل عبد الفتّاح يونس، ومن العاجل أن تُقدَّم الدلائل على تسرُّب رتل خامس من طوابير القذّافي إلى بنغازي، ومن العاجل كذلك إسكات التخمينات التي أساءت كثيراً، في أوروبا، إلى قضيّة ليبيا الحُرّة. ثانياً: من الجوهري أن تُعرَض بشكل أفضل قضيّةُ حلّ اللجنة التنفيذية للمجلس الوطني الانتقالي التي فهِم الجميع أنّها حل للمجلس الوطني الانتقالي نفسه، جوهري يعني، بعبارة أخرى، التشديد على جانب «تعديل» اللجنة (حكومة تُقدّم استقالتها، رئيس الوزراء والرئيس يُجريان مُشاورات، كما في أية ديمقراطية، ويُسمّيان حكومة بديلة أكثر تأقلُماً مع المرحلة الجديدة)، ومن الجوهري، على عجَل، العمل على أن يبقى في حكومة جبريل الجديدة، عناصر من الحكومة الأولى (سيكون هذا برهاناً على أننا لسنا في خطة «إبعاد عام» يضعها كثيرون في رؤوسهم وكان لها هذا الأثر الهائل في الرأي العام).

كان جبريل يُصغي. أكّد لي أننا مُتّفقان تماماً على النقطة الثانية، وأنّه عبّر عن رأيه في ذلك على إحدى القنوات التلفزيونية العربية. وحول النقطة الثانية، بالمُقابل، أسرّ إليَّ بسذاجة مُؤثِّرة بانعدام الدليل على تورُّط القذّافي في مقتل يونس، وأنّ بعض القتلة الذين سبق توقيفهم (ما يزال اثنان هاربَين) أكّدوا أنّهم قاموا بالعملية بمفردهم من دون مساعدة، أو طلب خارجي، ويجب أن أقوم أنا بقيادة عملية بحث حيث إننا حين نحسِم أمرنا من دون تردُّد، نتجنّب استبعاد فرضية القتل القادم من طرابلس حتى لو لم نملك الأدلّة الرسمية. لكن رُبّما فاتت ساعة هذا النوع من التقديرات، وهو لا يُفكِّر إلا بوشوك الانتفاضة. فأرسلت رسالةً نصيّة إلى ساركوزي.

السبت 13 آب/أغسطس (حين يعطي رئيس الجمهورية إشعاراً باستلام إعلان جبريل)

اتصل بي ساركوزي. قال لي: «استلمتُ الإعلان. هذا كلُّه واضح. وأرى تماماً ما يعني بالأهداف الثلاثين ناقص عشرة. وما يجب قولُه لجبريل أنّنا سنبقى جاهزين. ومن جهة أخرى، يجب ألاّ يُخامره الشك. فهو يعرف سلَفاً ما نقوم به. ويعلَم، عن طريق أصدقائنا بكلّ ما سبق أنّ قدّمناه من أسلحة إلى مصراطة، وما ننوي تقديمه أيضاً. عفواً؟ تقصد قاعدة دراغينيان، حيث ستُدهَن دبّابات باللون الأسمر الفاتح؟ بُفّ...دبّابات بالأسمر الفاتح،

يُمكِن أن تكون من أجل أفغانستان. على كلِّ حال، أنا أسخر منها. فإذا استحوذوا على المعلومة، فهذا سوف يمنعهم من استحواذ أشياء أُخرى. ففي هذا البلَد ما يكفي من البّيتانيين الذين، مهما فعلنا، سيُحاولون الحطّ من شأن العملية مثلما سبَق أن حاولوا فعله مع ما قُمنا به في ساحل العاج. أعود إلى جبريل. هل يعلَم بما قلتُه، أمس، في طولون عن عودة حاملة الطيّارات شارل دو غول؟ تصميمي الحازم، وصلابة دعمي، ودعم فرنسا من خلالي. هناك شيء مع ذلك، أودّ أن تقوله له قبل أن نبدأ العمليّات في طرابلس. يجب أن ننُهي الأمر في البريقة. ونحن بصراحة نوشِك على إنهائها. وقد تكون لهذا مزيّتان. من الناحية الاستراتيجية، سيكون هذا هجوماً مُضلِّلاً بإجبار القذّافي على تجميع الكتائب في الشرق. ومن الناحية الرمزية، سيكون هذا تحوُّلاً - إذ ستزداد ثقة أصدقائنا بنفسهم. إذ ينبغي أن نرى جيداً أنهم، حتى الآن، ونحن نتكلّم، يخشون من ارتداد الموقف عليهم، ومن تراجُعٍ مّا. وأنا نفسي، كي أقول الحقيقة، لا أخشى إلا شيئاً واحداً: أن تسلبهم كلّ هذه القصص، كمقتل يونس، والدعاية المُضادّة الرغبة في القتال. إذاً، إذا أظهروا أنّ الحال ليست هذه، إذا احتلّوا البريقة ولم تحتلها منهم كتائب القذّافي، فسيكون هذا تقدُّماً مُهِمّاً، وانطلاقاً من هنا، سيكون كلّ شيء مُمكناً. قُل هذا لجبريل. قُله له من طرفي. قُل له ألاّ يسمع العقول المريضة التي سوف تقول له إنّ فرنسا غير قادرة على فعل شيئين في وقتٍ واحد: الأزمة الاقتصادية من جانب، والحرب في ليبيا من جانبٍ آخر. على أيّة حال، شكراً على هذا الرسالة. سوف أتصل بك حالما يكون عندي شيء جديد. في النهاية... شيء جديد، كلّ نصف ساعة عندي شيء جديد. شيء جديد حقيقي.

الاثنين 15 آب/أغسطس (حين يأخذ القذّافي دور النازي)

نقلت رسالة ساركوزي، كما وعدتُ، إلى جبريل. وبحسب الاتّفاق، تقدّم الليبيّون الأحرار. استعادوا الزاوية في الغرب، وهم على وشك استعادة البريقة. وينبغي أن تكون الغاريان تحت سيطرتهم خلال الأيام، بل خلال الساعات القادمة. وخلال هذه الفترة، لن يجِد القذّافي شيئاً يفعله أفضل من أن يُلقي بالشتائم، ويلعن، ويتوعّد «جرذان» العصيان بكارثة وشيكة. لكنّه لا يعرف، أو لا يُلاحظ، أو لا يرى، على ما يبدو، أنّه يُكرِّمهم أروع تكريم مُمكِن. ألَمْ يُطلَق اسم جرذان طبرق على الحامية الأسترالية البطلة التي كانت تُدافع عن

المدينة خلال 250 يوماً، سنة 1941، ضدّ رومل؟ أليس هذا هو عنوان الفيلم الجميل الذي استخلصه شارل شوفيل، في نهاية الحرب، من هذا العمل السامي؟ ثُمّ عنوان المسلسل التلفزيوني الأميركي الذي طالما أثار أحلامي حين كنتُ مُراهقاً؟ وعنوان فيلم آخر أيضاً، يحكي، في ما يبدو لي، عن وقائع سلاح الفرقة البريطانية السابعة المُصفّحة؟ إنّ زلّة اللسان فادحة. والإقرار مُربِك. ففي نسخة الفيلم لعام 2011، القذّافي هو الذي يُعطي الثوّار دور الحُلفاء ضدّ النازيّة ـ ويُعطي نفسه دور رومل.

الثلاثاء 16 آب/أغسطس (اسمعوا لاكان أيضاً)

في كلّ مكان، على التلفزيون، وفي الجرائد، وفي الأحاديث، سؤال واحد. ما الذي سيفعله القذّافي؟ وكيف سيتصرَّف؟ ألن يقود المُقرَّبين منه، وبالتدريج، مدينته إلى مهرجان أخير من الألعاب؟ أليس هو، بعبارةٍ أُخرى، أكثر جنوناً من أن يُسلِّم بخسارته؟ أليس فيه من الجنون ما يكفي ليجعله يُفضِّل نهايةً جميلة على منفىً ضئيل؟ لم أعتقد بهذا. ظننتُ، منذ اليوم الأوّل، أنّه إذا قاوم بشكل جيّد، فلأنّه بالضبط كان يُراهن على انقسام التحالُف، وسأم الآراء العامة، وتكاليف هذه الحرب. وأظنُّ أنّه حين يأتي اليوم الذي سيفهم فيه، اليوم الذي سيُدرك فيه حتمية هزيمته، لن يمتلك «عزّة» ولا رغبة في «الاستشهاد»، ولا شيئاً ـ بل سيهرب، وينجو بنفسه. الكلمة المشهورة للاكان، الذي حُبِس في خزانة حين كان في المدرسة الداخلية في سانت ـ آنّ، على جدار قاعة الحراسة: «لا يستطيع الجنون كل مَن يُريده».

الأربعاء 17 آب/أغسطس (يـ ـ يوم D-Day)

نيكولا ساركوزي على الهاتف. يُعلِن لي أنّ الأسلحة وصلت ليلاً عن طريق البحر، من مصراطة إلى طرابلس، وأنّ يوم النصر قريب (خلال 72 ساعة، عند غروب الشمس، بعد الصلاة). ثُمّ اتصال من مارتين أوبري التي تريد أن تعلَم إلى أين وصلنا في الحرب: قالت لي: «أنا أقرأ كلّ شيء، لكن من الصعب أن أكوِّن فكرة عما يحصل، هل انتهى النظام حقاً؟ وهل الهجوم قريب بالقدر الذي أسمعه؟ أم عليّ أن أُصدِّق أولئك الذين يُصرّون على مُقاومة القذّافي؟ ثُمّ وعود التوأمة التي قُمنا بها في مصراطة ـ فأنا لا أُحِب تقديم الوعود وعدم الوفاء بها، أليس الزمن مُناسباً لنُعطيها مضموناً؟» لم أجرؤ على أن أُفضي لها ما أعرف. لكنّي قلت

لها، على كلّ حال، ليس هذا هو الزمن الأفضل للتفكير بعلاقات التوأمة، ويستطيعون أن ينتظروا قليلاً أيضاً. وأرجو أن تفهمني بالإشارة.

الخميس 18 آب/أغسطس (الشريعة؟)

أعلن المجلس الوطني الانتقالي عن ميثاق برامجه. انتخابات حُرّة وشفّافة... حقوق الإنسان... حريّات عامّة... كلّ شيء في الميثاق... طبعاً مع جملة مُحيِّرة: «الشريعة هي المصدر الأساسي للقانون».

علينا ألا نسعى إلى المُواربة.

هناك ثلاث طرُق لفهم هذه الجملة:

1. كنّا جميعاً مخدوعين. إذ ليس مصطفى عبد الجليل مُناصِراً سابقاً للقذّافي وحسْب، بل هو إسلامي مُقنَّع. وستكون ليبيا مملكة سعودية أُخرى. سوف تُقطَع فيها يدُ السّارق. وتُرجَم المرأة الزانية. وكي نُعيد تعميرَها، سوف نمرُّ على جسد هؤلاء الـ 90٪ من الليبيّين المُسلمين، الأتقياء غالباً، ولكنّهم مُحافظون. وفي طريقنا، سنسحق شباب الإنترنت، والثوريّين الذين لا يُصلُّون، الذين رأيت أعداداً كبيرة منهم على جبهات القتال، ونساء بنغازي اللواتي يمضين دوماً بوجوه سافرة. هذا عبث. ولا أحد يُصدقه.

2. يعرِف مصطفى عبد الجليل بأنّ في البلَد، بحسب التقديرات الأكثر تشاؤماً، رجال مُخابرات من البلدان الأكثر عدائيّة، بين 5 إلى 10 ٪ من الإسلاميين. وهو يعلم أيضاً أنّ بعض أفضل مُقاتِليه، كما يحدث غالباً، خرجوا من صفوف الإسلاميين. وهو لا يُريد أن يخسرهم. بل يُريد أن يُقدّم لهم ضماناً. أو يُريد أن يسحب البساط من تحت أقدامهم، ممّا يقود إلى النتيجة نفسها. وبالتالي يُدرِج هذه الجملة، كما في الدستور المصري، في المادّة 2 التي يعرف الجميع أنّها عديمة الفعالية، ولم تمنع أبداً من أن يكون قانون نابليون هو وحدَه المُطبّق. وهذه حال مُعظم البلاد العربية. فالشريعة، لكونها، في الحاصل، غير مُدوَّنة في أيّ كتاب، وتعليماتها ليست موضوع أي تكوين غير مُختلَف عليه، فإيرادها في الدستور ليس مُخاطرةً كبيرة ـ وهذا رِهانُ عبد الجليل. افتراضٌ مُريح.

3. مُتغيِّر الافتراض رقم 2، أو زيادة عليه. تخرج ليبيا من نظام لا وجود فيه للقانون على الإطلاق. لم يكن فيها دولة. ولا أحزاب. ولا جمعيّات. ولا مجتمع مدني. ولا قانون

خصوصاً. كان نظام الإرادة المطلَقة. كان شريعة الأقوى، شريعة الغاب، والنزوة. وبالتالي القانون الإسلامي يعني أنّ هناك قانوناً. القانون الإسلامي، إلى جانب القانون الديمقراطي وحقوق الإنسان، القانون الإسلامي الذي يُضاف إليه بدءاً من الآن أنّ الدستور يضمَن حقوق أتباع الأديان الأخرى في تطبيق شعائرهم، يعني نهاية الخلط، وحرب الكلّ ضدّ الكلّ، والفوضى القاتلة للمُتديّنين، ولإباحة كلّ شيء. ليبيا بلَد لا روابط اجتماعية فيه، لا يقوم إلا على قوة قائد ساحقة. ستكون رسالتها: سوف نصير بلَداً طبيعياً حيث الكلِمة الأخيرة للقانون. وهذا افتراضٌ مُريح أيضاً. هذا هو الشرح الذي احتفظتُ به في ذلك اليوم. وأنا أعلم، للأسف، أننا ندخل المنطقة التي لاشيء فيها مُستحيل.

الجمعة 19 آب/أغسطس (فيلبّان في جربا)

اتصل بي نيكولا ساركوزي هذا الصباح. أعلن لي أنّه سوف يلتقي بجبريل يوم الأربعاء. إذ حاول سيف الإسلام أن يتصل به أمس. لم يردّ على مُكالمته. وفيلبّان في جربا؟ يزعم أنّ لا علاقة له بهذا. كان يُمكِن أن ينصِب له هذا الفخّ، لكنّه لم يفعل. فكلّ الناس يُريدون الآن، على كلّ حال، الانحشار في كلّ شيء. وكاميرون يُريد أن يُرسِل أزنار كسفير. وهو، أي ساركوزي، طلب بصفاء نيّة، ولأنّه لا يُريد أن يتمكن أحدٌ أن يلومه يوماً لأنه لم يُحاول حتى آخر لحظة، مع ضابط من الإدارة العامة للأمن الخارجي. لكنّه يعرف أنّ القذّافي وسيف الإسلام لا يُريدان الرحيل. يعرف هذا. ويعرِف خصوصاً، مثلما أعرف، أن ساعة اليوم الكبير تقترب، غداً من حيث المبدأ. إذ سقطت غيران قبل قليل. كانت آخر حاجز قبل طرابلس. إذاً أن يتحرّك كل هذا العالَم الصغير، وأن يُهزَّأ فلان أو علاّن، وأن يبغي البقاء في التاريخ كذاك الذي لا يحلم، ساعة النصر، إلا بسجن الديكتاتور، فيا أسفي عليه، ويا أسفي عليهم، فلا أهميّة لهذا أبداً.

الأحد 21 آب/أغسطس (حين يتنفّس الرئيس الصُعَداء)

بدأت انتفاضة طرابلس. خلايا نائمة. عناصر من القوّات الفرنسية الخاصة، وإماراتيون، وعلى نطاقٍ ضيّق، إنجليز من أجل المُناورات. سلسلة تفجيرات، خلال الليل، في مركز المدينة («الأهداف السريّة» المشهورة التي كان يحدّثني عنها جبريل، مساء عيد ميلاد جان

نوفيل). نزل أربعمائة مُقاتل من مصراطة فجأة، يقودهم اللواء رمضان زرموح، على شاطئ شرق المدينة، وتحرّكوا باتجاه الساحة الخضراء. هرب القذّافي، وهربت عائلته أيضاً. وأعلنت وكالات الأنباء أنّ سيف الإسلام رُبّما اعتُقِل قبل تكذيب الخبر. ساد خلط. وارتباك. كان معي الرئيس على الهاتف قبل قليل. يبدو مُنفرِجاً. تنفّس الصُّعداء.

الاثنين 22 آب/أغسطس (صورة سيف الإسلام الشخصية)

أكبر لُغزٍ روائي للقضية كلّها هو بوضوح سيف الإسلام، الابن المُفضّل عند القذّافي، وتلميذه، ولين بياو القذّافي، رفيق سلاحه المُقرّب، ووليّ عهده.

لا أعرف الشيء الكثير عنه. لم ألتقِ به أبداً. غير أني أقرأ ما يُكتَب. أتفحّص، منذ ستة أشهر، مرّات ظهوره. حتى لقد ذهبتُ إلى لندن، الشهر الماضي، لأستجوِب واحدة من خليلاته السابقات، وعلى الأثر، بعض الذين عرَفهم في حياته الأخرى، حياة اللهو والاستهتار التي عاشها أيضاً، وكل الناس يُسارِعون، حسب الواجب، لنسيانه، وممّا رأيته وسمعته، ومن النُتَف التي جمعتها وحاولت تسجيلها، تنتج معلومتان جوهريّتان غير قابلتَين للنقاش.

الأولى هي وجود هذه الحياة الأخرى. فهو قذِر، أجَل. وهو رُجل حرب لا يعرف الشفقة، طبعاً. وجُندي مُرتزِق قادر كوالده، وقبل والِده، على أن يتوعّد «الجرذان» التي تُكوِّن شعبه بإغراقها في «أنهارٍ من الدم». لكنْ قبل هذا، أو بالتزامن معه، كان ثمّة سيف المُختلِف. مُغرَم بالمتعة. المُقبِل على الحياة. رجُل السهرات اللندنية المجنونة والعطلات الباريسية الجماعية، التي تُكلِّف مليون دولار في الليلة الواحدة. ومُرافق التزلُّج ج. في زرمات ومركب في الكاراييب. والمُغرم بسباحة المسافات الطويلة. صديق الأغنياء والحسناوات. القريب من المُتأنّقين والأقوياء الذين يعدُّونه واحداً منهم. الشخصية المُثيرة التي حدّثني عنها القبطان بّاس خلال إبحارنا صوب مصراطة. وهناك مجموعة من النساء من حوله، وأوّلها مجموعة اللندنية التي أدعوها كاتي، وهي عارضة أزياء جميلة جمال إنكليزية بول موران. تتّخِذ هيئة براءة مُصطنَعة كانت تفعل العجائب حتى الأمس القريب في أعياد طرابلس التي لست مُتأكّداً من أنّه قادر على أن يدفع لها كي تأتيه إليها. وهناك الطالب السابق في مدرسة الاقتصاد في لندن التي تعود إليه الحياة الناجحة لرجال لامعين في التعليم البريطاني، وتشريفاتهم. فهو

ليس ابن القذّافي وحسب. وهو ليس البشير، طاغية السودان الذي لا يعرِف لُغةً أخرى غير لُغة السلاح، ولم يكن لديه من حلّ غير التشبّث بكرسيّه البائس. لقد كان سيف المُتصنّع. وكان أمام هذا السيف أن يختار.

والثانية هي أنّه كان لديه بالفعل الخيار، حتى وقتٍ مُتأخِّر، وفي الحق حتى الأسابيع الأخيرة، كان لديه واقعياً، وسياسياً، هذا الخيار. أُريد أن أقول إنّ هذه الشبكة عمِلت بسرعة فائقة، وأنّ جماعة من النساء، وموظّفي مصارِف الأعمال، ورِفاق المجون والفساد، وأصدقاء، تحرّكوا في لندن، ودافوس، ونيويورك، وباريس، وميلانو، ومونتوفيديو، لإنقاذ سيف، وتخليص سيف، وسحبه من هذا الفيلم الرديء الذي نراه يغرق فيه، والإتيان به إلى أصدقائه الحقيقيّين. وأريد أن أقول أيضاً، وهذا أكثر أهمية أيضاً، إنّ قادة التحالُف صفّوا إلى جانب هذا التحرُّك، فإمّا أنّهم بالغوا في تقدير وزنه السياسي والعسكري في الجهاز المُوالي له، وبالتالي، وعلى العكس، بالغوا في حجم الصدمة التي سوف يُسبّبها التخلّي عنه، وإمّا أنّهم قدّروا قيمته الحقيقية وقاموا بالحساب الدقيق، ففتحوا له كلّ الأبواب، ووفّروا له كلّ المخارِج - من كاميرون إلى ساركوزي مروراً ببعض مسئولي المجلس الوطني الانتقالي (ألَم يقُل لي ساركوزي هذا، بكلِمات واضحة، الأسبوع الماضي؟)، كل العالَم أو تقريباً، في الوقت الذي لا يتضامن مع والده، كان مُستعِدّاً لمنحه الأمان، وإعادته إلى حياته الأخرى، حياة غاتسبي العرب التي كانوا يتمنون جداً أن يتذكّروها إذا وُعِدوا بإغفال أسمائهم، وحياة طبقة الأغنياء في موناكو، وأمراء المال النيويوركيين أو الباريسيّين الذين كانوا يعدّونه، حتى الأيام الأخيرة، واحداً منهم. القذّافي كان محكوماً بالنهاية: لم يكن، منذ اللحظة الأولى، ومهما فعل، قادراً إلا على الاستمرار أو الموت. وهذا لا ينطبق على سيف: مُدلَّل حتى النهاية، وعضو في نادي الأقوياء حتى ما قبل اللحظة الأخيرة، لم يكن إلا عليه وحدَه أن يستفيق من هذا الكابوس الذي صارت إليه حياتُه - كلِمة منه، إشارة، وسيتخلّص من القدَر الرهيب الذي يسير إليه الآن، حتماً، وبصورة مأساوية، لا إمكانية لِتلافيه.

والحال أنّه لم يقُل هذه الكلِمة. ولم يقُم بهذه الإيماءة. ولم يُمسِك بالعصا التي مدّها إليه النظام. ولكونه غيرَ سعيدٍ بعدم الإمساك بها، أضاف إليها الإثارة، وتزيّد في الكلِمات التي تقتلُه، وتُعيِّنه، هو ذاته، الطالب السابق في المدرسة اللندنية، والعاشق المُجامِل الذي يبدو أن كاتي تتذكّره، كهذا القاتل الشهيّ، هذا المتوحّش الذي لا يُغتفَر له. رُبّما كان هناك استثناء:

المساء المشهور من شهر نيسان/ أبريل حيث أرسل لي ذلك المبعوث من سلطنة، لكنّه فعل كلّ شيء، بعد هذا فوراً، لكي يُنسي مُبادرته، ويُحرِق آخر مراكبه، ويتطلّع إلى نقطة اللاعودة التي لا يبلغها، بوجهٍ عام، إلا قسراً، ومُجبَراً، خالِقاً، في الوقت نفسه، وهو يسند ظهره إلى الحائط، الموقفَ الذي يجِد نفسه فيه اليوم، والذي لم يعُد يترك له إلا خيارَين. وفي أحسن الأحوال، مصير كارافيتش أو مالاديك أو، على الأفضل، طارق عزيز الذي انتقل بين عشيّةٍ وضُحاها، من وضع إنسان كبير في هذا العالَم، يتفاوض مع أكبر الكِبار، إلى طريدة مشنقة يتوسّل، من أعماق سجنه، أن يُقدّموا له الخدمة الأخيرة بإعدامه دون أجَل، وبتخفيف مُعاناته. وفي أسوأ الأحوال، العذاب المحفوظ أحياناً للجلاّدين حين تنتهي ضحاياهم أو أولاد ضحاياهم إلى الإمساك بهم - أو أنهم يقعون في أيدي مجموعة مُتمرِّدة لا يمنعها أيُّ نداءٍ من عبد الجليل أو من المجلس الوطني الانتقالي بأن تجعله يدفع نقداً، هذه السنوات من القسوة. فهو المُقبِل على الحياة. والمُغرَم بالمتعة. المُعتاد على الريتس، وسان بارث، موقوف، مُهان، مُعذّب، ومُلقى (بالمعنى المجازي، ولا سمح الله، بالمعنى الواقعي) إلى الكلاب التي كان يُريد أن يُطلِقها على شعبه، وشعبه يُعيدها إليه - هذا في حين أنّه لم يكن يعتمد إلا عليه، وأُكرِّر، أن ينسحب من هذا الجحيم، ويقول كفى. هذا هو اللغز.

إذاً السؤال هو: لماذا؟

ماذا يُمكِن أن يدور في رأس رجل يختار اختياراً كهذا؟

ومن جهة أُخرى، هل هذا اختيار - وإذا كان الجواب نعم، فهو جواب مَنْ: جواب سيف؟ أو الآخر، قرينه، توأمه الرديء، شيطانه الحميم، لاوعيه؟

ثمّة افتراض العمى: اقتناعه، كأبيه، أن الأشياء ستنتهي بالحل، والتحالُف بالملل، والنظام، على شرط أن تصمد العائلة، باستعادة موقعها الحقيقي في التناغُم الأمثل للأوطان. وهو أذكى من أن يعتقد بهذا. وعنده من فيض المعلومات ما يجعله يعرِف، منذ البداية، أنّ المعركة خاسرة سلَفاً، وأنّه حتى، مع عودة خارقة للحظ،حيث تُشكِّل جيوشُ الخصوم سلطةَ وتترك لعائلة القذّافي جزءاً من سلطتها، فهذه السلطة ستكون رمزيّة على رأس بلدٍ من خراب، ساقط الحقوق بين الأوطان، بلا قيمة. وهذا قليل الاحتمال.

وثمّة افتراض الانتحار: إرادة موت حقيقية، وإن تكن غامضة، نائمة وراء استهزاءات الشخصية، ويُمكِن أن تجِد هنا، في سقوط النظام المُعلَن، والقيامة المُترافقة معه، مشهداً لتقيس

نفسها. رومنطيقي جداً. وفاغنري جداً. وبالتأكيد لا يتناغم، فوق ذلك، مع صورته هذه، منذ عدّة أسابيع، وأنا أعلم أنّ هذا تفصيل، لكنّ كثيراً من الأشياء، في هذه القضايا، تقوم على التفاصيل، مُصرِّحاً لقناة تلفزيونية أنّ كل شيء يسير جيّداً، وأفضل من جيّد، والدليل هو أنّه عائد من سباحة لمسافة طويلة على أحد شواطئ طرابلس. كان هناك هذا الجانب الفيزيائي، في سيف، الذي حدّثنا عنه القبطان بّاس، خلال إبحارنا إلى مصراطة ـ ولا أرى أنّ هذه الشخصيّة تموتُ «شهيدةً» كأيٍّ مُتحمِّس لعدم وجود العذراوات اللذيذات اللواتي ينتظرنه في الجنّة. هذا عبثي.

وثمّة خيار الكبرياء، أو بعبارة أفضل، خيار آخيل: أن يعيش الإنسان حياة قصيرة باهرة أفضل من أن يعيش عُمراً مديداً ـ وحين يكون ابن ملك، وبعد حين ملِكاً، حين كاد يصير الرئيس العصري لليبيا مُحدَّثة، وحين رفع الكلفة بينه وبين كبار رجال الدولة الأكثر احتراماً على وجه البسيطة، من الأفضل له أن يموت واقفاً ولا يعيش مُتمرِّغاً بدور الملك فاروق، أو بالدور الأسوأ لابن الملك فاروق يجترُّ المرارة والإخفاق. وهذا هنا غير صادق. ولا يتماشى مع وقاحة المتعة، والانتهازيّة، والافتقار إلى الضمير، والمبادئ عند شخصية يؤكِّد كلّ من عرَفها، على العكس، أنّه لا يُمكِن أن يرتاح في دور صاحب الجلالة في المنفى، يقضي وقته، من مونتي كارلو إلى سان موريتز، في سحب فوائض حُكم بائد كان سيُثير مشاعر الصفوة إلى أمد بعيد. لا يُخاطِر كي لا ينتهي نهاية الملك كارول في رومانيا الذي مات تحت التعذيب، والتنكيل، والقَهر كي يبوح بأسراره، وكسِّرت أصابعه، وشُنِق على علاّقة ذبائح اللحّام ـ فحتى القضايا الأكثر نُبلاً تخترع طرائق تعذيب. وهو يعرِف ذلك.

وثمّة افتراض دريّو ـ دريّو لاروشِل الذي فهِم، منذ عام 1943 أنّه أخطأ في المعركة، وأنّ هتلر خسِر الحرب، وعرف أنّه يستطيع، إذا أراد، أن يلتحق في أيّة لحظة بالحزب المُضادّ (أوَلَم يقترِح عليه مالرو، في صيف 1944، أن يستقبله باسم مُستعار في لواء الألزاس واللورين، وهكذا يُبرِّئه؟)، لكنّه وجد من الأنسب، إذ لم يعُد على مستوى الصورة التي يرى نفسه فيها، أن يمضي إلى نهاية خطته ويدفع ثمنها ـ غندور الموت، جاعلاً من موته الخاصّ عمله السياسي الأسمى... وهنا أيضاً لم يستقِم الأمر. إذ يلزمه قليل من العظَمة طبعاً كي يُبرهِن بهذه الطريقة. ومن الصعب عليّ أن أضمن في سيف أيّة عظمة كانت ـ كثيراً ما بحثتُ وسألتُ، وفكّرتُ، ولم أرَ أيَّ جُزءٍ من صورة ذاته هذه كانت ثمينة بما يكفي كي يمضي، من أجل

الاحتفاظ بها، إلى تخطّي هذا الخطّ غير المرئي الذي، انطلاقاً منه، نتوقّف عن اللعِب، والنقاش، والتفاوُض: نحن أمام هذه المواقف ـ الحدود حيث لم يعُد يهمّ، ويفعل إلا الحياة والموت. حذارِ من تضخيم مُجرِم لاشكّ أبداً في أنّه عادي.

لا. يُمكن أن نُحوِّل المشكلة في الاتّجاه الذي نُريد. ليس ثمّة إلاّ شرح واحدٌ مُريح للرأي المُسبّق لهذا الرجل الذي اختار أن يُغلِق باب الخروج الباقي أمامه. ذلك أنّه كان ينبغي، من أجل تخطّيه، أن يُجابه والِدَه، ويُثيره، ويتجرّأ عليه، ويُعارِضه هذه المرّة. ما كان ينبغي فقط عدَم طاعته، بل تركه لمصيره، تركه لجنونه، وقتْله. ورُبّما لاشيء أصعب على إنسان، بشكل عام، وفي ثقافته، بشكل خاصّ، من أن يُقرِّر قَتْل أبيه. حتى عندما يكون هذا الأب قاتلاً؟ حتى عندما يكون هذا الدمويّ المجنون الذي هو القذّافي؟ طبعاً...حتى قد يكون أكثر من ذلك...ابن أمين دادا...عُدَي وقُصَي، إبنا صدّام، اللذان اتّبعا جنونَه البربري، وسبقاه رُبّما كما يفعل سيف، إلى موتٍ فظيع...شوقي تايلر، ابن جزّار ليبيريا، تلميذ في الولايات المتحدة وغني، مثل سيف، من مشروع حياة آخر، لكنه استجاب، بدوره، لنظام الأب كي يأتي ليقود، معه، أكثر كتائب الموت وحشيّةً...وأيّ غرَقٍ يُواجه، حين ينجو من الأب، وعندما يواتيه الحظ بألا يموت:نيكولاي تشاوشيسكو، الغارق في الدعارة والكحول، فاسيلي، الابن المُفضّل لستالين، وآخرون...

أتخيّل الأحاديث بين سيف والقذّافي. أتخيّل الابن يُحاول أن يقنع الأب، ويضغط عليه، ويتوسّل إليه.

أتخيّل طفل مدرسة الاقتصاد اللندنية التي أجزِم بأنها لا بُدّ أن تكون موضِع كبرياء الأب وفخره، المُستشار الوحيد الذي كان الأب يُصغي إليه ـ أتخيّله منذ شهر شباط/ فبراير، يتقاسم معه المعلومات التي كانت في حوزته، والنصائح التي كان أصدقاؤه يُسدونها إليه، والإنذارات الأخيرة التي يُوجّهها المجتمع الدولي الذي كان دوماً، إلى جانب الأب ومن أجله، الوسيطَ المُفضَّل.

أتخيّله ملتحقاً بأبيه، ليلاً، تحت واحدة من الخيام التي لا حصر لها، حيث يختبئ منذ بداية القصف، ومُبيّناً له من جديد، من خلال أحاديث مُسهِبة لا تنتهي، أنّ النظام ماضٍ إلى الهاوية، وأنّه يجب التراجُع، والتحالُف، والخروج بشرف من محنة لم تكن، في ذلك الوقت، قاتلة تماماً.

أتخيّله أمام عِناد الآخر، حالماً بأن يُزيل وهمه، ويثور، وينسحِب، حتى إنّه يُحضِّر نفسه سِرّاً - للخيانة؟ لا، ليس الخيانة، ليس خيانة بقدر ما هي فعل كلّ شيء لإنقاذِ أبٍ محبوب، والتمرُّد أمام عِناده، ورفضه الغريب لسماعه، وتردُّده في مُرافقته إلى الجحيم.

أتخيّله مُستنفِداً حُجَجه، مُنهَكاً، مُهتاج الأعصاب نتيجة التوتُّر المُخيِّم على طرابلس، ونتيجة حياة التائه التي لابُدّ أنه يعيشها في مدينته منذ بداية غارات الناتو، أتخيّله مُحتدّاً، يستشيط غضَباً - أجل! كانت هناك بالتأكيد لحظة قال لأبيه، من خشيةٍ أو احترام أوحى إليه أبوه بهما، وما كان هذا إلا مناورة أخيرة لإيقاظه: انتهى كلُّ شيء، سأمضي، أو بالأحرى، إلى بيبي دوك، في النهاية، أو ابن شاه إيران، أو إلى أيّ مُرتاد ملاهي ليلية في مونتي كارلو، واليانور، والشهيد الذي لا أعتقد به أو إلى المحكمة التي سيُقدّموننا إليها.

أتخيَّل الأبّ حينئذٍ، يُلقي آخر قُواه في الجلسة المُغلقة لهذه المعركة الغريبة، صارخاً مثل بريام: «لا، يا بُنيّ، لن تمضي، مكانك في جِوار أبيك، وهذا هو العُرف منذ بداية الأزمان، وسيكون كذلك في طرابلس، ليس هذا أمراً، بل نظام العالَم، والزمن، اسكت، وتراجَع».

وأتخيّل الابن مهزوماً يقول، بعد أن تجرَّع كلّ رغباته في التمرُّد، وصُعِقت كل أشكال مقاومته: آه! تحطيم الابن بدعوته إلى احترام ما باد من دواعي أواصر الدم، والعِرق، أسهل بكثير من هزيمة جيش ثائر يتحدّاك في مصراطة والزنتان - وهذا ما حصل.

هو إينياس أكثر منه أوديب.

هو اينياس ابن أنخيس الذي لاشيء يُمكِن أن ينتشِله من ألسنة اللهب التي تُهدِّد طروادة - لكن للأسف، نحرقها معه، وهذا مكتوب.

عليه أن ينسى كابري وباريس، وملذّات كل الكابوا العصرية، والمال الذي يبقى منه الشيء الكثير الكافي لتغذية ألف حياة كتلك المحصورة به، مهما كانت هذه الخطوة، هذه الخطوة البسيطة، خارج الاغتيالات التي تُنفِّذها كتائب الأب، ويستمِرّ في العيش - وهذا لأنّ أصوات العالَم الآخر تُناديه، وتُذكِّره بنحسِه، وهاويته، ونزعة الابن الملعون، وبمصيره المقلوب، بهذا العالَم القديم الذي لم يعرف أيّ تنميق، وأيّ تقليد أخرق، وأية مدرسة لندن لما لا يهمّنا أن نعرفه، أن تخنق استدعاءه الذي طالما بقِيَ أبكم، لكنّه يصرخ حتى الموت.

من هذه القصة المجنونة، قصة ابن الغرب بالتبنّي الذي نكتشِف، في ساعة الحقيقة، أنّ الرقم الجديد لم يمحُ شيئاً من الرقم القديم، وأنّ هناك سابقة مُفاجئة.

سابقة أعرفها جيّداً لأنني طالما درستُها، وعن قُرب.

إنها سابقة طالب قديم في مدرسة الاقتصاد اللندنية، جلاّد دانييل بيرل، وهو عمر الشيخ.

وها هو افتراضي: هناك ملعونون، بالمعنى الخاص للملعونين، أي أناس لن تمحو ضربة حظ المصير المُختار أبداً مصادفة القانون الرديء الذي منحهم الولادة، وغدا، في النهاية، ثوب القنطور «ناسوس» الذي يختنقون فيه.

الأمر هكذا.

هبطنا في بنغازي. سمحتْ لنا بذلك الإدارة المُزدوجة للناتو، وللمجلس الوطني الانتقالي. وصلنا مُباشرةً إلى عاصمة ليبيا الحُرّة من دون لجوئنا إلى عبور الحدود التونسية، والمصرية السيّئة. وهكذا تجنّبنا كابوس الألف كيلو متر ونيّف على هذه الطريق الرديئة المنطلقة من سالوم وطبرق، ثُم إلى البيضاء، ودرنة، وبنغازي... نحن دوماً نفس المجموعة الصغيرة.وفرانسوا مارغولان، الموصوف سابقاً. وإلى غياب منصور الذي صار، بدءاً من الآن، سفيراً، ولم يستطع أن يتحرّر من التزاماته. بالإضافة إلى كريستوف، وبرينو، وأوليفييه، ولوران، ودومينيك، رجال شرطة النُخبة الذين لم يتركوني منذ انخراطهم في حياتي، يوم الجمعة المشهور، قبل ثلاثة أسابيع من الآن. في رأينا جميعاً، هذا أكثر من توفير تعب. وهو أفضل، أفضل بكثير من توفير الألف كيلومتر ونيّف التي كان ينبغي أن نتعارك معها في كلّ مرّة، والتي، في كلّ مرّة، سواء في الذهاب أم في الإياب، تتركنا مُنهَكِين. إنّه شعور بالحريّة جديد. إنّه، خلال اللحظة المُحدّدة التي تحطّ فيها الطيّارة وتبدأ بالاندفاع على مدرج المطار، إحساسٌ بالغبطة التي تستولي عليك، وتُهلّل. إنّها، إذ تتعلّق بكل هذه الذكريات من المصيبة، والكفاح، والهزائم، والجهود، والشكّ أحياناً، التي تنفرِط في الأشهر الستّة الأخيرة، لكنّها هنا، تتجمّع وتغزو ذاكرتي، الثقة، الثقة الأولى الحقيقية بأنّ الحرب انتهت، وأنّ من أرادوها انتصروا.

ومن جهةٍ أخرى، ما كدنا نُقلِع، حتى اتّصلت بي ماري جويل وقالت لي إنّها تلقّت مُكالَمَة من جيرار لونغيه الذي طلب بأن يُكلّمني عاجلاً. وعندما اتصلت، بقليل من الصعوبة، ويجب قول هذا، لأنّه إذا كان هناك شيء لم ينتظِم، منذ اتصالي بساركوزي في الخامس من آذار/ مارس من بنغازي، فهي الاتّصالات، حتى بهواتف ايراديوم، وثُريّا، فوقعت على لونغيه في مُنتهى اللُّطف، ودود أكثر من اللازم، ودّ أن يُعبّر لي (المرجِع) عن «امتنانه» بوصفه

وزيراً، ومن خلاله، عن امتنان «الجنود الفرنسيّين» الذين التقيت بهم، و«أولئك الذين لا يُوجدون»، من إصراري، وحزمي، وانطلاقاً من هنا، من مُساهمتي في هذا الانتصار الفرنسي الرائع. أنا لا أعرف لونغيه. وأظنّ أنّ هذه هي المرّة الأولى التي نتحدّث فيها. لكنني أتذكر كلّ التصريحات الأقلّ تشكّكاً التي استطاع الإدلاء بها على مرِّ الشهور. أُفكر بكل ما نُقِل إليّ عن آرائه غير المُريحة التي يبدو أن نشاطي أوحى له بها. لكنْ حسناً. حتى لو كان كلّ شيء مُمكِناً. فأنا أسعد مِزاجاً من أن أترك هذه الأفكار السيّئة تتأكّلني. لذا اخترت ألا أتوقّف عندها، وأن أَعِدَه بأنّنا سوف نلتقي، بشكل طبيعي فور عودتي إلى باريس.

الاثنين 22 آب/أغسطس (مَرقَص الغرمانت)

طالما فتنني **مَرقص الرؤوس** الذي يُكوِّن قلب رواية **الزمن المُستعاد** والذي يراه الراوي من جديد، مُتجمّعاً لاستعراضٍ أخير، لكنَّ التعرُّف على الشخصيات غدا صعباً بفعل الزمن، وبِما خلّفه من تلَفٍ على وجوهه، أو في أنفسها، أو على العكس، بفعل انبثاق الحقيقة التي كانت تحملها كل شخصيات **البحث عن الزمن المفقود** في داخلها، لكنّها التي لا بُدّ أنّها انتظرت آخِر ساعة كي تتجلّى.

وبعد فإنّ تحرير بنغازي هو الزمن المُضادّ المُستعاد. ليس بمعنى أنّ الشخصيات لم تتغيَّر. لأنّها تغيَّرت بالتأكيد. ولا شكّ في أنها تغيّرت في ستة أشهر، ولن تتغيّر أبداً، أكثر مما تغيّرت خلال سنواتٍ وسنوات. وبدَل أن يجعلها الزمن تشيخ، أرجعها بمُفارقة إلى الشباب.

هكذا مصطفى الساقزلي الذي لم أرَه ثانية منذ اجدابيا، ثُمّ خلال عودتنا العاصفة إلى باريس والإليزيه برفقة يونس: ما تزال نظرته الغريبة هي نفسها، ازداد بريقها قليلاً، واستطاع وهْجُها المُختزَل حول ذاته أن يُتيح الشكّ بقسوةٍ خفيّة ـ وتلازمت معها الآن ابتسامة أكثر هدوءاً، وعذبة تقريباً، تؤنسنه.

وهكذا سليمان فورتيه الذي لم أفهمه إلا الآن، وأنا أُقارِن مع خفّته الجديدة، ومُزاحه الطفولي أو مع طريقته في التصرُّف كأنّه مُخرِج أفلام، أجل ليس مهندساً معمارياً وحسب، لكن مُخرِج أفلام، مُخرِج حقيقي، هيمن على فيلمنا ومنَحه، على سبيل المزاح، أهميّته الفعلية، وأفكار الكاتب بكل ما أثقلته به من مظهر الحرب، واستشهاد مدينته، ورفاقه. وهكذا الدكتور الميهوب، الأستاذ القديم، الذي نفاه القذّافي، والذي نظّم لنا «عشاء القبائل» المشهور حيث

صدر «نداء الوحدة» الذي أخذته الصُّحف الأوروبية الكبرى، والذي قد يكون لعِب دوره في التوحيد الفعلي لقبائل ليبيا: ما كنتُ لأعرفه أبداً حين ظهر فجأة في بهو فندق تيبستي، وما كنتُ لأستعيد وراء الشبح النشيط، الراقص تقريباً، للشخص المجهول الذي يقترب من الطاولة حيث كنتُ أضع، مع علي، خطّة سفرنا إلى طرابلس غداً صباحاً، العجوز الناحب، السقيم، الذي رأيته قبل ستة أشهر ـ ما كنتُ أبداً لأعرفه، لا، لولا صوته الغريب برأرأته التي كانت بمثابة توقيعه وما تزال.

أو دوّار الشمس الذي ظهر فجأة، هو الآخر، في فندق تيبستي، في المكان نفسه، في زاوية البار ذاتها، مُقابل التلفزيون، مثلما كان في المرّة الأولى، لكنْ بدا لي شبحه القديم، في معطفه القصير جداً الذي يُظهِره شديد النحول، الظلّ المُسبَّق، والطيف المُبتَسر للرجل ذي الصدّارة قصيرة الأكمام، وللشبح المرِح الذي يتقدّم نحوي ـ هذا قبل أن يكون صوتُه شبيهاً بصوت الموتى الذين يتكلّم عنهم الراوي، وغدا صوت المسيو كامبرومير[1] أو صوت بلوخ واستعاد **الآن،** كما بفعل أُعجوبة، صوته الحيّ.

عندي حوالى عشر حالات أُخرى كحالات هؤلاء. وصولاً إلى موظّف الاستقبال في الفندق الذي كانت حركاته، وطريقته في إعطائنا مفاتيحنا، وإعادة جوازات سفرنا، أو في دلّنا إلى مركز إدارة الأعمال الذي لم يشتغِل أبداً، مُتحفّظة، ومتوقّفة، ومُوفَّرة، كما لو أنّه فقد القدرة على دفعها حتى النهاية، أو كأنه كان يتوقّع، في أية لحظة، أن تعبّر له عن عدم فائدتها: هي نفس الحركات، لكن المُثمرة، المُضخّمة، المُعبَّرة من جديد، المترابطة، التي استعادت براءتها وسلاستها.

دوّنت هذا في سراييفو بعد رفْع الحصار.

لاحظتُ هذا، وإن كان بمقدار بسيط، في كابول، عام 2002، على الوجه الحزين، والمُنفرِج بمُفارقة، لمُرافقي مسعود.

وهنا، الشيء نفسه لكن بمشهد مُذهل أكثر: كما لو أنّ هذه الحرب أو، على الأدقّ، هذا النصر المُنتظَر منذ وقتٍ طويل، والمحلوم به، لكنّه كان ميئوساً منه، والذي تحقّق الآن، في مُتناوَل اليد، إنّما أسّس زمناً جديداً، لم يعُد «مفقوداً» ولا «مُستعاداً»، بل مُكتسَباً، وعلى ا[illegible]س، مُخفَّفاً، مُخلَّصاً، رامياً عن كاهله العذابات والعوائق التي كانت تُكبِّل كلّ إنسان.

شعرتُ أن بعضهم محا هذه الأشهر الستّة من الحرب، وهو يستعِدّ، ليس ليعيشها من جديد، بل لِيُعيد تمثيلها كما في السينما ويستخلِص منها درساً. وآخرون نخال أنّهم عادوا أكثر رِفعةً أيضاً، أكثر صعوداً، صوب ينبوع أقدم من الينبوع الذي كان يُمكِن أن يُخفيه القذّافي، ولكنّه في النهاية يسمح لنفسه بأن يتفجَّر. وعلى غِرار راوي البحث عن الزمن المفقود، لا أستطيع أن أمنع نفسي من التساؤل عمّا فعلتْه مُعجزةُ الزمن، إن لم يكنْ لِكاتبِ هذه السطور، فعلى الأقلّ لمُرافقيه في رحلته: جيل، الذي أُراقبه خِفيةً، والذي استعاد، في هذه الرحلة الأخيرة، هيئته الطفولية التي كان يتحلّى بها في أوّل رحلة إلى سراييفو.

الثلاثاء 23 آب/أغسطس (آخر حديث مع الرئيس عبد الجليل)

الوحيد الذي يخرج على قاعدة تجدُّد الشباب المُعمَّم إنّما هو مصطفى عبد الجليل.

هل بسبب التعب بالتحديد؟ أم زاهد رمضان؟ أم هذه الوفود التونسية، والمغربيّة، والتركية، التي تهرع الآن إلى مدينته، وتنتظر على بابه، ويتعيَّن عليه أن يعطيها من وقته؟ أم هو عبء السلطة، والمسئوليات الذي يرخي بثقله الهائل على كاهله، والمصاعب التي تبقى، والتي سيشقُّ عليه أن يُزيلها؟ أم أنّه تواضُعه الطبيعي، واعتدال طبعه كما كان يقول القدماء، هذه السوداوية التي أدهشتني منذ لقائنا الأوّل التي لم يتوصّل، حتى في ساعة النصر، إلى التخلُّص منها كليّاً؟ أم أنّه شيء مُعاكس تماماً؟ هل ماضيه هو الذي يُثقِل عليه، ويُخيفه ـ نوع من القَيد الأخلاقي الذي يمنعه من أن يسكن دوره كاملاً؟ غير أنّه كان يصل بخطىً حذِرة، بطيئة قليلاً، صغيراً جداً في طقم واسع للغاية، يغرق داخله قليلاً. أتحدّث عن طقمه الحقيقي، طبعاً. لكني لا أستطيع الامتناع عن التفكير بالآخر أيضاً، الطقم المجازي، طقم الدور الذي هو، من الآن وصاعداً طقمه وفي داخله يغرق أيضاً. جلس بجانبي على المقعد الخشبي الضيّق جداً في القاعة الواسعة جدّاً، الباردة قليلاً على الرغم من الصيف، من المبنى الرسمي الذي يوجد فيه مقرُّه العام (جلس على طرف المقعد، فاقدَ التوازُن تقريباً، بالتحفُّظ نفسه دوماً، وبنفس التردّد في أن يشغل المكان الذي أُتيح له، وبنفس الضيق). نظر إليّ بالكاد. وشكر حضوري. شكرني طويلاً، وبحرارة، من دون أن ينظر إليّ حقّاً، وكان دائم الخجل، هيئته حزينة، وخائر العزم ـ الرجل الذي لم يكن يُريد قطعاً أن يكون ملِكاً، ولم يُخلَق لهذا الدور، وليس لديه الكفاءات اللازمة بالمعنى الدقيق، ومع ذلك هو هنا، حاضر تماماً، يحمل البلَد من دون مساعدة.

نقلتُ له الرسالة الشفهية التي كلّفني الرئيس الفرنسي بإيصالها والمتكوّنة من ثلاث نقاط. تحية لِعناده وعِناد الشعب الليبيّ، في الوقت الذي يشكّ بعضهم، ويتساءلون على كلّ حال، فهو لم يحِد عن رأس الثورة، وهذا متميِّز. العزّة تتحالُف الأنداد، هذا الذي انعقد بين الشعبَين الفرنسي والليبي، والذي هو أكبر من تحالُف لأنّه موسوم في المعركة المشتركة وفي الرجاء المُتقاسَم: فما عدد الشعوب التي يُمكِن أن يُقال عنها هذا؟ وأية مُعاهدات نشعر اليوم أنها كتِبت بحروفٍ من نارٍ ودموع؟ ثُمّ هذه الرحلة المشهورة التي أُرجئت عدّة مرّات، لكنّ ساعتها قريبة هذه المرّة، والتي تكتسب في نظره، هو نيكولا ساركوزي، أهمية مُتعاظمة: بما أنّ الزمن مضى، فلماذا لا نُحوّل هذه الرحلة إلى ثلاث مراحل تتطابق، إذا وافق عبد الجليل، مع مراحل التاريخ الثلاث كما حدث واقعياً: مرحلة بنغازي لأنّ كلّ شيء بدأ منها، ومرحلة مصراطة لأنّ مفاتيح النصر كانت فيها، وأخيراً مرحلة طرابلس العاصمة المُحرَّرة..؟

ردّ عبد الجليل بتكرار دعوته لنظيره الفرنسي: أكثر من أيّ وقتٍ مضى، طبعاً، بحسب الخطّ الذي يروقه، ولْننتظِر بالضبط عدّة أيّام كي يكون البلَد آمناً. فأعاد قوله لي إنّ الأواصر بين بلدَينا هي، في رأيه أيضاً، أواصر أخويّة مغموسة بأقدس ما تملكه الشعوب: ألم تنعقد هذه الأواصر بين بير حكيم وكفرة، وزوارة وكمبوت، في المعارك التي خاضتها خلال السنوات السوداء، في المرحلة الأكثر سواداً في القرن العشرين؟ وكيف لن نرى في أحداث اليوم، في هذه الحرب الجديدة، أننا انتصرنا معاً، في هذا التحالف الذي رسّخناه معاً، طريقة في أن نبقى أوفياء لأيمان آبائنا وأجدادنا الذين كانوا يُقاتلون أصلاً جنباً إلى جنب في الصحراء الليبية نفسها؟ وفيما يتّصل بكلِمة عِناد (التي جعل علي يكرِّرها له، عدّة مرّات، كي يتأكد من أنّه فهِمها، وكرّرها له جيّداً ـ بالإنكليزية) فقد سمح لنفسه أن يُعيد الإطراء لنظيره الفرنسي: لأنّه، في النهاية، هو الليبي، لم يكن أمامه من خيار، وكان مُجبَراً على التصرُّف، ومحكوماً عليه بالنصر أو بالموت، في حين أنَّ نيكولا ساركوزي لم يكن مُجبَراً على شيء، وغير معني بشيء ـ ولا شيء أجمل من هذا العِناد المُنزّه عن الغرض، في حربٍ لم تكن حربَه، بل كانت بالضبط حرباً عادلة...

ألححتُ، لكن باسمي الشخصي، على أن تبدأ معركة أُخرى غداً، كيف أُعبِّر عن هذا؟ اليوم قبل غدٍ، ولتكن هذه المعركة، ليس أقلّ حسماً من الأولى، بل أكثر، لأنّها ستكون معركة السلام. الالتفاتة الجميلة التي قام بها، في 21 آب/ أغسطس في هذه الساعات الحاسمة حيث

كلّ كلِمة يلفظها محفورة في مرمر التاريخ، مُعلِناً لعناصر جيشه أن بإمكانهم أن يقوموا «بأفعالِ انتقامية» وأنّ هذا «قد يكون سبباً لاستقالته». تحفّظاتي مع ذلك، حين رأيته، بعد ثلاثة أيام يُقدّم 1,7 مليون دولار يُوفِّرها رجال أعمال ليبيّون لمن يأتي بالقذّافي حيّاً أو ميتاً. فقلت له: ألا تخشى، سيادة الرئيس، أن تُعيدوا للقذّافي بهذا، الأسلحة التي استخدمها القذّافي ذاتُه ضدّكم، الفاضحة بشكل نهائي؟ ثُمّ قضية الشريعة التي لستُ مُتأكّداً من أنني فهمتُها تماماً: فما معنى ذلك؟ وكيف سينسجِم هذا مع الوعود السابقة بإقامة ديمقراطية أصليّة في ليبيا؟

حول النقطة الأولى، أكّد لي أنّه فهِم، أفضل من أيّ شخص، الالتفاتات الرمزية التي سيُحكم بموجبها على النظام الجديد. وحول النقطة الثانية، ذكّرني بأن ليبيا لن تكون مكاناً آمناً لا لليبيين، ولا للعالَم، إذا ما بقِيَ الطاغية في وضع مؤذٍ. ووقّع كلامه، بنبرة حاسمة مُفاجئة وكأنه يتيقّظ، وقال إنّ لدينا معلومات تجعلنا نخشى «كارثة» ما دام مُستمِرّاً في التنقُّل بلا عقاب في هذا البلَد الذي لم يعُد بلَده لأنّه خارج على القانون فيه. أمّا قضية الشريعة فانطلق في تطوير طويل للشرح، ترجمه لي علي، لكن رُبّما ليس بما يكفي من الدقّة، ومع هاتفه الذي يرنُّ كالعادة دون توقُّف. وبحسب ما فَهِمتُ، ينتج، إجمالاً، أنّه إذا كانت الشريعة في الدستور، إذا أُشير إليها بوضوح بوصفها «مصدراً أساسياً» (وبالمناسبة ليست «المصدر الوحيد») للقانون، وإذا ذُكِّر رسمياً بأنّ ليبيا بلَد إسلامي قديم لا ينوي أن يشطب ذاكرته، فحدث النصّ في مكان آخر: إنّه في مشروع دولة تضمن حرية الرأي والتعبير، وحق التنقُّل والتظاهر، ووجود الأحزاب، وشفافيّة الانتخابات، واستقلال القضاء، واحترام افتراض البراءة، وحرية العبادات للأديان الأخرى، وباختصار، مبادئ الديمقراطية كما نفهمها في الغرب. وهذا، في ما عدا بعض الأشياء، هو ما أكتبه في هذه الملاحظات، لكنّي أريد تدقيقه.

حينما شعرتُ أنّ الحديث أشرف على نهايته، سمحت لنفسي بسؤالٍ أخير، يُنغّصني منذ شهور. وإذ رأيت أنّه يشجّعني بنظرته التي تكشِف شكّاً فضولياً، رُبّما كانت الأولى منذ بداية هذا الحديث الذي بقِي حتى الآن رسمياً، انطلقت سائلاً: «هل تتذكّر سيادة الرئيس لقاءنا الأوّل، يوم تشكيل المجلس الوطني الانتقالي؟» أومأ برأسه أنْ نعم. «اقترحتُ عليك عصر ذلك اليوم، من دون تفويض، وأوراق اعتماد من أيّ نوع، وأستطيع أن أقوله لك اليوم، ومن دون أي ضمان بالنجاح، بالتدخُّل لدى الرئيس ساركوزي وطلب مُساعدته». هزّ رأسه

أيضاً. سؤالي بسيط: «بأيِّ شيءٍ فكّرتَ في تلك اللحظة؟ لماذا قبلت؟ وكيف وثقتَ بإنسان مجهول لا تعرِف عنه شيئاً، جاء من مكان ما، واقترح المُستحيل؟»

أخلى الفضول، في نظرة مصطفى عبد الجليل، مكانَه لبريق تسلية. حتى لقد تكون لديّ، للحظة، الانطباع بأنني استعدتُ نظرة بيغوفيتش المُرتاحة حيث ذكّرتُه، يوم أقلّتنا الطيّارة إلى روما لنُقابل البابا، بلقائنا الثاني، لا الأوّل، عندما طلبنا منه رأيه في تأسيس فرقة دوليّة من أجل البوسنة ـ أو قبل ذلك بعشرين سنة، نظرة مُجيب الرحمن، أوّل رئيس لبنغلادش، يوم حكيتُ له القصّة التي كان يعرِفها بالكاد، قصّة مشروع فرقة مالرو الذي كنتُ أوّل من وقف أمامه، وفي النهاية المتطوّع الوحيد. بدأ بالقول: سأجيبك. وسأفعل بأكثر ما أستطيع من النزاهة. أوّلاً، وثِقتُ بك. رأيتُ وجهَك. وقرأتُ في عينيك. وماذا تُريد أن أقول لك؟ كان لك عينا رجُل نزيه. ولْتعلَم أنّني أعرف البشر قليلاً. وكثيراً ما لاحظتهم، وغالباً ما حاكمتهم، ولم أُخطئ. وفي عينيك رأيتُ بريق الصِّدق ـ كنت أجهل إن كنتَ ستنجح أم لا، لكنّي كنت أعلم أنّك صادق وهذا في رأيي أهمّ من كلّ شيء. لأنّ ثمّة، بعد ذلك، شيئاً آخر، يا سيّد ليفي. أنا رجل مؤمن. أعتقد أننا جميعاً بين يدَي الله. وقد قال لي شيء ما أنّك، إن كنتَ هنا، فلأنّ الله شاء ذلك. أنت الذي كنتَ، يا سيّد ليفي، أمامي. لكنّ الله كان الفاعل غير المرئي في لقائنا. ولو أنّي أخطأت؟ ليكن. فقد كنتُ أُخطئ. لكنّ هذا لم يكن يُغيِّر شيئاً. لأن الله يبقى هو الأكبر. ولا شيء، ولا أحد يستطيع أن يضع جبروتَه موضع شك.

أوشك الحديث هذه المرّة على نهايته حقاً. لأنّ وفداً تونسياً كان ينتظره. ثُمّ قائد من فزّان، ينتظر منذ فترة طويلة، وقد أتى يُحذِّر من صِراع إخوة في كفرة. وثمة رئيس حرَسه الذي رأى الدروع الواقية من الرصاص التي يضعها حُرّاسي الشخصيّون، ويُريد أن يُقنعه بأن يطلب نفس الدروع لأعضاء المجلس الوطني الانتقالي الذين سينتقلون إلى طرابلس. وبالتالي نهض. شعرتُ أنّه قام مُتأسِّفاً، لكنّه نهض على أية حال. التقطنا آخر صورة تذكارية. قلِقَ على بقية رحلتي. قلِق بلُطف من نيتّي الذهاب إلى طرابلس. فقلتُ له؛ لأنّ هذا هو آخر عنصر من الرسالة نسيتُ إيصاله، وهو أنّ ساركوزي ينتظره وجبريل في اجتماع «أصدقاء ليبيا»، يوم الخميس القادم، في باريس. وبخطىً وئيدة، وبينما كنّا نتحدّث عن هذا وغيره، وصلنا إلى درج المدخل حيث يُهيمن، في حشد المُستشارين، ورجال الأمن، والسائقين، جوّ النصر والغبطة. لكنّ عبد الجليل، حتى هذه اللحظة، ليس مُتناغماً. حتى هذه اللحظة، يبدو حذِراً، مُتحفِّظاً،

متيقِّظاً إلى عدم الانسياق وراء انفعال غير محسوب. وانطلق من جديد بنفس الخطوات البطيئة، الخجولة، المُتردّدة، التي جاء بها ـ كما لو أنني لا أعرف أيّة حِمّيَة سياسية تطلب إليه ألا يشرع في ساعة الفرح من حوله. عادت صورته في فندق رافاييل، يوم عشاء الصحفيين، حيث انسحب فجأةً تاركاً النجومية للعيساوي. كانت لديه أسباب موجِبة، ذاك المساء، ليكون قلِقاً. كان موقفه مؤسَّساً، أوه وإلى أيّ مدى!، على تجنُّب إظهار الفرح. لكنْ اليوم؟ فما هذا القائد الحربي الذي ربح الحرب، لكنّ الانتصار لا يُفرِحه؟ وما هذا الرئيس الذي كان على حقٍّ ضدَّ كلّ الناس، والذي يجب أن يكون فخوراً، ويغتبِط، لكنّ انتصاره يُضايقه؟ أُحِبّ هذه الطريقة في مقاومته قدَره الخاص. أحِبّ فكرة الرئيس الذي لا يُظهِر فرحه. أُحِبّ أن يتذكر، حتى في أوج الانتصار، المهزوم الذي كاد يكونُه. رُبّما تكمُن هنا عظَمته الحقيقية.

الثلاثاء 23 آب/أغسطس (نقاش مع المُدَّعين أنّهم «من تنظيم القاعدة» في درنة)

كنتُ أنتظر هذا اللقاء منذ وقتٍ طويل.

مصطفى الساقزلي، قائد شباب بنغازي سابقاً، الذي صار وزيراً للداخلية، أو ما يُعادِله، هو الذي نظّم هذا اللقاء من أجلي.

تمّ اللقاء في وقتٍ مُتأخّر من الليل، في إحدى مَزارِع ضواحي بنغازي خمّنتُ، وأنا أصِل في العتمة، وجود بعض سيّارات البك ـ آب، ، ومُرافقيها الذين كانوا في الظاهر كثيرين، بعضهم ينام قُرب الشاحنات، يلفّون أنفسهم بأغطية، وبعضهم يتمدّد، وآخرون يكمنون.

الرجل هنا بالفعل، يجلِس على طاولة من خشب متين، مُغطاة بالأسود، يُحيط به ثلاثة من مُرافقيه الذين يرتدون الدشدشية، الثوب القطني الأبيض الطويل، وهو لباس السلفيّين الموحَّد، فنهضوا جميعاً حين وصلنا.

الرجل طويل.

وجهه نحيف، جامد، خالٍ من التعبير.

يداه طويلتان، جميلتان بالأحرى، بأوردةٍ سوداء، نافرة.

شبكة من لحية، لا تُشبه لحية الإسلاميّين.

اسمه عبد الحكيم الحسَدي.

هذا هو «أمير درنة» المُفترَض الذي أفادت منه الصحافة العالمية، والذي بحثنا عنه عبَثاً خلال إحدى المرّات التي مررنا بمدينته فهو وحدَه القادر على تأكيد وجود القاعدة في أوساط الثوّار الليبيّين.

قلت له: ها أنتم هنا إذاً!

فردّ علي بالقول ووجهه يزداد ضياءً: وها أنت هنا.

- يتحدّثون عنك كثيراً في أوروبا!

- ويتحدّثون عنكم في ليبيا - لو أنّك تعرِف...

وإثر ذلك انفجر ضاحكاً - وانفجر معه مُرافقوه ضاحكين مثله، أو على الأرجح، لا، ليس نفس الضحِك، فضحكهم أدنى مستوىً من ضحِكه، أو ضمنه، مُكثَّف كما أنّه يتفادى تغطية ضحِك رئيسهم. جلسوا. فجلستُ. فقدّمهم لي رئيسهم: خالد سالم مقياز، وماجد فتّاح حوّاط، وإسماعيل محمّد الصِلابي.

قال: ثلاثة مُسلمين أخيار. ثلاثة مُقاتلين.

أعرِف قليلاً مَن يكونون. فالثاني، ماجد حوّاط، مُثقّف، سجين سياسي سابق، قائد مُجاهدي الجبل الأخضر (ادَّعى أوّلاً أنّه «قريب» من فرنسا: «أُونوريه دو بلزاك، وإميل زولا، وميشيل بلاتيني»...). والثالث هو أحد قادة كتيبة 17 شباط/ فبراير، مُقاتل خطّ أوّل، وشديد الارتباط بقطر، من خلال أخيه علي الصِلابي.

- سمعتُ الناس يتحدّثون عنك. وقال لنا مصطفى إنّك صديق، صديق حقيقي لليبيا - لذلك أتينا هكذا...

وقام بحركة تُبيّن أنّه أتى ويداه خاليتان، وقام الثلاثة الآخرون بالحركة نفسها، لكن من جديد بدرجة أقلّ، وأيديهم أدنى قليلاً على الطاولة، لأنّ المراتِب قبل كلِّ شيء، كأنّنا في مسرحية. فكّرتُ في أنْ ألفِت ملاحظتهم إلى أنّهم، بالقياس إلى أناسٍ جاؤوا وأيديهم فارغة، وإذا حكمت من خلال الرجال الذين ينتظرون في الخارج، بالغوا في عدد المُرافقين. غير أني فضّلتُ الدخول في صُلب الموضوع.

- فلنبدأ من الأوّل: غوانتانامو...

- هو ذا، رجُل درنة يحمرّ، كما لو أنها ضربة بداية مُباراة، وأنه سجّل الهدف الأوّل على الفَور! بداية جيّدة...

ضحِك من جديد. لكنّه ضحِكٌ مختلِف. مُصطنَع. كأنما كي يُخفي خروج الغضب أو كي يُلطّفه.

ـ لم أكن أبداً في غوانتانامو. أبداً. أعرِف أنّ هذا ما كتبه صحفيّون من زملائكم...

ـ أنا لستُ صحفياً...

ـ في الوقت المُناسب! يا عبد الله! إذاً إذا كان عندك منفذ إلى الصحافة، فتحقّق. فقد يُفيد هذا اللقاء في ألا يُخرِجوا لي أبداً قصّة غوانتانامو.

ـ أسجِّل. وأعِد نفسي بأن أتحقَّق (وهذا ما فعلته طبعاً، فور عودتي إلى الفندق، إذ أيقظت في باريس H، منبعي المعصوم في هذه القضايا ـ وفي هذه النقطة، الرجُل يقول الحقيقة) ولكنّي الآن أسجِّل.

ـ من أين يخرج هذا الكذِب إذاً؟ هل سجنَك الأميركيون؟

ـ لا. وهذا خطأ آخر. بل سجنني الليبيّون. والأميركيون أوقفوني في باكستان سنة 2002، ولكن بعد استجوابهم لي، واكتشافهم أنّ لا صِلَة لي بتنظيم القاعدة، سلّموني لليبيّين.

ـ لماذا باكستان؟

لأنني كنتُ قادماً من أفغانستان.

ـ أنت تعرف أنني أعرف بما يكفي أفغانستان وباكستان؟

ـ بالطبع.

ألقى نظرة تفاهُم على رفاقه الثلاثة. ومن جديد، بداية ضحِك لا يتوقّف. لاحظت أنّ ذاك الذي يجلس على طرف الطاولة، الصّلابي، بوجهه الطويل النحيل، وبشفتَيه الحزينتَين، ورأسه المُنحني على صدره وكأنّه يريد أن يمنع نفسه من الضحِك بقوّة، يشبه طارق، آخر مترجِم حربي لدانييل بيرل التقيتُ به ثانيةً في إسلام آباد، وفضّل في النهاية ألاّ يعمل معي.

لماذا يضحكون؟ تابعت القول.

ـ وماذا كنتَ تفعل هناك، في باكستان، وفي أفغانستان؟

ـ كنتُ أستاذاً مُقيماً في جلال آباد.

ـ لا يكون المرء أستاذاً في جلال آباد عشية أحداث 11 أيلول/ سبتمبر!

ـ يجب أن تفهم...

اتّخذ بالضبط هيئة الأستاذ المُستعِد لإلقاء درسه.

ـ يجب أن تفهم أنّه بالنسبة لأناسٍ مثلنا...

مسح بنظرته مُرافقيه الثلاثة الذين جعلت هذه الألفة المُباغتة لكلِمة «نحن»، وهذه الطريقة في جمعهم في مصير مُشترَك، وجوههم تتورّد باللذّة، فخفضوا أعينُهم من جديد ـ لكن من السعادة.

ـ... عندما جعلنا القذّافي خارجين عن القانون، وألقانا في سجونه، مُعذّبين، لم يكن هناك أيّ مكانٍ نذهب إليه. حاولت الذهاب إلى بريطانيا العُظمى: مستحيل. حاولت الذهاب إلى بلَد أو بلَدين عربيّيَن: كلاهما وقّع اتفاقات تسليم المطلوبين مع ليبيا. الأمر نفسه في ما يخصّ أميركا اللاتينية. لم يبق أمامي إلا أفغانستان حيث يُمكننا الذهاب من دون أوراق رسمية.

ـ لِيكن. لكنني أنا أيضاً عرفت جلال آباد في تلك الفترة. لقد كنتَ في بلَد الطالِبان...

ـ هذا صحيح. لكنّي لستُ طالبانياً، ولم أكن منهم أبداً.

دسّ أحد مُرافقيه رأسه خفيةً من فتحة مُزجّجة بقيت مفتوحة.

ـ لست من طالبان، ماذا يعني هذا؟

ـ هذا يعني ما يعنيه. أقمتُ هناك. وتزوّجت من أفغانيّة. واستلمتُ عملي أستاذاً في مدرسة. غير أني لست من طالبان.

ـ ولا من القاعدة؟

ـ ولا من القاعدة. لو كنتُ من القاعدة، لبقيتُ حيث كنتُ، ولَمَا عُدتُ إلى ليبيا حالما غدا الاتفاق مُمكناً مع النظام.

تساءلت للحظة عمّا أتيت أفعل أمام هؤلاء الأربعة الذين، سواء أكانوا من القاعدة أم لا، ليس لهم المظهر الودّي لمنفيّين عائدين من المنفى. هل هو ولعي «بالمجانين» كما تقول لي جوستين دوماً؟ أم رغبتي الدائمة في الذهاب لرؤية كيف يتِم هذا حقاً في دماغ الآخر؟ أم أنّ شيطاناً في رأسي؟ أكون جنباً إلى جنب مع العدوّ؟ كما في أوروبا خلال سنوات الحرب حين كنت أذهب إلى إيطاليا، وألمانيا، مُسافراً في رؤوس مُجاهدينا الخاصّين بنا، عناصر الألوية الحمراء أو عناصرها السابقين، ومجموعة بادير ومجموعات تدخُّل مُباشر أُخرى؟ الافتتان الغامض، لكن المنيع، بالجزء المُظلِم من هذا العالَم، جزئه الملعون؟ وتابعتُ أسئلتي.

ومع ذلك قُلت: عناصر القاعدة مُسلمون جيّدون.

ـ هذا الجملة نُزعت من سياقها. لا أعتقد هذا.

ـ ماذا تعتقد إذاً؟ ما موقفك من القاعدة؟

ـ أنا ضد كلّ إيديولوجية، وضد هذه خاصة التي تدعو إلى القتل. فالإسلام دين تحابٌ وسلام.

ـ كلّ الناس يقولون هذا. وليس له معنى.

ـ أنا ضد التفجيرات والهدم.

ـ من جديد، الناس كلّهم على هذا الخط. كن دقيقاً. ما رأيك بابن لادن؟

ـ وافقته حين كان يحارب الروس. لكن ليس حين قتل أبرياء، ونساء، وأطفالاً، ومدنيّين. فللحرب أيضاً قوانينها التي يجب احترامها.

ـ وحين قرّر مُحاربة الغرب؟

ـ أظنّ أنّ هذا كان خطأ. مع الغرب، أنا من أنصار الحوار، وفهم أفضل. وهذه الحرب التي تنتهي فُرصة لتعميق هذا الفهم.

يبدو الرجل صادقاً. إنّه مجنون، فما إن تكون أمامه، أمامه فعلاً، يبدو لك الآخر مُعقّداً، مُتباينُ الأفكار ـ رجُل، مثلك، يتحسَّس، يتناقض، يتقدّم أحياناً، ويتراجع غالباً، وينخرط في كيانك ككائن حيّ، وليس ككتلة من الصوَر والأحكام المُسبَّقة.

قلت: أطلب سماح المجموعة الإسلامية الليبية، أعلم أنّك كنتَ مرتبطاً بالقاعدة.

ـ كذبة أُخرى. فأجهزة الإعلام تبحث عن زيادة جمهورها من خلال هذه المعلومات المُزيَّفة، والعناوين العريضة التي تتصدّر صفحاتها. لم أنتسِب أبداً إلى هذه المجموعة.

ـ حسناً، لكن ما رأيك في جماعة القاعدة؟

ـ أوّلاً، عليك أن تعرف أنهم بدؤوا مجموعة سلمية. واضطهاد القذّافي هو الذي جعلهم يحملون السلاح.

ـ وهنا؟

ـ هنا، ارتكبوا أخطاء. أراقوا الدماء بشكل غير شرعي. لكن كل الناس، باستثناء الرسول، يرتكبون أخطاء. وهم عادوا إلى رُشدهم، وتراجعوا. وهذا هو المُهِمّ.

ـ تراجعوا؟

ـ ارجِع إلى كتاب «دراسات تصويب» الذي نشروه قبل عامَين. فالكتاب يرفض قتل المدنيّين بذريعة الجهاد.

ـ مثلك؟
ـ أنا لم أرِق دماء الأبرياء.
ـ أُوافقك الرأي. لكنّي، على كلّ حال، قرأتُ لك تصريحات غامضة عن الإرهاب.
ـ حبّذا لو أعرف أية تصريحات. عندي تصوُّر مُعيّن للإسلام. وأنا مسلم مُتمسّك بمبادئه الأخلاقية. غير أنّ التغيير، في نظري، لا يُمكِن أن يأتي عن طريق الأسلحة.
ـ كيف ينبغي أن يأتي؟
ـ بالدرس. بالحوار. فأنا أُستاذ. أُكرِّر لك أنني أُستاذ. وأنا مُقاتِل، طبعاً. لكنّي أُستاذ أوّلاً.
ـ لِنتحدّث بالضبط عن مُقاتِليك، كم عددهم؟
تردّد. ونظر إلى الساقزلي، ومن جديد، على طريقة مُقاتِل اجدابيا في شهر نيسان/ أبريل. تنبّهتُ على الفور أنّه المُعلِّم هنا أيضاً، وهنا أيضاً ننتظر موافقته كي نتكلّم. لأنّه مُعلِّم شباب برقة، هل هذا بسبب مركزه الجديد في وزارة الداخلية؟ أم بالأحرى ـ وقد خطرت لي الفكرة فجأة ـ لأنّه قد يكون، هو نفسه، من الحركة؟
انتهى بإجابة الحسَدي الذي له نفس التصوُّر عن هذه الحرب: عدّة مئات.
ـ ألا تُريد أن تُعطيني العدد الصحيح؟
ومرّة أُخرى، نظر إلى الساقزلي الذي بقيَ غير قابل للاختراق.
ـ بإمكاني أن أقول لك شيئاً: الذين نُرسلهم إلى الجبهات الأكثر خطورة، على الخطوط الأولى، هم أفضل المُقاتلين. ومن جهة أُخرى، أنت تعرِف بعضهم.
ـ كيف هذا؟
الساقزلي هو الذي أجاب هذه المرّة. بصوتٍ شبه هامِس. بنغمة من لا يشُكّ بأنّه يُسمَع باحترام:
ـ رأيتَهم في اجدابيا... هم الذين كانوا يسهرون على حمايتكم. وعددهم خمسة وعشرون.
استعدت في ذهني بسرعة فائقة صورة الشباب الذين التقيت بهم على الخطّ الأول في اجدابيا. أيّ شباب؟ في أية لحظة؟ وأنا أعرفهم بالقياس إلى أيّ شيء؟
ـ شُكراً إذاً لشباب اجدابيا الخمسة والعشرين، رافعاً كأس الشاي كما لو أنّه قدح شمبانيا، ومُقرِّراً أن أتقدّم، وأمضي حتى النهاية في هذا اللقاء، من دون أن أعرِض حالاتي الشعورية على العلامات التي يجب أن تسمح بتحديد هوية إسلامي. لكن لنتكلّم عن الآخرين بالأحرى. عن شباب درنة، معقِل عبد الحكيم. فالناس يتحدّثون عن إمارة في درنة.

عبد الحكيم هو الذي باشر الكلام، كاظماً غيظه من جديد. لم يعُد يطلب موافقة الساقزلي.

ـ هنا أيضاً إشاعة كاذبة! محض إشاعة بثّها القذّافي! ومن العار أن يتلقّف صحفيّون مُحترِفون هذه الإشاعة! نحن مواطنون ليبيُّون، مُتمسّكون بوحدة ليبيا. أنا لستُ أميراً. وأنا مُوالٍ للمجلس الوطني الانتقالي.

ـ تحدَّثوا لنا عن أئمة في درنة أطلقوا دعوات إلى الشهادة.

ـ واليوم؟

ـ دعوات إلى الحرب، نعم، بالتأكيد. لكنْ ضدّ القذّافي. فقد أعلن علينا الحرب. وكانت طريقتنا الوحيدة في الدفاع عن أنفسنا أن نردّ الضربة بضربة.

أمّا نائبه مجدي ذاك الذي قال لنا، وهو يُقدّم نفسه، إنّه «رُفِّع مرتبة في اللغة الفرنسية»، وهو مُعجب، لا على التعيين، بأونوريه دو بلزاك، وميشيل بلاتيني وإميل زولا، فهزَّ رأسه بشدّة، على شكل اندفاعٍ جليل. فانتهزت الفُرصة وتوجّهت إليه كي أُعطيه الكلام بالمناسبة.

ـ هذه الحرب، كسبتموها...

التزم حذَر ذاك الذي ليس مُتأكّداً من شيء لأنّ النصر بيد الله.

ـ ... لكن كيف ترى ليبيا الغد؟

أضاء وجهُه، وشعرتُ أنّه كان ينتظر السؤال، ولديه الجواب الجاهز، المحبوك جيّداً.

ـ كبلَدٍ أفضل!

ـ أُعلِن عن انتخابات حُرّة. فهل ستتقدّمون بمُرشّحين؟

ـ لسنا حزباً.

ـ بإمكانكم أن تُؤسّسوا حزباً.

ـ نعم. ولكنْ لم نقُم بهذه الثورة كي نشغل مراكز

ـ أنت تقول باستمرار «نحن»... فمَن تقصِد؟

أرض ملغومة. مَسَسْتُ الأصوليين.

القائد الحسَدي هو الذي استأنف الكلام بالقول.

ـ يقصِد بـ «نحن» الثوّار. بمختلف اتجاهاتهم. ومنهم مسلمون دُنيويّون، ونحن نحترمهم.

ـ لكن هناك بطبيعة الحال بعض النقاط، في السياسية الليبية القادمة، التي ستكونون مُتشدّدين فيها على نحوٍ خاص؟

أخذ وقتَه. بالإضافة إلى أنّ الحديث بدا أنّه قام على مستوى من الصراحة جعله يهتمّ بأن يكون دقيقاً ـ وبالتالي أخذ وقته في التفكير.

وانتهى بالقول: «المبادئ الأساسية للإسلام... أركان ديننا... ما عددها، تظاهر أنّه يتساءل، بابتسامة ماكرة، وهو يلتفتُ إلى المتخصِّص ببلزاك، وبلاتيني، والآن بلورانس العرب ـ لكنّه، وقد انتهى دوره، يحرِص على الإجابة...؟ سبعة؟ هيّا، سوف نكتفي بخمسة! ونحن لا نودّ حقّاً أن يتجاهل الدستور الجديد الأركان الخمسة».

الأركان الخمسة فقط، وحدانية الله، والصلاة الإجبارية، وصيام رمضان، والزكاة من أجل الفقراء، والحج إلى مكّة. أمّا الأمير الرهيب، المحارب الإسلامي، وفزّاعة كلّ الدوائر الغربية، فليس إلا مُجرّد ثيوقراطي عادي.

ـ إذاً عندي سؤال كان ينبغي أن أبدأ به: هل تعدّون أنفسَكم إسلاميين؟

ـ لا أعرف معنى ما تُسمّيه بالإسلاميين. أنا مؤمن. وعندي تصوُّر صارِم عن الإسلام. لكنْ لا أحد مُجبَر على أن يُوافقني الرأي.

ـ سأطرح سؤالي أيضاً بطريقة أُخرى. ما الفرق بين إسلامكم، وإسلام القاعدة؟

ـ أولاً الجرائم، وقلتُ لك هذا. لكن أيضاً حقيقة أنّ كل المشاكل تأتي، في رأي ابن لادن، من الغرب والأميركيين. ونحن لا نعتقد ذلك.

ومن جديد يقول «نحن» ويبدو مصطفى الساقزلي، هذه المرّة، إذا صدّقتُ نظرتَه، أنّه يشملهم. وهل يُمكِن، في هذه النقطة، أن يكون منهم؟ لا أعتقد. لكنّه يُمثّل موقفاً على مسافة واحدة من كلّ تيّارات هذه الثورة ـ ليس قريباً من رجاله بأكثر من قربه من تيار جبريل العلماني أو تيار يونس، في الماضي، ورُبّما لهذا السبب هو واحد من الرجال المفاتيح في ليبيا الغد.

ـ ألستَ ضدّ الأميركيين؟

ـ الشيء الوحيد الذي عندي ضدّهم أنّهم جعلونا نُضيّع اثنين وأربعين عاماً بدعمهم للقذّافي. لكنْ هنا، كانوا معنا، وكافحوا إلى جانبنا، مثلكم أنتم الفرنسيين، ونحن مُلزمون بأن نعترِف بهذا.

ـ هل تتساءلون أحياناً لماذا فعلت فرنسا هذا؟

ـ لا. لأننا نعرِف الجواب. فقد كانت تعرِف أنّ القذّافي انتهى. ومن ناحية أُخرى، عندما أدركت المأساة الإنسانية للأطفال والنساء المقتولين، اتخذت الموقف الذي نعرفه.

طلب نائبه الثاني إسماعيل، أن يتكلّم. يداه ضخمتان، إبهامهما خشِنان يتنافران مع نعومة ملامحه، ونحافته، وأناقة طريقته في الكلام.

ـ الهمّ الوحيد في نظرنا، نحن الليبيّين، إنّما هو وطننا. وهذا ما يجب أن تفهمه. نحن أوّلاً وطنيُّون. وبالتالي، إذا كنتَ معنا، فنحن معك. وإذا كنتَ مع ليبيا، حفِظك الله، فأنت مُبارَك. الأمر بهذه البساطة.

ثُمّ مجدي الذي رُفِّع مرتبة في الأدب الفرنسي وفي بلاتيني، والذي تحدّث قبل قليل، والآن يتكلّم بسرعة مُبتلِعاً كلماته، وبدا في النهاية كأنّه يزِنُها.

ـ تغيَّر شيء مع هذه الحرب ومع الدعم الذي قدّمتموه لنا. وآن الأوان لمدّ الجُسور.

ـ لِيكن. لكن مد الجسور لا يعني شيئاً. أوّلاً بين ماذا وماذا؟ وأية علاقة بين الشاطئين؟ المساواة؟ عدَم المساواة؟ وهذا السؤال: الإسلام؟ هل هذا في نظركم الدين الوحيد المُمكِن؟

توقّف زمناً، دقيقة رُبّما.

لأنّ حكيم هو الذي يأخذ الكلام.

ـ لا، هذا اختلاف آخر بيننا وبين ابن لادن. كان يعتقد أنّكم كافرون، مُلحِدون. وما هذه وجهة نظرنا. فأنتم أهل الكتاب.

ـ إذاً ما الإسلام؟ هل هو أفضل الأديان؟

ـ نعم. لأنّه آخر الأديان. وقد أخذ أفضل ما في الدينَين السابقَين وكوّن ديناً ثالثاً يُؤلِّف بينهما، ولذلك هو الأفضل.

ـ إذا كان الأفضل، فلماذا لا تودّون أن يتبنّاه العالَم أجمع؟

ـ لا أعتقد أن على العالَم أن يصير مُسلِماً. لا أعتقد هذا أبداً.

ـ لِيكن. لكنْ لماذا؟

ـ العالَم حديقة. وفي الحديقة توجد عدّة ألوان. ويُستحسَن أن تستمرّ هذه الألوان.

فكّرت بالمُقابلة التي أعطانا إياها مصطفى هذا الصباح من أجل الفيلم. وفكّرتُ بالتمجيد المؤثِّر الذي وجّهه إلى الدينَين الشقيقَين، المسيحي واليهودي.

ـ قُلت: لِنأخذ مثلاً محسوساً: الحجاب؟

ـ نعم.

ـ أنتم مع الحجاب أم لا؟

ـ هو جزء من تعاليمنا، ولكنْ...

ـ ولكنْ؟

ـ ولكنْ ينبغي ألا يكون مفروضاً. فعلى كل اِمرأة أن تختار.

ـ أنتم لا تتحدّثون هكذا إلا لأنكم لستُم في السلطة. وما إن تصيروا فيها حتى تتكلّموا بطريقة مختلِفة.

ـ لا. أعتقد أن المجتمع سيكون أنقى إذا تحجّبت النساء جميعاً. وأتمنّى أن أتمكّن من إقناعهنَّ بهذا. غير أنّك لن تُقوِّلني أبداً، بشكل مباشر أو غير مباشر، أنني أميل إلى إجبارهنّ على وضع الحجاب.

ـ كم اِمرأة عندك؟

ـ عفواً؟

ـ أنت مُتزوِّج. فكم اِمرأة عندك؟

ضحك طويلاً، كما لو أنّه بوغِتَ بالطابع المباشر للسؤال، ويبحث عن كسب الوقت. حتى تكوّن لدي الانطباع، للحظة، بأنني أقرأ في نظرته تردّداً غير مُدرَك. بينما هو على العكس...

أشار إلى مُرافقه مجدي مُحِب فرنسا وقال:

ـ هو عنده اِمرأة واحدة، يخاف منها.

اختنق الأربعة من الضحِك. وخصوصاً القصير البدين، أقرب الجالسين إليّ، الذي لم يفتح فمه بكلمة منذ بداية الحديث، ولن يفتحها.

ـ من جهة أُخرى، لم تسألنا بعدُ إن كنّا مُعادِين للسّاميَّة. هل تريد دليلاً على أننا لسنا كذلك؟

ـ طبعاً.

ـ إذا عرّفتني على اِمرأة يهودية جميلة، سأجعلها زوجتي الرابعة. لا، أنا أمزح!

لم أستطع أن أمتنع عن تخيُّل الموقف وأتساءل عمّا يُمكِن أن يفعله بهذه الزوجة الرابعة: هل تُغيِّر دينها؟ هل ستكون مُهانة؟ وهل ستُعامَل كالثلاث الأخرَيات؟ أم ستكون محظيّة؟

ـ سنتحدّث عن مُعاداة الساميّة. لكننا سنعود أوّلاً، لمدّة ثانية، إلى نظريتك عن الحديقة. فما علاقتها بالألوان؟ وما علاقتها بالأديان؟

ـ عهود. استأنف عبد الحكيم.

ـ عفواً؟

ـ نعم، عهود. الإسلام دين العهود. وهناك آية قرآنية تقول: «وأوفوا بالعَهْد».

ـ حسناً. وماذا تقول هذه العهود؟

ـ لِكوننا مُسلِمين، يُمكننا أن نعقد عهوداً مع كلّ الأديان، وكذلك مع المذاهب العلمانية. المُهمّ أن تكون هذه العهود في مصلحة الطرفين.

ومن جديد مصطفى، صورة مصطفى، السعيد جداً في أحد مُعسكرات بنغازي وهو يُحدثنا عن خطّة قصّ ليبيا حتى كفرة ـ وطريقته حينئذٍ في تكرار «عندنا تعاقُد، عندنا تعاقُد». وفجأة فهمتُ الأمر بشكلٍ أفضل.

ـ والعهود في أية مجالات؟

ـ في كلّ المجالات. فهناك أملاك عامة وأملاك خاصة لكلّ طرف. نشجّع العدالة معاً. وبعد ذلك نترك الطرف الآخر يُمارِس مُعتقداته، ويتركنا نُمارس مُعتقداتنا.

ـ لأن الاحترام مُتبادَل بيننا؟

ـ لأنّه لا يجوز أن يكون إكراه في الدين. وكذلك لأنّ هذه قضية ضمير عند كلّ فرد.

ـ هل تعرف أنّ هذا هو تعريف العلمانية ذاته؟

نظر إليّ بذهول ـ لم يكن مصدوماً، لا، ولكنّه مذهول كما لو أنّ ملاحظتي فتحت أمامه أُفُقاً.

ـ أتعتقِد بذلك؟

ـ طبعاً.

بدا أنّه يُفكّر. وظهرت على وجهه تعبيرات طريفة، وهو يُدير نظرته نحو الداخل، فجعلت عينيه كعينَي تمثال. وانتهى بالقول:

ـ حسَناً، رُبّما...

فأردفت بالقول:

ـ إذاً، هذه العهود... تصلح مع كلّ الأديان الأخرى؟ من دون استثناء؟

ـ بالتأكيد.

ـ بما فيها اليهودية؟

ـ طبعاً.
ـ هل تعلم أنني يهودي؟
ضحِك. ثم ضحِك ثانيةً. لكن بطيب خاطر.
ـ لماذا تضحك؟
ـ لأنّ القذّافي كرّر لنا ذلك بما يكفي! فلم يمضِ يوم من غير أن يتحدّث التلفزيون الرسمي عنك، ويُقدّمك كجاسوس صهيوني.
ـ وأنتم إذاً؟ كيف ستتكلّمون عني في المجتمع الذي سوف تبنونه؟
ـ كشُجاع ساعدنا كقلّة من الآخرين.
ـ وماذا سيكون وضعي لو كنتُ ليبياً؟
ـ نفس وضع أي مواطن، مع كل الحريّات، بما فيها حرية ممارسة شعائرك الدينية.
ـ إذاً أنتم لستم مُعادين للساميّة...
انفجر بالضحِك أيضاً.
ـ كيف سأكون مُعادياً للساميّة؟ فكلّنا ساميُّون. نحن أولاد عمّ.
ـ أنت تستخدم من جديد لُغة خشبية.
ـ لا. فقد كان هناك يهود ليبيّون تعايشنا معهم بوئام. وقد ساد بيننا احترام، واعتراف مُتبادَل.
ـ حتى؟
ـ حتى الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، النزاع على الأرض الذي هو مصدر الصراع.
ـ كنتُ أريد أن أصل إلى هذا الموضوع. ما موقفكم من هذا الصراع؟
ـ نحن ضدّ اضطهاد إسرائيل للفلسطينيين. وفي رأيي يجب إقامة دولة واحدة يتمتّع فيها الطرفان بحقوق مُتساوية.
ـ أنتم لا تقولون إذاً إنّ على اليهود أن يتركوا المنطقة؟
ـ أكيد لا! ألفتُ انتباهك إلى أنّ اليهود اضطُهِدوا في أوروبا لا في ليبيا. تشهد على ذلك المجزرة التي ارتكبها الألمان، والغرف الغازيّة، والهولوكوست.
على الأقلّ ليس من جماعة إنكار المحرقة. وهذا إيجابي بحد ذاته. بخلاف القذّافي الذي كان يدعو غارودي إلى مركز المؤتمرات في بنغازي. فقاطعه إسماعيل:

ـ هل تريدون أن أحكي لكم قصّة؟

ـ قلتُ: نعم.

ـ كان عندي عمّ...

ترك جُملته مُعلّقة. كأنّه يُريد أن تأخذ مفعولَها. تضايق عبد الحكيم، فأشار له بأن يُسرِع.

ـ أرضعتْه اِمرأة يهودية. كانت مثل أُمّه.

وتوجّه إلى أصحابه، بنظرة انزعاجٍ يشوبها التحدّي ـ كأنّه لم يسبق أبداً أن حكى لهم هذه القصّة، ثُم نظر إليّ وسألني:

ـ هل تعرف تشومسكي؟

ـ قرأته، نعم.

ـ وما رأيك فيه؟

ـ عالِم كبير، ومُثقَّف رديء.

ـ لماذا؟

ـ أختلِف معه تقريباً حول كلّ شيء. بما في ذلك حول إسرائيل التي أُدافع عن وجودها بشراسة. ولكن أيضاً حول ليبيا: لم يقف ضدّ القذّافي.

استمرّ النقاش حتى وقتٍ مُتأخّر من الليل. لكنّي أعتقد أنّنا ناقشنا فيه ما هو جوهري. والباقي حُفِظ كما يجب في أشرطة مارك روسيل الذي صوّر كلّ شيء كالعادة. المُهِمّ في نظري أن هذا الحديث حصل. والأمر الأساسي أنني استطعت أن أُحاور رجالاً لا يفتقدون الشبه مع بعض أولئك الذين التقيت بهم في إسلام أباد وكاراتشي، خلال تحقيقي في قضية دانييل برل. ففي باكستان كانوا سيقتلونني لو عرفوا من أكون. وهنا، أُحِسّ برغبة الحوار، وفهم الذات، والمُعاملة. ومن هذه الرغبة، أو على الأدقّ، من هذا المناخ الذي يبدو مُسالِماً، أرى، كما في قضية الشريعة، ثلاثة أنماط ممكِنة من الشرح.

الأوّل. سوّدتُ وجهي، وخُدِعتُ، وأفرطتُ. فهؤلاء الرجال إرهابيّون، لكنّهم مُقنّعون ينتظرون ساعتَهم. عندهم أفضل المُحاربين، والعسكريون الأكثر انضباطاً، ورجال مُستعدّون للاستشهاد، أي للموت في سبيل أفكارهم. هم في الظلّ، في الوقت الحاضر. غير أنّهم ينتظرون الوقت المناسب، وعندئذٍ، سوف يضربون ضربتهم. لينين في الإسلام. التقنية العربية في الانقلاب. تقنية تقليدية. لا أعتقد كثيراً بهذا.

الثاني. هم متطرّفون دوماً. ومُقتنعون دوماً. لكنّهم مهزومون، وهم يعرِفون هذا. ذائبون في الربيع العربي، وهم واعون لهذا الذوبان. يُعوِّلون على الديمقراطية التي تسمح لهم، ليس فقط بالتعبير عن أنفسهم، بل بالإقناع والكسْب. هم اليوم قوّة من جملة القوى، إيديولوجيا من بين إيديولوجيات كثيرة، لون من الحديقة الداخلية ـ لكنّهم، غداً، سيقلبون المُعادلة. إذ لم يعودوا بلشفيي عام 1917، بل هم شيوعيو ما بعد سقوط جدار برلين. لم يعودوا يُحضِّرون الانقلاب، بل ينتظرون رجَحان الكفّة. وخلال انتظارهم، يعملون في الخفاء. الصبر وطول الزمن. ومن حظّهم أنّ لديهم الزمن. حتى الزمن الإلهي، أي الخلود. وهذا جزء مُختلِف من الشرح الأوّل. تزمُّتٌ بوجه إنساني. وهنا أيضاً انخدعت، لكن على المدى الطويل. فليس الافتراض هو ما يبدو لي مُريحاً.

وأخيراً الشرح الثالث. هم إسلاميون دوماً. لكنّهم، قبل كل شيء، أنصار هذا «الإسلام الوسيط» الذي حدّثنا عنه أحد مُحاورينا على كورنيش بنغازي. ثُمّ إنّهم، على الأخصّ، أغنياء بتجربة لا أستبعد أنّها، بحسب وجهة نظرهم، تُغيِّر كلّ شيء: فقد التقوا بالغرب، لكن بعيداً عن لقائه كلقاء إمبراطورية الصليبيّين التي تصفها آلتهم الدعائية، رأوا فيه حليفاً يُسلّحهم، للمرّة الأولى، ولا ينهبهم، يُساعدهم ضدّ طاغية، وباختصار يُنقِذهم. فقد حاربنا طاغيتَهم. وقدّمنا بذلك صورةً عن ذاتنا لم يكونوا مُستعدّين لها. ورُبّما يُغيِّر هذا شيئاً في رؤيتهم للعالَم.

لا أستبعد أن أكون ساذجاً. لكن اليوم، وأنا خارج من هذه المزرعة، في طراوة هذا الليل من أواخِر شهر رمضان، أميل إلى هذا الافتراض الثالث.

ليس هذا بعدُ إسلام عصر الأنوار الذي أكافح من أجله منذ زمنٍ طويل.

لكنّه لم يَعُد إسلام حرب الإبادة التي تهدف إلى موت الغرب.

وهؤلاء الإسلاميونَ المُضلَّلون، هؤلاء الإسلاميون الذين ضلّوا طريقهم، هؤلاء الإسلاميّون الذين شُوِّشت مرجعياتهم، وبُلبِلت رؤيتهم للعالَم، وعُطِّل تفكيرهم، هؤلاء الإسلاميون الذي أُحِسّ اضطرابهم بصدق، هنا، مثلاً، نتيجة فكرة أطلقها أحدٌ، هو أنا، يعرفون حجم الدعم الذي قدّمه لهم، ويعرِفون أنّه تجشّم، هذا المساء، عناء المجيء ليُحاورهم، غير أنّهم يشعرون، في الوقت نفسه، أنّه لا يتراجع في أي شيء، ولم يتساهل معهم في أية قضية، وهو خصمٌ مُطلَق لمذهب الجهاد، وليس أقلّ من صديق لإسرائيل دون أية تحفُّظات ـ إزاء هؤلاء الإسلاميين الذين يُعبِّرون فجأة عن رغبتهم في «التعامُل» مع «اليهود»

و«الصليبيين»، شيء ما يقول لي ليس مستحيلاً أن يكونوا قد استجابوا لالتفاتتنا الأخوية بنوع من مدّ اليد.

أتذكّر موريس توريز، عندما كان في عام 1935، مع «عازفي الناي» الشيوعيين ينغّمون نشيدهم الخاص عن الحوريّات، ويبتدعون سياسة اليد الممدودة. سأل بهذه الألمعية الزائفة التي كانت تُميِّزه: ماذا نفعل بيدٍ ممدودة؟ هل نُعيدها بقفّازات؟ نُعيدها بطرف الأصابع؟ صراحةً؟ هل نأخذها كما في لُعبة الجيدو؟ هل نُقبِّلها؟ هل نعضُّها؟ هل نتركها مفتوحة؟ أم نُمسِك بها، ونحتفِظ بها سجينةً؟

هذه هي المسألة بأكملها.

غير أني مُقتنِع بشيء: لقد حدث تغيُّر ما هذا المساء في نظرهم، وفي نظري - فَلأوّل مرّة يقوم حوار حقيقي ومباشر بين وجوهٍ وأصوات.

ومُقتنِع بشيء آخر: بالنسبة لهم، ولنا، ستكون حرب ليبيا بالضرورة تحوُّلاً - ركناً مركزاً في الإيديولوجية الصلبة للجهادية، وهزيمة للعقيدة المُسمّاة صِدام الحضارات، وهو، أكثر من خطاب أوباما في القاهرة، وأكثر من كلام لينين الجميل الذي يسقينا إياه منذ ما يزيد على عشرين عاماً، إنّما يُطلِق حواراً مُمكناً مع الفروع الأكثر أصولية في العالَم العربي الإسلامي، بشرط التخلّي عن سياسة القتل. وهنا أُعبِّر لمصطفى عن امتناني لأنّه سمح لي أن أستشِفّ كلّ هذا.

الخميس 25 آب/أغسطس (الوصول إلى طرابلس)

توفّرت لي عدة وسائل لدخول طرابلس. كان بإمكاني المرور من تونس وصعود الطريق الساحلية مثلما يفعل أغلب الصحفيين. وكان بإمكاني الصعود إلى زنتان، ونزول الجبال حتى غاريان، وبعد ذلك حتى باب العزيزية. أو كنتُ أستطيع ركوب الطيّارة من بنغازي إلى مصراطة، ومنها، أسلك طريق الشرق، تلك النبي سلكتها، يوم السبت، وحدات مصراطة التي أعطت «الدفعة الأخيرة» المشهورة، التي جاء الجنرال رمضان زرموح في 20 تمّوز/ يوليو، لِيَعِد بها ساركوزي. وقد اخترنا الحلّ الثالث بعد نقاشٍ وجيز مع سليمان فورتيه وعلي زيدان، الذي عرف في اللحظة الأخيرة، للأسف، أنّه لن يستطيع أن يُرافقنا؛ لأنّ عليه أن يذهب بعُجالة إلى كفرة حيث اندلع توّاً خلاف بين مجموعات المُقاتلين الثائرين.

حينئذٍ اتصلتُ بآلكو في باريس كي يُقدّم بطلب السماح بالطيران لدى قوّات الناتو. وعلى الفور، اتصلتُ إلى بنغازي، مع ضابط الارتباط الليبي المُكلّف بالاتصال مع دوائر الناتو العُليا، الذي يُعطينا موافقته الشفهية لكنْ طالباً منّا انتظار موافقة رسمية ومكتوبة. ذهبتُ أنتظر، هناك، في المطار، على مدرج الإقلاع، كما لو أنّ واقع أن أكون حاضراً هنا يُسرّع الأمور. وهذه هي الحال تقريباً؛ لأنّني، وقد رأيتُ أنّ تأكيد الموافقة تأخّر، وضابط الارتباط امتنع عن الردّ على هاتفه، وكلّ سلسلة قيادة الناتو، والمطار، غارقاً في سُبات بداية يوم رمضانيّ، أقنعت قبطان الطيّارة أن يتجاوز الرسميّات، ولّما تذكّر بداياته حين كان طيّاراً شاباً جَسوراً خلال حرب لبنان، أقلَع في الوقت المُحدّد تقريباً. كلاشنكوف.

خمس وأربعون دقيقة من الطيران. طيّارتنا هي أوّل طيّارة غير رسمية تحطُّ في مطار مصراطة الذي كان حتى أمس غير سالِك. وجدْنا اللواء رمضان زرموح، الذي لا نعرف من أخبره لأنّه، إذا كانت المدرّجات قد صُلِّحت بسرعة، وكذلك بُرج المراقبة، بقيت الاتصالات مع بنغازي مستحيلة، فجاء مصحوباً بضباطه الأساسيين وكذلك بشابٍ يضع قبّعة، طفل تقريباً، كان دليلنا في مصراطة في شهر أيار/ مايو، ورأيناه في صورة التقطها مارك الذي جال حول العالَم، يصعد الشارع الرئيس في مدينته المُحاصرة، في يده بندقية كلاشنكوف، وعلى شفتَيه ابتسامةٌ غامضة. تأثّرنا طبعاً بلقائه. وتعانقنا. تذكّرنا تلك الأيام في باريس التي، كما قال لي رمضان، غيّرت وجه هذه الحرب. أوفد لنا الكولونيل هاشم، نائبه، الرجل الذي يُشبه صوتُه صوتَ كيسنجر. وضع تحت تصرُّفنا ثلاث سيّارات (واحدة يقودها هاشم، ويقود الثانية قائد يضع عمامةً ويشبه ابن لادن، ويقود الثالثة سليمان نفسه الذي لم يعُد إلى طرابلس منذ سنوات، ويبدو، وحده من بيننا، الأكثر تأثُّراً) ثم اثنان من هذه «البوارِج المتنقّلة» ـ واحدة في أوّل الموكب، والثانية وراءه ـ اللتين نجحوا في اختراعهما أثناء حصار المدينة، أو أشباح المدينة التي كتب لنا رمضان أسماءها على طرف غطاء طاولة ورَقي، في باريس، حالِفاً أنّه، إذا تلقّى الأسلحة الملائمة، فسوف يأخذها خلال ساعات. في البداية يجب عبور حواجز، هي نفسها، المتكوِّنة من الرمل المُدعَّم والحاويات المقلوبة، التي كانت تسِم داخل مصراطة، تقدُّم الثوّار ـ باستثناء أنّهم هنا، كما تشهد كثير من التلال المنصوبة كل 5 إلى ستّة كيلومترات، مؤكّدة أنهم راوحوا طويلاً، وقاوموا تحت زخِّ الرصاص، وانتظروا وصول الأسلحة الفرنسية. ثُمّ إن الطريق سالكة أكثر، والحواجز عليها قليلة جداً، بالكاد نقاط تفتيش يُرفرف عليها العلَم

الليبي للملكيّة القديمة، وغالباً علَم الجمهورية الفرنسية ـ علامة على أنّ تقدُّم الثوّار، عموماً بدءاً من زليطن، كان أسرع، وعلى أنّ كتائب القذّافي تراجعت من دون قتال.

بعد ساعتَين بالضبط، ساعتَين، وهذا تقريباً الزمن الذي قد يحتاج إليه اللواء رمضان بالفعل، كما قال لساركوزي، كي يُحرِّر المدينة، وصلنا إلى نوع من الكورنيش على جانبه الأيمن حقل زيتون، ثمّ بستان نخيل يُحيطان شاطئاً خلاّباً: من دون الحاجة إلى أن يُقال لي، من دون أن يكون أحد مُحتاجاً، من جهة أخرى، إلى أن يقول شيئاً، فهِمنا أننا وصلنا إلى طرابلس. فإلى اليمين، الميناء التجاري الخالي، ثُمّ الميناء العسكري المهجور، وفي البعيد ترسو في أقصى المرسى آلاف السفُن التي يبدو أنّها أشباح سفُن. وإلى اليسار، بنايات حديثة يبدو أنّ سكانّها هجروها، وهياكل بناء ضخمة كان النظام سيعتزّ بها، لكنّها توقّفت تماماً في عزّ انطلاقها، ولم يبقَ منها إلا رافعات، هي نفسها مهجورة، وأحياناً، مُخلّعة. وحولنا، حركة سير تغدو فجأةً أكثر كثافة، وأنهار من البك ـ آب تمضي وأرجل السائقين على الأرض، وأيديهم على المزامير، يحمل راكبوها أعلاماً، وراياتٍ صغيرة، وشرائط عليها رسوم كاريكاتورية للقذّافي من النمط الذي رأيته في طبرق، شبيبة حاشدة تُحيّي موكبنا بمهرجان من إطلاق الرصاص. ومُقابلنا، في البعيد، أو رُبّما هذا من خُداع البصر الناتج عن بَخْر الحرارة المُتصاعدة من البحر، والكتلة الداكنة للأبنية الفخمة التي تسِمُ المدينة الكبرى. وفجأة، على لفّة آخر مُنعطف هذه الطريق الساحلية، على اليسار، ساحة، هي الساحة الخضراء، هذا الرمز المُطلَق للنظام، ساحة القذّافي، المكان الذي كان يُجمّع فيه أنصارَه، ويُوجّه إليه خطاباته المُسهِبة المجنونة، وها قد وصلنا إليها.

الشيء الذي يصدم إنّما هو حجم الساحة ـ أصغر من حجمها في الصُّوَر ومنه في مُخيّلتي. بالإضافة إلى أنّها، بسبب رمضان، خالية بشكل مُدهِش، وفارغة تقريباً ـ السوق القديم مُقفَل، وكلّ المقاهي أيضاً وآلاف أغلفة الطلقات الفارغة جاثمة على الأرض، فجاء حوالي خمسين رجُلاً، لا أكثر، للتسليم علينا، ومُعانقتنا، وشكرنا على قُدومنا.

لكنْ، إما لأنّ خبر وصول الأجانب انتشر حالاً، وإمّا بسبب اهتيَاج الشباب المُرافقين لنا، شباب دبّابتَي بن حُور، الذين أطلقوا في الهواء الرصاص من بنادق الكلاشنكوف كي يُعبّروا بصورة أفضل عن سعادتهم، جاء عجوز من الساحة وعانقنا، وبدأ الناس بالوصول، يزداد عددهم بالتدريج، شباب، وأحياناً أطفال، وكلّهم مُسلّحون، وبعضهم بأسلحة ثقيلة، وشرعوا هم أيضاً في إطلاق الرصاص.

اقترح عليّ أحدهم، بإنكليزية رديئة، أن يقودني إلى قصر عائشة، بنت القذّافي، حيث لا بُدّ أن المُحرِّرين عثروا فيه على كنوز ـ وكرّر عدّة مرّات، باللغة العربية «كنوز».

وقال لي آخر إنّه يستطيع أن يقوم بالأفضل، ويقودني، إذا شئت، إلى المكان الذي قُبِض فيه على «محمّد» ابن القذّافي؟ ـ لا، على سيف ـ اعتقدتُ أنّ القبض عليه كذْب؟ ـ بالتأكيد نعم، لقد أُوقِف، ولكنّه هرب بعد ذلك، هذا صحيح، لكنّ السبب أنّ شبابنا اتبعوا حرفياً تعليمات الاعتدال التي أصدرها الرئيس عبد الجليل،لكّن القول إننا لم نُلْقِ القبْض عليه أبداً فهذه إشاعة جماعة القذّافي، الكاذبة.

وتمنّى ثالث اسمه حكيم أن يكون أكثر قوّة أيضاً فادّعى أنّ بإمكانه أن يقودني إلى مخبأ القذّافي نفسه، وأن لا أحد مكانه، إلا هو، وأقسَم بشرفه، غير أنّ الآخرين أسكتوه، حتى إنّ أحدهم لكمه لكمةً خفيّة رافعاً مرفقه، لذا لم يُلِحّ.

أمّا أنا فارتجلتُ خطاباً موجزاً، يُشبه إلى حدّ ما توجُّهي بالكلام إلى شباب بنغازي، لكن بنغمة أكثر حميّة وتأثُّراً واضطراباً (يوم عظيم... عظَمة شعب يتحرَّر... تحرُّركم هو تحرُّرنا... صوَر من تحرير باريس... ورئيسكم مصطفى عبد الجليل، في مقام أب، ويجب احترامه كأب... ووعظ مُختصَر خاصة بعدم الانسياق لنزعة تصفية الحسابات والانتقام...).

صرخ الشباب الله أكبر ـ فأجبتُ: ليبيا حُرّة. هتفوا لفرنسا، فحيّيتُ ليبيا. فتكاثر إطلاق الرصاص في الهواء، وبعضهم كان يُطلِق من نوافذ المباني، من جانب صورة القائد العملاقة المُطلّة على الساحة ولم يبقَ منها إلا نُتَف لا تُميَّز إلا بالكاد، والباقي إما أنّه مُمزّق، وإما محروق.

بعد حوالى عشر دقائق، اختلطت ضجّة سيول إطلاق الرصاص فرَحاً بضجة شبابنا المُرافقين الذين زاودوا بإطلاق القنابل من مدافعهم الموجَّهة باتجاه السماء، فغطّى دويُّ الفرقعات صوتي، وبدا أنّ بعض الشباب، فوق ذلك، عرفوا الفرنسي «السيّد برنار»، الذي شاهدوا صُوَره المؤبلَسة، ورأسَه المطلوب، الذي أُعيد نشر صورته على التلفزيون خلال أشهر، فراحوا جميعاً يلتقطون لي الصُّوَر بهواتفهم المحمولة ويُرسلونها إلى جهات لا يعلمها إلا الله حيث تمضي الرسائل النصيّة في كلّ اتّجاه، وتتكاثر المُكالَمات الهاتفية ـ فانتهى فريق شُرطيّينا بتخمين أنّه رُبّما كان من الأفضل ألا نُطيل أكثر من ذلك، ألا يعيش في المدينة موالون للقذّافي خلعوا بزاتهم العسكرية ويعملون الآن بالثياب المدنية؟ مشهد مُدهِش إذاً لهؤلاء الرجال الخمسة الذين أذهلني على الأخصّ، حتى الآن، تكتّمهم الشديد، وحصافتهم، وفي

كلّ الظروف، وفضولهم التامّ ـ والذين يتحوّلون، في زمن قياسي لا ينبغي الإفصاح عنه، إلى خمس قِلاعٍ بشريّة التحقنا بسيّارتنا تحت حمايتهم.

الخميس 25 آب/أغسطس، تتمّة (في طرابلس المحرَّرة)

عانينا قليلاً في الخروج من الساحة التي صارت، خلال عدّة دقائق، غاصّة بالناس، ومُزدحمة الآن باكتظاظ شاحنات البك ـ آب التي انبثقت من كلّ الشوارع المُجاورة، مُضيفةً مُنبِّهاتها إلى الابتهاج بإطلاق القذائف، ورصاص الأسلحة الخفيفة التي غدت تصِمُّ الآذان.

وبينما كان يُحيط بنا رُكّاب شاحنات البك ـ آب التي كان سائقوها هم الأكثر هياجاً، إذ رافقونا في نفس الموكب المُزدحم المُتكوِّن من الشباب الآتين مشياً على الأقدام من بنغازي يوم ألقيت خطابي على الكورنيش، مضينا حينئذٍ حتى أطراف باب العزيزية، المقرّ العام القديم للقائد حيث يسود شكلٌ آخر من الغلَيان، فعلى ما يبدو، تمَّ توّاً توقيف قنّاص، يُحيط به شابّان مُسلّحان، ويداه مُقيّدتان وراء ظهره، والجمهور يصرخ من حوله، ويشتُم ـ لكنْ رُبّما بسبب وجودنا هناك، لم يُعاملوه بعُنف.

وعندما انتهينا، بعد عناء، بتفريق موكبنا المُزدحِم الذي، نظراً لعدم استطاعته أن يقوم بعرض البراعة الحضري في أزقّة المدينة القديمة،تبعثر بالسرعة التي تشكّل بها، توقّفنا عدّة دقائق في وسط أحد الشوارع، ونحن أيضاً أخذتنا الحميّة، فأعطى كلٌّ منّا، أنا، وهاشم، شبيه بن لادن، وجيل، وفرانسوا، أمراً متناقضاً. توقّفنا، نعم، كي ندرس، ونحن ننكب على غطاء سيّارتي على مخطّط أتينا به من باريس، مخطّط الدليل الأزرق، لكنّه، مرّة أخرى، يبدو مُزيّفاً، لأنّه، هو أيضاً، أعطانا إشارات متناقضة.

الشوارع خالية تسحقها الشمس. ليس فيها أي حانوتٍ مفتوح. أجل. هناك. رجل عجوز يقرفص أمام مطعمه الخالي الذي لا طعام فيه. يتحدّث إنجليزية رديئة، ويشير لنا، بحركات سريعة من يده، إلى متاهة من الأزقّة.

بعد عدّة أمتار، وصلنا إلى كنيسة بيضاء: الكاتدرائية القديمة.

ثُمّ إلى ساحة صغيرة، وفي الساحة، بناية كبيرة من القرميد: الكنيس القديم المُهمَل، لكن يبقى على زخرف المدخل شكل الوصايا العشر، ونَقشان بالعبريّة.

هو ذا على جدار، في زاوية شارع صغير، صفيحة من المرمر كلّفنا بترجمتها رجُلاً واقفاً هناك، وصادف أنّه صاحب «فندق الجمال» الوحيد في طرابلس: تُشير الصفيحة إلى أن القنصلية الفرنسية القديمة كانت موجودة هنا.

انطلقنا ثانية باتجاه الجنوب، إلى حيّ بو سليم الوحيد، مع حيّ منشور المُجاوِر، ورُبّما، وهذا أقل وضوحاً، حي الهضبة الشرقية حيث نصحَنا هاشم شبيه بن لادن بعدم دخولها لأنّ المعارك تدور فيها كلّ يوم.

مررنا أمام المستشفى الذي يبدو أنّه كان قد أُخلِيَ: لم تعُد فيه سيّارة، ولا أدنى إسعاف، ومن المُخاطرة الكبيرة التوقُّف فيه.

بحثنا عن سفارة فرنسا ـ سألنا سائق تكسي، قد يكون الوحيد الذي التقينا به: «القديمة أم الحديثة»؟ أجاب فرانسوا الذي استلم قيادة العمليّات: «الجديدة طبعاً». قادتنا سيارة الأجرة، في حيّ الأندلس، حتى مبنى صغير، لونه أبيض، مُبتذل، بشرفاتٍ مُكعّبة بارزة باتجاه الشارع حيث لزمني كثير من الدبلوماسية لإقناع جيل كي يذهب ويرفع علَماً فرنسياً.

وفي مكان قريب جدّاً من هنا، في شارع خالٍ تماماً (هل هناك قنّاصون؟)، صادفْنا رجُلاً على كتفه قاذفة صواريخ قال إنّه رآنا في زنتان الشهر الماضي والذي ودَّ، مع مجموعة من رفاقه، عمِل واحد منهم ستتَين في تولوز، ويتكلّم الفرنسية قليلاً، أن يقودنا إلى مكانٍ يُمكن أن تكون جماعة القذّافي، خلال انسحابها، خطّطت كي تُعدِم بسرعة مائة وخمسين سجيناً.

وفي منتصف الشارع، بناية صفراء من أثر البول، مبقورة نتيجة القصف، وأمام حواجزها الحديدية ثلاثة جنود مُتعبين يصرخون: «لا صحفيين! لا صحفيين!»

وصل رجُل ببزّة عسكرية، يبدو في الخمسين، فتمتم عدة كلِمات إنجليزية مُبيّناً أنّه أستاذ في ثانوية الحيّ، وأنّه من الآن وصاعداً قائد ميليشيات القطاع، وكان عليه قبل قليل أن يطرد، بوسائل عسكرية، طاقماً تلفزيونياً دخل المنطقة من دون ترخيص، وحاول الانسحاب منها بعد أن نهب الوثائق المبعثرة فيها.

تساءل مُتعجّباً: «كيف؟ ألا تعرفون أين أنتم؟ هذا هو المقرّ العام لعبد الله السنوسي، عجباً! رئيس المخابرات السريّة للقذّافي! رجُل أفعاله الدنيئة، ورذائله!».

ولمّا شرحنا له أنّ الذين أمامه ليسوا «صحفيين» بل هم «فرنسيّون»، وافق على السماح لنا بالدخول، لكنْ بشرط أن يُرافقنا في كلّ مكان.

وهنا...

جِهازا كاميرا ضخمان، على ارتفاع حوالى عشرين متراً من الأرض: «كانا يُراقِبان كل مَن يمرُّ في الشارع، وإذا ما نظر أحد إليهما لأكثر من ثانية، يتِمّ توقيفه».

ثمة غرفة مُبطَّنة بلا نوافِذ: «مبطّنة لخنق صُراخ الذين كان يُعذّبهم السنوسي شخصياً، في كل ساعة، حتى خلال الليل».

وغرفة فيها سرير عريض، وصندوق كرتوني مليء بزجاجات San Pellegrino: «غير الموجودة في ليبيا، وهي من أجل صاحباته اللواتي كان يستقبلهنّ».

والآن مكتب السنوسي. «احلفوا أنكم لن تلمسوا شيئاً؟» طبعاً! إنه مغارة علي بابا: أريكة جلدية، وشاشة تلفزيون بلازما، وعلى الأرض بطاقات طيارة مُبعثرة، وبطاقات تعريف بأفخم مطاعم طرابلس، وبطاقات دعوة صقيلة، وصُوَر شخصية لُمخبرين من كل الأعمار (أسماء مكتوبة خلف الصورة)، وأوراق، وأكداس من الورَق باللغة العربية.

وهذا أخيراً أكثر ما يسترعي الانتباه: حُجرة مُنفصِلة فيها رفوف مليئة بالملفّات. على غلاف أحد هذه الملفات الذي منع الرجل من فتحه، إشارة «دولي» (الملفّات السريّة لثلاثين عاماً من الإرهاب؟). وفي ملفّ آخر يفتحه الرجُل بنفسه، قائمة بأسماء غير ليبية (مرتزقة أفارقة منحهم القائد الجنسية الليبية؟ بالآلاف!). وفي ملفّ آخر أيضاً، صُوَر وتقارير، باللغة العربية، التي اكتشفها الرجل وبدأ يُترجمها: هذه تقارير الجواسيس المُندسّين في المجلس الوطني الانتقالي، أقدمها بتاريخ 19 شباط/فبراير، إنّها محاضر جلسات الاجتماعات، وملاحظات عن الوضع العسكري في بنغازي، وصُوَر شخصية، عشرات وعشرات الصور، مُرتّبة كما في ألبومات عائلية، تُظهِر، بوجهٍ خاص، معسكرات تدريب الثوّار، فمن التقط هذه الصوَر؟ ومن أين تأتي المعلومات؟ قرّر الرجل أنّ هذا يكفي، «بدءاً من صباح الغد، سيأتي المجلس الوطني الانتقالي لاستلامها»، قال ذلك فجأةً وبقلَق، بينما حمل فرانسوا خِفيةً بعض الوريقات وهو يمضي.

في حيّ قرقش، في وسط شارع على جانبيه بنايات من طراز الفيلاّت يُذكِّر بالحي الإيطالي في طنجة، أرونا موقع معسكر تدريب النساء العسكريّات.

سوف نرى، مادام علينا أن نفعل، قصور الملوك السنوسيّين التي تبدو لنا كما نراها على مُخطّطنا، غير بعيدة عن المكان الذي نوجَد فيه، وما أكثر ما شرحنا، وهجّينا، ورسمنا، لكنّ لا

أحد يعرف أن يُحدّد لنا موقعها ـ حتى هاشِم وأصدقاؤنا في مصراطة الذين أفقدهم توازُنَهم الاهتياجُ المُخيِّم، بالإضافة إلى همّهم في تأمين حمايتنا، وبالإضافة خاصة إلى أنّهم لا يعرفون المدينة.

ذهبنا إلى تاجورا، بالمُقابل، هذا الحي في الشمال الشرقي من المدينة حيث حكى لنا رمضان، قبل ألانطلاق، أنّ عناصر النخبة من جيشه انطلقوا في مُباغتة ليلية، يوم السبت الماضي، وفتحوا المدينة للثوّار الآخرين القادمين، مثلنا، من الطريق التي يعرفها هشام جيداً بحُكم أنّه كان هنا.

جعلنا محمود شعبون يحكي لنا قصّة المعركة، وهو قائد شاب بلحية أنيقة التشذيب، وعينين ذكيّتَين حاميتَين، حسبتُه في البداية بِرِجْل واحدة، لكنْ لا، كان جريحاً فقط، يمشي بِعكاكيز، غير أنّه يمشي على كلّ حال، ويستمرّ، بوضوح، في قيادة وحدته.

يتذكّر، تحت نظرة هاشم الأخوية، أنّه من بين أوائل الأوائل، مع رمضان زرموح، في أوّل زُمرة مُكوّنة من مائتي عُنصر وصلوا إلى هذا المكان الساعة الخامسة صباحاً ووطئوا رمل العاصمة.

وما إن انطلق حتى أصابته طلقة، لكنّه لم يستسلم، وقام بمساعدة عكازين، ثُمّ حمله اثنان من رجاله، فصمّم على البقاء على رأس الوحدة التي كانت تتقدّم باتجاه المدينة من دون أن تُلاقي مُقاومة تُذكر.

إنّها السابعة والنصف مساء. غابت الشمس. وأخيراً هذه ساعة الإفطار ـ تناول الصائمون على غطاء مُحرِّك البك ـ آب إفطارهم من أكواب الحليب والتمر. هل سنقبل حفاوة شعبون الذي اقترح علينا أن نقضي الليل في خيمة قيادته على الجبهة البحرية؟ أم سوف نذهب إلى أحد الفُندقَين، فندق راديسون، وفندق كورانثيا، اللذين يشغلهما الصحفيُّون منذ نجاحهم في الانسحاب من فندق ريكسوس الحكومي حيث كانوا محبوسين؟ أم نعود إلى «مدينتي» كما قال هاشم. غير أني سعيد بالمجيء إلى هنا، سعيد بقطع المسافة على الطريق البريّة ـ وسعيد بأنني أنجزت الرحلة.

الاثنين 29 آب/أغسطس (مُخالفة انتهاك منطقة حظر جوّي)[2]

هي ذي وثيقة ينبغي أن تُحاط بإطار حين ينتهي كلّ شيء.

Sous en-tête d'une mystérieuse « HA Movement & Transportation Coordnation Cell », signé d'un ceratin « Major Ortman » qui semble être l' « Operation Unified Protctor » du secteur, précédé d'une ligne en vert marquée « Classification, NATO unclassified », une lettre adressée, pour moi, à Fabrice Alcaud et qui dit: « Pis be advised that every unapproved and non-coordinated air movement (like you did with your movement from HLLB to HLMS) is considered as a violation of NEZ » En clair, une notification d'infraction. Un vol de HLLB (Benghazi) à HLMS (Misrata).

وهذا يُشكّل انتهاكاً صريحاً لمنطقة الحظر الجوّي، فأرسل محضرُه إليّ كما هو مُثبَت.

ونحن ندعو هذا في قانون السَّير ضَبْطاً.

الخميس 15 أيلول/سبتمبر (مع ساركوزي، وكاميرون، وجوبّيه في ليبيا الحُرّة)

هذه المرّة، هي النهاية حقّاً، آخِر فعل، نهاية صلاحية كلّ الآجال، والتعبير عن الكلِمة الأخيرة.

أردت أن أصِل قبلَهم بقليل. ومن جهة أخرى، كان عليّ أن أكون في ليبيا، مبدئياً، منذ أمس مساءً. غير أنّ الأثقال البيروقراطية لحلف الناتو، وربّما تظهر النيّة السيئة لمدير غير مرئي للمسرح السياسي، وربّما أيضاً دويُّ آلةٍ جعلني أدفع مُخالفتي الجويّة الشهر الماضي، وعمِلت على ألاّ أستطيع الوصول إلا هذا الصباح، قبل عدّة ساعات فقط من وصول كاميرون وساركوزي. لكنْ كلُّ شيءٍ على ما يُرام. وقد استطعتُ أن ألتقط الصور التي كانت تنقصني من أجل الفيلم - وكان هذا هدفي. ولم يعُد الهدف الآخر، الهدَف غير المُعلَن - إنهاء هذه المُغامرة في الحالة التي بدأتها بها: حرّاً، فارساً وحيداً، لا أتوسَّل إلا نفسي، أجعل من نفسي مُبشِّراً، وأتنقّل، وأتحرّك بوحيي الخاص، ولأجل هذا، وأجهَد كي لا أكون مديناً لأحد، ولا أطلب شيئاً من أحد، وأخدم الجمهورية، نعم، لكن لا أُسخِّرها لأغراضي الخاصّة، كان هذا نقاشي مع هولبيك المذكور في كتابنا، مُستخدِم فرنسا، نقودي الخاصّة مثلاً، وهذا تفصيل، طبعاً، غير أنّ الشيطان في هذا التفصيل، الشيطان؟ طيف المُثقّف المُحلَّف، النموذج الرديء للكاتب المنضوي، كتبتُ منذ ثلاثة وثلاثين عاماً إنني لن أصير أبداً مُستشارَ أمير، وطبعاً كنت عند كلمتي، مستوحياً حقيقتي بالتأكيد، وموحياً بها لمن يُريد أن يسمعها، لكنّي لست مُستشار أحد، أو أنني مستشار مؤقّت، وأيضاً! كشّاف على الأصحّ، عنصر رائد كان الآخرون أحراراً في أن يسمعوه أو لا يسمعوه، فهل كان هو حُرّاً، بالعكس، في أن يتوقّف في أية لحظة لو أنّ

ساركوزي لم يُتابع؟ لو أنّه، بعد اعترافه بالمجلس الوطني الانتقالي، لم يستقبِل يونس؟ ولو أنّه، بعد استقبال يونس، لم يستقبِل ضبّاط مصراطة الأحرار الذين جاؤوا من أجل الأسلحة؟ حينئذٍ كنتُ سأعبّر، كما فعلت مع ميتران الخائن في سراييفو، عن الأمل الذي سيجعله مسلوباً، وكنتُ سأسجّل التراجُع، وأُدينُه، كان هذا هو القانون غير المكتوب، وقاعدة اتفاقنا الضِمني، الذي انعقد، وسوف ينفكّ الآن.

وكي أكون صادقاً تماماً، يجب أن أعترف أيضاً بأنّه لم يُزعجني أن أكون هناك حين يصل مع كاميرون، وأن أستقبلهما بمعنى ما في طرابلس التي سبقتهما إليها، وشعرت أنني نفخت فيها الروح قبل ثلاثة أسابيع من الآن، في الوقت نفسه الذي كانت تُدوّي خلاله تصفيقات الشرف التي كان الشباب يُحيّوننا بها في قلب المدينة النابض، على هذه الساحة الخضراء وتُسمّى من الآن وصاعداً ساحة الشهداء حيث لن يذهبوا، هم، إليها للأسف.أنا هنا في جوٍّ شديد الحرارة في أسفل الطُّلوع الصاعد باتجاه قسم الإسعاف في المستشفى الكبير حيث تنتظرهما المُمرِّضات، والمريضات، وربّات المنازل، ونساء طرابلس. كان عدّدهن حوالى المائة. كنَّ متجّمعات في السُلَّم، والممرَّات، والقاعات. وجوه جميلة لنساء لم يعُدن خائفات، ويضحكن. وصلت المروحيّات الخمس، في الوقت المُحدّد، مع فرقعة المراوح. لَطالَمَا انتظر الليبيّون المروحيّات وتمنّوها! فغالباً ماسمعنا الناس يقولون في مصراطة، والزنتان، وبنغازي، وفي كلّ مكان: «أين المروحيّات؟ لماذا تأخّرت كثيراً؟». أمّا هذه المروحيّات، الأخيرة في هذه الحرب، فقد وصلت في موعدها. أثارت، وهي تحطُّ، عواصِف من الغُبار، والرمل الوسِخ. لكنّها العاصفة الأخيرة. هي عاصفة رمزيّة وسعيدة. العاصفة الجميلة للحرية هي التي ربِحت.

إذاً أنا هنا. نزل نيكولا ساركوزي وكاميرون أوّلاً، وتبِعتُهما كوكبة من المُرافقين أحاطت بعبد الجليل. رفعوا أيديهم علامةً على النصر. يرفعونها له مثلما يفعل مُدرِّبون في حلقة الرّهان من أجل بطلهم الفائز. السعادة مقروءة على الوجوه. رُبّما هي لحظة خشية وهما يضعان أقدامهما على أرض ليبيا. آخر عاصفة مع وصول آخر مروحيّة، بلغت من القوّة ما جعلنا جميعاً نُدير رؤوسنا ونخفض رؤوسنا. لكنّني نظرتُ إلى عبد الجليل. نظرتُ إلى جبريل إلى جانبه، فرأيتُ في عيونهما بوضوح أنّها المرّة الأخيرة التي يخفضان فيها رأسَيهما. سلّمتُ عليهما هما أوّلاً، عبد الجليل، وجبريل، ثُمّ على الأوروبييّن - ساركوزي وكاميرون. وصعدنا باتجاه

النساء بخُطى بطيئة، يُحيط بنا جمهورٌ تخلّى الأمن عن احتوائه. إذ حطّم التدافُع، والضوضاء مجنونة، والبلبلة، والحشد الملتحِم ترتيبات البروتوكول، وكان كلّ هذا علامة صارخة على السعادة.

دفعني الزحام عند باب المصعد، فوقعتُ على هنري غينو. لم أُغيّر رأيي في خطابه في داكار. لا شكّ في أنّه يُفكّر دائماً، هو أيضاً، بالشتائم التي كافأني بها حينئذٍ. لكنّني مددتُ له يدي. فأمسك بها.

حين دخلنا المصعد، لاحظنا أنّ عددنا كان كبيراً، يُجاوز حمولة الجهاز، وكان لابُد أن ينزل أحد الصاعدين. لن يكون هو. ولا أنا. هذه اللحظة تتخطّانا نحن الاثنين. وكان ردّ فعلي أن أُعلّق، من جهتي، الخلاف بيننا. الحدث هو الأقوى. فهو يستولي عليَّ بكلّ قوّته. والباقي لا أهمية له. كنت أعلم أنّ ألان جوبيّه من الذين جاؤوا. وكنت أعلم أننا سنلتقي، في لحظة أو في أخرى، وجهاً لوجه. وكنتُ بصراحة قلِقاً بعض الشيء. فماذا يُمكِن أن يفعل حين يلتقي ذاك الذي قُدّم في أغلب الأحيان بوصفه «الوزير الثاني» للخارجية؟ وماذا يُمكِن أن أفعل؟ كيف سأتصرّف إذا مددتُ له يدي، ورفض أن يُسلّم عليَّ؟ طبعاً لم يحدث هذا. فالمُصافحة كانت صادقة، والنظرة وديّة. حتى إنّه لفظ جملة أمام مجموعة من الصحفيّين المُحاورين، وشدّد عليها ليُعبّر عن انبساطه في أن «يتقاسم» معي هذه اللحظة. ولاحقاً، وبعد بنغازي، لحظة العودة باتجاه باريس، عمِل الرئيس على أن نجتمع على انفراد. وهنا استحضرنا، كمثل لاعبيَن، في نهاية اللعبة، يقلِبان آخر أوراق اللعِب، موضوعات خلافنا.

فصل العاشر من آذار/ مارس، في الإيلزيه حيث تمّ الاعتراف بالمجلِس الوطني الانتقالي؟ قال إنّه كان يعلم بذلك، لكنّ الشيء الوحيد الذي فاجأه هو الدعاية التي أعطاها جبريل للأمر. والانتقادات التي وُجّهت ضدّي، التي لم تتوقّف الحلوق العميقة في وزارة الخارجية عن إرواء الصحافة بها: لم يكن على علم بشيء من اختلاق الصحفيين، والإشاعات، ولم يُرِد ذلك. وخيار التدخّل العسكري؟ واجب الحماية هذا المأخوذ بحرفيّته، وفكّرت دوماً أنّه تحمّله مُجبَراً؟ كان دائماً مؤيّداً للتدخُّل من دون أيّ تحفُّظ، وأنّه على أيّة حال «فخور بخدمة هذا الرئيس». وماذا عن المؤتمر الصحفي في 6 آذار/ مارس إذاً؟ الجملة التي قالها يومئذٍ في القاهرة عن «التدخّل العسكري في ليبيا» الذي «قد يؤدي إلى نتائج سلبية تماماً»؟ لم يعُد يتذكّر الجملة. نبّهني ساركوزي بالقول «احذَر،معه مفكّرة، ولديه التواريخ على جدول الأعمال».

لا، لقد بحث كثيراً، وهو بصدق لا يتذكّر تلك الجملة. والغريب أنّني، بالأحرى، وثقتُ بصدقه (تماماً مثلما وثقتُ بصدق غضبه حين ذكر بصوت هامِس، ألانتقادات تتقصّده في موضوع رواندة، الذي بدّلته فوراً ـ مضى إلى حدّ دعم فكرة أنّه كان، في 15 أيّار/ مايو من عام 1994، إثر اجتماع مجلس وزراء الاتحاد الأوروبي في بروكسل، من أوائل الذين أدانوا وسمّوا الإبادة الجماعية، وفي الواقع، قرّرتُ، حتى بأبسط تدقيق، الثقة بكلامه...).

هل هي كوميديا ماقبل خمسة عشر عاماً تبدأ من جديد، عندما جعلتنا بديهيةُ صُدْقنا نتصالح قبل أن يُشوِّش جيل علاقتنا في الفصل الذي حصل في السوربون؟ هل هذه الكآبة التي أُحسُّها فيه، هذا الجانب المكسور، غير الواهم، وفينوس في وزارة الخارجية، ونزوعه لانسحاب يتحمّل مسئوليته بالترتيب مع ممارسة سلطته التي تُؤثّر فيّ بغتة، وتجعلني أُفكر بأننا، وقد وصلنا هنا، وألقينا السلاح قليلاً، يجب ألا نسعى للكذِب؟ فأي حدث انتصر بالضبط، ويُملي قانونَه هنا أيضاً؟ أميل إلى الحلّ الأخير. لأنّ الرواية الأخرى للقصّة بدت لي مُضلِّلة فجأةً.

غير أنّ الذي أُراقِبه بكثير من الفضول هو الرئيس.

أُراقِبه في بنغازي، حين تأتي إليه عائلة مُتأنّقة من طبرق، بالطفل الذي أعلنتُ له ميلاده في اتصالي الثاني الخاصّ بزيارة يونس إلى باريس، وأخبرتُه أنهم سمّوه ساركوزي: استنتجتُ، من هيئته المُنذهِلة الحالِمة، أنّه لم يُصدِّقني.

أُراقبه في طرابلس، في قاعة اجتماعات فندق كورانثيا، مواجِهاً المجلس الوطني الانتقالي بشمول كامل: السلطة العسكرية في المدينة، عبد الحكيم بلحاج، عاليا أبو عبد الله الصادق الذي كان مؤسِّس المجموعة الإسلامية الليبية المُسلّحة، وهو اليوم، مع الحاسدي، تجسيد ثوّار درنة، والتهديد الإسلامي المُمكِن، في القاعة، وهو يعلم بذلك، ويراه، لكنَّ هذا لم يمنعه من القول بقوّة إنّ فرنسا لم تقُم بما قامت به لتجِد نفسها يوماً مع ديكتاتور أصولي سيكون أسوأ من القذّافي.

وأراقبه، أخيراً، في ساحة الحريّة في بنغازي، يقف على المنصّة التي ألقيت عليها خطاباً في آخر مساء من إقامتي الثانية، قبل أربعة أشهر. كان كاميرون يتكلّم. بينما هو يُحضِّر نفسه لإلقاء خطابه الذي سينتزع من الجمهور، خلال دقائق، صيحات طويلة من السعادة، تقترب من الاختناق أو البُكاء، كان يحبِسها منذ الليل الذي قصفت فيه الطيّارات الفرنسية أوّل

الدبّابات التي كانت تتحضّر لفلْق المدينة. ومن هنا حيث أنا، وراءه في مستوى أدنى من المنصة قليلاً، لاحظتُ مُناورة غريبة فاتت الجمهور وأغلب الصحفيّين: تحت القناع البارد والجامد تقريباً، ويتناقُض مع سحنة الرئيس هذه التي انتهى باتّخاذها، واشتغل عليها، رأيت تقدُّم هذا الحدث الليبي، والرِجل اليُمنى تُحدّد الإيقاع، تهدأ ثمّ تهيج تقريباً، وتُثبِتُ عناداً طفولياً ـ جسَدان في جسَد، جسَدا الملِك المشهوران، حقّاً الجسدان، لكنّهما مُتجسِّدان بالجسم نفسه، ليست هذه أُطروحة كانتوتوفيتش الذي يرى في الجسَد الثاني جسَداً لطيفاً، غير مادّي، لكنّها أُطروحة، وحلّ، ومُتغيِّر مُهِمّ.

طبعاً راقبتُ كاميرون أيضاً. هيئته الشبيهة بالدعاية لأطفال كادوم. وشكله الشبيه بعميل تجاري مُراهق، أو بشكل طالب في جامعة أكسفورد يتسلّق درجات الشهرة. راقبتُهما معاً أمام هذا الظرف الذي لا يُشبههما إلا قليلاً جداً، ومع ذلك أنتجوه. فهما حديثا السِنّ. ثاني البِكْر المُمثَّل بسابِقيهم الذين حاولوا كلّ شيء في التاريخ العظيم. ثاني البِكر في هذا التاريخ الذي هم أوّل من لم يعُودوا يتصِلون به لا بالسيرة الشخصية، ولا فيزيائياً ولا عيشاً. قلت لنفسي: رُبّما كان السِرّ هنا. الفيض الزائد من التاريخ الذي كان يشلّ الآخرين. عجز التاريخ الذي جعلَهما أكثر حريّة، وعوّضاه بالتزامهما هكذا، برأسين مُطأطئين، ودعمهما لثورةٍ عربيّة. ليس في وقتٍ مُتأخِّر كثيراً في عالَم عجوز لكنّه في ريعان الشباب، في عالَم شاب فجأة. وإذاً كان هذا واحداً من مفاتيح السِرّ.

ثّم إنّ هناك ليبيّين طبعاً.

غوقة، ببسمته المتواطئة، وفي ما سبّبه لنفسه من تدافُع لا يوصَف، على مدخل مُتحَف أخطاء القذّافي حيث دُعِيَ ولَدا التاريخ الثانيان ليقِفا دقيقة صمت، بالُقرب من الفيللا الفخمة، وحيث وُلِد المجلس الوطني الانتقالي. قد أكون أخطأت. لكن يبدو لي أنني رأيتُ في هذه الابتسامة المتواطئة شيئاً مّا مثل: «هيّا، سأنسى كلّ شيء...أنا، خطوتكم الخاطئة في القدُس...أنتما، سأنسى البيان الذي تُنكرانِه...»

جبريل. رأيت جبريل يبتسِم. رأيت جبريل سعيداً. رأيتُ زمن هذه الابتسامة، زمن هذه التنهيدة التي يُمثّلها هذا اليوم الليبي، رأيت جبريل المُرعِب (الذي أصرّ، يوم التقائه بكلينتون، على إيجاد مخرج نجدة) وقد تحوّل إلى رفيق بشوش، يُدفَع ويدفع الآخرين، ويُعيد

تثبيت نظّاراته التي كادت تقع، مازحاً، ناسياً سحنة التقني التي كانت ترتسم على وجهه، متوحِّداً بالجمهور.

ثُمّ رأيتُ عبد الجليل. ثمّة صورة، على الأقلّ، لعبد الجليل ليس عندي أيّ استعداد لأنساها. إنّها صورة آخِر ملامح ظهرت على وجهه حينما حملتْه المروحيّة، على ما أعتقد، من المستشفى إلى الأكاديمية العسكرية للنساء في طرابلس. كان جالساً على المقعد الأوسط، أمام الباب المفتوح، مُقابل الفراغ، كان جريحاً، وحيداً. أشار بيده إلى جمهور مُعاصريه الذي كان يرى إقلاع المروحية به، مُجرَّد إشارة، لكنّها أفضل تعبيراً من خطاب طويل عن جلالته المُستعادَة، وسلطته، وعزّة مُحرِّر ليبيا. في تلك اللحظة، جعلني عبد الجليل، مع حفظ الألقاب، أُفكر بأحد الضُبّاط الفرنسيّين حمل لشعبه فكرة أنّه حرّر فرنسا، في حين أنّ كل إنسان كان يعرِف استحالة فِعل أيّ شيء من دون الحلَفاء. ضابط بسيط اسمه دو غول. دوغول من دون النصّ. لكنّ التفاتة هذا الدوغول تذكِّر الجمهور الفرنسي بأنّ الجنرالَين بروسيه ولوكلير، لم يفعلا أقلّ ممّا فعله الأميركيّون.

ماذا سيفعل عبد الجليل، وجبريل، وغوقة، بثورتهم؟

هل سيعرفون كيف يحمونها من مطامع بعض أبنائها الذين بدؤوا يحلمون بالتهامها؟

هل سيعرفون أن يكونوا جيرونديّين حاسمين أم أنّهم سيكونون ريفيّين عرباً، يُزيِّفون حُريّاتهم التي اكتسبوها بثمن كثير من الآلام؟

وهل سوف تُفضي هذه اللحظة من النعمة، هذه المرحلة التي عشناها، إلى انتصارها، أم أنّها سوف تشهد المصير الذي لاقتْه كثيرٌ من الثورات؟

السؤال موجّه للجميع.

وكلّ الحاضرين هنا، قُرب سرير ليبيا الجديدة، يطرحونه على أنفُسهم سِرّاً.

فماذا فعلنا حين أنجزنا هذا، حين كنّا الشاهد والفاعل في هذا الزمن غير المعقول الذي يعيش انتصار ثورةٍ في بلَد مُنسحِب من العالَم العربي؟ هل ننساه؟ هل نُلقيه عن كاهلنا بوصفه مهمّة أُنجِزت بنجاح؟ أم نخلعه خلْعَ لباسٍ من نور؟ أم نُحاول أن نكون على مستوى ما فعلناه، مُعاصرين للحظة الذات هذه، مُخلِصين لوهجها؟

للحدَث أحكام.

والتاريخ يبحث آملاً عن مُمثِّلين.

والتاريخ مليء بأبطال حدثٍ فتّان فقدوا هالَتَهم، وبريقَ التزاماتهم
فلْنكن عند هذا الوعد.
ولْيبقَ كل أولئك الذين حملوه ملتزمين بما فيه من عظَمة.
وَلْيُقدّم الوعدُ مثالاً ـ في كلّ مكانٍ نُقاتل فيه ضدّ الطغيان، وحيث نفتقِد الرجاء.

انتهى يومي. غادرتُ ليبيا، وأنا أُفكر في وجوه مُقاتلي جبال النوبة، المُشوّهة، ومُقاتِلي دارفور، والآنغوليّين الذي التقيت بحياتهم المكسورة، ولم أستطع أن أفعل شيئاً من أجلها. أُفكر بمسعود المقتول بعد أن خذَلتْه فرنسا، وببيغوفيتش اليائس عشية توقيع اتّفاقٍ لعين، في باريس. أفكر بكلّ هؤلاء المهزومين، المُعذّبين في الأرض، وفي الحرب الذين كانت عيونهم، في كولومبيا، وبروندي، وفي أماكن أُخرى، على بنغازي. فمن أجلهم أيضاً دقّت ساعة الثورة الليبيّة. وهي سوف تتحدّث إليهم إذا تركت حظّها لِحُرّيّتها.

الخميس 20 تشرين الأوّل/أكتوبر (موت القذّافي)

هذه صوَر جُثّته. هذا وجهه، الذي ما يزال حيّاً، لكنّه مُغطّى بالدم، ويبدو أنّهم انهالوا عليه لكماً. هذا رأسه المكشوف، المكشوف بغتةً وبغرابة ـ تبيّنتُ أنّه لم يُرَ أبداً إلا مُعمَّماً بغنَجٍ، وأنّ شيئاً مّا مؤثّراً يجعل هذا المُجرِم مُثيراً للشفقة.

كثيراً ما قُلت لنفسي إنّ هذا الرجل وحش. وكثيراً ما استعرضت، طيلة نهاية هذا اليوم، وأعدت استعراض الصوَر الأخرى التي تسكنني منذ ثمانية أشهر، التي هي صُوَر الذين قُتِلوا رمياً بالرصاص جماعياً، والذين عُذّبوا، وشُنِقوا في 7 نيسان/أبريل، وحُبِسوا أحياء وأخرجتهم ثورة شُباط/ فبراير من حبسِهم ومنذئذٍ لم يعودوا خائفين. وكثيراً ما كرّرتُ أنّه كان أمام هذا الميت مائة فُرصة للتفاوض، وإيقاف كلّ شيء، والنجاة بجلده ـ وأنّه إذا لم يفعل هذا، وفضَّل إراقةَ دمِ شعبِه بقدر ما استطاع، فذلك لأنّه، بمعرفة الوقائع، سبق قدَره. وكثيراً ما فكّرتُ بأننا، نحن الأوروبيّين، الذين نشعر بتبكيت الضمير من مجازر أيلول/ سبتمبر من عام 1972، ومن النساء اللواتي جزَّت شعورُهنَّ ساعة التحرير، وموسوليني المشنوق من قدمَيه، المُحقَّر، وعائلة تشاوشيسكو التي قُتلِت كحيوانات شائخة، لسنا في موضع أن نُحمِّل أياً كان عناء دروس عن الإنسانية الثورية.

ما المانع. فعليّ أن أكون نفساً جميلة لا تشفى. خَصْماً لا يُختزل لهذا الشرّ المُطلَق الذي هو الحُكم بالإعدام. لأنّ ثمّة شيئاً، في هذا المشهد، الذي يُثيرني. يجرح في ذاتي غريزة عميقة جداً، شديدة الرسوخ، لا أتوصّل أبداً إلى عقلنتها. قلت هذا لمنصور على الهاتف. ثُمّ لمصطفى الساقزلي، الذي كان في روما، فاتصل بي ليُشاركني فرحته. وحين اتصل بي بشير صبّاح بدوره، من مدينتنا العزيزة مصراطة، ليُمرِّر لي العقيد هاشم، السعيد للغاية هو الآخر، الذي أراد أن يعطيني أولوية قصّة أسر القذّافي («كان يعدُّنا جُرذاناً...لكنّه هو الذي كان كالجرذ، في عُمق المجرور... عناصري المقاتلون هم الذين كشفوه، وأخرجوه من ثُقبه، وحيَّدوه...»)، حاولت أن أقول لهما، هما الاثنين، إنّ نُبل المُنتصِر يُقاس أيضاً بالمصير الذي يُقرِّره للمهزوم: «هل تعرفون الفرق بين قيصر وصلاح الدين؟ الأوّل، الذي انتصر على الغاليِّين، فقد الميزة الأخلاقية لانتصاره بتعذيب خصمه، وعرضه كوسام، وخنقه، بينما، على العكس، يدين انتصار الثاني كثيراً للشهامة التي أظهرها بعد انتصاره على الصليبيِّين، الذين كانوا حينئذٍ تحت رحمته...»

شعرتُ بأنهما يسمعانني. بدا مصطفى، خصوصاً، أنّه يُقاسِمني اضطرابي. أرجو ذلك. أوه! بل أرجوه بالِغ الرجاء. لأنّ هذا أحد أمرَين. فإمّا أن تكون هذه الجريمة المُرتكبة واحداً من الأفعال الأساسية للعهد الذي يُعلِن عن نفسه، وهذا نذير حزين. وإمّا أنها آخر فِعلٍ من العهد البربريّ، وآخر الليل الليبيّ، والجلَبة الأخيرة لمذهب القذّافي الذي كان سيحتاج، قبل أن ينتهي، إلى أن ينقلِب على صانِعه، ويُجرِّعه سُمَّه الخاصّ - وحينئذٍ تُشرق الأزمنة الحديثة. هذا صك اعترافي. إنّه، هذا المساء، أُمنيتي الأغلى.

16/2/2013م
الساعة 5,12 صباحاً
دير قراره دامت اربعة ايام

هوامش

1-من شخصيات رواية البحث عن الزمن المفقود لبروست (م).

2- شاء المؤلّف أن يُدرِج في النصّ محضر الضبط الذي وجّهه له حلف الناتو لأنّه انتهك منطقة الحظر الجوّي حين توجّه دون إذن من بنغازي إلى مصراطة. لذا نورده هنا كما يعرِضه (م).

الفهرس

إشارة.. 5
تصدير.. 7
البابُ الأول: الحَرْب.. 13
الأربعاء في 23 شباط/فبراير 2011 (مشهد صيد في طرابلس).. 15
الخميس في 24 شباط/فبراير (حين تنام الديمقراطيات).. 16
الجمعة في 25 شباط/فبراير (فيما يخصُ الربيع العربيّ).. 17
السبت في 26 شباط/فبراير (كيف دخل القذّافي في حياتي).. 18
الاثنين 28 شباط/فبراير (غداً في بنغازي).. 21
الثلاثاء 1 آذار/مارس (سيارة أجرة إلى لا مكان).. 22
الأربعاء 2 آذار/مارس (على الطريق).. 26
الأربعاء 2 آذار/مارس (جدّي شالوم بن يعقوب).. 29
الأربعاء 2 آذار/مارس آخر النهار (مساء في بنغازي).. 32
الخميس 3 آذار/مارس (حين يعود شيطان الفعل).. 34
الجمعة 4 آذار/مارس (على الجبهة).. 39
السبت 5 آذار/مارس (رؤية ولادة المجلس الوطني الانتقالي).. 44
السبت 5 آذار/مارس (الاستنجاد بنيكولا ساركوزي).. 51
السبت 5 آذار/مارس، آخر النهار (الاتصال الثاني بنيكولا ساركوزي، ونتائجه).. 56
الأحد 6 آذار/مارس (بحثاً عن الجهاديين في درنة).. 58
الاثنين 7 آذار/مارس (ذات صباح، في الإليزيه).. 61
الثلاثاء 8 آذار/مارس (مبعوثو بنغازي).. 68
الأربعاء 9 آذار/مارس (المبعوثون أيضاً).. 68
الخميس 10 آذار/مارس (عندما تعترف فرنسا بليبيا الحُرّة).. 69
الجمعة 11 آذار/مارس (عندما اعتقد رئيس الجمهورية بوجوب تغيير لهجته).. 72
الجمعة 11 آذار/مارس (كما مع اللواء مسعود؟ كما في البوسنة؟).. 74
السبت 12 آذار/مارس (نحو جامعة فرنسية عربية).. 75
الاثنين 14 آذار/مارس (موعد هامّ مع كلينتون).. 76
الثلاثاء 15 آذار/مارس (مُكالمة هاتفية من ساركوزي).. 79
الأربعاء 16 آذار/مارس (مُكالَمة ثانية من الرئيس).. 80
الخميس 17 آذار/مارس (اليوم الأطول، ثلاثة أحاديث مع الرئيس عن الكارثة الوشيكة).. 82
الجمعة 18 آذار/مارس (الحرب؟).. 85
السبت 19 آذار/مارس (فرنسا أنقذت بنغازي).. 86
الأحد 20 آذار/مارس (حيث يظهر أن ليبيا ليست العراق).. 87

الإثنين 21 آذار/مارس (علي ومنصور) 90
الثلاثاء 22 آذار/مارس (وجه ليبيا الحُرّة) 91
الثلاثاء 22 آذار/مارس (الخصومة مع جوبّيه وأسبابها) 91
الخميس 24 آذار/مارس (وزارة الخارجية ...) 95
الجمعة 25 آذار/مارس (الكاتب الشبح، ترجمة محمود جبريل) 98
السبت 26 آذار/مارس (بسرعة، لفتة من إسرائيل) 100
الأحد 27 آذار/مارس (مُكالمة هاتفية جديدة من الرئيس) 102
الاثنين 28 آذار/مارس (ما معنى الديبارديودونيه؟) 103
الخميس 29 آذار/مارس (ظلّ كوشنر) 104
الأربعاء 30 آذار/مارس (لو أنّ كوشنر ما يزال وزير خارجية...) 106
الخميس 31 آذار/مارس (نيوزويك وفرنسا) 107
الجمعة 1 نيسان/أبريل (ماتَ برنار ـ هنري ليفي!) 107
السبت 2 نيسان/أبريل (يهودي مُحرِّض على الحرب) 108
الأحد 3 نيسان/أبريل (سيلين أم شاتوبريّان؟) 109
الاثنين 4 نيسان/أبريل (اللغز أوباما) 110
الأربعاء 6 نيسان/أبريل (الذهاب ثانيةً) 111
الخميس 7 نيسان/أبريل (الذهاب ثانيةً!) 111
الباب الثاني: الأمَل 113
الجمعة 8 نيسان/أبريل (العودة إلى بنغازي) 115
مساء الجمعة 8 نيسان/أبريل (عشاء القبائل) 116
السبت 9 نيسان/أبريل (نحو اتفاقية دايتون ليبية) 121
السبت 9 نيسان/أبريل، تتمّة (المجلس الوطني الانتقالي: مَنْ هو مَن؟ 122
السبت 9 نيسان/أبريل، تتَمّة (اللقاء الثاني مع الرئيس عبد الجليل) 125
السبت 9 نيسان/أبريل أيضاً (دموع اللواء عبد الفتّاح يونس) 129
السبت 9 نيسان/أبريل، نهاية (مكان غريب عجيب من أجل اتصال هاتفي مع ساركوزي) 133
الأحد 10 نيسان/أبريل (رئيس الشباب) 137
الاثنين 11 نيسان/أبريل (تقلّب في بنغازي) 144
الاثنين 11 نيسان/أبريل، تتمّة (مع مُقاتلي اجدابيا) 146
الثلاثاء 12 نيسان/أبريل (نقش أثري مُعادٍ للساميّة) 151
الثلاثاء 12 نيسان/أبريل، تتمّة (طيّارة شارتير تُقل ليبيين إلى باريس) 153
مساء الأربعاء 12 نيسان/أبريل (خطاب على الكورنيش) 154
الثلاثاء 12 نيسان/أبريل، خاتمة (موكبٌ في الليل) 157
الأربعاء 13 نيسان/أبريل (القصّة الحقيقية لالتحاق اللواء يونس بالثورة) 158
الأربعاء 13 نيسان/أبريل، نهاية (منتصف الليل، في الإليزيه) 163

الخميس 14 نيسان/أبريل، (بانهار انتيرميزيو)........ 170
الجمعة15 نيسان/أبريل، (مع رئيس الطيّارين الفرنسيين)........ 173
الخميس 16 نيسان/أبريل، (عمّ يُجيد الرّمي اسمه لانزمان)........ 174
الثلاثاء 19 نيسان/أبريل، (لانزمان ايضاً)........ 176
الأربعاء 20 نيسان/أبريل، (ليبي في باريس)........ 176
الاثنين 21 نيسان/أبريل (القذّافي مُزيِّف عُملة)........ 179
الجمعة 22 نيسان/أبريل (عندما أرسل لي ابن القذّافي سيف، مبعوثاً)........ 179
السبت 23 نيسان/أبريل (وقف إطلاق النار في مصراطة؟)........ 186
الأحد 24 نيسان/أبريل (ما نفع الونزيو؟)........ 187
الاثنين 25 نيسان/أبريل، (الإجابة على مقالة كلود لانزمان)........ 192
الثلاثاء 26 نيسان/أبريل (مع الطيّارين الفرنسيين)........ 194
الأربعاء 27 نيسان/أبريل (نداء القبائل)........ 196
الخميس 28 نيسان/أبريل (سياسة الكتّاب)........ 199
الخميس 28 نيسان/أبريل أيضاً (اعتراف)........ 200
الجمعة 29 نيسان/أبريل، (قارب للذهاب إلى مصراطة)........ 202
الجمعة 29 نيسان/أبريل، أيضاً (يهودي في المغرب)........ 202
الإثنين 2 أيّار/مايو (أتذكر روجيه ستيفان)........ 203
الثلاثاء 3 أيّار/مايو (لا، أبداً ليست العراق بالتأكيد)........ 204
الأربعاء 4 أيّار/مايو (فكرة مُبطّنة)........ 204
الخميس 5 أيّار/مايو (لكي ننتهي من هنتفتون)........ 205
الجمعة 6 أيّار/مايو (كوبّيه وميشيل فوكو)........ 206
السبت 7 أيّار/مايو (وأفريقيا؟)........ 207
الأحد 8 أيّار/مايو (نعم، سوريّة طبعاً)........ 207
الثلاثاء 10 أيّار/مايو (لينين وأفريقيا)........ 208
الخميس 12 أيّار/مايو (عن الحرب الفكرية)........ 208
الأحد 15 أيّار/مايو (أوّل مُكالَمة هاتفية مع عبد الله واد رئيس السنغال)........ 212
الثلاثاء 17 أيّار/مايو (مُكالَمة هاتفية ثانية مع عبد الله واد)........ 217
الخميس 19 أيّار/مايو (ليبيا الحُرّة في داكار)........ 219
الجمعة 20 أيّار/مايو (وصلَ ساركوزي الجديد)........ 221
الأحد 22 أيّار/مايو (القذّافي يخسر أفريقيا)........ 222
الباب الثالث: الورطة........ 225
الأحد 25 أيّار/مايو (السّفَرُ الثاني إلى ليبيا)........ 227
الجمعة 27 أيّار/مايو (قارب إلى مصراطة)........ 228
الجمعة 27 أيّار/مايو، تتمّة (هنا مروحيّات الناتو)........ 232

الأحد 29 أيّار/مايو (أربعون يوماً في الجحيم).. 238
الأحد 29 أيّار/مايو، تتمّة (كيف دمّروا الدبّابات).. 241
الأحد 29 أيّار/مايو، خاتمة (على جبهة عبد الرؤوف).. 244
الاثنين 30 أيّار/مايو (عُطْل كبير في عرض البحر مُقابل ليبيا).. 249
الأحد 30 أيّار/مايو، تتمّة (صُوَر من مصراطة).. 250
الثلاثاء 31 أيّار/مايو (حُكم الوجوه المُسبّق).. 254
الثلاثاء 31 أيّار/مايو، تتمّة (رسالة إلى إسرائيل).. 254
الأربعاء 1 حزيران/يونيو (مُكالَمة من نيكولا ساركوزي).. 256
الخميس 2 حزيران/يونيو (عاصفة في تل أبيب).. 258
الأحد 5 حزيران/ يونيو (وماذا بشأن سورية؟).. 264
الاثنين 6 حزيران/يونيو (اقتراح للرئيس، تسليح مصراطة).. 264
الثلاثاء 7 حزيران/يونيو (ترحيل مُحرّري مصراطة).. 269
الأربعاء 8 حزيران (كلاوزفيتش).. 269
الخميس 9 حزيران (عاش كلاوزفيتش).. 269
الجمعة 10 حزيران (رهاني على مصراطة).. 270
الاثنين 13 حزيران (عندما عبَّر الرئيس عن استعجاله ليستطيع تسليح مصراطة).. 270
الثلاثاء 14 حزيران (كيف أرسل لي القذّافي مبعوثاً جديداً).. 271
الأربعاء 15 حزيران (عندما أعدتُ أنا وعلي زيدان المبعوثَ إلى أسياده).. 283
الأربعاء 15 حزيران يتبع (ومصراطة؟).. 291
الخميس 16 حزيران (هروب إلى طرابلس).. 291
الأحد 19 حزيران/يونيو (مصراطة بعد الظهر).. 292
الاثنين 20 حزيران/يونيو (الميل إلى المفاوضات).. 292
الثلاثاء 21 حزيران/يونيو (إسرائيل والربيع الليبي).. 293
الأربعاء 22 حزيران (من فرانز فانون إلى القذّافي. أشفقوا على أفريقيا ...).. 296
الخميس 23 حزيران/يونيو (أختي كاثوليكية).. 298
الجمعة 24 حزيران/يونيو (في رأس القذّافي).. 298
السبت 25 حزيران/يونيو (وجدتُ المركب).. 300
الخميس 30 حزيران (عندما يحلم الرئيس بصوت عالٍ).. 300
الاثنين 4 تموز (الاجتماع الأول لأجل سورية).. 306
الثلاثاء 5 تموز/يوليو (الإسلامان).. 309
الأربعاء 6 تموز/يوليو (أنا اليهودي في ليبيا).. 309
الأربعاء 6 تموز/يوليو، تتمّة (إسرائيل أيضاً).. 309
الأربعاء 6 تموز، خاتمة (المخرج الأخير للقذّافي).. 310
الخميس 7 تموز/يوليو (هل من مبعوث إلى طرابلس؟).. 310

الجمعة 8 تموز/يوليو (انتصار!)........................ 311
السبت 9 تموز/يوليو (نحو بوسنة! ليبيّة)........................ 311
الأحد 10 تموز/يوليو (رجال مصراطة)........................ 312
الأحد، 10 تموز، يتبع (القارب كان فارغاً)........................ 312
الاثنين 11 تموز/يوليو (إستراتيجية رفيعة)........................ 313
الأربعاء 13 تموز/يوليو (لننتهي من أمر السيادية)........................ 314
الأربعاء 13 تموز، تتمّة (السفرة الرابعة إلى ليبيا)........................ 315
الباب الرابع: النصر........................ 319
الجمعة 15 تموز/يوليو (عفريت السفر)........................ 321
السبت 16 تموز/يوليو (على الطريق مرّة أخرى)........................ 322
السبت 16 تموز/يوليو، تتمّة (على جبهة غواليش)........................ 326
الأحد 17 تموز/يوليو (أشياء رأيناها في جبل نفوسة)........................ 329
الاثنين 18 تموز/يوليو (حيث حدّد، أنه من دون مصراطة، لن يستطيع جبل نفوسة مُحاصرة طرابلس. والعكس صحيح)........................ 335
الاثنين 18 تموز/يوليو، تتمّة (وعلى ما يبدو أنّ الرئيس لم ينسى وعده باستقبال ضباط مصراطة الأحرار)........................ 336
الاثنين 18 تموز/يوليو، أيضاً (هل اقتربنا من الهدف؟)........................ 337
الثلاثاء 19 تمّوز/يوليو (عندما تصل مصراطة، أخيراً، إلى باريس)........................ 337
الأربعاء 20 تموز/يوليو (المواعيد في الإليزيه تتابع، ولا تتماثل)........................ 338
الخميس 21 تموز/يوليو (فَنُهم الحربي وفَنُّنا)........................ 343
الجمعة 22 تموز/يوليو (إلى جبهات مقلوبة مع الرئيس)........................ 345
السبت 23 تموز/يوليو (ألا تكون واثقاً من شيء، ولذلك تلتزم)........................ 347
السبت23تموز/ يوليو، تتمّة («خُلق العالَم كي يُفضي إلى كتابٍ جميلٍ»)........................ 349
الأحد 24 تمّوز/يوليو (كارلوس فيونتز فهم كلّ شيء)........................ 350
الأحد 24 تمّوز/يوليو، تتمّة (وماذا لو عرف ساركوزي أنّ التاريخ مأساويّ؟)........................ 351
الأحد 24 تمّوز/يوليو، تتمّة (ما معنى المأساوي؟)........................ 352
الاثنين 25 تمّوز/يوليو (عندما وعدت طرابلس بمُكافأة لمن يقتلني أو يأسرني)........................ 353
الاثنين 25 تمّوز/يوليو، تتمّة (تنكّرات لورانس)........................ 354
الثلاثاء 26 تمّوز/يوليو، تتمّة (الرحلة الخامسة إلى ليبيا : بُرغم وردتي)........................ 355
الثلاثاء 26 تمّوز/يوليو، تتمّة (ظلّ دييغو بروسيه، الحامي)........................ 361
الخميس 28 تمّوز/يوليو (مَن الذي قتل يونس؟)........................ 364
الجمعة 29 تمّوز/يوليو («عناصر لُغويّة» في ردّة فعل على موت يونس)........................ 365
السبت 30 تمّوز/يوليو (حين طالبتُ بخلَف للواء المقتول)........................ 367
الأحد 31 تمّوز/يوليو (أورويل، بايرون؟)........................ 368
الاثنين 1 آب/أغسطس (حاخام لتواني)........................ 368

اتصلت بعلي في ميونخ؛ حكيتُ له كلَّ ما حدث؛ قال لي علينا ألا نهمل أية إمكانية، أو فرصة للحوار وبأنه جاهز للقائه، لو كان الرجل مازال هنا.

وها نحن، جيرار من جديد، وأنا، وعلي، ومحمد القليوشي، في نفس القاعة الصفراء حيث كنّا البارحة، كانت الأبواب موصدة، وعلى العموم، لم ننتظر كثيراً لنلتقي من جديد...

بدأ الليبيّان، كما فعلنا البارحة، بتصريحاتٍ مازحة.

طرح عليّ على القليوشي أسئلةً أحسستُ أن المقصود منها ليس كسر الجليد بينهما، بل أن يُظهِر للطرف الآخر أنّه يعرف مع من يتعامل (مِن أين أنتَ؟ مِن أيّة مدينة؟ مِن أيّة قبيلة أنت؟ هل تنحدر من تلك القبيلة الكبيرة أو من أفخاذ هذه القبيلة؟ وأبوك؟

أعتقد أنّ أباك كان سفيراً في الصين؟ سمعتُ أنه متقاعد وهو الآن في طرابلس...نعم أم لا؟ وبالمقابل لم يكن متأكداً من هذا السؤال...فأجاب الآخر بعقلانية، وتهذيب، كما لو أنّهما في محضر استجواب، محاولاً أن يرد الصاع صاعَين، ولكنه لم يستطِع إلى ذلك سبيلاً، والواقع أنّ علي كان سيِّد الموقف (تمّت الأمور بمنتهى الصفاء)؛ ولكنني لاحظتُ عند صديقي حِسَّ التهرّب، ومهارة في فن عدم سماع السؤال أو إبعاده بابتسامة ملطِّفة، وإدراك ميزان القوى وحرب التفوُّق التي لم أشكّ بامتلاكه لها).

في ما يتعلّق بقصة حديث التعارف، كان المشهد المسرحي يتصاعد ببُعدٍ هزلي طفيف، لأن بداية تبادل أطراف الحديث كانت بحضور النادل الذي جاء كي يضع الطاولة المستديرة التي وُضِعتْ حولها كراسينا، والواقع أنّ الطاولة كانت صغيرة إلى حدٍّ مُثيرٍ للسخرية، فهي تشبه طاولة سرير غرفة النوم، وكان من المستحيل أن تتّسِع لكلّ المرطّبات، لذا استغرقت هذه العملية عدّة دقائق، وأنّه في هذه الدقائق الطويلة حيث كان يتوجّب أن يكشفوا كنوزاً من البراعة كي يضعوا، ويرفعوا، ويحتفِظوا بزجاجات الكوكا كولا، وأكواب الشاي، والكاجو، وعلبة السكر. وقف النادل بين الرجلين تماماً، حاجباً أحدهما عن الآخر حيث جعلَهما يتكلّمان عبر شاشة كوميدية: كان يجب أن يرفعا صوتيهما، أن يُكرِّرا كلامَهما، وأن يُضاعِفا عدد المرّات التي يقولان خلالها كلمة «عفواً؟»، وعبارة «لم أسمعك». بينما كان النادل، كما لو أنه يفعل ذلك عن قصد (ولكنه ربما يفعلها عن قصد، لأنه أدرك أنّه يتطفّل على لقاءٍ من النوعِ الثالث بين أناس بصحبة سيئة، وقد أسعدته الفكرة)، فيسحب كأساً، ويشكره، ويعيد الأمر مرّة أخرى، واضعاً مِنْفضة بشكل متوازن على طرف صحن، ثمّ يضع زجاجة في

المنفضة، ويُقدِّر أنّ العمل قد أنجز، ويُمعِن في التلكؤ باحثاً عن حلّ، مُراجعاً الأشياء، وهكذا دواليك.

ذهب النادل أخيراً، فاستلمتُ الحديث حينذاك. قلتُ: أُذكِّر بأنّ لا أحد، باستثناء الرئيس ساركوزي، على علم بهذا اللقاء.

زايد جيرار، ليس بدون مبالغة، حول الضرورة المطلقة للسرية، نظراً، لأنّ واحداً منا على الأقل، كما ردَّد البارحة، هو محمد القليوشي، يخاطر بحياته.

أردف علي بلهجة «المحترف» معتقداً أنّ الجولة دامت طويلاً، وطرح السؤال الأول، البسيط جداً، الأبسط ما يكون، ولكنه ببساطة انتهى إلى تضليل الرجل، الذي هو الآن، قبالته.

ـ مَن أنتَ؟

ـ ما معنى هذا الـ «مَن أنا»؟

ـ نعم: من أنتَ؟

ـ أنا محمد القليوشي.

ـ نعم، أعرف، شكراً. سؤالي هو: من يتكلّم اليوم؟ أنت؟ رئيس الوزراء محمودي الذي تعمل كرئيس مكتب عنده؟ أم القذّافي؟

وبما أنّ الآخر كان يرتجف، مُتخبِّطاً في أفكاره، عاد إلى الكلام بالعربية، ثم بالإنكليزية، وجانب السؤال، فقد طرح عليه إذَّاك السؤال الثاني:

ـ سأكون مباشراً أكثر: هل معمر على عِلمْ بهذا اللقاء؟

ـ هذا ليس موضوعنا؟ أجاب مدير المكتب وهو يتقوقع أكثر في كرسيِّه، مع ذعر خفيف في عينيه. قلنا (ملتفتاً إليّ) بأننا لن نتكلم عن مُعمَّر...

ـ خمّنت ذلك أيضاً، وقع عليٌّ من دون أن يترك لي الوقت للإجابة، وثبّت عينيه بالأرض. ولكن هذا لا يمنعني من أن أسألك، كتمهيد لما سنقوله، وليكن واضحاً بأن ما سوف نتحدّث به ليس مصير مُعمّر، لو كان مُعمَّر على عِلْم بذلك.

ـ كنا قد اتفقنا (وهو يتجه دوماً نحوي، مُتضرِّعاً، باحثاً عمّن يَدعمه) على أن نترك مسألة مُعمَّر خارج إطار النقاش.

ـ واضح، كرّر علي أيضاً، دون أن يترك لي وقتاً للإجابة. ولكن هذا لا يمنع من أنّ الحديث لن يكون بنفس اللهجة، ولا بنفس المعنى، لو قلت لي: نعم أو لا مُعمَّر على علم بما نقوم به.

ـ حسناً، أجاب القليوشي أيضاً، بهيئة كئيبة أحلّها محلّ هيئة الذعر التي بدا بها منذ قليل، حسناً....هو على علمٍ، نعم، بالتأكيد..

أخذني علي شاهداً على انتصاره الأوّل:

ـ هه، هو ذا، إنّه تحصيل حاصل. ولكن من الأفضل أن تقوله.

ثمّ أضاف مُتوجِّهاً إلى مدير المكتب:

ـ لا يمكنني حتى أن أتصوّر كيف يمكن أن يتِمّ الأمر بغير هذه الطريقة. احتجَّ الآخر، بلهجة مُخفَّفة: نحن نُدرِك اللعبة إدراكاً تامّاً، ونعرف قواعد هذه اللعبة جيّداً، إذ لا يمكنك أن تكون هنا، من دون موافقة مُعمّر. إلى درجة أنّ...

رفع عينيه أخيراً، ولكن كي يتوجّه إلى جيرار.

ـ لا أحد هنا، يُغامِر بحياته.

ثم التفتَ باتجاه المدير، القليوشي، وقال، لكن بلهجة غدت أبوية تقريباً:

ـ لكنْ دعونا لا نُضيِّع الوقت، من فضلكم. عن أيِّ شيء تريدون أن تتحدّثوا؟

حاول القليوشي أن يصنع لنفسه هالة من التماسك، وبدا أنّه من النموذج الذي يُقاتِل في معركة الفرّ بعد أن ينهزم في أرض مكشوفة، وأخيراً يجد في هزيمته مقاومةً طبيعية، أو عثرةً، ومَوحلةً، يتعلّق بها.

مسألة طرابلس هي: هل تحب بلدك كفاية للتحدُّث معنا بالمسائل الإدارية التي ستطرح بعد الحرب؟

أجاب علي: طبعاً.

ـ وهل ستتحدث عنها مع محمودي؟

ـ بدون أدنى مشكلة، نعم؛ مع محمودي إذا أتى محمودي إليَّ هنا.

ـ بدون إشعار مسبق؟

ـ من دون إشعار مسبق.

ـ ودون أن نطرح مسألة معمر، هل أنت واثق؟

هنا، انفجر علي ضاحكاً.

ـ قطعاً، هذا هوَس!

ـ لا، هذا هام بالنسبة لنا. يجب أن أؤكد لمحمودي بأنّ الموضوع لن يُطرَح.

ضحك علي بقوّةٍ أكبر.

ـ بإمكانك أن تُطمئنَه، نعم، وأكرِّر لك أنَّ هذا مفروغ منه، فأنا أعرف محمودي، هل تعلم ذلك؟

ـ لا، لا أعلَم.

ـ أعرفهُ منذ سِنيّ الدراسة في القاهرة. كنت أعرف أخاه، الذي توفِّي منذ مدّة قصيرة، وأعرف عائلته.

ـ حسَناً.

ـ أعرِف وضعه. وأعرف بناتِ أفكاره. أعرف حتى الطريقة التي يُقطِّب بها، وكيف يقف باستعداد عندما يسمع في التلفزيون، وهو في بيته، اسم مُعمّر...؟

فقد القليوشي تماسُكه، وذُعِر من جديد، وأطلق سؤالَه:

ـ كيف يُمكنك أنْ تعلم ذلك؟

ذكاء، أجاب علي ضاحكاً دائماً، وبطيب خاطر، مخابرات ذكائي الخاصة، هل تعتقد أن غيركم لا يملِك استعلامات خاصة؟

ـ لا، تمتم القليوشي، دائماً بنفس الآلية الدفاعية، ولكن ربما أقل بقليل، لأنه أحسّ مع مزحة المخابرات، بأنه على أرض أكثر انكشافاً.

ـ وزايد علي بالقول: وأعرف مُعمَّرا! أي نعم، أيها الشاب، أعرف معمر، عرفته على الدوام! أنا أعرفه يوم لم تكن قد وُلِدَت بعد. لذلك، أكرر لك: نحن نعرف كلّ قواعد اللعبة.

ـ حسناً، قال مدير المكتب، وقد هُزِمَ بشكل نهائي، أفهم.

ـ شكراً، ماذا تقرِّر إذاً؟ كيف تريد أن تتِمَّ الإجراءات؟

ـ سوف أُحضِر ملفّاً، لو جاء مُعلِّمي إلى باريس، فمَن سوف يُقابِل؟

ـ سيُقابلني من دون شك. أو يُقابِل أحداً آخر. لا يهمّ.

ـ أنت، سيكون ذلكَ أفضل. لأنه... هل تعرف ماذا يقول مُعلِّمي؟

تمايل القليوشي، بينما بقِيَ علي ساخراً: لا، لا أعلم.

يقول: علي زيدان مُختلِف؛ علي زيدان ليس كالآخرين.

تعجب عليّ في الوقت المناسب مأخوذاً بنوبة سعال، ثم بسلسلة من المخْط لا أدري إن كانت من أثر الزُكام أم من نوبة ضحك، أم أنه تكتيك جديد.